

إتحاف أهل الوفا

بتهذيب

كتاب الشفا

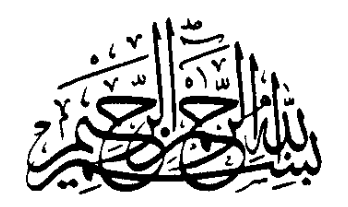
بتعريف حقوق المصطفى ﷺ

للإمام القاضي عياض اليحصبي

تأليف

الشيخ عبد الله بن عبد القادر التليدي

حفظه الله تعالى



﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ﴾ [الجمعة: ٢، ٣].

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم: ٤].

﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

«إنما أنا رحمة مهداة» [حديث صحيح].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، وعلى آله وأصحابه أهل الصفا والوفا.

وبعد: فهذا كتاب وضعته بتوفيق الله تعالى في تهذيب كتاب: «الشفا بحقوق المصطفى» للإمام أبي الفضل القاضي عياض اليحصبي السبتي المغربي.

ونقّيته من كل ما يجب أن يجلّ عنه مقام النبوة الأشرف، ولا ينبغي أن يضاف إلى جنابه المقدس ﷺ. وجعلت بين يدي الكتاب مقدمة هامة تشتمل على النقاط الآتية:

- **شخصية** الرسول الأعظم ﷺ.
- **كلمة** عن تاريخ ما ألف حول الرسول ﷺ عبر العصور.
- **القاضي** عياض، وأقوال المؤرخين فيه، وشيوخه، ومعاصروه، وآثاره.
- **الشفا** وما قيل فيه.
- **منهج** عياض في الشفا، وخلاصة ما أودعه فيه.
- **كلمة** عمّا في الكتاب من ملاحظة.

- جملة من الأحاديث والأخبار الموضوعة والمنكرة وما لا أصل لها، التي ذكرت في الشفا وحذفتها.
- **منهجي في تهذيب الشفا.**

والله المسؤول أن ينفع به كما نفع بأصله، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن يتقبله هديةً مني إلى هذا النبـي العظيم، عليه منه وعلى آله وأصحابه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم.

المؤلف

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، ورضي الله عن آله الطيبين وصحابته الأكرمين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

شخصية الرسول الأعظم ﷺ

كان لشخصية الحبيب المصطفى ﷺ الأثر العظيم في تربية الأجيال من البشرية وتكوينهم وهدايتهم إلى ما يسعدهم.

فلقد تجسدت فيه ﷺ كمالات الكُمّل، وأخلاق العظماء. هذه الشخصية الفذة التي غيرت مجرى التاريخ، وصنعت الأمم، وبنت الحضارات، والتي تداخلت في حياتها وشخصيتها مظاهر البشرية والتربية السامية.

فلسيرته ﷺ، وأخلاقه، وتاريخ جهاده، ومعالم نبوته، ومعجزاته، وفضائله الدور الأول في بناء الإنسان وتوجيهه للخير، وربطه برب الأرض والسماء، وتبصيره بالمفاهيم والحقائق العليا بعد شرودٍ وضياع، وانحرافٍ واعوجاج. وقد تناولتْ هذه الشخصية العظيمة أقلام العلماء عبر الأجيال، وكتبوا في جانبها المجلدات والأسفار، وجمعوا حولها كل ما طاب لهم أن

يجمعوه مما له تعلق به ﷺ؛ فلهم الفضل العظيم على من جاء بعدهم من اللاحقين فجزاهم الله خير الجزاء وأوفاه.

كلمة عن تاريخ ما أُلِّف حول الرسول ﷺ عبر العصور

لقد اهتم المسلمون منذ العصر الأول من فجر الإسلام، واعتنوا بنشر سيرة الرسول ﷺ، وغزواته، وخصائصه، وأعلام نبوته، وأخلاقه، وشمائله؛ بداية من عصر الصحابة رضوان الله عليهم، الذين حفظوا لنا أخبار النبي ﷺ في جميع المجالات، وسيرته الذاتية بكل جوانبها على الخصوص؛ وذلك عن طريق الخبر والرواية والحديث في بادىء الأمر، ثم تبع ذلك مرحلة التدوين والتصنيف.

وكان عبد الله بن عمرو (ت ٦٣)، وعبد الله بن عباس (ت ٦٨)، والبراء بن عازب (ت ٧٤) رضي الله تعالى عنهم ممن عرفوا بتخصصهم ـ دون سائر الصحابة ـ في الحديث بغزوات النبي ﷺ وتدريسها للناس...

ثم جاءت مرحلة التابعين، فنجد: عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنهما (ت ٩٢، ٩٣) يؤلف كتابًا في مغازي رسول الله ﷺ، ويتلوه أبان بن عثمان رضي الله تعالى عنهما (ت ١٠٥)، ووهب بن منبه رحمه الله تعالى (ت ١١٠)، وابن شهاب الزهري رحمه الله تعالى (ت ١٢٤)، فلكلٍّ منهم كتاب «المغازي».

ثم يتلوهم موسى بن عقبة رحمه الله تعالى (ت ١٤١) فألف «الغزوات النبوية»، وهي أهم المغازي؛ كما قاله مالك والشافعي رحمهما الله.

ثم يأتي بعد هؤلاء إمام أهل المغازي: محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى (ت ١٥١) فجمع لنا كتابه الكبير: «السيرة النبوية» مستوعبًا لذلك.

ثم يتلوه محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧) فيؤلف «المغازي».

ثم يتبعه كاتبه الإمام محمد بن سعد (ت ٢٣٠)، فيضع كتابه العظيم، المعروف بـ «طبقات ابن سعد» فيخصص فيه جناحًا لغزوات رسول الله ﷺ وشمائله وأخلاقه.

وعبد الملك بن هشام، هو الآخر (ت ٢١٣، ٢١٨) الذي اختصر سيرة ابن إسحاق وهذبها وزاد عليها زيادات تكميلية.

ثم جاء عصر التدوين العام للحديث النبوي الشريف فكتبت فيه: الجوامع، والسنن، والمسانيد... أوردوا في غضونها الكثير الطيب من ذلك.

وخصصوا للجانب النبوي العزيز ــ ممن ألف على الكتب والأبواب والموضوعات ــ أجنحة خاصة، وكتبًا، وأبوابًا، ضمّنوها ما جاء في سيرة الرسول الكريم وحياته ﷺ، وغزواته، وفضائله، وأخلاقه، ودلائل نبوته.

فهذا البخاري رضي الله تعالى عنه (ت ٢٥٦) يترجم في صحيحه لكتاب «المناقب»، وكتاب «علامات النبوة»، وكتاب «المغازي» فيذكر فيها كل ما جاء على شرطه من الأحاديث النبوية في ذلك.

وتلميذه مسلم رضي الله تعالى عنه (ت ٢٦١) له في صحيحه: كتاب «الفضائل»، و «الجهاد والسير»، أورد فيها أحاديث كثيرة تتعلق بجانب النبي ﷺ.

وهكذا أبو عيسى الترمذي رضي الله تعالى عنه (ت ٢٦٩) له: كتاب «المناقب» آخر «جامعه»، و «شمائله المفردة» التي سارت بها الركبان.

وباقي أصحاب السنن: أبو داود (ت ٢٧٥) والنسائي (ت ٣٠٣)، وابن ماجه (ت ٢٧٣) رضي الله تعالى عنهم، قد رووا جمهرة ضخمة من

الأحاديث والآثار في المعجزات والخصائص، مفرقة في كتبهم.

وفي المسند للإمام أحمد رضي الله تعالى عنه (ت ٢٤١) ما يزيد على مائتي حديث في ذلك، ترجم لها الشيخ البنا رحمه الله تعالى في «الفتح الرباني»... وهكذا لم يخل كتاب من كتب السنة من الروايات في هذا الباب.

ثم إلى جانب هذا نجد الذين استوعبوا المعجزات والخصائص والشمائل، وقصدوا إلى جمعها كثيرين، ابتداء من المائة الثالثة: «كأعلام النبوة» لأبي داود السجستاني، ولابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦)، و «دلائل النبوة» لأبي بكر الفريابي (ت ٣٠١)، و «شرف المصطفى» لأبي سعيد عبد الرحمن النيسابوري (ت ٣٠٧)، و «دلائل النبوة» لثابت السَّرقُسْطِي (ت ٣١٣)، و «أعلام النبوة» لعبد الرحمن بن فُطَيْس القرطبي (ت ٤٠٢)، و «دلائل النبوة» لأبي نعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠)، و «دلائل النبوة» للبيهقي (ت ٤٥٨)، و «أعلام النبوة» لأبي عمر يوسف بن عبد البر القرطبي (ت ٤٦٣) و «دلائل النبوة» لأحمد بن عمر بن الحارث المرِّي الدلائي (ت ٤٧٨)، و «دلائل النبوة» للماوردي (ت ٥٠٠)، و «شفاء الصدور في أعلام نبوّة الرسول» لأبي الربيع سليمان بن سبع السبتي (ت ٥٢٠)، و «الشفا بتعريف حقوق المصطفى»، وهو كتابنا هذا الذي نحن بصدد تهذيبه للقاضي عياض اليحصبي السبتي (ت ٥٤٤)، و «الوفا في فضائل المصطفى» لابن الجوزي (ت ٥٩٧)، و «الآيات البينات في المعجزات» لابن دحية السبتي (ت ٦٣٣) و «الخصائص النبوية» لأبي يوسف بن مسدي الغرناطي (ت ٦٦٣)، و «بداية السول في خصائص الرسول» لابن عبد السلام (ت ٦٦٠)، و «غاية السول في خصائص الرسول» لابن الملقن (ت ٨٠٤) و «الأنوار بخصائص النبي المختار» للحافظ ابن حجر

(ت ٨٥٣)، و «الخصائص والمعجزات» للحافظ السيوطي (ت ٩١١)، و «المواهب اللدنية» للقسطلاني (ت ٩٢٣)، وهو كتاب عظيم جامع للموضوع. إلى آخر الجريدة الطويلة.

وهذا بالإضافة إلى ما ذكر في بطون التواريخ: كابن جرير الطبري (ت ٣١٠)؛ ومحيي الدين النووي (ت ٦٧٦) فقد ذكر في «تهذيب الأسماء واللغات» أكثر من خمسين معجزة وكثيرًا من الخصائص؛ وأبي الفداء ابن كثير (ت ٧٧٤)، فقد خصص من كتابه «البداية والنهاية» قسمًا خاصًا للسيرة النبوية ودلائل النبوة والشمائل المحمدية.

وهكذا تتابعت المسيرة في هذا المجال، فلا يحصى مَنْ كتب في هذا الموضوع من السابقين واللاحقين حتى عصرنا هذا.

القاضي عياض

والقاضي عياض هو: أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي الأندلسي الفاسي السبتي. كان أسلافه بالأندلس، ثم رحل جده عمرو، أو عمر إلى مدينة فاس. ولما دخل بنو عبيد المغرب انتقل إلى مدينة سبتة، وكان رجلاً موسرًا؛ فاشترى بها أرضًا وبنى عليها دارًا ومسجدًا جعله وقفًا ــ وهو الآن كنيسة ــ.

وبسبتة ولد عياض ونشأ وشب وشاب، وبها حفظ القرآن بعدة قراءات، وقرأ العلوم العربية والأدبية، وعلم الكلام، والفقه، والأصول. ثم رحل إلى الأندلس فأخذ عن أعلام قرطبة، ولازم أبا علي الصدفي الحافظ بمرسية، وسمع عليه كثيرًا. وحمل عن عدد كبير من جلة شيوخ العلم والرواية في الأندلس. ثم رجع إلى بلده فولي قضاءها للمرابطين، كما ولي لهم قضاء غرناطة ما يقارب سنة، ثم رجع لسبتة ليتولى قضاءها مرة ثانية.

ولما تولى الموحدون المغرب والأندلس بايعهم، ثم ما لبث أن قاد

الثورة مع أهل بلده سبتة سنة ٥٤٣ على نظام الموحدين، وقتلوا من كان بها من الموحدين وحرقوهم بالنار، فسارع عبد المؤمن فحصر سبتة ثم دخلها؛ فراجع أهلها طاعته وجاءوا إليه تائبين، فعفا عنهم وعن القاضي عياض، ثم أخذه معه إلى مراكش وأمره بسكناها. وبقي بها إلى أن وافاه أجله المحتوم عام ٥٤٤ مغرَّبًا عن وطنه، رحمه الله تعالى وإيانا رحمةً واسعةً.

أقوال المؤرخين في عياض وما حلّوه به من أوسمة

ترجم القاضي عياضَ الكثيرُ من المؤرخين، كولده محمد في تأليف خاص به، وتلميذه ابن بشكوال في «الصلة» وابن الأبار في «معجمه» وفي «التكملة»، وابن الخطيب في «الإحاطة». وعلى هؤلاء اعتمد من جاء بعدهم كالنووي في «تهذيب الأسماء واللغات»، وابن خلكان في و «فيات الأعيان»، والذهبي في «تذكرة الحفاظ» وفي «سير الأعلام» وفي «العبر»، وابن كثير في «البداية والنهاية»، وابن فرحون في «الديباج»، والمقري في «أزهار الرياض»، والكتاني ابن جعفر في «سلوة الأنفاس»، وابن مخلوف في «شجرة النور»، وعبد الحي الكتاني في «فهرس الفهارس»، وغيرهم مما يطول. وكلهم متفقون على إمامته وحفظه...

وإلى القارىء بعض ما قالوا فيه:

قال ولده: وكان من أئمة الحديث في وقته، أصوليًا، متكلمًا، فقيهًا، بصيرًا بالأحكام، نحويًا، ريانًا من الأدب، شاعرًا مجيدًا، بليغًا خطيبًا، حافظًا للغة والأخبار والتواريخ...

وقال تلميذه خلف بن بشكوال: وعني بلقاء الشيوخ والأخذ عنهم. وجمع من الحديث كثيرًا، وله عناية كبيرة به، واهتمام بجمعه، وتقييده.

وهو من أهل العلم والتفنن والذكاء والفهم، استقضى بسبتة مدة طويلة، حمدت سيرته فيها.

وقال ابن الأبار في «معجم أصحاب الصدفي»: المحدث الحافظ الحافل... قال: وكان لا يُدرك شأوه ولا يُبلغ مداه في العناية بصناعة الحديث، وتقييد الآثار، وخدمة العلم، مع حسن التفنن والتصرف الكامل في فهم معانيه، إلى اضطلاعه بالأدب، وتحققه بالنظم والنشر، ومهارته بالفقه. قال: وبالجملة، فكان جمال العصر، ومفخرة الأفق، وينبوع المعرفة، ومعدن الإفادة، وإذا عُدَّت رجالات الغرب فضلاً عن الأندلس حسب فيهم صدرًا.

وقال ابن الخطيب في «الإحاطة»: القاضي الإمام المجتهد. ثم نقل ما ذكرناه عن ولد القاضي.

وقال النووي في «تهذيب الأسماء واللغات»: عياض، الإمام المالكي... وهو إمام بارع متقن. متمكن في علم الحديث، والأصولين، والفقه، والعربية. وله مصنفات في كل نوع من العلوم المهمة...

وقال ابن خلكان: هو إمام الحديث في وقته، وأعرف الناس بعلومه، وبالنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم...

وقال عنه الذهبي في «السير»: الإمام العلاَّمة الحافظ الأوحد، شيخ الإسلام، القاضي أبو الفضل عياض. قال: واستبحر من العلوم، وجمع وألف، وسارت بتصانيفه الركبان، واشتهر اسمه في الآفاق...

وقال في «تذكرة الحفاظ» العلاَّمة، عالم المغرب... الحافظ.

وقال في «العبر»: ... والقاضي عياض... العلاَّمة... أحد الأعلام.

وقال ابن كثيرة في «البداية والنهاية»: . . . أحد مشاهير المالكية . . . وكان إمامًا في علوم كثيرة، كالفقه واللغة والحديث والأدب وأيام الناس.

وقال ابن العماد في «الشذرات»: العلاَّمة . . . الحافظ، أحد الأعلام.

وقال السخاوي: أعرف الناس في وقته بعلوم الحديث، وبالنحو واللغة وكلام العرب . . . إلخ.

وقال ابن مخلوف في «شجرة النور»: الشيخ الإمام، قاضي الأئمة، وشيخ الإسلام، وقدوة العلماء الأعلام . .

وأقوال المؤرخين في مدحه والثناء عليه كثيرة جدًّا.

شيوخ عياض ومعاصروه من العلماء

وله مشايخ كثيرون ضمَّنهم فهرسته الغنية وهم نحو مائة شيخ.

من أشهرهم: الحافظ أبو علي الصدفي (ت ٥١٤)، والحافظ أبو علي الجياني (ت ٤٩٨)، والمازري (ت ٥٣٠)، والقاضي أبو بكر ابن العربي (ت ٥٤٣) في آخرين. ومن أشهر من عاصره من علماء الشرق والغرب أبو حامد حجة الإسلام الغزالي (ت ٥٠٥)، ومحمود الزمخشري (ت ٥٣٨)، والشيخ عبد القادر الجيلاني (ت ٥٦١)، وأبو النجيب السهروردي (ت ٥٦٣)، وأبو العباس بن العريف (ت ٥٣٦)، وعلي بن حَرَازِم (ت ٥٥٩) في آخرين.

آثار عياض

وله آثار وتآليف رائقة، منها: «الإكمال في شرح مسلم» كمل به كتاب «المعلم» للمازري، وهو عمدة النووي في شرحه لمسلم. . وقد طبع في تسع مجلدات مؤخرًا.

ومنها: «مشارق الأنوار في غريب الموطأ والصحيحين». وفيه يقول ابن الصلاح:

مشـــارق أنـــوار تسنـــت بسبتـــة　　　وذا عجب كون المشارق بالغرب

ومنها: «الشفا بحقوق المصطفى» الذي سنفرد الكلام عليه قريبًا.

ومنها: «الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع»، وهو من مصادر ابن الصلاح في علوم الحديث.

وله غير ذلك..

ولتضلعه من العلوم وتبحره واطلاعه وتحقيقاته؛ اعتمده أكابر من جاء بعده من العلماء والحفاظ، ونقلوا كلامه، واحتجوا به.

الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ

من أحسن كتب القاضي عياض رحمه الله «**الشِّفا**» ذلك الكتاب العظيم الذي لم يؤلف في الإسلام مثله، والذي هو أجمع كتاب في فضائل نبينا ﷺ، ومعجزاته، وشمائله، وحقوقه، وجميع ما يتعلق به ﷺ؛ فهو كتاب حافل عظيم الفائدة.

وقد انتفع به الناس، وعكف على قراءته والرجوع إليه كل الطبقات، وعم المشارق والمغارب، ولا تخلو مكتبة عالم منه.

كما اعتنى الناس بشرحه وتخريج أحاديثه واختصاره، فله أكثر من ثلاثين شرحًا ما بين مطول ومختصر، من أشهرها ــ المطبوعة ــ: شرحه لعلي القاري، والخفاجي، والشمني...

كما خرج أحاديثه جماعة، من أشهرهم: الحافظ السيوطي الذي له «مناهل الصفا» ــ طبع مرارًا ــ وقد فاتته بعض أحاديث استدركتها في التخريج، كما بيض لنحو ثلاثين حديثًا لم يجدها، وفي بعض تخاريجه نوع من تقصير.

ومن أشهر مختصرات الشفا: اختصاره للأستاذين الجليلين جمال الدين سيروان، ونور الدين قره علي لكنهما أوردا ــ تبعًا للقاضي ــ بعض الأحاديث الموضوعة، وكثيرًا من الضعيفة، كما عزيا بعض الأحاديث للصحيح وليست فيه، وأبقيا كذلك أقوالاً لا مستند لها، ولسنا بصدد بيان ذلك هنا، فقد يكون له موضع آخر.

هذا وقد أثنى على «الشفا» كثير من الأعلام والعلماء والحفاظ.

قال ابن خلكان: وكل تواليفه بديعة.

وقال ابن فرحون في «الديباج»: . . . أبدع فيه كل الإبداع، وسلَّم له أكفاؤه كفاءته فيه، ولم ينازعه أحد في الانفراد به، ولا أنكروا مزية السبق إليه، بل تشوفوا للوقوف عليه، وأنصفوا في الاستفادة منه، وحمله الناس وطارت نسخه شرقًا وغربًا.

وقال الذهبي في «السير»: وتواليفه نفيسة، وأجلها وأشرفها كتاب «الشفا». . . وقال في «العبر»: وصنف التصانيف البديعة.

وقال ابن العماد: وصنف التصانيف البديعة، ومن مصنفاته «الشفا» الذي لم يسبق إلى مثله.

وقال سيدي محمد بن جعفر في «الرسالة المستطرفة»: هو كتاب عظيم النفع، وكثير الفائدة. لم يؤلِّف مثله في الإسلام، وقد جربت قراءته لشفاء الأمراض المزمنة وتفريج الكروب، ودفع الخطوب.

وقال بعضهم: كانت الشمس تطلع على الناس من المشرق وتغرب في الغرب، وجاءنا نحن أهل المشرق شمسٌ أخرى من المغرب الأقصى وهي كتاب «الشفا» لعياض.

منهج القاضي عياض في الشفا

جعل القاضي رحمه الله تعالى كتابه «الشفا» أقسامًا أربعة، تحت كل قسم عدة أبواب، وفي كل باب فصول[1]. وفي غضون كل فصل ما يطرب القارىء من نفائس الأبحاث المعززة بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وأقوال الأئمة، والعلماء من مفسرين ومحدثين وفقهاء ومتكلمين وأصوليين...

ونستطيع أن نجمل للقارىء ونلخص له ما بسطه المؤلف في السطور الآتية:

ففي القسم الأول: ذكر قدره ﷺ وعظمته، وما أثنى الله به عليه ومدحه، وما شرفه به من خصائص وفضائل ومعجزات.

وأوْرَد في هذا القسم جملة من الأقسام القرآنية التي أقسم الله بها في حقه ﷺ. ثم فصَّل ما احتوت عليه سورة الفتح والنجم والضحى من فضائله وعلو منزلته. ثم ذكر صفاته خَلْقًا وخُلُقًا، بداية من شرف نسبه... ثم جوامع كلمه. ثم أخلاقه، كحلمه وعفوه وجوده وشجاعته وحيائه وحسن عشرته ورحمته وحسن عهده وتواضعه وأمانته، وصدق لهجته وعفته ووقاره ومروءته وزهده وخوفه من ربه. ثم ذكر أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم كلهم متفقون على الاتصاف بهذه الكمالات البشرية.

ثم أردف ذلك بما خصه الله عزَّ وجلّ به من خصائص وفضائل، كحادث الإسراء، تلك المعجزة العظمى الفريدة، والحوض، والمحبة، والخلة، والشفاعة العظمى، والمقام المحمود والوسيلة، والكوثر، وما أعطاه من الأسماء، وما خص به من تسميته ببعض أسماء الله الحسنى.

---

(١) وهي نحو من مائة وأربعين فصلاً.

ثم ذكر ذيلاً لهذا وبيَّن فيه مقام الألوهية، وأنه تعالى لا يشبه أحدًا من خلقه، وأنه منزه عن ذلك ذاتًا وصفاتٍ وأفعالاً. ثم ختم هذا القسم بما أجرى الله تعالى على يديه وما منحه من الآيات والمعجزات. وتكلم على النبوة والرسالة والوحي والمعجزة. ثم أورد المعجزات، فبدأ بمعجزة القرآن الخالدة وذكر ما فيه من أنواع الإعجاز. ثم تابع ذلك بمعجزة انشقاق القمر، ونبع المياه، وتكثيرها ببركته، وتكثير الطعام، والبركة فيه. ثم معجزة كلام الشجر، وشهادتها له. ثم حنين الجذع. ثم معجزة إحياء الأموات. ثم إجابة دعواته. ثم انقلاب الأعيان مما مسه أو باشره.

ثم ذكر جملة واسعة مما أخبر به من المغيبات، وهو من النفاسة بمكان. ثم عصمته من الناس. . ثم ما ظهر من الآيات عند ولادته ورضاعه. وما أخبر به عن نبوته الأحبار والرهبان.

وهنا انتهى القسم الأول من الكتاب، وقد أخذ منه النصف.

أما القسم الثاني فيشمل: ما يجب على الأنام من حقوقه ﷺ: كالإيمان به، ووجوب طاعته واتباع سنته، وضلال من خالف أمره وهديه.

ثم لزوم محبته وثواب ذلك، وما ورد عن السلف في هذا الصدد، ووجوب مناصحته وتعظيمه وتوقيره وبره ﷺ واحترامه حيًّا وميتًا، وكيف كان الصحابة والسلف معه ومع حديثه، ثم وجوب توقير آله وذريته وزوجاته وصحابته واحترامهم وبرهم وتعظيمهم، وإكرام مشاهده وأمكنته ﷺ.

ثم وجوب الصلاة عليه ﷺ، وبيان مواضعها، وكيفيتها، وصيغها. ثم فضلها ووصولها إليه. ثم ذم الغافلين عنها. ثم الكلام في الصلاة على غيره استقلالاً. ثم زيارة قبره، وحكمها وآدابها. ثم فضل الحرمين الشريفين، وذكر المنبر والقبر والروضة وما يتبع ذلك.

أما القسم الثالث: فأورد فيه: ما يجب اعتقاده فيه ﷺ، وما يستحيل في حقه، وما يجوز، وما يمتنع، أو يصح من الأحوال البشرية أن يضاف إليه. وافتتح ذلك ببيان أنه وسائر الأنبياء بشر، يطرأ عليهم ما يطرأ على البشر، وأن الله تعالى جعلهم وسائط بينه وبين خلقه، وأعطاهم من الصفات الروحانية ما يؤهلهم لملاقات سكان الملأ الأعلى من الملائكة، كما جعل لهم صفات يواجهون بها البشر. ثم ذكر أن الأنبياء، ومنهم نبينا ﷺ كانوا على غاية من المعرفة بالله والعلم به وبصفاته والإيمان به، ووضوح العلم واليقين والعصمة من كل ما يضادها من وقت نبوّتهم حتى مماتهم.

ثم تكلم على عصمة الأنبياء قبل النبوة وبعدها، وخاصة فيما سبيله البلاغ من الأقوال ثم أجاب عن مطاعن وشبهات تعلق بها بعض الملحدين وأعداء الدين فذكر منها قصة الغرانيق وأبطلها، ورد على من صحح ما جاء فيها... وفندها. ثم بين إخباره عن أمور الدنيا، وأحوال نفسه ﷺ. ثم أجاب عن بعض الأحاديث التي استشكلها من لم يهتد لحلها.

ثم تكلم على عصمة الأنبياء في جوارحهم من كبار الفواحش، وكتم الرسالة، والتقصير في التبليغ، وانجر ذلك للكلام على الصغائر، هل يجوز صدورها منهم أم لا؟ ورجح عدم الوقوع مطلقًا، ثم أبطل القول بالجواز، وأجاب عن الآيات والأحاديث التي توهم الجواز فأجاد وأفاد.

ثم بين أن الأنبياء وغيرهم سواء في عدم المؤاخذة على السهو والنسيان. ثم ألحق الملائكة عليهم السلام بالأنبياء في العصمة، ورد ما جاء من الخرافات في قصة هاروت وماروت.

ثم رجع للكلام على ما يطرأ على الأنبياء من العوارض البشرية، وأنهم كباقي البشر يجوعون ويعطشون، ويلحقهم الغضب والحزن والفرح والإعياء والضعف، ويمرضون ويتداوون، وقد يصابون بالسحر، ويؤثر فيهم السم

والعين بإذن الله تعالى ويُؤذَوْن من طرف الخلق بالسباب والضرب والقتل.

ثم رد على من طعن في حديث سحره ﷺ من أهل الزيغ والبدعة، وأجاب عن ذلك بما يدل على أن مثل ذلك لا يؤثر في عصمته ﷺ، وفي هذا الصدد ذكر قصة طلاق زيد بن حارثة زينب وتزوجه ﷺ بها، ورد على من نسب إليه في ذلك ما يجل عنه ولا يليق بجنابه المقدس.

ثم تكلم على حديث أمره ﷺ بإحضار كتاب ليكتب لهم عند موته، وتنازع الصحابة في ذلك، وأجاب عنه بما لا يبقى لطاعن ولا رافضي حجة على مدعاه.

كما أجاب عن حديث سبه ولعنه ﷺ لبعض أصحابه، وعن حديث «بئس أخو العشيرة» وأن ذلك لا يخدش في عرضه ولا دينه. في أحاديث أخرى.

ثم ختم هذا القسم بالسر والحكمة في ابتلاء الأنبياء، وإجراء الأمراض وشدتها عليهم. وهو بحث هام ممتع، يحمل بشارة رائعة لكل مؤمن مبتلى في نفسه وأهله وماله.

أما القسم الرابع: وهو مسك ختام الكتاب، فأفرده لمن تنقّص النبي ﷺ أو سبّه، وما يتبع ذلك من سب الله، وأنبيائه، وملائكته، وأهل بيت النبي ﷺ، وزوجاته، وصحابته صلوات الله وسلامه عليهم جميعًا.

وصرد ما هو سب أو نقص من نص أو تعريض، وأن كل من سبه أو عابه أو ألحق به نقصًا في نفسه أو نسبه أو دينه، أو شبّهه بشيء على طريق السب أو الإزراء، سواء كان قاصدًا أو غير قاصد كان كافرًا، يجب قتله بإجماع المسلمين، كمن كذبه أو كذب ما جاء به، ولا فارق. ثم ذكر أدلة ذلك.

وأجاب عن الأحاديث الواردة في عدم قتله من كان يؤذيه أو يسبه في حياته. ثم بين حكم من أتى في كلامه بمجمل من القول مما فيه احتمال، وأن ذلك يُرجع فيه إلى اجتهاد الحاكم، وأنه يجب تأديب من صدر منه ذلك، كمن يؤدب من ذكره مستشهدًا به على نقص ناله ونحو ذلك، كمن قيل له: إنك راعي غنم، فيقول: إن رسول الله كان يرعى الغنم؛ فهذا يجب تأديبه.

ثم ذكر ما تجوز حكايته مما قيل فيه من سب أو نقص مع حكاية ما يجوز عليه من الأعراض البشرية، لكن مع التوقير والتعظيم له ﷺ، ثم بين ما قاله العلماء وحكموا به في هذا المجال... من سب وإذاية، وعقوبته واستتابته ووراثة ماله وتوبته.

ثم ختم القسم بحكم من سب الله أو نفى وجوده أو ربوبيته له، أو سب ملائكة الله أو أنبياءه أو كتبه أو كذب بشيء من ذلك أو نفاه.

وبين ما هو عند العلماء من المقالات كفر، وما اختلف فيه، أو توقف في حكمه.. وهو بحثٌ هامٌ جدًّا ينبغي الاهتمام به.

ثم ختم الكتاب بحكم سابّ آل البيت وأمهات المؤمنين وصحابة رسول الله ﷺ وعليهم من الله الرضوان أجمعين.

كلمة عمّا في الكتاب من ملاحظة

غير أن الذي يلفت الأنظار كثيرًا ــ ويقلق القارىء للشفا ويلاحظ عليه وعلى مؤلفه ــ هو ما أودعه فيه من أحاديث موضوعة ومنكرة، وما لا أصل لها، فضلاً عن الضعيفة، مع أقوال وآراء باطلة لا مستند لها؛ الأمر الذي ترك الحافظ الذهبي يقول قولته المشهورة في الشفا، حيث قال في «سير أعلام النبلاء»: أجلّ مؤلفاته وأشرفها الشفا لولا ما حشاه بالأحاديث المفتعلة، عمل إمام لا نقد له من فن الحديث ولا ذوق... والله يثيبه على حسن قصده، وينفع بشفائه، وقد فعل. وكذا فيه من التأويلات البعيدة... إلخ.

وقد صدق فيما قال، فالاعتراف بالحق فضيلة، فقول شيخ شيخنا سيدي محمد بن جعفر رحمه الله تعالى في الرسالة المستطرفة: ولم ينصف الذهبي في قوله: (إنه محشو بالأحاديث الموضوعة والتأويلات الواهية الدالة على قلة نقده، مما لا يحتاج قَدْرُ النبوة له.. فإنه تحامل منه لا ينبغي، كما قاله غير واحد... إلخ). هو كلام غير سديد، والله يغفر للجميع ويرحمهم.

نعم ذلك لا يضع من جلالة وقدر الشفا ومؤلفه؛ فإنه قد يكون له عذر أو أعذار في إيراد ما ذكره؛ حيث إنه **أولاً**: ذكر ذلك تقليدًا منه لغيره، كالخطيب ابن الربيع سليمان بن سبع في كتابه شفاء الصدور. والكاتب قد يتكاسل أحيانًا عن البحث والمراجعة، فيعتمد على غيره، فيقع في الخطأ. وهذا يقع كثيرًا للمؤلفين والكتاب من جميع طبقات أهل العلم، من مفسرين، ومحدثين، وفقهاء، ومتصوفة، وأدباء، ومؤرخين... والأمثلة على ذلك كثيرة كما لا يخفى على من له أدنى اطلاع.

ثانيًا: إن أكثر العلماء جروا على الترخيص في العمل بالأحاديث الضعيفة في الفضائل... وقد يبالغون فيذكرون الموضوعات... إما خطأ أو تقليدًا من اللاحق للسابق. ولذلك كان التقليد في كل شيء، وبالأحرى في العلم مذمومًا، لا ينبغي لأهل التحقيق سلوكه بحال.

وهذه جملة من الأحاديث والأخبار الموضوعة والمنكرة وما لا أصل لها التي ذكرت في الشفا

وإتمامًا لفائدة القارىء أشير هنا لبعض ما أودعه القاضي في شفائه من الأخبار الساقطة الباطلة، والتي حذفت جميعها من تهذيبي للكتاب، وهي نحو من مائة وخمسين حديثًا فأكثر، وهي كالآتي باختصار.

في الباب الأول من القسم الأول: قال ابن الكلبي: كتبت للنبي ﷺ خمسمائة أم... إلخ: (موضوع). حكى أن النبي ﷺ قال لجبريل عليه السلام هل أصابك من هذه الرحمة شيء... إلخ: (لا أصل له). عن جعفر الصادق في قوله تعالى: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ [الواقعة: ٩١]، أي: سلامتهم من أجل كرامة محمد ﷺ: (هو غريب شاذ). قول عمر: من فضيلتك عند الله الكلام بطوله: (لا أصل له). تفسير (يس) بالنبي ﷺ: (لا أصل له). تفسير النجم إذا هوى، والفجر.. إلخ بالنبي ﷺ: (كلاهما باطل، من التفسير البدعي). قول الكلبي في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾ [الصافات: ٨٣]، أي: إن من شيعة محمد لإبراهيم: (هو تفسير باطل منكر يخالف سياق القرآن).

وفي الباب الثاني: بني الدين على النظافة: (لا أصل له) مع شهرته على الألسنة. ابتلاع الأرض ما يخرج منه: (موضوع). قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: ما رأيت فرج رسول الله ﷺ قط: (لا أصل له). كان يرى في الظلمة كما يرى في الضوء: (موضوع). لما كلم الله موسى عليه السلام كان يبصر النملة على الصفا (موضوع). مات حتف أنفه: (لا أصل له). أنا أفصح العرب: (لا أصل له). كانت روحه ﷺ نورًا بين يدي الله تعالى قبل أن يخلق آدم بألفي عام: (موضوع). كان في أهله لا يسألهم طعامًا: (لا أصل له). ويخالفه ما في الصحيح: «أنه كان يسألهم ذلك».

ولد باسطًا يديه إلى الأرض رافعًا رأسه إلى السماء: (موضوع). أن رجلاً أتى النبي ﷺ يسأله، فاستسلف نصف وسق... إلخ: (لا أصل له). كان من حيائه لا يثبّت بصره في وجه أحد: (لا أصل له). إن الله أمر السماء والأرض أن تطيعك: (موضوع). تفسير قوله تعالى: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير: ٢١]، قال أكثر المفسرين على أنه محمد ﷺ: (هو غلط، بل أكثر

المفسرين أنه جبريل؛ فالقول الأول شاذٌّ، انظر: الطبري وابن كثير والرازي والقرطبي والألوسي...). لم يمتلىء جوف النبي ﷺ شبعًا قط: (لا أصل له بهذا اللفظ، وقد شبع مرارًا). المعرفة رأس مالي: (موضوع). بكى داود حتى نبت العشب من دموعه، وحتى اتخذت الدموع في خده أخدودًا: (خرافة إسرائيلية). كان عيسى عليه السلام يلبس الشعر، ويأكل الشجر: (هي كسابقتها). كان يحيى عليه السلام يأكل مع الوحش لِئلا يخالط الناس: (خرافة).

وفي الباب الثالث: إن الله خلق الخلق فجعلهم قسمين في تقسيم أصحاب اليمين وأصحاب الشمال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الواقعة: ٩، ١٠]، وأن المراد بذلك النبي ﷺ: (هو تفسير غريب شبه موضوع). لما خلق الله آدم أهبطني من صلبه إلى الأرض وجعلني في صلب نوح.. إلخ: (موضوع). حديث في شق قلبه بسياق غريب (باطل موضوع). لما أسري بي إلى السماء إذا على العرش مكتوب «لا إلـه إلاَّ الله محمد رسول الله، أيدته بعلي»: (موضوع من وضع الشيعة الروافض). عن جعفر الصادق: إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ ألا ليقم من اسمه محمد فليدخل الجنة: (موضوع). ما ضر أحدكم أن يكون في بيته محمد ومحمدان وثلاثة: (موضوع). حديث أبي هريرة في الإسراء بسياق منكر: (موضوع). حديث في بدء الأذان ليلة الإسراء: (موضوع)، من وضع الرافضة. حديث أنس في الإسراء، وفيه: «ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى: (هذا منكر). وهو في الصحيح. إن للنبوة أثقالاً، وإن يونس تفسخ منها.. إلخ: (لا أصل له). «لي عشرة أسماء»؛ فذكر منها طه ويس: (موضوع). أتاني ملك فقال لي «أنت قثم»: (لا أصل له).

وفي **الباب الرابع**: «إني منزل عليك توراة حديثة تفتح بها أعينًا»: (باطل). حديث الجذع، فبعض طرقه أنه قال له: «إن شئت أردك إلى الحائط الذي كنت فيه وإن شئت أغرسك في الجنة»: (هذه الرواية باطلة). إن أسكفة البيت أمنت: (موضوع). مرض النبي ﷺ فأتاه جبريل بطبق فيه رمان وعنب: (لا أصل له). لما طلبته قريش قال له ثبير: اهبط يا رسول الله فإني أخاف أن يقتلوك على ظهري فيعذبني الله: (منكر لا أصل له). حديث كلام الضب المشهور: (موضوع). قصة الراعي والذئب: (موضوع). وكذا ما وقع لأبي سفيان وصفوان بن أمية مع الذئب: (أيضًا كل ذلك باطل. وقد صحت القصة بغير هذه السياقات الباطلة).

كلام الطائِر مع العباس بن مرداس: (باطل). كلام العضباء: (موضوع). حديث في حمام مكة: (موضوع). حديث نبات الشجر على فم الغار ووقوف الحمامتين: (لا يصح شيء في ذلك). حديث الظبية المشهور وتكلمها معه ﷺ: (موضوع). كلام الحمار الذي أصابه بخيبر: (لا أصل له). حديث الناقة التي شهدت عند النبي لصاحبها أنه ما سرقها وأنها ملكه: (موضوع). حديث العنز التي أتت رسول الله في عسكره فحلبها: (باطل). حديث أنه قال لفرسه «لا تبرح» فما تحرك حتى صلوا: (لا أصل له). قوله عن سحنون: أن أهل الحديث أجمعوا على أن رسول الله ﷺ قتل اليهودية التي سمته: (هو إجماع غير صحيح، والخلاف في ذلك معروف).

حديث أنه أتى بصبي قد شب لم يتكلم قط، فقال له: «من أنا؟» فقال: رسول الله ﷺ: (لا أصل له). حديث مبارك اليمامة الذي تكلم وشهد لرسول الله ثم لم يتكلم بعد: (باطل). حديث الذي طرح بنته في واد، فناداها النبي ﷺ باسمها: «أجيبي بإذن الله» فخرجت وهي تقول: لبيك وسعديك: (خرافة). حديث حبيب بن فديك أن أباه ابيضت عيناه فنفث فيها

رسول الله ﷺ فأبصر: (باطل). حديث في رمي كلثوم بن الحصين في نحره وبرئه ببصاق رسول الله ﷺ: (لا أصل له). حديث في قطع أبي جهل يوم بدر يد معوذ بن عفراء فجاء رسولَ الله ﷺ يحملها، فبصق عليها وألصقها فلصقت: (لا أصل له).

حديث خبيب بن يساف وأنه أصيب يوم بدر بضربة على عاتقه حتى مال شقه، فرده رسول الله ﷺ: (لا أصل له). حديث الخثعمية التي أتت رسول الله ﷺ بصبي لا يتكلم، فمضمض فاه وغسل يديه فشرب ذلك فبرىء وعقل: (لا أصل له). حديث دعائه لمعاوية بالتمكين: (موضوع). أحاديث دعواته لابن جعفر والمقداد وغرقده وعلي والطفيل وفاطمة: (لا يصح شيء منها، وفيها ما لا أصل له). دعاؤه على صبي قطع صلاته: (لا أصل له). تبريكه على فرس لجعيل الأشجعي حتى كان لا يملك رأسه نشاطًا: (لا أصل له). ركوبه حمارًا قطوفًا لسعد بن عبادة فرده هملاجًا لا يساير: (لا أصل له).

وما ذكره في انقلاب الأعيان: (أكثره موضوع أو لا أصل له). كسكب وضوئه في بئر قباء. وبزقه في بئر كانت في دار أنس. وإعطائه الحسن والحسين لسانه فمصاه وكانا يبكيان عطشًا فسكتا. وكتفله في أفواه الصبيان المراضع فيجزيهم ريقه إلى الليل. وكحديث حنش بن عقيل في سقيه شربة من سويق من سؤر رسول الله ﷺ فكان يجد شبعها إذا جاع وريها إذا عطش وبردها إذا ظمىء. ودفعه لعكاشة جذل حطب ولعبد الله بن جحش عسيب نخل فانقلبا لكل منهما سيفًا. إلى غير ذلك من الأباطل والأكاذيب التي لا أصل لها.

إخباره بملك بني أمية وولاية معاوية ووصايته واتخاذ بني أمية مال الله دولًا: (باطل). إخباره بأن عثمان سيقتل وهو يقرأ القرآن وإنه سيقطر دمه

على قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧]: (موضوع). حديث الراعي الذي ذهب ليخبر قريشًا بهجرة النبي ﷺ، فضرب على قلبه فما درى ما يصنع: (لا أصل له). قصة شيبة بن عثمان الحجبي في يوم حنين أراد قتل النبي ﷺ فلما دنا منه ارتفع إليه شواظ من نار: (لا أصل له). حديث: «أصل كل داء البرودة»: (موضوع). «المعدة حوض البدن»: (موضوع). قوله للأقرع أو عيينة: «أنا أفرس بالخيل منك»: (لا أصل له). «لا تمدوا بسم الله الرحمن الرحيم»: (موضوع). «ألِف الدواة وحرف القلم»: (موضوع).

حديث هامة بن الهيم بن لاقس بن إبليس وأنه أتى النبي ﷺ: (موضوع). أحاديث في ولادته ﷺ: كرؤية أم عثمان بن العاص تدَلِّي النجوم. وقول الشفا لما سقط على يدي واستهل: سمعت قائلاً يقول: «رحمك الله» وأضاء لي ما بين المشرق والمغرب. وارتجاج أبواب كسرى، وسقوط شرفاته وفيض بحيرة طبرية، وخمود نار فارس: وأن كل ذلك (لا يصح منه شيء). حديث خديجة ونساء رأينه لما قدم من السفر وملكان يظلانه: (لا يصح). أن حليمة رأت غمامة تظله لما كان عندها: (باطل). كان قبل مبعثه نزل تحت شجرة يابسة فاعشوشبت ما حولها وأينعت فأشرفت وتدلت عليه أغصانها: (لا أصل له). صلاة الملائكة على جسده واستئذان ملك الموت عليه: (لا أصل له). تعزية الخضر والملائكة أهل بيته عند موته: (موضوع).

وفي الباب الأول من القسم الثاني: «كفى بقوم حمقًا ـ أو قال: ضلالاً ـ أن يرغبوا عما جاء به نبيهم»: (لا أصل له بهذا السياق).

وفي الباب الثاني: كان رجل عند النبي لا يطرف بصره... إلخ: (لا أصل له). أن امرأة قالت لعائشة: اكشفي لي قبر رسول الله ﷺ. فكشفت لها. فبكت حتى ماتت: (لا أصل له).

وفي الباب الثالث: معرفة آل محمد براءة من النار: (موضوع، وضعه الشيعة الرافضة). هذا عمي وصنو أبـي، وهؤلاء أهل بيتي فاسترهم من النار: (موضوع). أصحابـي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم: (موضوع). مثل أصحابـي كمثل الملح: (موضوع). أيها الناس إني راضٍ عن أبـي بكر فاعرفوا له ذلك: (موضوع). أيها الناس احفظوني في أصحابـي وأصهاري وأختاني: (موضوع). أتي بجنازة فلم يصل عليها فقال: كان يبغض عثمان: (موضوع من وضع الأمويين). من حفظني في أصحابـي كنت له حافظًا يوم القيامة: (موضوع).

وفي الباب الرابع: لا صلاة لمن لم يصل علي: (موضوع). الدعاء بين الصلاتين علي لا يرد: (لا أصل له). من سلم عليَّ عشرًا فكأنما أعتق رقبة: (لا أصل له). ليردن عليَّ أقوام لا أعرفهم إلاَّ بكثرة صلاتهم عليَّ: (لا أصل له). الصلاة على النبـي أمحق للذنوب من الماء البارد للنار: (لا أصل له). من نسي الصلاة علي نسي طريق الجنة: (لا أصل له). من الجفاء أن أذكر عند الرجل فلا يصلِّي عليَّ: (لا أصل له). أكثروا من السلام على نبيكم كل جمعة: (لا أصل له). أكثروا من الصلاة عليَّ في الليلة الزهراء واليوم الأزهر: (لا أصل له). ما من أحد يدعو الله تعالى عند الركن والميزاب: (لا أصل له). من صلَّى خلف المقام ركعتين غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر: (موضوع).

وفي الباب الأول من القسم الثالث: حديث في بدء الوحي، ذكره ابن إسحاق: (ظاهر البطلان). كان يشهد مع المشركين مشاهدهم: (باطل موضوع، وقد اعترف ببطلانه المؤلف). إني لأنسى أو أُنَسَّى لأسن: (لا أصل له. وقال فيه المؤلف: في الحديث الصحيح). ما قاله في يعقوب ويوسف وأيوب: (مجرد إسرائيليات باطلة يمجها العقل السليم).

وفي الباب الأول من القسم الرابع: لا يلغ الكلب في دم مسلم: (لا أصل له). من سب نبيًا فاقتلوه ومن سب أصحابـي فاضربوه: (فيه من رمي بالكذب). أن رجلاً سبه فقتله الزبير: (لا يصح). حديث في قتل عقبة بن أبـي معيط: (لا يصح). حديث أن رجلاً كذب على النبـي ﷺ فبعث عليًا والزبير إليه ليقتلاه: (لا يصح).

وفي الباب الثالث: لا تسبوا أصحابـي، فإنه يجيء قوم في آخر الزمان... إلخ: (موضوع).

هذا ما تيسر لي ذكره، وقد تركت ضعفه أو أكثر، مما هو ضعيف أو باطل، وقد حذفت جميعها من التهذيب.

منهجي في تهذيب الشفا

كان منهجي في تهذيب هذا الكتاب كالآتي:

أولاً: حذفي لأسانيد المؤلف التي روى بها بعض ما أورده، وهي نحو ستين حديثًا، وفيها الصحيح والضعيف.

ثانيًا: حذف ما لا داعي له من الكلام أو النقول المجهولة الأصل أو الآراء التي لا مستند لها أو كانت ضعيفة غير معتمدة.

ثالثًا ـ وهي أهمها ـ: تنقية الكتاب من كل ما فيه من الأحاديث الضعيفة بجميع أقسامها، بداية من الموضوع والمنكر وما لا أصل له، أو كان شديد الضعف. ولم أبق منها إلاَّ جملة يسيرة مما ضعْفُها ليس شديدًا، أو كان منجبرًا.

رابعًا: تخريجي للأحاديث التي ذكرها، سواء كانت عنده مسندة أو معلقة، أو كانت مخرجة مع تقصير في التخريج، ككون الحديث في الصحيح وهو يقتصر على عزوه لبعض السنن مثلاً، أو هو في المسند والسنن

ويرويه من طريق الطبراني، أو نحو ذلك، كما ستراه وتدركه. وقد رجعت في جميع الأحاديث المخرجة إلى أمهاتها وأصولها، مع بيان أجزائها وصفحاتها، أو أرقام أحاديثها، والتنصيص على رتبة كل حديث: من صحة أو حسن. وقد أتوسع أحيانًا في ذكر بعض ألفاظ المتون وسياقاتها وبعض شواهدها أو ما يناسبها.

خامسًا: تبعت المؤلف في تخطيطه وأسلوبه، غير أنني استبدلت فصوله بعناوين خاصة جعلتها مناسبة للموضوعات، وقد أغير أيضًا بعض عبارات الكتاب وكلماته وجمله. . .

سادسًا: قد زدت بعض الأحاديث في صلب الكتاب وفي الهوامش اقتضاها المقام، وقد وضعت أمامها رمزًا هو هذا: [ز].

سابعًا: شرحت في الغالب بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وحَقَّقْتُ بعض ما اختلفتْ فيه أنظار العلماء. وذكرت في الهوامش فوائد هامة رائقة. فجاء الكتاب ــ بحمد الله تعالى وتوفيقه ــ خاليًا من كل ما يريب القارىء أو يحول بينه وبين مبتغاه، وهو الأول من نوعه، فلا أعلم أحدًا سبق لتهذيب هذا الكتاب على هذا النهج.

والقصد في كل ذلك وجه الله تعالى، وخدمة الجناب النبوي الأسنى، ونصح المؤمنين المحبين لهذا النبي الكريم ﷺ. ولا أرجو من أحد في ذلك جزاء ولا شكورًا. وصلَّى الله وسلَّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وزوجه وحزبه.

وكتبه أبو الفتوح عبد ربه
الشيخ عبدالله بن عبدالقادر التليدي
بتاريخ ٢١ ربيع ٢ عام ١٤٢٠
بطنجة المغرب

إتحاف أهل الوفا

بتهذيب

كتاب الشفا

بتعريف حقوق المصطفى ﷺ

للإمام القاضي عياض اليحصبي

تأليف

الشيخ عبد الله بن عبد القادر التليدي

حفظه الله تعالى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

خطبة الأصل

اللّٰهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلِّم تسليمًا إلى يوم الدين.

قال الإمام الحافظ أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي رحمة الله عليه.

الحمد لله المُنفَرِد باسمه الأسمى[١]، المُخْتَصّ بالعِزّ الأحْمَى[٢]، الذي ليس دُونَه مُنْتَهى، ولا وَرَاءه مَرْمَى[٣]. الظاهر لا تخيُّلاً ولا وهمًا، الباطن تقدُّسًا لا عُدْمًا[٤]. وسع كلّ شيء رحمة وعلمًا، وأسبغ على أوليائه نِعمًا عُما[٥]. وبعث فيهم رسولاً من أنفُسِهم أَنْفَسَهُم[٦] عُربًا وعُجْمًا،

---

(١) أي: الأرفع.

(٢) أي: الذي لا يشوبه ذل.

(٣) أي: ليس للقرب منه نهاية ولا وراء معرفته والإيمان به غاية تطلب.

(٤) أي: هو الظاهر بأدلته التكوينية الدالة على وجوده قطعًا بلا توهم ولا تخيل.. وإنه الباطن لا تدرك كنهه العقول، منزَّه عن صفات الحدوث، متعال وليس بمفقود فعدم ظهور ذاته لا يقتضي نفي وجوده.

(٥) أسبغ بمعنى أتم وأكمل. وعما بضم العين، أي: تامة.

(٦) أنفسهم الأولى بضم الفاء، أي: منهم أصلاً ونسبًا، والثانية بفتح الفاء من النفاسة، أي: أشرفهم وأعلاهم.

وأزكاهم مَحْتِدًا ومنمىً[1]، وأرجَحَهم عَقلاً وحلمًا، وأوْفَرَهم عِلمًا، وأقواهم يَقينًا وعَزْمًا، وأشَدّهم بهم رأفة ورُحمًا، زكَّاه روحًا وجِسمًا، وحاشاه عَيبًا ووصْمًا، وآتاه حِكمةً وحُكمًا، وفتح به أعينًا عُميًا، وقلوبًا غُلفًا، وآذانًا صُمًّا[2]؛ فآمن به، وعَزَّرَهُ[3]، ونصَرَه من جعل الله له في مغنم السعادة قسمًا، وكذَّب به وصدف عن[4] آياته من كتب الله عليه الشقاء حتمًا.

﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ ﴾[5] [الإسراء: ٧٢].

صلَّى الله عليه وسلم صلاةً تنمو[6] وتُنمى، وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا.

«أمَّا بعدُ» أشرق الله قلبي وقلبك بأنوار اليقين، ولطف بي وبك[7] بما لطف بأوليائه المتقين، الذي شرفهم الله بنُزُل قُدسه[8]، وأوحشهم من

---

(١) محتدًا: بفتح الميم وكسر التاء، أي: أصلاً وطبعًا، ومنمى بفتح الميمين، أي: نموًا وارتقاءً.

(٢) في ذلك إشارة للحديث الآتي في صفته ﷺ في التوراة وهو في «صحيح البخاري وغيره».

(٣) أي: عظمه ووقره، وهو بزاء ثم راء، وفي القرآن الكريم ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

(٤) أي: أعرض، قال الله تعالى: ﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ سَنَجۡزِي ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ ١٥٧ ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

(٥) المراد بالعمى هنا عمى القلب والبصيرة، فمن كان في هذه الحياة لا يهتدي إلى الحق ولا إلى الخير فهو في الأخرى أشد عمى وضلالاً عن طريق النجاة.

(٦) أي: تزيد.

(٧) اللطف من الله تعالى التوفيق والعصمة والرفق والرأفة.

(٨) نُزُلٌ بضمتين ما يهيؤ للضيف من الكرامة، ويطلق على المنزل ومنه قوله تعالى في =

الخليقة بأنسه، وخصَّهم من معرفته ومشاهدة عجائب ملكوته[1]، وآثار قدرته؛ بما ملأ قلوبهم حَبْرة[2]، وولَّه عقولهم في عظمته حيرة؛ فجعلوا همَّهُم به واحدًا، ولم يروا في الدارين غيره مشاهدًا؛ فهم بمشاهدة جماله وجلاله يتنعّمون، وبين آثار قدرته وعجائب عظمته يترددون، وبالانقطاع إليه والتوكل عليه يتعززون، لهجين[3] بصادق قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ۝٩١﴾[4] [الأنعام: ٩١].

فإنك كررت عليَّ السؤال في مجموع يتضمن التعريف بقدر المصطفى عليه الصلاة والسلام، وما يجب له من توقير وإكرام، وما حكم من لم يعرف واجب عظيم ذلك القدر، أو قصَّر في حق منصبه الجليل قلامة ظفر. وأن

= أهل الجنة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا...﴾ [الكهف: ١٠٧، ١٠٨].

(١) الملكوت هو العالم العلوي كما أن الملك يقال للعالم السفلي أو الملك يقال للظاهر والملكوت للباطن.

(٢) الحبرة بفتح الحاء وسكون الباء: من الحبور وهو السرور. وولّه بتشديد اللام المفتوحة، أي: جعلها والهة بتفكرها في عظمته تعالى. والحيرة من التحير بما غشاها من جمال وبهاء.

(٣) بفتح اللام وكسر الهاء، أي: مولعين ومتمسكين.

(٤) سياق الآية الكريمة، جاء في الكلام عن اليهود بداية من قوله عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ﴾ [الأنعام: ٩١]، أي: علمتم يا معشر اليهود من دين الله وهدايته بهذا القرآن ما لم تعلموا به من قبل لا أنتم ولا آباؤكم. عقب ذلك أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يجيبهم بقوله: قل الله، أي: هو الذي أنزل هذا القرآن العظيم... ثم اتركهم في باطلهم الذي يخوضون فيه ويهزؤون ويلعبون.. والقاضي رحمه الله تعالى ذهب في الآية إلى معنى آخر غير ظاهر سياقها من باب الإشارة.

أجمع لك ما لأسلافنا وأئمتنا في ذلك من مقال، وأبينه بتنزيل صور وأمثال.

فاعلم أكرمك الله أنك حملتني من ذلك أمرًا إمرًا[١]، وأرهقتني[٢] فيما ندبتني إليه عسرًا، وأرقيتني بما كلفتني مرتقى صعبًا، ملأ قلبي رعبًا؛ فإنَّ الكلام في ذلك يستدعي تقرير أصول، وتحرير فصول، والكشف عن غوامض ودقائق من علم الحقائق، مما يجب للنبيّ ويُضاف إليه أو يمتنع أو يجوز عليه، ومعرفة النبي والرسول، والرسالة والنبوة، والمحبة والخُلَّة، وخصائص هذه الدرجة العلية.

وههنا مَهامِهُ فيحٌ تحارُ فيها القطا[٣]، وتقصر بها الخُطا. ومجاهل تضل فيها الأحلام؛ إن لم تهتد بعَلَم علم، ونَظَرٍ سديد. ومداحض تزل بها الأقدام؛ إن لم تعتمد على توفيق من الله وتأييد.

لكني لِمَا رجوته لي ولك في هذا السؤال والجواب من نوال وثواب، بتعريف قدره العظيم الجسيم، وخلقه العظيم، وبيان خصائصه التي لم تجتمع قبلُ في مخلوق، وما يُدان الله تعالى به من حقِّه الذي هو أرفع الحقوق ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١].

ولما أخذ الله تعالى على الذين أوتوا الكتاب ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧][٤].

---

(١) إمرًا الثانية بكسر الهمزة بمعنى شديد فهو صفة للأمر الأولى المفتوحة.

(٢) أي: أوقعتني فيما يشق ويعسر علي.

(٣) المهامه: جمع مهمهة، وهي المفازة الواسعة التي لا ماء فيها. والفيح: بكسر الفاء جمع فيحاء وهي الأرض الواسعة. والقطا: طائر يضرب به المثل في كمال الهداية.

(٤) هذا إشارة منه إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

ثم ذكر بسنده من طريق أبي داود عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة»[١].

فبادرت إلى نكتٍ سافرة عن وجه الغرض، مؤديًا من ذلك الحق المفترض. اختلستها[٢] على استعجال لما المرء بصدده من شغل البدن والبال، بما قُلّده من مقاليد المحنة التي ابتلي بها[٣]؛ فكادت تشغل عن كل فرض ونفل، وترد بعد حسن التقويم إلى أسفل سفل. ولو أراد الله بالإنسان خيرًا لجعل شغله وهمه كله فيما يحمد غدًا، ولا يذم محله، فليس ثم سوى نضرة النعيم أو عذاب الجحيم. ولكان عليه بخويصته[٤] واستنقاذ مهجته[٥]، وعمل صالح يستزيده، وعلم نافع يفيده أو يستفيده.

جبر الله تعالى صدع قلوبنا، وغفر عظيم ذنوبنا. وجعل جميع استعدادنا لمعادنا، وتوفر دواعينا فيما ينجينا ويقربنا إليه زلفى، ويُحَظِّينَا بمنه ورحمته...

---

(١) رواه أبو داود ٣٦٥٨ في العلم، والترمذي ٢٤٦٥ فيه، وابن ماجه في المقدمة ٢٦١/٢٦٦، وكذا أحمد ٢/٢٦٣، ٣٠٥، والطيالسي ٨٩، والحاكم ١/١٠١، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. والحديث صحيح وله طرق أخرى وشواهد، منها ثلاثة صحيحة عن ابن مسعود وابن عباس وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهم. وقد كنت جمعت طرقه في رسالة خاصة.
قال الخطابي رحمه الله تعالى في معنى هذا الحديث هذا في العلم الذي يلزمه تعليمه إياه ويتعين فرضه عليه... إلخ، وقد ذكرته بتمامه في «بداية الوصول».

(٢) الاختلاس اختطاف الشيء بسرعة.

(٣) وهي السعي وراء العيش وفتنة الحياة والأهل والأولاد... وما أعظمها من محنة.

(٤) وهو مصغر خاصة، والمراد بذلك أن يلزم أمر نفسه وما يهمه من دينه ودنياه.

(٥) أي: تخليص روحه مما يهلكه.

ولما نويت تقريبه ودرَّجْتُ تبويبه، وخلصت تفصيله؛ ترجمته[١] بـ «الشِّفَا بِتَعْرِيفِ حُقُوقِ الْمُصْطَفَى» وحصرتُ الكلام فيه في أربعة أقسام:

● **القسم الأول**: في تعظيم العليِّ الأعلى لقدر هذا النبي: قولاً، وفعلاً. وفيه أربعة أبواب:

الباب الأول: في ثنائه تعالى عليه، وإظهاره عظيم قدره لديه. وفيه عشرة فصول.

الباب الثاني: في تكميله تعالى له المحاسن خَلْقًا وخُلُقًا، وقرانه جميع الفضائل الدينية والدنيوية فيه نَسَقًا. وفيه سبعة وعشرون فصلاً.

الباب الثالث: فيما ورد من صحيح الأخبار ومشهورها؛ بعظيم قدره عند ربه ومنزلته، وما خصه الله به في الدارين من كرامته. وفيه اثنا عشر فصلاً.

الباب الرابع: فيما أظهره الله تعالى على يديه من الآيات والمعجزات، وشرفه به من الخصائص والكرامات. وفيه ثلاثون فصلاً.

● **القسم الثاني**: فيما يجب على الأنام من حقوقه عليه الصلاة والسلام. وفيه أربعة أبواب:

الباب الأول: في فرض الإيمان به، ووجوب طاعته، واتباع سنته. وفيه خمسة فصول.

الباب الثاني: في لزوم محبته، ومناصحته. وفيه ستة فصول.

الباب الثالث: في تعظيم أمره، ولزوم توقيره وبره. وفيه سبعة فصول.

---

(١) أي: سميته بهذا الاسم.

الباب الرابع: في حكم الصلاة عليه والتسليم، وفرض ذلك وفضيلته. وفيه عشرة فصول.

● **القسم الثالث:** فيما يستحيل في حقه ﷺ، وما يجوز عليه، وما يمتنع، ويصح من الأمور البشرية أن يضاف إليه. وهذا القسم ــ أكرمك الله تعالى ــ هو سرّ الكتاب، ولباب ثمرة هذه الأبواب. وما قبله له كالقواعد والتمهيدات والدلائل على ما نورده فيه من النكت البينات. وهو الحاكم على ما بعده، والمنجز من غرض هذا التأليف وَعْده، وعند التقصّي لموعدته، والتفصّي عن عهدته يَشْرَق صدر العدو اللعين، ويُشرِق قلب المؤمن باليقين، وتملأ أنواره جوانح صدره، ويقدر العاقل النبيَّ حق قدره.

ويتحرر الكلام فيه في بابين.

الباب الأول: فيما يختص بالأمور الدينية، ويتشبث به القول في العصمة. وفيه ستة عشر فصلاً.

الباب الثاني: في أحواله الدنيوية، وما يجوز طروءه عليه من الأعراض البشرية. وفيه تسعة فصول.

● **القسم الرابع:** في تصرف وجوه الأحكام على من تنقَّصَه أو سبَّه ﷺ. وينقسم الكلام فيه في بابين:

الباب الأول: في بيان ما هو في حقه سبّ ونقصٌ من تعريض أو نصٍّ. وفيه عشرة فصول.

الباب الثاني: في حكم شانئه ومؤذيه ومنتقصه، وعقوبته، وذكر استتابته، والصلاة عليه، ووراثته. وفيه خمسة فصول.

وختمناه بباب **ثالث:** جعلناه تكملة لهذه المسألة، ووصلة للبابين

اللَّذَين قبله، في حكم من سبّ الله تعالى، ورسله، وملائكته، وكتبه، وآل النبي ﷺ، وصحبه. وأختصر الكلام فيه في عشرة فصول.

وبتمامها يتنجز الكتاب، وتتم الأقسام والأبواب. وبالله تعالى لا إلـه سواه أستعين.

* * *

القسم الأول

في تعظيم العلي الأعلى
لقدر النبي المصطفى ﷺ قولاً وفعلاً

لا خفاء على من مارس شيئًا من العلم أو خُصَّ بأدنى لمحة من الفهم بتعظيم الله قدر نبينا ﷺ وخصوصه إياه بفضائل ومحاسن لا تنضبط لِزمام[1]، وتنويهه من عظيم قدره بما تكلّ عنه الألسنة والأقلام.

ـ فمنها: ما صرّح به تعالى في كتابه ونبّه به على جليل نِصابه وأثنى به عليه من أخلاقه وآدابه[2] وحضّ العباد على التزامه وتقلُّد إيجابه.

فكان جل جلاله هو الذي تفضّل وأولى، ثم طهّر وزكّى، ثم مدح بذلك وأثنى، ثم أثاب عليه الجزاءَ الأوفى؛ فله الفضل بدءًا وعودًا، والحمد أُولى وأخرى.

ـ ومنها: ما أبرزه للعيانِ من خلقه[3] على أتم وجوه الكمال والجلال؛ وتخصيصه بالمحاسن الجميلة، والأخلاق الحميدة، والمواهب الكريمة،

---

(١) أي: فضائله ومحاسنه كثيرة لا تجتمع ولا تنحصر ولا تدخل تحت ضبط.

(٢) كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾ [القلم: ٤]، وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وأمثال ذلك كثير في القرآن.

(٣) بفتح الخاء وسكون اللام: هي الصفة الجسمية التي خلقه الله عليها.

والفضائل العديدة؛ وتأييده بالمعجزات الباهرة، والبراهين الواضحة، والكرامات البينة: التي شاهدها من عاصره، ورآها من أدركه، وعلمها علم يقين من جاء بعده؛ حتى انتهى علم حقيقة ذلك إلينا[١]، وفاضت أنواره علينا ﷺ كثيرًا. . .

ثم أسند من طريق أبي عيسى الترمذي من حديث أنس رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ أتي بالبراق - ليلة أسري به - ملجمًا مسرجًا، فاستصعب عليه، فقال له جبريل عليه السلام: أبمحمد تفعل هذا؟! فما ركبك أحد أكرم على الله منه. قال: فارفضّ عرقًا[٢].

* * *

---

(١) وسيأتي ذلك في الباب الرابع من القسم الأول مفصلاً إن شاء الله تعالى ص ٢١٣.

(٢) ذكره الترمذي في سورة الإسراء من التفسير رقم ٢٩٢٩ بتهذيبي. ورواه أيضًا أحمد ٣/ ١٦٤ وغيره، وسنده صحيح، رجاله رجال الشيخين. والبراق دابة طويل أبيض فوق الحمار، ودون البغل، يضع حافره عند منتهى بصره. هكذا جاء وصفه في الأحاديث الصحيحة. وقوله «ملجمًا. . .» إلخ، أي: له لجام وسرج كما يفعل بالخيل ونحوها. وقوله: «فاستصعب»، أي: استعسر عليه وامتنع من الركوب عليه، وذلك لبعد عهده بالأنبياء الذين كانوا يركبونه. وقوله: فارفض، أي: سال عرقه خجلاً وحياءً من النبي ﷺ.

وفي الحديث أنه لا أحد أكرم على الله منه ﷺ، فيدل على أنه أفضل من كل مخلوق على الإطلاق، خلافًا للزمخشري وابن حزم ومن شذّ من العلماء.

الباب الأول
في ثناء الله تعالى عليه ﷺ وإظهاره عظيم قدره لديه

اعلم أن في كتاب الله العزيز آيات كثيرة مُفْصِحة[1] بجميل ذكر المصطفى ﷺ، وعدِّ محاسنه، وتعظيم أمره، ورفعة قدره، اعتمدنا منها على ما ظهر معناه، وبان فحواه. وجمعنا ذلك في عشرة فصول:

* * *

ما جاء من ذلك مجرى المدح والثناء وتعداد المحاسن وامتنانه تعالى على عباده ببعثة هذا النبي العظيم

قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[2] [التوبة: ١٢٨].

قال أبو الفضل رحمه الله: أعلم الله تعالى المؤمنين أو العرب أو أهل مكة أو جميع الناس ــ على اختلاف المفسرين من المواجه بهذا

---

(١) مفصحة، أي: ناطقة.

(٢) الرأفة: شدة الرحمة. والرحمة رقّة وتعطُّف تحمل على الإحسان، وهي بهذا المعنى محال في حق الله تعالى كما بُيِّن في موضعه.

الخطاب(١) ـ أنه بعث فيهم رسولاً من أَنْفُسِهم يعرفونه ويتحققون مكانه، ويعلمون صدقه وأمانته؛ فلا يتهمونه بالكذب وترك النصيحة لهم لكونه منهم، وأنه لم تكن للعرب قبيلة إلاَّ ولها على رسول الله ﷺ ولادة أو قرابة. وهو عند ابن عباس(٢) وغيره معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٣١].

وكونه من أشرفهم وأرفعهم وأفضلهم ـ على قراءة الفتح(٣) ـ هذه نهاية المدح.

ثم وصفه بأوصاف حميدة، وأثنى عليه بمحامد كثيرة؛ من حرصه على هدايتهم ورشدهم وإسلامهم وشدة ما يُعنتُهم(٤) ويضرُّ بهم في دنياهم وأخراهم، وعزَّته عليه، ورأفته ورحمته بمؤمنيهم؛ فأعطاه الله تعالى اسمين من أسمائه: وهما ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ [النور: ٢٠](٥).

---

(١) جمهور المفسرين على أن الخطاب للعرب.

(٢) رواه البخاري في التفسير ١٠/ ١٨٥، وكذا رواه أحمد وابن جرير ٢٥/ ٢٣، وهذا التفسير هو المعتمد. وهناك تفسير ثانٍ للآية لا داعي لإيراده فانظره مبسوطًا عند ابن كثير وغيره.

(٣) هذه القراءة وردت عن ابن عباس وابن محيصن والزهري وعبد الله بن قسيط. انظر: القرطبي ٨/ ٣٠١، والألوسي ٦/ ٥٢، وجاء بها حديث رواه الحاكم ٢/ ٢٤٠ مرفوعًا. ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفَسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، يعني: من أعظمكم قدرًا. وهي وإن كانت قراءة شاذة فمعناها صحيح.

(٤) أي: ما يشق عليهم ولا يطيقونه.

(٥) من أسماء الله تعالى ما يجوز وصف الآدمي بها كهذين الاسمين ومنها ما هي من خصائص الرب تعالى وهي كثيرة. انظرها فيما ألف في الأسماء والصفات، وسيأتي بحث في ذلك، ويلاحظ أن الله تعالى وصفه عليه السلام في آية الباب بأوصاف خمسة، كلها في غاية ما يكون من المدح والثناء.

وقال تعالى في آية ثانية: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [البقرة: ١٥١].

وقال في آية ثالثة: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقال في آية رابعة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [الجمعة: ٢].

وقال في آية خامسة: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٩][١].

وعن علي رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة: ١٢٨] قال: «نسبًا وصهرًا وحسبًا، ليس في أبائي من لدن آدم سفاح، كلها نكاح»[٢].

---

(١) ذكّر الله تعالى عباده المؤمنين في هذه الآيات بنعمته العظمى، وامتن عليهم ببعثة هذا النبي الكريم ﷺ الذي علمنا آياته وكتابه وحكمته وزكانا من أدران الشرك والوثنية والفواحش. فبعثته ﷺ من أصول النعم الخمس التي لا يد للإنسانية في إيجادها فللّه الحمد حمدًا كثيرًا دائمًا أبدًا على ذلك.

(٢) أخرجه بنحوه ابن أبي عمر العدني في مسنده كما في المطالب العالية ٤/ ١٧٧، وأبو نعيم في الدلائل ص ١١، وهو وإن كان ضعيفًا فقد جاء بنحوه من مرسل محمد الباقر رضي الله تعالى عنه. رواه الطبراني في الأوسط رقم ٤٧٢٥، والبيهقي في السنن ٧/ ١٩٠ قال ابن كثير في البداية: وهذا مرسل جيد. وانظر: مجمع الزوائد ٨/ ٢١٤.

بعثته ﷺ رحمة للعالمين

قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. فكانت حياته رحمةً ومماته رحمة، كما قال ﷺ: «حياتي خيرٌ لكم، وموتي خيرٌ لكم»[١].

وكما قال ﷺ: «إذا أراد الله رحمة بأمة قبض نبيها قبلها فجعله لها فرطًا وسلفًا»[٢].

فهو ﷺ رحمة للعالمين[٣] من الجن والإنس، رحمة للمؤمن

---

(١) رواه البزار ٨٤٥ مع كشف الأستار عن ابن مسعود بلفظ: «حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم، ووفاتي خير لكم تعرض على أعمال فما رأيت من خير حمدت الله، وما رأيت من شر استغفرت الله لكم». وسنده صحيح على شرط مسلم وأصله عند أحمد ١/ ٣٨٧، وأورده النور في المجمع ٩/ ٢٢٤ برواية البزار وقال: رجاله رجال الصحيح. وأخرجه ابن سعد في الطبقات ٢/ ١٩٤ وإسماعيل القاضي في فضل الصلاة على النبي ﷺ ص ١٢ من حديث بكر بن عبد الله المزني به مرفوعًا وهو مرسل صحيح. والحديث صريح في أن النبي ﷺ يستغفر لأمته بعد موته، وأن أعمال الأمة تعرض عليه فيرى حسناتها وسيِّئاتها، والحديث الشريف يحمل بشارة عظيمة للأمة الإسلامية صالحيها وعاصيها..

(٢) رواه مسلم في الفضائل ١٥/ ٥٢ من حديث أبي موسى الأشعري وله بقية وهو من الأحاديث التي قيل بانقطاعها في مسلم وأجيب عنه بأنه جاء متصلاً من طريق آخر. والفرط بفتحتين هو الذي يسبق القوم ليهيىء لهم ما ينبغي تهيئته.

(٣) رجح هذا القول واختاره ابن جرير ١٧/ ١٠٦، فقال بعد أن ذكر القولين للمفسرين: وأولى القولين في ذلك بالصواب، القول الذي روي عن ابن عباس وهو أن الله أرسل نبيه محمدًا ﷺ رحمة لجميع العالم مؤمنهم وكافرهم، فأما مؤمنهم فإن الله هداه به وأدخله بالإيمان به وبالعمل بما جاء من عند الله الجنة، وأما كافرهم فإنه دفع به عنه عاجل البلاء الذي كان ينزل بالأمم المكذبة رسلها من قبله. وقال الألوسي ٩/ ١٠٦: والذي أختاره أنه ﷺ إنما بُعث رحمةً لكل فرد من العالمين ملائكتهم وإنسهم وجنهم... إلخ.

بالهداية، وللمنافق بالأمان من القتل، وللكافر بتأخير العذاب. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: هو رحمةٌ للمؤمنين والكافرين؛ إذ عوفوا مما أصاب غيرهم من الأُمم المكذِّبة[1].

تسميته ﷺ في القرآن نورًا

وقد سماه الله تعالى في القرآن نورًا وسراجًا منيرًا.

فقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۝١٥[2] يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝٤٦﴾[3] [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

---

(١) أخرجه ابن جرير ١٧/ ١٠٦ وغيره وفي سنده المسعودي ولا يضر هنا.
ومما يتعلق بالآية الكريمة حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قيل: يا رسول الله ادع الله على المشركين، قال: «إني لم أبعث لعانًا، وإنما بعثت رحمةً». رواه مسلم ١٦/ ١٥٠. وحديثه أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا رحمةٌ مهداة». رواه الحاكم ١/ ٣٥ وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي. ورواه ابن سعد ١/ ١٩٢، والدارمي رقم ١٥ عن أبي صالح السمان مرسلاً بسند صحيح، وعزاه النور في المجمع ٨/ ٣٥٧ للبزار والطبراني وقال: رجال البزار رجال الصحيح. وقوله مهداة بكسر الميم، أي: هاد، وبفتحها، أي: مهداة إليكم بمعنى الهدية.

(٢) لم يذكر ابن جرير في الآية الكريمة غير هذا المعنى فقال ٦/ ١٦١، يعني بالنور محمدًا ﷺ الذي أنار الله به الحق وأظهر به الإسلام، ومحق به الشرك، فهو نور لمن استنار به يبين الحق... إلخ. وتبعه ابن كثير والجلال، وقال الألوسي: قد جاءكم من الله نور عظيم وهو نور الأنوار، والنبي المختار ﷺ. وبه أيضًا صدر الفخر الرازي.

(٣) سماه السراج لأنه جلى به ظلمات الشرك واهتدى به الضالون كما يجلى الظلام =

شرح صدره ﷺ، ووضع وزره، ورفع ذكره

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: ١ ـ ٤].

شرح: وسَّعَ. والمراد بالصدر: القلب.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: شرحه بنور الإسلام[١]، وقال الحسن: ملأه حكمًا وعلمًا[٢].

وقوله: ﴿وَوَضَعْنَا...﴾ إلخ، قيل: ما سلف من ذنبك، يعني: قبل النبوة. وقيل: أراد ثقل أيام الجاهلية. وقيل: ما أثقل ظهره من الرسالة حتى بلغها. وقيل: عصمناك، ولولا ذلك لأثقلت الذنوب ظهرك[٣].

= بالسراج المضيء، فقد أنار الله عز وجل بنور نبوته البصائر كما ينور السراج الأبصار. ووصفه بالإنارة لأن من السرج ما لا يضيء، ووصفه بالسراج ولم يصفه بالشمس، لأن الشمس لا يوقد منها بخلاف السراج فإنه يوقد منه أنوار كثيرة. وهكذا شأنه ﷺ فهو مصدر العلوم الإلـٰهية والمعارف الربانية وأسباب الهداية والسعادة، ومنه تفرعت بما أفاض الله تعالى عليه من وحيه وأنعم عليه برسالته.

(١) أخرجه ابن مردويه وابن المنذر عنه، ورواه ابن أبـي حاتم عن عكرمة.

(٢) أورده القرطبـي في تفسيره ٢٠/ ١٠٤ بلا عزو ولا سند، ويؤيده حديث الإسراء الطويل، وفيه: ثم حُشِيَ إيمانًا وحكمةً.
قال المفسرون: ألم نَفْتَحْ ونُوَسِّعْ ونُلَيِّن لك قلبَك بالإيمانِ والنبوة والعلم والحكمة؟

(٣) في معنى هذه الآية للمفسرين سبعة أقوال ذكرها الألوسي وغيره..
اقتصر الشيخ منها على أربعة، ولم يذكر ابن جرير غير القول الأول والثاني فقال: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾ [الشرح: ٢]، يقول: وغفرنا لك ما سلف من ذنوبك، وحططنا عنك ثقل أيام الجاهلية التي كنت فيها. ونقل المعنى الأول عن مجاهد وقتادة وابن زيد.
واختار أبو حيان كون وضع الوزر كناية عن عصمته ﷺ عن الذنوب، وتطهيره من =

وقوله: ﴿وَرَفَعْنَا . . .﴾ إلخ، قال أبو الفضل رحمه الله تعالى: هذا تقرير من الله جل اسمه لنبيه ﷺ على عظيم نعمه لديه، وشريف منزلته عنده، وكرامته عليه؛ بأن شرح قلبه للإيمان والهداية، ووسّعه لوعي العلم وحمل الحكمة؛ ورفع عنه ثقل أمور الجاهلية، وبغَّضه لِسِيَرِها وما كانت عليه بظهور دينه على الدين كله؛ وحطّ عنه عهدة أعباء الرسالة والنبوة لتبليغه للناس ما نزل إليهم، وتنويهه بعظيم مكانه وجليل رتبته ورفعة ذكره؛ وقرانه مع اسمه اسمه.

قال قتادة رحمه الله تعالى: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب، ولا متشهد، ولا صاحب صلاة، إلاَّ يقول: أشهد أن لا إلـه إلاَّ الله، وأن محمدًا رسول الله ﷺ(١).

وروى أبو سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن النبـي ﷺ قال: أتاني جبريل عليه السلام فقال: إن ربـي وربَّك يقول: تدري كيف رفعت ذكرك؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: إذا ذكرتُ ذُكرت معي(٢).

= الأدناس، عبر عن ذلك بالوضع على سبيل المبالغة في انتفاء ذلك. . وكذا قال الرازي. وقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝﴾ [الشرح: ٣]، أي: الذي أثقل وأوهن ظهرك.
وسيأتي البحث عن عصمة الأنبياء في موضعه إن شاء الله تعالى. . مع بقية البحث في السورة.

(١) رواه ابن جرير ٣٠/ ٢٣٥ عنه من طريقين والبيهقي في الدلائل ٧/ ٦٣. وأخرجاه أيضًا بمعناه عن مجاهد بسند صحيح. وحكاه الألوسي عن محمد بن كعب والضحاك والحسن وغيرهم. ولا خلاف في هذا المعنى.

(٢) رواه ابن جرير ٣٠/ ٢٣٥، وأبو يعلى وابن حبان في صحيحه ٨/ ١٧٥ بالإحسان وسنده حسن صحيح لولا رواية دراج عن أبـي الهيثم فإن فيها عندهم ضعفًا. علمًا بأن الترمذي وغيره يحسنون له. وهو في المجمع ٨/ ٣٥٤. ومعنى الحديث صحيح.

ومن ذِكْرِه معه تعالى أن قرن طاعته بطاعته، واسمه باسمه، فقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]، وقال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣٢]. وقال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، وقال: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التغابن: ٨]. في آي كثيرة. وقد جمع في كثير منها بواو العطف المشرِّكة. ولا يجوز جمع هذا الكلام في غير حقه ﷺ.

ثم أسند من طريق أبي داود[1] عن حذيفة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يقولنَّ أحدكم: ما شاء الله وشاء فلانٌ. ولكن: ما شاء الله ثم شاء فلان».

قال الخطابي رحمه الله تعالى: أرشدهم ﷺ إلى الأدب في تقديم مشيئة الله تعالى على مشيئة من سواه، واختارها بثم التي هي للنسق والتراخي، بخلاف الواو التي هي للاشتراك.

ومثله الحديث الآخر: أن خطيبًا خطب عند النبي ﷺ فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما. فقال له النبي ﷺ: بئس خطيب القوم أنت، قم ــ أو قال: اذهب».[2] قال أبو سليمان: كره منه الجمع بين

---

(١) ذكره أبو داود في الأدب من سننه ٤٩٨٠، ورواه أيضًا أحمد ٥/ ٣٨٤، ٣٩٤، ٣٩٨. والطحاوي في المشكل ١/ ٩٠، والبيهقي في السنن ٣/ ٢١٦ من طريق شعبة به وسنده صحيح، وله شاهد عن ابن عباس عند البخاري في الأدب المفرد ٧٨٧، وابن ماجه ٢١١٧، وأحمد ١/ ٢١٤، ٢٢٤، ٣٤٧ وغيرهم، وسنده حسن أو صحيح، وآخر عن الطفيل بن سخبرة. رواه أحمد ٥/ ٧٢ وغيره وسنده صحيح أيضًا.

(٢) رواه أحمد ٤/ ٢٥٦، ٣٧٩، ومسلم في الجمعة ٤/ ٥٩، وأبو داود فيها أيضًا =

الاسمين بحرف الكناية؛ لما فيه من التسوية.

وذهب غيره إلى أنه إنما كره له الوقوف على (يعصهما).

وقول أبـي سليمان أصح؛ لما روي في الحديث الصحيح[1] أنه قال: (ومن يعصهما فقد غوى)، ولم يذكر الوقوف على (يعصهما).

وقد اختلف الفسرون وأصحاب المعاني في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، هل ﴿يُصَلُّونَ﴾ راجعة على الله تعالى والملائكة أم لا؟ فأجازه بعضهم، ومنعه آخرون؛ لعلة التشريك، وخصّوا الضمير بالملائكة، وقَدَّرُوا الآية: (إن الله يصلي؛ وملائكته يصلّون)[2].

رسول الله ﷺ هو الذي جاء بالصدق وصدق به

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ۝٣٣ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٤﴾ [الزمر: ٣٣، ٣٤].

أكثرُ المفسرين على أن الذي جاء بالصدق هو حبيبنا محمد ﷺ[3].

= ١٠٩٩، وفي الأدب ٤٩٨١، والنسائي في النكاح ٦/ ٧٤ وغيرهم من حديث عدي بن حاتم.

(١) هو الحديث السابق.

(٢) وقد بين ذلك القرطبـي ١٤/ ٢٣٢ وغيره.

(٣) ذكر هذا القول ابن جرير ٢٥/ ٣ عن علي وقتادة وابن زيد والسدي وحكاه ابن كثير أيضًا ٦/ ٩٣ عن مجاهد وقتادة والربيع بن أنس وابن زيد قال: والرسول ﷺ أولى الناس بالدخول في هذه الآية على هذا التفسير فإنه جاء بالصدق وصدق المرسلين وآمن بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله... إلخ.
أما ابن جرير فقال: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذِكْرُهُ عنى بقوله: ﴿والذي جاء بالصدق... إلخ﴾ كل من دعا إلى توحيد الله وتصديق رسوله =

وقال بعضهم: وهو الذي صدّق به.

وقال غيره: الذي صدّق به: المؤمنون. وقيل أبو بكر. وقيل: علي. وقيل غير ذلك[1].

بعض صفاته ﷺ في القرآن والتوراة

وصفه تعالى له بالشهادة وما يتعلق بها من الثناء والكرامة

قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ شَـٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

جمع الله عزَّ وجلّ له في هذه الآية ضروبًا من رتب الأثرة، وجملة أوصاف من المِدْحة، فجعله شاهدًا على أمته لنفسه بإبلاغهم الرسالة، وهي من خصائصه ﷺ، ومبشرًا لأهل طاعته، ونذيرًا لأهل معصيته، وداعيًا إلى توحيده وعبادته، وسراجًا منيرًا يهتدى به للحق..

ثم أسند من طريق البخاري في صحيحه: عن عطاء بن يسار رحمه الله تعالى قال: لقيت عبد الله بن عَمْرو رضي الله تعالى عنهما فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ. قال: أجل.. والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل. ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخَّاب في الأسوق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح. ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إلـه إلاَّ الله. ويفتح به

= والعمل بما ابتعث به رسوله ﷺ من بين رسل الله وأتباعه والمؤمنين به، وأن يقال: الصدق هو القرآن وشهادة أن لا إلـه إلاَّ الله، والمصدق به المؤمنون بالقرآن من جميع خلق الله كائنًا من كان من نبـي الله وأتباعه.

(١) انظر هذه الأقوال وأصحابها عند ابن جرير ٢٥/ ٣.

أعينا عميًا، وآذانًا صمًا، وقلوبًا غُلفًا)[1].

ومثله عن عبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه[2]. وكعب الأحبار رحمه الله تعالى[3]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ . . .﴾ إلخ[4][الأعراف: ١٥٧].

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ذكَّرهم الله تعالى منته أنه جعل رسوله ﷺ رحيمًا بالمؤمنين، رءوفًا، ليِّن الجانب. ولو كان فظًّا خشنًا في القول لتفرقوا من حوله. ولكن جعله الله

---

(١) ذكره البخاري في البيوع ٥/٢٤٦، وفي تفسير سورة الفتح ١٠/٢٠٧، ٢٠٨، ورواه في الأدب المفرد رقم ٢٤٦، وكذا رواه أحمد ٢/ ١٧٤ وغيره.
وقوله: حرزًا. . . إلخ، أي: حصنًا وحفظًا لهم من الضلال في الدنيا ومن عذاب الله في الآخرة: والأميون هم العرب. وقوله: ليس بفظ، الفظاظة هي الغلظة والقساوة والعنف. وقوله: ولا سخاب ويقال صخاب هو الرافع صوته. وقوله: الملة. . . إلخ، هي دين إبراهيم الذي غيره العرب وعوجوه فبعث هذا الرسول ليقيمه ويرجعه إلى أصله الخالص. وقوله: وقلوبًا. . . إلخ، أي: التي كانت عليها أغشية. . . من الظلام. . . وهذا حديث عظيم في باب فضائل النبي ﷺ.

(٢) هذا ذكره البخاري معلقًا، وعنه أورده البيهقي في الدلائل ١/ ٣٧٦، وكذا الدارمي رقم ٦ بنحو ما سبق.

(٣) رواه عنه الدارمي في سننه رقم ٥ بسند صحيح، ورواه من طريقين آخرين ٧/ ٨ بنحوه وسند أحدهما حسن. وانظر: الدلائل للبيهقي ١/ ٣٧٦، والبداية لابن كثير ٦/ ٦١.

(٤) الآية الكريمة جاءت في سياق تحدثه تعالى عن رحمته التي وسعت كل شيء، يعني في الدنيا، ثم خصصها في الآخرة لمن اتقاه، ثم تابع الكلام على المتقين فجعل منهم المؤمنين من أهل الكتاب الذين يجدون صفة هذا الرسول في كتبهم. . إلى آخر ما ذكر عنهم.

تعالى سمحًا سهلاً طلقًا برًّا لطيفًا. هكذا قاله الضحاك[1].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

أبان الله تعالى فضل نبينا ﷺ وفضل أمته بهذه الآية، وفي قوله في الآية الأخرى: ﴿وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨]. كذلك في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١][2].

وقوله تعالى: ﴿وَسَطًا﴾، أي: عدولاً خيارًا.

ومعنى هذه الآية: وكما هديناكم فكذلك خصَّصْنَاكُم وفَضَّلْنَاكم بأن جعلناكم أمةً خيارًا عدولاً لتَشْهَدُوا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام على أممهم، ويشهد لكم الرسول بالصدق.

إن الله جل جلاله إذا سأل الأنبياء: هل بلغتم؟ فيقولون: نعم. فتقول أممهم: ما جاءنا من بشير ولا نذير. فتشهد أمة محمد ﷺ للأنبياء، ويزكيهم النبي ﷺ[3].

---

(١) لا مفهوم للضحاك فكل المفسرين قالوا بهذا المعنى.

(٢) وقال في آية رابعة: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ...﴾ [النحل: ٨٩]، وكلها صريحة في شهادته ﷺ على أمته يوم القيامة.

(٣) هذا معنى حديث رواه أحمد ٣/ ٣٢، والبخاري في التفسير ٩/ ٢٣٨، ٢٣٩، وفي بدء الخلق، وفي الاعتصام والترمذي ٢٧٧٢، والنسائي في الكبرى ٦/ ٢٩٢، وغيرهم عن أبي سعيد الخدري عنه ﷺ: «يدعى نوح» يومَ القيامة فيقال له: هل بلغت؟ فيقول نعم، فَيُدْعَى قومُه فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، قال: فذلك قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا...﴾ [البقرة: ١٤٣]، ونحوه بأتَمّ منه عند أحمد ٣/ ٥٨، وابن ماجه في الزهد ٤٢٨٤ بسند صحيح على شرطهما.

ما ورد من خطابه إياه ﷺ مورد الملاطفة والمبرّة

(العفو قبل العتاب والتثبيت قبل الوقوع فيما يعاتب عليه)

فمن الأول: قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾[1] [التوبة: ٤٣].

قال العلماء: هذا افتتاح كلام، بمنزلة: أصلحك الله وأعزك الله. فأخبره تعالى بالعفو قبل أن يُخبره بما صدر منه من الإذن للمتخلفين.

فهو تعالى برحمته به، أخبره بالعفو؛ حتى سكن قلبه، ثم قال له: لم أذنت لهم بالتخلف حتى يتبين لك الصادق في عذره من الكاذب.

وفي هذا من عظيم منزلته عند الله ما لا يخفى على ذي لب، ومن إكرامه إياه وبره به ما يقطع دون معرفة غايته نياط القلب.

قال أبو الفضل رحمه الله تعالى: يجب على المسلم ـ المجاهد نفسه الرائض بزمام الشريعة خُلُقه ـ، أن يتأدب بآداب القرآن في قوله وفعله

---

(١) قال الألوسي: وهذا عتاب لطيف من اللطيف الخبير سبحانه لحبيبه ﷺ على ترك الأولى، وهو التوقف عن الإذن إلى انجلاء الأمر وانكشاف الحال... قال: والمحققون على أنها خارجة مخرج العتاب كما علمت على ترك الأولى والأكمل... إلخ، وقال: وفي تصدير الخطاب بما صدر به تعظيم لقدر النبي ﷺ وتوقير له وتوفير لحرمته عليه الصلاة والسلام. وقد أخذ من هذه الآية الكريمة وغيرها جواز اجتهاد الرسول ﷺ، والقضية مبسوطة في كتب الأصول، قال عمرو بن ميمون: اثنان فعلهما رسول الله ﷺ باجتهاده، لم يؤمر فيهما بشيء: إذنه للمنافقين في التخلف، وأخذه الفداء من أسارى بدر. فعاتبه الله كما تسمعون.. أما ما قاله الزمخشري في كشافه حيث زعم أن الكلام كناية عن الجناية وأن معناه أخطأت وبئسما فعلت... إلخ فهو سوء أدب مع مقام النبوة، وجناية منه على نفسه قبل غيره. عصمنا الله من الزلل وقلة الأدب.

ومعاطاته ومحاوراته؛ فهو عنصُر المعارف الحقيقية، وروضةُ الآداب الدينية والدنيوية. وليتأمل هذه الملاطفة العجيبة في السؤال من رب الأرباب، المنعم على الكل، المستغني عن الجميع، ويستثير ما فيها من الفوائد، وكيف ابتدأ بالإكرام قبل العتب، وأنس بالعفو قبل ذكر الذنب إن كان ثَمَّ ذنب.

ومن الثاني: قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء: ٧٤]، قال بعض المتكلمين: عاتب الله الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم بعد الزلات[1]، وعاتب نبينا ﷺ قبل وقوعه؛ ليكون بذلك أشد انتهاءً ومحافظةً لشرائط المحبة، وهذه غاية العناية. ثم انظر: كيف بدأ بثباته وسلامته قبل ذكر ما عتبه عليه وخيف أن يركن إليه؟ ففي أثناء عتبه براءته وفي طيّ تخويفه تأمينه وكرامته...

إكرامه تعالى نبيه ﷺ بتصديقه، وتسليته إياه وبره به

قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٣، ٣٤].

قال علي رضي الله تعالى عنه: قال أبو جهل للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب بما جئت به. فأنزل الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ...﴾ [الأنعام: ٣٣][2].

---

(١) سيأتي الكلام في صفحة ٣٨٨ وما بعدها على ما صدر من الأنبياء وما جاء فيهم في القرآن، وفي الآية الكريمة بيان عصمته ﷺ حتى من الركون والميل القليل إلى ما دعاه إليه الكفار وذلك بتثبيت الله عز وجل إياه.

(٢) رواه الترمذي ٢٨٦٦ بتهذيبي، والحاكم ٢/ ٣١٥ وسنده صحيح. وصححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي ولا يضر إرساله في طريق له.

ففي هذه الآية منزع لطيف المأخذ من تسليته تعالى له ﷺ وإلطافه في القول: بأن قرّر عنده أنه صادق عندهم، وأنهم غير مكذبين؛ له معترفون بصدقه قولاً واعتقادًا؛ فدفع بهذا التقرير اشتداد الأمر عليه بسمة الكذب، ثم جعل الذم لهم بتسميتهم جاحدين ظالمين، فقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾، وحاشاه من العيب، وطوقهم بالمعاندة بتكذيب الآيات حقيقة الظلم؛ إذ الجحدُ إنما يكون ممن علم الشيء ثم أنكره، كقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

ثم سلّاه وصبره وآنسه بما ذكره عمن قبله ووعده بالنصر بقوله: ﴿وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾.

ومما ذكر من خصائصه ﷺ وبر الله تعالى به أن الله تعالى خاطب جميع الأنبياء بأسمائهم فقال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ﴾ ﴿يَٰنُوحُ﴾ ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ ﴿يَٰدَاوُۥدُ﴾ ﴿يَٰعِيسَىٰٓ﴾ ﴿يَٰزَكَرِيَّآ﴾ ﴿يَٰيَحْيَىٰ﴾، ولم يخاطبه هو إلاَّ بـ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾[1].

قسمه تعالى بعظيم قدره ﷺ[2]

قال الله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر: ٧٢].

---

(١) ذكر هذا مبسوطًا أبو نعيم في الدلائل ٥/٦. وانظر تهذيبي للخصائص ص ٣٥٧.

(٢) ذكر الشيخ رحمه الله تعالى في هذا الفصل والذي يليه عدة أقسام أقسم الله تعالى بها تنويهًا بنبيّه ﷺ وتكريمًا له وتعظيمًا، وهي كالآتي:
أولاً: قسمه تعالى بعمره وحياته العطرة. **ثانيًا**: قسمه بالقرآن على أنه من المرسلين. **ثالثًا**: قسمه بالبلد الأمين، وهو حالّ فيه. **رابعًا**: قسمه بالضحى والليل على أنه ما تركه وما أبغضه. **خامسًا**: قسمه بالنجم على أنه ما ضلَّ وما غوى وما ينطق عن الهوى. **سادسًا**: قسمه بالقلم وما يسطرون على أنه ليس بمجنون، وأن له الأجر غير المقطوع، وأنه لعلى خلق عظيم. وكلها أقسام في نهاية العظمة على فضل هذا الرسول الكريم ﷺ.

اتفق أهل التفسير[1] في هذا أنه قسم من الله جل جلاله بمدة حياة حبيبنا محمد ﷺ، ومعناه: وبقائك يا محمد. أو: وعيشك وحياتك.. وهذه نهاية التعظيم، وغاية البر والتشريف.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ما خلق الله تعالى وما ذرأ وما برأ نفسًا أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله تعالى أقسم بحياة أحد غيره[2].

قسمه تعالى بالقرآن على أن نبينا لمن المرسلين

قال الله تعالى: ﴿يس ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝٤﴾ [يس: ١ ـ ٤]. فأقسم تعالى بكتابه الكريم على أنه ﷺ لمن المرسلين بوحيه إلى عباده، وعلى صراط مستقيم، أي: طريق لا اعوجاج فيه ولا عدول عن الحق. قال النقاش: لم يقسم الله تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا له. وفيه من تعظيمه بذلك وتمجيده ما لا يخفى.

---

(١) وكذا نقل ذلك القاضي أبو بكر في أحكام القرآن فقال: قال المفسرون بأجمعهم: أقسم الله تعالى ههنا بحياة سيدنا محمد ﷺ، وتبعه القرطبي على ذلك.
وهذا الذي لم يذكر سواه ابن جرير فقال ١٤/ ٤٤: يقول تعالى لنبيِّه سيدنا محمد ﷺ: وحياتك يا محمد إن قومك من قريش لفي شركهم يعمهون، يقول: لفي ضلالتهم وجهلهم يترددون.. قال: وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل... إلخ، ونحوه عند الألوسي وغيره، وأصل عمرك ضم العين ولكنها فتحت لكثرة الاستعمال، أما من قال: بأن القسم بعمر لوط فهو قول ضعيف، وإن قاله الزمخشري ومن تبعه.

(٢) رواه ابن جرير ١٤/ ٤٤ من طريقين عنه: أحدهما سنده صحيح، وكذا رواه أبو نعيم ١٢/ ١٣، والبيهقي كلاهما في الدلائل.

قسمه تعالى بالبلد الأمين لحلول نبي الله به

قال الله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾[1] [البلد: ١، ٢].

قيل: لا أقسم به إذا لم تكن فيه بعد خروجك منه. وقيل: «لا» زائدة، أي: أقسم به، وأنت به يا محمد حلال، أو حل لك ما فعلته فيه.. والمراد بالبلد عند هؤلاء: مكة.

وقوله: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾ من قال: «أراد آدم»؛ فهو عام، ومن قال: «هو إبراهيم وما ولد»؛ فهي إن شاء الله تعالى إشارة إلى حبيبنا محمد ﷺ، فتتضمن السورة القسم به ﷺ في موضعين.

قسمه تعالى جده له لتحقق مكانته عنده

قسمه بالضحى والليل على أنه ما تركه وما أبغضه

قال الله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى: ١ ـ ٣].

اختلف في سبب نزول هذه السورة، فقيل: كان ترك النبي ﷺ قيام الليل لعذر نزل به، فتكلمت امرأة في ذلك بكلام[2].

---

(١) معناه عند المفسرين: أقسم تعالى بالبلد الحرام، وهي مكة المكرمة التي شرَّفها الله تعالى وجعلها حرمًا آمنًا تشريفًا لها. ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾، أي: والحالة هذه وأنت يا رسولي ساكن مقيم بهذا البلد.

قال البيضاوي: أقسم بالبلد الحرام، وقيَّده بحلوله عليه السلام فيه إظهارًا لمزيد فضله وإشعارًا بأن شرف المكان بشرف أهله.. وأما قوله: ووالد وما ولد، فالمراد به آدم وما تناسل منه من الصالحين فهو قَسَمٌ ثانٍ بالأنبياء، ومنهم نبينا صلوات الله وسلامه عليهم.

(٢) هذا رواه أحمد ٤/ ٣١٢، ٣١٣، والبخاري في قيام الليل، وفي التفسير =

وقيل: بل تكلم به المشركون عند فترة الوحي؛ فنزلت السورة[1].

قال أبو الفضل رحمه الله تضمنت هذه السورة من كرامة الله له وتنويهه به وتعظيمه إياه سِتَّةَ وُجُوهٍ...

الأول: القسم له عما أخبره به. من حاله بقوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾، أي: ورب الضحى. وهذا من أعظم درجات المبرة.

الثاني: بيان مكانته عنده وحظوته لديه بقوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾، أي: ما تركك وما أبغضك. وقيل: ما أهملك بعد أن اصطفاك.

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤﴾، أي: مآلك في مرجعك عند الله، وما ادخر لك من الشفاعة والمقام المحمود خير لك وأعظم مما أعطاك في الدنيا.

الرابع: قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾، وهذه آية جامعة لوجوه الكرامة وأنواع السعادة وشتات الإنعام في الدارين والزيادة.

الخامس: ما عده تعالى عليه من نعمه وقرره من آلائه قِبَلَهُ في بقية السورة: من هدايته إلى ما هداه له، أو هداية الناس به ـ على اختلاف التفاسير ـ. ولا مال له فأغناه بما آتاه، أو بما جعل في قلبه من القناعة والغنى. ويتيمًا؛ فرَقّ له عمه وآواه إليه. ذكَّره بهذه المنن وأنه على المعلوم

= ١٠/ ٣٣٩، ٣٤٠، ومسلم في السير ١٣/ ٢٥٦، وغيرهم من حديث جندب بن سفيان قال: اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثًا فجاءت امرأة فقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث، فأنزل الله: والضحى... إلخ، والمرأة هي زوجة أبـي لهب لعنهما الله.

(١) هذا رواه الترمذي في التفسير ٣١٢٧ عن جندب، وحسَّنه وصححه، وأصله في الصحيحين.

من التفسير لم يهمله في حال صغره وعيلته ويُتمه، وقبل معرفته به، ولا ودعه ولا قلاه. فكيف بعد اختصاصه واصطفائه؟

السادس: أمره بإظهار نعمته عليه وشكر ما شرفه به بنشره وإشادة ذكره بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾، فإن من شُكر النعمة التحدث بها، وهذا خاص له عام لأمته.

سورة النجم وما انطوت عليه من فضائل وخصائص لنبينا ﷺ

قال الله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [النجم: ١ ـ ١٨].

اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ﴾ بأقاويل معروفة، منها: النجم على ظاهره[١]. تضمنت هذه الآيات من فضله وشرفه العِد ما يقف دونه العَدُّ.

وأقسم تعالى اسمه على هداية المصطفى وتنزيهه عن الهوى وصدقه فيما تلا، وأنه وحي يوحى أوصله إليه عن الله جبريل وهو الشديد القوي، ثم أخبر تعالى عن فضيلته بقصة الإسراء، وانتهائه إلى سدرة المنتهى، وتصديق بصره فيما رأى، وأنه رأى من آيات ربه الكبرى. ولما كان ما كاشفه ﷺ من ذلك الجبروت وشاهده من عجائب الملكوت لا تحيط به العبارات، ولا

---

(١) ذهب ابن عباس ومجاهد وسفيان الثوري وغيرهم إلى أن النجم هنا المراد به الثريا، واختاره ابن جرير ٢٦/ ٤١. فأقسم تعالى بهذا النجم ـ لما فيه من المنفعة والمعلمة للعباد، إذا هوى وسقط غائبًا عن الأفق ـ على براءة الرسول ﷺ من الضلال والغي والكذب، كما اتهمه بذلك كفار قريش. ثم استرسل يعدِّد ما تفضل به عليه من نعمة المعراج.

وهذه السورة مع سورة الإسراء، كلاهما تتحدثان عن معجزة الإسراء، وسيأتي ذلك.

تستقل بحمل سماع أدناه العقول؛ رمز عنه تعالى بالإيماء والكناية الدالة على التعظيم فقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾، وقال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾، انحسرت الأفهام عن تفصيل ما أوحى، وتاهت الأحلام في تعيين تلك الآيات الكبرى.

قال أبو الفضل رحمه الله تعالى: اشتملت هذه الآيات على إعلام الله تعالى بتزكية جملته ﷺ وعصمتها من الآفات في هذا المسرى؛ فزكّى فؤاده، ولسانه، وجوارحه.

فقلبه، بقوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾، ولسانه بقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾﴾، وبصره بقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾.

قسمه تعالى بالنجوم والليل والصبح على أن هذا القرآن هو وحي من الله جاء به جبريل وأن النبي ليس بمجنون

قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾، إلى قوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [التكوير: ١٥ ـ ٢٥].

أي: أقسم أنه (لقول رسول كريم) أي: كريم عند مرسله (ذي قوة) على تبليغ ما حمله من الوحي (مكين) أي: متمكن المنزلة من ربه رفيع المحل عنده. مطاع ثَمّ، أي: في السماء (أمين) على الوحي. وهذه الأوصاف كلها لجبريل(١).

---

(١) هذا قول جمهور المفسِّرين، ولم يذكر ابن جرير غيره ٣٠/ ٧٩، ٨٠.
وقوله: ﴿بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾﴾، ﴿ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾... إلخ كل منهما صفة للنجوم، فالخنس جمع خانس، وهي الكواكب المضيئة التي تخنس وتختفي عن الأبصار نهارًا. =

وقوله: ولقد رأى، يعني: محمدًا ﷺ رأى جبريل في صورته.. ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الغَيْبِ بِظَنِينٍ﴾، أي بمتهم، ومن قرأها بالضاد فمعناه: ما هو ببخيل بالدعاء، والتذكير بحكمه وبعلمه، وهذه لحبيبنا محمد ﷺ باتفاق.

قسمه تعالى
بالقلم وما يسطرون على تبرئته من الجنون
وأن له الأجر غير الممنون وأنه لعلى خلق عظيم

قال تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾[1]

= والكنس جمع كانس، وهي النجوم التي تغيب ليلاً. وقوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧﴾، أي: أقبل بظلامه، وقوله: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾، أي: أضاء وتبلج واتسع ضياؤه.

أقسم تعالى بهذه الكائنات والآيات الباهرات الدالة عليه على أن ما يقوله الرسول ﷺ وما أتى به ليس كما يقوله المشركون من أنه سحر أو شعر وكهانة.. وإنما هو كلام الله عز وجل، جاء به جبريل، ذلك الملك العظيم الذي وصفه بأنه رسول كريم... إلخ، ثم نفى الجنون عن رسولنا الكريم، وأنه رأى جبريل بين السماء والأرض، وأنه ليس بمتهم على ما جاء به، ولا ببخيل عليه بتبليغ ما أمر به، وأن هذا القرآن ليس من قول الشيطان، كما زعم أولئك الجاحدون المعاندون.

فما هو إلاّ ذكر للعالمين وموعظة لمن شاء أن يتبع الحق ويسلك طريق الأبرار.

وقد اغتر الزمخشري في كشافه بهذه الأوصاف التي جاءت في جبريل مع اقتصاره تعالى على نفي الجنون عن نبينا ﷺ، ففضل جبريل عليه ﷺ، وجهل أو تجاهل ما جاء في القرآن الكريم من التنويه بقدره ﷺ وفضائله وخصائصه... التي تؤهله للتفوق على كل مخلوق أيًا كان، لكنَّ الزمخشري مشى على مذهبه الاعتزالي في تفضيل الملائكة على البشر مطلقًا، وهو خطأ واضح.

(١) أقسم هنا بالقلم وما يكتب به من العلوم والمعارف عبر العصور والأجيال على أمور ثلاثة: تبرئة الرسول ﷺ من الجنون، وأن له أجرًا غير مقطوع، وأنه مفطور على الأخلاق الطيبة والشمائل الكريمة.

[القلم: ١، ٢]، أقسم الله تعالى بما أقسم به من عظيم قسمه على تنزيه المصطفى مما غمصه الكفرة به وتكذيبهم له، وآنسه وبسط أمله بقوله محسنًا خطابه: ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ ﴾. وهذه نهاية المبرة في المخاطبة، وأعلا درجات الآداب في المحاورة.

ثم أعلمه بما له عنده من نعيم دائم وثواب غير منقطع لا يأخذه عَدٌّ ولا يمن به عليه فقال: ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ ﴾. ثم أثنى عليه بما منحه من هباته وهداه إليه وأكد ذلك تتميمًا للتمجيد بحرف التأكيد فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾، قيل: القرآن[1]. وقيل: الإسلام. وقيل: الطبع الكريم. وقيل: ليس لك همة إلاَّ الله تعالى. فأثنى عليه بحسن قبوله لما أسداه إليه من نعمه، وفضله بذلك على غيره؛ لأنه جبله على ذلك الخلق، فسبحان اللطيف الكريم المحسن الجواد الحميد الذي يسر للخير وهدى إليه. ثم أثنى على فاعله وجازاه عليه سبحانه ما أنمى نواله وأوسع إفضاله. ثم سلاه عن قولهم بعد هذا بما وعده به من عقابهم وتوعدهم بقوله: ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾ الثلاث الآيات. ثم عطف بعد مدحه على ذم عدوه وذكر سوء خلقه، وعَدّ معايبه، متوليًا ذلك بفضله ومنتصرًا لنبيه ﷺ، فذكر بضع عشرة خصلة من خصال

---

(١) لا منافاة بين هذه الأقوال، غير أنه جاء في صحيح مسلم وغيره عن السيدة الطيبة مولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها، وقد سئلت عن خُلق رسول الله فقالت: كان خلقه القرآن. وسيأتي في أخلاقه.

والآيات الكريمات التي جاءت هنا بالذم والطعن والتهديد نزلت في الوليد بن المغيرة وكان دعيا ابن بغي ساقطًا، ولذلك وصفه الله عز وجل بتلك الأوصاف النابية السافلة التي عمَّت وشملت كل خلق سيِّيء خسيس تتصف به البشرية.

وقوله: ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾، معناه أنه سيجعل على أنفه علامة بالخطم عليه يُعرف بها إلى موته. وقد خطم أنفه يوم بدر بالسيف.

الذم فيه بقوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾.

ثم ختم ذلك بالوعيد الصادق بتمام شقائه وخاتمة بواره بقوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ فكانت نصرةُ الله تعالى له أتمَّ من نصرته لنفسه، وردَّه تعالى على عدوه أبلغ من رده وأثبت في ديوان مجده.

ما ورد من قوله تعالى في جهته ﷺ مورد الشفقة والإكرام

قال تعالى: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾﴾ [طه: ١ ـ ٣].

اختلفت أقوال المفسرين وأهل التأويل في كلمة «طه»، فقيل: هي من الحروف المقطعة، وقيل: معناه: يا رجل. وقيل غير ذلك[(١)].

ولا خفاء فيما في هذه الآية من الإكرام وحسن المعاملة والشفقة،

---

(١) الجمهور على أن معناه: يا رجل، وردَ ذلك عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد وابن جبير وعطاء والحسن وقتادة والضحاك في آخرين. أوردهم ابن جرير ١٧/ ١٣٥، ١٣٦، واختاره، فقال: والذي هو أولى بالصواب عندي من الأقوال فيه: قول من قال معناه: يا رجل، لأنها كلمة معروفة في مكة فيما بلغني.. إلخ، وتبعه ابن كثير وغيره. وعلى كلٍّ فالآية ظاهرة في مبرته تعالى نبيه ورحمته به وحسن معاملته، فيكون المعنى على ما قال جمهور المفسرين: يا رجل، ما أنزلنا عليك هذا القرآن لتشقى بإتعاب نفسك، وحملها على المشاق، والمبالغة في مكابدة الشدائد من: قيام الليل ومجاورة الطغاة وفرط التأسُّف على كفرهم وعدم إيمانهم، بل أنزلناه تذكرةً وموعظةً ورحمةً ونورًا ودليلًا لمن يخشى.

ومثل هذا في المبرة قوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[1] [الكهف: ٦].

أي: قاتل نفسك لذلك غضبًا أو غيظًا أو جزعًا.

ومثله قوله تعالى أيضًا: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾[2] [الشعراء: ٣، ٤].

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾[3] [الحجر: ٩٤، ٩٩].

---

(١) ﴿ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ ﴾، أي: قاتلها غمًا وغيظًا، وقوله: (أسفًا)، أي: حزنًا، أي: لعلك مهلك نفسك وقاتلها لإعراضهم وعدم إيمانهم بهذا القرآن.

(٢) قوله: (إن نشأ...) إلخ، معناه: لا تحزن على عدم إيمانهم؛ فلو شئنا إيمانهم لأنزلنا معجزة تأخذ بقلوبهم فيؤمنون، قهرًا عليهم. ولكن سبق في علمنا شقاؤهم فأرح نفسك من التعب.

وبعبارة أخرى: لو شئنا لأنزلنا آية من السماء تضطرّهم إلى الإيمان قهرًا فتظل أعناقهم منقادة خاضعة للإيمان قسرًا وقهرًا، ولكن لا نفعل لأننا نريد أن يكون إيمانهم اختياريًا لا اضطراريًا.

(٣) قوله: ﴿ فَٱصۡدَعۡ... ﴾ إلخ، أي: اجهر بما أمرتك به وبلغه للناس ولا تلتفت إلى ما يقول المشركون. إنا كفيناك شر أعدائك الساخرين بإهلاكنا إياهم. وقد فعل عز وجل؛ فأباد جميع من كان يؤذيه ويسخر منه.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ... ﴾ إلخ يعني: باستهزائهم بك وتكذيبهم إياك ورميهم إياك بالعظائم، وفي هذا ما لا يخفى من نمط الشفقة عليه ﷺ.

وقوله: ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ... ﴾ إلخ، أي: نزِّه ربك واحمده وأقبل عليه بالتعبُّد وصلِّ له حتى يأتيك أجلك، فلا تلتفت إلى ما يرمونك به وما يقولون فيك وفي القرآن.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[1] [الأنبياء: ٤١].

قال المفسرون: سلاه تعالى بما ذكر وهون عليه ما يلقاه من المشركين، وأعلمه أن من تمادى على ذلك يحل به ما حل بمن قبله.

ومثل هذه التسلية قوله تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾[2] [فاطر: ٤].

ومن هذا قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ[3] مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٢].

عزاه الله تعالى بما أخبر به عن الأمم السالفة ومقالتها لأنبيائهم قبله ومحنتهم بهم، وسلاه بذلك عن محنته بمثله من كفار مكة، وأنه ليس أول من لقي ذلك ثم أمره بالإعراض عنهم بقوله: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ ﴾، أي لا تلام في أداء ما بلغت وإبلاغ ما حملت فقد بذلت الجهد وأديت الأمانة.

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨]، أي اصبر على أذاهم فإنك بحيث نراك ونحفظك. سلاه الله تعالى بهذا في آي كثيرة من هذا المعنى.

---

(١) الاستهزاء هو السخرية والضحك والتهكم، وقوله: ﴿فحاق...﴾ إلخ، أي: فحل ونزل بهم جزاء ما كانوا به يسخرون، وذلك في الدنيا بالهلاك والإبادة، وفي الآخرة بالنار والعذاب الأليم الخالد.

(٢) يعني إذا قابلك قومك بالتكذيب فلست بأول من فعل به ذلك، فقد كذبت الأمم الرسل من قبلك، فلك بهم أسوة.

(٣) أي: كما كذبك قومك يا حبيبي وقالوا عنك: «ساحر مجنون»... كذلك قال المكذبون الأولون لرسلهم، فلا تحزن لما يقول المجرمون.

ما أخبر الله تعالى به في كتابه العزيز من عظيم قدره وشريف منزلته على الأنبياء، وحظوة رتبته عليهم

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١].

قال العلماء: استخص الله تعالى سيدنا محمدًا ﷺ بفضل لم يؤته غيره أبانه به. وهو ما ذكره في هذه الآية.

قال المفسرون[1]: أخذ الله الميثاق بالوحي فلم يبعث نبيًا إلاَّ ذكر له محمدًا ونعته وأخذ عليه ميثاقه إن أدركه ليؤمنن به. وقيل: أن يبينه لقومه

(١) أي: جمهورهم، وهذا التفسير هو المختار، وهو الذي رجحه ابن جرير ٣/ ٣٣٣.
وقوله: ﴿مِيثَٰقَ...﴾ إلخ، الميثاق هو العهد المؤكد. وقوله: ﴿إِصْرِى﴾ الأصل فيه الشيء الثقيل، ومعناه هنا: عهدي، و ﴿لَمَآ﴾ في قوله: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم﴾، اختلف فيها على أقوال، قيل: شرطية بمعنى مهما. ورجحه ابن جرير. وقيل: موصولة، أي: للذين أتيناكم. وما بعدها صلتها، وقيل: مصدرية، أي: لأجل إتياني إياكم بعض الكتاب... إلخ، ومعنى الآية على كل الوجوه: واذكروا يا أهل الكتاب حين أخذ الله العهد المؤكد على النبيين لما آتيناكم، أي: لمهما أعطيناكم أيها النبيون من كتاب وحكمة أو للذي أتيناكم به، أو من أجل ما أتيناكم... إلخ، ثم أتاكم رسول من عندي بكتاب مصدق لما بين أيديكم وهو رسولنا محمد ﷺ لتصدقنه وتنصرنه، أأقررتم واعترفتم بهذا الميثاق وأخذتم عليه عهدي الثقيل؟ قالوا: أقررنا واعترفنا بذلك. قال: فاشهدوا على أنفسكم وأتباعكم وإنا معكم في جملة الشاهدين عليكم وعليهم، فمن تولى وأعرض ونكث هذا العهد بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون والخارجون عن طاعتي.

ويأخذ ميثاقهم أن يبينوه لمن بعدهم. وقوله: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ﴾ الخطاب لأهل الكتاب المعاصرين لسيدنا محمد ﷺ.

قال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: «لم يبعث الله نبيًا من آدم فمن بعده إلاَّ أخذ عليه العهد في محمد ﷺ لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، ويأخُذُنَّ العهد بذلك على قومه»(١).

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ۝٧﴾(٢) [الأحزاب: ٧].

وقال عز من قائل: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ۝١٦٣ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ۝١٦٤ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٦٥ لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾(٣) [النساء: ١٦٣ ـ ١٦٦].

---

(١) أخرجه ابن جرير ٣/ ٣٣٢ عنه، وعن السدي وقتادة والحسن.

(٢) هذا من جملة فضائله ﷺ، حيث قدمه في الذكر على أولي العزم وأكابر حاملي الرسالات. ومعنى الآية: واذكر وقت أخذنا من النبيين ﷺ العهد المؤكد باليمين أن يقوموا بما التزموا به، وأن يصدق بعضهم بعضًا، وأن يؤمنوا برسالات جميعهم، ومنهم خاتمهم الحبيب محمد ﷺ، وأخذنا منك يا محمد الميثاق ومن إخوانك الذين سبقوك من أولي العزم، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، فهؤلاء هم مشاهير الرسل وأرباب الشرائع الإلـٰهية، وقدم نبينا ﷺ تعظيمًا له وتشريفًا لشأنه ومزيدًا لشرفه، ثم رتب سائرهم حسب وجودهم في الزمان.

(٣) وهذه أيضًا من جملة فضائله؛ فهي كسابقتها حيث قدمه ﷺ في الذكر على سائر الأنبياء والرسل الخاص منهم والعام، وإن تأخرت عنهم نبوته؛ وذلك لتقدُّمه عليهم في الفضل ﷺ.

ففي ذلك تفضيل نبينا ﷺ لتخصيصه بالذكر قبلهم وهو آخرهم بعثًا.

وقال تعالى: ﴿ ۞ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾[1] [البقرة: ٢٥٣].

قال أهل التفسير: أراد بقوله: ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ حبيبنا محمدًا ﷺ، لأنه بعث إلى الأحمر والأسود، وأحلت له الغنائم، وظهرت على يديه المعجزات، وليس أحد من الأنبياء أعطي فضيلة أو كرامة إلاَّ وقد أعطي ﷺ مثلها[2].

رفع العذاب عن قومه بسببه
وإعلان الله تعالى خلقه بصلاته عليه وولايته له

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال: ٣٣]، أي: لا يعذبهم ما كنت بمكة المكرمة. فلما خرج ﷺ من مكة، وبقي فيها من بقي من المؤمنين، نزل: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[3]

---

(١) التفاضل بين الأنبياء والرسل واقع مقطوع به، فهم متفاضلون حسب ما خصُّوا به من الفضائل والمكارم والدرجات عند الله. ولذلك ذكر هنا بعض ذلك بقوله: منهم من كلَّم الله، وذلك كآدم وموسى ونبينا محمد ﷺ، كلمهم بدون واسطة ولا سفير. وهذه خصيصة فضِّلوا بها على غيرهم.
وقوله: ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾.. هو نبينا ﷺ بالاتفاق، لأنه مفضل على كافة الرسل.

(٢) وقد ذكر جملة منها أبو نعيم، والبيهقي في الدلائل، والسيوطي في الخصائص، والقسطلاني في المواهب؛ فَصَرَدُوا نموذجًا مما أعطيه الأنبياء، ثم أوتي نبينا مثله، وهذا غاية الفضل والشرف.

(٣) ما ذكره المؤلف هنا في هذه الآية هما قولان من جملة أقوال ثمانية للمفسرين، أورد ابن جرير منها سبعة، واختار ما ذكره بقوله: ٩/ ٣٣٨: وأولى هذه الأقوال =

[الأنفال: ٣٣]، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفتح: ٣٥][1].

فلما هاجر المؤمنون نزلت: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[2] [الأنفال: ٤٣].

وهذا من أبين ما يُظهر مكانته ﷺ ودفعه العذاب عن أهل مكة بسبب كونه، ثم كون أصحابه بعده بين أظهرهم. فلما خلت مكة منهم عذَّبهم الله

= عندي في ذلك بالصواب قول من قال: تأويله: «وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم»، يا محمد، وبين أظهرهم مقيم حتى أخرجك من بين أظهرهم، لأني لا أهلك قرية وفيها نبيها، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون من ذنوبهم وكفرهم، ولكنهم لا يستغفرون من ذلك، بل هم مصرون عليه فهم للعذاب مستحقون.. وبهذا قال ابن عباس وابن جبير وعكرمة ومجاهد والسدي وغيرهم، واختار هذا القول الحافظ في الفتح.

وفي التفسير من صحيح البخاري ٩/ ٣٧٩: عن أنس رضي الله عنه قال: قال أبو جهل: اللّـٰهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة... إلخ فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الأنفال: ٣٣، ٣٤].

(١) هذه الآية الكريمة جاءت تتحدث عن المؤمنين والكافرين في قصة الحديبية، ومعنى الآية: لولا كراهة أن تهلكوا أناسًا مؤمنين بين أظهر الكفار حال كونكم جاهلين بهم فيصيبكم بإهلاكهم مكروه لما كف أيديكم عنهم ولأذن لكم في القتال والفتح، فلو تزيلوا وتفرقوا وتميز بعضهم عن بعض، وانفصل المؤمنون عن الكفار لعذبنا الكافرين أشد العذاب.

(٢) أي: وما شأنهم وما يمنعهم أن يعذبهم الله وهم يمنعون المؤمنين عن المسجد الحرام.

تعالى بتسليط المؤمنين عليهم وغلبتهم إياهم، وحكَّم فيه سيوفهم وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم. . . إلخ.

وقال ﷺ: «أنا أمان لأصحابي»[1]، قيل: أمان لهم من البدع. وقيل: من الاختلاف والفتن[2]. فهو ﷺ الأمان الأعظم ما عاش، وما دامت سنته قائمة، فإذا أميتت سنته جاء البلاء وتوالت الفتن[3].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦].

أبان الله تعالى فضل نبيه ﷺ بصلاته عليه، ثم بصلاة ملائكته وأمر عباده بالصلاة والتسليم عليه.

وهي من الله عزَّ وجلّ رحمةٌ، ومن الملائكة ومنا دُعَاءٌ، وسيأتي البحث في الصلاة عليه ﷺ.

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٣٩٩، ومسلم في الفضائل ١٦/ ٨٢، ٨٣، وابن حبان ١٦/ ٢٣٤ من حديث أبي موسى قال: صلينا المغرب مع رسول الله ﷺ. . فذكر الحديث وفيه: «النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون».

(٢) كل ذلك مراد، وقد حصل ما تنبأ به، فقد وقعت فتنٌ وحروب وَرِدَّةٌ وأمور خطيرة بعد موته، وهكذا بالنسبة لأصحابه فقد كان الدين أيامهم ظاهرًا وهم على عقيدة واحدة وسلوك واحد وعلى الجادة التي تركهم عليها رسول الله ﷺ، ولكنهم عندما انقرضوا ظهرت البدع وانتشر الفساد وعم الظلم البلاد.

(٣) وهو الداء العضال الذي نزل بالأمة جزاء انحرافها وإخلادها إلى الحياة.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾[1] [التحريم: ٤].

﴿مَوْلَىٰهُ﴾، أي: وليه ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: الأنبياء. وقيل: الملائكة. وقيل: أبو بكر وعمر وعلي رضي الله تعالى عنهم. وقيل: المؤمنون، على ظاهره.

ما تضمنته سورة الفتح من كرامته ﷺ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح: ١ ــ ١٠].

تضمنت هذه الآيات من فضله، والثناء عليه، وتكريم منزلته عند الله تعالى ونعمته لديه ما يقصر الوصف عن الانتهاء إليه.

فابتدأ جل جلاله بإعلامه بما قضاه له من القضاء البين، بظهوره وغلبته على عدوه، وعلو كلمته وشريعته، وأنه مغفور له غير مؤاخذ بما كان وما

---

(١) تظاهرا، أي: تتعاونا عليه والكلام هنا مع السيدتين عائشة وحفصة رضي الله تعالى عنهما، عندما تعاونتا عليه في شأن شربه العسل عند زينب أو تحريم مارية على نفسه، وفي الآية فضل عظيم وعناية كاملة بنبيه ﷺ، حيث أخبره بأنه وليه وناصره، وكذا جبريل وملائكته تعالى وصالح المؤمنين، فالكل ظهير وعون له ﷺ فماذا يغني تظاهر امرأتين من نسائه عليه مع هذه الجيوش الجرارة يرأسها ربها ومدبر الأرض والسماء، فلا جرم أنه عليه الصلاة والسلام لا يغلب ولا يقهر، وفي الآية الكريمة تأديب وعتاب لنسائه ﷺ ولكل من رام سوء الأدب معه.
ومع هذا العتاب للسيدتين في الآية فلا تظنن أن في ذلك غضاضة لهما ولا ذمًّا ولا نقصًا لجنابهما، فقد تجاوز الله عنهما وغفر لهما وهما من جملة زوجاته الطاهرات في الجنة.

يكون أراد غفران ما وقع وما لم يقع. وجعل سبحانه امتنانه عليه بالفتح سببًا للمغفرة، والكل من عنده لا إلـه غيره، منة بعد منة وفضلاً بعد فضل.

ثم قال: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ [الفتح: ٢]، قيل: بفتح مكة والطائف، وقيل: يرفع ذكرك في الدنيا وينصرك ويغفر لك. فأعلمه بتمام نعمته عليه بخضوع متكبري عدوه له وفتح أهم البلاد عليه وأحبها له، ورفع ذكره وهدايته الصراط المستقيم المبلغ الجنة والسعادة، ونصره النصر العزيز.

ومِنَّته على أمته المؤمنين بالسكينة والطمأنينة التي جعلها في قلوبهم، وبشارتهم بما لهم عند ربهم بعدُ، وفوزهم العظيم، والعفو عنهم، والستر لذنوبهم، وهلاك عدوهم في الدنيا والآخرة، ولعنهم وبعدهم من رحمته، وسوء متقلبهم. وذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦﴾. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾ [الفتح: ٤ ـ ٨].

فعد محاسنه وخصائصه من شهادته على أمته لنفسه بالتبليغ لهم. وقيل: شهيدًا لهم بالتوحيد، ومبشرًا لأمته بالثواب. وقيل: بالمغفرة، ومنذرًا عدوه بالعذاب. وقيل: محذرًا من الضلالات ليؤمن بالله ثم به من سبقت له من الله الحسنى.

ويعزروه، أي: يجلونه. وقيل: ينصرونه وقيل يبالغون في تعظيمه.

ويوقروه، أي: يعظمونه ويحترمونه؛ وهذا في حقه ﷺ.

ثم قال: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾ [الفتح: ٩]، هذا راجع إلى الله تعالى باتفاق. قال الإمام جعفر بن محمد الباقر رضي الله تعالى عنهما: من تمام نعمته عليه أن جعله حبيبه، وأقسم بحياته، ونسخ به شرائع غيره،

وعرج به إلى المحل الأعلى، وحفظه في المعراج حتى ما زاغ البصر وما طغى، وبعثه إلى الأحمر والأسود، وأحل له ولأمته الغنائم، وجعله شفيعًا مشفعًا، وسيد ولد آدم، وقرن ذكره بذكره، ورضاه برضاه، وجعله أحد ركني التوحيد[1].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ﴾ [الفتح: ١٠]، يعني بيعة الرضوان[2]، أي: إنما يبايعون الله ببيعتهم إياك. ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، يريد عند البيعة. قيل: قوة الله. وقيل: ثوابه. وقيل: منته. وقيل: عقده[3]. وهذه استعارات وتجنيس في الكلام، وتأكيد لعقد بيعتهم إياه، وعظم شأن المُبايع ﷺ.

وقد يكون من هذا قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، وإن كان الأول في باب المجاز[4] وهذا في باب الحقيقة، لأن القاتل والرامي بالحقيقة هو الله، وهو

---

(١) هذه الفضائل ستأتي مفصلة للمؤلف إن شاء الله تعالى ص ١٦٢ وما بعدها.

(٢) وهي التي بايع فيها الصحابة بالحديبية تحت الشجرة على الموت، وكانت في السنة السادسة، وكانوا ألفًا وأربعمائة، وقد أخبر الله تعالى عنهم بأنه رضي عنهم، وجاء عن النبي ﷺ بأنهم مغفور لهم ولا يدخل أحد منهم النار.

(٣) هذه أقوال للخلف في يد الله عز وجل، وهكذا يؤولون آيات وأحاديث الصفات، ومذهب السلف وهو مذهب أهل الحديث إبقاء ذلك على ظاهره مع تفويض حقيقته ومعناه إلى الله تعالى فتفسيره هو قراءته وإمراره كما جاء. علمًا بأن الله عز وجل منزَّه عن الجارحة ومماثلته لخلقه، وأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

فالتوحيد إثبات وجود ذات لا تشبه الذوات، غير معطلة عن الأسماء والصفات وما سوى ذلك فبدع ووساوس ودخول فيما لا يعني.

(٤) هذا لا داعي له فإن مذهب السلف على خلافه كما عرفتَ قبل.

خالق فعله ورميه وقدرته عليه ومشيئته، ولأنه ليس في قدرة البشر توصيل تلك الرمية حيث وصلت حتى لم يبق منهم من لم تملأ عينيه، وكذلك قتل الملائكة لهم حقيقة. وقد قيل في هذه الآية الأخرى: إنها على المجاز العربي، ومقابلة اللفظ ومناسبته، أي: ما قتلتموهم وما رميتهم أنت إذ رميت وجوههم بالحصباء، والتراب، ولكن الله رمى قلوبهم بالجزع، أي: إن منفعة الرمي كانت من فعل الله، فهو القاتل والرامي بالمعنى وأنت بالاسم[1].

ما أظهره الله تعالى في كتابه العزيز من كرامته عليه ومكانته عنده وما خص به من ذلك سوى ما انتظم فيما ذكرناه قبل

من ذلك ما قص الله تعالى من قصة الإسراء في سورة (سبحان) و (النجم) وما انطوت عليه القصة من عظيم منزلته وقربه ومشاهدته ما شاهد من العجائب[2].

ومن ذلك عصمته من الناس بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[3] [المائدة: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾[4] [الأنفال: ٣٠].

---

(١) فالآية الكريمة صريحة في أن الله هو الفاعل وحده وهو خالق فعل الرامي والقاتل، فهي كنحو قوله تعالى حكاية عن الخليل عليه السلام: «والله خلقكم وما تعلمون».
وهذا لا ينافي كسب الإنسان الذي جعل الله الثواب والعقاب مرتبين عليه.

(٢) حادث الإسراء والمعراج سيأتي له محل خاص إن شاء الله تعالى ص ١٦٨.

(٣) سيأتي الكلام على عصمته من الناس في بحث خاص ص ٢٩٢.

(٤) اتفق المفسرون على أن هذه الآية نزلت تذكرةً للنبي ﷺ بنعمته عليه؛ حيث أنجاه =

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾[1] [التوبة: ٤٠].

وما دفع الله به عنه في هذه القصة من أذاهم بعد تحريهم لهلكه، وخلوصهم نجيا في أمره، والأخذ على أبصارهم عند خروجه عليهم وذهولهم عن طلبه في الغار، وما ظهر في ذلك من الآيات، ونزول السكينة عليه، وقصة سراقة بن مالك[2] حسبما ذكره أهل الحديث والسيرة في قصة الغار وحديث الهجرة.

= مما تآمر به عليه المشركون قبل هجرته حيث عقدوا مؤتمرًا ضده، فأدلى كلٌّ في شأنه بما أوحاه إليه شيطانه، فقال بعضهم: نثبته، أي: نوثقه ونحبسه حتى يموت. وقال آخر: نخرجه ونطرده من بلادنا. وقال ثالث: بل نقتله. فاتفقوا على ذلك، ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين، فخيَّب الله سعيهم وأعمى أبصارهم فخرج من بيته ليلاً ومرَّ بينهم فلم يشعروا به.

وقد جاء بما ذكر في الآية حديث عن ابن عباس. رواه أحمد ١/ ٣٤٨. وانظر: مجمع الزوائد ٧/ ٢٧، وللقصة طرق وشواهد عند ابن إسحاق وغيره.

(١) وهذه الآية هي الأخرى تتحدث عما أنعم الله تعالى عليه من النصر المبين على الأعداء، وأيده بجنود لا قبل لأحد بها، وأنزل سكينته عليه ولم يكن معه من الناس غير صاحبه الصديق رضي الله تعالى عنه.

والآية جاءت في أعقاب التوبيخ والعتاب الذي وجه لمن تخلف عن غزوة تبوك، بداية من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ [التوبة: ٣٨]، إلى أن قال: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ ﴾ [التوبة: ٤٠]، يعني: إذا تخلفتم وتركتموه ولم تنصروه فسينصره الله تعالى الذي نصره وحده حين كان ثاني اثنين، أي: أحد اثنين لا ثالث لهما حيث كانا في الغار وهو يطمئن قلب صاحبه بقوله: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾، وبقوله ﷺ: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما». رواه البخاري في المناقب ٨/ ١١، وفي الهجرة النبوية ٢٦٠٠، وكذا رواه مسلم.

(٢) رواه أحمد ٤/ ١٧٥، ١٧٦، والبخاري في الهجرة ٨/ ٢٣٩، ٢٤٢، وجاء من حديث الصديق: رواه أحمد ١/ ٢، ٣، والبهخاري في علامات النبوة ٧/ ٤٣٥، ٤٣٦، وفي المناقب. ومسلم في الزهد ١٨/ ١٤٧، ١٥٠، ١٥١. وجاء أيضًا من =

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر: ١ ـ ٣]، أعلمه الله تعالى بما أعطاه. والكوثر: حوضه، وقيل: نهر في الجنة[1]، وقيل: الخير الكثير، وقيل: الشفاعة، وقيل: المعجزات الكثيرة، وقيل: النبوة، وقيل: المعرفة. ثم أجاب عنه عدوه ورد عليه قوله: فقال تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾، أي عدوك ومبغضك[2] هو الأبتر الحقير الذليل أو المفرد الوحيد أو الذي لا خير فيه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧﴾ [الحجر: ١٥].

قيل: السبع المثاني السور الطوال الأول، والقرآن العظيم أم القرآن. وقيل: السبع المثاني أم القرآن، والقرآن العظيم سائره. وقيل السبع المثاني ما في القرآن من أمر ونهي، وبشرى وإنذار، وضرب مثل وإعداد نعم،

= حديث البراء عند البخاري في الهجرة ٨/ ٢٤٦، ومسلم في الأشربة ١٣/ ١٧٩، ١٨٠، وأحمد ٤/ ٢٨٠، ٢٨١ مطولاً. وانظر: ألفاظهم عند مخرجيها.

(١) ما ذكره في الكوثر هي أقوال للمفسرين، والصحيح أنه نهر في الجنة خصَّه الله تعالى به والأحاديث به متواترة. وأحسن ما فسر به القرآن الوارد فيه أو في السنة. وقد أخرجه أحمد ٣/ ١٠٢، ومسلم في أوائل الصلاة ٤/ ١١٢، ١١٣ وغيرها عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد إذا غفي إغفاءة ثم رفع رأسه متبسمًا، قلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «لقد أنزلت عليَّ آنفًا سورة فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ...﴾ إلخ، ثم قال: «أتدرون ما الكوثر؟»... فإنه نهر في الجنة وعدنيه ربي عز وجل، عليه خير كثير، ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم في السماء... إلخ.

(٢) وهو العاص بن وائل أو أبو جهل لعنهما الله.

وآتيناك نبأ القرآن العظيم. وقيل: سميت أم القرآن مثاني لأنها تثنى في كل ركعة، وقيل: بل الله تعالى استثناها لحبيبه محمد ﷺ وذخرها له دون الأنبياء. وسمي القرآن مثاني لأن القصص تثنى فيه. وقيل: السبع المثاني: أكرمناك بسبع كرامات: الهدى والنبوة والرحمة والشفاعة والولاية والتعظيم والسكينة[1].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[2] [النحل: ٤٤].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ﴾ [سبأ: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ

(١) ما ذكره من الأقوال كلها تشملها الآية الكريمة، غير أن الذي ورد به النص الصحيح الصريح هو أنها الفاتحة.
فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم. رواه البخاري ٩/٤٥٣، والترمذي ٢٩٢٢ كلاهما في التفسير، ونحوه عن أبي سعيد بن المعلى، رواه أحمد ٣/ ٤٥٠، والبخاري ٩/ ٤٥٣ و ١٠/ ٤٣٠ وغيرهما. واختار هذا القول جمهور المفسرين. وذهب ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وابن جبير ومجاهد والضحاك إلى أنها السبع السور الطوال من البقرة إلى الأنفال مع التوبة كما ذكر ذلك ابن جرير وابن كثير وغيرهما، قال ابن كثير: لا ينافي وصف غيرها من السبع الطوال بذلك كما لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضًا، قال: فإن ذكر الشيء لا ينفي ذكر ما عداه إذا اشتركا في تلك الصفة... إلخ.

(٢) هذا امتنان من الله عز وجل على نبيه ﷺ بإنزال القرآن عليه الذي هو أشرف كتاب وأفضله وأوعاه وأجمعه للعلوم والمعارف والحقائق، ووكل سبحانه تبيينه وتفسيره إليه عليه الصلاة والسلام، ولذا قال له: وأنزلنا إليك يا رسولي الذكر، أي: القرآن المذكر الموقظ للقلوب الغافلة والفاتح للأفئدة المقفلة، لتبين للناس، أي: لتعرفهم الأحكام والحلال والحرام ومراد الله مما نزل إليهم.

﴿جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] فهذه من خصائصه ﷺ؛ فرسالته عامة لكل الأجيال[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، فخصهم بقومهم، وبعث الحبيب محمد ﷺ إلى الخلق كافة كما قال ﷺ: بعثت إلى الأحمر والأسود[2].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، قال أهل التفسير: ﴿أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ...﴾، أي: ما أنفذه فيهم من أمر فهو ماضٍ عليهم كما يمضي حكم السيد على عبده. وقيل: اتباع أمره أولى من اتباع رأي النفس[3].

---

(١) الآيتان صريحتان في عموم دعوته ﷺ إلى جميع الناس بداية من جيله ﷺ إلى قيام الساعة، فكل من سمع به ولم يؤمن به وبما جاء به كان من الهالكين ولا يقبل منه أيّ دينٍ غير الإسلام. وهذا مع كونه إجماعًا مقطوعًا به، هناك من طمس الله بصائرهم، وأعمى عن الحق قلوبهم، من فَيُسَاوون بين الأديان ويقولون كلها على الحق، وهذه ردة ممن ينتمي إلى الإسلام، وكفر بَوَاحٌ ممن يعتقده أو يقوله، ولو كان للإسلام حكم لأعدم بدون استتابة.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٨٥﴾ [آل عمران: ٨٥]، وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة عنه ﷺ: «لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، من يهودي ولا نصراني، ثم لم يؤمن بي وبَما جِئتُ بِه إلاَّ كانَ مِن أهْلِ النَّارِ».

وقوله تعالى: ﴿كَآفَّةً﴾ هو معنى جميعًا، فرسالته تشمل كل الأجناس والأمم..

(٢) الحديث رواه أحمد ٤/ ٤١٦ من حديث أبي موسى مطولاً بسند صحيح.

وجاء من حديث جابر: رواه مسلم في أول المساجد ٥/ ٣، ٤، وأبي ذر عند أحمد ٥/ ١٤٥، ١٤٦، وابن عباس رواه أحد أيضًا ١/ ٢٥٠.

(٣) فهو ﷺ أحق بهم من أنفسهم في كل شيء من أمور الدنيا والدين، وهو أرأف بهم وأعطف عليهم. وحكمه أنفذ، وطاعته أوجب.

﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾، أي: في الحرمة كالأمهات، حرم نكاحهن عليهم بعده تكرمة له وخصوصية، ولأنهن له أزواج في الجنة رضي الله تعالى عنهن وقدس سرهن.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾[(١)] [النساء: ١١٣].

قيل: فضله العظيم بالنبوة. وقيل: بما سبق له في الأزل.

* * *

(١) في ذلك امتنان عظيم من الله عز وجل على نبيه ﷺ بما أنزل عليه من هذا القرآن العظيم والكتاب المبين الخالد، وما أعطاه من السنة وعلمه من العلوم والحقائق، وما أطلعه عليه من المغيبات التي لم يكن له بها علم، وإن فضله عليه عظيم بما منحه من النبوة والوحي وأنواع النعم الدنيوية والأخروية التي لم يعطِها أحداً قبله ولا ينالها أحد بعده ﷺ.

الباب الثاني

في تكميل الله تعالى له المحاسنَ خَلْقًا وخُلقًا وقِرانه جميعَ الفضائل الدِّينية والدُّنيوية فِيه نسقًا

اعلم أيها المحب لهذا النبـي الكريم، الباحث عن تفاصيل جميل قدره العظيم، أن خصال الجمال والكمال في البشر نوعان: ضروري دنيوي؛ اقتضته الجبلة وضرورة الحياة، ومكتسب ديني؛ وهو ما يحمد فاعله ويقرب إلى الله زلفى. ثم هو على فنين أيضًا: منها ما يتخلص لأحد الوصفين، ومنها ما يتمازج ويتداخل.

فأما الضروري المحض: فما ليس للمرء فيه اختيار ولا اكتساب، مثل ما كان في جبلته من كمال خلقته وجمال صورته، وقوة عقله وصحة فهمه، وفصاحة لسانه، وقوة حواسه وأعضائه، واعتدال حركاته، وشرف نسبه، وعزة قومه وكرم أرضه، ويلحق به ما تدعوه ضرورة حياته إليه، من غذائه، ونومه، وملبسه، ومسكنه، ومنكحه، وماله وجاهه. وقد تلحق هذه الخصال الآخرة[1] بالأخروية إذا قصد بها التقوّي ومعونة البدن على سلوك طريقها، وكانت على حدود الضرورة وقواعد الشريعة.

---

(١) يعني من قوله: «من غذائه» إلى «جاهه»، ولهذا يذكر الأصوليون هذا القسم من أمور الجبلة مع هذا التفصيل الذي أشار إليه المؤلف هنا.

وأمـا المكتسبـة الأخـرويـة: فسـائـر الأخـلاق العمليـة والآداب الشرعية[1]، من: الدين، والعلم، والحلم، والصبر، والشكر، والعدل، والزهد، والتواضع، والعفو، والعفة، والجود، والشجاعة، والحياء، والمـروءة، والصَّمـت، والتُّـؤدة، والـوقـار، والـرحمـة، وحسـن الأدب والمعاشرة وأخواتها، وهي التي جماعها حسن الخلق...

وقد يكون من هذه الأخلاق ما هو في الغريزة وأصل الجبلة لبعض الناس، وبعضهم لا تكون فيه، فيكتسبها ولكنه لا بد أن يكون فيه من أصولها في أصل الجبلة، شعبة كما سنبينه إن شاء الله تعالى، وتكون هذه الأخلاق دنيوية إذا لم يُرد بها وجه الله والدار الآخرة، ولكنها كلها محاسن وفضائل بـاتفـاق أصحـاب العقـول السليمـة، وإن اختلفـوا فـي مـوجـب حسنهـا وتفضيلها...

قـال أبـو الفضـل رحمه الله تعالى: إذا كانت خصال الكمال والجلال ما ذكرناه ورأينا الواحد منا يتشرَّف بواحدة منها أو اثنتين ــ إن اتفقت له ــ فـي كـل عصـر، إمـا مـن نسـب، أو جمـال، أو قـوَّة، أو علـم، أو حلـم، أو شجاعة، أو سماحة، حتى يَعظُمَ قدرُه، ويُضرَب باسمه الأمثال، ويتقرر له بالوصف بذلك في القلوب أثَرةٌ وعظمة، وهو منذ عصور خَوَالٍ رِمَمٌ بَوَال[2]. فما ظنك بعِظَمِ قدْرِ من اجتمعت فيه كل هذه الخصال إلى ما لا يأخذه عد، ولا يعبِّر عنه مقال، ولا ينال بكسب ولا حيلة، إلاَّ بتخصيص الكبيـر المتعـالـي، مـن: فضيلـة النبـوَّة والـرسـالـة، والخلَّـة والمحبَّـة، والاصطفـاء، والإسـراء، والـرؤيـة، والـوحـي، والشفـاعـة، والـوسيلـة، والفضيلـة، والـدرجـة الـرفيعـة، والمقـام المحمـود، والبـراق والمعـراج،

---

(١) وهي التي أمرنا باتباعه والاقتداء به فيها وجوبًا أو استحبابًا.

(٢) أي: منذ أزمنة ماضية وعظام بالية.

والبعث إلى الأحمر والأسود، والصلاة بالأنبياء، والشهادة بين الأنبياء والأمم، وسيادة ولد آدم، ولواء الحمد، والبِشارة والنِّذارة، والأمانة، والهداية، ورحمة للعالمين، وإعطاء الرضى، والكوثر، وسماع القول، وإتمام النعمة، والعفو عما تقدَّم وما تأخَّر.

وشرح الصدر، ووضع الوزر، ورفع الذِّكر، وعزَّة النصر، ونزول السكينة، والتأييد بالملائكة، وإيتاء الكتاب والحكمة، والسبع المثاني والقرآن العظيم، وتزكية الأمة، والدعاء إلى الله، وصلاة الله تعالى والملائكة، والحكم بين الناس بما أمره الله، ورفع الإصر والأغلالِ عنهم، والقسم باسمه، وإجابة دعوته، وتكليم الجمادات والعجم، وإحياء الموتى، وإسماع الصمّ، ونبع الماء من بين أصابعه، وتكثير القليل، وانشقاق القمر، وقلب الأعيان، والنصر بالرعب، والاطِّلاع على الغيب، وظل الغمام، وتسبيح الحصا، وإبراء الآلام، والعصمة من الناس... إلى ما لا يحويه محتفل ولا يحيط بعلمه إلَّا مَانِحُهُ ذلك ومُفَضِّله به، لا إله غيره، إلى ما أعدَّ له في الدار الآخرة من منازل الكرامة، ودرجات القدس، ومراتب السعادة والحسنى والزيادة التي تقف دونها العقول، ويحار دون إدراكها الوهم(١).

قال أبو الفضل: إن قلت أكرمك الله لا خفاء على القطع بالجملة أنه ﷺ أعلا الناس قدرًا، وأعظمهم محلاًّ، وأكملهم محاسن وفضلاً، وقد

---

(١) في هذه الفضائل والخصائص ما هو ضعيف كذكره القرب والدنو إشارة لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا...﴾ إلخ، في سورة النجم؛ فإن ذلك كان بينه وبين جبريل، وكذا قوله: والمكانة عند ذي العرش، والطاعة ثَمَّ، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ...﴾ إلخ، فإن المراد به جبريل كما تقدم. وكذا قوله: ورد الشمس... إلخ. فإن الحديث بذلك ضعيف عند جمهور المحدثين.

ذهبت في تفاصيل خصال الكمال مذهبًا جميلاً شوَّقني إلى أن أقف عليها من أوصافه ﷺ تفصيلاً.

فاعلم ـ وفَّقني الله وإيَّاك ونوَّر قلبي وقلبك، وضاعف في هذا النبي الكريم حبي وحبك ـ أنَّك إذا نظرت إلى خصال الكمال التي هي غير مكتسبة وفي جبلة الخلقة، وجدته ﷺ حائزًا لجمعيها، محيطًا بشتات محاسنها دون خلاف بين نقلة الأخبار لذلك، بل قد بلغ بعضها مبلغ القطع.

صفته وصورته

أما الصورة وجمالها وتناسب أعضائه في حسنها، فقد جاءت الآثار الصحيحة والمشهورة الكثيرة بذلك، من حديث: علي، والبراء بن عازب، وأبي هريرة، وجابر بن سمرة، وأنس بن مالك، وكعب بن مالك، وأبي الطفيل، وابن عمر، ومُجَرِّش الكعبي، وعائشة، وأم هانىء، وأبي جحيفة... وغيرهم، رضي الله تعالى عنهم:

[ز] من أنه ﷺ كان أحسن الناس وجهًا، كالشمس والقمر، أزهر اللون، أبيض، مليحًا، مُقَصَّدًا، كأنما صِيغَ مِن فضَّة، أشكل العينين، أهدب الأشفار، ضليع الفم، شثن الكفين والقدمين، طويل الذِّراعين والكفين، ضخم الرأس والكراديس، منهوس العقبين، بريق الساقين، رجل الشعر فوق الجمة ودون الوفرة، وكانت له غدائير يوم فتح مكة، ليس بالطويل ولا بالقصير، طويل المسربة، إذا مشى تكفا كأنما ينحطّ من صَبَب، أضوأ الناس وأجود الناس وأشجع الناس. يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ(١).

---

(١) أورد المؤلف صفته ﷺ ملخصة من أحاديث مزيجة، فيها الصحيح والضعيف، فاقتصرت منها على بعض ما صحَّ وحذفت ما ضعف منها، وقوله: فقد جاءت الآثار الصحيحة...إلخ، أصحها وأشهرها ما أشرت إليه وسأخرجه بإذن الله تعالى: =

. . . .

=

فحديث علي عليه الصلاة والسلام: رواه الطيالسي ٢٤٠٩، وأحمد ١/ ٩٦، ١٠١، ١٢٧، ١٥١، وابنه في الزوائد ١/ ١١٦، ١١٧، والترمذي في المناقب ٢٤١٢ بتهذيبي، وفي الشمائل رقم ٥، وابن حبان ٢١١٧، وابن سعد ١/ ٤١١، والحاكم ٢/ ٦٠٦، من طرق بعضها صحيحة أو حسنة، وحسَّنه الترمذي وصححه هو والحاكم، ووافقه الذهبي.

وحديث البراء: رواه البخاري في المناقب ٧/ ٣٨١، ومسلم في الفضائل ١٥/ ٩١، وأبو داود في الترجل وفي اللباس، والنسائي في الزينة، والترمذي في اللباس ١٥٨١ وغيره، وكذا أحمد ٤/ ٢٨١، ٢٩٠، ٢٩٥، ٣٠٣، وغيرهم.

وحديث أنس: رواه البخاري في اللباس ١٢/ ٤٨٠ باب الجعد.

وحديث أبي هريرة: رواه الطيالسي ٢١٣، وأحمد ٢/ ٣٢٨ بسند صحيح.

وحديث جابر بن سمرة: رواه أحمد ٥/ ٨٦، ٨٨، ٩٧، ١٠٣، ومسلم ١٥/ ٦٣، ٩٢، والترمذي في المناقب ٣٤١٥، وفي الشمائل ٨، وغيرهم.

وحديث كعب بن مالك: رواه البخاري في مواضع منها في المناقب ٧/ ٣٨٣، ٣٨٤، ومسلم في التوبة، والترمذي في التفسير ٣٨٩٦، وباقي الجماعة في حديثه الطويل في توبته.

وحديث أبي الطفيل: رواه أحمد ٥/ ٤٥٥، ومسلم ١٥/ ٩٣، والترمذي في الشمائل ١٣.

وحديث ابن عمر: رواه الدارمي رقم ٦٠ بسند صحيح.

وحديث مُجَرِّش: رواه أحمد ٣/ ٤٢٦، ٤٢٧ من طرق صحيحة.

وحديث عائشة: رواه الترمذي في اللباس، باب ما جاء في الجمعة واتخاذ الشعر، وابن ماجه فيه ٣٦٣٥، وكذا أحمد ٦/ ١٠٨، ١١٨، وصححه الترمذي.

وحديث أم هانىء: رواه أبو داود ٤١٩١، والترمذي في اللباس، وابن ماجه كذلك ٣٦٣١، وكذا أحمد ٦/ ٣٤١ بسند صحيح.

وحديث أبي جحيفة: رواه أحمد ٤/ ٣٠٨، ٣٠٩، والبخاري في مواضع، ومسلم في الصلاة، وأبو داود ٥٢٠، والترمذي في الأذان ١٧٦، وباقي الجماعة،

وقال البراء: ما رأيت من ذي لِمَّةٍ في حُلَّةٍ حمراء أحسن من رسول الله ﷺ[1].

وقال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: ما رأيت شيئًا أحسن من رسول الله ﷺ، كأن الشمس تجري في وجهه[2].

وقال جابر بن سمرة: وقال له رجل: كان وجهه ﷺ مثل السيف؟ فقال: لا، بل مثلَ الشَّمْسِ والقمرِ[3].

= والدارمي ١٢٠١ وغيرهم.

ومن أراد الوقوف على أكثر ألفاظها فليرجع إلى تهذيبي للخصائص من رقم ٢٤ إلى ٤٠.

شرح الألفاظ الواردة في صفته ﷺ

أزهر اللون، أي: نيِّره. **مليحًا**، أي: حسنًا. **مُقَصَّدًا**، أي: وسطًا. **كأنما صيغ من فضة**، أي: في صفاء لونه كأنه أخذ من فضة. **أشكل العينين**، أي: في بياضها شيء من حمرة. **أهدب الأشفار**، أي: طويل شعر الأجفان. **ضليع الفم**، أي: واسعه وعظيمه. **شثن الكفين**، أي: غليظهما. **والكراديس**، جمع كردوس وهي: رؤوس العظام. **منهوس العقبين**، أي: لحمهما قليل. **رَجِل الشعر** ــ بكسر الجيم ــ، أي: بيِّن الجعودة والسبوطة. **غدائر**، جمع غديرة، وهي: الضفيرة. **طويل المشربة**، هي: الشعر الدقيق الذي كأنه قضيب من الصدر إلى السرة. **كأنما ينحط**... إلخ، أي: كأنما ينزل من علو إلى سفل.

(١) تقدم تخريجه ص ٨٦ وهو الحديث الثاني.

(٢) رواه أحمد ٢/ ٢٥٠، والترمذي في المناقب ٣٤٢٢، وابن حبان ٢١١٨، وابن سعد ٣/ ٣٧٩، ٣٨٠، وهو صحيح، وابن لهيعة له متابعة صحيحة عند ابن حبان.

(٣) تقدم تخريجه ص ٨٦، وهو في صحيح مسلم. ونحوه عن البراء: أنه سئل: أكان وجه رسول الله ﷺ مثل السيف؟ قال: لا، ولكن مثل القمر. رواه البخاري في المناقب ٧/ ٣٨١، والترمذي كذلك ٣٤٠٥.

والأحاديث في بسط صفته ﷺ مشهورة كثيرة فلا نطول بسردها[1].

نظافته وطيب ريحه وعرقه . . .

وأما نظافة جسمه وطيب ريحه وعرقه ونزاهته عن الأقذار وعورات الجسد، فكان قد خصَّه الله تعالى في ذلك بخصائص لم توجد في غيره، ثم تمَّمها بنظافة الشرع وخصال الفطرة العشر.

ثم أسند من طريق مسلم عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: ما شمِمْتُ عَنْبرًا قطُّ ولا مِسْكًا ولا شَيْئًا أطيب من ريح رسول الله ﷺ[2].

وعن جابر بن سمرة أنه ﷺ مَسَح خَدّي، قال: فوجدت لِيَدِه بَرْدًا وريحًا كأنَّما أخْرَجَهَا من جُؤْنَةِ عَطَّارٍ[3].

وكان رسول الله ﷺ في دار أنس فعَرِق، فجاءت أُمَّه بقارورة تَجْمَعُ

---

(١) وقد أشرنا إلى أصحها وأشهرها، وفي ذلك غنية لمن يقنع بالثابت الصحيح.

(٢) هو عند مسلم في الفضائل ١٥/ ٨٥، ٨٦. ورواه أحمد ٣/ ٢٢٢، ٢٢٨، ٢٧٠، والبخاري في المناقب ٧/ ٣٨٦، ٣٨٧، والدارمي ٦٢، ولفظه عند مسلم: كان رسول الله ﷺ أزهر اللون كأن عرقه اللؤلؤ إذا مشى تكفأ، ولا مسست ديباجة ولا حريرًا ألين من كف رسول الله ﷺ ولا شممته.
وقوله: تكفأ، أي: مال يمينًا وشمالاً. وقوله ديباجة: هو الحرير نفسه.

(٣) رواه مسلم أيضًا في الفضائل ١٥/ ٨٥ قال: صليت مع رسول الله ﷺ الصلاة الأولى ثم خرج إلى أهله وخرجت معه، فاستقبله وِلدانٌ فجعل يَمْسَحُ خَدَّي أحدِهم واحِدًا واحِدًا، قال: وأما أنا فمَسَحَ خَدِّي. قال: فوجدت. . . إلخ.
وجاءَ في المناقب من صحيح البخاري ٧/ ٣٨٢ في حديث أبي جحيفة قال: وقام الناس فجعلوا يأخذون يديه فيمسحون بها وجوههم، قال: فأخذت بيده فوضعتُها على وجهي فإذا هي أبردُ من الثلج، وأطيبُ رائِحَةً مِن المسك. .
وقوله: جُؤنة، بضم الجيم وسكون الهمزة، وعاء مغطى بجلد يضع فيه العطار طيبه.

فيها عرقَه، فسألها رسول الله ﷺ عن ذلك فقالت: نجعله في طِيبنا وهو من أطيبِ الطيبِ(١).

وعن أنس قال: كان رسول الله ﷺ إذا مَرَّ في طريق من طُرُقِ المدينة وُجِدَ منه رائحة المسك، فيُقال: مَرَّ رسول الله ﷺ في هذا الطريق(٢).

ومن هذا حديث عليّ رضي الله تعالى عنه قال: غَسَّلْتُ النبي ﷺ فذهبتُ أنظُر ما يكونُ مِن الميتِ فلم أجد شيئًا، فقلت: طبت حيًّا وميتًا(٣).

ومثله قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه حين قبَّل النبي ﷺ(٤).

ومن هذا القبيل شرب عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما دم حجامته ﷺ فقال عليه الصلاة والسلام: «ويل لك من الناس، وويل لهم منك»(٥). ولم ينكر عليه.

---

(١) رواه مسلم في الفضائل ١٥/٨٦، ٨٧، وهذا من قبيل إجلالهم لرسول الله وتعظيمهم له وتبركهم بآثاره ﷺ.

(٢) رواه أبو يعلى رقم ٣١١٣، والبزار. قال نور الدين في المجمع ٨/ ٢٨٢ رجال أبي يعلى وثقوا. وقال الحافظ في الفتح ٧/ ٣٨٣: إسناده صحيح. وهو عند أبي الشيخ في أخلاق النبي ص ٩٧.

(٣) رواه ابن ماجه ١٤٦٧، والحاكم ١/ ٣٦٢ كلاهما في الجنائز. وقال البوصيري في الزوائد: هذا إسناد صحيح، ورجاله ثقات. وصححه الحاكم على شرطهما. أما الذهبي فقال: منقطع.

(٤) يعني بعد موته، وهذا أخرجه البزار رقم ٨٥٢ مطولاً، من حديث ابن عمر بسند صحيح، وقال نور الدين في المجمع ٩/ ٣٧، ورجاله رجال الصحيح غير علي بن المنذر وهو ثقة. وأصل تقبيله لنبي الله ﷺ في الجنائز ٣/ ٣٥٧، والمغازي ٩/ ٢١١ من صحيح البخاري عن عائشة رضي الله تعالى عنها في قصة موته ﷺ.

(٥) رواه البزار ٣/ ١٤٥، والطبراني والحاكم ٣/ ٥٥٤، قال الهيثمي في المجمع ٨/ ٢٧٠ رجاله رجال الصحيح غير هنيد بن القاسم، وهو ثقة.. ونحوه وقع لسفينة. انظر: المجمع ٨/ ٢٧٠. وانظر ما سيأتي ص ٢٨١ ــ ٢٨٢.

[ز] وعن حَكِيمَة بنت أُمَيْمَة، عن أمها رضي الله تعالى عنها قالت: كان للنبي ﷺ قدح من عيدان يبول فيه ويضعه تحت سريره، فقام فطلبه فلم يجده، فسأل فقال: أين القدح؟ قالوا: شَرِبَتْه بَرَكَةُ خادم أم سلمة التي قدمت معها من أرضِ الحبشةِ، فقال النبي ﷺ: «لقد احتظرت من النار بحِظَارِ...»[1].

وإقراره ﷺ على شرب الدم والبول من غير أن يأمر من شرب ذلك بغسل فمه... يدل على طهارة ذلك منه وطيبه. وبهذا قال جمع من العلماء والأئمة.

ومن هذا الفصل ما جاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه ﷺ نام حتى سُمِع له غطيط، فقام فصلَّى ولم يتوضأ[2]؛ لأنه ﷺ كان محفوظًا في نومه كيقظته من الأقذار وما يشينه ﷺ.

وفور عقله وذكاء لبّه وقوّة حواسّه واعتدال حركاته وحسن شمائله

لا مريَة أنه ﷺ كان أعقل الناس وأذكاهم. ومن تأمَّل تدبيره أَمْر بواطن الخلق وظواهرهم وسياسة العامة والخاصة، مع عجيب شمائله وبديع سيره،

---

(1) رواه الطبراني، قال الهيثمي ٨/ ٢٧٠، ٢٧١: رجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن أحمد وحكيمة، وكلاهما ثقة، والحديث أصله عند أبي داود رقم ٢٤، والنسائي ١/ ٣١، وابن حبان ١٤١، والحاكم ١/ ١٦٧، والبيهقي ١/ ٩٩ وسنده حسن، وصححه الحاكم والذهبي بموافقته.
وقوله: احتظرت، أي: جعلت واتخذت بينك وبين النار حظيرة، أي: وقاية.

(2) رواه أحمد ١/ ٢٤٤، ٣٤١، والبخاري في العلم ١/ ٢٢٣، وفي الأذان، وفي التمني، ومسلم في الفضائل، وأبو داود في التطوع، وغيرهم. والغطيط، هو: صوت النائم.

فضلاً عمّا أفاضه من العلم وقرّره من الشرع دون تعلُّم سَبَقَ ولا ممارسةٍ تقدَّمت ولا مطالعةٍ للكتب منه؛ لم يَمْتَرِ في رُجْحَانِ عقْله وثُقُوب فهمه لأول بَدِيهَةٍ، وهذا مما لا يحتاج إلى تقريره لتحققه.

وقد قال عليه الصلاة والسلام: «إني لأراكم من وراء ظهري». وفي بعض الروايات: «إنِّي لأنظر من ورائي كما أنظر من بين يدي»(١).

[ز] فيكون له عينان من ورائه يبصر بهما ولا مانع يمنع من ذلك غير أنَّ المختار هو التسليم والإيمان بما قال ﷺ.

وجاء في أحاديث كثيرة صحيحة أنه ﷺ كان يرى الملائكة(٢)

---

(١) هو وارد عن أنس وأبي هريرة.
فحديث أنس رواه أحمد ٣/ ١٧٠، ١٧٨، ٢٧٤، ٢٧٩، والبخاري في الصلاة ٢/ ٦١، ٣٦٨، ومسلم في تحريم سبق الإمام ٤/ ١٥٠، بلفظ: «استووا، فوالله إني لأراكم مِن خَلْفي كما أراكم مِن بَيْنِ يَدي» لفظ أحمد، وللباقي بمعناه.
وحديث أبي هريرة رواه أحمد ٢/ ٣٠٣، ٣٧٥، والبخاري في المصدرين السابقين، ومسلم كذلك ٤/ ١٤٩، ولفظ مسلم. «والله لأبصر من ورائي كما أبصر من بين يدي»، ولفظ البخاري: «إني لأراكم من وراء ظهري».
وظاهر ما في الباب أن المراد بالرؤية الإبصار، وهو الظاهر، وغيره عدول عن صريح الألفاظ، ويكون ذلك من خصائِصه وفضائِله ﷺ.

(٢) رؤيته للملائكة تواترت بها الأخبار، فرئيسهم جبريل الذي كان لا يفارقه يوميًا.
وجاءه مرة ملك الجبال لما رجع من الطائف، وقال له: وقد بعثني إليك ربك لتأمرني بما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، الحديث. رواه البخاري في بدء الخلق، ومسلم في الجهاد ١٢/ ١٥٤.
وجاءه مرة ملك لم ينزل قط إلى الأرض فسلَّم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قط قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منها =

والشياطين[1]، ورفع له بيت المقدس حين وصفه لقريش صبيحة ليلة الإسراء[2].

[ز] وجاء أنه ﷺ كان بالبطحاء فأتى عليه يزيد بن ركانة ــ أو ركانة بن يزيد ــ ومعه أعنز له، فقال له: يا محمد، هل لك أن تصارعني، فقال: ما تسبقني؟ قال: بشاة من غنمي. فصارعه فصرعه، فأخذ شاة. قال ركانة:

= إلاَّ أعطيته. رواه مسلم في فضائل القرآن ٦/ ٩١.

وعن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلاَّ وملك واضع جبهته ساجدًا لله». رواه أحمد ٥/ ١٧٣، والترمذي في الزهد ٢١٣١، وابن ماجه ٤١٩٠ وغيرهم، وسنده حسن أو صحيح. وقال ﷺ: «إني لأسمع أطيط السماء، وما تلام أن تئط، وما فيها موضع شبر إلاَّ وعليه ملك ساجد أو قائم». رواه الطحاوي في مشكل الآثار ٢/ ٤٣، والطبراني في الكبير عن حكيم بن حزام بسند صحيح، وسيأتي في معجزة الإسراء ما شاهده في تلك الليلة وما رأى من الملائكة، وهذا باب واسع لمن تتبعه.

(١) جاء في حديث الإسراء من حديث أبي هريرة: «فلما نزلت إلى السماء الدنيا نظرت إلى أسفل مني فإذا أنا برهج ودخان وأصوات، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذه الشياطين يحومون على أعين بني آدم لا يتفكرون في ملكوت السموات والأرض، لولا ذلك لرأوا العجائب». رواه أحمد ٢/ ٥٣، ٣/ ٣٦٣، وابن ماجه ٢٢٧٣ بسند حسن. وحديث أخذه العفريت من الجن في الصحيحين في أحاديث أخرى لمن تتبعها.

(٢) رواه البخاري في الإسراء ١٠/ ٦/ ٧، وفي المناقب ٨/ ١٩٨، ومسلم في الإيمان ٢/ ٢٣٧، والترمذي في تفسير سورة الإسراء، من حديث جابر بن عبد الله، ونحوه في مسلم عن أبي هريرة. وسياقه عن جابر: «لما كذبتني قريش حين أسري به إلى بيت المقدس قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه».

هل لك في العود؟ قال: ما تسبقني. قال أخرى. . . ذكر ذلك مرارًا، فقال: يا محمَّد، والله ما وضع أحد جنبـي إلى الأرض، وما أنْتَ الذي تصرعني، فأسلم وردَّ عليه رسول الله ﷺ غنمه[1]. وكان هذا أشد وأقوى أهل زمانه، فصرعه ﷺ.

[ز] وقال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: ما رأيت أحدًا أسرع من رسول الله ﷺ في مشيه كأنما الأرض تُطوى له، إنا لنُجْهِد أنفسنا وهو غير مكترث[2].

[ز] وهو يدل على قوته وقوة أعضائه وسرعة مشيه التي تفوّق بها على شباب الصحابة.

وفي صفته عليه الصلاة والسلام أنَّ ضحكه كان تبسُّمًا، إذا التفتَ التفت معًا وإذا مشى مَشَى تَقَلُّعًا كأنما يَنْحَطُّ مِن صَبَبِ[3].

---

(١) رواه البيهقي في الكبرى ١٠/ ١٨ عن سعيد بن جبير مرسلاً، وسنده صحيح. وجاء متصلاً عن ابن عباس. رواه الخطيب في المؤتلف والمختلف، وأبو الشيخ في الفروسية، كلاهما من طريق حماد بن سلمة عن عمرو بن دينار عن أبـي جبير عن ابن عباس. وسندهما حسن صحيح. وللحديث شاهد رواه أبو داود ٤٠٧٨، والترمذي في اللباس ١٦٣٧، والحاكم ٣/ ٤٥٢، وهو وإن كان سنده ضعيفًا فهو صالح للاستشهاد به.

(٢) تقدم تخريجه رقم ٢ ص ٨٧، وقوله: إنا لنجهد. . .إلخ، أي: لنبالغ طاقتنا في مماشاته وهو غير مبالٍ بنا.

(٣) هو مركب من حديثين، فحديث التبسم وارد عن عبد الله بن الحارث بن جزء، رواه الترمذي في المناقب ٣٤١٦، ٣٤١٧، وفي الشمائل ١٩٤، وكذا أحمد ٤/ ١٩٠، ١٩١ بسند صحيح.

وحديث الالتفات والمشي، رواه الترمذي في الشمائل رقم ٥، وابن سعد في الطبقات ١/ ٤١٠ عن إبراهيم بن محمد ابن الحنفية عن الإمام علي عليه السلام، وسنده ضعيف وإن كان معناه صحيحًا.

فصاحة لسانه وبلاغة مقاله

وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول، فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يجهل سلاسة طبع، وبراعة منزع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلَّة تكلُّف؛ أُوتِيَ جوامع الكلم، وخُصَّ ببدائع الحكم، وعلم ألسنة العرب؛ فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها، ويحاورها بلغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه. ومن تأمل حديثه وسيره علم ذلك وتحققه.

وليس كلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد ككلامه مع ذي المعشار الهمداني وطهفة النهدي وقطن بن حارثة العليمي والأشعث بن قيس ووائل بن حجر الكندي وغيرهم من ملوك حمير وحضرموت واليمن.

وأما كلامه المعتاد وفصاحته المعلومة، وجوامع كلمه وحِكَمه المأثورة، فقد ألَّف الناس فيها الدواوين، وجمعت في ألفاظها ومعانيها الكتب، ومنها ما لا يوازى فصاحة، ولا يبارى بلاغة.

من جوامع كلمه ﷺ:

كقوله: «المُسلمون تتكافأُ دِمَاؤُهُم، ويَسْعَى بِذِمَّتِهِم أدْناهم، وهُم يَدٌ عَلى مَن سِوَاهُم»[(١)].

وقوله: «المرءُ مَعَ مَن أَحَبّ»[(٢)].

---

(١) رواه أحمد ٢/ ١٩١، ١٩٢، ٢١١، وأبو داود ٢٧٥١، ٤٥٣١، وابن ماجه ٢٦٥٩/ ٣٦٨٥، وابن الجارود ١٠٧٣، والبيهقي ٨/ ٢٩ بسند حسن، وقوله: «تتكافأ»، أي: تتساوى، وقوله: «وهم يد...» إلخ، أي: قوة يتعاونون على أعدائهم.

(٢) رواه البخاري في الأدب ١٣/ ١٧٧، ١٧٨، ومسلم في البر والصلة ١٦/ ١٨٨ =

وقوله: «الناسُ معادن»[1].

وقوله: «المستشار مؤتمن»[2].

وقوله: «أسلم تسلم يُؤْتِكَ الله أجرك مرَّتين»[3].

وقوله: «وإنَّ أَحَبَّكم إليَّ وأقربَكُم منِّي مجالس يوم القيامة أحاسنُكُم أخلاقًا الموطَّؤون أكنافًا الذين يَألفُون ويُؤْلَفُون»[4].

وقوله: «ذو الوجهينِ لا يكون عند الله وجيهًا»[5].

= وغيرهما من حديث ابن مسعود. وورد عن نحو من عشرين نفسًا، وهو متواتر. وانظر كتابي جواهر البحار رقم ٣٦٦.

(١) رواه الطيالسي ٧١، والبخاري في المناقب ٧/ ٣٢٩، ٣٤٠ وغيره، ومسلم في البر ١٦/ ١٨٥، من حديث أبي هريرة، والمعادن والأصول والأنساب.

(٢) حديث متواتر رواه أبو داود ٥١٢٨، والترمذي في الأدب ٢٦٣٣، وابن ماجه ٣٦٤٥، وغيرهم عن أبي هريرة، ورواه أحمد ٥/ ٢٧٤، وابن ماجه ٣٧٤٦، وابن حبان ١٩٩١ عن أبي مسعود، وفي الباب عن جماعة.

(٣) حديث مشهور روياه في قصة كتابته ﷺ إلى هرقل عظيم الروم، وحديثه في أول البخاري.

(٤) وارد عن جابر، رواه الترمذي في البر والصلة رقم ١٨٦١ بسند صحيح، وعن عبد الله بن عمرو رواه أحمد ٢/ ١٨٩، وابن حبان ١٩١٦، وعن أبي ثعلبة الخشني رواه أحمد ٤/ ١٩٣، وابن حبان ١٩١٧ بسند صحيح، وعن أبي هريرة رواه الطبراني في الصغير.
وقوله: «الموطئون...» إلخ، أي: المتذللون المتواضعون.

(٥) رواه البخاري في الأدب ١٣/ ٨٥، وفي الأحكام ١٦/ ٢٩٤، ومسلم في البر ١٦/ ١٥٦ بلفظ: «إن من شر الناس ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه»، وهو أيضًا عند أبي داود والترمذي، كلهم عن أبي هريرة. ورواه أبو داود ٤٨٧٣، والبخاري في الأدب المفرد ١٨٨، وابن حبان ١٩٧٩، وغيرهم من حديث عمار بن ياسر مرفوعًا بلفظ: «من كان له وجهان في الدنيا كان له يوم =

ونهيه عن قيل وقال وكثرة السؤال، وإضاعة المال، ومنع وهات، وعقوق الأمهات، ووأد البنات[1].

وقوله: «اتَّقِ اللَّـهَ حيثما كنت، وأتبِـع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[2].

وقوله: «أحبب حبيبك هونًا ما عسى أن يكون بغيضك يومًا ما»[3].

وقوله: «الظلم ظلمات يوم القيامة»[4].

. . . إلى ما روته الكافة عن الكافة من مقاماته ومحاضراته وخطبه وأدعيته ومخاطباته وعهوده، مما لا خلاف أنه نزل من ذلك مرتبة لا يُقاس بها غيره، وحاز فيها سَبْقًا لا يقدر قدره.

وقد جمعت من كلماته التي لم يسبق إليها، ولا قدر أحد أن يفرغ في قالَبِه عليها، كقوله: «حَمِيَ الوطيس»[5].

= القيامة لسانان من نار». وسنده حسن. وأخرجه البخاري في الأدب المفرد عن أبـي بكر بلفظ: «لا ينبغي لذي الوجهين أن يكون أمينًا».. أما لفظ الشيخ فلم أجده. وذو الوجهين، هو الذي يأتي كل طائفة بما يرضيها، ويذم ويقبِّح غيرها، وهذا محض الكذب وصفة من صفات المنافقين، نعوذ بالله تعالى من ذلك.

(١) رواه البخاري في الاستقراض وفي الزكاة، وفي الأدب ١٣/ ٨، ٩، ١١، ومسلم في الأقضية ١٢/ ١٢، ١٣ وغيرها.

(٢) رواه أحمد ٥/ ١٥٣، والترمذي في البر ١٨٣١، والدارمي ٣٧٩٤، والحاكم ١/ ٥٤، عن أبـي ذر وسنده صحيح، وصححه الترمذي والحاكم. ونحوه عن معاذ، رواه أحمد ٥/ ٢٣٦، والترمذي ١٨٣٢.

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد رقم ١٣٢١، والترمذي في البر برقم ١٨٤٢، وسنده عنده صحيح على شرط مسلم، ثم إن له شواهد.

(٤) رواه البخاري في المظالم ٦/ ٢٥، ومسلم في البر ١٦/ ١٣٤ عن ابن عباس.

(٥) رواه مسلم في غزوة حنين في السير ١٢/ ١١٦ ضمن حديث طويل عن العباس، =

وقوله: «لا يُلدغ المؤمن من جحر مرّتين»[1].

وقوله: «السعيد من وعظ بغيره»[2]... في أخواتها ما يدرك الناظر العجب في مُضَمَّنيهَا، ويذهب به الفكر في أداني حكمها.

فجمع له بذلك ﷺ قوّة عارضة البادية وجزالتها ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها، إلى التأييد الإلـٰهي الذي مَدَدُه الوحي الذي لا يحيط بعلمه بشر.

شرف نسبه وكرم بلده

وأما شرفُ نسبه وكَرَمُ بلدِه ومنشئه فمما لا يحتاج إلى إقامة دليل، ولا بيان مشكلٍ ولا خفي منه؛ فإنه نُخْبَةُ بني هاشم، وسُلالَةُ قريش وصَميمُها، وأشرف العرب وأعزّهم نفرًا، من قبل أبيه وأمه، ومن أهل مكة أكرم بلاد الله على الله وعلى عباده[3].

= ورواه النسائي أيضًا في الكبرى ٥/ ١٩٥، ولفظه عندهما: «هذا حين حمي الوطيس..»، أي: هذا وقت اشتداد الحرب.

(١) رواه أحمد ٢/ ١١٥، والبخاري في الأدب ١٣/ ١٤٦، ١٤٧، ومسلم آخر الكتاب ١٨/ ١٢٤، وابن ماجه في الفتن ٣٩٨٢ من حديث أبي هريرة، وله سبب. انظره في مظانة.

(٢) هو في القدر من صحيح مسلم ١٦/ ١٩٣ من قول ابن مسعود قال: «الشقي من شقي في بطن أمه، والسعيد من وعظ بغيره». وقد قصَّر في التخريج من رواه للديلمي.

(٣) فعن عبد الله بن عدي أن رسول الله ﷺ قال لمكة: «واللّـٰهِ إنَّكِ لَخَيْرُ أرْضِ اللّـٰهِ، وأحبُّ أرضِ اللّٰه إلى اللّٰهِ، ولولا أني أُخْرِجْتُ مِنك مَا خَرَجْتُ».
رواه أحمد ٤/ ٣٠٥، والترمذي ٣٦٨١ في المناقب، وابن ماجه ٣١٠٨، وابن ماجه ١٠٢٥ وصححه الترمذي.

ثم أسند من طريق البخاري عن أبـي هريرة رضي الله تعالى عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «بُعِثْتُ من خير قرون بني آدم قرنًا فقرنًا، حتى كنت من القرن الذي كنت منه»[1].

وعن العباس رضي الله تعالى عنه قال: قال النبـي ﷺ: «إنَّ الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم من خير قرنهم، ثم تخير القبائل فجعلني من خيرهم قبيلة، ثم تخيَّر البيوت فجعلني من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفسًا، وخيرهم بيتًا»[2].

وعن واثلة بن الأسقع رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللَّـهَ اصطفى مـن ولـد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم». قال الترمذي: وهذا حديث صحيح[3].

---

(١) رواه أحمـد ٢/ ٣٧٣، والبخاري في صفة النبـي ﷺ ٧/ ٣٨٤، والمراد بالبعث هنا تقلبه في أصلاب أبائه وأرحام أمهاته الذين كانوا يعيشون في خير طبقات أجيالهم طبقة طبقة إلى أن وجد في طبقة عصره الذي كان بيته فيه أشرف البيوت وأطهرها.

(٢) الحـديـث رواه أحمـد ١/ ٢١٠، والطيـالسـي ٢٤٠٥، والتـرمـذي فـي المنـاقـب ٣٣٧٥، وحسَّنه وصححه عن العباس أنه جاء إلى رسول الله ﷺ وكأنه سمع شيئًا، فقام النبـي على المنبر، فقال: «من أنا؟ قالوا: أنت رسول الله عليك السلام، قال: «أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله خلق الخلق. . .» فذكره بنحوه.

(٣) رواه أحمـد ٤/ ١٠٧، ومسلـم في الفضـائـل ١٥/ ٣٦، والتـرمـذي فـي المنـاقـب ٣٣٧٤، ٣٣٧٦، والبخـاري فـي التـاريـخ ١/ ٤، والخطيـب فـي تـاريـخ بغـداد ١٣/ ٦٤، وحسنه الترمذي وصححه، وهذه الأحاديث ظاهرة في شرف نسبه وطهارته ورفعته وفضل أجداده.

الأخلاق التي تدعو إليها ضرورة الحياة

وأما ما تدعو ضرورة الحياة إليه مما فصّلناه، فعلى ثلاثة أضرب: ضربٌ الفضل في قلّته، وضربٌ الفضل في كثرته، وضربٌ تختلف الأحوال فيه.

فأمّا الضرب الأول، وهو: ما يكون التمدُّح والكمال بقلّته اتِّفاقًا، وعلى كل حال عادة وشريعة، كالغِذاء، والنوم، ولم تزل العرب والحكماء تتمادح بقلتهما وتذمّ بكثرتهما؛ لأنَّ كثرة الأكل والشرب دليل على النَّهم والإفراط في شهوة الطعام، والحرص والشره. وشدَّة الحرص وغلبة الشهوة مُسَبِّبٌ لمضار الدنيا والآخرة؛ جالب لأدواء الجسد وثِقَلِ النفس وامتلاء الدماغ، وقلَّتُه دليل على القناعة وملك النفس ومنعها من الشهوات. وقمعُ الشهوة مُسَبِّبٌ للصحَّة وصفاء الخاطر وحدَّة الذهن. كما أنَّ كثرة النوم دليلٌ على الرذالة وفتور النفس والضعف، وعدم الذكاء والفطنة، مُسَبِّبٌ للكسل والعجز وتضييع العمر في غير نفع، وقساوة القلب وغفلته وموته وظلمته.

والشاهد على هذا ما يعلم ضرورة، ويوجد مشاهدة، وينقل متواترًا من كلام الأمم المتقدّمة، والحكماء السالفين، وأشعار العرب وأخبارها، وصحيح الحديث، وآثار من سلف وخلف مما لا يحتاج إلى الاستشهاد عليه، وإنما تركنا ذكره هنا اختصارًا واقتصارًا على اشتهار العلم به، وقد كان ﷺ قد أخذ من هذين الفنين بالأقل، هذا ما لا يدفع من سيرته، وهو الذي أمر به وحضَّ عليه لا سيَّما بارتباط أحدهما بالآخر.

ثم أسند من طريق الطبراني عن المقدام بن معديكرب رضي الله تعالى عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما مَلأَ ابن آدم وعاءً شرًّا من بطنه، حسْبُ ابن آدم أُكُلاتٌ يُقِمْن صَلْبه، فإن كان لا محالة فثلثٌ لطعامه،

وثلث لشرابه، وثلث لنَفَسِه[1].

وكثرة النوم يأتي من كثرة الأكل والشرب. قال بعض السلف: لا تأكلوا كثيرًا، فتشربوا كثيرًا، فترقدوا كثيرًا[2]، فتخسروا كثيرًا.

وقد روي عنه ﷺ أنه كان أحبَّ الطعام إليه ما كان على ضفف[3]، أي: كثرة الأيدي. أو الضِّيق والشدَّة.

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها: لم يمتلىء جوف النبي ﷺ شبعًا قط[4].

---

(١) هذا يعد تقصيرًا في التخريج، فالحديث أخرجه أحمد ٤/ ١٣٢، والترمذي في الزهد ٢١٩٨، وابن ماجه ٣٣٤٩، والحاكم ٤/ ٣٣١، ٣٣٢، وسنده صحيح. وصححه الترمذي والحاكم والذهبي.
وقوله: «أكلات»، بضم الهمزة والكاف، أي: لقيمات. وقوله: «صلبه»، أي: ظهره.
وفي الحديث إرشاد إلى الإقلال من الأكل، وقد اتفق على ذلك الأطباء والحكماء، فالحديث قاعدة وأصل في الطب الوقائي.

(٢) عزاه أبو حامد الغزالي في الإحياء إلى بعض الزهاد.

(٣) جاء في معنى هذا حديثان: أحدهما عن جابر مرفوعًا: «إن أحب الطعام إلى الله ما كثرت عليه الأيدي». رواه أبو يعلى ٢٠٤٥، والطبراني في الأوسط ٧٣١٣، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان ٢/ ٩٦، وسنده حسن. وله شاهد عن أبي هريرة، رواه أبو نعيم أيضًا ٢/ ٨١، وهو حسن في الشواهد، مؤيد للأول... وفيه عنعنة ابن جريج وأبي الزبير. أما الحديث الثاني، فعن أنس: أن رسول الله ﷺ لم يجمع له غَداء ولا عَشاء من خُبْزٍ ولَحْمٍ إلاَّ على ضَفَفٍ. رواه أحمد ٣/ ٢٧٠، والترمذي في الشمائل ١٣٨، وابن سعد في الطبقات ١/ ٤٠٤، وأبو الشيخ في أخلاق النبي ٢٨٧، وابن حبان في صحيحه ١٤/ ٢٧٤، وسنده صحيح على شرط الشيخين.

(٤) هذا لا أصل له بهذا اللفظ، وجاء في معناه أحاديث عن جماعة.
فعن عائشة: ما شبع رسول الله ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض. أخرجه الشيخان، والترمذي في الزهد ٢١٧٧، وفي رواية: والله ما شبع من خبز =

وأما قوله ﷺ: «ألم أر البَرْمَةَ فيهَا لَحم؟»[1]. إذا لعلَّ سبب سؤاله ظَنُّه ﷺ اعتقادَهم أنه لا يحل له، فأراد بيانَ سُنَّتِه، إذْ رآهم لم يُقَدِّمُوه إليه مع علمه أنهم لا يستأثِرون عليه به، فصدَّق عليهم ظَنُّه، وبيَّن لهم ما جَهِلوه من أمره بقوله: «هو لها صدقةٌ، ولنا هَدِيَّةٌ»[2].

وفي صحيح الحديث قوله ﷺ: «أما أنا فلا آكل متّكئًا»[3]. والاتّكاء هو: التمكُّن للأكل والتَقَعْدُدِ في الجلوس له كالمتربع وشبهه من تمكن الجِلْسات التي يعتمد فيها الجالس على ما تحته، والجالس على هذه الهيئة يستدعي الأكل ويستكثر منه. والنبي ﷺ إنما كان جلوسه للأكل جلوس المُسْتَوْفِز مُقْعيًا[4]. ويقول: «إنما أنا عبدٌ آكل كما يأكل العبد، وأجلِس كما

= ولحم مرتين في يوم. رواه الترمذي، ورواه مسلم ١٨/ ١٠٨ بدل «لحم» «زيت».

وعن أبي هريرة: ما شبع رسول الله ﷺ وأهله ثلاثًا تباعًا من خبز البر حتى فارق الدنيا. رواه البخاري، ومسلم في الزهد ١٨/ ١٠٨، ١٠٩، والترمذي فيه ٢١٧٨، وغيرهم.

وعن ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتابعة طاويًا وأهله لا يجدون عشاءً. رواه الترمذي ٢١٨٠، وابن ماجه ٣٣٤٧.

وعن أبي أمامة: ما كان يفضل عن أهل بيت رسول الله ﷺ خبز الشعير. رواه الترمذي ٢١٧٩ بسند صحيح.

(١) هو حديث واحد جاء عن عائشة في قصة عتق بريرة.. وفيه: فدخل رسول الله ﷺ والبرمة تفور بلحم، فقرب إليه خبز وإدام.. فقال ﷺ: «ألم أر البرمة فيها لحم»؟ قالوا: بلى.. فقال هو: «عليها صدقة وهو لنا هدية». رواه البخاري في النكاح، وفي الطلاق، ومسلم في الزكاة، وفي العتق وغيرهما.

(٢) نفس المرجع السابق.

(٣) رواه البخاري في الأطعمة ١١/ ٤٧١، ٤٧٢، وأبو داود ٣٧٦٩، والترمذي ١٦٧٥، عن أبي جحيفة رضي الله تعالى عنه.

(٤) رواه مسلم في الأطعمة، في التواضع في الأكل ١٣/ ٢٢٧، ٢٢٨ عن أنس، قال: =

يَجلسُ العبد[1]. وليس معنى الحديث في الاتكاء الميل على شق عند المحققين.

وكذلك نومه ﷺ كان قليلاً؛ شهدت بذلك الآثار الصحيحية، ومع ذلك فقد قال ﷺ: «إنَّ عَيْنَيَّ تنامان ولا ينام قلبي»[2]. وكان نومه على جانبه الأيمن استظهارًا على قلَّة النوم؛ لأنَّه عن الجانب الأيسر أهْنَأُ للصَّدرِ والقلب وما يتعلَّق به من الأعضاء الباطنة حينئذ؛ لميلها إلى الجانب الأيسر، فيستدعي ذلك الاستثقال فيه والطول، وإذا نام النائم على الأيمن تعلَّق القلب وقَلِقَ، فأسْرَع الإفاقة، ولم يغمُرْه الاستغراق.

والضرب الثاني: ما يتَّفق التمدُّح بكثرته، والفخر بوفوره، كالنكاح والجاه. أما النكاح فمتفق فيه شرعًا وعادة، فإنه دليل الكمال، وصحَّة الذكورية، ولم يزل التفاخر بكثرته عادة معروفة، والتمادح به سيرة ماضية. وأما في الشرع فسنَّة مأثورة.

= رأيت رسول الله ﷺ مقعيًا يأكل تمرًا.

وفي رواية.. وهو مُحْتَفِزٌ يأكلُ منه أكلاً ذَرِيعًا. قال النووي: مقعيًا، أي: جالسًا على أليتيه ناصبًا ساقيه، ومحتفز بالزاي: مستعجل مستوفز غير متمكن في جلوسه، وهو معنى مقعيًا.

(1) رواه ابن سعد ١/ ٢٨١، والبغوي في شرح السنة ١١/ ٢٨٧ من حديث عائشة، وسنده عندهما ضعيف، وأورده الهيثمي في المجمع ٩/ ١٩، برواية أبي يعلى وقال: إسناده حسن. وله شاهد عن الحسن مرسلاً، رواه أحمد في الزهد برقم ٢١ وسنده صحيح. وشاهد آخر مرسلاً أيضًا عن عطاء بن أبي رباح، رواه أحمد في الزهد ٢٠، ورواه عبد الرزاق في المصنف ١٠/ ٤١٦ عن يحيى بن أبي كثير وأيوب السختياني مرسلاً فالحديث لهذه الشواهد صحيح، خلافًا لمن ضعفه.

(2) رواه البخاري في التهجد ٣/ ٢٧٥، ومسلم في صلاة الليل ٦/ ١٧ من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها.

وقد قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أفضل هذه الأمة أكثرها نِساء[1]. مشيرًا إليه ﷺ.

وقد قال ﷺ: «تَنَاكَحُوا تَنَاسَلُوا فإنِّي مُبَاهٍ بِكُمُ الأُمَمَ»[2].

ونهى عن التَّبَتُّلِ[3]، مع ما فيه من قمع الشهوة وغض البصر الذي نبّه عليهما ﷺ بقوله: «مَن كان ذا طَوْلٍ فَلْيَتَزَوَّج، فإنه أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ»[4].

---

(١) رواه أحمد ١/ ٢٣١، والبخاري في أول النكاح ١١/ ١٥ عن سعيد بن جبير قال: قال لي ابن عباس: هل تزوجت؟ قلت: لا، قال: فتزوج فإن خير هذه الأمة... إلخ.

(٢) الحديث ورد من حديث أنس، رواه أحمد ٣/ ١٥٨، ٢٤٥، وابن حبان ٩/ ٣٣٨، والبيهقي ٧/ ٨١، ٨٢ بلفظ: «تزوجوا الولود الودود فإني مكاثر بكم الأنبياء يوم القيامة»، وعزاه الهيثمي في المجمع ٤/ ٢٥٢، ٢٥٨ لأحمد والطبراني، وحسَّن إسناده. ومن حديث معقل بن يسار رواه أبو داود ٢٠٥٠ في النكاح، والنسائي ٦/ ٦٥، ٦٦، وابن حبان ٩/ ٣٦٤، والطبراني ٢٠/ ٥٠٨، والحاكم ٢/ ١٦٢، والبيهقي ٧/ ٨١ من طرق وسنده صحيح، وصححه الحاكم والذهبي. ومن حديث أبي أمامة رواه البيهقي ٧/ ٧٨ بسند حسن في الشواهد. ومن حديث ابن عمرو رواه أحمد ٢/ ١٧١، ١٧٢. ومن حديث سهل بن حنيف، رواه الطبراني في الأوسط برقم ٥٧٤٢. فالحديث صحيح.
وقوله: مباهٍ، أي: مفاخر بكثرتكم الأنبياء وأممهم.

(٣) رواه البخاري ١١/ ١٩، ومسلم ٩/ ١٧٦، ١٧٧، كلاهما في النكاح من حديث سعد بن أبي وقاص. والتبتل هنا: الإعراض عن التزوج، يعني مع الاستطاعة.

(٤) هو بهذا اللفظ رواه الطبراني ولا يصح، ورواه البخاري ١١/ ١٠، ومسلم ٩/ ١٧٢ وغيرهما عن ابن مسعود بلفظ: «يا مَعْشَر الشبابِ من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصنُ للفرج، ومَن لم يستطعْ فعليه بالصومِ فإنه لهُ وِجاءٌ».

حتى لم يره العلماء مما يقدح في الزهد. وقد كان زهَّاد الصحابة رضي الله تعالى عنهم كثيري الزوجات والسراري، كثيري النكاح، وحُكِي في ذلك عن عليّ والحسن وابن عمر وغيرهم غير شيء، وقد كره غير واحد أن يلقى الله غير متزوِّج.

فإذا قيل: كيف يكون النكاح وكثرته من الفضائل، وهذا يحيى بن زكريا عليهما السلام قد أثنى الله تعالى عليه أنه كان حصورًا. فكيف يثني الله عليه بالعجز عمّا تعده فضيلة؟!. وهذا عيسى ابن مريم عليه السلام تبتَّل من النساء، فلو كان فضيلة لنكح.

والجواب: إنَّ ثناء الله تعالى على يحيى بأنه حصور ليس كما قال بعضهم أنه كان هيوبًا أو لا ذكر له. بل قد أنكر هذا حذَّاق المفسِّرين ونقَّاد العلماء، وقالوا: هـذه نقيصة وعيب، ولا يليق بالأنبياء عليهم السلام، وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب، أي: لا يأتيها كأنه حصر عنها. وقيل: مانعًا نفسه من الشهوات، وقيل: ليست له شهوة في النساء[1]. فبان لك من هذا أنَّ عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفضل في كونها موجودة، ثم قمعها إما بمجاهدة كعيسى عليه السلام، أو بكفاية من الله تعالى كيحيى عليه السلام فضيلة زائدة لكونها مشغلة في كثير من الأوقات، حاطة إلى الدنيا.

ثم هي في حق من أُقْدِر عليها ومُلِّكَها وقام بالواجب فيها ولم يشغله عن ربِّه: درجة علياء، وهي درجة نبيّنا ﷺ الذي لم تشغله كثرتهن عن عبادة ربّه، بل زاده ذلك عبادة لتحصينهن وقيامه بحقوقهن واكتسابه لهن، وهدايته إيّاهن، بل صرَّح أنها ليست من حظوظ دنياه هو، وإن كانت من حظوظ دنيا غيره، فقال ﷺ: «حُبِّب إليَّ من دنياكم...[2]».

---

(١) انظر الحق في الحصور: عند ابن جرير ٣/ ٢٥٥، ٢٥٧.

(٢) رواه أحمد ٣/ ١٩٩، والنسائي في عشرة النساء ٧/ ٥٨، ٦٠، والحاكم ٢/ ١٦٠، =

فدلَّ أنَّ حبَّه لما ذكر من النساء والطيب اللذين هما من أمر دنيا غيره، واستعماله لذلك ليس لدنياه بل لآخرته للفوائد التي ذكرناها في التزويج وللقاء الملائكة في الطيب، ولأنه أيضًا مما يدعو إلى الجماع ويعين عليه ويحرِّك أسبابه، وكان حبُّه لهاتين الخصلتين لأجل غيره وقمع شهوته، وكان حبُّه الحقيقي المختصّ بذاته في مشاهدة جبروت مولاه ومناجاته. ولذلك ميَّز بين الحبين وفصل بين الحالين، فقال: «وجعلت قرة عيني في الصلاة»[1]. فقد ساوى يحيى وعيسى في كفاية فتنتهن وزاد فضيلة بالقيام بهن، وكان ﷺ ممن أُقْدِر على القوَّة في هذا وأُعْطِيَ الكثير منه، ولهذا أُبِيحَ له من عدد الحرائر ما لم يبح لغيره.

وقد رُوِّينا عن أنس أنه ﷺ كان يدور على نسائه في الساعة من الليل والنهار وهنَّ إحدى عشرة. قال أنس: وكنّا نتحدَّث أنه أُعطِيَ قوَّة ثلاثين رجلاً[2]. وروي نحوه عن أبي رافع، وقال صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم فيه: «هذا أطيب وأطهر»[3].

= والبيهقي ٧/ ٧٨ عن أنس بلفظ: «حُبِّبَ إليَّ مِن دنياكُم النساءُ والطيبُ، وجُعلتْ قرةُ عيني من الصلاة»، وجوَّده العراقي وحسَّنه الحافظ وصحَّحه الحاكم، وله شاهد عن عائشة عند أحمد ٦/ ٧٢ بسند صحيح لولا وجود رجل مبهم فيه.

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) رواه البخاري في الغسل ١/ ٣٩٢، ٤٠٦، ٤٠٧، وفي النكاح ١١/ ٢٢٩، باب من طاف على نسائه في غسل واحد. وهو عند أحمد ٣/ ٩٩، ١٦٦، ٢٢٥، ٢٣٩، والبخاري أيضًا، ومسلم ٣/ ٢١٧، وأبي داود ٢١٨، والترمذي ١٢٣، والنسائي ١/ ١١٨، و ٦/ ٤٤ من المجتبى، والدارمي ٧٥٩، ٧٦٠، وغيرهم بلفظ: كان يطوف على نسائه بغسل واحد.

(٣) رواه أبو داود ٢١٩ بلفظ: طاف ذات على يوم على نسائه يغتسل عند هذه وعند هذه. وقال: «هذا أزكى وأطيب وأطهر»، وسنده حسن.

وقال سليمان عليه السلام: لأطوفَنَّ الليلة على مائة امرأة أو تسع وتسعين[1]. وأنه فعل ذلك.

وقد كان لداود عليه السلام على زهده وأكله من عمل يده تسع وتسعون امرأة، وقد نبَّه تعالى على ذلك في الكتاب العزيز بقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً . . . ﴾ إلخ الآية [ص: ٢٣].

[ز] وسيأتي الكلام على قصته في ذلك وتحقيق الحق فيها ص ٤٠٦.

وفي حديث أنس عنه عليه السلام: فُضِّلْتُ على الناس بأربع: بالسخاء، والشجاعة، وكثرة الجماع، وقوَّة البطش[2].

وأما الجاه، فمحمود عند العقلاء عادة وبقدر جاهه عظمه في القلوب.

وقد قال الله تعالى في صفة عيسى عليه السلام: ﴿ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾[3] [آل عمران: ٤٥].

---

(١) رواه أحمد ٢/ ٢٩٩، ٢٧٥، والبخاري في الجهاد ٦/ ٣٧٤، ٣٧٥، وفي الأيمان والنذور ١٤/ ٣٣٣، ٤١٩، وفي الأنبياء ٧/ ٢٧٠، وفي التوحيد ١٧/ ٢٢١، ومسلم ١١/ ١١٩، والنسائي كلاهما في الأيمان والنذور، واللفظ للبخاري في الجهاد.
قال الحافظ في الفتح ٧/ ٢٧١، وفيه ما خص به الأنبياء من القوة على الجماع الدال ذلك على صحة البنية وقوة الفحولية وكمال الرجولة مع ما هم فيه من الاشتغال بالعبادة والعلوم. . . إلخ.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط ٦٨١٢، قال الهيثمي في المجمع ٨/ ٢٦٩: رجاله موثقون، فهو حسن. هذا، وقد طعن الشيعة في حديث طوافه ﷺ على نسائه بغسل واحد. . وليس ذلك بأوليات تكذيبهم للسنن الصحيحة والآثار المتواترة، بل والطعن في القرآن وتحريفه وتأويله بالتآويل الباطلة الباطنية الدال ذلك على كفرهم.

(٣) وجيهًا، أي: له جاه وسيادة وتعظيم في الدنيا والآخرة.

لكن آفاته كثيرة، فهو مضر لبعض الناس لعقبى الآخرة، فلذلك ذمّه من ذمّه ومدح ضده، وورد في الشرع مدح الخمول[1]، وذمَّ العلوّ في الأرض[2].

وكان ﷺ قد رُزِق من الحِشمة والمكانة في القلوب والعظمة قبل النبوَّة عند الجاهلية وبعدها، وهم يكذبونه ويؤذون أصحابه، ويقصدون أذاه في نفسه خفية، حتى إذا واجههم أعظموا أمره وقضوا حاجته، وأخباره في ذلك معروفة سيأتي بعضها.

وقد كان يَبْهتُ ويَفْرَقُ لرؤيته من لم يره، كما روي عن قيلة أنها لما رأته أُرْعِدَت من الفرَق فقال: «يا مسكينة عليكِ السكينة»[3]. وفي حديث

---

(١) كحديث سعد بن أبي وقاص عنه ﷺ، قال: «إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي». رواه أحمد ١/ ١٦٨، ومسلم في أوائل الزهد ١٨/ ١٠٠، وله سبب يراجع في مسلم. وكحديث أنس عنه ﷺ: «كم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبرَّه». . . رواه الترمذي في المناقب ٣٦١٤ بسند حسن، وهو صحيح لغيره لشواهد له، منها عن أبي بكر عنه ﷺ: «رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره». رواه مسلم في باب جهنم ١٧/ ١٨٧.
ومنها حديث عقبة: «أملك عليك لسانك وليسعك بيتك وإياك على خطيئتك». رواه الترمذي في الزهد ٢٢٢٦، وأحمد ٤/ ١٥٨، ٢٥٩، وسنده صحيح عند أحمد في طريق.

(٢) ففي حديث كعب بن مالك مرفوعًا: ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف. رواه أحمد ٣/ ٤٦٠، والترمذي في الزهد ٢١٩٤، والدارمي ٢٧٣٣، وابن حبان ٣٤٧٢ وغيرهم، وحب الشرف والحرص على المال كلاهما من حب العلو في الأرض.

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد ١١٧٨، وأبو داود في الأدب ٤٨٤٧، والترمذي في الشمائل رقم ١١٩ وسنده حسن: ورواه الطبراني مطولاً، وفيه قوله: «يا مسكينة. . .» إلخ، وقال فيه نور الدين في المجمع ٦/ ١٢، رجاله ثقات.

أبـي مسعود: أنَّ رجلاً قام بين يديه فأرعد، فقال له: «هوِّن عليك، فأني لستُ بملك. . . » الحديث[1].

فأما عظيم قدره بالنبوَّة وشريفُ منزلتِه بالرسالة، وإنافَةُ رتبتِهِ بالاصطفاء والكرامةِ في الدنيا؛ فأمرٌ هو مَبْلَغُ النِّهَايةِ، ثم هو في الآخرة سيِّد ولد آدم. وعلى معنى هذا الفصل نظمنا هذا القسم بأسره.

وأما الضربُ الثالث، فهو: ما تختلف الحالات في التمدُّح به والتفاخر بسببه والتفضيل لأجله، ككثرة المال، فصاحبه على الجملة معظم عند العامة لاعتقادها توصُّلَه به إلى حاجاته وتَمَكُّنَ أغراضه بسببه، وإلاَّ فليس فضيلة في نفسه، فمتى كان المال بهذه الصورة وصاحبه منفقًا له في مهماته ومهمات من اعتراه وأمله، وتصريفه في مواضعه مشتريًا به المعالي والثناء الحسن والمنزلة من القلوب؛ كان فضيلة في صاحبه عند أهل الدنيا. وإذا صرفه في وجوه البر وأنفقه في سبل الخير وقصد بذلك الله والدار الآخرة؛ كان فضيلة عند الكل بكل حال. ومتى كان صاحبه ممسكًا له غير موجهه وجوهه، حريصًا على جمعه؛ عاد كثرته كالعدم، وكان منقصة في صاحبه، ولم يقف به على جدد السلامةِ، بل أوقعه في هُوَّة رذيلة البخل ومَذَمَّة النَّذَالة.

فإذًا التمدُّحُ بالمال وفَضِيلَتُه عند مُفَضِّلِه ليست لنفسه، وإنما هو للتوصل به إلى غيره، وتصريفه في متصرفاته. فجامعه إذا لم يضعه مواضعه، ولا وجَّهَه وجوهَه؛ غير مَلِيءٍ بالحقيقة، ولا غنى بالمعنى، ولا ممتدح عند

---

(١) رواه الحاكم في المغازي من المستدرك ٣/ ٤٧، ٤٨ ومن طريقه البيهقي في الدلائل ٥/ ٦٩، وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبـي، ثم رواه البيهقي مرسلاً وقال: هو المحفوظ، وله شاهد عن جرير بن عبد الله رواه الحاكم في التفسير ٢/ ٤٦٦، وصححه على شرطهما ووافقه الذهبـي، وفيه. كالذي قبله: «هَوِّن عَلَيْك فإنَّما أنا ابْنُ امْرَأةٍ مِن قُرَيشٍ كانتْ تأكُلُ القَدِيد». .

أحد من العقلاء، بل هو فقير أبدًا، غير واصل إلى غرض من أغراضه، إذ ما بيده من المال الموصل لها لم يسلط عليه، فأشبه خازن مال غيره ولا مال له، فكأنه ليس في يده منه شيء. والمنفق مليء غنى بتحصيله فوائد المال، وإن لم يبق في يده من المال شيء.

فانظر سيرة نبينا ﷺ وخُلُقَه في المال؛ تجده: قد أُوتِيَ خزائنَ الأرض ومفاتيح البلادِ، وأُحِلَّت له الغنائم ولم تَحِلَّ لِنَبِـيّ قبلَه، وفُتِـحَ عليه في حياته ﷺ بلادُ الحجاز واليمن وجميع جزيرة العرب وما دانى ذلك من الشام والعراق، وجُلِبَتْ إليه من أخماسِها وجزيتها وصدقاتِها ما لا يُجْبى للملوك إلَّا بعضُه، وهادتْه جماعة من ملوك الأقاليم؛ فما استأثر بشيء منه، ولا أمسك منه درهمًا، بل صرفه مصارفه، وأغنى به غيره، وقوَّى به المسلمين، وقال: «مَا يَسُرُّني أنَّ لي أُحُدًا ذهبا يَبِيتُ عِندِي مِنهُ دينارٌ إلا دينار أُرْصِدُهُ لِدَينٍ»[1]. ومات ودِرْعُهُ مرهونةٌ في نفقة عيالِه[2].

واقتصر من نفقته وملبسه ومسكنه ما تدعو ضرورته إليه، وزهد فيما سواه، فكان يلبس ما وجد، فيلبس في الغالب الشملة والكساء، الخشن

---

(١) رواه البخاري في الاستئذان ١٣/ ٣٠١، وفي الرقاق ١٤/ ٤١ وفي مواضع، ومسلم في الزكاة ٧/ ٧٤، باب تغليظ عقوبة من لا يؤدي الزكاة، وكذا أحمد ٥/ ١٤٩، ١٦٠ من حديث أبـي ذر رضي الله تعالى عنه، وفي الباب أحاديث.

(٢) رواه أحمد والترمذي في البيوع ١٠٩٦، والدارمي ٣٥٨٥، وابن ماجه ٢٤٣٩، والبيهقي ٦/ ٣٦ عن ابن عباس، وسنده عندهم صحيح على شرطهما، وفي رواية: مرهونة بعشرين صاعًا من طعام أخذه لأهله. ونحوه عن أنس، رواه البخاري ٥/ ٢٠٦، ٦/ ٦٥، ٦٦، والترمذي ١٠٩٧، والنسائي ٧/ ٢٥٤، وابن ماجه ٣٧ وغيرهم وفيه: ولقد رهن له درع مع يهودي بعشرين صاعًا... إلخ. وهو عند البخاري أيضًا في البيوع ٥/ ٣٠٦ وفي الرهن ٤/ ٦٧ عن عائشة رضي الله تعالى عنها وعن أسماء بنت يزيد عند ابن ماجه ٢٤٣٨ بسند حسن.

والبرد الغليظ، ويقسم على من حضره أقبية الديباج المخوصة بالذهب، ويرفع لمن لم يحضر. . .[1] إذ المباهاة في الملابس والتزين بها ليست من خصال الشرف والجلالة وهى من سمات النساء. والمحمودُ: منها نقاوة الثوب والتوسط في جنسه، وكونه لُبْسَ مِثلِه غير مسقط لمروءة جنسه مما لا يؤدي إلى الشهرة في الطرفين. وقد ذمَّ الشرع ذلك[2].

---

(١) الأمر كما قال رحمه الله تعالى، ففي صحيح البخاري عن سهل بن سعد: أنه لبس شملة أهدتها إليه امرأة، ١٢/ ٣٩٠ من كتاب اللباس. وعن عائشة أنها أخرجت كساءً وإزارًا غليظًا وقالت: قبض رسول الله ﷺ في هذين. رواه البخاري ١٣/ ٣٩٢، ومسلم ١٤/ ٥٦، ٥٧ في اللباس، وعنها قالت: خرج ذات غداة وعليه مرط مرجل من شعر أسود. رواه مسلم ١٤/ ٥٧، والترمذي وغيرهما. وعن أنس كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية. . . الحديث رواه البخاري ١٢/ ٣٩٠. وعن المسور بن مخرمة في قسمته الأقبية. . . إلخ. رواه البخاري في اللباس ١٢/ ٣٨٣، ومسلم في الزكاة ٧/ ١٤٧.
وانظر حديث أسماء في الجبة الطيالسية المكفوفة بالديباج عند مسلم ١٤/ ٤٢، وحديث المغيرة في جبة من صوف عند البخاري ١٢/ ٣٨٣، وحديث عائشة في الخميصة التي ألهته عن صلاته في البخاري ١٢/ ٣٩٢، وحديث جابر في قصة قبيصة ﷺ الذي كفن به ابن أُبـي المنافق عند البخاري ومسلم، وحديث علي في ردائه عند البخاري ١٢/ ٣٧٩، وحديث أنس في البرود اليمنية عند الشيخين.
وانظر مسند أحمد ٢/ ٢٢٧، ٢٢٨، ٤/ ١٦٣، ٦/ ١٣٢، ١٤٤، ٢١٩، وأبا داود ٤٠٦٠، والترمذي في اللباس، والنسائي في الزينة، والترمذي أيضًا في الأدب إلى غير ذلك مما توجد فيها الملابس النبوية. وانظر: شمائل الترمذي أيضًا، فكان ﷺ لا يتقيد بلباس خاص، بل يلبس ما وجد وتيسر له من غير تكلف. . .

(٢) فقد أخرجه أحمد ٢/ ٩٢، ١٣٩، وأبو داود ٤٠٢٩، وابن ماجه ٣٦٠٧، ٣٦٠٦، عن ابن عمر عنه ﷺ: «من لبس ثوب شهرة ألبسه الله يوم القيامة ثوب مذلة ثم ألهب فيه نارًا». وسنده حسن، وله شاهد عن أبـي ذر. رواه ابن ماجه ٣٦٠٨، وحسَّنه البوصيري في الزوائد. ولباس الشهرة قد يكون لنفاسته، أو خسته، فكلاهما مذموم شرعًا.

وغاية الفخر فيه في العادة عند الناس إنما يعود إلى الفخر بكثرة الموجود ووفور الحال. وكذلك التباهي بجودة المسكن وسعة المنزل وتكثير آلاته وخدمه ومركوباته. ومن ملك الأرض وجُبِـيَ إليه ما فيها وترك ذلك زهدًا وتنزُّهًا فهو حائز لفضيلته المالية ومالك للفخر بهذه الخصلة إن كانت فاضلة، زائدٌ عليها في الفخر، ومُعْرِقٌ في المدح بإضرابه عنها وزهده في فانيها وبذلها في مظانها.

الأخلاق الحميدة والآداب الشريفة المكتسبة

وأما الخصال المكتسبة من الأخلاق الحميدة، والآداب الشريفة التي اتفق جميع العقلاء على تفضيل صاحبها، وتعظيم المتصف بالخلق الواحد منها، فضلاً عما فوقه، وأثنى الشرع على جميعها، وأمر بها، ووعد السعادة الدائمة للمتخلق بها، ووصف بعضها بأنه من أجزاء النبوة، وهي المسماة بحسن الخُلُق، وهو الاعتدال في قوى النفس وأوصافها، والتوسط فيها، دون الميل إلى منحرف أطرافها. فجميعها كانت خلق نبينا ﷺ على الانتهاء في كمالها والاعتدال إلى غايتها، حتى أثنى الله تعالى عليه بذلك، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾ [القلم: ٤]، قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: كان خلقه القرآن[١]، يرضى برضاه ويسخط بسخطه. وقال ﷺ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[٢]. قال أنس رضي الله تعالى عنه:

---

(١) رواه أحمد ٦/ ٩١، ١٦٣، ومسلم في صلاة الليل ٦/ ٢٥، ٢٦ عن سعد بن هشام أنه سأل عائشة عن خُلُقِ رسول الله ﷺ فقالت: أما تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قالت: كأن خلقه القرآن.. ومعناه: أنه كان متخلقًا بأخلاق القرآن؛ فكل خلق كريم دعا إليه القرآن أو رغب فيه أو مدحه كان متحليًا ومتصفًا به، وكل خلق دنيء سافل نهى عنه القرآن أو ذمه؛ كان منزهًا عنه بعيدًا عن الاتصاف به.

(٢) رواه أحمد ٢/ ٣٩٨، ٣٨١، والبخاري في الأدب المفرد ٢٧٣، وابن سعد ١/ ١٩٢، والحاكم ٢/ ٦١٣، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال =

كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلُقًا[1]. وكان فيما ذكره المحققون مجبولاً عليها في أصل خلقته وأول فطرته، لم تحصل له باكتساب ولا رياضة إلاَّ بحول إلـٰهي، وخصوصية ربانية.

وهكذا سائر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ومن طالع سيرهم منذ صباهم إلى مبعثهم حقق ذلك، كما عرف من حال عيسى وموسى ويحيـى وسليمان وغيرهم عليهم السلام. بل غرزت فيهم هذه الأخلاق في الجبلة، وأودعوا العلم والحكمة في الفطرة. قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ [مريم: ١٢]. قال المفسرون[2]: أعطى الله يحيـى العلم بكتاب الله تعالى في حال صباه. وقيل في قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩]، صدق يحيـى بعيسى وهو ابن ثلاب سنين، فشهد له أنه كلمة الله وروحه، وقيل: صدقه وهو في بطن أمه، فكانت أم يحيـى تقول لمريم: إني أجد ما في بطني يسجد لما في بطنك تحية له[3].

وقد نص الله على كلام عيسى في مهده فقال: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم: ٣٠]، وقال تعالى: في داود وسليمان

= ابن عبد البر: هو حديث صحيح، متصل من وجوه صحاح عن أبـي هريرة.

ومعنى الحديث: أنه ﷺ بعث إلى الناس ليكمل تخلقًا وتبليغًا ما بقي من الأخلاق الصالحة الكريمة التي لم يكن متصفًا بها أحد من الأنبياء أو غيرهم من العرب أو سائر الأجناس والأمم قبله ﷺ وشرَّف وعظَّم ومجَّد وكرَّم.

(١) رواه مسلم في الفضائل ١٥/ ٧١، ورواه البخاري في الأدب والوصايا والديات، وأبو داود في الأدب ٤٧٧٤ مطولاً، وأوله: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين. . . وفيه: وكان من أحسن الناس خلقًا. وقد تقدم تخريجه بطوله.

(٢) لم يذكر ابن جرير ١٦/ ٥٥ غيره، وتبعه المفسرون على ذلك.

(٣) هذا أيضًا متفق عليه بين المفسرين وقالوا: هو أول من صدق بعيسى. وقد أورد ابن جرير وابن كثير وغيرهما ما ذكره المؤلف هنا غير قوله: وهو ابن ثلاث سنين.

﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء: ٧٩]. وقصة المرأتين والصبي وحكم داود وسليمان معروفة جاءت في الصحيح[(١)]. وقال المفسرون في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ [الأنبياء: ٥١]، أي هديناه صغيرًا. قاله مجاهد وغيره[(٢)]، وقيل: أوحى الله تعالى إلى يوسف وهو صبي عندما هم إخوته بإلقائه في الجب، يقول الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا . . . ﴾ الآية[(٣)] [يوسف: ١٥]، إلى غير ذلك مما ذكر من أخبارهم عليهم السلام.

وقال ﷺ: «لم أهم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلاَّ مرتين فعصمني الله منهما ثم لم أعد»[(٤)].

وهكذا ثم يتمكن الأمر لهم وتترادف نفحات الله تعالى عليهم، وتشرق أنوار المعارف في قلوبهم حتى يصلوا إلى الغاية ويبلغوا باصطفاء الله تعالى لهم بالنبوة في تحصيل هذه الخصال الشريفة النهاية دون ممارسة ولا رياضة.

---

(١) روى قصة ذلك أحمد ٢/ ٣٤٠، والبخاري في الأنبياء ٧/ ٢٧٥، وفي الفرائض ١٥/ ٥٨، ومسلم ١٢/ ١٨ في الأقضية، وغيرهم. وانظر بسطها ومعناها وفوائِدها في: كتابي الفوائِد والعبر رقم ١٤.

(٢) نقله عنه ابن جرير ١٦/ ٣٦، وقال في معنى الآية: ووفقناه للحق وأنقذناه من بين قومه وأهل بيته من عبادة الأوثان كما فعلنا ذلك بمحمد ﷺ. . . إلخ.

(٣) قال ابن جرير ١٢/ ١٦١: أوحى إلى يوسف وهو في الجب أن سينبئهم بما صنعوه وهم لا يشعرون بذلك الوحي وذكر معنى ذلك ابن كثير وغيره.

(٤) رواه ابن إسحاق في السيرة، والبزار، والبيهقي في الدلائل ٢/ ٣٤، ٣٥ بسند حسن، وابن إسحاق صرح بالتحديث وأورده الهيثمي برواية البزار وقال ٨/ ٢٢٦: رجاله ثقات، وقال الحافظ: إسناده حسن، وصححه السيوطي في مناهل الصفا. وانظر لفظه مطولاً في: تهذيب الخصائص رقم ٦٣.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[1] [القصص: ١٤]، وقد نجد غيرهم يطبع على بعض هذه الأخلاق دون جميعها، ويولد عليها، فيسهل عليه اكتساب تمامها عناية من الله تعالى كما نشاهد من خلقة بعض الصبيان على حسن السمت أو الشهامة أو صدق اللسان أو السماحة، وكما نجد بعضهم على ضدها فبالاكتساب يكمل ناقصها، وبالرياضة والمجاهدة يستجلب معدومها ويعتدل منحرفها، وباختلاف هذين الحالين يتفاوت الناس فيها، وكل ميسر لما خلق له. ولهذا قد اختلف السلف فيها: هل هذا الخلق جبلة أو مكتسبة..

وحكى الطبري عن بعض السلف: أن الخلق الحسن جبلة وغريزة في العبد، وحكاه عن عبد الله بن مسعود والحسن، وبه قال هو. والصحيح ما أصلناه.

وهذه الأخلاق المحمودة والخصال الجميلة الشريفة كثيرة، ولكننا نذكر أصولها، ونشير إلى جميعها، ونحقق وصفه ﷺ بها إن شاء الله تعالى.

العقل أصل فروع الأخلاق الكريمة

أما أصل فروع هذه الأخلاق وعنصر ينابيعها: فالعقل، الذي منه ينبعث العلم والمعرفة، ويتفرع من هذا ثقوب الرأي، وجودة الفطنة، والإصابة، وصدق الظن، والنظر للعواقب، ومصالح النفس، ومجاهدة

(١) هذه الآية جاءت في كليم الله عليه السلام، وجاء مثلها في سيدنا يوسف، وليس فيها: ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾. فجرت سنَّة الله تعالى في أنبيائه أنه تعالى يؤتيهم العلم والنبوة والحكمة عندما يبلغون سن الكمال والاستواء، وهي الأربعون سنة أو ما يقاربها، وهكذا يفعل بالمحسنين من أتباعهم، جعلنا الله تعالى منهم.

الشهوة، وحسن السياسة والتدبير، واقتناء الفضائل، وتجنب الرذائل.

وقد أشرنا إلى مكانه منه ﷺ، وبلوغه منه ومن العلم الغاية القصوى التي لم يبلغها بشر سواه، وإن جلالة محله من ذلك ومما تفرع منه متحققة عند من تتبع مجاري أحواله واطراد سيره، وطالع جوامع كلامه، وحسن شمائله، وبدائع سيره، وحكم حديثه، وعلمه بما في التوراة والإنجيل والكتب المنزلة، وحكم الحكماء وسير الأمم الخالية وأيامها، وضرب الأمثال، وسياسة الأنام، وتقرير الشرائع، وتأصيل الآداب النفيسة، والشيم الحميدة، إلى فنون العلوم التي اتخذ أهلها كلامه ﷺ فيها قدوة، وإشاراته حجة، كتعبير الرؤيا والطب والحساب والفرائض والنسب، وغير ذلك مما سنبينه في معجزاته إن شاء الله تعالى دون تعليم ولا مدارسة ولا مطالعة كتب من تقدم، ولا الجلوس إلى علمائهم، بل نبـي أمي لم يعرف بشيء من ذلك حتى شرح الله صدره، وأبان أمره وعلمه وأقرأه، يعلم ذلك بالمطالعة عن حاله ضرورة وبالبرهان القاطع على نبوته نظرًا، فلا نطول بسرد الأقاصيص وآحاد القضايا؛ إذ مجموعها ما لا يأخذه حصر ولا يحيط به حفظ جامع، وبحسب عقله كانت معارفه ﷺ إلى سائر ما علمه الله تعالى وأطلعه عليه من علم ما يكون وما كان، وعجائب قدرته وعظيم ملكوته، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾[1] [النساء: ١١٣].

حارت العقول في تقدير فضله عليه وخرست الألسن دون وصف يحيط بذلك أو ينتهي إليه.

---

(١) أي: أنزل عليك القرآن والسنَّة، وعلمك من الشرائع والأمور الغيبية ما لم تكن تعلمه، وكان فضله عظيمًا عليك بالنبوة والوحي، وسائر النعم الجسيمة التي لم يؤتها غيرك.

حلمه ﷺ وعفوه مع المقدرة

وأما الحلم والاحتمال والعفو مع المقدرة، والصبر على ما يكره، وبين هذه الألقاب فرق، فإن الحلم حالة توقر وثبات عند الأسباب المحركات، والاحتمال حبس النفس عند الآلام والمؤذيات، ومثلها الصبر ومعانيها متقاربة، وأما العفو فهو ترك المؤاخذة.

وهذا كله مما أدب الله تعالى به نبيه ﷺ فقال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩].

روي أن النبي ﷺ لما نزلت عليه هذه الآية سأل جبريل عليه السلام عن تأويلها فقال له: حتى أسأل العالم. ثم ذهب، فأتاه فقال يا محمد: إن الله يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك(١).

وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٦].

وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٤].

وقال: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟﴾ [النور: ٢٢].

وقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾(٢) [الشورى: ٤٠].

---

(١) الحديث رواه ابن جرير ٩/ ١٥٥ من طرق مرسلاً ووصله ابن أبي حاتم عن جابر، قال ابن كثير: وله شواهد، وما ذكر هو أحد التفاسير للآية.
وقال ابن جرير: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أمر نبيه ﷺ أن يأمر الناس بالعرف وهو المعروف في كلام العرب قال: فمن المعروف: صلة رحم من قطع، وإعطاء من حرم، والعفو عمن ظلم، وكل ما أمر الله به من الأعمال أو ندب إليه فهو من العرف.

(٢) أولوا العزم، هم: أصحاب القوة والثبات والحزم والجد في الدنيا، وهم خمسة، ساداتنا: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ونبينا صلوات الله وسلامه عليهم.
وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ...﴾ إلخ، أي: الأمور المأمور بها والمعزوم عليها. =

ولا خفاء بما يؤثر من حلمه واحتماله، وأن كل حليم قد عرفت منه زلة، وحفظت عنه هفوة، وهو ﷺ لا يزيد مع كثرة الأذى إلاَّ صبرًا وعلى إسراف الجاهل إلاَّ حلمًا.

ثم أسند من طريق الترمذي فمالك عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: ما خُيِّر رسول الله ﷺ في أمرين قط إلاَّ اختار أيسرهما، ما لم يكن إثمًا، فإن كان اثمًا كان أبعد الناس منه. وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه، إلاَّ أن تنتهك حرمة الله تعالى فينتقم لله بها[1].

وروي أن النبي ﷺ لما كسرت رباعيته وشج وجهه يوم أحد شق ذلك على أصحابه شقًّا شديدًا، وقالوا: لو دعوت عليهم فقال: «إني لم أبعث لعانًا ولكني بعثت داعيًا ورحمة، اللَّهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون»[2].

= وفي هذه الآيات الكريمات الندب إلى الأخذ بالأفضل والأكمل من الأخلاق، كالتبصر والصفح والعفو عن المسيئين والجاهلين والحلم وعدم مقابلة السيئة بمثلها.

(١) الترمذي في الشمائل رقم ٣٠٠ أسنده من طريقه. ورواه أحمد ٦/ ٣٢ مطولاً، وفي مواضع، والبخاري في المناقب ٧/ ٣٨٥، ٣٨٦، وفي الأدب وفي الحدود، ومسلم في الفضائل ١٥/ ٨٤، وأبو داود في الأدب ٤٧٨٥، وقوله: تنتهك، أي: تؤتى منتهكة حرمتها.

(٢) وهو مركب عنده من عدة أحاديث وكلها صحيحة:
الأول: كسر رباعيته وشج وجه... إلخ. رواه مسلم في غزوة أحد من كتاب السير ١/ ١٤٩، عن أنس: أنه ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد وشج في رأسه، فجعل يسلت الدم عنه ويقول: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله». فأنزل الله عز وجل: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ... ﴾ إلخ. وفي معناه حديث أبي هريرة عنده أيضًا ١٢/ ١٥٠، وفيه: «اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله في سبيل الله».
الحديث الثاني: «اللَّهم اهدِ قومي...» إلخ، جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه =

قال أبو الفضل رحمه الله تعالى: انظر ما في هذا القول من جماع الفضل ودرجات الإحسان وحسن الخلق وكرم النفس وغاية الصبر والحلم، إذ لم يقتصر ﷺ على السكوت عنهم حتى عفا عنهم، ثم أشفق عليهم ورحمهم ودعا وشفع لهم فقال: «اغفر» أو «اهد»، ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله لقومي، ثم اعتذر عنهم بجهلهم فقال: «فإنهم لا يعلمون».

ولما قال له الرجل: اعدل فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله؛ لم يزد في جوابه أن بيَّن له ما جهله ووعظ نفسه وذكرها بها بما قال له: «ويحك! فمن يعدل إن لم أعدل، خِبْتُ وخَسِرتُ إن لم أعدل»[1].

= قال: كأني أنظر رسول الله ﷺ يحكي نبيًا من الأنبياء ضربه قومه وهو يسيح الدم عن وجهه ويقول: «اللّٰهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». رواه أحمد ١/ ٤٤١، ٣٨٠، ٤٢٧، والبخاري في الأنبياء ٧/ ٣٣٠، ومسلم في السير ١٢/ ١٠٠، ١٥٠، وفي صحيح ابن حبان ٩٧٢ بالموارد، وشعب الإيمان ٨/ ١٤٤، والدلائل ٣/ ٢١٥ للبيهقي عن سهل بن سعد نحوه، قال النور في المجمع ٦/ ١١٧: ورجاله رجال الصحيح.

الحديث الثالث: «إني لم أبعث لعانًا...» إلخ. رواه مسلم في الأدب ١٦/ ١٥٠ وتقدم تحت رقم ٤٦ في التتمة. أما ما ذكره المؤلف بطوله فذكره البيهقي في الشعب رقم ١٤٤٧.

(١) رواه أحمد ٣/ ٥٦، ٥٧، والبخاري في علامات النبوة ٧/ ٤٣٠، وفي الأنبياء ٧/ ١٨٧، وفي المغازي ٩/ ١٣٠، ١٣١، وفي المرتدين ١٥/ ٣٢٠، ٣٢٤، ومسلم في الزكاة ٧/ ١٦١، ١٦٢، ١٦٧، وأبو داود ٤٧٦٣ وغيرهم من حديث أبي سعيد الخدري. وانظر ألفاظ الحديث وبعض طرقه في فضائل الصحابة لكاتبه.

والرجل الذي قال له: اعدل.. إلخ، هو ذو الخويصرة المنافق الخارجي حرقوص التميمي، وكان من الخوارج الذين قاموا ضد الإمام علي عليه السلام، وقتل يوم النهروان.

ولما تصدى له غورث به الحارث ليفتك به ورسول الله ﷺ منتبذ تحت شجرة وحده قائلاً والناس قائلون في غزاة، فلم ينتبه رسول الله ﷺ إلاَّ وهو قائم والسيف صلتا في يده فقال: من يمنعك مني؟ فقال: «الله»، فسقط السيف من يده، فأخذه النبي ﷺ وقال: «من يمنعك مني»؟ قال: كن خير آخذ. فتركه وعفا عنه، فجاء إلى قومه فقال: جئتكم من عند خير الناس[1].

ومن عظيم خبره في العفو عفوه عن اليهودية التي سمّته في الشاة بعد اعترافها على الصحيح من الرواية[2].

وأنه لم يؤاخذ لبيد بن الأعصم إذ سحره[3]، وقد أُعلم به، وأوحي

---

(١) وهو بطوله وبهذا السياق عند أحمد ٣/ ٣٦٥، ٣٩٠، والحاكم ٣/ ٢٩، وابن إسحاق وابن هشام وغيرهم، وسنده صحيح، وهو عند أحمد ٣/ ٣١١، ٣٦٤، والبخاري في الجهاد وفي غزوة ذات الرقاع ٨/ ٤٣٠، ومسلم في الصلاة، وفي الفضائل ١٥/ ٤٤، ٤٥ وغيرهم، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال: غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة قبل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ أدركته القائلة يومًا بوادٍ كثير العضاة فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس في العضاة يتظللون بالشجر ونزل رسول الله ﷺ تحت سمرة فعلق بها سيفه فنام نومة فإذا رسول الله ﷺ يدعونا فجئناه، فإذا عنده أعرابي جالس. فقال: «إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صلتًا فقال لي: من يمنعك مني؟ فقلت: الله، فشام السيف وجلس». ثم لم يعاقبه.
وقوله: صلتًا، أي: مسلولاً. وقوله: فشام، أي: جعله في غمده.

(٢) رواه البخاري في الهبة ٦/ ١٥٩ وغيرها، ومسلم في الطب والمرض ١٤/ ١٧٨ من حديث أنس وفيه: فجيء بها فقيل: ألا نقتلها؟ قال: لا، وانظر ما يأتي برقم ٥٣٠، والحديث وارد عن أبي هريرة مطولاً رواه أحمد ٢/ ٤٥١، والبخاري في الجزية، وفي المغازي ٩/ ٣٧، ٣٨، وفي الطب وفي الهبة، والدارمي في المقدمة وغيرهم، وعن ابن عباس وجابر وغيرهما.

(٣) حديث سحره ﷺ رواه أحمد ٦/ ٥٧، ٦٣، ٩٦، والبخاري في بدء الخلق =

إليه بشرح أمره، ولا عِتبُ عليه فضلاً عن معاقبته.

وكذلك لم يؤاخذ عبد الله بن أبـي وأشباهه[1] من المنافقين بعظيم ما نقل عنهم في جهته قولاً وفعلاً، بل قال لمن أشار بقتل بعضهم: «لا، لئلا يتحدث أن محمدًا يقتل أصحابه»[2].

= ٧/ ١٤٥، وفي الطب وفي الأدب وفي الدعوات، ومسلم في الطب ١٤/ ١٧٤، ١٧٨ وغيرهم، من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها، ورواه أحمد ٤/ ٣٦٧ وغيره بسند حسن عن زيد بن أرقم رضي الله تعالى عنه، وفيه: فقام رسول الله ﷺ كأنما نشط من عقال فما ذكر ذلك اليهودي ولا رأى في وجهه قط حتى مات. وانظر ألفاظ الحديث في المصادر السابق.

وقد طعن في أحاديث الباب بعض العقلانيين؛ بحجة أن ذلك ينافي عصمة النبـي ﷺ، وقد أجيب عن هذه الشبهة، بما لا يتسع لإيراد ذلك في هذا المقام.

(١) جاء في التفسير من صحيح البخاري ٩/ ٢٩٨، ٣٠٠، وفي السير من صحيح مسلم ١٢/ ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩ من حديث أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما أن النبـي ﷺ ركب حمارًا... حتى مر بمجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود فيهم عبد الله بن أبـي، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر عبد الله بن أبـي أنفه بردائه، ثم قال: لا تغبروا علينا.. فدعاهم النبـي ﷺ إلى الله.. فقال ابن أبـي: فلا تؤذنا في مجالسنا.. ثم ركب النبـي ﷺ حتى دخل على سعد بن عبادة فقال: «أي سعد... إلخ، تسمع إلى ما قال أبو حباب يريد عبد الله بن أبـي قال: كذا وكذا. قال: اعف عنه يا رسول الله واصفح.. قال: فعفا عنه.. ورواه أيضًا من حديث أنس بسياق آخر وفيه قول ابن أبـي: إليك عنِّي فوالله لقد آذاني نتن حمارك... وجاء أيضًا عن زيد بن أرقم في قول عبد الله بن أبـي لا تنفقوا على من عند رسول الله... إلخ، ونزول الآية في ذلك وعفوه عنه أيضًا، رواه البخاري في تفسير سورة المنافقين ١٠/ ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، وفي الباب أحاديث.

(٢) جاء ذلك في حديث جابر بن عبد الله بسبب قولة ابن أبـي: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. فبلغ ذلك النبـي ﷺ فقام عمر فقال: يا رسول الله =

وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كنت مع النبي ﷺ وعليه برد غليظ الحاشية فجبذه أعرابي بردائه جبذة شديدة حتى أثرت حاشية البرد في صفحة عاتقه، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك. . . ثم أمر له بعطاء. . . يعني ولم يعاقبه بل ضحك، عليه السلام[1].

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: ما رأيت رسول الله ﷺ منتصرًا من مظلمة ظُلمِها قط، ما لم تكن حرمة من محارم الله، وما ضرب بيده شيئًا قط إلاَّ أن يجاهد في سبيل الله، وما ضرب خادمًا ولا امرأة[2].

وجيء إليه برجل فقيل: هذا أراد أن يقتلك. فقال له النبي ﷺ: لَنْ تُرَاع ولَو أردت ذلِك لمَ تُسلَّطْ عَلَيَّ[3].

= دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال النبي ﷺ: «دعه لا يتحدث الناس إن محمدًا يقتل أصحابه».

رواه البخاري في تفسير المنافقين ١٠/ ٢٧٤، ٢٧٧، ومسلم في البر والصلة ١٦/ ١٣٧، ١٣٨ وغيرهما مطولاً.

(١) رواه البخاري في اللباس ١٢/ ٣٩٠، وفي الأدب ومسلم في الزكاة في إعطاء المؤلفة قلوبهم ٧/ ١٤٦، وأبو داود في الأدب والنسائي في القسامة.
وفيه: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك. فالتفت إليه النبي ﷺ ثم ضحك ثم أمر له بعطاء. وليس فيه: فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك. . . إلخ.

(٢) رواه مسلم بنحوه ١٥/ ٨٤، وأحمد ٦/ ٣٢، وروى بعضه أبو داود ٤٧٨٦، والترمذي في الشمائل ١٩٩ وهو معنى حديثنا السابق ص ١١٧ هامش رقم (١).

(٣) رواه أحمد ٣/ ٤٧١ بسند صحيح، وأورده النور في المجمع ٨/ ٢٢٧ برواية أحمد والطبراني، وقال: رجاله رجال الصحيح غير أبي إسرائيل الجشمي وهو ثقة.
وفيه: «لم ترع، لم ترع» مكررًا وبحرف لم، ومعناه: لا تفزع لمكروه ولا تخف، وهذا نهاية ما يكون من الحلم والعفو والصفح. . . فهل لنا أن نأتسي به في هذا الخلق العظيم.

وجاءه زيد بن سعنة قبل إسلامه يتقاضاه دينًا عليه فجبذ ثوبه عن منكبه وأخذ بمجامع ثيابه وأغلظ له ثم قال: إنكم يا بني عبد المطلب مطلٌ. فانتهره عمر وشدد له في القول، والنبي ﷺ يتبسم، فقال رسول الله ﷺ: «أنا وهو كنا إلى غير هذا منك أحوج يا عمر تأمرني بحسن القضاء وتأمره بحسن التقاضي»، ثم قال: «لقد بقي من أجله ثلاث». وأمر عمر أن يقضيه ماله ويزيده عشرين صاعًا لما روعه، فكان سبب إسلامه وذلك أنه كان يقول: ما بقي من علامات النبوة شيء إلاَّ وقد عرفتها في وجه محمد إلاَّ اثنتين لم أخبرهما، يسبق حلمه جهله، ولا تزيد شدة الجهل إلاَّ حلمًا. فاختبرته بهذا فوجدته كما وصف[1].

والحديث عن حلمه ﷺ وصبره وعفوه عند المقدرة أكثر من أن نأتي عليه، وحسبك ما ذكرناه مما في الصحيح والمصنفات الثابتة إلى ما بلغ متواترًا مبلغ اليقين من صبره على مقاساة قريش وأذى الجاهلية ومصابرة الشدائد الصعبة معهم[2] إلى أن أظهره الله عليهم وحكّمه فيهم وهم لا

---

(١) قصة هذا الحبر الجليل رواها ابن حبان ٢١٠٥ مع الموارد، والحاكم ٣/ ٦٠٤، ٦٠٥، وأبو نعيم في الدلائل ص ٩١، وصححه الحاكم ولم يوافقه الذهبي وأورده النور ٨/ ٢٣٩، ٢٤٠ برواية الطبراني وقال: رجاله ثقات وهو من رواية عبد الله بن سلام. وزيد هذا كان من أحبار اليهود وعلمائهم، منَّ الله عليه بالإسلام وأخلص لله ولرسوله ﷺ، وشهد معه المشاهد، وتوفي في غزوة تبوك رضي الله تعالى عنه، وسعنة بضم السين وتفتح مع النون، ويقال بالياء.

(٢) وورد بذلك أحاديث كثيرة، نستحضر منها الآن: حديث ابن مسعود في وضع أشقاهم بين كتفيه ﷺ سلا جزور. ورواه البخاري في الصلاة، وفي الجزية، وفي المناقب وفي الجهاد. ومسلم في الجهاد ١٢/ ١٥١، ١٥٤، وكذا أحمد ١/ ٣١٧، ٣٩٣ وغيرهم.

وحديث عبد الله بن عمرو في وثوب كفار قريش عليه ﷺ فأحاطوا به... قال: فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع ردائه... الحديث رواه البخاري في أوائل السيرة ٨/ ١٦٨، وفي التفسير ١٠/ ١٧٥، وأحمد ٢/ ٢٠٤، ٢١٨ وغيرهما بألفاظ. =

يشكون في استئصال شأفتهم وإبادة خضرائهم، فما زاد على أن عفا وصفح، وقال: «ما تقولون إني فاعل بكم؟» قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: «أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ [يوسف: ٩٢]. «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[١].

وقال أنس: هبط ثمانون رجلاً من التنعيم صلاة الصبح ليقتلوا رسول الله ﷺ فأُخذوا، فأعتقهم رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾[٢] [الفتح: ٣٤].

وقال لأبي سفيان ـ وقد سيق إليه بعد أن جلب إليه الأحزاب وقتل

= وحديث ابن عباس في تعاقد الكفار عند الحجر.. لو أنهم رأوا النبي ﷺ لقاموا إليه قيام رجل واحد لا يفارقونه حتى يقتلوه... إلخ. رواه أحمد ١/ ٣٠٣، ٣٦٨ من طريقين وكلاهما سنده صحيح في أحاديث أخرى كثيرة.

(١) هو بهذا السياق ذكره ابن إسحاق مفصلاً كما في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٧٤، ونقله عنه ابن كثير في السيرة ٣/ ٥٧٠، والقسطلاني في المواهب ٢/ ٣٢٨ مع شرحه للزرقاني، وعزاه العراقي في المغني إلى الوفا في فضائل المصطفى، لابن الجوزي، وضعفه، وأخرجه النسائي في التفسير من الكبرى ٦/ ٣٨٢، ٣٨٣ مطولاً، والبيهقي في السير من السنن الكبرى أيضًا ٩/ ١١٨، وفي الدلائل ٥/ ٥٨ من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.. وفيه: ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتي الباب فقال: «ما تقولون وما تظنون؟» قالوا: نقول: ابنُ أخ وابنُ عَمٍّ حَلِيمٌ رَحِيمٌ، قال: وقالوا ذلك ثلاثًا، فقال رسول الله ﷺ: «أقول كما قال يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [يوسف: ٩٢]»، قال: فخرجوا كأنما نُشِروا من القبور فدخلوا في الإسلام. وسنده صحيح.

(٢) رواه مسلم في السير ١٢/ ١٨٧، والترمذي في التفسير ٣٠٤٩، وأبو داود في الجهاد ٢٦٨٨، والنسائي في الكبرى ٦/ ٤٦٤، والبيهقي في السنن ٩/ ١١٩ من حديث أنس رضي الله تعالى عنه.

عمه وأصحابه ومثل بهم، فعفا عنه ولاطفه في القول: «ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك، أن تعلم أن لا إله إلاَّ الله»، فقال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأوصلك وأكرمك[1]. وكان ﷺ أبعد الناس غضبًا وأسرعهم رضى، ﷺ[2].

جوده وسخاؤه وكرمه ﷺ

وأما الجود والكرم والسخاء والسماحة، ومعانيها متقاربة، فكان ﷺ لا يوازى ويقاوم في هذه الأخلاق الكريمة ولا يباري ويعارض بهذا وصفه كل من عرفه ﷺ.

ثم أسند من طريق البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال: ما سئل رسول الله ﷺ عن شيء فقال: لا. وعن أنس وسهل بن سعد مثله[3].

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير وأجود ما كان في شهر رمضان، وكان إذا لقيه جبريل عليه السلام أجود بالخير من الريح المرسلة[4].

---

(١) رواه البيهقي في الدلائل ٥/ ٣٤، وأورده الهيثمي في المجمع ٦/ ١٦٧ مطولاً برواية الطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح.

(٢) هذا معلوم من سيرته ضرورة.

(٣) هو عند البخاري في الأدب ١٣/ ١٣/ ٦٥، باب حسن الخلق والسخاء، ومسلم ١٥/ ٧١، باب في سخائه، والدارمي رقم ٧١. أما حديث أنس فرواه مسلم وهو الآتي بعد حديث ابن عباس، أما حديث سهل فرواه الدارمي ٧٢ من طريق الطيالسي ٢٤٤١، ورواه أحمد ٥/ ٣٣٣، ٣٣٤، وهو عند الآخرين مطوّل في قصة البردة التي أعطاها للرجل الذي سأله إياها وهو محتاج إليها.

(٤) رواه أحمد ١/ ٣٦٣، ٢٨٨، والبخاري في بدء الوحي ١/ ٣٤، ٣٥، وفي الأيمان =

وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رجلاً سأله فأعطاه غنمًا بين جبلين فرجع إلى قومه وقال: أسلموا؛ فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى فاقة[1].

وأعطى غير واحد مائة من الإبل، وأعطى صفوان مائة، ثم مائة، ثم مائة[2].

وقد قال له ورقة بن نوفل: إنك تحمل الكل، وتكسب المعدوم[3].

= وفي الصيام وغير ذلك. وذكره في الأدب ١٣/ ٦٤ معلقًا، ومسلم في الفضائل ١٥/ ٦٨، ٦٩.

(١) رواه مسلم في الفضائل، باب في سخائِه ١٥/ ٧٢.
وقوله: لا يخشى الفاقة، أي: لا يخاف الفقر؛ لغناه بربه عز وجل.

(٢) إعطاؤه صفوان مائة ثم مائة ثم مائة عند مسلم في الفضائل ١٥/ ٧٣ عن سعيد بن المسيب عنه.
وعن رافع بن خديج رضي الله تعالى عنه قال: أعطى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس، كل إنسان منهم مائة من الإبل، وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك، فقال في ذلك أبياتًا فأتم له مائة. رواه مسلم في الزكاة ٧/ ١٥٥، ١٥٦. ونحوه عن ابن مسعود عنده أيضًا ٧/ ٥٧ بلفظ: لما كان يوم حنين آثر رسول الله ﷺ ناسًا في القسمة فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى أناسًا من أشراف العرب وآثرهم يومئذٍ بالقسمة. . .إلخ، ورواه البخاري في المغازي أيضًا ٩/ ١١٦، ١١٧.
وفي تصرفه ﷺ هذا سياسة منه لأولئك الرؤساء وأشراف العرب تأليفًا لهم وتحبيبًا فيه وفي اعتناق دين الإسلام. وإذا دخل هؤلاء في الإسلام أتتسى بهم قبائلهم وقومهم كما حصل.

(٣) رواه البخاري في أول صحيحه في بدء الوحي ١/ ٢٠، ٣٢، وفي التفسير ١٠/ ٣٢٤، ٣٥١، ومسلم في الإيمان ٣/ ١٩٧، ٢٠٤، وكذا أحمد ٦/ ٢٣٢، =

وهذه كانت خلقه ﷺ قبل أن يبعث فكيف بعد ذلك.

ورد على هوازن سباياها، وكانت ستة آلاف[1] يعني ما بين النساء، والأطفال.

وأعطى العباس من الذهب ما لم يطق حمله[2].

وجاءه رجل فسأله فقال: «ما عندي شيء، ولكن ابتع عَلَيّ فإذا جاءنا شيء قضيناه» فقال له عمر: ما كلفك الله ما لا تقدر عليه، فكره النبي ﷺ ذلك. فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالاً. فتبسم رسول الله ﷺ وعرف البشر وجهه، وقال: «بهذا أمرت». ذكره الترمذي[3].

= ٢٣٣ وغيرهم، غير أن القول لخديجة رضي الله تعالى عنها وليس لورقة. وقولها: تحمل الكل: بفتح الكاف، هو: من لا يستقل بنفسه. والمعدوم هو الفقير..
ووصفته بتلك الصفات التي هي من مكارم الأخلاق واستدلت بذلك على أن الله عز وجل لم يكن ليخزيه فيسلط عليه الشيطان؛ لأن مثله في أخلاقه لا يكون إلاَّ محفوفًا بعناية الله محفوظًا من تسلط الشيطان وتلاعبه به. فرض الله تعالى عن مولاتنا خديجة وجزاها عن نبيّنا وعنّا أفضل الجزاء.

(١) رواه البخاري في المغازي ٩/ ٩٤، ٩٥، وفي الأحكام ١٦/ ٢٩٢، وكذا في الخمس ٧/ ٤٥ عن المسور بن مخرمة.. وانظر لفظه مبسوطًا عنده.

(٢) ذكره البخاري في المساجد من كتاب الصلاة ٢/ ٦٢ معلقًا عن أنس رضي الله تعالى عنه مطولاً. وأورده في الجهاد كذلك مختصرًا ٩/ ٥٠٨ ووصله أبو نعيم في المستخرج كما قال الحافظ.

(٣) ذكره في الشمائل، باب خلق رسول الله ﷺ ٣٠٥، وكذا رواه أبو الشيخ في أخلاق النبي ص ٥٣، وهو في المجمع ١٠/ ٢٤٢ برواية البزار جميعهم رووه عن عمر، وطرقه كلها ضعيفة، والذي ورد ثابتًا هو قوله ﷺ لبلال: أنفق بلال ولا تخشَ من ذي العرش إقلالاً. رواه البزار والطبراني وغيرهما عن بلال وكذا عن أبي هريرة =

قال أنس: كان رسول الله ﷺ لا يدخر شيئًا لغد[1]. والخبر بجوده ﷺ وكرمه كثير.

شجاعته ﷺ

وأما الشجاعة والنجدة فكان ﷺ منهما بالمكان الذي لا يجهل، قد حضر المواقف الصعبة، وفر الشجعان والأبطال عنه غير مرة وهو ثابت لا يبرح ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح. وما من شجاع إلاَّ وقد أحصيت له فرة، وحفظت عنه جولة سواه.

ثم أسند من طريق البخاري عن البراء بن عازب وسأله رجل: أفررتم يوم حنين عن رسول الله ﷺ؟ قال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر. ثم قال: لقد رأيته على بغلته البيضاء وأبو سفيان آخذ بلجامها والنبي ﷺ يقول: «أنا النبي لا كَذِبْ، أنا ابن عبد المطلب»[2].

وذكر مسلم عن العباس قال: فلما التقى المسلمون والكفار، ولى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته نحو الكفار، وأنا آخذ بلجامها أكفها إرادة أن لا تسرع، وأبو سفيان آخذ بركابه، ثم نادى

= وله طرق يصح معها، وقد حسن بعضها الهيثمي في المجمع ١٠/ ٢٤١. وانظر ٣/ ١٢٦ منه أيضًا.

(١) رواه الترمذي في الزهد ٢١٨٢ بتهذيبي وابن حبان ٢١٣٩، ورواه الترمذي أيضًا في الشمائل رقم ٣٠٤ في باب خلق رسول الله وسنده صحيح. وقوله: كان لا يدخر، يعني: لنفسه لكمال توكله ﷺ على الله ومع هذا، فقد جاء في الصحيح أنه كان يأخذ لأهله نفقة سنة تشريعًا لضعفة أمته والقاصرين عن بلوغ رتبته ﷺ.

(٢) وهو عند البخاري في المغازي، باب قوله تعالى: ويوم حنين ٩/ ٨٨، ٩٣، وفي الجهاد ٦/ ٦٢، ومسلم في السير ١٢/ ١١٧، ١١٨ وغيرهما.

بالمسلمين . . . الحديث[1] .

وقال ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أرضى من رسول الله ﷺ[2] .

وقال علي رضي الله تعالى عنه: إنا كنا إذا حمي البأس ــ ويروى: اشتد البأس ــ واحمرت الحدق اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ولقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذٍ بأسًا[3] .

وعن أنس رضي الله تعالى عنه كان ﷺ أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس؛ لقد فزع أهل المدينة ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعًا قد سبقهم إلى الصوت وقد استبرا الخبر على فرس لأبي طلحة عري والسيف في عنقه وهو يقول: لن تراعوا[4] .

---

(١) هو عند مسلم أيضًا في السير، باب غزوة حنين ١٢/ ١١٣، ١١٧، ورواه أيضًا النسائي في الكبرى. وأبو سفيان المذكور في الحديث هو ابن الحارث بن عم رسول الله ﷺ كان قد أسلم عام الفتح وحسن إسلامه.

(٢) رواه الدارمي في مقدمة سننه ٦٠ بسند صحيح.

(٣) رواه أحمد ١/ ٨٦ مختصرًا من قوله: ولقد رأيتني يوم بدر. . . وسنده صحيح ورواه النسائي.
وأوله: رواه مسلم ١٢/ ١٢٠، وأبو الشيخ في الأخلاق ٥٨ من حديث البراء بن عازب، قال: كنا والله إذا احمر البأس نتقي به، وأما الشجاع منا الذي يحاذي به، يعني: النبي ﷺ.

(٤) رواه أحمد ٣/ ١٤٧، ١٨٥، ٢٧١، والبخاري في الجهاد ٦/ ٤٦٣، وفي الأدب وفي مواضع، ومسلم في الفضائل ١٥/ ٦٧، ٦٨، والترمذي في الجهاد ١٥٤٥ وابن ماجه ٢٧٧٢ وغيرهم، وفيه: لقد وجدناه بحرًا: يعني فرس أبي طلحة.
وقوله: لن تراعوا، أي: لا تفزعون ولا تخافون، وهذا من عظيم شجاعته وعدم خوفه ﷺ.

ولما رآه أبـيُّ بن خلف يوم أحد ــ وهو كان يقول: أين محمد؟ لا نجوت إن نجا. وقد كان يقول للنبي ﷺ حين افتدى يوم بدر: عندي فرس أعلفها كل يوم فرقًا من ذرة، أقتلك عليها. فقال له النبـي ﷺ أنا أقتلك إن شاء الله ــ فلما رآه يوم أحد شَدَّ أُبـيُّ على فرسه على رسول الله ﷺ، فاعترضه رجال من المسلمين، فقال النبـي ﷺ هكذا ــ أي: خلوا طريقه ــ وتناول الحَربة من الحارث بن الصمة فانتفض بها انتفاضة تطايروا عنه تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض ثم استقبله النبـي ﷺ فطعنه في عنقه طعنة تدأدأ منها عن فرسه مرارًا. وقيل: بل كسر ضلعًا من أضلاعه، فرجع إلى قريش يقول: قتلني محمد. وهم يقولون: لا بأس عليك، فقال: لو كان ما بـي بجميع الناس لقتلهم؛ أليس قد قال: أنا أقتلك. والله لو بصق علي لقتلني. فمات بسرف في قفولهم إلى مكة[1].

حياؤه ﷺ

وأما الحياء والإغضاء فكان ﷺ أشد الناس حياءً، وأكثرهم عن العورات إغضاء. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، فوصفه الله عز وجل بالحياء من الناس.

ثم أسند من طريق البخاري عن أبـي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه كان رسول الله ﷺ أشد حياءً من العذراء، في خدرها وكان إذا كره شيئًا

---

(١) هذه القصة رواها موسى بن عقبة وابن سعد في الطبقات ٢/ ٤٦ وعبد الرزاق في المصنف ٥/ ٣٥٦، ٣٥٧، والبيهقي في الدلائل ٣/ ٢٥٨، عن عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب مرسلاً، وسنده صحيح. ورواه الواقدي موصولاً عن أُبـيّ بن كعب فيما ذكره ابن كثير في السيرة، والزرقاني في شرح المواهب، وغيرهما. والقصة مشهورة في كتب السيرة، بسياقات وألفاظ.

عرفناه في وجهه[1]. وكان ﷺ لطيف البشرة رقيق الظاهر لا يشافه أحدًا بما يكرهه حياءً وكرم نفس.

فعن عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل: ما بال فلان يقول كذا، ولكن يقول: ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا، ينهى عنه، ولا يسمي فاعله[2].

وروى أنس رضي الله تعالى عنه أنه ﷺ دخل عليه رجل به أثر صفرة فلم يقل له شيئًا، وكان لا يواجه أحدًا بما يكره، فلما خرج قال: «لو قلتم له

---

(١) وهو عند البخاري في المناقب، باب صفة رسول الله ﷺ ٧/ ٣٨٧، ٣٨٨، ومسلم في الفضائل ١٥/ ٧٨، وعن ابن عباس كان رسول الله ﷺ يغسل من وراء الحجرات ــ البيوت ــ وما رأى أحد عورته قط رواه البزار، قال الحافظ: وإسناده حسن.

والعذراء هي: البنت البكر. والخدر: محل تسترها، وهذا الحياء في مثل هذه العذراء طبعًا لا يكون إلاَّ في البنت الطيبة العفيفة التي نشأت نزيهة بعيدة عن الرجال.

(٢) رواه أبو داود في الأدب ٤٧٨٨ وأبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ ٧١، والبيهقي في الدلائل ١/ ٢٣٧، وسنده حسن صحيح، ورواه أحمد ٦/ ٤٥، ١٨١، والبخاري في الأدب، باب ٧٢، ومسلم في الفضائل ١٥/ ١٠٦، ١٠٧، والنسائي في الكبرى ٦/ ٦٧ بنحوه ولفظه رخص رسول الله ﷺ في أمر فتنزه عند ناسر فبلغ ذلك النبي ﷺ فغضب حتى بان الغضب في وجهه ثم قال: «ما بال أقوام يرغبون عما رخص لي فيه، فوالله لأنا أعلمهم بالله وأشدهم له خشية».

وفي الصحيحين وغيرهما في حديث قصة بريرة: «ما بال أقوام يشترطون شروطًا ليست في كتاب الله...» الحديث، وفي النكاح من صحيح مسلم ٩/ ١٧٦ عن أنس مرفوعًا: «ما بال أقوام قالوا كذا وكذا، لكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»، فبهذا كان هديه ﷺ، فكان لا يعين أحدًا تخلقًا منه بخلق الحياء..

يغسل هذا»؟ ويروى: ينزعها[1].

وقالت: عائشة رضي الله تعالى عنها في الصحيح: لم يكن النبي ﷺ فحاشًا ولا متفحشًا ولا سخابا في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح[2].

وقد حكي مثل هذا الكلام عن التوراة عن ابن سلام وعبد الله بن عمرو بن العاص[3].

حسن عشرته وأدبه وبسط خلقه ﷺ

وأما حسن عشرته وأدبه وبسط خلقه ﷺ مع أصناف الخلق فبحيث انتشرت به الأخبار الصحيحة.

قال علي رضي الله تعالى عنه في وصفه عليه الصلاة والسلام، كان

---

(١) رواه أحمد ٣/ ١٣٣، ١٥٤، ١٦٠، وأبو داود في الأدب ٤١٨٢، والبخاري في الأدب المفرد ٤٣٦، وأبو الشيخ في أخلاق النبي ٧٠، وسنده صحيح لولا سلم العلوي، ضعفه الجمهور، ووثقه ابن معين وضعفه مرّة أخرى. غير أن معنى الحديث صحيح وليس فيه ما ينكر.

(٢) رواه الترمذي في البر والصلة ١٨٥٩ بتهذيبي، وفي الشمائل ٢٩٨، وكذا أحمد ٦/ ١٧٤، ٢٣٦، ٢٤٦، والطيالسي بسند صحيح. ورواه البخاري في صفة النبي ٧/ ٣٨٥، و ٨/ ١٠٣، والترمذي في البر، وأحمد ٢/ ١٨٩ عن عبد الله بن عمرو بأوله، وقال في آخره: «إن من خياركم أحسنكم أخلاقًا. . .» وحديث عائشة ليس في أحد الصحيحين كما يوهمه كلام المؤلف رحمه الله تعالى.
والفاحش هو من طبعه الفحش في جميع تصرفاته قولاً وعملاً. . والمتفحش الذي يتكلف ذلك. فكان النبي ﷺ منزهًا عنهما معًا.

(٣) تقدم ذكر ذلك ص ٥٢ وتخريجه ص ٥٣.

أوسع الناس صدرًا، وأصدق الناس لهجة وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة[1].

وقال الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وقال: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

وكان يجيب من دعاه[2] ويقبل الهدية ولو كانت كراعًا، ويكافىء عليها[3].

قال أنس رضي الله تعالى عنه: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي: «أف» قط، وما قال لشيء صنعته ولا لشيء تركته: «لم تركته»[4].

---

(١) رواه الترمذي في المناقب مطولاً ٣٤١٣ بسند ضعيف لكن معناه صحيح، وقد روى بعضه أحمد ١/ ٨٩، ١٠١، وابن حبان ٢١١٧ بسند صحيح.
واللهجة: اللسان. والعريكة: الطبيعة.

(٢) هذا جاء في أحاديث كثيرة، كحديث أنس واستدعاء أبي طلحة إياه، وحديث جابر في استدعائه أيضًا، في غزوة الخندق وحديث الرجل الخياط الذي استدعاه أيضًا وحديث اليهودي الذي استدعاه فأطعمه ودكًا.. وغير ذلك، وكلها أحاديث صحيحة.

(٣) رواه أحمد ٢/ ٤٧٩، ٤٨١، ٥١٢، والبخاري في الهبة ٦/ ١٢٧، وفي النكاح ١١/ ١٥٤، زاد أحمد: وما رأيت رسول الله ﷺ عاب طعامًا قط، إن اشتهاه أكله وإلاّ تركه. والحديث رواه أيضًا: الترمذي في الأحكام رقم ١٢١٢ عن أنس.
وقوله: «ويكافىء عليها» هذا جاء من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها، رواه أحمد ٦/ ٩٠، والبخاري في الهبة ٦/ ١٣٧، وأبو داود في البيوع ٣٥٣٦ والترمذي في البر والصلة ١٧٩٩، وقوله: ويكافىء، أي: يعطي مثلها ويجازي عليها صاحبها.

(٤) هو في الصحيحين وقد تقدم تخريجه ص ٨٨.

وقال جرير بن عبد الله: ما حجبني رسول الله ﷺ قط منذ أسلمت ولا رآني إلاَّ تبسم[1].

وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويداعب صبيانهم ويجلسهم في حجره[2] ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ويعود المرضى في أقصى المدينة[3]، ويقبل عذر المعتذر[4].

---

(١) رواه البخاري في المناقب ٨/ ١٣٢، ومسلم في الفضائل ١٦/ ٣٤، ٣٥، والترمذي في المناقب ٣٥٩١، وابن ماجه ١٥٩ وغيرهم.

(٢) جاء هذا في أحاديث كحديث أنس في الرجل الذي قال له: «إني حاملك على ولد الناقة» يمازحه، فلما قال له: ماذا أصنع بولد الناقة؟ فقال له: «وهل تلد الناقة إلاَّ النوق» وهو في الأدب لأبي داود ٤٩٩٨، والبر والصلة للترمذي ١٩٩٢، وفي الشمائل ٢٣٨، وحديث أبي هريرة: قالوا: يا رسول الله إنك تداعبنا، قال: «نعم، غير أني لا أقول إلاَّ حقّا». رواه الترمذي في البر ١٩٩١، وفي الشمائل ٢٣٧، وحديث أنس كان رسول الله ﷺ يخالطنا حتى يقول لأخٍ لي صغير: «يا أبا عمير ما فعل النغير». رواه البخاري في الأدب، ومسلم في الفضائل، والترمذي في الصلاة ٢٣٣، وفي البر ١٩٩٠، وابن ماجه في الأدب ٣٧٢٠ وغيرهم.

وقوله: «ويجلسهم في حجره»، من ذلك حديث أم قيس بنت محصن: أنها أتت بابن لها صغير لم يأكل الطعام إلى رسول الله ﷺ فبال على ثوبه. وحديث عائشة: أُتي رسولُ الله ﷺ بصبي يحنكه فبال عليه. وكلاهما في الصحيح، ولا شك أنهما ما بالا عليه إلاَّ لكونهما كانا في حجره.

(٣) رواه الترمذي في الجنائز ٩٠٢، وفي الشمائل ٢٨٦، وابن ماجه في الزهد ٤١٧٨ وغيرهما، ورجاله رجال الصحيح غير مسلم الأعور فضعيف، ورواه الحاكم ٢/ ٤٦٦ وصححه، والحديث أكثر أبعاضه صحيح، وانظر على سبيل المثال: المجمع ٩/ ٢٠، ٢١.

(٤) كما جاء في حديث كعب بن مالك الطويل في نزول توبته.. فكان يقبل اعتذارهم. وهو في الصحيحين، وتقدم، ويأتي.

وقال أنس: ما التقم أحدٌ أُذُنَ رسول الله ﷺ فينحي رأسه حتى يكون الرجل هو الذي ينحي رأسه. وما أخذ أحدٌ بيده فيرسل يده حتى يرسله الآخر[1]. وكان يبدأ من لقيه بالسلام ويبدأ أصحابه بالمصافحة[2]. يكرم من يدخل عليه وربما بسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة التي تحته، ويعزم عليه في الجلوس عليها إن أبى[3]. ويكني أصحابه[4] ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة لهم.

---

(١) رواه أبو داود ٤٧٩٤، وابن ماجه ٣٧١٦، وابن سعد في الطبقات ١/ ٣٧٨، والبغوي في شرح السنة ١٣/ ٢٤٥، وهو وإن كان سنده ضعيفًا فإن له شاهدًا بنحوه. رواه الطبراني في الأوسط رقم ٨٦٨٣، والبزار ٢٤٧٣ عن أبي هريرة، وسنده حسن، فالحديث حسن صحيح. وقوله: «ما التقم أحد أذن... إلخ» معناه والله أعلم: أن كل من دنا منه عليه الصلاة والسلام ليناجيه في حاجته قريبًا من لا ينصرف عنه حتى ينصرف صاحب الحاجة.

(٢) هو في حديث هند بن أبي هالة. وجاء في أحاديث أنه كان يبدأ أصحابه بالسلام، منها: حديث أنس: أنه ﷺ استأذن عل سعد بن أبي وقاص فقال: «السلام عليكم ورحمة الله، حتى سلَّم ثلاثًا...» الحديث. وفي رواية: أنه كان يزور الأنصار، فإذا جاء دور الأنصار جاء صبيان الأنصار حوله فيدعو لهم ويمسح رؤوسهم ويسلم عليهم، فأتي بابن سعد... إلخ. رواه أحمد ٣/ ١٣٧ بالرواية الأولى والبزار بالثانية وسندهما صحيح. وجاء في أحاديث أخرى أنه كان يسلم عليهم ويسلم على نسائهم. فعن أسماء بنت يزيد قالت: مرَّ علينا النبي ﷺ في نسوة فسلَّم علينا. رواه أبو داود في الأدب ٥٢٠٤، وابن ماجه ٣٧٠١ بسند صحيح. وعن أنس قال: أتى رسول الله ﷺ على غلمان يلعبون فسلَّم عليهم. رواه الشيخان، وأبو داود ٥٢٠٢.

(٣) كما فعل بعدي بن حاتم. انظر قصته عند الترمذي في التفسير ٢٧٦٢، والمسند ٤/ ٢٥٧، ٣٧٧، ٣٧٩ وغيرهما، وورد عن جرير بن عبد الله البجلي أنه دخل على النبي ﷺ فألقى إليه كساءه. رواه الطبراني في الأوسط والصغير والبزار من طرق. انظر: مجمع الزوائد ٨/ ١٥، ١٦، وعن ابن عمر أنه دخل على رسول الله ﷺ فألقى إليه وساده حشوها ليف، قال: فلم أقعد عليها؛ بقيت بيني وبينه. رواه أحمد، قال في المجمع ٨/ ١٧٤: ورجاله رجال الصحيح.

(٤) من أشهر ما جاء في ذلك حديث: «قم أبا تراب» كنى بذلك الإمامَ عليَّ بن =

وقال عبد الله بن الحارث: ما رأيت أحدًا أكثر تبسمًا من رسول الله ﷺ[1].

وقال أنس: كان خدم المدينة يأتون رسول الله ﷺ إذا صلّى الغداة بآنيتهم فيها الماء، فما يؤتى بآنية إلاَّ غمس يده فيها، وربما كان ذلك في الغداة الباردة، يريدون به التبرك[2].

شفقته ورحمته لجميع الخلق ﷺ

وأما الشفقة والرأفة والرحمة لجميع الخلق فقد قال تعالى فيه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾[3] [الأنبياء: ١٠٧].

قال العلماء: من فضله ﷺ أن الله تعالى أعطاه إسمين من أسمائه، بمعنى: أنه نعته بهما، فقال: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾.

ثم أسند من طريق مسلم عن ابن شهاب قال: غزا رسول الله ﷺ غزوة

= أبي طالب رضي الله تعالى عنه وهو في الصحيح. وجاء في ذلك أحاديث أخرى. وثبت في صحيح مسلم وسنن أبي داود ٤٩٥٢، والترمذي ٢٦٤٦ وغيرهم: أنه سمى امرأة: «جميلة» بعد أن كان اسمها «عاصية».

(١) رواه أحمد ٤/ ١٩٠، ١٩١، والترمذي في المناقب رقم ٣٤١٦، ٣٤١٧، وفي الشمائل ١٩٤، وأبو الشيخ في الأخلاق، وسنده صحيح في طريق، ولذا قال الترمذي فيه: حديث صحيح غريب. وانظر ما تقدم ص ١٣٣ هامش رقم (١).

(٢) رواه أحمد ٣/ ١٣٧، ومسلم في الفضائل ١٥/ ٨١، ٨٢.

وفي الحديث مشروعية التبرك بالآثار النبوية، وهذه كانت عادة الصحابة معه ﷺ كما جاء في أحاديث أخرى صحيحة.

(٣) الآيتان تقدمتا ص ٤٣، ٤٦.

وذكر حنينًا قال: فأعطى رسول الله ﷺ صفوان بن أمية مائة من النعم ثم مائة، ثم مائة. قال ابن شهاب: حدثنا سعيد بن المسيب أن صفوان قال: والله لقد أعطاني ما أعطاني وإنه لأبغض الخلق إلي، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الخلق إليّ[1].

ومن شفقته ﷺ على أمته تخفيفه وتسهيله عليهم، وكراهته أشياء مخافة أن تفرض عليهم. كقوله ﷺ: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل وضوء»[2].

وخبر صلاة الليل[3]، ونهيهم عن الوصال[4]، وكراهته دخول الكعبة

---

(١) هو عند مسلم في الفضائل. وانظر ما تقدم رقم ٢ ص ١٢٥.

(٢) رواه أحمد ٢/ ٤٦٠، ٤٠٠، ٢٥٠، ٤٣٣، وابن خزيمة ١/ ٧٣، والحاكم ١/ ١٤٦، وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي. وذكره البخاري معلقًا مجزومًا به، وفي رواية: «لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة» رواه البخاري في الجمعة، ومسلم ٣/ ١٤٢، ١٤٣، باب السواك من كتاب الطهارة.

(٣) يشير بذلك إلى حديث عائشة في تأخره عن الخروج في الليلة الثالثة للصلاة بهم صلاة الليل في رمضان، وقوله لهم: «لقد علمت مكانكم». وفي رواية: «قد رأيت الذي صنعتم، ولم يمنعني من الخروج إليكم إلاَّ أني خشيت أن تفرض عليكم..

رواه البخاري في التهجد ٣/ ٢٥٣، ٢٥٤، وفي الوضوء وفي الأذان وفي التراويح، ومسلم في صلاة المسافرين ٦/ ٤١، ٤٢ في باب التراويح ونحوه عن زيد بن ثابت. رواه مسلم ٦/ ٧٠، ٧١ وغيره.

(٤) رواه البخاري ٥/ ١٠٩، ١١٠، ومسلم ٧/ ٢١٢ وغيرهما عن أبي هريرة عنه ﷺ: «إياكم والوصال.. إني لست كهيئتكم إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني».

وفي رواية عن أبي سعيد: «لا تواصلوا، فأيكم إذا أراد أن يواصل فليواصل حتى السحر» روياه أيضًا. والوصال هو الصيام من غير أن يتخلله فطر ولا سحور.

لئلا تعنت أمته[1]، ورغبته لربه أن يجعل سبه ولعنه لهم رحمة بهم[2]، وأنه كان يسمع بكاء الصبي فيتجوز في صلاته[3].

ومن شفقته ﷺ أن دعا ربه وعاهده فقال: أيما رجل سببته أو لعنته فاجعل ذلك له زكاة ورحمة وصلاةً وطهورًا وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة[4]. ولما كذبه قومه أتاه جبريل عليه السلام فقال له: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فناداه ملك الجبال وسلم عليه وقال: مرني بما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. قال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به

---

(١) رواه أحمد ٦/١٣٨، وأبو داود ٢٠٢٩، والترمذي ٧٧٤، وابن ماجه ٣٠٦٤، والحاكم، وحسَّنه الترمذي وصححه، وكذا الحاكم، وأقرَّه الذهبي، وهو من حديث عائشة قالت: خرج النبي ﷺ من عندي قرير العين طيِّب النفس فرجع إليَّ وهو حزين فقلت له. فقال: «إني دخلت الكعبة ووددت أني لم أكن فعلت، إني أخاف أن أكون أتعبت أمتي من بعد».

(٢) انظر الحديث الآتي ص ١٣٨ هامش رقم (١).

(٣) رواه أحمد ٣/٢، ٥، والبخاري ٢/٣٤٣، ومسلم ٤/١٨٧، وأبو داود ٧٨٩ وغيرهم، وكلهم في الصلاة من حديث أنس ولفظه: «إني لأدخل الصلاة، أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبي فأخفف من شدة وجد أمه به». وفي رواية: «خشية أن تفتن أمه».

(٤) رواه أحمد ٢/٣٩٠، ٤٨٨، ٤٩٦، والبخاري في الدعوات ١٣/٤٢٥، ٤٢٦، ومسلم في البر ١٦/٥١ عن أبي هريرة. ورواه مسلم عن عائشة وجابر وأنس أيضًا. انظر: ١٦/ ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، غير أن هذا محمول على من كان غير أهل للدعاء عليه كما في حديث مسلم عن أنس: «إنما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر، وأغضب كما يغضب البشر، فأيما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها أهل...» إلخ.

شيئًا»[1].

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلاّ اختار أيسرهما[2].

وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه كان رسول الله ﷺ يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا[3].

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها ركبت بعيرًا وفيه صعوبة فجعلت تُردِّده فقال ﷺ: عليك بالرفق[4].

خُلُقُه ﷺ في الوفاء وحُسْنِ العَهْدِ

وأما خُلُقُه ﷺ في الوفاء وحسن العهد وصلة الرحم:

فعن أنس رضي الله تعالى عنه: كان النبي ﷺ إذا أتي بهدية قال: «اذهبوا بها إلى بيت فلانة، فإنها كانت صديقة لخديجة، إنها كانت تحب خديجة»[5].

---

(١) رواه البخاري في بدء الخلق ٧/ ١٢٣، ١٢٤، ومسلم في الجهاد والسير ١٢/ ١٥٤ وغيرهما من حديث عائشة.

(٢) تقدم تخريجه ص ١١٧ هامش رقم (١).

(٣) رواه أحمد ١/ ٣٧٧ وفي مواضع، والبخاري في العلم ١/ ١٧١، ١٧٢ وغيره، ومسلم في المنافقين ١٧/ ١٦٣، ١٦٤، والترمذي في الأدب ٢٦٦٦، وقوله: يتخولنا، أي: يتعاهدنا المرة بعد المرة خوفًا من أن نمل ونسأم.

(٤) رواه مسلم في البر والصلة ١٦/ ١٤٧، وأبو داود في الأدب ٤٨٠٨، وكذا رقم ٢٤٧٨ بنحوه. وفي رواية: «إن الرفق لا يكون في شيء إلاّ زانه، ولا ينزع من شيء إلاّ شانه».
ولا يخفى ما في هذه الأخبار من عظيم شفقته ورحمته بأمته ﷺ وسائر الخلق.

(٥) رواه البخاري في الأدب المفرد رقم ٢٣٢، وابن حبان ١٥/ ٤٦٧، والحاكم ٤/ ١٧٥ وغيرهم، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة؛ لما كنت أسمعه يذكرها، وإن كان ليذبح الشاة فيهديها إلى خلائلها[1]. واستأذنت عليه اختها فارتاح إليها[2] ودخلت عليه امرأة فهش لها وأحسن السؤال عنها، فلما خرجت قال: «إنها كانت تأتينا أيام خديجة وإن حسن العهد من الإيمان»[3].

وقال ﷺ: «إن آل بني فلان ليسوا لي بأولياء، غير أن لهم رحمًا سأبلها ببلالها»[4].

وقد صلى عليه الصلاة والسلام بأمامة ابنة ابنته زينب يحملها على عاتقه فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها[5].

---

(١) البخاري في المناقب ٨/ ١٣٥، ١٣٦، ومسلم في الفضائل ١٥/ ٢٠٠، ٢٠١، والترمذي في المناقب ٣٦٥٢ بتهذيبي، وفي البر والصلة أيضًا.

(٢) البخاري ٨/ ١٤٠، ومسلم ١٥/ ٢٠١، ٢٠٢ كلاهما في فضائل الصحابة، ولفظه: استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة فارتاح لذلك فقال: «اللّهم هالة بنت خويلد. . .» الحديث.
وقوله: «فارتاح»، أي: هش وسرَّ بها؛ لذكره بها حبيبته خديجة.

(٣) رواه الحاكم في الإيمان ١/ ١٦، وصححه ووافقه الذهبي. وانظر: جواهر البحار لكاتبه رقم حديث ٤٨٥.

(٤) رواه البخاري في الأدب من صحيحه ١٣/ ٢٤، ٢٥، ٢٦، ومسلم في الإيمان ٣/ ٨٧ من حديث عمرو بن العاص.
وقوله: «غير أن لهم رحمًا. . .» إلخ، جاء في حديث آخر لأبي هريرة مطولاً في نزول قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾. رواه أحمد ٢/ ٣٣٣، ٥١٦، والبخاري في التفسير وغيره، ومسلم في الإيمان ٣/ ٨٠، ٨١، والترمذي ٢٩٧٨ وغيرهم. والمراد بالبلال هنا: الصلة.

(٥) رواه البخاري ٢/ ١٣٧، ١٣٨، ومسلم ٤/ ٣١، ٣٢. كلاهما في الصلاة.

وعن عُمَر بن السائب رحمه الله تعالى أن رسول الله ﷺ كان جالسًا يومًا فأقبل أبوه من الرضاعة فوضع له بعض ثوبه فقعد عليه، ثم أقبلت أمه فوضع لها شق ثوبه من جانبه الآخر فجلست عليه، ثم أقبل أخوه من الرضاعة فقام ﷺ فأجلسه بين يديه[١].

وفي حديث خديجة رضي الله تعالى عنها أنها قالت له ﷺ: أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق[٢].

تواضعه ﷺ

وأما تواضعه ﷺ على علو منصبه ورفعة رتبته فكان أشد الناس تواضعًا وأعدمهم كبرًا، وحسبك أنه خير بين أن يكون نبيًا ملكًا أو نبيًا عبدًا، فاختار أن يكون نبيًا عبدًا[٣].

ثم أسند من طريق أبـي داود عن أبـي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ متوكئًا على عصا فقمنا له فقال: لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضًا[٤].

---

(١) رواه أبو داود في الأدب ٥١٤٥ وهو مرسل صحيح، وهو مشهور في السيرة وغيرها. وما فيه هو اللائق بخُلُقه الكريم مع سائر الخلق، فكيف بأبيه وأمه وأخيه.. من الرضاعة؛ فهو إمام الأوفياء.

(٢) تقدم تخريجه ص ١٢٥ هامش رقم (٣).

(٣) رواه أحمد ٢/ ٢٣١ من حديث أبـي هريرة بسند صحيح، وأورده الهيثمي برواية أحمد والبزار وأبـي يعلى وقال ٩/ ١٨، ١٩: رجال الأوليَيْن رجال الصحيح.

(٤) هو بهذا السياق رواه أبو داود في الأدب ٥٢٣٠، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٣٦ وسنده ضعيف، لكن النهي عن فعل فارس والروم وقيامهم على ملوكهم رواه مسلم في الصلاة في ائتمام المأموم بالإمام ٤/ ١٣٢، ١٣٣، وجاء في الأدب =

وقال ﷺ: إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد[1].

وكان ﷺ يركب الحمار ويردف خلفه، ويعود المساكين، ويجالس الفقراء، ويجيب دعوة العبد، ويجلس بين أصحابه مختلطًا بهم، حيث انتهى به المجلس جلس[2].

وفي حديث عمر رضي الله تعالى عنه، عنه ﷺ: لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله[3].

وعن أنس رضي الله تعالى عنه: أن امرأة كان في عقلها شيء جاءته فقالت: إن لي إليك حاجة، قال: «اجلسي يا أم فلان في أي طرق المدينة شئت اجلس إليك حتى أقضي حاجتك»، قال: فجلست فجلس النبي ﷺ إليها حتى فرغت من حاجتها[4].

قال أنس: كان رسول الله ﷺ يركب الحمار، ويجيب دعوة العبد،

= المفرد للبخاري ٩٤٦، وفيه عند الترمذي، وفي الشمائل ٢٨٩ بسند صحيح عن أنس: لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ، وكانوا إذا رواه لم يقوموا لما يعلمون من كراهته لذلك، وورد في مطلق القيام غير ذلك.

(١) تقدم تخريجه ص ١٠٢.

(٢) تقدم أيضًا مختصرًا. انظر ما سبق ص ١٣٣.

(٣) رواه أحمد ١/ ٢٣، ٢٤، ٤٧، ٥٥، والبخاري في ذكر عيسى من أحاديث الأنبياء ٧/ ٣٠٠.

والإطراء المبالغة في المدح والتجاوز فيه بالباطل والتغالي في ذلك.

(٤) أحمد ٣/ ١١٩، ١٧٤، ٢١٤، ومسلم في الفضائل ١٥/ ٨٢، ٨٣، وأبو داود ٤٨١٨، ٤٨١٩، والترمذي في الشمائل ٢٨٥، وكذا رواه البخاري معلقًا في الأدب ورواه في النكاح ١١/ ٢٤٦ مختصرًا. وفي هذا الحديث نهاية تواضعه ﷺ.

وكان يوم قريظة على حمار مخطوم بحبل من ليف عليه أكاف[1].

وكان يدعى إلى خبز الشعير والإهالة السنخة فيجيب[2].

وحج ﷺ على رحل رث، وعليه قطيفة ما تساوي أربعة دراهم فقال: «اللّٰهم اجعله حجًا مبرورًا لا رياء فيه ولا سمعة[3]»، هذا وقد فتحت عليه الأرض، وأهدى في حجته ﷺ مائة بدنة[4].

ولما فتحت عليه مكة ودخلها بجيوش المسلمين طأطأ على رحله رأسه حتى كاد يمس قادِمَتَه تواضعًا لله تعالى[5].

ومن تواضعه ﷺ قوله: لا تفضلوني على يونس بن متى[6] ولا تفضلوا

---

(١) تقدم قريبًا ص ١٣١ ــ ١٣٣.

(٢) رواه البخاري ٥/ ٥٠٦، والنسائي ٧/ ٢٥٤، والترمذي في السنن ١٠٩٧، وفي الشمائل ٣٢٦، وابن ماجه ٢٤٣٧ وغيرهم.
والإهالة: الشحم المذاب. والسنخة، بفتح السين وكسر النون: المتغيرة الريح.

(٣) رواه الترمذي في الشمائل رقم ٣٢٧، وابن ماجه في المناسك ٢٨٩٠، وابن سعد في الطبقات ٢/ ١٧٧ من حديث أنس. وهو وإن كان سنده ضعيفًا فإنه صحيح لطرقه، وشاهدين له: عن ابن عباس، رواه الطبراني في الأوسط رقم ١٤٠٠، وعن بشر بن قدامة، رواه النسائي ٤/ ٣٣٢، ٣٣٣ في الكبرى.

(٤) رواه مسلم في الحج من حديث جابر.

(٥) رواه أبو يعلى في المسند رقم ٣٣٨٠، والحاكم ٣/ ٤٧ في المغازي، والبيهقي في الدلائل ٥/ ٦٨، ٦٩ وصححه الحاكم ووافقه الذهبي كلهم من حديث أنس. وله شاهد مرسل عند ابن هشام في السيرة ٤/ ١٩، والبيهقي في الدلائل ٦٨.

(٦) رواه أحمد ٢/ ٤٠٥، ٥٣٩، عن أبي هريرة، والبخاري في تفسير سورة الأنعام ٩/ ٣٦٣، وفي الصافات ١٠/ ١٦٣، وفي الأنبياء ٧/ ٢٤٠، ومسلم في الفضائل ١٥/ ١٣٣، ١٣٤، عن أبي هريرة وابن عباس بألفاظ منها: «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متّى». ومنها: «من قال: أنا خير من يونس بن متى =

بين الأنبياء[1] ولا تخيروني على موسى[2] ونحن أحق بالشك من إبراهيم، ولو لبث ما لبثت يوسف في السجن لأجبت الداعي[3].

وقال للذي قال له: يا خير البرية: ذاك إبراهيم[4].

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: كان في بيته في مهنة أهله: يفلي ثوبه ويحلب شاته، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله[5].

وعن أنس رضي الله تعالى عنه: إن كانت الأمة من إماء أهل

= فقد كذب» وليس عندهم لفظ المؤلف. ورواه البخاري أيضًا في سورة الصافات عن ابن مسعود ١٠/ ١٦٣.

(١) رواه البخاري في الخصومات، وفي سورة الأعراف ٩/ ٣٧٣ وغيرهما، عن أبي سعيد الخدري، ورواه مسلم في الفضائل ١٥/ ١٣٠ عن أبي هريرة بلفظه.

(٢) رواه البخاري في الأنبياء ٧/ ٢٥٤، وفي الرقاق وغيرهما، ومسلم في الفضائل ١٥/ ١٣١، وكلاهما بقصة الأنصاري الذي لطم اليهودي.

(٣) رواه أحمد ٢/ ٣٢٦، والبخاري في الأنبياء ٧/ ٢٢٢، ٢٢٤، ومسلم في الفضائل ١٥/ ١٢٣ عن أبي هريرة وغيرهم، واختلف في قوله: «نحن أحق بالشك...» إلخ، فقيل معناه: لو كان الشك متطرقًا إلى الأنبياء لكنت أنا أحق به منهم، وقد علمتم أني لم أشك فاعلموا أنه لم يشك. وقال هذا تواضعًا منه ﷺ أو قبل أن يعلمه الله بأنه أفضل من إبراهيم..

(٤) رواه أحمد ٣/ ١٧٨، ١٨٤، ومسلم في الفضائل ١٥/ ١٢١، ١٢٢ من حديث أنس.

(٥) رواه أحمد ٦/ ٤٩، ١٢٦، ٢٠٦، والبخاري في الصلاة ٢/ ٣٠٣، وفي الأدب ١٣/ ٧٠، والترمذي في القيامة ٢٣٠٩ بلفظه، إلى قولها: «في مهنة أهله». وباقيه جاء من طرق أخرى عنها، فقد رواه بباقيه كاملاً البخاري في الأدب المفرد ٥٣٩، ٥٤٠، وروى بعضه أحمد ٦/ ٢٥٦، والترمذي في الشمائل ٢٩٣، وابن حبان ٢١٣٦ بالموارد، وسنده صحيح عند بعضهم كما عند أحمد وابن حبان.
وقوله: «يفلي ثوبه»، يعني ينقيه من غبار ونحوه، وليس من القمل.

المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت حتى تقضي حاجتها[1].

ودخل عليه رجل فأصابته من هيبته رعدة فقال له: «هون عليك فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: دخلت السوق مع النبي ﷺ فاشترى سراويل وقال للوزان: «زن وأرجح» وذكر القصة، قال: فوثب إلى يد النبي ﷺ يقبلها فجذب يده، وقال: «هذا تفعله الأعاجم بملوكها ولست بملك، إنما أنا رجل منكم». ثم أخذ السراويل، فذهبت لأحمله، فقال: «صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله»[3].

عدله وأمانته وعفَّتُه وصدق لهجته ﷺ

وأما عدله ﷺ وأمانته وعفته وصدق لهجته فكان ﷺ آمن الناس، وأعدل الناس، وأصدقهم لهجة، منذ كان، اعترف له بذلك محادوه وأعداؤه، وكان يسمى قبل النبوة بالأمين.

قال ابن إسحاق: كان يسمى الأمين بما جمع الله فيه من الأخلاق

---

(١) رواه أحمد ٣/ ١١٩، ٢١٤، والبخاري في الأدب معلقًا ١٣/ ١٠١، ١٠٢ مجزومًا به، ومسلم في الفضائل ١٥/ ٨٢، ٨٣، وأبو داود ٤٨١٨، ٤٨١٩، والترمذي في الشمائل ٢٨٥، وقد تقدم.

(٢) تقدم ص ١٠٨ هامش (١).

(٣) قصة مساومة السراويل والأمر بالوزن والترجيح صحيحة. رواها أحمد ٤/ ٣٥٢، وأبو داود ٣٣٣٦، والترمذي ١١٨٤، وابن ماجه ٢٢٢٠، والدارمي ٢٥٨٨، والحاكم ٢/ ٣٠، ٣١، و ٤/ ١٩٢، وغيرهم، عن سويد بن قيس، وسنده صحيح على شرط مسلم عند بعضهم، وحسنه الترمذي وصححه هو والحاكم والذهبي، أما باقيه من التقبيل، وقوله: «هذا تفعله الأعاجم» فرواه الطبراني بسند ضعيف.

الصالحة[1].

ولما اختلفت قريش وتحازبت عند بناء الكعبة فيمن يضع الحجر حكموا أول داخل عليهم فإذا بالنبي ﷺ داخل ـ وذلك قبل نبوته ـ، فقالوا: هذا محمد، هذا الأمين، قد رضينا به[2].

وقال ﷺ: والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض[3].

ثم أسند من طريق أبي عيسى الترمذي عن علي رضي الله تعالى عنه أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به.

---

(١) قال ابن هشام في السيرة ١/ ٢٠٧: فشب رسول الله ﷺ والله تعالى يكلؤه ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية؛ لما يريد به من كرامته ورسالته حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقًا، وأكرمهم حياءً، وأحسنهم جوارًا، وأعظمهم حلمًا، وأصدقهم حديثًا وأعظمهم أمانةً، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال، تنزيهًا وتكرمًا؛ حتى ما اسمه في قومه إلاَّ الأمين؛ لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة..

(٢) رواه أحمد ٣/ ٤٢٥، والحاكم وصححه، عن السائب بن يزيد، وأورده النور في المجمع ٣/ ٢٩٢ و ٨/ ٢٢٩ وقال: فيه هلال بن جناب وهو ثقة وفيه كلام، وبقية رجاله رجال الصحيح وله شاهد عن الإمام علي، رواه الطبراني. قال الهيثمي ٨/ ٢٢٩: ورجاله رجال الصحيح غير حفص بن عمر الضرير وخالد بن عرعرة وكلاهما ثقة.. والقصة مشهورة في كتب السيرة. انظر ابن هشام ١/ ٢٢٢، ٢٢٤.

(٣) رواه عبد الرزاق في المصنف ١٤٠٩١ عن زيد بن أسلم مرسلاً بسند صحيح، وعزاه العراقي لابن راهويه، والخرائطي في مكارم الأخلاق وابن مردويه في التفسير وقال: سنده ضعيف.. وهذا غير ضائره لا سيما وقد أخرج أحمد ٣/ ٤، والبخاري في المغازي وغيرها، ومسلم في الزكاة عن أبي سعيد الخدري في حديث الخوارج، وفيه قوله: «ألا تأمَنُوني وأنا أمين من في السماء! يأتيني خبر من السماء صباحًا ومساءً...» إلخ.

فأنزل الله تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ... ﴾ الآية[1] [الأنعام: ٣٣].

وسأل هرقل عنه أبا سفيان فقال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال به؟ قال: لا[2].

وفي الحديث أنه ﷺ ما لمست يده يد امرأة قط لا يملك رقبتها[3].

وفي حديث علي في وصفه ﷺ: أصدق الناس لهجة[4].

وقال في الصحيح: «ويحك فمن يعدل إن لم أعدل، خبت وخسرت إن لم أعدل»[5].

قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: ما خير رسول الله ﷺ في أمرين إلاَّ اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه[6].

وذكر أبو جعفر الطبري عن علي رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ: «ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك، ثم ما هممت بسوء حتى أكرمني الله برسالته، قلت ليلةً لغلام كان يرعى معي لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشباب، فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة سمعت عزفًا بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم فجلست أنظر فضرب على

---

(١) تقدم تخريجه ص ٥٦.

(٢) رواه أحمد ١/ ٢٦٣، والبخاري في بدء الوحي ١/ ٣٥، ٤٨، وفي التفسير ٩/ ٢٨١، ٢٩٠، ومسلم في الجهاد ١٢/ ١٠٣، ١٠٤، ١١١ مطولاً.

(٣) رواه أحمد ٦/ ١٥٣، والبخاري في الأحكام ١٦/ ٣٣٠، وفي التفسير ١٠/ ٢٦١، ومسلم في الإمارة ١٣/ ١٠، ١١، والترمذي في التفسير ٣٠٨٩ وغيرهم.

(٤) تقدم ص ٨٦.

(٥) تقدم ص ١١٨.

(٦) تقدم أيضًا ص ١١٧.

أذني فنمت فما أيقظني إلاَّ مس الشمس فرجعت ولم أقض شيئًا، ثم عراني مرة أخرى مثل ذلك، ثم لم أهم بشيء بعد ذلك بسوء[1].

وقارُه وصمته وتؤدته ومروءته وحسن هديه ﷺ

وأما وقاره ﷺ وصمته وتؤدته ومروءته وحسن هديه ﷺ فمما طارت به الركبان وظهر كظهور الليل والنهار.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا جلس في المجلس احتبى بيديه[2].

وكذلك كان أكثر جلوسه محتبيًا.

وعن جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه: أنه ﷺ تربع وربما جلس القرفصاء[3].

---

(١) تقدم كذلك ص ١١٣.

(٢) رواه أبو داود في الأدب ٤٨٤٦، والترمذي في الشمائل ١٢١، والبيهقي في الكبرى ٣/ ٢٣٦ وهو وإن كان سنده ضعيفًا، فإن متنه صحيح لشواهده الكثيرة.
منها: عن ابن عمر قال: رأيت رسول الله ﷺ بفناء الكعبة محتبيًا بيده هكذا. رواه البخاري في الاستئذان ٣/ ٣٠٦، والإسماعيلي، وأبو نعيم كما في الفتح.
ومنها: عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ خرج يومًا فأخذ بيده، قال: ثم انصرف وأنا معه حتى جئنا المسجد فجلس فاحتبى.. رواه أحمد ٢/ ٥٣٢، والبخاري في الأدب المفرد ١١٨٣، وأصله في الصحيحين.
ومنها: عن سيدنا علي. رواه أحمد ١/ ١٥٢ بسند حسن.
ومنها: عن رجل من بني سليط. رواه أحمد ٤/ ٦٩، ٥/ ٢٤، ٣٨١ بسند صحيح، وفي الباب غير ذلك؛ فالحديث صحيح خلافًا لما يوهمه كلام المناوي في الفيض.

(٣) رواه مسلم في المساجد ٥/ ١٧١، وأبو داود في الأدب ٤٨٥٠ وغيرهما بنحوه وليس فيه: وربما جلس القرفصاء. وانظر ما تقدم قبله.

وفي صفته ﷺ يخطو تكفؤًا ويمشي هونًا كأنما ينحط من صبب[1].

وقال عبد الله بن مسعود: إن أحسن الهدي هدي محمد ﷺ[2].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما كان في كلام رسول الله ﷺ ترتيل أو ترسيل[3].

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: كان رسول الله ﷺ يحدث حديثًا لو عده العاد أحصاه[4].

وكان ﷺ يحب الطيب والرائحة الحسنة ويستعملها كثيرًا ويحض عليهما[5].

ويقول: «حبب إلي من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة[6]».

ومن مروءته ﷺ نهيه عن النفخ في الطعام والشرب[7]، والأمر بالأكل

---

(١) جاء هذا في حديث للإمام علي بنحوه، رواه أحمد ١/ ٩٦، ١٢٧، ١٥١، والترمذي في المناقب، وفي الشمائل، وابن حبان ٢١١٧، والحاكم ٢/ ٦٠٦ من طرق، وحسنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم. ونحوه عن أبي الطفيل عند أبي داود وغيره، وعن أنس في الصحيحين، وغيرها: إذا مشى يتكفأ... إلخ.

(٢) رواه البخاري في الأدب ١٣/ ١٢٥، وأوله: «فإن أحسن الحديث كتاب الله وأحسن الهدي...» إلخ، ورواه في الاعتصام مطولاً..

(٣) رواه أبو داود في الأدب ٤٨٣٨ بسند صحيح.

(٤) رواه البخاري في المناقب ٧/ ٣٨٩، ومسلم في الفضائل ١٦/ ٥٣ وغيرهما،

(٥) هذا معلوم من شمائله.

(٦) تقدم تخريجه ص ١٠٥.

(٧) رواه أحمد ١/ ٣٠٩، ٣٥٧، وأبو داود ٣٧٢٨، والترمذي ١٧٣٥ وابن حبان ١٣٦٨ عن ابن عباس. ورواه الترمذي ١٧٣٤، والدارمي ٢١٢٧، وابن حبان ١٣٦٧ عن أبي سعيد الخدري وكلاهما صحيح.

مما يلي[١]، والأمر بالسواك، وانقاء البراجم والرواجب، واستعمال خصال الفطرة[٢].

زهده ﷺ في الدنيا

وأما زهده ﷺ فقد تقدم من الأخبار أثناء هذه السيرة ما يكفي، وحسبك من تقلله منها وإعراضه عن زهرتها، وقد سيقت إليه بحذافيرها وترادفت عليه فتوحها إلى أن توفي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في نفقة عياله[٣]، وهو يدعو ويقول: اللّٰهم اجعل رزق آل محمد قوتًا[٤].

ثم أسند من طريق مسلم من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام تباعًا من خبز حتى مضى لسبيله. وفي رواية أخرى: من خبز شعير يومين متواليين، ولو شاء لأعطاه الله ما لا يخطر ببال. وفي أخرى: ما شبع آل رسول الله ﷺ من خبز برّ حتى لقي الله عزّ وجلّ[٥].

---

(١) رواه البخاري في الأطعمة ١١/ ٤٥٠، ٤٥١، ومسلم في الأشربة ١٣/ ١٩٢، ١٩٣ عن عُمَر بن أبـي سلمة أن رسول الله ﷺ قال له: كل بيمينك ومما يليك... إلخ.

(٢) رواه مسلم في الطهارة ٣/ ١٤٧ عن عائشة رضي الله تعالى عنها عنه ﷺ: عشر من الفطرة وفيه غسل البراجم والسواك... إلخ. وفي اللباس من البخاري ١٢/ ٤٥٦، ٤٦٩، ٤٧٠، وفي الطهارة عند مسلم ٣/ ١٤٦، وباقي الجماعة عن أبـي هريرة عنه ﷺ: خمس من الفطرة... إلخ، والبراجم: عقود الأصابع.

(٣) تقدم ص ١٠٩.

(٤) البخاري في الرقاق ١٤/ ٧٣، وفي الإيمان، وفي الأطعمة، ومسلم في الزهد ١٨/ ١٠٥، والترمذي كذلك ٢١٨١، والنسائي، وابن ماجه وغيرهم عن أبـي هريرة.

(٥) هو عند مسلم في الزهد ١٨/ ١٠٥، ١٠٦، ورواه البخاري في الرقاق ١٤/ ٧٠ بنحوه، وفي رواية: ما أكل آل محمد ﷺ أكلتين في يوم إلاّ إحداهما تمر. رواه البخاري ١٤/ ٧١. وفي رواية لهما: إن كنا لننظر إلى الهلال ثلاثة أهلة في شهرين =

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: ما ترك رسول الله ﷺ دينارًا ولا درهمًا ولا شاة ولا بعيرًا[1].

وفي حديث عَمْرو بن الحارث: ما ترك رسول الله ﷺ إلَّا سلاحه وبغلته، وأرضًا جعلها صدقة[2].

قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: ولقد مات وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد إلَّا شطر شعير في رف لي[3].

وعنها قالت: إن كنا آل محمد لنمكث شهرًا ما نستوقد نارًا، إن هو إلَّا التمر والماء[4].

وعن عبد الرحمن بن عوف: هلك رسول الله ﷺ ولم يشبع هو وأهل بيته من خبز الشعير[5].

= وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار... إلخ. وفي رواية لمسلم ١٨/ ١٠٦، والترمذي ٢١٧٧ عنه: ما شبع رسول الله ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض. وفي رواية لها أيضًا: والله ما شبع من خبز ولحم مرتين في يوم، وقال مسلم من خبز وزيت.

(١) رواه مسلم ١١/ ٨٩، وأبو داود ٢٨٦٣، والنسائي ٦/ ٢٠٠، وابن ماجه ٢٦٩٥، كلهم في الوصايا.

(٢) البخاري في الخمس، باب نفقة نساء النبي ﷺ بعد وفاته ٧/ ١٧، وفي الوصايا وفي آخر المغازي، والنسائي في الأحباس ٦/ ١٩٠، ١٩١ وغيرهما. وفي رواية للنسائي وغيره: ما ترك دينارًا ولا درهمًا ولا عبدًا ولا أمةً إلَّا بغلته الشهباء... إلخ.

(٣) رواه البخاري في الخمس ٧/ ١٧، وفي الرقاق ١٤/ ٥٨، ٥٩، ومسلم في الزهد ١٨/ ١٠٧ وغيرهما. وقولها: «في رف لي» بفتح الراء وتشديد الفاء: هو شيء يشبه الطاق أو خشبة معلقة يوضع عليها الحاجيات.

(٤) هذه عند مسلم ١٨/ ١٠٦، ١٠٧.

(٥) رواه الترمذي في الشمائل ١٣٩، والبزار. وهو حسن لغيره.

وعن عائشة وأبـي أمامة وابن عباس نحوه.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: كان رسول الله ﷺ يبيت هو وأهله الليالي المتتابعة طاويًا لا يجدون عشاءً[1].

وعن أنس رضي الله تعالى عنه ما أكل رسول الله ﷺ على خِوان ولا في سُكُرُّجَة ولا خبز له مُرَقَّقٌ ولا رأى شاة سميطًا قط[2].

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها: إنما كان فراشه ﷺ الذي ينام عليه أدمًا حشوه ليف[3].

وكان ينام أحيانًا على سرير مرمول بشريط حتى يؤثر في جنبه ﷺ[4].

---

(١) حديث عائشة تقدم قريبًا ص ١٤٩، وحديث أبـي أمامة رواه الترمذي في الزهد ٢١٧٩، وحسَّنه وصححه، ولفظه: ما كان يفضل عن أهل بيت رسول الله ﷺ خبز الشعير. وحديث ابن عباس رواه الترمذي ٢١٨٠، وابن ماجه ٣٣٤٧ وحسنه الترمذي وصححه وزاد: وكان أكثر خبزهم الشعير.. وفي الباب عن أبـي هريرة: ما شبع رسول الله ﷺ وأهله ثلاثًا تباعًا من خبز البر حتى فارق الدنيا. رواه مسلم ١٨/١٠٨، ١٠٩، والترمذي ٣١٧٨ كلاهما في الزهد، وابن ماجه ٣٣٤٣ في الأطعمة.

(٢) رواه البخاري في الرقاق ١٤/ ٥٨، ٧٣.
والخوان بكسر الخاء هو المائدة، والسكرجة بضم الثلاثة مع تشديد الراء: إناء يوضع فيه المُهضمات، والشاة السميط التي ينزع صوفها وتشوى.

(٣) البخاري في الرقاق ١٤/ ٧٢، ومسلم في اللباس ١٤/٥٨، وأبو داود ٤١٤٧، والترمذي ١٦/٨، وكذا أحمد ٤٨/٦، ٥٦، ١٠٤ وفي مواضع.. والأَدَم هو الجلد وقوله حشوه، أي: داخله محشو بأصول النخل.

(٤) ورد هذا المعنى في أحاديث منها: حديث عمر رضي الله تعالى عنه في قصة اعتزاله ﷺ نساءه في مشربة ــ غرفة ــ وفيه أنه دخل عليه.. وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف... فرأيت أثر الحصير =

خوفه ﷺ من ربه وطاعته له وشدة عبادته

وأما خوفه ربه وطاعته له وشدة عبادته فعلى قدر علمه بربه. ولذلك قال ﷺ فيما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا»[1].

= في جنبه. . . الحديث رواه أحمد ١/ ٣٤، والبخاري في العلم وفي النكاح وفي التفسير ١٠/ ٢٨٤، ومسلم في الطلاق ١٠/ ٨٢، ٩٢، والترمذي في التفسير ٣١٠٠ وغيرهم مطولاً. وفي آخره: «أفي شك أنت يا ابن الخطاب»؟ وفي أخرى: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة»؟

ومنها حديث أبي موسى، رواه البخاري في غزوة أوطاس ٩/ ١٠٤، ومسلم ١٦/ ٦٠ في الفضائل، وفيه: فدخلت على النبي ﷺ في بيته على سرير مرمل وعليه فراش قد أثر رمال السرير في ظهره وجنبيه. . . إلخ.

ومنها حديث أنس رواه أحمد ٣/ ١٣٩، ١٤٠، وأبو يعلى ٢٧٨٣، وابن حبان ٨/ ٩٤، وأورده النور في المجمع ١٠/ ٣٢٦ برواية أحمد وأبي يعلى وقال: رجال أحمد رجال الصحيح غير مبارك بن فضالة، وقد وثقه جماعة وضعفه جماعة. . وفيه: دخلت على رسول الله ﷺ وهو على سرير مضطجع مرمل بشريط. . . وقد أثر الشريط بجنب رسول الله ﷺ. . . إلخ.

فهذا عيش رسول الله ﷺ، وهذه حياته المتواضعة، فأين حياتنا البذخة من حياته المتقشفة؟! وأين فرشنا وملابسنا ومركوباتنا القارونية من حالته في كل ذلك البسيطة؟! إننا والله ما أخرنا لهذا النعيم والبذخ إلاّ لشر، نسأل الله تعالى العفو والمغفرة؛ فحالتنا تكذب دعوانا اتباع هذا الرسول العظيم صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله. وقوله: «مرمول بشريط» يعني: منسوج بحبل.

(١) رواه البخاري في التفسير وفي الرقاق وفي الاعتصام، ومسلم في الفضائل، والترمذي في التفسير وفي الزهد ٢١٣٥، والدارمي ٢٧٣٨، وباقي الجماعة. ومثله عن عائشة في صلاة الكسوف، رواه الجماعة.

وعن أبـي ذر رضي الله تعالى عنه أنه ﷺ قال: «إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلاَّ وملك واضع جبهته ساجدًا لله تعالى، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله. . . لوددت أني شجرة تعضد»[1].

وفي حديث المغيرة رضي الله تعالى عنه قال: صلَّى رسول الله ﷺ حتى انتفخت قدماه، وفي رواية: كان يصلي حتى ترم قدماه، فقيل له: أتتكلف هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»[2]. ونحوه عن عائشة وأبـي هريرة[3].

---

(١) رواه أحمد ٥/ ١٧٣، والترمذي في الزهد ٢١٣٤، وابن ماجه ٤١٩٠، والحاكم ٤/ ٥٧٩ بسند صحيح، وغلط من عزاه إلى مسلم.
وقوله: أطت، أي: صوتت. وقوله: الصعدات، بضم الصاد والعين: هن الطرقات. وقوله: تجأرون، أي: ترفعون أصواتكم. وقوله: تعضد، أي: تقطع.
وفي الحديث: ما كان عليه النبـي ﷺ من العلم بالله، وما كان يشاهده من عالمي الملك والملكوت ومما لو اطلع عليه أحدنا لهام على وجهه في المفاوز رافعًا صوته مستجيرًا بالله عز وجل، ولزهد في هذه الحياة ومشتهياتها. . .

(٢) رواه البخاري في صلاة الليل ٣/ ٢٥٦، وفي الرقاق وغيرهما، ومسلم في المنافقين ١٧/ ١٦٢، وفي صفة القيامة. . . والترمذي ٣٦٩، والنسائي في الصلاة، وابن ماجه ١٤١٩.

(٣) حديث عائشة رواه أحمد ٦/ ١١٥، والبخاري في تفسير الفتح ١٠/ ٢٠٦، ومسلم ١٧/ ١٦٢، وغيرهما، أما حديث أبـي هريرة فرواه الترمذي في الشمائل ٢٢٢، وابن خزيمة في صحيحه ١١٨٤، وكذا ابن ماجه ١٤٢٠ وغيرهم. وسنده حسن صحيح.
وقولهما: «حتى ترم قدماه، أو تورمت» معناهما: انتفخت كما في رواية. وفي أخرى حتى تفطر. والفطور: الشقوق. =

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: كان عمل رسول الله ﷺ دِيمة، وأيكم يطيق ما كان رسول الله ﷺ يطيق[1].

وقالت: كان يصوم حتى نقول لا يفطر، ويفطر حتى نقول: لا يصوم[2]، ونحوه عن ابن عباس وأم سلمة[3].

وقال أنس: كنت لا تشاء أن تراه في الليل مصليًا إلاَّ رأيته مصليًا، ولا نائمًا إلاَّ رأيته نائمًا[4].

وقال عوف بن مالك قال: كنت مع رسول الله ﷺ فاستاك ثم توضأ ثم قام يصلي، فقمت معه، فبدأ فاستفتح البقرة فلا يمر بآية رحمة إلاَّ وقف فسال، ولا يمر بآية عذاب إلاَّ وقف فتعوذ، ثم ركع فمكث بقدر قيامه يقول: سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة، ثم سجد وقال مثل ذلك، ثم قرأ آل عمران، ثم سورة سورة، يفعل مثل ذلك[5].

= وكل هذا كان يتكلفه ليقوم بشكر الله تعالى على ما أولاه وتفضل عليه من نعم ﷺ.

(١) رواه البخاري في الصوم ٥/ ٤٠، ومسلم في صلاة المسافرين ٦/ ٧٢.

(٢) رواه مسلم في الصيام ٨/ ٣٦، ٣٧، ٣٨.

(٣) حديث ابن عباس رواه البخاري ٥/١١٩، ومسلم ٨/ ٣٨ كلاهما في الصيام، وحديث أم سلمة رواه الترمذي في الشمائل ٢٥٥، وابن ماجه بسند صحيح.

(٤) رواه البخاري في الصوم ٥/ ١١٩، ومسلم بنحوه في الصيام ٨/ ٣٩، والترمذي في الشمائل ٢٥٣، وابن خزيمة ٢١٣٤، وفي أوله: كان يصوم من الشهر حتى نرى أنه لا يريد أن يفطر منه، ويفطر حتى نرى أنه لا يريد أن يصوم من الشهر شيئًا. . . إلخ.

(٥) رواه أبو داود ٨٧٣، والنسائي ٢/ ١٥٠، ١٧٧، والترمذي في الشمائل ٦٧ بسند صحيح.

وعن حذيفة رضي الله تعالى عنه مثله وقال: سجد نحوًا من قيامه وجلس بين السجدتين نحوًا منه وقام حتى قرأ البقرة وآل عمران والنساء والمائدة[1].

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قام رسول الله ﷺ بآية من القرآن ليلة[2].

وعن عبد الله بن الشخير رضي الله تعالى عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل[3].

وقال ﷺ: «إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة». وفي رواية: «سبعين مرة»[4].

---

(١) رواه مسلم في صلاة الليل ٦/ ٦٠، ٦١، وأبو داود ٨٧١، ٨٧٤، والنسائي ٢/ ١٧٧، ١٨٣، والترمذي ٢٣٥، وفي الشمائل ٢٧٠.

(٢) رواه الترمذي في الشمائل ٢٧١، وفي الجامع ٤٠١، ومن طريقه البغوي في شرح السنة ٩١٤ بسند صحيح، وله شاهد صحيح عن أبي ذر رضي الله تعالى عن. رواه أحمد ٥/ ١٥٦، ١٧٠، ١٧٧، والنسائي في الكبرى ٦/ ٣٤٠، وابن ماجه ١٣٥٠، والطحاوي في المعاني ١/ ٣٤٧، والحاكم ١/ ٢٤١، وصححه ووافقه الذهبي.
ولفظه: قام النبي ﷺ حتى أصبح بآية، والآية: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١١٨﴾ [المائدة: ١١٨].. وآخر عن أبي سعيد رواه أحمد ٣/ ٦٢ بسند صحيح.

(٣) رواه الترمذي في الشمائل ٣١٥، وأبو داود في الصلاة ٩٠٤، والنسائي في البكاء من الصلاة ٣/ ١٢ وسنده صحيح.
والأزيز صوت القدر عند غيلانها، وهي: المرجل، بكسر الميم وفتح الجيم.

(٤) رواه أحمد ٤/ ٢١١، ٢٦٠، ومسلم في الدعوات ١٧/ ٢٣، وأبو داود ١٥١٥ من حديث الأغر المزني وفي أوله: «إنه لَيُغَان على قلبي وإني أستغفر الله...» إلخ، وفي رواية لمسلم ١٧/ ٢٤: «يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة» وجاء نحوه عن أبي هريرة. رواه النسائي في الكبرى ٦/ ١١٤، وابن =

الأنبياء والرسل كلهم
متصفون بصفات الكمال البشري

اعلم وفقنا الله وإياك أن صفات جميع الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم: من كمال الخَلْقِ وحسن الصورة وشرف النسب وحسن الخُلُق وجميع المحاسن هي هذه الصفات، لأنها صفات الكمال. والكمالُ والتمامُ البشري، والفضلُ الجميعُ لهم صلوات الله وسلامه عليهم، إذ رتبتهم أشرف الرتب، ودرجاتهم أرفع الدرجات، ولكن فضل الله بعضهم على بعض.

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[1] [البقرة: ٢٥٣]. وقال: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الدخان: ٣٢].

وقال ﷺ: «إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر. . .» ثم قال آخر الحديث: «على خلق رجلٍ واحد على صورة أبيهم آدم عليه السلام طوله ستون ذراعًا في السماء»[2].

= ماجه ٣٨١٥ بسند صحيح. وعن أنس عنه ﷺ: «إني أستغفر الله في اليوم وأتوب إليه أكثر من سبعين مرة». رواه النسائي ٦/ ١١٤.
وقوله: «ليغان» الغين يكون للمقربين، وهو بمنزلة الغيم للأبرار، والغفلة للعامة، والرين لقلوب الكفار. فهو غين أنوار لا غين أغيار. فانظر أيها المسلم إلى حالة هذا الرسول العظيم فهو مع كونه مغفورًا له ما تقدم وما تأخر؛ كان يتكلف كل ما مر بك من أنواع العبادات مع شدة خوفه من ربه، وكثرة بكائه وتضرعه إليه عز وجل، ودوام استغفاره، وتتابع توبته.

(١) فهم متفاضلون حسب مراتبهم. وأفضلهم أولوا العزم، ثم أشرف الجميع نبينا ﷺ كما تقدَّم ص ٦٨، ٦٩.

(٢) رواه البخاري في أوائل أحاديث الأنبياء ٧/ ١٧٥، ومسلم في الجنة ١٧/ ١٧١، =

وفي حديث أبي هريرة: «رأيت موسى فإذا هو: رَجُلٌ ضرب، رِجل، أقنى، كأنه من رجال شنوءة. ورأيت عيسى فإذا هو: رجلٌ ربعة كثير خيلان الوجه، أحمر، كأنه خرج من ديماس. قال: وأنا أشبه ولد إبراهيم به»(١).

وقال في صفة موسى في رواية: «كأحسن ما أنت راء من آدم الرجال».

وفي حديث أبي هريرة عنه ﷺ: «ما بعث الله تعالى من بعد لوط نبيًّا إلاَّ في ذروة من قومه». ويروى: «في ثروة»، أي: كثرة ومنعه(٢).

وفي حديث هرقل: وسألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب وكذلك الرسل تبعث في أنساب قومها(٣).

وقال الله تعالى في أيوب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [صَ: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم: ١٢ ـ ١٥].

= ١٧٢، من حديث أبي هريرة، وفي رواية: لا اختلاف بينهم ولا تباغض؛ قلوبهم قلب واحد..

(١) البخاري في أحاديث الأنبياء ٧/ ٢٣٩، ٢٤٠، ومسلم في الإيمان ٢/ ٢٣٢، ٢٣٨. وقوله: ضرب، أي: خفيف اللحم. ورجل، بكسر الجيم، أي: شعره بين الجعودة والسبوطة. والأقنى: هو الطويل الأنف مع ارتفاع وسطه ورقة أرنبته. وشنوءة: قبيلة يمنية. وقوله: خيلان: هن الشامات. والديماس: الحمام.

(٢) رواه أحمد ٢/ ٥٣٣، والترمذي رقم ٢٩١٤، وابن جرير ١٢/ ٨٧، في تفسير سورة هود، والحاكم ٢/ ٥٦١، وصححه وأقره الذهبي وهو على شرط مسلم، والحديث أصله في الصحيحن من حديث أبي هريرة. وانظر كتابي «العبر».

(٣) تقدم، وهو في الصحيحين. انظر ما سبق ص ١٤٦.

وقال: ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٩].

وقال: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٣، ٣٤].

وقال في نوح: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٣].

وقال في عيسى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٥].

وقال في نوح: ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ ﴾ [مريم: ٣٠، ٣١].

وقال في موسى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ . . . ﴾ [موسى: ٦٩].

وقال النبي ﷺ: «كان موسى رجلاً حَيِيًّا ستيرًا، ما يرى من جسده شيء استحياء. . . » الحديث[1].

وقال تعالى فيه: ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ﴾.

وقال في وصف جماعة منهم: ﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

وقال مخاطبًا لخاتمهم: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

---

(١) البخاري في الأنبياء ٧/ ٢٤٧، ٢٤٨، ومسلم ١٥/ ١٢٦ في الفضائل من حديث أبي هريرة.

وقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ﴾ إلى قوله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ [آل عمران: ٨٤ ـ ٩٠].

فوصفهم بأوصاف جمة من الصلاح والهدى والاجتباء والحكم والنبوة.

وقال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [الدخان: ١٧].

وقال: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات: ١٠٢].

وقال في إسماعيل: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥].

وقال: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص: ٤٥ ـ ٤٨].

وقال في داود: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ ثم قال: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص: ١٧ ـ ٢٠].

وقال في يوسف: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف: ٥٥].

وقال عن موسى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ [الكهف: ٦٩].

وقال عن شعيب: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [القصص: ٢٧].

وقال: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ﴾ [هود: ٨٨].

وقال: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٤].

وقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠]. في آيات كثيرة ذكر تعالى فيها من خصالهم ومحاسن أخلاقهم الدالة على كمالهم.

وجاء من ذلك في الأحاديث كثير كقوله ﷺ: «إنما الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، نبي ابن نبي ابن نبي ابن نبي»[١].

وفي حديث أنس عنه ﷺ: «وكذلك الأنبياء، تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «خفف على داود القرآن فكان يأمر بدابته فتسرج فيقرأ القرآن قبل أن تسرج، ولا يأكل إلاَّ من عمل يده[٣]. قال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: ١٠، ١١]».

وقال ﷺ: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، ويصوم يومًا ويفطر يومًا»[٤].

---

(١) رواه البخاري في الأنبياء ٧/ ٢٢٨، ٢٢٥، ١٩٨، ومسلم في الفضائل ١٥/ ١٣٤، من حديث أبي هريرة.

(٢) تقدم ص ١٠٣.

(٣) البخاري في الأنبياء ٧/ ٢٦٥، وأحمد ٢/ ٣١٤، والبيهقي ٦/ ١٢٧، عن أبي هريرة.

(٤) رواه البخاري في صلاة الليل وفي الأنبياء ٧/ ٢٦٦، ومسلم في الصيام ٨/ ٤٦ وغيرهما من حديث عبد الله بن عمرو.

وقال ﷺ: «لقد كان الأنبياء قبلي يبتلى أحدهم بالفقر والقمل، وكان أحب إليهم من العطاء إليكم»(١).

وأخباره في هذا كله مسطورة، وصفاتهم في الكمال وجميل الأخلاق وحسن الصور والشمائل معروفة مشهورة(٢)، فلا نطول بها ولا تلتفت إلى ما تجده في كتب بعض جهلة المؤرخين والمفسرين مما يخالف هذا.

هذا وقد آتيناك أكرمك الله تعالى من ذكر الأخلاق الحميدة والفضائل المجيدة وخصال الكمال العديدة وأريناك صحتها له ﷺ وجلبنا من الآثار ما فيه مقنع، والأمر أوسع، فمجال هذا الباب في حقه ﷺ ممتد ينقطع دون نفاده الأدِلَّاء، وبحر علم خصائصه زاخر لا تكدره الدلاء. ولكنا أتينا فيه بالمعروف بما أكثره في الصحيح والمشهور من المصنفات، واقتصرنا في ذلك بقل من كل، وغيض من فيض، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وصلَّى الله وسلَّم وبارك على سيدنا محمد وآله وزوجه وصحبه.

* * *

---

(١) رواه الحاكم ٤/ ٣٠٧ عن أبي سعيد الخدري وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٢) وما اصطفاهم الله عز وجل وجعلهم حملة رسالاته وسفراء بينه وبين عباده إلاَّ لما حباهم تعالى من صفات الكمال البشرى. فالله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس. والله أعلم حيث يجعل رسالاته.

الباب الثالث

فيما ورد من صحيح الأخبار ومشهورها بعظيم قدره عند ربه ومنزلته وما خصه به في الدارين من كرامته ﷺ

لا خلاف أنه أكرم البشر، وسيد ولد آدم، وأفضل الناس منزلة عند الله[1]، وأعلاهم درجة، وأقربهم زلفى. واعلم أن الأحاديث الواردة في ذلك كثيرة جدًّا وقد اقتصرنا منها على صحيحها ومنتشرها، وحصرنا معاني ما ورد منها في اثني عشر فصلاً.

ما ورد في ذكر مكانته عند ربه واصطفائه ورفعته وسيادته وما خصه الله به في الدارين

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قالوا يا رسول الله متى وجبت لك النبوة؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد»[2].

---

(١) نقل الإجماع على ذلك غير واحد من الأعلام حتى قالوا: نبينا أفضل ــ بالإطباق ــ من كل مخلوق على الإطلاق، ولا عبرة بخلاف ابن حزم والزمخشري؛ حيث إن الأول فضل عليه الملائكة مطلقًا، والثاني فضل عليه جبريل عليه السلام.

(٢) رواه الترمذي في المناقب ٣٣٧٧ بتهذيبي، والحاكم ٢/ ٦٠٩ وغيرهما، وسنده صحيح على شرط مسلم، وحسَّنه الترمذي وصححه، ويأتي حديث العرباض في هذا ص ١٦٦.

وعن واثلة بن الأسقع رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»(١).

وعن أنس رضي الله تعالى عنه أنه ﷺ قال: «أنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عنه ﷺ: «أنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر»(٣).

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها عنه ﷺ: «أتاني جبريل عليه السلام فقال: قلبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أر رجلاً أفضل من محمد، ولم أر بني أب أفضل من بني هاشم»(٤).

---

(١) رواه أحمد ٤/١٠٧، ومسلم في الفضائل ١٥/٣٦، والترمذي في المناقب ٣٣٧٤، ٣٣٧٦، والبخاري في التاريخ ١/٤، والخطيب في التاريخ أيضًا ١٣/٦٤. وفي الحديث شرف نسبه ﷺ وأن الله اختاره على سائر الأنساب..

(٢) رواه الترمذي في المناقب ٣٣٨٤ وحسَّنه، وهو حسن صحيح لشاهدين له، وأوله عنده: «أنا أول الناس خروجًا إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا أيسوا، لواء الحمد يومئذٍ بيدي، وأنا أكرم...» إلخ.

(٣) رواه الترمذي في المناقب ٣٣٩١ مطولاً، والدارمي ٤٨، ولمعناه شواهد يحسن بها.

(٤) الطبراني في الأوسط ٦٢٨١، والبيهقي ١/١٧٦، وأبو نعيم كلاهما في الدلائل. وموسى بن عبيد لا يضر هنا، لأن معنى الحديث وارد في أحاديث. ولذا قال الحافظ: لوائح الصحة لائحة على صفحات هذا المتن. انظر: الزرقاني على المواهب ١/٦٨.

وعن أنس رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ أتي بالبراق ليلة أسري به فاستصعب عليه، فقال له جبريل: بمحمد تفعل هذا؟! فما ركبك أحد أكرم على الله منه. فارفض عرقًا[1].

وروى عنه ﷺ أبو هريرة وجابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهم أنه ﷺ قال: «أعطيت خمسًا ــ وفي بعضها ستًّا ــ لم يعطهن نبي قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لنبي قبلي، وبعثت إلى الناس كافة، وأعطيت الشفاعة»[2].

وفي رواية: «بعثت إلى الأحمر والأسود»[3].

قيل: السود: العرب؛ لأن الغالب على ألوانهم الأُدْمَة فهم من السود، والحمر: العجم. وقيل: البيض والسود من الأمم. وقيل: الحمر: الإنس، والسود: الجن.

وفي الحديث الآخر عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: «نصرت بالرعب، وأوتيت جوامع الكلم، وبينا أنا نائم إذ جيء بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي». وفي رواية عنه: «وختم بي

---

(١) تقدم أول الكتاب ص ٤٢.

(٢) رواه مسلم في كتاب المساجد ٥/٥ عن أبي هريرة بزيادة: ست: وختم بي النبيون. ورواه البخاري في التيمم وغيره، ومسلم في المساجد ٥/٣، ٤ باللفظ المذكور. وفي الباب عن الإمام علي وابن عمر وأنس وأبي سعيد وحذيفة وأبي موسى وأبي الدرداء وأبي أمامة والسائب بن يزيد وأكثرها صحيحة، ولا نطيل بتخريجها.

(٣) رواه أحمد ٤/٤١٦ بسند صحيح، ولا يضره السبيعي لثبوت المتن من غير جهته، وقد تقدم ص ٨٠.

النبيون»[1].

وعن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: قال ﷺ: «إني فرط لكم وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي، وإني قد أعطيت مفاتيح خزائن الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها»[2].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «أنا محمد النبي الأمي، لا نبي بعدي، أوتيت جوامع الكلم وخواتمه»[3].

وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عنه ﷺ: «بعثت بين يدي الساعة»[4].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه ﷺ قال: «ما من نبي من الأنبياء إلَّا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحى الله إلي؛ فأرجوا أن أكون أكثرهم تبعًا يوم القيامة[5].

---

(١) رواه البخاري في التعبير ١٦/ ٥٨ وفي الاعتصام، ومسلم في المساجد ٥/ ٥ وغيرهما.

(٢) رواه أحمد ٤/ ١٤٩، والبخاري في الجنائز ٣/ ٤٥٤، وفي علامات النبوة وفي المغازي وفي الرقاق، ومسلم في الفضائل ١٥/ ٥٧، ٥٩ وغيرهم.
وقوله: «وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض...» إلخ، فيه إشارة إلى ما فتح الله على أمته من الممالك عبر العصور. وفي الحديث إيذان بأن الأمة ستتنافس في الدنيا وإن ذلك من أسباب هلاكها وضعفها كما قد حصل.

(٣) رواه أحمد ٢/ ١٧٢ بسند حسن.

(٤) رواه أحمد ٢/ ٥٠، ٩٢ وغيره. وهو حديث حسن وتمامه: «... بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم». وانظر: حواشي الاستنفار لكاتبه.

(٥) رواه أحمد ٢/ ٣٤١، ٤٥١، والبخاري في فضائل القرآن، ومسلم في الإيمان ٢/ ١٨٦.

معنى هذا عند المحققين: بقاء معجزته ﷺ ما بقيت الدنيا، وسائر معجزات الأنبياء ذهبت للحين، ولم يشاهدها إلاَّ الحاضر، لها ومعجزة القرآن يقف عليه قرن بعد قرن عيانًا لا خبرًا إلى يوم القيامة(١).

وسيأتي بسط لهذا في إعجاز القرآن إن شاء الله تعالى.

وعن علي رضي الله تعالى عنه: «كل نبي أعطي سبعة نجباء وزراء رفقاء من أمته، وأعطي نبيكم ﷺ أربعة عشر نجيبًا، منهم: أبو بكر وعمر وابن مسعود وعمار»(٢).

وقال ﷺ: «إن الله قد حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنها لا تحل لأحد بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار»(٣).

وعن العرباض بن سارية رضي الله تعالى عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إني عبد الله وخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته، وعِدَةُ أبي إبراهيم، وبِشارة عيسى ابن مريم»(٤).

---

(١) هذا ليس على ظاهره؛ فإن القرآن لا يبقى ليوم القيامة، بل سيرفع قبيل الساعة، كما صح بذلك حديث رواه ابن ماجه وغيره.

(٢) رواه أحمد ١/ ٨٨، ١٤٨، والترمذي في المناقب ٣٥٦١، وصححه الشيخ أحمد شاكر في الموضعين من تعاليقه على المسند، وجاء عدهم في المسند ١/ ١٤٨: حمزة، وجعفر، وعلي، وحسن، وحسين، وأبو بكر، وعمر، والمقداد، وعبد الله بن مسعود، وأبو ذر، وحذيفة، وسلمان، وعمار، وبلال.

(٣) ورد عن أبي هريرة. رواه أحمد ٢/ ٢٣٨، والبخاري في العلم ١/ ٢١٦، ٢١٧، وفي اللقطة وفي الديات، ومسلم في الحج ٩/ ١٢٨، ١٣٠ وغيرهم. وعن ابن عباس في الصحيحين. وعن أبي شريح العدوي عند الشيخين أيضًا.

(٤) رواه أحمد ٤/ ١٢٧، ١٢٨، وابن حبان في الموارد ٢٠٩٣، والحاكم ٢/ ٦٠٠ وسنده صحيح في طريق لأحمد، وعند ابن حبان، وله شواهد عن أبي أمامة، وعن خالد بن معدان الآتي. وقوله: «وإن آدم لمنجدل...» إلخ، يعني: كنت نبيًا وآدم لا يزال مطروحًا في طينته لم ينفخ فيه الروح بعد.

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: إن الله فضل محمد ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم. قالوا: فما فضله على أهل السماء؟ قال: إن الله تعالى قال لأهل السماء: ﴿ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ ﴾ الآية [الأنبياء: ٢٩]، وقال لمحمد ﷺ: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ ﴾ [الفتح: ١].

قالوا: فما فضله على الأنبياء؟ قال: إن الله تعالى قال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال لمحمد: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾(١) [سبأ: ٢٨].

وعن خالد بن معدان رحمه الله تعالى: أن نفرًا من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك. قال: «نعم، أنا دعوة أبي إبراهيم ـ يعني: قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٩] ـ ، وبشارة عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نورٌ أضاء له قصور بُصرى من أرض الشام، واسترضعت في بني سعد بن بكر، فبينا أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بهمًا لنا إذ جاءني رجلان عليهما ثياب بيض معهما طست من ذهب مملوء ثلجًا، فأضجعاني، فشقَّا قلبي وبطني وغسلاه بذلك الثلج، حتى إذا أنقياه رداه كما كان، ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته. فوزنني بعشرة فوزنتهم. ثم قال: زنه بمائة من أمته. فوزنني بمائة فوزنتهم. ثم قال: زنه بألف من أمته. فوزنني بألف فوزنتهم. فقال: دعه عنك فلو وزنته

---

(١) رواه الدارمي في المقدمة ٤٧ بسند صحيح، وأورده النور في المجمع ٨/ ٢٥٤ برواية الطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح، غير الحكم بن أبان وهو ثقة. وما ذكره الحبر ابن عباس ظاهر في فضل رسولنا الكريم على أهل السماء وأهل الأرض ﷺ.

بأمته لوزنهم»[1].

وعن أنس رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب واستخرج منه علقة سوداء، فقال: هذا حظ الشيطان. ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه. وجاء الغلمان يسعون إلى أمه يعني ظئره فقالوا: إن محمدًا قد قتل. فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس: وكنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره[2].

وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: إن الله نظر إلى قلوب العباد، فاختار منها قلب محمد ﷺ فاصطفاه لنفسه فبعثه برسالته[3].

الإسراء والمعراج

هذا الفصل معقود لما تضمنته كرامة الإسراء من المناجاة والرؤية وإمامة الأنبياء، والعروج به إلى سدرة المنتهى وما رأى من آيات ربه الكبرى وما انطوى عليه من درجات الرفعة مما نبه

---

(1) رواه ابن إسحاق في السيرة بسند حسن، وقد صرح بالتحديث. وله شاهد عن أبي ذر بنحوه، رواه الدارمي ١٤، ويغني عن الكل الحديث التالي.
وقوله: «وبشارة عيسى» يشير إلى قوله تعالى في سورة الصف: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، وقوله: «ورأت أمي حين حملت بي» في رواية العرباض: رأت حين وضعته. وفي الحديث فضائل ومزايا وخصائص ظاهرة لنبينا ﷺ.

(2) رواه أحمد، ومسلم في الإسراء من كتاب الإيمان ٢/ ٢١٦، ٢١٧. والظئير: هي المرضعة. وفي الحديث خصيصة له ﷺ، حيث أخرج حظ الشيطان من قلبه، ولذلك كان سالمًا من وساوسه.

(3) أورده في المجمع ٨/ ٢٥٣.

عليه الكتاب العزيز وشرحته صحاح الأخبار.

قال الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾(١) [الإسراء: ١].

وقال تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾(٢) [النجم: ١ ـ ١٨].

فلا خلاف بين المسلمين في صحة الإسراء به ﷺ إذ هو نص القرآن، وجاءت بتفصيله وشرح عجائبه وخواص نبينا محمد ﷺ فيه أحاديث كثيرة

---

(١) حادث الإسراء والمعراج من أبهى معجزات نبينا ﷺ وأكبر الآيات، وأعظم خصائصه، أكرمه الله تعالى به في أعقاب تلك المحن والبلايا التي صبت عليه بعد موت حبيبته الأولى مولاتنا خديجة رضي الله تعالى عنها، التي طالما آزرته ونصرته بجاهها وحسبها ومالها... فجاء الإسراء عقب ذلك تثبيتًا واطمئنانًا وتسليةً له ﷺ.

(٢) هذه السورة سورة النجم مع أوائل سورة ﴿سُبْحَٰنَ﴾ جاء فيهما ذكر الإسراء والمعراج صراحة، فما قاله بعض المفتونين من المعاصرين بأن المعراج لم يرد به ذكر إلاّ في أخبار آحاد هو جهل منه وزيغ، فماذا يقول وبماذا يجيب عن قوله تعالى في هذه السورة ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [النجم: ١٣، ١٤]، فأين جاءت سدرة المنتهى؟! أوليست فوق السموات عند جنة المأوى؟! وقد رأى النبي ﷺ جبريل هنالك على صفته الأصلية، فلندع عنا أمثال هؤلاء المبتدعة العقلانيين ولنسر في طريقنا.

منتشرة[١]، رأينا أن نقدم أكملها ونشير إلى زيادة من غيره يجب ذكرها.

عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أوتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه، قال: فركبته حتى أتيت بين المقدس فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن، فقال جبريل اخترت الفطرة.

ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال جبريل. قال: ومن معك؟ قال محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بآدم ﷺ، فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال جبريل. قال: ومن معك؟ قال محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بابنَي الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ـ صلّى الله عليهم وعلى نبينا وسلم ـ، فرحبا بي ودعوا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة فذكر مثل الأول، ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف ﷺ، وإذا هو قد أعطي شطر الحسن فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، وذكر مثله، فإذا أنا بإدريس عليه السلام فرحب بي ودعا لي بخير، قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ [مريم: ٥٧]. ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فذكر مثله، فإذا أنا بهارون عليه السلام فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فذكر مثله، فإذا أنا بموسى عليه السلام فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عرج

---

(١) قد جاء فيه وفي المعراج أحاديث فاقت التواتر، جمعها جماعة من الحفاظ، وقد أورد جملة منها ابن كثير في التفسير، وفي البداية والنهاية، وكذا الحافظ السيوطي في الخصائص الكبرى وغيرها.

بنا إلى السماء السابعة، فذكر مثله، فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام مسندًا ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه.

ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال، قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إليَّ ما أوحى، ففرض عليَّ خمسين صلاةً في كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى، فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت خمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف؛ فإن أمتك لا يطيقون ذلك؛ فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم. قال: فرجعت إلى ربي، فقلت: يا رب خفف عن أمتي. فحط عني خمسًا. فرجعت إلى موسى فقلت: حط عني خمسًا. قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف.

قال: فلم أزل أرجع بين ربي تعالى وبين موسى حتى قال: يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرًا، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئًا، فإن عملها كتبت سيئة واحدة. قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فقال رسول الله ﷺ: فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه»(١).

قال القاضي رحمه الله تعالى جود ثابت رحمه الله تعالى هذا الحديث

---

(١) رواه أحمد ٣/١٤٨، ومسلم في الإيمان ٢/٢٠٩، ٢١٥، ٢١٧، ٢٢٥، وهو في البخاري في التوحيد من طريق شريك بن أبي نمر، وروايته هذه مطعون فيها.

عن أنس ما شاء، ولم يأت أحد عنه بأصوب من هذا، فروايته أتقن من غيره وأجود.

وقد وقعت في حديث الإسراء، زيادات نذكر منها نكتًا مفيدة في غرضنا.

منها: في حديث ابن شهاب عن أنس عن أبـي ذر أن رسول الله ﷺ قال: «فرج سقف بيتي فنزل جبريل، ففرج صدري ثم غسله من ماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيمانًا فأفرغها في صدري، ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فعرج بـي إلى السماء...» وفيه قول كل نبـي له: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح. إلاَّ آدم وإبراهيم فقالا له: والابن الصالح[1].

وفيه: عن ابن عباس: «ثم عرج بـي حتى ظهرت بمستوى أسمع فيه صريف الأقلام»[2].

وفي حديث مالك بن صعصعة: «فلما جاوزته ــ يعني موسى ــ بكى فنودي: ما يبكيك؟ قال: رب، هذا غلام بعثته بعدي يدخل من أمته الجنة أكثر مما يدخل من أمتي»[3].

وفي حديث أبـي هريرة رضي الله تعالى عنه: وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، فحانت الصلاة فأممتهم، فقال لي قائل: يا محمد، هذا مالك خازن النار فسلم عليه، فالتفت فبدأني بالسلام»[4].

---

(١) رواه البخاري في أول الصلاة وفي الأنبياء، ومسلم في الإيمان ٢/ ٢١٧، ٢٢٥.

(٢) رواه البخاري أول الصلاة ٢/ ٧، وفي الأنبياء، ومسلم في الإيمان ٢/ ١٢٠ وغيرهما.

(٣) رواه البخاري في المناقب، باب المعراج ٨/ ٢٠٠، وفي بدء الخلق في ذكر الملائكة، ومسلم في الإيمان ٢/ ٢٢٣.

(٤) رواه مسلم في الإيمان ٢/ ٢٣٧، ٢٣٨، وهو في البخاري في أحاديث الأنبياء ٧/ ٢٣٩، ٢٤٠ بلفظ آخر.

وفي حديث ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: وانتهى بي إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السادسة إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض بها، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها، قال تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦﴾ [النجم: ١٦]، قال: فراش من ذهب[١].

وفي رواية قال: فأعطي رسول الله ﷺ ثلاثًا، أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله شيئًا من أمته المقحمات[٢].

الإسراء كان بالجسم والروح يقظة

الصحيح والحق الذي ذهب إليه معظم السلف والخلق والمحققين أن إسراءه ﷺ كان يقظة بجسده وروحه. وعليه تدل الآية الكريمة ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، وصحيح الأخبار والاعتبار، ولا يعدل عن الظاهر إلى التأويل إلَّا عند الاستحالة، وليس في الإسراء

---

(١) مسلم في الإيمان ٣/ ٢، ٣.

(٢) نفس المرجع السابق.

بيان ما جاء في هذه الأحاديث من المفردات:

قوله: «البراق» هو: دابة كان معدًّا لركوب الأنبياء. قوله: «اخترت الفطرة» أي: الطريقة التي فطر الله عليها خلقه، وهي التوحيد. قوله: «فرحب بي»، أي: قال لي: مرحبًا. قوله: «شطر الحسن»، أي: نصف حسن ما أعطيه بنو آدم، وقد كان في منتهى الجمال. قوله: «غشيها»، أي: غطاها من أنوار الله. قوله: «قد بلوت»، أي: اختبرت، قوله: «بمُسْتَوىً»، أي: مكان مرتفع في فضاء مستوٍ. قوله: «صريف الأقلام»، أي: صوت حركتها وجريانها على المخطوط فيه مما تكتبه الملائكة.

وفي هذه الأحاديث من فضائل نبينا ﷺ وعظيم منزلته ما لا يخفى على من أمعن فيها.

بجسده وحال يقظته استحالة؛ إذ لو كان منامًا لقال: بروح عبده ولم يقل بعبده. وقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النجم: ١٧]، والبصر من الجسم وليس روحًا.

ثم لو كان منامًا لما كانت فيه آية ولا معجزة، ولما استبعده الكفار، ولا كذبوه فيه، ولا ارتد به ضعفاء من أسلم وافتتنوا؛ به إذ مثل هذا من المنامات لا ينكر، بل لم يكن ذلك منهم إلاَّ وقد علموا أن خبره إنما كان عن جسمه وحال يقظته.. إلى ما ذكر في الحديث من ذكر صلاته بالأنبياء ببيت المقدس في رواية أنس، وفي السماء على ما روى غيره، وذكر مجيء جبريل له بالبراق، وخبر المعراج، واستفتاح السماء فيقال: ومن معك؟ فيقول: محمد. ولقائه الأنبياء فيهم وخبرهم معه وترحيبهم به، وشأنه في فرض الصلاة ومراجعته مع موسى في ذلك، وقوله: فأخذ جبريل بيدي فعرج بـي إلى السماء ثم عرج بـي حتى ظهرت بمستوى أسمع فيه صريف الأقلام، وأنه وصل إلى سدرة المنتهى، وأنه دخل الجنة ورأى فيها ما ذكره.

عن أبـي هريرة رضي الله تعالى عنه عنه ﷺ قال: «لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي، فسألتني عن أشياء لم أُثْبِتْها فكُرِبت كَرْبًا ما كُرِبْتُ مثله قط، فرفعه الله لي أنظر إليه»[1].

هل رأى رسول الله ﷺ ربه ليلة الإسراء

اختلف العلماء من الصحابة فمن بعدهم في رؤيته ﷺ، ربه فأنكرته أم المؤمنين مولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها.

---

(١) تقدم تخريجه وأنه بهذا اللفظ عند مسلم في الإيمان. انظر ص ١٧٢.
قوله: «لم أثبتها»، هو بضم الهمزة وسكون الثاء وكسر الباء، أي: لم أتحققها.
وقوله: «فكُربْتُ» بضم الكاف، أي: حصلت لي كربة ودخلني غم. [وهذا عند سؤالهم له عن وصف المسجد الأقصى].

فعن مسروق رحمه الله تعالى أنه قال لعائشة رضي الله تعالى عنها: يا أم المؤمنين هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد قف شعري مما قلت!! ثلاثٌ من حدثك بهن فقد كذب: من حدثك أن محمدًا رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وذكر الحديث[١].

وقال جماعة بقول عائشة رضي الله تعالى عنها، وهو المشهور عن ابن مسعود. وقال بإنكار هذا وامتناعه في الدنيا جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين[٢].

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنه أنه رآه بعينيه[٣]، وهو المشهور عنه.

وقال: إن الله اختص موسى بالكلام وإبراهيم بالخلة ومحمد بالرؤية[٤].

---

(١) أسنده من طريق مسلم وهو عنده في الإيمان ٣/ ٨، ١٠، وأخرجه البخاري في بدء الخلق ٧/ ١٢٥، وفي تفسير سورة النجم ١٠/ ٢٢٩، ٢٣٠.

(٢) لقوله ﷺ: «واعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا». رواه مسلم وغيره.

(٣) في المسند ١/ ٢٨٥، ٢٩٠ عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ربي عز وجل...» وسنده صحيح في طريق له، وفي المسند ١/ ٢٢١، وفي تفسير سورة بني إسرائيل من صحيح البخاري ١٠/ ١٣ عنه في قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [الإسراء: ٦٠]، قال: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به.. وجاء عنه في قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ .. ﴾ ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ [النجم: ١١، و ١٣]، قال: رآه بفؤاده مرتين. رواه مسلم في الإيمان ٣/ ٧.

(٤) رواه ابن خزيمة في التوحيد ص ١٣٠، والحاكم ٢/ ٤٦٩ بإسناد صحيح، ولفظه: أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد؟! وابن خزيمة ممن يرجح الرؤية بعيني الرأس.

وعن معاذ رضي الله تعالى عنه النبي ﷺ قال: «رأيت ربي ــ وذكر كلمة ــ فقال: يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى. . .» الحديث[1].

وبالرؤية قال عكرمة والحسن البصري وكان يحلف على ذلك. وروى ذلك أيضًا عن ابن مسعود وأبي هريرة وهو قول أحمد بن حنبل، فقد قال: أنا أقول بحديث ابن عباس: بعينه رآه رآه.. حتى انقطع نفسه. وروي عنه غير ذلك. وقال أبو الحسن الأشعري رحمه الله تعالى وجماعة من أصحابه: أنه رأى الله تعالى ببصره وعيني رأسه، وقال: كل آية أوتيها نبي من الأنبياء عليهم السلام فقد أوتي مثلها نبينا ﷺ، وخص من بينهم بتفضيل الرؤية[2].

قال القاضي عياض رحمه الله تعالى[3]: ووقف بعض مشايخنا في هذا وقال: ليس لذلك دليل واضح، ولكنه جائز أن يكون.

قال عياض: والحق الذي لا امتراء فيه أن رؤيته تعالى في الدنيا جائزة عقلاً، وليس في العقل ما يحيلها، والدليل على جوازها في الدنيا سؤال موسى عليه السلام لها، ومحال أن يجهل نبي ما يجوز على الله وما لا يجوز عليه، بل لم يسأل إلاَّ جائزًا غير مستحيل، ولكن وقوعه ومشاهدته من الغيب

---

(١) رواه أحمد ٥/ ٢٤٣، والترمذي في تفسير سورة ص رقم ٣٠٢٣، والحاكم ١/ ٥٢١، وصححه البخاري والترمذي وغيرهما، وهو عندهم مطولاً، لكن ذلك كان في المنام فإنه جاء فيه: «فنعست في صلاتي فاستثقلت، فإذا أنا بربي تبارك وتعالى في أحسن صورة...» الحديث. ونحوه عن ابن عباس عند أحمد والترمذي بسند صحيح.

(٢) انظر مذاهب العلماء وأقوالهم في ذلك: عند النووي في شرح مسلم ٣/ ٤، ٥، وفي فتح الباري للحافظ ابن حجر ١٠/ ٢٣٠، ٢٣١.

(٣) وما ذكر هنا نقله عنه النووي في شرح مسلم ٣/ ٤ أيضًا ببعض تغيير.

الـذي لا يعلمـه إلاَّ مَـنْ علمـه الله . . . فقـال لـه الله تعـالـى : ﴿ لَن تَرَىٰنِى ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، أي: لن تطيق ولا تحتمل رؤيتي. ثم ضرب له مثلاً مما هو أقوى من بنية موسى وأثبت وهو الجبل.

وكل هذا ليس فيه ما يحيل رؤيته في الدنيا بل فيه جوازها على الجملة، وليس في الشرع دليل قاطع على استحالتها ولا امتناعها، إذ كل موجود فرؤيته جائزة غير مستحيلة ولا حجة لمن استدل على منعها بقوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، لاختلاف التأويلات في الآية/ وقد قيل فيها: لا تحيط به الأبصار. وهو قول ابن عباس. وكذا قوله تعالى: ﴿ لَن تَرَىٰنِى ﴾ فإن معناه: ليس لبشر أن يطيق أن ينظر إليّ في الدنيا، وأنه من نظر إليّ مات؛ بدليل ما حصل للجبل عند التجلي له.

وقال مالك رحمه الله: لم ير في الدنيا؛ لأنه باق، ولا يرى الباقي بالفاني، فإذا كان في الآخرة ورزقوا أبصارًا باقية رؤى الباقي بالباقي.

وهذا الكلام حسن؛ لكنه لا دليل فيه على الاستحالة إلاَّ من حيث ضعف القوة، فإذا قوى الله تعالى من شاء من عباده وأقْدَرَه على حمل أعباء الرؤية لم تمتنع في حقه.

وبالجملة فليس في العقل ما يمنع من الرؤية في الدنيا، وليس هناك دليل قاطع بمنعها ولا بثبوتها لنبينا ﷺ، فالأولى الإمساك عن ذلك وتفويض أمرها إلى عالم الغيب والشهادة(١).

---

(١) وقد رجَّح القرطبي في المفهم القول بالوقف في هذه المسألة، وعزاه لجماعة من المحققين، وقواه بأنه ليس في الباب دليل قاطع، وغاية ما استدل به للطائفتين ظواهر متعارضة قابلة للتأويل. . . إلخ، نقله في الفتح.

قال الحافظ: وجنح ابن خزيمة في كتاب التوحيد ص ١٢٩ فما بعدها إلى ترجيح الإثبات، وأطنب في الاستدلال له بما يطول ذكره، وحمل ما ورد عن ابن عباس =

المناجاة والدنو الواردان في قصة الإسراء

أما ما ورد في هذه القصة من مناجاته ﷺ وكلامه معه بقوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النجم: ١٠]، إلى ما تضمنته الأحاديث؛ فأكثر المفسرين[١] على أن الموحي هو الله عزَّ وجل إلى جبريل وجبريل إلى الحبيب محمد ﷺ.

وذهب آخرون[٢] إلى أنه ﷺ كلمه الربُّ عز وجل وناجاه بلا واسطة جبريل.

قال القاضي رحمه الله تعالى: وكلام الله تعالى لحبيبنا محمد ﷺ ومن اختصه من أنبيائه: جائز غير ممتنع عقلاً، ولا ورد في الشرع قاطع يمنعه، فإن صح في ذلك خبر اعتمد عليه. وكلامه لموسى عليه السلام كائن حق مقطوع به نص ذلك في الكتاب، وأكده بالمصدر دلالة على الحقيقة، فقال

= على أن الرؤيا وقعت مرتين: مرة بعينه ومرة بقلبه... إلخ.

وكذا رجح القول بالرؤية النووي رحمه الله تعالى في شرح مسلم ٣/ ٥، ونسبه لأكثر العلماء، فقال بعد ذكر أقوال أهل العلم: فالحاصل أن الراجح عند أكثر العلماء أن رسول الله ﷺ رأى ربه بعيني رأسه ليلة الإسراء؛ لحديث ابن عباس وغيره مما تقدم، وإثبات هذا لا يأخذونه إلاَّ بالسماع من رسول الله ﷺ، هذا مما لا ينبغي أن يتشكك فيه... إلخ.

(١) وهو الذي استصوبه شيخ المفسرين ابن جرير ٢٦/ ٤٧، وصححه ابن كثير ٦/ ٤٤٧.

(٢) نقل هذا عن سعيد بن جبير وغيره، وعلى كلا التفسيرين لا ينافي مناجاته ﷺ ومكالمته لربه في هذه الليلة، بل حديث أنس وغيره ظاهر في ذلك، حيث إنه جعل يتردد بين موسى وبين ربه ويطلب التخفيف على أمته من شأن الصلاة كما تقدم، حتى خاطبه بقوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾، وقال له: يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة... إلخ.

تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام: ١٦٤]، ورفع مكانه ـ على ما ورد في الحديث ـ في السماء السادسة بسبب كلامه، ورفع حبيبنا محمدًا ﷺ فوق هذا كله حتى بلغ مستوىً وسمع صريف الأقلام، فكيف يستحيل في حقه هذا أو يبعد سماع الكلام؟! فسبحان من خص من شاء بما شاء، وجعل بعضهم فوق بعض درجات.

وأما ما ورد في ظاهر الآية من الدنو والقرب من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ [النجم: ٨، ٩]، فأكثر المفسرين[١] أن الدنو والتدلي منقسم ما بين محمد وجبريل عليهما السلام، أو مختص بأحدهما من الآخر أو من سدرة المنتهى.

قال الرازي[٢]: وقال ابن عباس: هو محمد، دنا فتدلى من ربه. وقيل: معنى دنا: قرب وتدلى: زاد في القرب. وقيل غير ذلك.

قال القاضي رحمه الله تعالى: اعلم أن ما وقع من إضافة الدنو والقرب هنا من الله أو إلى الله فليس بدنو مكان ولا قرب غاية، بل دنوه ﷺ من ربه وقربه منه على القول الثاني: إبانة عظيم منزلته وتشريف رتبته وإشراق أنوار معرفته ومشاهدة أسرار غيبه وقدرته، ومن الله تعالى له مبرة وتأنيس وبسط وإكرام. ويتأول فيه ما يتأول في قوله: «ينزل ربنا إلى سماء

---

(١) بهذا القول صَدَّرَ ابن جرير جازمًا به ونسبه لأهل التأويل، وأسنده عن الحسن وقتادة والربيع ٢٦/ ٤٤ وهو قول الجمهور من أهل التفسير.

(٢) لم أرَ هذا النقل عند الرازي في تفسيره لهذه الآية، وقد أخرجه عن ابن عباس ابن جرير ٢٦/ ٤٥، وجاء في حديث أنس في قصة الإسراء من طريق شريك بن أبي نمر... «ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى فأوحى الله إليه ما شاء...» الحديث. لكن العلماء تكلموا في هذه الرواية رغم أنها في الصحيح.

الدنيا»[1] على أحد الوجوه نزول إفضال وإجمال وقبول وإحسان. . .

وهكذا يقال في قوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝﴾ [النجم: ٩]، على من جعل الضمير عائدًا إلى الله لا إلى جبريل، فهو كحديث: «من تقرب مني شبرًا تقربت منه ذراعًا. . .» الحديث[2]، فذهب السلف حمله على ظاهره مع التفويض. ومذهب الخلف تأويله بما يليق من التنزيه لله عزَّ وجلّ.

تفضيله ﷺ في القيامة بخصوص الكرامة

عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول الناس خروجًا إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا أيسوا، لواء الحمد بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر»[3].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «أنا أول من

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة، وله ألفاظ.

(٢) أخرجه أيضًا البخاري في التوحيد، ومسلم في الذكر ١٧/ ١١ من حديث أبي هريرة، وأوله عنه ﷺ، قال الله عز وجل: «إذا تقرب عبدي. . .» إلخ.
وهذا وأمثاله مما يجب الإيمان به وأن لا يفسر ولا يؤول مع تنزيه الله تعالى عما لا يليق به ونفي التشبيه عنه بخلقه.

خاتمة

في قصة الإسراء والمعراج من الآيات والخصائص النبوية والفوائد والعبر الشيء الكثير، فيا ليته لو وُجِدَ من أهل العلم والتحقيق من يتتبع أخباره في السنة المطهرة الصحيحة باستيعاب ويشرحها ويستخرج ما فيها من كنوز وحكم وأسرار ويخرجها للمسلمين عسَلاً مصفى، مع العلم بأن هناك من ألف في الموضوع من الأقدمين والمعاصرين، لكنهم لم يستوعبوا ولم يأتوا بكل ما في القصة كاملاً، وبالله المستعان وعليه التكلان.

(٣) تقدم أن الترمذي أخرجه وأنه حسن لغيره. انظر: ص ١٦٣.

تنشق عنه الأرض فأكسى الحلة من حلل الجنة، ثم أقوم عن يمين العرش، ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري»[1].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذٍ آدم فمن سواه إلاَّ تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عنه صلَّى الله تعالى قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع»[3].

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عنه ﷺ قال: «أنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر، وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح لي فأدخلها فيدخلها معي فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر»[4].

وعن أنس رضي الله تعالى عنه عنه ﷺ قال: «أنا أول الناس يشفع في الجنة وأنا أكثر الناس تبعًا»[5].

وعنه قال: قال النبي ﷺ: «أنا سيد الناس يوم القيامة، وتدرون لم

---

(١) رواه الترمذي في المناقب ٣٣٧٩ بتهذيبي، وحسنه وصححه.

(٢) رواه الترمذي ٣٣٨٩، وأحمد ٤/ ٢، وابن ماجه في الزهد ٤٣٠٨ وسنده حسن، وقد تقدم ص ١٦٣.

(٣) رواه مسلم في الفضائل ١٥/ ٣٧.

(٤) رواه الترمذي في المناقب ٣٣٩١، والدارمي ٤٨، وروى بعضه أحمد ١/ ٢٨١، ٢٨٢ في حديث الشفاعة، وهو حسن لغيره.

(٥) رواه مسلم في الإيمان ٣/ ٧٣.

ذلك؟ يجمع الله الأولين والآخرين». وذكر حديث الشفاعة[1].

فقوله ﷺ: أنا سيد الناس يوم القيامة، هو سيدهم في الدنيا ويوم القيامة، ولكن أشار ﷺ لانفراده فيه بالسؤدد والشفاعة دون غيره؛ إذ لجأ الناس إليه في ذلك فلم يجدوا سواه، والسيد هو الذي يلجأ الناس إليه في حوائجهم فكان حينئذٍ سيدًا منفردًا من بين البشر لم يزاحمه أحد في ذلك ولا ادعاه كما قال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝١٦﴾ [غافر: ١٦]، والملك له تعالى في الدنيا والآخرة، لكن في الآخرة انقطعت دعوى المدعين لذلك في الدنيا. وكذلك لجأ إلى رسولنا محمد ﷺ جميع الناس في الشفاعة فكان سيدهم في الأخرى من دون دعوى[2].

وعن أنس رضي الله تعالى عنه: قال رسول الله ﷺ: «آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد. فيقول: بك

---

(١) هذا حديث أبي هريرة وهو عند البخاري في تفسير سورة بني إسرائيل وغيره، ومسلم في الإيمان ٣/ ٦٥ فما بعدها، أما حديث أنس فرواه مسلم في الإيمان ٣/ ٥٣، ٥٩، ٦٢.

(٢) في هذه الأحاديث المذكورة في هذا الفصل من فضائل نبينا وخصائصه ﷺ ما لا يخفى، ففيها أنه أول من يقوم من قبره عند البعث، وأنه خطيب الخلائق في ذلك اليوم، وأنه الذي يأتيهم بالبشارة من عند الله إذا حصل لهم يأس من الفرج، وأن لواء الحمد والكرامة بيده يومه، وأنه أكرم بني آدم على الله، وأنه سيقوم عن يمين العرش في مقام لا يقوم فيه غيره، وأن كل الأنبياء سيكونون تحت لوائه، وأنه أول شافع وأول مُشفَّع، وأول من يدخل الجنة ويشفع فيها، وأنه أكثر الناس تبعًا، وأنه سيقوم المقام المحمود الذي يحمده فيه الأولون والآخرون... كل ذلك حدث به عن نفسه تحدثًا بنعمة الله تعالى لا تفاخرًا منه ولا إعجابًا ولا احتقارًا لغيره من إخوانه الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك»[1].

حوض نبينا ﷺ

عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «حوضي مسيرة شهر، وزواياه سواء، وماؤه أبيض من الورق، وريحه أطيب من المسك، كيزانه كنجوم السماء، من شرب منه لم يظمأ أبدًا»[2].

وعن أبي ذر نحوه وقال: «طوله ما بين عمان إلى أيلة يشخب فيه ميزابان من الجنة»[3].

وعن ثوبان مثله، وقال: «أحدهما من ذهب والآخر من ورق»[4].

وعن حارثة بن وهب: «كما بين المدينة وصنعاء»[5].

---

(١) رواه أحمد ٣/ ١٣٦، ومسلم في الإيمان ٣/ ٧٣: فيه أنه ﷺ أول من يدخل الجنة إطلاقًا وهذه مزية وخصيصة عظيمة.

(٢) رواه البخاري في الرقاق ١٤/ ٢٦٦، ٢٦٩، ومسلم في الفضائل ١٥/ ٥٥، وابن حبان ٦٤٥٣ بالإحسان وغيرهم.

وقوله: «وزواياه...» إلخ، معناه: أن طوله وعرضه سواء، و«الورق»، بكسر الراء: الفضة. وفي رواية: «أبيض من الثلج». «كيزانه»: في رواية: «أباريق». وفي أخرى: «آنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها». «لم يظمأ»، أي: لم يعطش بعد.

(٣) رواه مسلم ١٥/ ٦١، ٦٢.

«عمان»، بضم العين وتخفيف الميم: إمارة معروفة، وقد أخطأ من ضبطه بفتح العين وتشديد الميم، وهي عاصمة الأردن. وأيلة: مدينة بفلسطين على البحر. «يشخب» بفتح الياء والخاء، أي: يصب فيه.

(٤) رواه مسلم ١٥/ ٦٢، وابن حبان ٦٤٥٥، وابن أبي شيبة ١١/ ٤٤٣، و ١٣/ ١٤٦.

(٥) رواه البخاري في الرقاق ١٤/ ٢٧٤، ومسلم ١٥/ ٦٠. صنعاء: هي عاصمة اليمن، مدينة مشهورة تاريخية.

وقال أنس: «أيلة وصنعاء»[١].

وقال ابن عمر: «كما بين الكوفة والحجر الأسود»[٢].

وأحاديث الحوض رواها غير ما تقدم ابن مسعود، وسهل بن سعد، وأبو سعيد الخدري، وحذيفة، وجابر بن سمرة، وعقبة وغيرهم رضي الله تعالى عنهم[٣].

---

(١) رواه البخاري ١٤/ ٢٧٠، ومسلم ١٥/ ٦٤، وابن حبان ٦٤٥٩.

(٢) الذي في البخاري ١٤/٢٦٦، ومسلم ١٥/ ٦١: أمامكم حوض كما بين جرباء وأذرح ـ وهما قريتان بالشام بينها ثلاث ليال ـ وقد ذكر غير واحد أنه وقع في هذه الرواية حذفا من بعض الرواة، وقالوا: إن الصواب عرضه مثل ما بينكم وبين جرباء وأذرح. أفاده الحافظ في الفتح. أما رواية المصنف فلم أرها.

(٣) كلها عند البخاري في الرقاق، ومسلم في الفضائل، غير حديثي عائشة وجابر بن سمرة فتفرد بهما مسلم، وفي الباب عن جماعة آخرين لم نذكرهم اختصارًا، فهي متواترة.

خلاصة أحاديث الحوض

الحوض هو غير الكوثر، فالأول هو الذي جاءت فيه تلك الأحاديث الكثيرة الوارد فيها أن أقوامًا سيطردون عنه، وهم الذين ارتدوا بعده من أهل القبائل العربية، كما هو معروف، وهذا الحوض غير مختص بنبينا ﷺ، بل جاء في سنن الترمذي وغيره: «لكل نبي حوض».

وجملة ما جاء في الأحاديث أن حوض نبينا ﷺ مسيرته مقدار شهر أو نحو ذلك، وأن طوله وعرضه سواء، وأن ماءه أبيض من الورق أو الثلج، وأطيب من المسك، وأحلى من العسل. كيزانه وأوانيه أكثر من عدد النجوم، وأنه يمد من الجنة بميزابان. ومن شرب منه لا يظمأ بعده أبدًا. والصحيح أنه قبل الصراط.

أما الكوثر فهو نهر في الجنة، وهو المختص بنبينا ﷺ، وفيه جاءت السورة الكريمة يمتن فيها تعالى عليه ﷺ، فعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسمًا، فقلنا: =

تفضيله ﷺ بالمحبة والخلة

جاءت بهذا الآثار الصحيحة، واختص على ألسنة المسلمين بحبيب الله.

فعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لو كنت متخذًا خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر».

وفي حديث آخر: «وإن صاحبكم خليل الله».

= ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «أنزلت عليَّ آنفًا سورة، فقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ [الكوثر: ١ ـ ٣]، قال: أتدرون ما الكوثر؟ فقلنا: الله ورسوله أعلم، فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل عليه خير كثير، وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد النجوم». الحديث رواه أحمد ٣/ ١٠٢، ١٦٤، ٢٣٦، ومسلم ٤/ ١١٢، وأبو داود ٧٨٤ كلاهما في الصلاة، والنسائي في التفسير ٦/ ٥٢٣، وفي رواية لأحمد والترمذي في التفسير ٣١٤١: عنه ﷺ: «رأيت نهرًا في الجنة حافتاه قباب اللؤلؤ، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك الله عز وجل». وأصله في صحيح البخاري في التفسير ١٠/ ٣٦٢، والترمذي ٣١٤١ في حديث الإسراء. وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها سئلت عن قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾ [الكوثر: ١]، قالت: هو نهر أعطيه نبيكم ﷺ، شاطئاه عليه درٌّ مجوف آنيته كعدد النجوم. رواه البخاري ١٠/ ٣٦٢، والنسائي ٦/ ٥٢٣ كلاهما في التفسير.

وقد اتفق أهل السنة على وجوب الإيمان بكل من الحوض والكوثر، لا أحرمنا الله وأحبتنا ومشائخنا وجميع المؤمنين من الشرب منهما آمين.

ملحوظة: جاء في حديث أنس المذكور في الكوثر طرد المرتدين عن الحوض... إلخ. ولا شك أن ذلك إدراج حديث في حديث، فإن الطرد سيكون عن الحوض خارج الجنة قبل الصراط ولا معنى لطردهم من الكوثر داخل الجنة، والله أعلم.

وعن ابن مسعود: «وقد اتخذ الله صاحبكم خليلاً»[١].

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: جلس ناس من أصحاب النبي ﷺ ينتظرونه، قال: فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون، فسمع حديثهم، فقال بعضهم: عجبًا إن الله اتخذ إبراهيم من خلقه خليلاً. وقال آخر: ما هذا بأعجب من كلام موسى؛ كلمه الله تكليمًا. وقال آخر: فعيسى كلمة الله وروحه. وقال آخر: آدم اصطفاه الله. فخرج عليهم فسلم وقال: «قد سمعت كلامكم وعجبكم؛ إن الله اتخذ إبراهيم خليلاً وهو كذلك، وموسى نجي الله وهو كذلك، وعيسى روح الله وهو كذلك، وآدم اصطفاه الله وهو كذلك، ألا وأنا حبيب الله ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر»[٢].

قال القاضي رحمه الله تعالى: اختلف في تفسير الخلة وأصلها. فقيل: الخليل المنقطع إلى الله الذي ليس في انقطاعه إليه ومحبته له اختلال. وقيل: الخليل: المختص. واختار هذا غير واحد. وقال بعضهم: أصل الخلة

---

(١) حديث أبي سعيد رواه أحمد ٣/ ١٨، والبخاري في الصلاة، وفي الفضائل ٨/ ١٢، ١٣، ١٤، ومسلم كذلك ١٥/ ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، والترمذي في المناقب ٣٤٣٣ وابن حبان ٦٥٩٤ وغيرهم مطولاً في خطبة له ﷺ آخر حياته.
والحديث الآخر رواه أحمد ٣/ ٤٧٨، والترمذي في المناقب ٣٤٣٢ عن أبي المعلى مطولاً أيضًا.
أما حديث ابن مسعود فأخرجه أحمد ١/ ٣٧٧، ٣٨٩، ٤٠٩، ٤٣٣، ومسلم في الفضائل ١٥/ ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، وابن ماجه في المقدمة ٩٣ وغيرهم. ويلاحظ أن أحاديث الخلة متواترة.

(٢) رواه الترمذي ٣٣٩١، والدارمي ٤٨ وهو وإن كان في سنده زمعة بن صالح، وفيه ضعف، فقد روى له مسلم مقرونًا بغيره، والحديث معناه صحيح يشهد له القرآن، وأواخره تقدم أنه حسن.

الاستصفاء، وسمي إبراهيم خليل الله؛ لأنه يوالي فيه ويعادي فيه. وخلة الله له نصره وجعله إمامًا لمن بعده. وقيل: الخليل أصله الفقير المحتاج المنقطع، مأخوذ من الخلة، وهي الحاجة، فسمي بها إبراهيم لأنه قصر حاجته على ربه، وانقطع إليه بهمه، ولم يجعله قِبَل غيره، إذ جاءه جبريل وهو في المنجنيق ليرمى به في النار فقال: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا.

وقال أبو بكر بن فورك: الخلة: صفاء المودة التي توجب الاختصاص بتخلل الأسرار. وقال بعضهم: أصل الخلة المحبة، ومعناها: الإسعاف والإلطاف والترفيع والتشفيع. وقد بين ذلك في كتابه تعالى بقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨]، فأوجب للمحبوب أن لا يؤاخذ بذنوبه. قال: هذا، والخلة أقوى من البنوّة، لأن البنوّة قد تكون فيها العداوة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

ولا يصح أن تكون عداوة مع خلة، فإذًا تسمية إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام بالخلة إما لانقطاعهما إلى الله ووقف حوائجهما عليه والانقطاع عمن دونه والإضراب عن الوسائط والأسباب، أو لزيادة الاختصاص منه تعالى لهما وخفي إلطافه عندهما، وما خالل بواطنهما من أسرار إلـٰهية ومكنون غيوبه ومعرفته، أو لاستصفائه لهما واستصفاء قلوبهما عمن سواه حتى لم يخاللهما حب لغيره؛ ولهذا قال بعضهم: الخليل من لا يتسع قلبه لسواه. وهو عندهم معنى قوله ﷺ: «ولو كنت متخذًا خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، لكن أخوة الإسلام»[١].

(١) تقدم ص ١٨٥، ١٨٦.

واختلف العلماء أرباب القلوب: أيهما أرفع درجة الخلة أو درجة المحبة؟ فجعلهما بعضهم سواء، فلا يكون الحبيب إلاَّ خليلاً، ولا الخليل إلاَّ حبيبًا، لكنه خص إبراهيم بالخلة ومحمدًا بالمحبة. وبعضهم قال: درجة الخلة أرفع، واحتج بقوله ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلاً غير ربي عز وجل...»[1] فلم يتخذه. وقد أطلق المحبة لبنته فاطمة وابنيها وأسامة[2] وغيرهم رضي الله تعالى عنهم. وأكثرهم جعل المحبة أرفع من الخلة؛ لأن درجة الحبيب نبينا أرفع من درجة الخليل إبراهيم عليهما الصلاة والسلام.

وأصل المحبة: الميل إلى ما يوافق المحب، ولكن هذا في حق من يصح الميل منه والانتفاع بالوفق، وهي درجة مخلوق، فأما الخالق فمنزه عن الأغراض؛ فمحبته لعبده تمكينه من سعادته وعصمته وتوفيقه وتهيئة أسباب القرب وإفاضة رحمته عليه، وقصواها كشف الحجب عن قلبه حتى يراه بقلبه وينظر إليه ببصيرته فيكون كما قال في الحديث: «فإذا أحببته كنت سمعه

---

(١) تقدم ص ١٨٥.

(٢) أما محبة فاطمة رضي الله تعالى عنها، فعن بريدة رضي الله تعالى عنه قال: كان أحب النساء إلى رسول الله ﷺ فاطمة. رواه الترمذي ٣٦٣٦، والحاكم ٣/ ٥٥، وصححه ووافقه الذهبي. وأما الحسنان رضي الله تعالى عنهما، فعن البراء رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ أبصر حسنًا وحسينًا فقال: «اللَّهمَّ إني أحبهما فأحبهما»، رواه الترمذي ٣٥٥٤ وحسنه وصححه وجاء عنه أنه قال في الحسن: «اللَّهم إني أحبه فأحبه»، رواه البخاري ٨/ ٩٦، ومسلم ١٥/ ١٩٣، ١٩٤، والترمذي ٣٥٥٦، كلهم في المناقب، وفضائل الصحابة. وأما أسامة رضي الله تعالى عنه، فعنه أن النبي ﷺ كان يأخذه والحسن فيقول: «اللَّهم أحبهما فإني أحبهما». رواه البخاري في الفضائل ٨/ ٨٩، ٩٠، ٩٦، وفي الأدب ١٣/ ٤٠، ٤١، والنسائي في الكبرى ٨١٧١ وغيرهما.

الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به»[1]، ولا ينبغي أن يفهم من هذا سوى التجرد لله والانقطاع إلى الله والإعراض عن غير الله وصفاء القلب لله وإخلاص الحركات لله، كما قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: كان خلقه القرآن[2].

فإذًا مزية الخلة وخصوصية المحبة حاصلة لنبينا محمد ﷺ بما دلت عليه الآثار الصحيحة المنتشرة المتلقاة بالقبول من الأمة، وكفى بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ...﴾ الآية [آل عمران: ٣١]. حكى أهل التفسير أن هذه الآية لما نزلت قال الكفار: إنما يريد محمد أن نتخذه حنانًا كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم. فأنزل الله رغمًا على مقالتهم وغيظًا لهم هذه الآية: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣٢]. فزاده الله شرفًا بأمرهم بطاعته، وقرنها بطاعته، ثم توعدهم على التولي عنه بقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران: ٣٢].

ولنستمع إلى الفوارق التي فرق الله بها بين خليله إبراهيم وبين حبيبه محمد عليهما الصلاة والسلام. فذكر في الخليل أنه قال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: ٨٢].

وقال في الحبيب: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

والخليل قال: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الشعراء: ٨٧].

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق في باب التواضع ١٤/ ١٢٥، ١٣١، مطولاً من حديث أبي هريرة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: هو أصح حديث في الأولياء.. وهو من أفراد البخاري عن باقي الجماعة، وما قاله الذهبي فيه مدفوع بما ذكره الحافظ في الفتح ١٤/ ١٢٦.

(٢) تقدم ص ٦٤.

والحبيب قيل له: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ﴾ [التحريم: ٨]. فابتدىء بالبشارة قبل السؤال.

والخليل قال في المحنة: ﴿حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ١٢٩].

والحبيب قيل له: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٤].

والخليل قال: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء: ٨٤].

والحبيب قيل له: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ [الشرح: ٤]. أعطي بلا سؤال.

والخليل قال: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥].

والحبيب قيل له: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣]. والله أعلم.

تفضيله ﷺ بالشفاعة والمقام المحمود

قال الله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء: ٧٩].

وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثًا كل أمة تتبع نبيها يقولون: يا فلان اشفع لنا، يا فلان اشفع لنا. حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود(١).

وفي رواية عنه في حديث الشفاعة قال: فيمشي حتى يأخذ بحلقة الجنة فيومئذٍ يبعثه الله المقام المحمود الذي وعد(٢).

---

(١) أسنده من طريق البخاري، وهو عنده في التفسير ١٠/ [illegible]، والنسائي ٦/ ٣٨١ في الكبرى. وقوله: «جثي» بالضم ثم فتح الثاء، أي: جماعات فزعة جاثية.

(٢) أخرجه البخاري أيضًا في الزكاة ٤/ ٨١، ٨٢.

وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «خُيِّرْتُ بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة لأنها أعم، أترونها للمتقين؟ ولكنها للمذنبين الخطائين»[1].

وعن أم حبيبة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أُرِيت ما تلقى أمتي من بعدي، وسفك بعضهم دماء بعض، وسبق لهم من الله ما سبق للأمم قبلهم، فسألت الله أن يؤتيني شفاعة يوم القيامة فيهم ففعل»[2].

وقال حذيفة رضي الله تعالى عنه: يجمع الله الناس في صعيد واحد حيث يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، حفاة عراة كما خلقوا، سكوتًا لا تكلم نفس إلاَّ بإذنه، فينادَى محمد فيقول: «لبيك وسعديك والخير في يديك والشر ليس إليك، والمهتدي من هديت، وعبدك بين يديك ولك وإليك، لا ملجا ولا منجا منك إلاَّ إليك، تباركت وتعاليت، سبحانك رب البيت»، قال: فذلك المقام المحمود الذي ذكر الله[3].

وقال جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما ليزيد الفقير: سمعت بمقام محمد يعني الذي يبعثه الله فيه؟ قال: قلت: نعم، قال: فإنه مقام محمد المحمود الذي يخرج الله به من يخرج يعني من النار، وذكر حديث الشفاعة في إخراج الجهنميين، وعن أنس نحوه[4].

---

(١) رواه أحمد ٤/٤١٤، ٤١٥، وابن ماجه ٤٣١١ بسند صحيح. وله شاهد عن عوف بن مالك رواه الترمذي في الزهد ٢٢٥٨، وابن ماجه ٤٣١٧ بسند صحيح.

(٢) رواه أحمد ٦/٤٢٧، ٤٢٨، والحاكم ١/٦٨ بسند صحيح.
وفيه: أن تقاتل المسلمين لا يخرجهم من الإيمان، وهذا ما عليه أهل السنة، وأن أهل الكبائر لا يخلدون في النار.

(٣) رواه النسائي في الكبرى ٦/٣٨١، وابن جرير ١٥/١٤٤، ١٤٥ من طريقين، وكلاهما سنده صحيح.

(٤) رواه مسلم في الإيمان ٣/٥١.

وعلى أن المقام المحمود مقامه عليه الصلاة والسلام للشفاعة مذاهب السلف من الصحابة والتابعين وعامة أئمة المسلمين، وبذلك جاءت مفسرة في صحيح الأخبار عنه عليه الصلاة والسلام.

حديث الشفاعة في الموقف

عن أنس وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما وغيرهما ــ دخل حديث بعضهم في حديث بعض ــ قال ﷺ: «يجمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة فيهتمون، أو قال فيلهمون فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا» وفي رواية: «ماج الناس بعضهم في بعض».

وفي أخرى: «وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم ما لا يطيقون، ولا يحتملون، فيقولون: ألا تنظرون من يشفع لكم؟ فيأتون آدم فيقولون: أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسكنك جَنَّته وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء، اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، ونهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح.

فيأتون نوحًا فيقولون: أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبدًا شكورًا، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا إلى ربك؟ فيقول: إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعد مثله، نفسي نفسي ــ ويذكر خطيئته التي أصاب: سؤال ربه بغير علم ــ وفي رواية: وقد كانت لي دعوة دعوتها على قومي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم فإنه خليل الله.

فيأتون إبراهيم فيقولون: أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع

لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا ــ فذكر مثله، ويذكر كلمات كذبهن ــ نفسي نفسي، لست لها ولكن عليكم بموسى، فإنه كليم الله، وفي رواية: فإنه عبد آتاه الله التوراة وكلمه وقربه نجيًا.

قال: فيأتون موسى فيقول: لست لها ــ ويذكر خطيئته التي أصاب وقتله النفس ــ نفسي نفسي، ولكن عليكم بعيسى فإنه روح الله وكلمته.

فيأتون عيسى فيقول: لست لها، ولكن عليكم بمحمد صلَّى الله تعالى عليه وعليهم جميعًا وسلَّم، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

فأوتىٰ فأقول: أنا لها. فأنطلق فأستأذن على ربي، فيؤذن لي، فإذا رأيته وقعت ساجدًا.

وفي رواية: فآتي تحت العرش فأخرُّ ساجدًا.

وفي رواية: فأقوم بين يديه فأحمده بمحامد لا أقدر عليها إلاَّ أنه يُلْهِمُنِيها الله.

وفي رواية: فيفتح الله عليَّ من محامده وحسن الثنا، عليه شيئًا لم يفتح على أحد قبلي.

وفي رواية: فيقال: يا محمد ارفع رأسك سل تعطه، واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: يا رب، أمتي. يا رب أمتي، فيقول: أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب.

وفي رواية: فأقول: يا رب أمتي أمتي. فيقال: انطلق، فمن كان في قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من إيمان فأخرجه. فأنطلق فأفعل، ثم أرجع إلى ربي فأحمده بتلك المحامد. وذكر مثل الأول وقال فيه: مثقال حبة من

خردل. قال: فأفعل، ثم أرجع... وذكر مثل ما تقدم، وقال فيه: من كان في قلبه أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل. فأفعل. وذكر في المرة الرابعة فيقال لي: ارفع رأسك وقل يسمع لك، واشفع تشفع، وسل تعطه. فأقول: يا رب ائذن لي فيمن قال: لا إله إلاَّ الله. قال: ليس ذلك إليك، ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي لأخرجن من النار من قال لا إله إلاَّ الله.

وفي رواية: فأقول: يا رب، ما بقي في النار إلاَّ من حبسه القرآن أي من وجب عليه الخلود.

وفي رواية حذيفة: فيأتون محمدًا ﷺ فيشفع، فيضرب الصراط، فيمرون: أولهم كالبرق، ثم كالريح، والطير، وشد الرجال. ونبيكم ﷺ على الصراط يقول: اللهم سلِّم سلِّم. حتى يجتاز الناس. وذكر آخرهم جوازًا.

وفي رواية: فأكون أول من يجيز»[1].

فقد اجتمع من اختلاف ألفاظ هذه الآثار أن شفاعته ﷺ ومقامه المحمود من أول الشفاعات إلى آخرها من حيث يجتمع الناس للحشر وتضيق بهم الحناجر ويبلغ منهم العرق والشمس والوقوف مبلغه وذلك قبل الحساب، فيشفع حينئذٍ لإراحة الناس من الموقف، ثم يوضع الصراط ويحاسب الناس كما جاء في الحديث عن أبي هريرة وحذيفة، وهذا الحديث أتقن فيشفع في تعجيل من لا حساب عليه من أمته إلى الجنة، ثم

(١) حديث أنس وأبي هريرة كلاهما عند البخاري ١٤/ ٢٢٤، ٢٣٤، ٢٤١، ٢٥٩ في الرقاق وغيره، ومسلم في الإيمان ٣/ ٢٣، ٦٤، ورواه أحمد ٢/ ٤٣٥، ٤٣٦، والبخاري في التفسير، ومسلم في الإيمان ٣/ ٦٥، ٧١، والترمذي في القيامة وفي الزهد ٢٢٥ وحديث حذيفة عند مسلم ٣/ ٧٠.

يشفع فيمن وجب عليه العذاب ودخل النار منهم، حسبما تقتضيه الأحاديث الصحيحة ثم فيمن قال: لا إلـه إلاَّ الله. وليس هذا لسواه ﷺ.

وفي الحديث المنتشر الصحيح: «لكل نبـي دعوة يدعو بها، واختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة»[1].

قال أهل العلم معناه: دعوة أُعْلِمَ أنها تستجاب لهم ويبلغ فيها مرغوبهم. وإلاَّ فكم لكل نبـي منهم من دعوة مستجابة، ولنبينا ﷺ منها ما لا يعد، لكن حالهم عند الدعاء بها بين الرجاء والخوف، وضمنت لهم إجابة دعوة فيما شاءوه ويدعون بها على يقين من الإجابة.

فتكون هذه الدعوة هنا مخصوصة بالأمة مضمونة الإجابة، وإلاَّ فقد أخبر ﷺ أنه سأل لأمته أشياء من أمور الدين والدنيا أعطي بعضها، ومنع

---

(1) ورد هذا عن جماعة من الصحابة عن أبـي هريرة، رواه أحمد ٢/ ٢٧٥، ٣١٣، ٣٨١، ٣٩٦، ٤٢٦، والبخاري في الدعوات ١٣/ ٣٤٠ وفي التوحيد، ومسلم في الإيمان ٣/ ٧٣، ٧٥ وغيرهم، وعن أنس رواه البخاري في الدعوات ١٣/ ٣٤١، ومسلم في الإيمان ٣/ ٧٥.
وعن جابر رواه أحمد ٣/ ٣٨٤، ومسلم في الإيمان ٣/ ٧٧ وغيرهما. وعن أبـي ذر، رواه أحمد ٥/١٤٨، وابن حبان ٦٤٦٢ بالإحسان وسنده صحيح في جماعة آخرين.
فائدة: ينبغي أن يعرف أن أحاديث شفاعة نبينا ﷺ تنقسم إلى قسمين: شفاعته العظمى لإراحة الناس من هول الموقف، وهذه متفق عليها لا ينكرها حتى المعتزلة، وهي من خصائصه ﷺ أما الثانية فهي شفاعته لإخراج العصاة من النار وهذه قد أنكرها المعتزلة وغيرهم رغم أن أحاديثها متواترة كالأولى، وهي غير مختصة به ﷺ، بل هي عامة، فسيشفع الأنبياء والملائكة والمؤمنون.. ثم إن النبـي ﷺ له شفاعات أوصلها بعضهم إلى خمس عشرة شفاعة. وقد أوضحت ذلك بأدلته في كتاب الشفاعة هيأ الله لي إخراجه.

بعضها وادخر لهم هذه الدعوة ليوم الفاقة وخاتمة المحن وعظيم السؤال والرغبة، جزاه الله أحسن ما جزى نبيًا عن أمته ﷺ وبارك عليه وعلى آله وصحبه كثيرًا دائمًا.

تفضيله ﷺ في الجنة بالوسيلة، والدرجة الرفيعة والكوثر والفضيلة

عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي، فإنه من صلَّى علي مرة صلَّى الله عليه عشرًا، ثم سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلاَّ لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة»[1].

وفي حديث لأبي هريرة: الوسيلة أعلا درجة في الجنة[2].

وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا أسير في الجنة إذ عرض لي نهر حافتاه قباب اللؤلؤ، قلت لجبريل: ما هذا؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك الله. قال: ثم ضرب بيده إلى طينته فاستخرج مسكًا»[3].

وعن عائشة وعبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهم مثله، قال: «ومجراه على الدر والياقوت، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج».

وفي رواية عنه: «فإذا هو يجري، ولم يشق شقًا، عليه حوض ترد عليه أمتي...» وذكر حديث الحوض[4].

---

(١) رواه أحمد ٢/ ١٦٨، ومسلم ٤/ ٨٥، وأبو داود ٥٢٣، والترمذي ٣٣٩٠.

(٢) رواه الترمذي في المناقب ٣٣٨٦ وهو وإن كان سنده ضعيفًا فإنه يحسن بما سبق.

(٣) رواه البخاري ١٠/ ٣٦٢، والترمذي ٣١٤١، كلاهما في التفسير، وقد تقدم.

(٤) تقدم ص ١٨٣ وما بعدها أيضًا أنه رواه البخاري وغيره. وحديث ابن عمر رواه أحمد رقم ٥٣٥٥، ٥٩١٣، ٦٤٧٦، والترمذي ٣١٤٢ بسند صحيح.

وعن ابن عباس قال: الكوثر: الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه.

وقال سعيد بن جبير والنهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله[1].

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝﴾ [الضحى: ٥]، قال: ألف قصر من لؤلؤ ترابهن المسك وفيه ما يصلحهن. وفي رواية: وفيه ما ينبغي له من الأزواج والخدم[2].

الجواب عن أحاديث التفضيل

فإن قيل: إذا تقرر من دليل القرآن وصحيح الأثر وإجماع الأمة كونه ﷺ أكرم البشر، وأفضل الأنبياء، فما معنى الأحاديث الواردة بنهيه عن التفضيل؟ كقوله ﷺ فيما رواه ابن عباس عنه: «ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى»[3].

وفي حديث أبي هريرة في اليهودي الذي قال: والذي اصطفى موسى على البشر. فلطمه رجل من الأنصار وقال: تقول ذلك ورسول الله ﷺ بين أظهرنا! فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: لا تفضلوا بين الأنبياء». وفي رواية: «لا تخيروني على موسى...» وفيه: «ولا أقول: إن أحدًا أفضل من يونس بن متى»، وفي رواية: «من قال: أنا خير من يونس بن متى فقد كذب»[4].

---

(١) رواه البخاري في التفسير ١٠/ ٣٦٣، والنسائي في الكبرى ٦/ ٥٢٣، وقد قدمنا قريبًا الإشارة إلى الفرق بين الكوثر والحوض فارجع إليه.

(٢) رواه ابن جرير ٣٠/ ٢٣٢ من طريقين هو بهما حسن صحيح، ولذلك صححه السيوطي. وقوله: ترابهن... ما يصلحهن، أي: القصور.

(٣) تقدم تخريجها في بحث تواضعه ﷺ ص ١٤٠.

(٤) نفس التعليق السابق.

وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ: «لا يقولن أحدكم أنا خير من يونس بن متى»[1].

وفي حديثه الآخر: فجاءه ﷺ رجل فقال: يا خير البرية. فقال: «ذاك إبراهيم»[2].

فاعلم أن للعلماء في هذه الأحاديث تأويلات:

أحدها: أن نهيه عن التفضيل كان قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم، فنهى عنه لأن ذلك يحتاج إلى توقيف، وأن من فضل بلا علم فقد كذب، وهو منزه عن مثل ذلك. وكذلك قوله: «لا أقول إن أحدًا أفضل منه»: لا يقتضي تفضيله هو، وإنما هو في الظاهر كف عن التفضيل.

الوجه الثاني: أنه قاله ﷺ على طريق التواضع ونفي التكبر والعجب. وهذا لا يسلم من الاعتراض.

الوجه الثالث: ألَّا يفضل بينهم تفضيلاً يؤدي إلى تنقص بعضهم أو الغض منه، لا سيما في جهة يونس عليه السلام إذ أخبر الله تعالى بما أخبر لئلا يقع في نفس من لا يعلم منه بذلك غضاضة وانحطاط من رتبته الرفيعة، إذ قال تعالى عنه: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ [الصافات: ١٤٠]؛ ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فربما يخيل لمن لا علم عنده حطيطته بذلك.

---

(١) نفس التعليق السابق.

(٢) رواه أحمد ٣/ ١٧٨، ١٨٤، ومسلم في الفضائل ١٥/ ١٢١، وقوله هذا تواضعٌ منه ﷺ، أو هو مؤول بمعنى: خير برية زمانه، للإجماع على أفضليته ﷺ على سائر العالمين. وانظر: أجوبة القاضي رحمه الله تعالى عقب ذلك.

الوجه الرابع: منع التفضيل في حق النبوة والرسالة، فإن الأنبياء فيها على حد واحد، إذ هي شيء واحد لا يتفاضل، وإنما التفاضل في زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والرتب والألطاف، وأما النبوة في نفسها فلا تتفاضل، وإنما التفاضل بأمور أخر زائدة عليها، ولذلك كان منهم رسل، ومنهم أولو العزم من الرسل، ومنهم من رُفِعَ مكانًا عليا، ومنهم من أوتي الحكم صبيًا، وأوتي بعضهم الزبور، وبعضهم البينات، ومنهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ...﴾ الآية [الإسراء: ٥٥]. وقال: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ...﴾ الآية [البقرة: ٢٥٣].

قال بعضهم: والتفضيل المراد لهم هنا في الدنيا، وذلك بثلاثة أحوال: أن تكون آيته ومعجزاته أبهر وأشهر، أو تكون أمته أزكى وأكثر، أو يكون في ذاته أفضل وأطهر. وفضله في ذاته راجع إلى ما خصه الله به من كرامته واختصاصه من كلام أو خلة أو رؤية أو ما شاء الله من ألطافه وتُحَفِ وِلَايَتِه واختصاصه. فحفظ ﷺ موضع الفتنة من الأوهام من يسبق إليه بسببها جرح في نبوة يونس عليه السلام، أو قدح في اصطفائه، وحط في رتبته ووهن في عصمته شفقة منه ﷺ على أمته.

وقد يتوجه على هذا الترتيب **وجه خامس**: وهو أن يكون «أنا» راجعًا إلى القائل نفسه، أي: لا يظن أحد وإن بلغ من الذكاء والعصمة والطهارة ما بلغ أنه خير من يونس لأجل ما حكى الله عنه، فإن درجة النبوة أفضل وأعلى، وأن تلك الأقدار لم تحطه عنها حبة خردل ولا أدنى.

وسيأتي في القسم الثالث مزيد لهذا إن شاء الله تعالى. وبهذا سقطت شبهة المعترضين، وبالله التوفيق وهو المستعان لا إلـه إلاَّ هو.

أسماؤه ﷺ وما تضمنته من فضيلته

عن جبير بن مطعم رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب[1].

وقد سماه الله تعالى في كتابه محمدًا وأحمد، فمن خصائصه تعالى له أن ضمن أسماءه ثناءه فطوى أثناء ذكره عظيم شكره.

فأما اسمه **أحمد** فأفعل مبالغة من صفة الحمد، و**محمد** مُفَعَّلٌ مبالغة من كثرة الحمد، فهو ﷺ أجل من حَمِد، وأفضل من حُمِد، وأكثر الناس حمدًا، فهو أحمد الحامدين وأحمد المحمودين، ومعه لواء الحمد يوم القيامة ليتم له كمال الحمد، يشتهر في تلك العرصات بصفة الحمد، ويبعثه ربه هناك مقامًا محمودًا كما وعده يحمده فيه الأولون والآخرون بشفاعته لهم، ويفتح عليه فيه من المحامد كما قال ﷺ: «ما لم يعط غيره» وسمى أمته في كتب أنبيائه بالحمادين، فحقيق أن يسمى محمدًا وأحمد. ثم في هذين الاسمين من عجائب خصائصه وبدائع آياته فن آخر، هو أن الله جل اسمه حمى أن يسمى بهما أحد قبل زمانه.

أما أحمد الذي أتى في الكتب وبشرت به الأنبياء فمنع الله تعالى بحكمته أن يسمى به أحد غيره، ولا يُدعى به مدعو قبله؛ حتى لا يدخل لبس على ضعيف القلب أوشك، وكذلك محمد أيضًا لم يسم به أحد من العرب ولا غيرهم إلى أن شاع قبيل وجوده ﷺ وميلاده أن نبيًا يبعث اسمه محمد،

---

(١) رواه الطيالسي ٢٣١٣ مع العون، وأحمد ٤/ ٨٠، ٨٣، ٨٤، والبخاري في صفة النبي ٧/ ٣٦٦، ٣٦٨، ومسلم في الفضائل ١٥/ ١٠٤، والترمذي في الأدب، والدارمي في الرقاق، وزاد أحمد في رواية: والخاتم. وسنده صحيح.

فسمى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك رجاء أن يكون أحدهم هو، والله أعلم حيث يجعل رسالته، وهم نحو من ستة لا سابع لهم. ثم حمى الله تعالى كل من تسمى به أن يدَّعيّ النبوة، أو يدعيها أحد له أو يظهر عليه سبب يشكك أحدًا في أمره حتى تحققت العلامتان له ﷺ ولم ينازع فيهما.

وأما **الماحي** الذي يمحو الله به الكفر. ففسر في الحديث، ويكون محو الكفر إمّا من مكة وبلاد العرب وما زوي له من الأرض ووعد أنه يبلغه ملك أمته، أو يكون المحو عامًّا بمعنى الظهور والغلبة، كما قال تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣].

وأما قوله: «وأنا **الحاشر** الذي يحشر الناس على قدمي»، أي: على زماني وعهدي، أي: ليس بعدي نبي، كما قال تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وأما **العاقب** فسمي به؛ لأنه عقب غيره من الأنبياء.

وفي الصحيح: «أنا العاقب الذي ليس بعدي نبي». وقيل: معنى «على قدمي»، أي: يحشر الناس بمشاهدتي، كما قال تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقيل: «على قدمي» على سابقتي، قال الله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢]. وقيل: «على قدمي»، أي: قدامي وحولي، أي: يجتمعون إليَّ يوم القيامة. وقيل: «على قدمي»: على سنتي.

وقوله: لي خمسة أسماء قيل: إنها موجودة في الكتب المتقدمة وعند أولي العلم من الأمم السالفة. وفي حديث أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: كان النبي ﷺ يسمي لنا نفسه أسماء فيقول: «أنا محمد، وأحمد، والمقفي، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الملحمة»، ويروى

«المرحمة» و «الراحة» وكل صحيح إن شاء الله[1].

ومعنى المقفي معنى العاقب.

وأما نبي الرحمة والتوبة والمرحمة والراحة فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وكذا وصفه بأنه يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويهديهم إلى صراط مستقيم، وبالمؤمنين رؤوف رحيم. وقد قال ﷺ في صفة أمته: «إنها أمة مرحومة»[2].

وقد قال تعالى فيهم: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧﴾ [البلد: ١٧]، أي: يرحم بعضهم بعضًا. فبعثه ﷺ ربُّه تعالى رحمةً لأمته، ورحمةً للعالمين، ورحيمًا بهم، ومترحمًا ومستغفرًا لهم. وجعل أمته أمة مرحومة، ووصفها بالرحمة.

وأمرها ﷺ بالتراحم، وأثنى عليه، فقال: «إن الله يحب من عباده

---

(١) حديث أبي موسى رواه أيضًا الطيالسي ٢٣١٢، وأحمد ٤/ ٣٩٥، ٤٠٤، ٤٠٧، ومسلم ١٥/ ١٠٥.

(٢) رواه أحمد ٤/ ٤١٠، ٤٠٨، وأبو داود ٤٣٧٨ في الأدب، والبخاري في التاريخ ١/ ٣٨، ٣٩، والحاكم ٤/ ٤٤٤ من طرق هو بها صحيح. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وهو عندهم عن أبي موسى الأشعري، ورواه رجل من الصحابة أيضًا. وسياقه: عن أبي بردة قال: بينما أنا واقف في السوق في إمارة زياد إذ ضربت بإحدى يدي على الأخرى تعجبًا، فقال رجل من الأنصار ـ قد كانت لوالده صحبة مع رسول الله ﷺ ـ: مم تعجب يا أبا بردة؟ قلت: أعجب من قوم دينهم واحد، ونبيهم واحد، ودعوتهم واحدة، وحجهم واحد، وغزوهم واحد، يستحل بعضهم قتل بعض! قال: فلا تعجب، فإني سمعت والدي أخبرني أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أمتي أمة مرحومة، ليس عليها عذاب في الآخرة، إنما عذابها في الدنيا الفتن والزلازل». رواه البخاري في التاريخ ١/ ١/ ٣٨، والحاكم ٤/ ٣٥٣، ٣٥٤، وصححه هو والذهبي.

الرحماء»[1]، وقال: «الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[2].

وأما رواية: «نبي الملحمة» فإشارة إلى ما بعث به من القتال والسيف ﷺ. وهي صحيحة. وروى حذيفة رضي الله تعالى عنه مثل حديث أبي موسى وفيه: «ونبي الرحمة، ونبي التوبة، ونبي الملاحم»[3].

وقد جاءت من ألقابه ﷺ وسماته في القرآن عدة كثيرة سوى ما ذكرناه كالنور، والسراج المنير، والمنذر، والنذير، والمبشر، والبشير، والشاهد، والشهيد، والحق المبين، وخاتم النبيين، والرءوف الرحيم، والأمين، ورحمة للعالمين، ونعمة الله، والعروة الوثقى، والصراط المستقيم، والكريم، والنبي الأمي، وداعي الله... في أوصاف كثيرة، وسمات جليلة.

وجرى منها في كتب الله المتقدمة وكتب أنبيائه وأحاديث رسوله وإطلاق الأمة جملة شافية، كتسميته بالمصطفى، والمجتبى، وأبي القاسم، والحبيب، ورسول رب العالمين، والشفيع المشفع، والمتقي، والمصلح، والصادق، والمصدوق، والهادي، وسيد ولد آدم،

---

(١) رواه البخاري ٣/ ٣٩٧، ٣٩٩، ومسلم ٦/ ٢٢٤، ٢٢٥، كلاهما في الجنائز من حديث أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما.

(٢) رواه أحمد ٢/ ١٦٠، وأبو داود في الأدب ٤٩٤١، والترمذي في البر ١٧٧٠، والحاكم ٤/ ٢٤٨ وغيرهم من حديث ابن عمرو، وحسنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وذلك لشواهده. وهذا هو الحديث المسلسل بالأولية.

(٣) رواه أحمد ٥/ ٤٠٥، والترمذي في الشمائل ٣٦٠ من طريقين وكلاهما سنده صحيح على شرط الصحيح.

وسيد المرسلين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين، وحبيب الله، وخليل الرحمن، وصاحب الحوض المورود والمعراج وراكب البراق . . .

ومن أسمائه في الكتب: المتوكل، والمختار، ومقيم السنة، والمقدّس، وروح الحق، وهو معنى البارقليط في الإنجيل، ومعناه: الذي يفرق بين الحق والباطل. قاله ثعلب.

وأوصافه وسماتة كثيرة، وفيما ذكر كفاية، وبالله التوفيق.

تشريف الله تعالى نبيه بما سماه به من أسمائه الحسنى ووصفه به من صفاته العلى

اعلم رحمنا الله وإياك أن الله تعالى خص كثيرًا من الأنبياء بكرامة خلعها عليهم من أسمائه، كتسميته إسحاق وإسماعيل بعليم وحليم، وإبراهيم بحليم، ونوح بشكور، وعيسى ويحيى ببر، وموسى بكريم وقوي، ويوسف بحفيظ عليم، وأيوب بصابر، وإسماعيل بصادق الوعد، كما نطق بذلك الكتاب العزيز من مواضع ذكرهم، وفضل نبينا سيدنا محمدًا ﷺ بأن حلّاه منها في كتابه العزيز وعلى ألسنة أنبيائه صلوات الله وسلامه عليه وعليهم بعدة كثيرة، اجتمع لنا منها جملة بعد إعمال الفكر وإحضار الذكر، إذ لم نجد من جمع منها فوق اسمين ولا من تفرع فيها لتأليف فصلين، وحررنا منها في هذا الفصل نحو ثلاثين اسمًا، ولعل الله تعالى كما ألهم إلى ما علم منها وحققه يتم النعمة بإبانة ما لم يظهره لنا الآن ويفتح غلفه.

فمن أسمائه تعالى: **الحميد**. ومعناه: المحمود، لأنه حمد نفسه وحمده عباده. ويكون أيضًا بمعنى الحامد لنفسه ولأعمال الطاعات. وسمى النبي ﷺ محمدًا وأحمد، فمحمد بمعنى محمود، وأحمد بمعنى أكبر من

حَمد وأجل من حُمد. وقد أشار إلى نحو هذا حسان بقوله:

وشَقَّ لـه مـن اسمِـه ليُجِلَّـهُ   فذو العَرش محمودٌ وهذا محمَّدُ

ومن أسمائه تعالى: **الرءوف الرحيم**. وهما بمعنى متقارب. وسماه في كتابه بذلك فقال: بالمؤمنين رءوف رحيم.

ومن أسمائه تعالى: **الحق المبين**، ومعنى الحق: الموجود والمتحقَّق أمره، وكذلك المبين، أي: البين أمره وإلـٰهيته. ويكون بمعنى: المبين لعباده أمر دينهم ومعادهم. وتسمَّى النبي ﷺ بذلك، في كتابه، فقال: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ ۝٢٩﴾ [الزخرف: ٢٩]. وقال: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ۝٨٩﴾ [الحجر: ٨٩]. وقال: ﴿قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ [يونس: ١٠٨]. وقال: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ﴾ [الأنعام: ٥]. قيل: محمد. وقيل: القرآن. ومعناه هنا: ضد الباطل، والمتحقَّق صدقه وأمره، وهو بمعنى الأول. والمبين: البين أمره ورسالته، أو المبين عند الله تعالى ما بعثه به، كما قال تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النحل: ٤٤].

ومن أسمائه تعالى: **النور**. ، ومعناه: ذو النور، أي: خالقه، أو منور السموات والأرض بالأنوار، ومنور قلوب المؤمنين بالهداية. وسمَّاه نورًا فقال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝١٥﴾ [المائدة: ١٥]، قيل: محمد. وقيل القرآن. وقال فيه: ﴿وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ۝٤٦﴾ [الأحزاب: ٤٦]، سمي بذلك لوضوح أمره وبيان نبوته، وتنوير قلوب المؤمنين والعارفين بما جاء به.

ومن أسمائه تعالى: **الشهيد**. ومعناه: العالم وقيل الشاهد على عباده يوم القيامة. وسماه شهيدًا فقال: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥]. وقال: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وهو بمعنى الأول.

ومن أسمائه تعالى: **الكريم**، ومعناه: الكثير الخير. وقيل: المفضل. وقيل: العفو. وقيل: العلي. وسماه تعالى كريمًا، وفي الحديث: «أنا أكرم ولد آدم» ومعاني الاسم في حقه ﷺ صحيحة.

ومن أسمائه تعالى: **العظيم**. ومعناه: الجليل الشأن، الذي كل شيء دونه. وقال في النبي ﷺ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم: ٤].

ومن أسمائه تعالى: **الشكور**. ومعناه: المثيب على العمل القليل. وقيل: المثني على المطيعين. ووصف بذلك نبيه نوحًا عليه السلام فقال: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٣]، وقد وصف النبيُّ ﷺ بذلك فقال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا؟»[1]، أي: معترفًا بنعم ربي، عارفًا بقدر ذلك، مُثنيًا عليه، مُجْهِدًا نفسي في الزيادة من ذلك؛ لقوله: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧].

ومن أسمائه تعالى: **العليم، والعلاّم، وعالم الغيب والشهادة**. ووصف نبيه ﷺ بالعلم وخصه بمزية منه فقال: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [النساء: ١١٣]. وقال: ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [البقرة: ١٥١].

ومن أسمائه تعالى: **الأول والآخر**. ومعناهما: السابق للأشياء قبل وجودها، والباقي بعد فنائها، وتحقيقه: أنه ليس له أول ولا آخر. وقال ﷺ في حق نفسه: «أنا أول من تنشق عنه الأرض وأول من يدخل الجنة، وأول شافع وأول مشفع»[2]. ووصف نفسه بأنه خاتم الأنبياء والرسل فلا نبي بعده[3].

---

(١) تقدم تخريجه من رواية عائشة والمغيرة ص ١٥٣.

(٢) تقدم كل ذلك. انظر ص ١٨٠، ١٨١.

(٣) تقدم في أحاديث ص ١٦٢ وما بعدها.

وقال: «نحن الآخرون السابقون»[1].

ومن أسمائه تعالى: **الصادق**، وورد في الحديث أيضًا اسمه الصادق المصدوق[2].

ومن أسمائه تعالى: **الولي والمولى**، ومعناها: الناصر. وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [المائدة: ٥٥]، وقال ﷺ: «أنا ولي كل مؤمن»[3]. وقال الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٦]. وقال ﷺ: «من كنت مولاه فعلي مولاه»[4].

---

(١) رواه البخاري في الجمعة ٣/ ٤، ٦ وفي مواضع، ومسلم في الجمعة أيضًا ٦/ ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، كلاهما عن أبي هريرة وعند مسلم ٦/ ١٤٤ عن حذيفة بنحوه.

(٢) جاء هذا في حديث ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يومًا نطفة... الحديث.
رواه أحمد ١/ ٤١٤، ٤٣٠، والبخاري في بدء الخلق ٧/ ١١٤، وفي أحاديث الأنبياء ٧/ ١٧٨، وفي القدر وفي التوحيد، ومسلم ١٦/ ١٨٩، والترمذي كلاهما في القدر، وأبو داود في السنة ٤٧٠٨، وغيرهم.

(٣) رواه مسلم في الجمعة ٦/ ١٥٤ مطولاً بلفظ: أنا أولى بكل مؤمن من نفسه وهو لفظ أبي داود، كلاهما عن جابر، ورواه البخاري في الفرائض ١/ ١٠، وفي الحوالة، وكذا أحمد ٢/ ٤٥٣ عن أبي هريرة بنحوه.

(٤) رواه أحمد ٤/ ٤٧٠ وابن حبان ٢٢٠٥، والنسائي في الكبرى ٨١٤٨ من حديث أبي الطفيل بسند صحيح، ورواه أحمد ١/ ١١٨، والنسائي في الكبرى ٨٤٦٤، والحاكم ٣/ ١٠٩، من حديث الإمام علي، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ورواه الترمذي ٣٤٨٥ مختصرًا بسند صحيح، ورواه أحمد ٥/ ٣٥٠، ٣٦١، والنسائي في الكبرى ٨٤٦٥ عن بريدة بسند صحيح، وللحديث طرق كثيرة منها صحاح وحسان كما قال الحافظ. وقال الحافظ الذهبي في تذكرة الحفاظ ٢/ ١٠٤٣: له طرق جيدة. وقال السيوطي: متواتر. =

ومن أسمائه تعالى: **العفو**. ومعناه: الصفوح. وقد وصف الله تعالى بهذا نبيه في القرآن والتوراة، وأمره بالعفو فقال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقال: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٣]، وقال له جبريل عليه السلام وقد سأله عن قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، قال: «أن تعفو عمن ظلمك»[١]. وقال في التوراة في الحديث المشهور في صفته: «ليس بفظ ولا غليظ ولكن يعفو ويصفح»[٢].

ومن أسمائه تعالى: **الهادي**، وهو بمعنى توفيق الله لمن أراد من عباده، وبمعنى الدلالة والدعاء. قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٥]، وأصل الجميع من الميل، وقيل من التقديم. وقال تعالى له: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢]. وقال فيه: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤٦]، فالله تعالى مختص بالمعنى الأول[٣]. قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]، وبمعنى الدلالة يطلق على غيره تعالى.

ومن أسمائه تعالى: **المؤمن المهيمن**. قيل: هما بمعنى واحد. فمعنى المؤمن في حقه تعالى: المصدق وعده عباده، والمصدق قوله الحق،

= وجاء في بعض طرقه: «اللّٰهمَّ والِ من والاه وعادِ من عاداه»، وهي زيادة صحيحة، وقد أورد لها طرق كثيرة الهيثمي في المجمع ٩/ ١٠٣، ١٠٨. وانظر: تعاليق صحيح ابن حبان ٦٩٣١.

(١) تقدم في بحث عفوه عمن آذاه ص ١١٦.

(٢) تقدم أيضًا في صفته ﷺ في حديث عبد الله بن عَمرو.

(٣) يعني: التوفيق. وهو خلق القدرة على الإيمان والطاعة. فبهذا المعنى لا دخل لأحد من الخلق فيه، فالله الخالق لكل شيء، أما المعنى الثاني: بمعنى الدلالة والدعوة، فهو عام في الخالق والمخلوق.

والمصدق لعباده المؤمنين ورسله. وقيل: الموحد نفسه، وقيل: المؤمن عباده في الدنيا من ظلمه والمؤمنين في الآخرة من عذابه، وقيل: المهيمن بمعنى الأمين مصغر منه، فقلبت الهمزة هاء، وقد قيل: إن قولهم في الدعاء «آمين» أنه اسم من أسماء الله تعالى ومعناه معنى المؤمن. وقيل: المهيمن بمعنى الشاهد والحافظ. والنبي ﷺ أمين ومهيمن ومؤمن. وكان ﷺ يعرف بالأمين، وشهر به قبل النبوة وبعدها. وسماه العباس في شعره مهيمنًا في قوله

ثم احْتَوى بَيتُك المُهيمن من خِنْدِف علياء تحتها النُّطُقُ

قيل: المراد يا أيها المهيمن. قاله العتبي والإمام أبو القاسم القشيري.

وقال تعالى: ﴿ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [التوبة: ٦١]، أي: يصدق. وقال ﷺ: «أنا أمنة لأصحابي»[1] فهذا بمعنى المؤمن.

ومن أسمائه تعالى: **القدوس**. ومعناه: المنزه عن النقائص، المطهر عن سمات الحدث. وسمّي بيت المقدس؛ لأنه يتطهر فيه من الذنوب، ومنه الوادي المقدس وروح القدس، ووقع في كتب الأنبياء في أسمائه ﷺ المقدس، أي المطهر من الذنوب كما قال تعالى: ﴿ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح: ٢]، أو الذي يُتطهر به من الذنوب ويُتنزه باتباعه عنها، كما قال تعالى: ﴿ وَيُزَكِّيهِمۡ ﴾ [الجمعة: ٢]. وقال: ﴿ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ ﴾ [المائدة: ١٦]، أو يكون مقدسًا بمعنى: مطهرًا من الأخلاق الذميمة والأوصاف الدنيئة.

ومن أسمائه تعالى: **العزيز**. ومعناه: الممتنع الغالب، أو الذي لا نظير له، أو المعز لغيره. وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ ﴾

(١) تقدم ص ٧٢، وهو في صحيح مسلم وغيره.

[المنافقون: ٨]، أي: الامتناع وجلالة. القدر وقد وصف الله تعالى نفسه بالبشارة والنذارة، فقال: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ [التوبة: ٢١]، وقال: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ و ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ [آل عمران: ٣٩، ٤٥]. وسماه الله تعالى مبشرًا ونذيرًا وبشيرًا، أي: مبشرًا لأهل طاعته ونذيرًا لأهل معصيته.

جل ربنا أن يشبه خلقه
لا في ذاته ولا في أسمائه وصفاته
"ليس كمثله شيء وهو السميع البصير"

نختم هذا الفصل بما يزيل الإشكال فيما تقدم عن كل ضعيف الوهم سقيم الفهم، يخلصه من مهاوي التشبيه ويزحزحه عن شبه التمويه، وهو أن يعتقد أن الله تعالى جل اسمه، في عظمته، وكبريائه، وملكوته، وحسنى أسمائه وعَلي صفاته، لا يُشبه شيئًا من مخلوقاته ولا يُشبَّه به، وأن ما جاء مما أطلقه الشرع على الخالق وعلى المخلوق فلا تشابه بينهما في المعنى الحقيقي؛ إذ صفات القديم بخلاف صفات المخلوق.

فكما أن ذاته تعالى لا تشبه الذوات، كذلك صفاته لا تشبه صفات المخلوقين، إذ صفاتهم لا تنفك عن الأعراض والأغراض، وهو تعالى منزه عن ذلك، بل لم يزل بصفاته وأسمائه، وكفى في هذا بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

ولله در من قال من العلماء والعارفين المحققين: التوحيد: **إثبات ذات غير مشبهة للذوات ولا معطلة عن الصفات.**

وزاد هذه النكتة الواسطي رحمه الله تعالى بيانًا، وهي مقصودنا، فقال: ليس كذاته ذات، ولا كأسمه اسم، ولا كفعله فعل، ولا كصفته صفة،

إلاَّ من جهة موافقة اللفظ للفظ، وجَلَّت الذاتُ القديمة أن تكون لها صفة حديثة، كما استحال أن تكون للذات المحدثة صفة قديمة.

وهذا كله مذهب أهل الحق والسنَّة والجماعة، رضي الله تعالى عنهم[١].

وقد فسر الإمام أبو القاسم القشيري رحمه الله تعالى قوله هذا؛ ليزيده بيانًا فقال: هذه الحكاية تشتمل على جوامع مسائل التوحيد؛ وكيف تشبه ذات الله ذات المخلوقين وهي بوجودها مستغنية؟! وكيف يشبه فعله فعل الخلق؟! وهو لغير جلب أنس ودفع نقص حصل، ولا بخواطر وأغراض وجد، ولا بمشاورة ومعالجة ظهر. وفعل الخلق لا يخرج عن هذه الوجوه.

وقال آخر من مشايخنا: ما تَوَهَّمتوه بأوهامكم أو أدركتموه بعقولكم فهو محدث مثلكم.

وقال أبو المعالي الجويني: من اطمأن إلى موجود انتهى إليه فكره فهو مشبِّه. ومن اطمأن إلى النفي المحض فهو معطل. وإن قطع بموجود اعترف بالعجز عن دركِ حقيقته فهو موحد.

وما أحسن قول ذي النون المصري رحمه الله تعالى: حقيقة التوحيد أن تعلم أن قدرة الله تعالى في الأشياء بلا علاج، وصنعه لها بلا مزاج، وعلة كل شيء صنعه ولا علة لصنعه، وما تصور في وهمك فالله بخلافه[٢].

---

(١) ما ذكره سيدي عياض رحمه الله تعالى في هذه الخاتمة هو غاية في التحقيق، وهو المطلوب، والواجب اعتقاده في الله عز وجل وفي صفاته وأفعاله، وكل ما جاء في القرآن الكريم وفي السنة النبوية الصحيحة مما يوهم التشبيه يجب الإيمان به وإمراره كما جاء بدون تأويل ولا تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل.

(٢) وهو قولهم أيضًا: فكل ما يخطر ببالك فربنا مخالف لذلك. ذلك أن معرفة كنه ذات الله وصفاته وأفعاله فوق مستوى عقولنا. فحسبنا الإيمان به وكفى..

وهذا كلام عجيب نفيس محقَّق؛ فالجملة الأولى تفسير لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾ [النحل: ٤٠]، والثانية تفسير لقوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء: ٢٣]، والثالثة تفسير لقوله جل وعلا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

ثبتنا الله وإياك على التوحيد والإثبات والتنزيه، وجنبنا طريق الضلالة والغواية من التعليل والتشبيه، بمنِّه ورحمته... آمين.

* * *

الباب الرابع

فيما أظهره الله تعالى على يديه من المعجزات وشرفه به من الخصائص والكرامات

قال القاضي رحمه الله تعالى: حسب المتأمل أن يحقق أن كتابنا هذا لم نجمعه لمنكر نبوة نبينا ﷺ، ولا لطاعن في معجزاته فنحتاج إلى نصب البراهين عليها وتحصين حوزتها؛ حتى لا يتوصَّل المطاعن إليها، ونذكر شروط المعجز والتحدي وحدَّه وفساد قول من أبطل نسخ الشرائع ورده. بل ألَّفناه لأهل ملته، الملبين لدعوته، المصدقين لنبوته؛ ليكون تأكيدًا في محبتهم له، ومنماة لأعمالهم، وليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم.

ونيتنا أن نثبت في هذا الباب أمهات معجزاته ومشاهير آياته، لتدل على عظيم قدره عند ربه، وأتينا منها بالمحقق والصحيح الإسناد، وأكثره مما بلغ القطع أو كاد، وأضفنا إليها بعض ما وقع في مشاهير كتب الأئمة.

وإذا تأمل المتأمل المنصف ما قدمناه من جميل أثره وحميد سيره وبراعة علمه ورجاحة عقله وحلمه وجملة كماله وجميع خصاله وشاهد حاله وصواب مثاله، لم يمتر في صحة نبوته وصدق دعوته، وقد كفى هذا غير واحد في إسلامه والإيمان به.

فروينا عن الترمذي وغيره بإسناده: أن عبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جئته لأنظر إليه، فلما استبنت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب[1].

وعن أبي رمثة التيمي قال: أتيت النبي ﷺ ومعي ابن لي فأُريته، فلما رأيته قلت: هذا نبي الله[2].

وروى مسلم وغيره: أن ضادًا لما وفد على رسول الله فقال له النبي ﷺ: «إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله»، قال له: أعد علي كلماتك هؤلاء؛ فلقد بلغن قاموس البحر، هات يدك أبايعك[3].

معنى النبوة والرسالة والوحي

اعلم أن الله جل اسمه قادر على خلق المعرفة في قلوب عباده، والعلمِ بذاته وأسمائه وصفاته وجميع تكليفاته ابتداءً دون واسطة لو شاء، كما حكى عن سنته في بعض الأنبياء وذكره بعض أهل التفسير في قوله

---

(١) رواه أحمد ٥/ ٤٥١، والترمذي في القيامة ٢٣٠٥، وابن ماجه في الصلاة، وفي الأطعمة ٣٢٥١ وسنده صحيح على شرط البخاري ومسلم.

(٢) حديث أبي رمثة ورد عنه بألفاظ، رواه أحمد ٢/ ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، و ٤/ ١٦٣، وأبو داود في الترجل ٤٢٠٦، ٤٢٠٧، ٤٢٠٨، وفي اللباس ٤٠٦٦، والترمذي في الاستئذان ٢٦٢٢، وفي الشمائل ٤٤/ ٦٣، والنسائي في القسامة رقم ٤٤٩٢، وابن الجارود ٢٧٥ وغيرهم بأسانيد صحيحة.

(٣) رواه أحمد ١/ ٣٠٢، ومسلم في الجمعة ٦/ ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، والنسائي وابن ماجه، كلاهما في النكاح من حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما.
وقوله: قاموس البحر، أي: وسطه أو قعره.

تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١] وجائزًا أن يوصل إليهم جميع ذلك بواسطة تبلغهم كلامه، وتكون تلك الواسطة إما من غير البشر كالملائكة مع الأنبياء، أو من جنسهم كالأنبياء مع الأمم، ولا مانع لهذا من دليل العقل. وإذا جاز هذا ولم يستحل، وجاءت الرسل بما دل على صدقهم من معجزاتهم، وجب تصديقهم في جميع ما أتوا به؛ لأن المعجز مع التحدي من النبي ﷺ قائم مقام قول الله: صدق عبدي فأطيعوه واتبعوه. وشاهد صدقه: فيما يقوله، وهذا كاف، والتطويل فيه خارج عن الغرض.

فالنبوة في لغة مَن همز مأخوذة من النبأ وهو: الخبر، والمعنى: أن الله تعالى أطلعه على غيبه وأعلمه أنه نبيه، فيكون نبي: منبأ، فعيل بمعنى مفعول. أو يكون مخبرًا عما بعثه الله تعالى به، ومنبئًا بما أطلعه الله عليه: فعيل بمعنى فاعل. ويكون عند من لم يهمزه من النبوة، وهو ما ارتفع من الأرض، ومعناه: أن له رتبة شريفة ومكانة نبيهة عند مولاه مُنِيفة، فالوصفان في حقه مؤتلفان.

وأما الرسول فهو المرسل.. وإرساله: أمر الله له بالإبلاغ إلى من أرسله إليه، واشتقاقه من التتابع، ومنه قولهم: جاء الناس أرسالاً. إذا تبع بعضهم بعضًا، فكأنه ألزم تكرير التبليغ، أو أُلْزِمَت الأمة اتباعه.

واختلف العلماء: هل النبي والرسول بمعنى، أو بمعنيين؟

فقيل: هما سواء، وأصله: من الإنباء، وهو الإعلام. واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٥٢]، فقد أثبت لهما الإرسال معًا، قال: ولا يكون النبي إلاَّ رسولاً ولا الرسول إلاَّ نبيًا.

وقيل: هما مفترقان من وجه؛ إذ قد اجتمعا في النبوة التي هي الاطلاع على الغيب والإعلام بخواص النبوة أو الرفعة لمعرفة ذلك وحوز درجتها. وافترقا في زيادة الرسالة للرسول، وهو الأمر بالإنذار والإعلام. وحجتهم من الآية نفسها: التفريق بين الاسمين. ولو كانا شيئًا واحدًا لما حسن تكرارهما في الكلام البليغ. قالوا: والمعنى: وما أرسلنا من رسول إلى أمة أو نبـي وليس بمرسل إلى أحد.

وقد ذهب بعضهم إلى أن الرسول من جاء بشرع مبتدإ، ومن لم يأت به: نبـي غير رسول، وإن أمر بالإبلاغ والإنذار.

والصحيح والذي عليه الجم الغفير أن كل رسول نبـي وليس كل نبـي رسول.

وأول الرسل سيدنا آدم، وآخرهم نبينا[1] وسيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليهم جميعًا.

والأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبـي، الرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر[2].

وأما الوحي: فأصله الإسراع، فلما كان النبـي يتلقى ما يأتيه من ربه بعجل سمي وحيًا، وسميت أنواع الإلهامات وحيًا تشبيهًا بالوحي إلى النبـي، وسمي الخط وحيًا لسرعة حركة يد كاتبه. ووحي الحاجب واللحظ: سرعة إشارتهما، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم: ١١]، أي: أومأ ورمز. ومنه قولهم: الوحا الوحا، أي: السرعة

---

(١) هذا إجماع لا خلاف فيه.

(٢) جاء هذا في حديث أبـي ذر رضي الله تعالى عنه الطويل الذي رواه أحمد ٥/ ١٧٨، ١٧٩، وابن حبان رقم ٩٤، ٢٠٧٩ بالموارد، والحاكم ٢/ ٥٩٧ ورجاله موثقون.

السرعة. وقيل: أصل الوحي: السر والإخفاء، ومنه سمي الإلهام وحْيًا ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ [الأنعام: ١١]، أي: يوسوسون في صدورهم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: ٧]، أي: ألقى في قلبها، وقد قيل ذلك في قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١]، أي: ما يلقيه في قلبه دون واسطة.

بيان المعجزة وأقسامها وما جاء منها عن نبينا ﷺ

اعلم أن معنى تسميتنا ما جاء به الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معجزة، هو أن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثلها، وهي على ضربين:

ضرب هو من نوع قدرة البشر، فعجزوا عنه، فتعجيزهم عنه فعل الله تعالى دل على صدق نبيه ﷺ كصرفهم عن تمني الموت، وتعجيزهم عن الإتيان بمثل القرآن على رأي بعضهم ونحوه.

وضرب هو خارج عن قدرتهم فلم يقدروا على الإتيان بمثله، كإحياء الموتى، وقلب العصا حية، وإخراج ناقة من صخرة، وكلام شجرة، ونبع الماء من الأصابع، وانشقاق القمر، مما لا يمكن أن يفعله أحد، إلاَّ الله، فيكون ذلك على يد النبي ﷺ من فعل الله تعالى، وتحديه من يكذبه أن يأتي بمثله تعجيز له.

واعلم أن المعجزات التي ظهرت على يد نبينا ﷺ ودلائل نبوته وبراهين صدقه من هذين النوعين معًا، وهو أكثر الرسل معجزة، وأبهرهم آية. وأظهرهم برهانًا، كما سنبينه، وهي في كثرتها لا يحيط بها ضبط، فإن واحدًا منها وهو القرآن الكريم لا يحصى عدد معجزاته بألف ولا ألفين ولا أكثر؛ لأن النبي ﷺ قد تحدى بسورة منه فَعُجِزَ عَنها، قال أهل العلم:

وأقصر السُّور: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾[1]، فكل آية أو آيات منه بعددها وقدرها معجزة، ثم فيها نفسها معجزات على ما سنفصله فيما انطوى عليه من المعجزات.

ثم معجزاته ﷺ على قسمين:

قسم منها علم قطعًا، ونقل إلينا متواترًا، كالقرآن، فلا مرية ولا خلاف بمجيء النبي ﷺ به، وظهوره من قبله، واستدلاله بحجته، وإن أنكر هذا معاند جاحد فهو كإنكاره وجود حبيبنا محمد ﷺ في الدنيا، وإنما جاء اعتراض الجاحدين في الحجة به، فهو في نفسه وجميع ما تضمنه من معجز معلوم ضرورة، ووجه إعجازه معلوم ضرورة ونظرًا، كما سنشرحه.

قال بعض أئمتنا: ويجري هذا المجرى على الجملة أنه قد جرى على يديه ﷺ آيات وخوارق عادات إن لم يبلغ واحد منها معينًا القطع فيبلغها جميعها، فلا مرية في جريان معانيها على يديه.

ولا يختلف مؤمن ولا كافر أنه جرت على يديه عجائب، وإنما خلاف المعاند في كونها من قبل الله، وقد قدمنا كونها من قبل الله، وأن ذلك بمثابة قوله: صدقت، فقد علم وقوع مثل هذا أيضًا من نبينا ﷺ ضرورة لاتفاق معانيها، كما يعلم ضرورة جود حاتم، وشجاعة عنترة، وحلم أحنف، لاتفاق الأخبار الواردة عن كل واحد منهم على كرم هذا، وشجاعة هذا، وحلم هذا، وإن كان كل خبر بنفسه لا يوجب العلم ولا يقطع بصحته[2].

---

(١) فيها أربع آيات، وأطول السور إطلاقًا سورة البقرة، وأقصر آية ﴿مُدۡهَآمَّتَانِ﴾ ونحوها، وأطول آية في القرآن آية المداينة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ...﴾ إلخ [البقرة: ٢٨٢]، وكلها معجزات للقرآن الكريم.

(٢) وما ذكره في ذلك هو المراد عند الأصوليين وغيرهم بالمتواتر المعنوي.

والقسم الثاني: ما لم يبلغ مبلغ الضرورة والقطع وهو على نوعين: نوع مشتهر منتشر، رواه العدد وشاع الخبر به عند المحدثين والرواة ونقلة السير والأخبار، كنبع الماء من بين الأصابع، وتكثير الطعام[1]. ونوع منه اختص به الواحد والاثنان، ورواه العدد اليسير، ولم يشتهر اشتهار غيره، لكنه إذا جمع إلى مثله اتفقا في المعنى، واجتمعا على الإتيان بالمعجز.

قال أبو الفضل رحمه الله تعالى: وأنا أقول: صدعًا بالحق، إن كثيرًا من هذه الآيات المأثورة عنه ﷺ معلومة بالقطع.

أما انشقاق القمر: فالقرآن نص بوقوعه وأخبر عن وجوده، ولا يعدل عن ظاهرٍ إلاَّ بدليل، وجاء برفع احتماله صحيح الأخبار من طرق كثيرة[2]، ولا يوهن عزمنا خلاف أخرق منحل عُرى الدين، ولا يلتفت إلى سخافة مبتدع يلقي الشك على قلوب ضعفاء المؤمنين، بل نرغم بهذا أنفه، وننبذ بالعراء سخفه.

وكذلك قصة نبع الماء، وتكثير الطعام: رواها الثقات والعدد الكثير عن الجم الغفير عن العدد الكثير من الصحابة[3].

ومنها ما رواه الكافة عن الكافة متصلاً عمن حدث بها من جملة الصحابة، وإخبارهم أن ذلك كان في موطن اجتماع الكثير منهم في يوم الخندق، وفي عمرة الحديبية، وغزوة تبوك وأمثالها من محافل المسلمين ومجمع العساكر، ولم يؤثر عن أحد من الصحابة مخالفة للراوي فيما حكاه ولا إنكار عما ذكر عنهم أنهم رأوه كما رواه، فسكوت الساكت منهم كنطق الناطق، إذ هم المنزهون عن السكوت على باطل، والمداهنة في كذب،

---

(١) سيأتي تخريج ذلك ص ٢٤١ وما بعدها.

(٢) كل ذلك يأتي تخريجه بإذن الله تعالى ص ٢٣٨ وما بعدها.

(٣) كل ذلك يأتي تخريجه بإذن الله تعالى ص ٢٤١ وما بعدها.

وليس هناك رغبة ولا رهبة تمنعهم، ولو كان ما سمعوه منكرًا عندهم وغير معروف لديهم لأنكروه كما أنكر بعضهم على بعض أشياء رواها من السنن والسير وحروف القرآن وخطأ بعضهم بعضًا ووهمه في ذلك مما هو معلوم. فهذا النوع كله يلحق بالقطع من معجزاته ﷺ.

وأيضًا فإن أمثال الأخبار التي لا أصل لها وبنيت على باطل لا بد مع مرور الأزمان وتداول الناس من انكشاف ضعفها وخمولها، كما هو مشاهد في كثير من الأخبار الكاذبة. وأعلام نبينا ﷺ هذه الوارد من طريق الآحاد لا تزداد مع مرور الزمان إلاَّ ظهورًا، ومع تداول وكثرة طعن العدو واجتهاد الملحد على إطفاء نورها إلاَّ قوة وقبولاً، ولا للطاعن عليها إلاَّ حسرة وغليلاً.

وكذلك إخباره ﷺ عن الغيوب وإنباؤه بما يكون وكان، معلومٌ من آياته على الجملة بالضرورة، وهذا حق لا غطاء عليه... وما عندي أوجب قول القائل أن هذه القصص المشهورة من باب خبر الواحد إلاَّ قلة مطالعته للأخبار وروايتها وشغله بغير ذلك من المعارف، وإلاَّ فمن اعتنى بطرق النقل وطالع الأحاديث والسير لم يرتب في صحة هذه القصص المشهورة على الوجه الذي ذكرناه ولا يبعد أن، يحصل العلم بالتواتر عند واحد ولا يحصل عند آخر، فإن أكثر الناس يعلمون بالخبر كون بغداد موجودة وأنها مدينة عظيمة...، وآحاد من الناس لا يعلمون اسمها فضلاً عن وصفها.

وهكذا يعلم الفقهاء من أصحاب مالك بالضرورة وتواتر النقل عنه أن مذهبه إيجاب قراءة أم القرآن في الصلاة للمنفرد والإمام، وإجزاء النية أول ليلة من رمضان عما سواه. وأن الشافعي يرى تجديد النية كل ليلة والاقتصار في المسح على بعض الرأس. وأن مذهبهما القصاص في القتل بالمحدد وغيره، وإيجاب النية في الوضوء، واشتراط الولي في النكاح. وأن أبا حنيفة

يخالفهما في هذه المسائل. وغيرهم ممن لم يشتغل بمذاهبهم ولا روى أقوالهم لا يعرف هذا من مذاهبهم فضلاً عمن سواه.

وعند ذكرنا آحاد هذه المعجزات نزيد الكلام فيها بيانًا إن شاء الله تعالى.

إعجاز القرآن وأنواعه

اعلم وفقنا الله تعالى أن كتاب الله العزيز منطوٍ على وجوه من الإعجاز كثيرة وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة وجوه:

النوع الأول:

أولها: حسن تأليفه، وفصاحته، ووجوه إعجازه، وبلاغته الخارقة عادة العرب، وذلك أنهم كانوا أرباب هذا الشأن وفرسان الكلام، قد خصوا من البلاغة والحكم ما لم يخص به غيرهم من الأمم، وأوتوا من دراية اللسان ما لم يؤت إنسان، جعل الله لهم ذلك طبعًا وخلقة، وفيهم غريزة وقوة، يأتون منه على البديهة بالعجب، فيخطبون بديهًا في المقامات وشديد الخطب، ويرتجزون به بين الطعن والضرب، ويمدحون ويقدحون، ويرفعون ويضعون، فيأتون من ذلك بالسحر الحلال، فيخدعون الألباب، ويذللون الصعاب، ويذهبون الإحن، ويجرءون الجبان، ويصيرون الناقص كاملاً، ويتركون النبيه خاملاً، منهم البدوي ذو اللفظ الجزل والقول الفصل والمنزع القوي، ومنهم الحضري ذو البلاغة البارعة، والألفاظ الناصعة، والكلمات الجامعة، والطبع السهل، والتصرف في القول القليل الكلفة، الكثير الرونق. وكلا البابين[1] فلهما في البلاغة الحجة البالغة، والقوة الدامغة، لا يشكون أن الكلام طوع مرادهم، والبلاغة ملك قيادهم؛ قد حووا فنونها واستنبطوا عيونها، ودخلوا من كل باب من أبوابها، وتفننوا في الغث

---

(١) أي: كلا القسمين من كلام الحضري والبدوي.

والسمين، وتساجلوا في النظم والنثر، فما راعهم إلَّا رسول كريم، بكتاب عزيز ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢]، أحكمت آياته وفصلت كلماته، وبهرت بلاغته العقول، وظهرت فصاحته على كل مقول، وتظافر إيجازه وإعجازه وتظاهرت حقيقته ومجازه، وحوت كل البيان جوامعه وبدائعه، واعتدل مع إيجازه حسن نظمه ومختار لفظه وهم أفصح ما كانوا في هذا الباب مجالاً، وأشهر في الخطابة رجالاً، وأوسعهم في الغريب واللغة مقالاً بلغتهم التي بها يتحاورون، ومنازعهم التي عنها يتناضلون، صارخًا بهم في كل حين، ومقرعًا لهم بضعًا وعشرين عامًا على رأس الملأ أجمعين: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس: ٣٨].

و ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ الآية [البقرة: ٢٣]، إلى قوله تعالى: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ [البقرة: ٢٤].

و ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

و ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ . . .﴾ الآية [هود: ١٣].

وذلك أن المفترى أسهل، ووضع الباطل والمختلق على الاختيار أقرب، واللفظ إذا تبع المعنى الصحيح كان أصعب، ولهذا قيل: فلان يكتب كما يقال له، وفلان يكتب كما يريد، وللأول على الثاني فضل وبينهما شأو بعيد.

فلم يزل يقرعهم ﷺ أشد التقريع، ويوبخهم غاية التوبيخ، ويسفه أحلامهم، ويحط أعلامهم، ويشتت نظامهم، ويذم آلهتهم وإياهم، ويستبيح

أرضهم وديارهم وأموالهم، وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته، محجمون عن مماثلته، يخادعون أنفسهم بالتشغيب بالتكذيب والإغراء بالافتراء وقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥﴾ [المدثر: ٢٤، ٢٥]، و ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ [القمر: ٢]، و ﴿إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤]، و ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٥﴾ [الأنعام: ٢٥].

والمباهتة والرضا بالدنيئة، كقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: ٨٨]، و ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]، و ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ۝٢٦﴾ [فصلت: ٢٦]. والادعاء مع العجز كقولهم: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال: ٣١]. وقد قال الله تعالى لهم: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ [البقرة: ٢٤]، فما فعلوا ولا قدروا. ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كمسيلمة كشف عواره لجميعهم، وسلبهم الله ما ألفوه من فصيح كلامهم، وإلاَّ فلم يخْفَ على أهل الميز منهم أنه ليس من نمط فصاحتهم ولا جنس بلاغتهم، بل ولّوا عنه مدبرين وأتوا مذعنين من بين معتد وبين مفتون.

ولهذا لما سمع الوليد بن المغيرة من النبي ﷺ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠]، قال: والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر، ما يقول هذا بشر[1].

---

(١) رواه الحاكم ٢/٥٠٦، ٥٠٧، ومن طريقه البيهقي في الدلائل من حديث ابن عباس، وصححه الحاكم على شرط البخاري ووافقه الذهبي، وذكر ابن إسحاق نحوه في سيرته.
وقوله: لَطلاوةً، أي: لحسنًا ورونقًا. وقوله: لمغدق، أي: كثير الماء. وقوله: أعلاه لمثمر، أي: ثمره حاصل ناضج، وهو تشبيه منه بأنه كشجرة مَسْقية مُثْمِرَة.

وذكر أبو عبيد أن أعرابيًا سمع رجلاً يقرأ: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤]، فسجد وقال: سجدت لفصاحته. وسمع آخر رجلاً يقرأ: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠]. فقال: أشهد أن مخلوقًا لا يقدر على مثل هذا الكلام. وحكى الأصمعي أنه سمع جارية تتكلم فقال لها: قاتلك الله ما أفصحك؟! فقالت: أو يعد هذا فصاحة بعد قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص: ٧]، فجمع في آية واحدة بين أمرين، ونهيين، وخبرين، وبشارتين[1].

فهذا نوع من إعجازه، منفرد بذاته، غير مضاف إلى غيره على التحقيق والصحيح من القولين.

وكون القرآن من قبل النبي ﷺ وأنه أتى به معلوم ضرورة. وكونه ﷺ متحديًا به معلوم ضرورة. وعجز العرب عن الإتيان به معلوم ضرورة. وكونه في فصاحته خارقًا للعادة معلوم ضرورة للعالمين بالفصاحة ووجوه البلاغة، وسبيل من ليس من أهلها على ذلك بعجز المنكرين من أهلها عن معارضته، واعتراف المقرين بإعجاز بلاغته.

وأنت إذا تأملت قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١﴾ [سبأ: ٥١]، وقوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ

---

(١) قوله: بين أمرين هما: ﴿أَرْضِعِيهِ﴾، ﴿فَأَلْقِيهِ﴾، ونهيين، هما: ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾، وخبرين، هما: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾، ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾. وبشارتين، هما: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. فما أعظم هذا القرآن وما أفصحه، فسبحان الله الذي تكلم به وأنزله على حبيبه، وتكرَّم به علينا، فله الحمد في الأولى والآخرة.

حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت: ٣٤]، وقوله: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ [هود: ٤٤]، وقوله: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وأشباهها من الآي ـ بل أكثر القرآن ـ حقَّقَت ما بينته من إيجاز ألفاظها وكثرة معانيها وحسن تأليف حروفها، وأن تحت كل لفظة منها جملاً كثيرة، وفصولاً جمة، وعلومًا زواخر، ملئت الدواوين من بعض ما استفيد منها، وكثرت المقالات في المستنبطات عنها.

ثم هو في سرد القصص الطوال وأخبار القرون السوالف التي يضعف في عادة الفصحاء عندها الكلام آية لمتأمله، من ربط الكلام بعضه ببعض، كقصة يوسف على طولها. ثم إذا ترددت قصصه اختلفت العبارات عنها على كثرة ترددها حتى تكاد كل واحدة تنَسِّي في البيان صاحبتها، ولا نفور للنفوس من ترديدها ولا معاداة لمعادها.

النوع الثاني:

الوجه الثاني من إعجازه: صورة نظمه العجيب، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له، ولا استطاع أحد مماثلة شيء منه، بل حارت فيه عقولهم ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم، ولما سمع كلامه ﷺ الوليدُ بن المغيرة وقرأ عليه القرآن رق فجاءه أبو جهل منكرًا عليه قال: والله ما منكم أحد أعلم بالأشعار مني، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا.

وفي خَبَره الآخَرِ حين جمع قريشًا عند حضور الموسم وقال: إن وفود العرب ترد فأجمعوا فيه رأيًا لا يكذب بعضكم بعضًا. فقالوا: نقول: كاهن. قال: والله ما هو بكاهن، ما هو بزمزمته ولا سجعه. قالوا: مجنون. قال: ما هو بمجنون ولا بِخَنْقِه ولا وسوسته. قالوا: فنقول: شاعر. قال: ما هو بشاعر، قد عرفنا الشعر كله، ما هو بشاعر. قالوا: فنقول: ساحر. قال: ما هو بساحر، ولا نفثه ولا عقده. قالوا: فما تقول؟ قال: ما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلاَّ وأنا أعرف أنه باطل، وإن أقرب القول أنه ساحر، فإنه سحر يفرق بين المرء وابنه، والمرء وأخيه، والمرء وزوجه، والمرء وعشيرته. فتفرقوا وجلسوا على السبل يحذرون الناس. فأنزل الله تعالى في الوليد: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١﴾ [المدثر: ١١] الآيات[١].

وقال عتبة بن ربيعة حين سمع القرآن: يا قوم قد علمتم أني لم أترك شيئًا إلاَّ وقد علمته وقرأته وقلته، والله لقد سمعت قولاً، والله ما سمعت مثله قط: ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة[٢].

وفي حديث إسلام أبـي ذر رضي الله تعالى عنه ووصف أخاه أنيسًا فقال: والله ما سمعت بأشعر من أخي أنيس، لقد ناقض اثني عشر شاعرًا في الجاهلية أنا أحَدُهُم. وأنه انطلق إلى مكة، وجاء إلى أبـي ذر بخبر النبـي ﷺ قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون: شاعر، كاهن، ساحر. لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعته على أقراء الشعر فلم يلتئم، وما

---

(١) ذكره ابن إسحاق، وأخرجه ابن جرير ٢٩/ ١٥٣، ١٥٣، ثم البيهقي في الدلائل ٢/ ١٩٨، وقد أخرج ابن جرير سبب نزول الآية عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد.

(٢) رواه ابن إسحاق ١/ ١٨٥، ١٨٦ مرسلاً بسند حسن، ورواه البغوي في التفسير ٦/ ٨٩ متصلاً من حديث جابر.

يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر. وإنه لصادق، وإنهم لكاذبون[1].

والأخبار في هذا صحيحة كثيرة.

والإعجاز لكل واحد من النوعين: الإيجاز والبلاغة بذاتها، والأسلوب الغريب بذاته، كل واحد منهما نوع إعجاز على التحقيق، لم تقدر العرب على الإتيان بواحد منهما، إذ كل واحد خارج عن قدرتها، مباين لفصاحتها وكلامها، وإلى هذا ذهب غير واحد من المحققين. وذهب بعض المقتدى بهم إلى أن الإعجاز: مجموع البلاغة والأسلوب. والصحيح ما قدمناه، والعلم بهذا كله ضرورة وقطعًا، ومن تفنن في علم البلاغة وأرهق خاطره ولسانه أدب هذه الصناعة لم يخف عليه ما قلنا.

وقد اختلف أهل السنة في وجه عجزهم عنه، فأكثرهم يقول: إنه مما جُمِعَ في قوة جزالته ونصاعة ألفاظه وحسن نظمه وإيجازه وبديع تأليفه وأسلوبه، لا يصح أن يكون في مقدور البشر، وأنه من باب الخوارق الممتنعة عن أقدار الخلق عليها كإحياء الموتى وقلب العصا وتسبيح الحصا.

وذهب الشيخ أبو الحسن رحمه الله تعالى إلى أنه مما يمكن أن يدخل مثله تحت مقدور البشر ويقدرهم الله عليه، ولكنه لم يكن هذا ولا يكون فمنعهم الله هذا وعجزهم عنه. وقال به جماعة من أصحابه.

وعلى الطريقين: فعجز العرب عنه ثابت، وإقامة الحجة بما يصح أن يكون في مقدور البشر وتحديهم بأن يأتوا بمثله قاطع، وهو أبلغ في التعجيز وأحرى بالتقريع، والاحتجاج بمجيء بشر مثلهم بشيء ليس من قدرة البشر

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل ١٦/ ٢٧، ٣٤ بنحوه ومعناه عن أبي ذر، وأخرج البخاري معناه في المناقب باب إسلام أبي ذر ٨/ ١٧٣ عن ابن عباس.

لازم، وهو أبهر آية، وأقمع دلالة، وعلى كل حال فما أتوا في ذلك بمقال، بل صبروا على الجلاء والقتل، وتجرعوا كاسات الصَّغار والذل، وكانوا من شموخ الأنف وإباءة الضيم بحيث لا يؤثرون ذلك اختيارًا ولا يرضونه إلاَّ اضطرارًا، وإلاَّ فالمعارضة لو كانت من قدرهم والشغل بها أهون عليهم وأسرع بالنجح وقطع العذر وإفحام الخصم لديهم وهم ممن لهم قدرة على الكلام وقدوة في المعرفة به لجميع الأيام، وما منهم إلاَّ مَن جهد جهده واستنفذ ما عنده في إخفاء ظهوره وإطفاء نوره، فما جلوا في ذلك خبيئة من بنات شفاههم، ولا أتوا بنطفة من معين مياههم مع طول الأمد وكثرة العدد، وتظاهر الوالد وما ولد، بل أبلسوا فما نَبَسُوا، ومنعوا فانقطعوا، فهذان النوعان من إعجازه.

النوع الثالث:

النوع الثالث من الإعجاز: ما انطوى عليه من الأخبار بالمغيبات، وما لم يكن ولم يقع، فوجد كما ورد على الوجه الذي أخبر، كقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣﴾ [الروم: ٣]، وقوله عزَّ وجلّ: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣]، وقوله جل وعلا: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية [النور: ٥٥]، وقوله جل ثناؤه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ [الفتح: ١]، إلى آخرها.

فكان جميع هذا كما قال تعالى: فغلبت الروم فارس في بضع سنين، ودخل الناس في دين الإسلام أفواجًا، فما مات ﷺ وفي بلاد العرب كلها موضع لم يدخله الإسلام، واستخلف الله المؤمنين في الأرض ومكن فيها دينهم وملكهم إياها من أقصى المشارق إلى أقصى المغارب كما قال ﷺ: «زويت لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي

منها»[1]. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، فكان كذلك لا يكاد يعد من سعي في تغييره وتبديل محكمه من الملحدة والمعطلة لا سيما القرامطة فأجمعوا كيدهم وحولهم وقوتهم. . . فما قدروا على إطفاء شيء من نوره ولا تغيير كلمة من كلامه، ولا تشكيك المسلمين في حرف من حروفه[2] والحمد لله.

ومنه قوله تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [القمر: ٤٥]، وقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ [التوبة: ١٤]. وقوله عز وجل: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ﴾ [آل عمران: ١١١]، فكان كل ذلك.

وما فيه من كشف أسرار المنافقين واليهود ومقالهم وكذبهم في حلفهم وتقريعهم بذلك كقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ. . . ﴾ الآية [المجادلة: ٨].

وقوله تعالى: ﴿ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ. . . ﴾ الآية [آل عمران: ١٥٤]. وقوله عزَّ وجل: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ الآية [المائدة: ٤١]، وقوله جل علاه: ﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ إلى قوله: ﴿ فِي الدِّينِ﴾ [النساء: ٤٦]. وقد قال مبديًا ما قدره الله واعتقده المؤمنون يوم بدر: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ [الأنفال: ٧]، ومنه

---

(١) رواه مسلم في أوائل الفتن ١٨/ ١٣، وأبو داود ٤٠٢٢، والترمذي ٢٠٠٦، وابن ماجه ١٠، والحاكم ٤/ ٤٤٩، ٤٥٠.

(٢) وعلى الرغم مما حوته كتب الشيعة الروافض من الطعن في القرآن ــ ونقلهم عن أئمة أهل البيت كذبًا وافتراء تغييره بالزيادة والنقصان ــ فإن كل ذلك لم يؤثر في تواتر صحته عند المسلمين شيئًا، بل لم يزدد إلاَّ تعظيمًا وتقديرًا وانتشارًا. . .

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [الحجر: ٩٥]، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، فكان كذلك على كثرة من رام ضره وقصد قتله.

النوع الرابع:

الوجه الرابع: ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة والشرائع الداثرة، مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلاَّ ألفذ من أحبار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلم ذلك فيورده النبي ﷺ على وجهه ويأتي به على نصه، فيعترف العالم بذلك بصدقه وصحته وأن مثله لم ينله بتعليم. وقد علموا أنه ﷺ أمي لا يقرأ ولا يكتب ولا اشتغل بمدارسة ولا مجالسة أهل العلم[١]، ولم يغب عنهم ولا جهل حاله أحد منهم.

وقد كان أهل الكتاب كثيرًا ما يسألونه ﷺ عن هذا فينزل عليه من القرآن ما يتلو عليهم منه ذكرًا، كقصص الأنبياء مع قومهم، وخبر موسى والخضر، ويوسف وإخوته، وأصحاب الكهف، وذي القرنين، ولقمان وابنه، وأشباه ذلك من الأنبياء، وبدء الخلق، وما في التوراة، والإنجيل والزبور، وصحف إبراهيم، وموسى، مما صدقه فيه العلماء بها ولم يقدروا على تكذيب ما ذكر منها، بل أذعنوا لذلك، فمن موفق آمن بما سبق له من خير، ومن شقي معاند حاسد.

ومع هذا لم يحك عن واحد من النصارى واليهود على شدة عداوتهم له وحرصهم على تكذيبه وطول احتجاجه عليهم بما في كتبهم وتقريعهم بما

(١) ولم يكن إذاك مدارس ولا جامعات ولا أساتذة ولا دكاترة ولا كليات للقراءات ولا للعلوم... فجاء ﷺ بما حارت فيه عقول أكابر المفكرين وأساطين الفلسفة وأخفقوا وأبلسوا عبر العصور والأجيال.

انطوت عليه مصاحفهم، وكثرة سؤالهم له ﷺ وتعنيتهم إياه عن أخبار أنبيائهم وأسرار علومهم ومستودعات سيرهم وإعلامه لهم بمكتوم شرائعهم ومضمنات كتبهم، مثل سؤالهم عن الروح وعيسى وحكم الرجم وما حرم إسرائيل على نفسه[1] وما حرم عليهم من الأنعام ومن طيبات كانت أحلت لهم فحرمت عليهم ببغيهم وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وغير ذلك من أمورهم التي نزل فيها القرآن فأجابهم وعرفهم بما أوحى إليه من ذلك أنه أنكر ذلك أو كذبه، بل أكثرهم صرح بصحة نبوته وصدق مقالته واعترف بعناده وحسده إياه كأهل نجران وابن صوريا وابنَيّ أخطب وغيرهم، ومن باهت في ذلك لما حكاه مخالفة دعي إلى إقامة حجته وكشف دعوته فقيل له[2]: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [آل عمران: ٩٣، ٩٤]، فقرع ووبخ ودعا إلى إحضار ممكن غير ممتنع، فمن معترف بما جحده، ومتواقح يلقي على فضيحته من كتابه يده[3]، ولم يؤثر أن واحدًا منهم أظهر خلاف قوله من كتبه ولا أبدى صحيحًا ولا سقيمًا من صحفه، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ﴾ الآيتين [المائدة: ١٥ ـ ١٦].

---

(١) أما سؤالهم عن الروح: فرواه البخاري في الاعتصام، وفي التفسير ١٠/ ١٥، ١٦، ١٧، ١٩، ومسلم في المناقب، والترمذي في التفسير ٢٩٣٩ عن ابن مسعود. وأما حديث سؤالهم عن الرجم فرواه البخاري في المحاربين ١٥/ ١٨٢، ١٨٣، ومسلم في الحدود ١١/ ٢٠٩، ٢١٠: وأما حديث سؤالهم عما حرم إسرائيل... إلخ، فرواه أحمد ١/ ٢٧٣، ٢٧٤، والترمذي في تفسير سورة الرعد ٢٩١٥ وحسَّنه وصحَّحه وهو من حديث ابن عباس.

(٢) انظر قصة ذلك في التفسير من صحيح البخاري ٩/ ٢٩٢، ومسلم في الحدود وغيرها.

(٣) في هذا إشارة إلى قصة إحضار التوراة وإلقاء بعض اليهود يده على آية الرجم.

أنواع أخرى من إعجاز القرآن

فهذه الوجوه الأربعة من إعجازه بينة لا نزاع فيها ولا مرية.

* ومن الوجوه البينة في إعجازه من غير هذه الوجوه، أي: وردت بتعجيز قوم في قضايا وإعلامهم أنهم لا يفعلونها، فما فعلوا ولا قدروا على ذلك كقوله تعالى لليهود: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً...﴾ الآية [البقرة: ٩٤]. قال العلماء: في هذه الآية أعظم حجة وأظهر دلالة على صحة الرسالة؛ لأنه قال لهم: ﴿فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ﴾ [البقرة: ٩٤] وأعلمهم أنهم لن يتمنوه أبدًا، فلم يتمنه واحد منهم. وعنه ﷺ: «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار»[1]. فصرفهم الله تعالى عن تمنيه وجزَّعهم؛ ليظهر صدق رسوله وصحة ما أوحى إليه، إذ لم يتمنه أحد منهم وكانوا على تكذيبه أحرص لو قدروا، ولكن الله تعالى يفعل ما يريد، فظهرت بذلك معجزته وبانت حجته.

وكذلك آية المباهلة من هذا المعنى؛ حيث وفد عليه أساقفة نجران وأبو الإسلام[2]، فأنزل الله تعالى عليه آية المباهلة بقوله: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾، إلى قوله: ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران: ٦١]. فامتنعوا منها ورضوا بأداء الجزية، وذلك أن العاقب عظيمهم قال لهم: قد علمتم أنه نبي، وأنه ما لاعن قومًا نبي قط فبقي كبيرهم ولا صغيرهم.

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢٤٨ وغيره بسند صحيح.

(٢) رواه البخاري في المغازي، باب قصة أهل نجران ٩/ ١٥٦، ١٥٧، ومسلم في الفضائل ١٥/ ١٩٢ عن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل فوالله لئن كان نبيًا فلاعنا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا... الحديث.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤]، فأخبرهم أنهم لا يفعلون كما كان.

* ومن وجوه إعجازه: الروعة التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته لقوة حاله، وهي على المكذبين به أعظم، حتى كانوا يستثقلون سماعه ويزيدهم نفورًا ويودون انقطاعه لكراهتهم له.

وأما المؤمن فلا تزال روعته به وهيبته إياه ــ مع تلاوته ــ توليه انجذابًا وتكسبه هشاشة وارتياحًا وفرحًا لميل قلبه إليه وتصديقه به، قال الله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا...﴾ الآية [الحشر: ٢١].

ويدل على أن هذا شيء خص به، أنه يعتري من لا يفهم معانيه ولا يعلم تفاسيره، كما روي عن نصراني أنه مر بقارىء فوقف يبكي، فقيل له: مم بكيت؟ قال: للشَّجَى والنظم.

وهذه الروعة قد اعترت جماعة قبل الإسلام وبعده، فمنهم من أسلم لها لأول وهلة وآمن به، ومنهم من كفر. فحكي في الصحيح عن جبير بن مطعم قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الطور: ٣٥ ــ ٣٧]، كاد قلبي أن يطير للإسلام. وفي رواية: وذلك أول ما وقر الإسلام في قلبي[1].

(١) رواه البخاري في التفسير ١٠/٢٢٦، ومسلم في الصلاة ٤/١٨٠ وغيرهما.
وقوله: «وقر الإسلام...» إلخ، أي: تمكن واستقر. =

وعن عتبة بن ربيعة أنه كلم النبي ﷺ فيما جاء به من خلاف قومه فتلا عليه: ﴿حمٓ ، فُصِّلَتۡ . . .﴾ إلى قوله تعالى: ﴿صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ١٣﴾ [فصلت: ١ ــ ١٣]، فأمسك عتبة بيده على في النبي ﷺ وناشده الرحم أن يكف. وفي رواية: فجعل النبي ﷺ يقرأ وعتبة مُصْغٍ، ملقٍ يديه خلف ظهره معتمد عليهما حتى انتهى إلى السجدة فسجد ﷺ وقام عتبة لا يدري بم يراجعه، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قومه حتى أتوه فاعتذر لهم، وقال: والله لقد كلمني بكلام والله ما سمعت أذناي بمثله قط فما دريت ما أقول له[1].

وقد حكي عن غير واحد ممن رام معارضته أنه اعترته روعة وهيبة كف بها عن ذلك، فحكي أن ابن المقفع طلب ذلك ورامه وشرع فيه فمر بصبي يقرأ: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ [هود: ٤٤]، فرجع فمحى ما عمل، وقال: أشهد أن هذا لا يعارض وما هو من كلام البشر، وكان من أفصح أهل زمانه.

وكان يحيى بن حكم الغزال بليغ الأندلس في زمنه، حكي أنه رام شيئًا من هذا، فنظر في سورة الإخلاص ليحذو على مثالها بزعمه. قال: فاعترتني منه خشية ورقة حملتني على التوبة والإنابة.

* ومن وجوه إعجازه كونه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا، مع تكفل الله تعالى بحفظه، فقال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: ٩]، وقال: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ . . .﴾ الآية [فصلت: ٤٢]، وسائر معجزات الأنبياء انقضت بانقضاء أوقاتها فلم يبق إلاَّ خبرها،

= وقول المؤلف هنا: «فحكي في الصحيح» لا يقال هذا في الأحاديث النبوية ولا سيما الصحيحة، وإنما يقال ذلك في الأخبار العادية المحتملة للصدق والكذب.

(١) تقدم في هذا الفصل.

والقرآن العزيز الباهر آياته، الظاهر معجزاته، على ما كان عليه إلى وقتنا هذا، حجة قاهرة، ومعارضته ممتنعة، والأعصار كلها طافحة بأهل البيان وأئمة البلاغة وفرسان الكلام، والملحد فيهم كثير[(١)] والمعادي للشرع عتيد، فما منهم من أتى بشيء، تؤثر في معارضته، ولا ألف كلمتين في مناقضته، ولا قدر فيه على مطعن صحيح، بل المأثور عن كل من رام ذلك النكوص على عقبيه.

* ومن وجوه إعجازه أن قارئه لا يمله، وسامعه لا يمجه، بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة، وترديده يوجب له محبة، لا يزال غضًّا طريًا، وغيره من الكلام ولو بلغ في الحسن والبلاغة مبلغه يُملُّ مع الترديد ويعادىٰ إذا أعيد. وكتابنا يُسْتَلَذُّ به في الخلوات، ويؤنس بتلاوته في الأزمات، وسواه من الكتب لا يوجد فيها ذلك، حتى أحدث أصحابها لحونًا وطرقًا يستجلبون بتلك اللحون تنشيطهم على قراءتها.

ولهذا وصف رسول الله ﷺ القرآن بأنه «لا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عبره، ولا تفنى عجائبه، هو الفصل ليس بالهزل، ولا يشبع منه العلماء، ولا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، هو الذي لم تنته الجن حين سمعته أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن: ١]»[(٢)].

---

(١) وخاصة في عصرنا في القرن الرابع عشر مع الخامس عشر؛ فقد حاولوا تغييره مرارًا، وطبع محرفًا عدة مرات من طرف اليهود والمبشرين المسيحيين وغيرهم، فافتضحوا وأخفقوا ورد الله كيدهم في نحورهم، وها هو القرآن الكريم ظاهر يتلى ويحفظ في المساجد والكتاتيب والدور ويذاع على أمواج الإذاعات في كل الدول حتى الكافرة منها، وما استطاع أحد إدخال أو إخراج حرف منه، وبقي يتلى كذلك.

(٢) رواه أحمد ١/ ٩١، والترمذي ٢٧١٥، والدارمي ٣٣٣٤، ٣٣٣٥. وهو وإن كان سنده ضعيفًا فإن له شاهدًا عن ابن مسعود، رواه الدارمي ٣٣١٨، والحاكم =

* ومن وجوه إعجازه: جمعه لعلوم ومعارف لم تعهد العرب عامة ولا حبيبنا محمد ﷺ قبل نبوته خاصة بمعرفتها، ولا القيام بها، ولا يحيط بها أحد من علماء الأمم، ولا يشتمل عليها كتاب من كتبهم؛ فجمع فيه من بيان علم الشرائع والتنبيه على طرق الحجج العقليات والرد على فرق الأمم ببراهين قوية، وأدلة بينة، سهلة الألفاظ موجزة المقاصد، رام المتحذلقون بعدُ أن ينصبوا أدلة مثلها فلم يقدروا عليها، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس: ٨١]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]. وقوله عزَّ وجلّ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

إلى ما حواه من علوم السير وأنباء الأمم، والمواعظ والحكم، وأخبار الدار الآخرة، ومحاسن الآداب والشيم. قال الله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [المائدة: ٣٨]، وقال جل علاه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال جل ثناؤه: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم: ٥٨].

وقال ﷺ: «فيه نبؤكم وخبر ما كان قبلكم ونبأ ما بعدكم، وحكم ما بينكم، لا يخلقه طول الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الحق ليس بالهزل، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن خاصم به فلج، ومن قسم به أقسط، ومن عمل به أجر، ومن تمسك به هدي إلى صراط مستقيم، ومن طلب الهدى من غيره أضله الله، ومن حكم بغيره قصمه الله، هو الذكر الحكيم، والنور المبين، والصراط المستقين، وحبل الله المتين، والشفاء النافع،

= ٢/ ٢٨٩ وصححه، ورده الذهبي. وعلى كلٍّ فيتقوى به وليس فيه ما ينكر، بل عليه أنوار النبوة كما لا يخفى.

عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه، لا يعوج فيقوم، ولا يزيغ فيستعتب»[1].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [النمل: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى. . . ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، فجمع فيه مع وجازة ألفاظه وجوامع كلمه أضعاف ما في الكتب قبله التي ألفاظها على الضعف منه مرات.

* ومن وجوه إعجاز: جمعه فيه بين الدليل ومدلوله، وذلك أنه احتج بنظم القرآن وحسن وصفه وإيجازه وبلاغته، وأثناء هذه البلاغة أمره ونهيه، ووعده ووعيده، فالتالي له يفهم موضع الحجة والتكليف معًا من كلام واحد، وسورة منفردة.

* ومن ذلك: أن جعله في حيز المنظوم الذي لم يعهد، ولم يكن في حيز المنثور، لأن المنظوم أسهل على النفوس، وأوعى للقلوب، وأسمع في الأذان، وأحلى على الأفهام، فالناس إليه أميل، والأهواء إليه أسرع.

* ومن ذلك: تيسيره تعالى حفظه لمتعلميه، وتقريبه على متحفظيه، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾ [القمر: ١٧]، وسائر الأمم لا يحفظ كتبها الواحد منهم فكيف الجماء على مرور السنين عليهم، والقرآن ميسر حفظه للغلمان في أقرب مدة.

* ومن ذلك: مشاكلة بعض أجزائه بعضًا، وحسن ائتلاف أنواعها، وحسن التخلص من قصة إلى أخرى، والخروج من باب إلى غيره، على اختلاف معانيه، وانقسام السورة الواحدة إلى أمر، ونهي، وخبر، واستخبار، ووعد، ووعيد، وإثبات نبوة، وتوحيد، وتفريد، وترغيب،

---

(١) نفس التعليق السابق.

وترهيب، إلى غير ذلك من فوائده، دون خلل يتخلل فصوله. والكلام الفصيح إذا اعتوره مثل هذ ضعفت قوته ولانت جزالته، وقل رونقه، واضطربت ألفاظه.

فتأمل أول ﴿صٓ﴾ وما جمع فيها من أخبار الكفار وشقاقهم وتقريعهم بإهلاك القرون من قبلهم، وما ذكر من تكذيبهم بحبيبنا محمد ﷺ وتعجبهم مما أتى به، والخبر عن اجتماع ملئِهم على الكفر، وما ظهر من الحسد في كلامهم، وتعجيزهم وتوهينهم، ووعيدهم بخزي الدنيا والآخرة، وتكذيب الأمم قبلهم، وإهلاك الله لهم، ووعيد هؤلاء مثل مصابهم، وتصبير النبي ﷺ على أذاهم، وتسليته بكل ما تقدم ذكره. ثم أخذ في ذكر داود وقصص الأنبياء صلوات الله وسلامهم عليهم. كل هذا في أوجز كلام وأحسن نظام.

وهذا كله وكثير مما ذكرنا أنه ذكر في إعجاز القرآن، إلى وجوه كثيرة ذكرها الأئمة رحمهم الله تعالى لم نذكرها إذ أكثرها داخل في بلاغته، وكذلك كثير مما قدمنا يعد في خواصه وفضائله لا في إعجازه، وحقيقة الإعجاز الوجوه الأربعة الأولى وما بعدها من خواص القرآن وعجائبه التي لا تنقضي والله ولي التوفيق.

معجزة انشقاق القمر

قال الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ [القمر: ١، ٢]، أخبر تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضي، وإعراض الكفرة عن آياته. وأجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه[١].

---

(١) وكيف لا يجمعون على ذلك والقرآن ينص عليه والأحاديث بذلك متضافرة، حتى قال ابن السبكي في شرح مختصر ابن الحاجب: الصحيح عندي أن انشقاق القمر =

فعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا»[1].

وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر مرتين[2].

ونحوه عن ابن عمر وابن عباس وغيرهم رضي الله تعالى عنهم[3].

وعن جبير بن مطعم رضي الله تعالى عنه قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ حتى صار فرقتين على هذا الجبل وعلى هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد، فقال بعضهم: لئن كان سحرنا فما يستطيع أن يسحر الناس كلهم[4].

= متواتر منصوص عليه في القرآن مروي في الصحيحين وغيرهما من طرق شتى لا يمترى في تواتره. وكذا قال ابن كثير في التفسير: إنه ورد ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة قال: وهذا أمر متفق عليه بين العلماء، أن انشقاق القمر قد وقع في زمن النبي ﷺ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات. وقال القنوجي في فتح البيان: فقد ثبت في الصحيح وغيره من طرق متواترة أنه قد كان ذلك في أيام النبوة. وقال الفخر الرازي: والمفسرون بأسرهم على أن المراد أن القمر انشق... إلخ.

(١) أسنده من طريق البخاري وهو، عنده في التفسير ١٠/ ٢٤٠، وفي المناقب ٨/ ١٨٣، ١٨٥، ومسلم في صفة القيامة ١٧/ ١٤٤، والترمذي ٣٠٦٩، وكذا أحمد رقم ٣٥٨٣ وغيرهم.

(٢) البخاري في التفسير ١٠/ ٢٤١، وفي المناقب ٨/ ١٨١، ومسلم في صفة القيامة ١٧/ ١٤٥.

(٣) حديث ابن عمر رواه مسلم ١٧/ ١٤٤، ١٤٥.

(٤) رواه أحمد ٤/ ٨١، ٨٢، والترمذي ٣٠٧٢، والحاكم ٢/ ٤٧٢ بسند صحيح على شرط مسلم. =

والآية مصرحة، ولا يلتفت إلى اعتراض مخذول، بأنه لو كان هذا لم يخف على أهل الأرض، إذ هو ظاهر للجميع؛ إذ لم ينقل لنا عن أهل الأرض أنهم رصدوه تلك الليلة فلم يروه انشق، ولو نقل إلينا عمن لا يجوز تمالؤهم لكثرتهم على الكذب لما كانت علينا به حجة؛ إذ ليس القمر في حد واحد لجميع أهل الأرض فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على الآخرين. . وقد يحول بين قوم وبينه سحاب أو جبال، ولهذا تجد الكسوفات في بعض البلاد دون بعض، وفي بعضنا جزئية، وفي بعضها لا يعرفها إلاَّ المدعون لعلمها، ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾.

وآية القمر كانت ليلاً، والعادة من الناس بالليل الهدوء وإغلاق الأبواب، ولا يكاد يعرف من أمور السماء شيئًا إلاَّ من رصد ذلك، وكثيرًا ما يحدث الثقات بعجائب يشاهدونها من أنوار نجوم طوالع عظام تظهر في الأحيان بالليل ولا علم عند أحد منها.

= هذا فيما يتعلق بانشقاق القمر. وقد ذكر المؤلف رحمه الله عقبه حديث رجوع الشمس للنبي ﷺ بعدما غربت. وذكر في ذلك حديث أسماء بنت عُمَيْس الذي رواه الطحاوي في مشكل الآثار ٢/٨، ٩، وذكر عنه أن رجاله ثقات. وقد ورد أيضًا من حديث جابر، رواه الطبراني في الكبير. والحديث حسنه أبو زرعة العراقي والحافظ السيوطي، وصححه الحافظ أبو الفتح الأزدي، وأورده الحافظ في الفتح وذكر طرقه وقال: قد علمت مما أسلفنا من حكم الحفاظ في هذا الحديث وتبين حال رجاله أنه ليس فيهم متهم ولا من أجمع على تركه ولاح له ثبوت الحديث وعدم بطلانه. . .إلخ. وكذا أورده الهيثمي ٨/٢٩٧ برواية كبير الطبراني، وقال: بأسانيد، ورجال أحدها رجال الصحيح. . .إلخ، فانظر بقية كلامه. وأورده ابن الجوزي في الموضوعات وغيره، وقد أطنب في بطلانه شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة بما لا مزيد عليه. وذكر لبطلانه أدلة قوية.

نبع الماء من بين أصابعه الشريفة وتكثيره ببركته ﷺ

روي نبع الماء من أصابعه ﷺ جماعة من الصحابة رضي الله تعالى عنهم، كأنس وابن مسعود وجابر وابن عباس وعمران بن حصين وغيرهم.

فعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر، فالتمس الناس الوضوء، فلم يجدوه، فأُتي رسول الله ﷺ بوضوء، فوضع رسول الله ﷺ في ذلك الإناء يده وأمر الناس أن يتوضؤا منه، فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ الناس حتى توضؤا من عند آخرهم. في رواية: قيل: كم كنتم؟ قال: زهاء ثلاثمائة. وفي رواية: ثمانين. وفي أخرى سبعين رجلاً(١).

وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ وليس معنا ماء، فقال لنا رسول الله ﷺ: «اطلبوا من معه فضل ماء»، فأتي بماء فصبه في إناء ثم وضع كفه فيه فجعل الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ(٢).

وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: عطش الناس يوم الحديبية، ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة، فتوضأ منها، وأقبل الناس نحوه وقالوا: ليس عندنا ماء إلاَّ ما في ركوتك فوضع النبي ﷺ يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون. وفيه: فقيل: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة

---

(١) رواه أحمد ٣/ ١٦٥، والبخاري في الطهارة ١/ ٢٨١، ٢٨٢، وفي علامات النبوة ٧/ ٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٨، ومسلم في الفضائل ١٥/ ٣٨، ٣٩، والترمذي ٣٤٠٦.
وقوله: الوضوء بفتح الواو، يطلق على الماء الذي يتوضأ به وعلى الآنية التي فيها الماء.

(٢) رواه البخاري في علامات النبوة ٧/ ٤٠٢، ٤٠٣، والترمذي ٣٤٠٨، وكذا أحمد ١/ ٤٠٢، ٤٠٦، والدارمي ٢٩.

ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة[1].

وعنه في ذكر غزوة، بُواط قال لي رسول الله ﷺ: «يا جابر ناد الوضوء»، فذكر الحديث بطوله، وأنه لم يجد إلاَّ قطرة في عزلاء شجب فأتى به النبي ﷺ فغمزه وتكلم بشيء لا أدري ما هو، وقال: «ناد بجفنة الركب»، فأتيت فوضعتها بين يديه.. وذكر أن النبي ﷺ بسط يده في الجفنة وفرق أصابعه وصب جابر عليه، وقال: «بسم الله»، قال: فرأيت الماء يفور من بين أصابعه ثم فارت الجفنة واستدارت حتى امتلأت، وأمر الناس بالاستقاء فاستقوا حتى رووا، فقلت: هل بقي أحد له حاجة؟ فرفع رسول الله ﷺ يده من الجفنة وهي ملآى[2].

ومثل هذا في هذه المواطن الحَفِلَة والجموع الكثيرة لا تتطرق التهمة إلى المحدث به لأنهم كانوا أسرع شيء إلى تكذيبه لما جبلت عليه النفوس من ذلك، ولأنهم كانوا ممن لا يسكت على باطل، فهؤلاء قد رووا هذا وأشاعوه ونسبوا حضور الجماء الغفير له، ولم ينكر أحد من الناس عليهم ما حدثوا به عنهم أنهم فعلوه وشاهدوه فصار كتصديق جميعهم له[3].

---

(١) رواه البخاري في الأشربة ١٢/ ٢٠٤، ٢٠٥، وفي علامات النبوة ٧/ ٣٩٨، وفي المغازي ٨/ ٤٤٧، ٤٤٨، وأحمد ٣/ ٣٢٩.
وقوله: ركوة بفتح الراء وسكون الكاف إناء من جلد.

(٢) رواه مسلم آخر الكتاب ١٨/ ١٤٥، ١٤٦.

(٣) قال القرطبي: لم يسمع بمثل هذه المعجزة عن غير نبينا ﷺ، حيث نبع الماء من بين عظمه وعصبه ولحمه ودمه. وقد نقل ابن عبد البر عن المزني أنه قال: نبع الماء من بين أصابعه ﷺ أبلغ في المعجزة من نبع الماء من الحجر، حيث ضربه موسى عليه السلام بالعصا فتفجرت منه المياه؛ لأن خروج الماء من الحجارة معهود، بخلاف خروج الماء من بين اللحم والدم. اهـ. نقله الحافظ في الفتح.
وهذه القصة في نبع الماء من بين أصابعه تكررت منه في عدة مواطن في مشاهد =

تفجير الماء ببركته وانبعاثه بمسه ودعوته ﷺ

عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه في قصة غزوة تبوك وأنهم وردوا العين وهي تبصّر بشيء من ماء مثل الشراك، فغرفوا من العين بأيديهم حتى اجتمع في شيء، ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويديه وأعاده فيها، فجرت بماء كثير فاستقى الناس. وفيه قوله ﷺ: «يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ههنا قد ملىء جنانًا»[1].

وفي حديث البراء وسلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنهما في قصة الحديبية وهم أربع عشرة مائة وبئرها لا تروي خمسين شاة: فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فقعد رسول الله ﷺ على جباها. . قال البراء: وأُتي بدلو منا فبصق فدعا. . وقال سلمة: فإما دعا وإما بصق فيها فجاشت، فأرووا أنفسهم وركابهم[2].

= عظيمة حضرًا وسفرًا. قال العلماء: ووردت من طرق كثيرة يفيد مجموعها العلم القطعي المستفاد من التواتر المعنوي.

(١) رواه أحمد ٥/ ٢٣٧، ٢٣٨، ومسلم في الفضائل ١٥/ ٤٠، ٤١ مطولاً.
وقوله: «تبص» بفتح التاء وكسر الباء وتشديد الصاد المهملة، أي: تلمع، وفي رواية تبض بالمعجمة، أي: تسيل وتقطر. و «الشراك»: هو سير رقيق يجعل في النعل.
وفي هذا الحديث مع ما فيه من معجزة جريان الماء ببركة لمسه ﷺ فيه معجزة أخرى وهي: إخباره بما وقع حاليًا من وجود البساتين والجنان والحدائق في تبوك بما ظهر من المياه. . . وقد أصبحت تبوك اليوم مدينة ذات سكان وعمران. . . بعد أن كانت صحراء قاحلة رملية.

(٢) أما حديث البراء فرواه البخاري في علامات النبوة ٣٩٨/٧، وفي المغازي ٨/ ٤٤٧، ٤٤٨. وأما حديث سلمة فهو في السير من صحيح مسلم ١٢/ ١٧٥ مطولاً.

وفي رواية لغيرهما: فأخرج سهمًا من كنانته فوضعه في قعر قليب ليس فيه ماء فروى الناس حتى ضربوا بعطن.

وعن أبـي قتادة رضي الله تعالى عنه، وذكر: أن الناس شكوا إلى رسول الله ﷺ العطش في بعض أسفاره، فدعا بالميضأة فجعلها في ضِبْنِه، ثم التقم فمها فالله أعلم نفث فيها أم لا، فشرب الناس حتى رووا وملأوا كل إناء معهم فخيّل إليَّ أنها كما أخذها مني، وكانوا اثنين وسبعين رجلاً[1].

وفي رواية عنه: أنه قال له: «احفظ عليَّ ميضأتك فإنه سيكون لها نبأ. . .» وذكر نحوه[2].

ومـن ذلـك حـديـث عمـران بـن حصيـن رضـي الله عنـه حيـن أصـاب النبـي ﷺ وأصحابه عطشٌ في بعض أسفارهم فوجه رجلين من أصحابه، وأعلمها أنهما يجدان امرأة بمكان كذا معها بعير عليه مزادتان. . . وفيه: فوجداها وأتيا بها إلى النبـي ﷺ فجعل في إناء من مزادتيها وقال فيه ما شاء الله أن يقول، ثم أعاد الماء في المزادتين ثم فتحت عزاليها وأمر الناس فملؤوا أسقيتهم حتى لم يدعوا شيئًا إلاَّ ملؤوه. قال عمران: ويخيل إلي أنهما لم تزدادا إلاَّ امتلاءً، ثم أمر فجمع للمرأة من الأزواد حتى ملأ ثوبها، وقال: «اذهبـي فإنا لم نأخذ من مائك شيئًا ــ ولكن الله تعالى سقانا ــ الحديث بطوله[3].

---

(١) رواه مسلم في المساجد من كتاب الصلاة ٥/ ١٨٣، ١٨٩ مطولاً. والضبن: ما بين الكشح إلى الإبط.

(٢) نفس المرجع السابق.

(٣) رواه أحمد ٤/ ٤٣٤، ٤٣٥، والبخاري في التيمم ١/ ٤٦٤، ٤٧٠، وفي علامات النبوة ٧/ ٣٩٢، ٣٩٤، ٣٩٥، ومسلم في المساجد ٥/ ١٨٩، ١٩٢ مطولاً في نومهم حتى طلعت الشمس.

وفي حديث عمر رضي الله تعالى عنه في جيش العسرة . . وذكر ما أصابهم من العطش حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه فرغب أبو بكر رضي الله تعالى عنه إلى النبي ﷺ في الدعاء، فرفع يديه، فلم يرجعهما حتى قالت السماء، فانسكبت فملئوا ما معهم من آنية، ولم تجاوز العسكر(١).

معجزة تكثير الطعام ببركته ودعائه ﷺ

عن جابر رضي الله تعالى عنه: أن رجلاً أتى النبي ﷺ يستطعمه، فأطعمه شطر وسق شعير، فما زال يأكل منه وامرأته وضيفه حتى كاله، فأتى النبيَّ ﷺ فأخبره، فقال: لو لم تكله لأكلتم منه ولقام بكم(٢).

* ومن ذلك: حديث أبي طلحة المشهور، وإطعامه ﷺ ثمانين أو سبعين رجلاً من أقراص من شعير جاء بها أنس تحت يده، أي: إبطه، فأمر بها فَفُتِّتْ، وقال فيها ما شاء الله أن يقول(٣).

وحديث جابر في إطعامه ﷺ يوم الخندق ألف رجل من صاع شعير وعَناق. قال جابر: فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتَغطُّ كما هي، وإن عجيننا ليخبز، وكان رسول الله ﷺ بصق في العجين والبرمة وبارك(٤).

---

(١) رواه ابن حبان ١٧٠٧، والحاكم ١/ ١٥٩ بسند صحيح. وعزاه الهيثمي ٦/ ١٩٤، ١٩٥، للبزار والطبراني، قال: رجال البزار ثقات. وأقول: هذا باب واسع، إحصاؤه يحتاج إلى تتبع ووقت.

(٢) أسنده من طريق مسلم، وهو عنده في أول الفضائل ١٥/ ٤٠. وفي هذا الحديث معجزة ظاهرة وبركة واضحة.

(٣) رواه أحمد والبخاري في علامات النبوة ٧/ ٣٩٩، ٤٠٢، وفي الأطعمة، ومسلم في الأشربة ١٣/ ٢١٧، ٢٢٣ وغيرهم من طرق وألفاظ.

(٤) رواه البخاري في غزوة الخندق ٨/ ٣٩٨، ٤٠١، ٤٠٢، ومسلم في الأشربة =

وعن سمرة بن جندب قال: أتي النبي ﷺ بقصعة فيها لحم فتعاقبوها من غَدوة حتى الليل يقوم قوم ويقعد أخرون[1].

ومن: ذلك حديث عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله تعالى عنهما قال: كنا مع النبي ﷺ ثلاثين ومائة.. وذكر في الحديث: أنه عجن صاع من طعام وصنعت شاة فشوي سواد بطنها. قال: وأيم الله ما من الثلاثين ومائة إلاَّ وقَدْ حزَّ له حزّة من سواد بطنها، ثم جعل منها قصعتين، فأكلنا أجمعون وفضل في القصعتين، فحملته على البعير[2].

ومن ذلك: حديث سلمة بن الأكوع، وأبي هريرة، وعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنهم ذكروا مخمصة أصابت الناس مع النبي ﷺ في بعض مغازيه، فدعا ببقية الأزواد، فجاء الرجل بالحثية من الطعام وفوق ذلك، وأعلاهم الذي أتى بالصاع من التمر، فجمعه على

= ١٣/ ٢١٥، ٢١٧ وفيه: .. فجئته فساررته فقلت: يا رسول الله إنا قد ذبحنا بُهَيمَة لنا وطحنت صاعًا من شعير كان عندنا فتعال أنت في نفر معك. فصاح رسول الله ﷺ وقال: «يا أهل الخندق إن جابرًا قد صنع لكم سورًا فحيهلا بكم»، وقال رسول الله ﷺ: «لا تَنزلُنَّ برمتكم ولا تَخْبِزُنَّ عجينتكم حتى أجيء» فجئت وجاء رسول الله ﷺ يقْدُم الناس، قال: فأخرجتُ له عجينتنا فبصق فيها وبارك، ثم عمد إلى برمتنا فبصق فيها وبارك، ثم قال: «ادعي خابزة فلتخبز معك واقدَحِي من برمتكم ولا تنزلوها»، وهم ألف، فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه... إلخ.

(١) رواه الترمذي في المناقب ٣٤٠٠، والدارمي ٥٧، والحاكم ٢/ ٦١٨، وصححه الترمذي والحاكم والذهبي، وهو على شرط البخاري ومسلم وفيه: تقوم عشرة وتقعد عشرة، قلنا: فما كانت تمد؟ قال: من أي شيء تعجب، ما كانت تمد إلاَّ من ها هنا، وأشار بيده إلى السماء.

(٢) رواه البخاري في البيوع، وفي الهبة ٦/ ١٦٠ وغيرهما، ومسلم ١٤/ ١٦، ١٧ في الأطعمة. وقوله: «سواد بطنها»، يعني: الكبد. «وحزّ له»، أي: قطع.

نِطَع. قال سلمة: فحزرته كربضة العنز، ثم دعا الناس بأوعيتهم فما بقي في الجيش وعاء إلاَّ ملؤه، وبقي منه قدر ما جعل وأكثر، ولو ورد أهل الأرض لكفاهم[1].

وعن علي رضي الله تعالى عنه: جمع رسول الله ﷺ بني عبد المطلب وكانوا أربعين، منهم قوم يأكلون الجذعة ويشربون الفرق، فصنع لهم مدًّا من طعام، فأكلوا حتى شبعوا، وبقي كما هو، ثم دعا بعس فشربوا حتى رووا وبقي كأنه لم يشرب منه[2].

وقال أنس رضي الله تعالى عنه: إن النبي ﷺ حين ابتنى بزينب أمره أن يدعو له قومًا سماهم، وكل من لقيت، حتى امتلأ البيت والحجرة، وقدم إليهم تورًا فيه قدر مد من تمر جعل حيسًا، فوضعه قدامه وغمس ثلاث أصابعه، وجعل القوم يتغدون ويخرجون، وبقي التور نحوًا مما كان، وكان القوم أحدًا أو اثنين وسبعين. وفي رواية في هذه القصة أو مثلها: إن القوم كانوا زهاء ثلاثمائة، وأنهم أكلوا حتى شبعوا. وقال لي: «ارفع» فلا أدري، حين وضعت كانت أكثر أم حين رفعت[3].

---

(١) رواه البخاري في الشركة ٦/ ٥٥ وفي الجهاد، ومسلم قبيل الجهاد ١٢/ ٣٣، ٣٤، وفيه عند البخاري ذكر عمر. و «المخمصة»: الجوع. و «النطع» بساط من جلد. وقوله: «فحزرته»، أي: قدرته. و «ربضة العنز» مثل جثتها إذا ربضت في مربضها.

(٢) رواه أحمد ١/ ١٥٩ بسند صحيح، وأورده نور الدين في المجمع ٨/ ٣٠٢، وعزاه لأحمد. قال: ورجاله ثقات. وقوله: «بعس». الصواب: بِغُمر، كما في المسند والمجمع، وهو: القدح الصغير.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في تفسير سورة الأحزاب ١٠/ ١٤٨، ومسلم في النكاح ٩/ ١٣٣، والسياق له مع تغيير يسير. و «الحيس» خليط من تمر وسمن وأقط.

وعن النعمان بن مقرن رضي الله تعالى عنه قال: قدمنا على رسول الله ﷺ في أربعمائة من مزينة، فأمرنا رسول الله ﷺ بأمره، فقال بعض القوم: يا رسول الله ﷺ ما لنا طعام نتزوده؟ فقال النبي ﷺ لعمر: «زودهم». فقال: ما عندي إلاَّ فاضلة من تمر وما أراها تغني عنهم شيئًا. فقال: «انطلق فزودهم». فانطلق بنا إلى علية، فإذا فيها تمر مثل البكر الأورق فقال: خذوا. فأخذ القوم حاجتهم. قال: وكنت أنا في آخر القوم، قال: فالتفت وما أفقد موضع تمرة وقد احتمل منه أربعمائة رجل(١).

ومن ذلك: حديث جابر في دين أبيه بعد موته، وقد كان بذل لغرماء أبيه أصل ماله فلم يقبلوه، ولم يكن في ثمرها سنتين كفاف دينهم، فجاءه النبي ﷺ ــ بعد أن أمره بجدِّها وجعلها بيادر في أصولها ــ فمشى فيها ودعا، فأوفى منه جابر غرماء أبيه وفضل مثل ما كانوا يجدون كل سنة. وفي رواية: مثل ما أعطاهم. قال: وكان الغرماء يهود، فعجبوا من ذلك(٢).

ومنه أيضًا: حديث أبي هريرة حين أصابه الجوع، فاستتبعه النبي ﷺ فوجد لبنًا في قدح قد أهدي إليه وأمره أن يدعو أهل الصفة. قال: فقلت: ما هذا اللبن فيهم؟ كنت أحق أن أصيب منه شربة أتقوى بها. فدعوتهم، وذكر أمر النبي ﷺ أن يسقيهم، فجعلت أعطي الرجل فيشرب حتى يروي ثم يأخذه الآخر، حتى روى جميعهم، قال: فأخذ النبي ﷺ

---

(١) رواه أحمد ٥/ ٤٤٥، وأبو نعيم ٢/ ٤٢٧، والبيهقي ٥/ ٣٦٥، كلاهما في الدلائل. وسنده صحيح.

(٢) رواه أحمد ٣/ ٣٦٥ مختصرًا، والبخاري في الوصايا ٦/ ٣٤٢، وفي الاستقراض وفي علامات النبوة ٧/ ٤٠٤، ٤٠٥ مطولاً. والمؤلف اختصره وذكره بالمعنى. وقوله: «أمره بجدها»، أي: بقطع ثمرها.

القدح، وقال: «بقيت أنا وأنت، اقعد فاشرب»، فشربت، ثم قال: «اشرب» وما زال يقولها وأشرب حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكًا. فأخذ القدح، فحمد الله وسمى وشرب الفضلة[1].

وفي حديث أنس رضي الله تعالى عنه: تزوج رسول الله ﷺ فصنعت أمي أم سليم حيسًا فجعلته في تَور فذهبتُ به إلى رسول الله ﷺ، فقال: «ضعه وادع لي فلانًا وفلانًا ومن لقيت» فدعوتهم، ولم أدعْ أحدًا لقيته إلاَّ دعوته.. وذكر أنهم كانوا زهاء ثلاثمائة حتى ملؤوا الصفة والحجرة، فقال لهم النبي ﷺ: «تحلقوا عشرة عشرة»، ووضع النبي ﷺ يده على الطعام، فدعا فيه، وقال فيه ما شاء الله أن يقول. فأكلوا حتى شبعوا كلهم، فقال لي: «ارفع»، فما أدري، حين وضعت كانت أكثر أم حين رفعت[2].

وأكثر أحاديث هذه الفصول الثلاثة في الصحيح، وقد اجتمع على معنى هذا الفصل بضعة عشر من الصحابة، رواه عنهم أضعافهم من التابعين، ثم من لا يُعَدُّ بعدهم، وأكثرها في قصص مشهورة ومجامع مشهورة، ولا يمكن التحدث عنها إلاَّ بالحق، ولا يسكت الحاضر لها على ما أنكر منها[3].

---

(١) رواه أحمد ٢/ ٥١٥، والبخاري في الاستئذان، وفي الرقاق ١٤/ ٦١، ٦٧، والترمذي في أبواب صفة القيامة ٢٢٩٨ بتهذيبي مطولاً.

(٢) تقدم تخريجه ص ٢٤٧ وهو عند مسلم بهذا السياق ٩/ ١٣٣، ولعل المؤلف ذهل عنه فأعاده أو ظنه حديثًا آخر.

(٣) يشير بما ذكره هنا إلى أن معجزة تكثير الطعام ببركته ودعائه جاءت من طرق تفيد التواتر المعنوي؛ لوقوع ذلك وصدوره في أوقات متباينة وجموع متكاثرة في مناسبات وقصص مختلفة، ورواها الجم الغفير من الصحابة فمن بعدهم رضي الله تعالى عنهم؛ فهي من المعجزات والآيات النبوية التي لا يتشكك فيها أو ينكرها إلاَّ مدخول الإيمان ومخدوشه.

معجزته في كلام الشجر
وشهادتها له بالنبوة وإجابتها دعوته ﷺ

عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فدنا منه أعرابي، فقال: «يا أعرابي أين تريد؟» قال: إلى أهلي. قال: «هل لك إلى خير؟» قال: وما هو؟ قال: «تشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله». قال: من يشهد لك على ما تقول؟ قال: «هذه الشجرة السَّمُرةُ». وهي بشاطىء الوادي، فأقبلت تخد الأرض حتى قامت بين يديه، فاستشهدها ثلاثًا، فشهدت أنه كما قال، ثم رجعت إلى مكانها[1].

وفي الصحيح في حديث جابر بن عبد الله الطويل: ذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته، فلم ير شيئًا يستتر به، فإذا بشجرتين بشاطىء الوادي، فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما، فأخذ بغصن من أغصانها، فقال: «انقادي علي بإذن الله»، فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يصانع قائده. وذكر أنه فعل بالأخرى مثل ذلك، حتى إذا كان بالمنصف بينهما قال: «التئما علي بإذن الله» فالتأمتا. وفي رواية أخرى: فقال: «يا جابر، قل لهذه الشجرة: يقول لك رسول الله ﷺ الحقي بصاحبتك حتى أجلس خلفكما» فزحفت حتى لحقت بصاحبتها فجلس خلفهما، فخرجت أحضر، وجلست أحدث نفسي، فالتفت فإذا رسول الله ﷺ مقبلاً والشجرتان قد افترقتا، فقامت

---

(١) رواه الدارمي ١٦، وابن حبان رقم ٢١١٠، وسنده صحيح على شرط مسلم عند الأول. وعزاه في مجمع الزوائد ٨/ ٢٩٢ للطبراني وأبي يعلى والبزار وقال: إن رجاله رجال الصحيح. وقال البوصيري: رواه أبو يعلى بسند صحيح. وانظر: المطالب العالية ٣٨٣٦ للحافظ.

كل واحد منهما على ساق فوقف رسول الله ﷺ وقفة فقال برأسه هكذا يمينًا وشمالاً[1].

وعن يعلى بن مرة رضي الله تعالى عنه قال: سافرت مع النبي ﷺ إلى مكة، فرأيت منه شيئًا عجيبًا: نزلنا منزلاً فقال: «انطلق إلى هاتين الشجرتين فقل: إن رسول الله ﷺ يقول لكما أن تجتمعا»، فانطلقت فقلت لهما ذلك، فانتزعت كل واحدة من أصلها فنزت كل واحدة إلى صاحبتها فالتقتا جميعًا، فقضى حاجته من ورائهما، ثم قال: «انطلق فقل لهما: فلترجع كل واحدة إلى مكانتها»، فأتيتهما فقلت لهما ذلك، فنزت كل واحدة حتى عادت إلى مكانها[2].

وفي حديث ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: آذنت النبي ﷺ بالجن ليلة استمعوا له شجرة[3].

ومن ذلك: حديث أنس رضي الله تعالى عنه: أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ ورآه حزينًا: أتحب أن أريك آية؟ قال: «نعم» فنظر رسول الله ﷺ إلى شجرة من وراء الوادي فقال: ادع تلك الشجرة. فجاءت

---

(١) الحديث روى مسلم بعضه آخر الكتاب ١٨/ ١٤٢، ١٤٣، وبعضه عند الدارمي رقم ١٧ بسند صحيح. وقوله: «أُحْضِر» بضم الهمزة وكسر الضاد، أي: أَعْدُو وأَجْرِي وثبًا.
والبعير المخشوش هو: الذي يوضع في أنفه عود ليذل وينقاد. وقوله: التئما، أي: اجتمعا.

(٢) رواه أحمد ٤/ ١٧٠، ١٧٢، ١٧٣، والحاكم ٢/ ٦١٧، وصححه ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي ٩/ ٥، ٦: وأحد إسناديه ـ يعني: أحمد ـ رجاله رجال الصحيح. وقوله: «فنزت»، أي: وثبت ومشت. وأصل النز ما يتحلب من الماء القليل في الأرض.

(٣) رواه البخاري في البعث ٨/ ١٧٢، ومسلم في الصلاة ٤/ ١٧١.

تمشي حتى قامت بين يديه. قال: مرها فلترجع. فعادت إلى مكانها. ونحوه عن سيدنا عمر(١).

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ، قال: بم أعرف أنك نبي؟ قال: «إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة تشهد أني رسول الله؟» فدعا رسول الله ﷺ فجعل ينزل من النخلة حتى سقط إلى النبي ﷺ. ثم قال: «ارجع» فعاد، فأسلم الأعرابي(٢).

قال أبو الفضل رحمه الله تعالى: فهذا ابن عمر وجابر وابن مسعود ويعلى بن مرة وأنس وابن عباس وغيرهم رضي الله تعالى عنهم، قد اتفقوا على معنى ما ذكرنا، ورواها عنهم من التابعين أضعافهم، فصارت في انتشارها من القوة حيث هي(٣).

---

(١) رواه الدارمي رقم ٣٣، وابن ماجه في الفتن ٤٠٢٨، وسنده صحيح، ولا يضر الاختلاف في وصله وانقطاعه فإن حديث عمر يشهد له، وقد أخرجه البزار، وأبو يعلى، قال الهيثمي ٩/ ١٠. وإسناد أبي يعلى حسن، وكذا يقويه ما في الباب.

(٢) رواه الترمذي في المناقب ٣٤٠٣، وابن حبان رقم ٢١١١، وأبو يعلى والدارمي ٢٤، والحاكم ٢/ ٦٢٠ من طرق بعضها صحيحة وحسنه الترمذي وصححه هو والحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي. والعذق: بكسر العين، هو: العرجون وهو كالعنقود من العنب.

(٣) ومراد المؤلف بما ذكر: بيان شهرة طاعة الشجر وشهادتها له ﷺ وأن ذلك تواتر عنه في الجملة.

وفي هذه الأحاديث مع ما فيها من عجيب معجزاته ﷺ فيها دليل على أن الله تعالى قد جعل شعورًا وتمييزًا في الجمادات وأنها تدرك الأشياء وتفهم، ومثل هذا لا ينكره إلاَّ ضعيف الإيمان أو ذاهبه؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا =

معجزة حنين الجذع

ويعضد هذه الأخبار السالفة الذكر حديث أنين الجذع، وهو في نفسه مشهور منتشر، والخبر به متواتر؛ قد خرجه أهل الصحيح، ورواه من الصحابة بضعة عشر منهم: أبي بن كعب، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وسهل بن سعد، وأبو سعيد الخدري.

ولنقتصر على ثلاثة منها وهي كالآتي:

عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: كان جذع يقوم إليه النبي ﷺ، فلما وضع له المنبر سمعنا للجذع مثل أصوات العشار، حتى نزل النبي ﷺ فوضع يده عليه فسكت. وفي رواية: أن النبي ﷺ كان يقوم إلى نخلة، فجعلوا له المنبر، فلما كان يوم الجمعة دفع إلى المنبر، فصاحت النخلة صياح الصبي، فنزل فضمها إليه، فجعلت تئن أنين الصبي الذي يسكن، قال: كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها(١).

= يَنفَجِرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.. ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]. وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، في آي أخرى. وقال ﷺ: «هذا جبل يحبنا ونحبه»، أخرجاه. وقال عليه الصلاة والسلام: «إني أعرف حجرًا بمكة كان يسلم علي». رواه مسلم. وهذا باب واسع لا تسعه هذه العجالة، فالواجب الإيمان بكل ما نطق به القرآن وجاءت به السنة الصحيحة، والله على كل شيء قدير يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

(١) رواه أحمد ٣/ ٣٠٠، والبخاري في الجمعة، وفي البيوع، وفي علامات النبوة ٧/ ٤١٥، ٤١٦، والدارمي في المقدمة ٣٤ بألفاظ.

وعـن ابـن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: كان النبـي ﷺ يخطب إلى جذع، فلما اتخذ المنبر تحول إليه، فحن الجذع، فأتاه فمسح يده عليه[1].

وعن أنس رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ خطب إلى لزق جذع، واتخذوا له منبرًا، فخطب عليه، فحن الجذع حنين الناقة، فنزل النبي ﷺ فمسه فسكت[2]. زاد غيره: «والذي نفسي بيده، لو لم ألتزمه لم يزل هكذا إلى يوم القيامة»[3]. قال: فكان الحسن إذا حدث بهذا بكى، وقال: يا عباد الله، الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقًا إليه لمكانه، فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه[4].

---

(١) رواه البخاري في علامات النبوة أيضًا ٧/ ٤١٤ وهو من أفراده.
وقوله في حديث جابر: «أصوات العشار» هي بكسر العين، جمع عشراء، وهي الناقة الحامل التي أتى على حملها عشرة أشهر. وقوله: «فضمها إليه»، أي: احتضنها والتزمها. وقوله: «تئِن»، أي: تصوت وتبكي مثل الطفل الصغير الذي تسكته أمه.

(٢) رواه الترمذي في المناقب ٣٤٠٢ بتهذيبـي، والدارمي رقم ٤٢، وحسَّنه الترمذي وصححه.
وقوله: «لِزق جِذْعٍ»، أي: إلى جنبه. والجذع، بكسر الجيم: هو ساق النخلة.
وقوله: وزاد غيره: «والذي نفسي بيده لو لم ألتزمه. . .» إلخ، وهو عند أحمد ١/ ٢٤٩، ٢٦٦، ٣٦٣ من حديث ابن عباس بأسانيد صحيحة لكن بلفظ: «لو لم أحتضنه لحن إلى يوم القيامة». وليس فيه: فأمر به رسول الله ﷺ فدفن تحت المنبر. . .» إلخ.

(٣) نفس المرجع السابق.

(٤) لقد صدق والله الحسن البصري رحمه الله تعالى فإذا كانت الخشبة وهي جماد لا حياة فيها صدر منها هذا الحنين والبكاء شوقًا إلى الحبيب المصطفى ﷺ وتأسفًا على ما كانت تسمع عندها من القرآن والذكر، وأنها لو لم يحتضنها ﷺ لبقيت =

قال القاضي رحمه الله تعالى: فهذا حديث كما تراه خرجه أهل الصحة عمن ذكرنا وغيرهم من التابعين ضعفهم إلى من لم نذكره، وبدون هذا العدد يقع العلم لمن اعتنى بهذا الباب[1].

معجزاته ﷺ في الجمادات

عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل[2].

وعن جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

= تحن إلى يوم القيامة... فكيف بنا ونحن نعقل ونشعر ونفرح ونحزن ونحب ونبغض... فنحن أحق وأولى بأن تتقطع أكبادنا وتحترق حزنًا عليه ومحبة فيه وشوقًا إليه ﷺ.

(١) معجزة حنين الجذع من آيات النبوة العظيمة التي لم تقع لأحد من الأنبياء، وقد أخرج ابن أبي حاتم عن عمرو بن سواد، قال: قال لي الشافعي: ما أعطى الله نبيًا ما أعطى الله محمدًا ﷺ. فقلت له: أعطى عيسى إحياء الموتى. فقال: أعطى محمدًا الجذع الذي كان يخطب إلى جنبه.. فلما هيِّىء له المنبر حن الجذع حتى سمع صوته، فهذا أكبر من ذلك.. قال العلامة أحمد شاكر في شرح المسند: وحنين الجذع من المعجزات الكونية الثابتة لرسول الله ﷺ بالتواتر القطعي، خلافًا لما يتوهمه الجاهلون أتباع أوروبا الذين يؤمنون أو يتظاهرون بمعجزات الأنبياء السابقين يزعمون أنهم يؤمنون بها لثبوتها في القرآن، وما أظنهم يؤمنون إن آمنوا بها إلاَّ تقليدًا لسادتهم؛ دربوهم وعلموهم أنها ثابتة في التوراة، ثم هم ينكرون كل معجزة لرسول الله ﷺ، يزعمون أن لا معجزة له إلاَّ القرآن..

(٢) تقدم تخريجه ضمن حديث وأوله: كنا نعد الآيات بركة، وأنتم تعدونها تخويفًا.. فذكر الحديث في نبع الماء من بين الأصابع الشريفة، ثم ذكر ما في الباب من تسبيح الطعام وهم يأكلونه. وقد أسنده المؤلف هنا من طريق البخاري، وهو عنده في علامات النبوة. انظر ص ٢٤١ وما بعدها.

«إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم علي»[1].

وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: صعد النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان أحدًا، فرجف بهم، فقال: «أثبت أحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان»[2]. ومثله عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه في حراء، وزاد معه: «وعلي وطلحة والزبير»، وقال: «فإنما عليك نبي أو صديق أو شهيد»[3].

وعن عثمان رضي الله تعالى عنه في حراء أيضًا، قال: ومعه عشرة من أصحابه أنا فيهم. وزاد: عبد الرحمن وسعدًا[4].

وفي حديث سعيد بن زيد رضي الله تعالى عنه أيضًا مثله، وذكر عشرة، وزاد نفسه[5].

---

(١) رواه الطيالسي ٢٤٥٠، وأحمد ٥/ ٨٩، ومسلم ١٥/ ٣٦، والترمذي ٣٣٩٩ كلاهما في المناقب. وهذا أيضًا من دلائل نبوته العظيمة، وهو يدل على أن كل الكائنات غير الجن والإنس كانوا على علم بنبوته ﷺ وأنه سيكون له شأن.. وهذا الحجر يقال: إنه الحجر الأسود، كما قال المؤلف، وعزاه السهيلي لبعض المسانيد.

(٢) رواه أحمد ٣/ ١١٢، والبخاري في المناقب ٨/ ٣٨، ٥٨، وأبو داود في السنة ٤٦٥١، والترمذي في المناقب ٣٤٦٨ وغيرهم.

(٣) رواه أحمد ٢/ ٤١٩، ومسلم في الفضائل ١٥/ ١٩٠، ١٩١، والترمذي في المناقب ٣٤٦٩.

(٤) رواه الترمذي ٣٤٧١ بتهديبي، وابن حبان ٢١٩٨ وحسنه الترمذي وصححه، وعلقه البخاري في الوقف ٦/ ٣٣٦. وفي الفضائل ٨/ ٥٤، مختصرًا مجزومًا به.

(٥) رواه أحمد ١/ ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، وأبو داود في السنة ٤٦٤٨، ٤٦٤٩، والترمذي في المناقب ٣٥٢٧ وحسنه وصححه، وابن ماجه ١٣٣، ١٣٤ مطولاً، وفي الباب عن جماعة.

=

وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ قرأ على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١]، ثم قال: «يمجد الجبار نفسه يقول: أنا الجبار، أنا الجبار، أنا الكبير المتعال»، فرجف المنبر حتى قلنا: ليخرن عنه[1].

وعن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال: دخل النبي ﷺ مكة يوم

= ويلاحظ أن اختلاف الروايات في أحد أو حراء لا تؤثر في الحديث، فإن الكل صحيح، فيحمل ذلك على التعدد، وأن ذلك حصل بأحد وهو جبل بالمدينة، وحصل بحراء وهو جبل بمكة كان يتعبد فيه النبي ﷺ ويختلي فيه قبل النبوة. وعلى أي حال، فهذان الجبلان شعرا بوجود النبي ﷺ وأصحابه الكرام فوقهما فتحركا ورجَفَا بهم طَرَبًا وفرحًا، مما يدل دلالة لا يبقى معها شك في أن الجمادات لها شعور وعلم وتغيرات كالعقلاء، ولذلك لما ضرب النبي ﷺ الجبلين برجله الشريفة سكنا تأدبًا مع الحضرة النبوية. وفي الحديث مع هذه المعجزة العظيمة فضل الخلفاء الأربعة مع باقي العشرة رضي الله عنهم وأنهم كلهم مبشرون بالجنة، فمن طعن فيهم أو في بعضهم أو ضللهم.. فهو زنديق.

(١) رواه أحمد ٢/ ٧٢، ٨٧، ٨٨، ومسلم في صفة القيامة ١٧/ ١٣١، ١٣٢، وابن ماجه ١٩٨ بألفاظ. وأقرب لفظ إلى ما ذكره المؤلف لفظ أحمد، قال: إن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧] ــ ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده يحركها يقبل بها ويدبر ــ: يمجد الرب نفسه: أنا الجبار أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم. فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا: ليخرن به. ونحوه عند مسلم. وفي معناه أحاديث عن جماعة من الصحابة في الصحيحين وغيرهما.

والشاهد من الحديث هنا هو: تحرك المنبر، وهو جماد من الخشب، وذلك لما سمع من تمجيد الله تعالى نفسه وذكره أسماء جبروته وكبريائه وعظمته، فالجماد أحسن حالاً من كثير من الجن والإنس.

الفتح، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون نُصُبًا، فجعل يطعنها بعود كان بيده ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل زهوقًا، جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد»[(١)].

ومن ذلك: حديثه ﷺ مع الراهب في ابتداء أمره: إذ خرج تاجرًا مع عمه، وكان الراهب لا يخرج إلى أحد، فخرج وجعل يتخللهم، حتى أخذ بيد رسول الله ﷺ فقال: هذا سيد العالمين، يبعثه الله رحمة للعالمين. فقال له أشياخ من قريش: ما علمك؟ فقال: إنه لم يبق شجر ولا حجر إلاَّ خر ساجدًا له، ولا يسجد إلاَّ لنبي. وذكر القصة.. ثم قال: وأقبل ﷺ وعليه غمامة تظله، فلما دنا من القوم وجدهم سبقوه إلى فيء الشجرة، فلما جلس مال الفيء إليه[(٢)].

---

(١) رواه البخاري ٩/ ٧٧، ومسلم ١٢/ ١٣٣، كلاهما في غزوة الفتح.
والنصب: بضم النون والصاد، وقد تسكن، واحد الأنصاب، وهي هنا الأصنام التي كانوا يعبدونها في الجاهلية.
والشاهد هنا هو أنها كانت تسقط على قفاها كلما أشار إليها بدون أن يمسها، كما جاء في رواية عند ابن حبان من حديث ابن عمر، وعند الطبراني وغيره عن ابن عباس، وإن كان فيهما ضعف، ولذلك لم أوردهما في التهذيب.

(٢) رواه الترمذي في المناقب ٣٣٩٥ بتهذيبي، وابن أبي شيبة ٣٦٥٤١، والحاكم ٢/ ٦١٥ وسنده صحيح، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، لكنه فيه ألفاظ منكرة، ولذلك ضعفه الذهبي في الميزان، وقال في تلخيص المستدرك: أظنه موضوعًا فبعضه باطل. وقال الحافظ في الإصابة: رجاله ثقات وليس فيه سوى هذه اللفظة ــ يعني ذكر بلال، فيحتمل أنها مدرجة فيه مقتطعة من حديث آخر وهمًا من أحد الرواة.. وذكر نحوه ابن القيم وابن الجزري والسيوطي وغيرهم رحمهم الله تعالى.
وعلى كلٍّ فإني ذكرته لصحة سنده، ولوجود ما يشهد لما فيه من سجود الشجر والحجر له ﷺ.

معجزاته في ضروب الحيوانات

عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان عندنا داجن، فإذا كان عندنا رسول الله ﷺ قر وثبت مكانه فلم يجيء ولم يذهب، وإذا خرج رسول الله ﷺ جاء وذهب[1].

ومن ذلك: قصة كلام الذئب المشهورة عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه: بينما راع يرعى غنمًا له، عرض الذئب لشاة منها، فأخذها منه، فأقعى الذئب، وقال للراعي: ألا تتقي الله تعالى، حلت بيني وبين رزقي، قال الراعي: العجب من ذئب يتكلم بكلام الإنس. فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟ رسول الله ﷺ بين الحرتين يحدث الناس بأنباء ما قد سبق. فأتى الراعي النبي ﷺ فأخبره، فقال النبي ﷺ: «فحدثْهم» ثم قال: «صدق»[2].

---

(١) رواه أحمد ٦/ ١١٢، ١١٣، ١٥٠، ٢٠٩، وأبو يعلى ٤٤٢٤، والبزار، والطبراني في الأوسط ٦٥٨٧، قال الهيثمي في المجمع ٩/ ٤: رجال أحمد رجال الصحيح. وقال ابن كثير في الشمائل: على شرط الصحيح ولم يخرجوه وهو حديث مشهور، والداجن هو: كل ما يألف البيوت من الشياه وغيرها من الحيوانات والطيور.

(٢) رواه أحمد ٣/ ٨٣، ٨٤، ٨٨، ٨٩، والبزار والحاكم ٤/ ٤٦٧، من طرق بعضها صحيحة وصحَّحه الحاكم. وقال الهيثمي ٨/ ٢٩١: ورجال إسنادي أحد رجال الصحيح. وزاد بعضهم في آخره: «ألا إنه من أشراط الساعة كلام السباع الإنس، والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس، ويكلم الرجل شراك نعله وعذبة سوطه، ويخبره فخذه بما أحدث أهله من بعده»، وهذه الزيادة عند الترمذي في الفتن ٢٠٠٩، وحسنه وصححه.
وقوله: «فأقعى»، أي: جلس على مقعدته.
وفي الحديث معجزة ظاهرة للنبي ﷺ حيث تكلم الذئب مع الراعي وأخبره بالنبي ﷺ. كما فيه تنبآته ﷺ بما سيقع في المستقبل من تكلم السباع وغيرها، =

وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يسنون عليه، وأنه استصعب عليهم فمنعهم ظهره، وأن الأنصار جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إنه كان لنا جمل نستن عليه، وأنه استصعب علينا ومنعنا ظهره، وقد عطش الزرع والنخل. فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا» فقاموا، فدخل الحائط والجمل في ناحيته، فمشى النبي ﷺ نحوه، فقالت الأنصار: يا رسول الله ﷺ قد صار مثل الكلْب الكلِب، وإنا نخاف عليك صولته. قال: «ليس علي منه بأس»، فلما نظر الجمل إلى رسول الله ﷺ أقبل نحوه حتى خر ساجدًا بين يديه، فأخذ رسول الله ﷺ بناصيته أذل ما كان قط حتى أدخله في العمل. فقال له أصحابه: يا رسول الله، هذه بهيمة لا تعقل تسجد لك، ونحن نعقل فنحن أحق أن نسجد لك. قال: «لا يصح لبشر أن يسجد لبشر، ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها؛ لعظم حقه عليها، لو كان من قدمه إلى مفرق رأسه قرحةً تَنْبجِسُ بالقيح والصديد ثم استقبلته فلحسته ما أدت حقه»[1].

= كما هو حاصل الآن من بعض الجمادات كالتلفاز والراديو وآلة التسجيل والكمبيوتر ــ الحاسوب ــ وغير ذلك، فهذه كلها من علامات الساعة.. وسوف يظهر الله أمورًا لا نعرفها الآن، وكل ذلك يعد من معجزاته ﷺ التي أخبر بها أو أشار إليها.

(١) رواه أحمد ٣/ ١٥٨، ١٥٩، والبزار. قال الهيثمي ٩/ ٤: رجاله رجال الصحيح غير حفص ابن أخي أنس، وهو ثقة.. وآخره ورد من طرق. وقوله: «يسنون»، أي: يسقون، و «الحائط» هو البستان ذو النخيل وغيره. وقوله: «الكلْب الكلِب» الثاني مضبوط بكسر اللام وهو مرض خطير يصيب الكلاب فتهاجم وتعض كل من واجهها، وقلما يسلم من تعضه.

وعن أبـي هريرة رضي الله تعالى عنه: أن النبـي ﷺ دخل حائطًا فجاء بعير فسجد له. وذكر نحو ما سبق في آخره[1].

وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: دفعنا مع رسول الله ﷺ إلى حائط بني النجار، فإذا فيه جمل لا يدخل الحائط أحدٌ إلاَّ شد عليه، فأتاه النبـي ﷺ فدعاه، فجاء واضعًا مشفره في الأرض حتى برك بين يديه، فقال: «هاتوا خطامًا» فخطمه ودفعه إلى صاحبه. ثم التفت فقال: «ما بين السماء إلى الأرض إلاَّ يعلم أني رسول الله إلاَّ عاصي الجن والإنس»[2]. وفي الباب غير ما ذكرنا.

---

(١) أورده الهيثمي في المجمع ٩/ ٧ برواية البزار وقال: روى الترمذي طرفًا من آخره، وإسناده حسن.

(٢) رواه أحمد ٤/ ١٠٤، والدارمي في المقدمة رقم ٥٦، وسنده قد يحسن، وأورده الهيثمي برواية أحمد في المجمع ٩/ ٧، وقال: رجاله ثقات وفي بعضهم ضعف..

وقوله: «إلاَّ شَدَّ عليه»، أي: حمل عليه وعدا وراءه.

وفـي هـذه الأحاديث الثلاثة آيات ودلائل واضحة على نبوته ﷺ وأن كل الحيوانات كانت منقادة له ﷺ، شاعرة بنبوته، عالمة برسالته إلا الثقلين رغم أنها عجماء. وفي حديث أنس وأبـي هريرة عظم حق الزوج على زوجته وأنـها لا تستطيع القيام بحقوقه ولو أجهدت نفسها في خدمته وطاعته والبرور به. كما أن فيها دليلاً على أنَّ السجود لا يكون إلاَّ لله عزَّ وجلّ، ولا يجوز لأي مخلوق مهما كان حاله، وسجود الجمل له ﷺ لا يقاس عليه لأنه غير مكلف.

ويؤخذ من حديث جابر رضي الله تعالى عنه أن كل الكائنات من العالَمين العلوي والسفلي وما بينهما كانت تعلم رسالة نبينا ﷺ وأنه مبعوث إلى الإنس والجن، ورغم ذلك أنكر رسالته عتاة بني آدم وبني الجن.

وفي حديث ابن عباس في خروجه ﷺ إلى غار ثور قال: فصعدوا في الجبل، فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه[١].

ومن ذلك أن سفينة تكسرت به سفينة، فخرج إلى جزيرة، فإذا الأسد، فقال له: أنا مولى رسول الله ﷺ. فجعل يغمزه حتى أقامه على الطريق[٢].

معجزاته في إحياء الموتى وكلامهم

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن يهودية أهدت للنبي ﷺ بخيبر شاة مصلية سمّتها، فأكل رسول الله ﷺ منها، وأكل القوم فقال: «ارفعوا أيديكم، فإنها أخبرتني أنها مسمومة»، فمات بشر بن البراء. وقال لليهودية: «ما حملك على ما صنعت؟» قالت: إن كنت نبيًا لم يضرك الذي صنعت، وإن كنت ملكًا أرحتُ الناس منك. قال: فأمر بها فقتلت[٣].

وقد روى هذا الحديث أنس رضي الله تعالى عنه، وفيه: قالت: أردت قتلك. فقال: «ما كان الله ليسلطك على ذلك»،

---

(١) رواه ابن سعد وأبو يعلى والبزار والحاكم ٣/ ٦٠٦، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي. وانظر المجمع ٩/ ٣٦٦، ٣٦٧.

(٢) رواه أحمد ١/ ٣٤٨، وانظر مجمع الزوائد ٧/ ٢٧.

(٣) رواه أبو داود في الديات ٤٥١١، ٤٥١٢ وزاد: ثم قال في وجعه الذي مات فيه: «ما زلت أجد من الأكلة التي أكلت بخيبر، فهذا أوان قطعت أبهري» وسنده عنده حسن، وهو صحيح، فإن أصله في الجزية ٧/ ٨٢ من صحيح البخاري مطولاً بسياق آخر، وكذا هو في الطب أيضًا ١٢/ ٣٥٧، وفي غزوة خيبر ٩/ ٣٨ مختصرًا، وليس عنده موت بشر بن البراء ولا أمره بقتل اليهودية.

فقالوا: تقتلها؟! قال: لا[1].

---

(١) رواه البخاري في الهبة من صحيحه ٦/ ١٥٩، ومسلم في الطب ١٤/ ١٧٨، ١٧٩، وأبو داود في الديات ٤٥٠٨، وفيه: قال أنس: فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ. وجاء في الوفاة النبوية من صحيح البخاري ٩/ ١٩٥ معلقًا بصيغة الجزم ـ ووصله البزار والحاكم والإسماعيلي ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه: «يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم».
قوله: «مصلية» بفتح الميم وسكون الضاد وكسر اللام، أي: مشوية. وقوله: أبهري، الأبهر عرق مستبطن بالظهر متصل بالقلب، إذا انقطع مات صاحبه.
وقوله: «لهوات» جمع لهات بفتح اللام وهو اللحمات اللواتي في سقف أقصى الفم وفي هذين الحديثين بألفاظهما أحكام وفوائد، وعلم من أعلام نبوته ﷺ، ففيهما قبول هدية أهل الكتاب وإن كانت من النساء، وفيها معجزة باهرة للنبي ﷺ وهي: تكلم الذراع الميتة الهامدة المشوية مع النبي ﷺ بأن فيها سمًا، وفيها تبيين نبوته ﷺ لليهود حيث لم يضره ذلك السم، وإنما حملهم على عدم الإيمان به الكبر والعناد والحسد وخبث طبائعهم.
وقد اختلف العلماء في قتل تلك اليهود التي سمته؛ لاختلاف الأحاديث: فحديث أنس وهو في الصحيحين صريح في أنه لم يقتلها، بينما حديث أبي هريرة يصرِّح بأنه أمر بقتلها؛ ولذلك فإن البعض ذهب إلى ترجيح ما في الصحيح، وذهب البعض الآخر إلى الجمع وقالوا: إنه أولاً عفا عنها فلما مات بشر بن البراء سلمها لأوليائه فقتلوها قصاصًا. والله تعالى أعلم.
وفي الحديثين مع حديث عائشة دليل على أن النبي ﷺ توفي بسبب ذلك السم الذي لم يزل يؤلمه حتى قطع أبهره آخر حياته ﷺ.
وعلى أي حال، فهذه القصة قد احتوت على معجزة من أبهر المعجزات، وهي تكلم الذراع الميتة مع حضرة النبي ﷺ. وذكر المؤلف رحمه الله تعالى اختلاف الناس في تكلم الجمادات، هل هو كلام يخلقه الله فيها مع حروف =

وذكر عن النعمان بن بشير: أن زيد بن خارجة رضي الله عنه خرَّ ميتًا في بعض أزقة المدينة، فرفع، وسجي، إذ سمعوه بين العشاءين والنساء يصرخن حوله يقول: أنصتوا أنصتوا. فحسر عن وجهه فقال: محمد رسول الله النبي الأمي وخاتم النبيين، كان ذلك في الكتاب الأول. ثم قال: صدق، صدق. وذكر أبا بكر وعمر وعثمان. ثم قال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته. ثم عاد ميتًا كما كان[1].

معجزاته في إبراء المرضى وذوي العاهات

روى النسائي عن عثمان بن حنيف رضي الله تعالى عنه: أن أعمى قال: يا رسول الله، ادع الله أن يكشف لي عن بصري. قال: «فانطلق فتوضأ ثم صلِّ ركعتين، ثم قل: اللّهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيي محمد نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك أن يكشف عن بصري، اللهم شفعه فيّ». قال: فرجع وقد كشف الله عن بصره[2].

= وأصوات دون تغيير أشكالها؟ أو هو كلام تتكلم به بعد إيجاد الحياة فيها؟ إلى آخر ما قال: والحقيقة أن هذا مما لا يعرف إلاَّ بالنص، وهو هنا مفقود، والله تعالى يفعل ما يشاء، فيجب الوقوف عند ما ورد ولا ندخل في الفضول.

(١) قصة زيد بن خارجة هذا أخرجها ابن أبي الدنيا فيمن عاش بعد الموت ص ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ومن طريقه البيهقي في الدلائل ٦/٥٦، كما أخرجه من غير طريقه وصححه، ثم قال: وقد روي في التكلم بعد الموت عن جماعة بأسانيد صحيحة، وفي هذا الموضوع كتب ابن أبي الدنيا كتابه «من عاش بعد الموت».

(٢) رواه أحمد ٤/١٣٨ من طرق، والترمذي في الدعوات ٣٣٤١، وابن ماجه ١٣٨٥، والحاكم ١/٥١٩، ٥٢٦ وغيرهم، وسنده صحيح، وصححه الحاكم والطبراني والمنذري والنووي وابن تيمية والهيثمي وابن حجر والسيوطي وغيرهم، ويعرف بحديث الضرير. واستدلوا به على جواز التوسل بالنبي ﷺ إلى الله =

وتفل ﷺ في عيني علي يوم خيبر، وكان رمدًا فأصبح بارئًا[1].

ونفث ﷺ على ضربة بساق سلمة بن الأكوع يوم خيبر فبرئت[2].

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: جاءت امرأة بابن لها به جنون، فمسح ﷺ صدره فَثَعَّ ثَعَّة، فخرج من جوفه مثل الجرو الأسود فشفي[3].

معجزاته في إجابة دعواته ﷺ

وإجابة دعوة النبي ﷺ لجماعة بما دعا لهم وعليهم متواتر على

= عز وجل في قضاء الحاجات ورفع النكبات وكشف الكربات، وقد جربت الاستجابة بذلك عبر الأجيال والعصور.

(1) رواه البخاري في المغازي ٩/ ١٧، ومسلم في الفضائل ١٥/ ١٧٧، ١٧٨ من حديث سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطين هذه الراية غدا رجلاً يفتح الله على يديه».. فلما أصبح قال: «أين علي بن أبـي طالب؟» قالوا: يشتكي عينيه، قال: «فأرسلوا إليه»، فأتي به فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع. وللحديث طرق وألفاظ.

(2) رواه البخاري في المغازي ٩/ ١١، عن يزيد بن أبـي عبيدة قال: رأيت أثر ضربة في ساق سلمة بن الأكوع فقلت: ما هذه الضربة؟ قال: ضربة أصابتني يوم خيبر، فقال الناس: أصيب سلمة، فأتيت رسول الله ﷺ فنفث فيه ثلاث نفثات، فما اشتكيت منها حتى الساعة.

(3) رواه أحمد ١/ ٢٣٩، ٢٥٤، ٢٦٨، والدارمي رقم ١٩ كلاهما من طريق فرقد السبْخِي عن سعيد بن جبير عنه. وفرقد مختلف فيه؛ وثقه ابن معين. وقال أحمد: رجل صالح. وضعفه يحيى القطان وغيره. ولمعناه شواهد صحيحة يتقوى بها.
وقوله: «فثع» بالثاء المثلثة، أي: قاء وأخرج ما في صدره. وقوله: «الجرو» بتثليث الجيم، هو هنا شيء صغير خرج من جوفه. وفي هذه الأحاديث آيات وأعلام لنبوته ﷺ ظاهرة لا خفاء بها.

الجملة معلوم، ضرورة.

فعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قالت أمي: يا رسول الله، خادمك أنس، ادع الله له. قال: «اللّٰهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما آتيته» وفي رواية: فوالله إن مالي لكثير، وإن ولدي وولد ولدي ليتعادُّون اليوم على نحو المائة[1].

ومنه دعاؤه ﷺ لعبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه بالبركة[2].

ومنه دعاؤه ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه أن يجيب الله دعوته[3]. فما دعا على أحد إلاَّ استجيب له[4].

---

(١) رواه البخاري في الدعوات ١٣/ ٣٩٤ وفي مواضع، ومسلم في الفضائل ١٦/ ٣٩، ٤٠، والطيالسي ٢٥٢٤، والترمذي في المناقب ٣٥٩٧، ٣٥٩٨. وقد استجاب الله دعاءه ﷺ في أنس، فوقع له كما دعا ﷺ. وجاء في رواية عند البخاري في الأدب المفرد: «اللهم أكثر ماله وولده، وأطل حياته، واغفر له». وقد طالت حياته حتى جاوز المائة رضي الله تعالى عنه.

(٢) رواه البخاري في النكاح ١١/ ١٢٩، ولم يصح فيه غير هذا، وكان ذلك عند تزوجه، علمًا بأنه كان ذا ثروة عظيمة ومال وافر اكتسبه بتجارته وأخباره في ذلك معروفة.

(٣) رواه الترمذي في المناقب ٣٥٢١، بتهذيبي، وابن حبان ٢٢١٥ بالموارد، والحاكم ٣/ ٤٩٩، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان ١/ ١٢١ وسنده صحيح وصححه، الحاكم ووافقه الذهبي.

(٤) فمن ذلك ما رواه البخاري في الصلاة ٢/ ٣٧٩، ٣٨٢، وفي المناقب، ومسلم في الصلاة ٤/ ١٧٣ وغيرها، في قصته مع أهل الكوفة حيث شكوه إلى عمر، وفيها دعاؤه على رجل بقوله: اللّٰهم إن كان كاذبًا فأطل عمره، وأطل فقره، وعرضه للفتن. قال ابن عمير فرأيته شيخًا كبيرًا قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر، وقد افتقر، وكان يتعرض للجواري في الطريق ويغمزهن.

ودعا بعز الإسلام بعمر رضي الله تعالى عنه أو بأبـي جهل فاستجيب له في عمر[1].

وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر[2].

وأصاب الناس في بعض مغازيه عطش، فسأله عمر الدعاء، فدعا فجاءت سحابة فسقتهم حاجتهم، ثم أقلعت[3].

ودعا في الاستسقاء، فسقوا. ثم شكوا إليه المطر، فدعا فصحوا[4].

ودعا لابن عباس رضي الله تعالى عنه: «اللّٰهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»[5]. فسمي بعد: الحبر، وترجمان القرآن.

ودعا لأم أبـي هريرة فأسلمت[6].

---

(١) رواه الترمذي في المناقب ٣٤٥٣، وابن حبان ٢١٧٩ عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «اللّٰهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك، بأبـي جهل أو بعمر بن الخطاب» قال: وكان أحبهما إليه عمر. وحسنه الترمذي وصححه. وله شواهد عن ابن عباس وابن مسعود وعائشة، ذكرتها في تهذيب الجامع.

(٢) رواه البخاري في المناقب ٨/ ٤٦، ٧٦، وإنما كان كذلك لقوته رضي الله تعالى عنه وشجاعته.

(٣) تقدم تخريجه في باب دعائِه بالبركة في الطعام ص ٢٤٦.

(٤) رواه البخاري ومسلم وغيرهما في الاستسقاء مطولاً.

(٥) هو بهذا اللفظ رواه أحمد ١/ ٣٣٥ وهو في البخاري في العلم وفي الطهارة وفي المناقب، ومسلم، وغيرهما بلفظ: «اللّٰهم علمه الحكمة»، وفي رواية: «علمه الكتاب»، وقد ظهر أثر هذا الدعاء عليه رضي الله تعالى عنه فكان بحرًا في التفسير.

(٦) في الفضائل من صحيح مسلم ١٦/ ٥١، ٥٢ عن أبـي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة، فدعوتها يومًا فأسمعتني في =

ودعا على مضر فأقحطوا، حتى استعطفته قريش فدعا لهم فسقوا[1].

ودعا على كسرى حين مزق كتابه أن يمزق الله ملكه[2]. فلم تبق له

= رسول الله ﷺ ما أكره، فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي قلت: يا رسول الله إني كنت أدعو أمّي إلى الإسلام فتأبى عليَّ فدعوتها اليوم فأسمعتني ما أكره، فادع الله أن يهدي أم أبـي هريرة فقال رسول الله ﷺ: «اللّهم اهد أم أبـي هريرة»، فخرجت مستبشرًا بدعوة نبي الله ﷺ، فلما جئت فصرت إلى الباب فإذا هو مجاف فسمعت أمي خشف قدمي فقالت: مكانك يا أبا هريرة وسمعت خضخضة الماء قال: فاغتسلت ولبست درعها وعجلت عن خمارها ففتحت الباب ثم قالت: يا أبا هريرة، أشهد أن لا إلـه إلاَّ الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأتيته وأنا أبكي من الفرح، قال: قلت: يا رسول الله أبشر قد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبـي هريرة، فحمد الله وأثنى عليه وقال خيرًا، قال: قلت: يا رسول الله ادع الله أن يحببني أنا وأمي إلى عبادة المؤمنين ويحبِّبهم إلينا، قال: فقال رسول الله ﷺ: «اللّهمَّ حبِّب عبيدك هذا ـ يعني أبا هريرة ـ وأمه إلى عبادك المؤمنين» وحبِّب إليهم المؤمنين فما خلقٌ مؤمن يسمع بـي ولا يراني إلاَّ أحبني.

وفي هذا الحديث معجزتان: الأولى استجابة دعائه ﷺ في هداية أم أبـي هريرة وإسلامها. الثانية: استجابة دعائه ﷺ في حب المؤمنين لأبـي هريرة وأمه، وقد صدق الله ذلك؛ فكل المؤمنين يحبون أبا هريرة رضي الله تعالى عنه إلاَّ ما كان من الشيعة الروافض فإنهم يبغضونه ويحتقرونه ولا يقيمون له وزنًا، وهذا الحديث يدل على أنهم ليسوا بمؤمنين لخروجهم عن دعوة رسول الله ﷺ.

(١) رواه أحمد ١/ ٣٨٠، والبخاري في مواضع آخرها سورة الدخان ١٠/ ١٩٢، ١٩٣، ومسلم في القيامة ١٧/ ١٤٠، ١٤٢، والترمذي رقم ٣٠٤٠، والنسائي ٦/ ٤٥٥ كلاهما في التفسير.

(٢) رواه البخاري آخر المغازي ٩/ ١٩١ من حديث ابن عباس. وقوله: «مزق كتابه»، أي: قطعه. وقد استجاب الله دعاء نبيّه ﷺ فقام ولد كسرى شيرويه على أبيه فقتله =

باقية ولا بقيت لفارس رياسة في أقطار الدنيا.

وقال: لرجل رآه يأكل بشماله: «كل بيمينك» فقال: لا أستطيع. فقال: «لا استطعت» فلم يرفعها إلى فيه[1].

وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه في حديثه المشهور في دعائه على قريش حين وضعوا السلا على رقبته وهو ساجد مع الفرث والدم، وسماهم. وقال: فلقد رأيتهم قتلوا يوم بدر[2].

= فمزق الله ملكه حالاً، ثم أباد الله ملك الأكاسرة على أيدي أبطال الإسلام أيام الخليفتين أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما ولم يبقَ لهم أثر.

(١) رواه أحمد ٤/ ٤٦، ومسلم في الأشربة ١٣/ ١٩٢ عن سلمة بن الأكوع وفيه: «ما منعه إلاّ من الكبر». وفي الحديث جواز الدعاء بالشر على من خالف حكم الله بلا عذر، وفيه أن من الكبر عدم قبول الحق. وفي الحديث الصحيح: «الكبر بطر الحق وغمص الناس»، أي: عدم قبول الحق ورده، واحتقار الناس.

(٢) رواه أحمد ١/ ٣٩٣، ٤١٧، والبخاري في الطهارة ١/ ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦، وفي الصلاة وفي الجزية وفي المناقب وفي الجهاد، ومسلم في الجهاد ١٢/ ١٥١، ١٥٤ وغيرهم، وسياقه: قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: بينا رسول الله ﷺ عند الكعبة وجمع من قريش في مجالسهم فقالوا: أيكم يقوم إلى جزور بني فلان فيأتي بسلاها فيضعه بين كتفيه إذا سجد. فانبعث أشقى القوم فجاء به فوضعه بين كتفيه ﷺ، وثبت النبي ﷺ ساجدًا، وضحكوا حتى مال بعضهم على بعض من الضحك، فانطلق منطلق إلى فاطمة وهي جويرية فأقبلت تسعى حتى ألقته عنه وأقبلت عليهم تسبهم، فلما قضى صلاته قال: «اللّهم عليك بقريش ــ ثلاثًا، ثم سمى ــ اللّهم عليك بعمرو بن هشام، ــ يعني: أبا جهل ــ وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعمارة بن الوليد...» إلخ.

الجزور هو الجمل، والسلى: بطن الحيوان وأحشاؤه وما فيها من فرث. وقوله: =

معجزاته في انقلاب الأعيان له فيما لمسه أو باشره

عن أنس رضي الله تعالى عنه: أن أهل المدينة فزعوا مرة، فركب رسول الله ﷺ لأبي طلحة كان يَقْطُفُ أو به قِطاف ـ وقال غيره: يبطأ ـ فلما رجع قال: «وجدنا فرسك بحرًا». فكان بعد لا يُجارَى[1].

ونخس جمل جابر، وكان قد أعيى فنشط حتى كان لا يملك زمامه[2].

وفي الصحيح عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما: أنها أخرجت جبة طيالسة وقالت: كان رسول الله ﷺ يلبسها، فنحن نغسلها للمرضى يستشفى بها[3].

وأتي ﷺ بدلو من ماء زمزم، فمج فيه فصار أطيب من المسك[4].

وكان لأم مالك عكة تُهدي فيها للنبي ﷺ سمنًا، فأمرها النبي ﷺ أن لا تَعْصرَها. ثم دفعها إليها، فإذا هي مملوءة سمنًا، فيأتيها بنوها يسألونها الأُدْم، وليس عندهم شيء، فَتَعْمَد إليها فتجد فيها سمنًا، فكانت تُقيم أدمها حتى عصرتها[5].

= فقالوا أيكم... إلخ: القائل أبو جهل لعنه الله. وقوله: فانبعث أشقى القوم: هو عقبة بن أبي معيط لعنه الله وأخزاه.

(١) تقدم تخريجه في شجاعته ﷺ ص ١٢٨.

(٢) قصة بيع جابر بعيره للنبي ﷺ وانبعاثه ببركة نبي الله ﷺ رواه أحمد ٣/ ٣١٤، والبخاري في الجهاد، ومسلم في النكاح، وفي المساقاة ١١/ ٣٠، ٣٦ وغيرهم.

(٣) رواه أحمد ٦/ ٣٤٧، ٣٥٣، ومسلم في اللباس ١٤/ ٤٣ وجه إيراده هذا الحديث هنا أن المرضى كانوا يعافون من أمراضهم ببركة أثر لباسه ﷺ.

(٤) رواه أحمد ٤/ ٣١٥، ٣١٦، ٣١٨، ومن طريقين عن وائل بن حجر وهو بهما حسن، وكذا أخرجه البيهقي في الدلائل ٦/ ٦٩ عن عبد الجبار عن أبيه وائل.

(٥) رواه مسلم في الفضائل ١٥/ ٤٠ من حديث جابر رضي الله تعالى عنه. والعكة =

ومن ذلك: بركة يده ﷺ فيم لمسه وغرسه لسلمان رضي الله تعالى عنه حين كاتبه مواليه على ثلاثمائة ودية يغرسها لهم كلها تعلق وتطعم، وعلى أربعين أوقية من ذهب فقام ﷺ وغرسها بيده إلاَّ واحدة غرسها غيره، فأخذت كلها إلاَّ تلك الواحدة، فقلعها النبي ﷺ وردها فأخذت[1].

وأعطى ﷺ قتادة من النعمان ــ وصلَّى معه العشاء في ليلة مظلمة مطيرة ــ عرجونًا وقال: «انطلق فإنه سيضيء لك من بين يديك عشرًا، ومن خلفك عشرًا، فإذا دخلت بيتك فسترى سوادًا فاضربه حتى يخرج؛ فإنه الشيطان»، فانطلق فأضاء له العرجون حتى دخل بيته ووجد السواد فضربه حتى خرج[2].

ومن ذلك: بركته ﷺ في شاة عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه وكانت لم ينز عليها فحل[3].

= بضم العين: الآنية المعدة للسمن، وفي الحديث معجزة ظاهرة من وجود السمن في العكة باستمرار متى احتاجوه.

(١) قصة إسلام سلمان وما ذكر فيها رواها ابن إسحاق في السيرة، ومن طريقه أحمد ٥/ ٤٤١، ٤٤٤، وابن سعد في الطبقات ٤/ ٧٥، ٨٠ وغيرهم بسند على شرط مسلم، وابن إسحاق صرَّح بالتحديث، وللحديث طرق وروايات. وانظر المجمع ٩/ ٣٣٦، ٣٣٧. والودية بكسر الدال ثم ياء مشددة، واحدة الودي وهي: صغار النخل. وفي قصة سلمان فوائد وعبر. وانظرها مبسوطة مطولة في تهذيب الخصائص لكاتبه رقم ٧.

(٢) رواه أحمد ٣/ ٦٥ من حديث أبي هريرة وأبي سعيد مطولاً وسنده صحيح. والعرجون، بضم العين: أصل العذق من النخلة. وفي هذا الحديث معجزتان: الأولى: إضاءة العرجون لقتادة. ثانيهما: إخباره ﷺ قتادة بأنه سيجد شيطانًا ظاهرًا في بيته.

(٣) رواه أحمد ١/ ٣٧٩، ٤٦٢، والطيالسي ٢٤٥٦، وابن سعد ٣/ ١٠٦، ١٠٧، =

ومنها: شاة المقداد[1].

ومنها: مسحه ﷺ وجه قتادة بن ملحان، فكان لوجهه بريق، حتى كان ينظر في وجهه كما ينظر في المرآة[2].

ووضع ﷺ يده على رأس حنظلة بن حذيم وبرَّك عليه، فكان حنظلة يؤتى بالرجل قد ورم وجهه والشاة قد ورم ضرعها، فيوضع على موضع كف النبي ﷺ فيذهب الورم[3].

= وأبو نعيم في الدلائل ۱۱۳، والبيهقي كذلك ٦/ ٨٤ بسند حسن صحيح عن ابن مسعود قال: كنت أرعى غنمًا لعقبة بن أبي معيط فمر بي رسول الله ﷺ وأبو بكر فقال: «يا غلام هل من لبن»؟ قال: قلت: نعم، ولكن مؤتمن، قال: «فمن شاة لم ينز عليها الفحل؟» فأتيته بشاة فمسح ضرعها فنزل لبن، فحلبه في إناء، فشرب وسقى أبا بكر، ثم قال للضرع: «اقلص»، فقلص، قال: ثم أتيته بعد هذا... الحديث. وقوله: «لم ينز» بفتح الياء، أي: لم يعلها فحل بعد. وقوله: «اقْلِص» هو أمر من قلص كجلس، ومعناه: انْزَوِ وارتفع. وهذه أيضًا آية عظيمة وقعت في الشاة ببركة ملامسته لها ﷺ.

(١) أخرج حديثه أحمد ٦/ ٢، ٣، ٥، ومسلم آخر الأشربة ١٤/ ١٣، ١٦ كلاهما رواه مطولاً. وخلاصته: أن المقداد وصاحبين له استضافوا الصحابة، فأخذهم النبي ﷺ إلى أهله، وكان له ثلاثة أعنز فأمرهم أن يحتلبوها ويقتسموا ذلك بينهم ففعلوا، وكانوا يرفعون للنبي ﷺ حظه من ذلك، وفي ذات ليلة شرب المقداد نصيب النبي ﷺ فلما جاء لم يجد شيئًا، فرفع رأسه إلى السماء وقال: «اللّٰهم أطعم من أطعمني واسقِ من سقاني». فقام المقداد ليذبح أحد الأعنز فإذا هي حافلة كلها باللبن، فحلب وشرب النبي ﷺ. ثم أخبره بالواقع. فقال ﷺ: «ما هذه إلاّ رحمة من الله»، وفي رواية لأحمد: «هذه بركة نزلت من السماء».

(٢) رواه أحمد ٥/ ٢٧، ٢٨، والبيهقي في الدلائل ٦/ ٢١٧ وسنده صحيح.

(٣) رواه أحمد ٥/ ٦٧، ٦٨ وسنده صحيح، وكذا رواه أبو يعلى، وقال الهيثمي في المجمع ٨/ ٤٠٨ رجاله ثقات. والورم بفتح الراء: هو انتفاخ من مرض ونحوه. وفي الحديث آية في حنظلة ببركة مس النبي ﷺ.

وأخذ ﷺ قبضة من تراب يوم حنين ورمى بها في وجوه الكفار وقال: «شاهت الوجوه» فانصرفوا يمسحون القذى عن أعينهم(١).

وشكى إليه أبو هريرة رضي الله تعالى عنه النسيان، فأمره ببسط ثوبه، وغرف بيده فيه ثم أمره بضمه، ففعل، فما نسي شيئًا بعد(٢).

وضرب صدر جرير بن عبد الله رضي الله تعالى عنه ودعاله ــ وكان ذكر له أنه لا يثبت على الخيل ــ فصار من أفرس العرب وأثبتهم(٣).

---

(١) هذا وارد عن جماعة، منهم: سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه، رواه مسلم في الجهاد والسير ١٢/ ١٢١، ١٢٢، قال: فلما غشوا رسول الله ﷺ نزل عن البغلة ثم قبض قبضة من تراب من الأرض ثم استقبل وجوههم فقال: «شاهت الوجوه»، فما خلق الله منهم إنسانًا إلاَّ ملأ عينيه ترابًا بتلك القبضة فولوا مدبرين فهزمهم الله عز وجل. ومنهم: العباس، رواه مسلم أيضًا ١٢/ ١١٦ بنحوه. وقوله: شاهت الوجوه، أي: قبحت.

(٢) رواه البخاري في العلم ١/ ٢٢٥، ومسلم في الفضائل ١٦/ ٥٣، ٥٤. وغيرهما من حديثه قال: ولقد قال رسول الله ﷺ يومًا: «أيكم يبسط ثوبه فيأخذ من حديثي هذا ثم يجمعه إلى صدره فإنه لم ينسَ شيئًا سمعه» فبسطت بردة عليّ حتى فرغ من حديثه ثم جمعتها إلى صدري، فما نسيت بعد ذلك اليوم شيئًا حدثني به.. فإكثاره رضي الله تعالى عنه من الحديث هو أثر من آثار بركة رسول الله ﷺ، فلندع الأعداء بعد هذا يقولون في هذا الصحابي الجليل ما طابت لهم أنفسهم الخبيثة من الافتراءات والمطاعن.

(٣) رواه البخاري آخر المغازي في غزوة ذي الخلصة ٩/ ١٣٤، ١٣٥، ومسلم في الفضائل ١٦/ ٣٤، ٣٥، ٣٦ وسياقه: قال لي رسول الله ﷺ: «يا جرير ألا تريحني من ذي الخلصة ــ بيت لخثعم كان يدعى كعبة اليمامة ــ قال: فنفرت في خمسين ومائة فارس، وكنت لا أثبت على الخيل، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فضرب يده في صدره فقال: «اللّٰهم ثبّته واجعله هاديًا مهديًا...» إلخ.

إخباره بما أطلعه الله به على المغيبات[1]

الأحاديث في هذا الباب بحر لا يدرك قعره ولا ينزف غمره، وهذه المعجزة من جملة معجزاته المعلومة على القطع، الواصل إلينا خبرها على التواتر؛ لكثرة رواتها واتفاق معانيها على الاطلاع على الغيب.

عن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ مقامًا فما ترك شيئًا يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلاَّ حدثه، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء فأعرفه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه. ثم قال حذيفة: ما أدري أنسي أصحابي أم تناسوه، والله ما ترك رسول الله ﷺ من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعدًا إلاَّ قد سماه لنا باسمه واسم أبيه وقبيلته[2].

---

(١) اطلاعه ﷺ على المغيبات ليس اطلاعًا ذاتيًا، ولا اطلاعًا عامًّا بحيث لا يغيب عنه شيء كما قد يخيل إلى البعض، بل هو عبد لله عز وجل لا يعلم إلاَّ ما علمه الله من الكائنات وما من شأنه أن يعلمه البشر وما سوى ذلك فهو من خصائص الربوبية، وعلى هذا فما جاء في حديث الترمذي وغيره: «فوضع يده بين كتفيي. . فعلمت ما بين السماء والأرض»، وفي رواية: «فعلمت كل شيء» هو محمول على ما ذكرناه.

فما أخبر به ﷺ من المغيبات القديمة أو التي حدثت بعده الكل بوحي من الله عز وجل وإخبار منه تعالى، وليس له ﷺ ولا لغيره من الأنبياء أو غيرهم قلامة ظفر من ذلك بذواتهم، ومن اعتقد غير ذلك فقد أشرك وأعطى ما هو من خصائص الألوهية لغيره من خلقه وعباده، وإذا كان هذا في أشرف الخليقة على الإطلاق فكيف بغيره من أئمة آل بيته أو آحاد الصالحين من أمته كما يفتريه عليهم الشيعة وبعض جهلة المتصوفة، فالرب رب وإن تنازل، والعبد عبد وإن تعالى.

(٢) رواه البخاري في القدر ١٤/ ٢٩٧، ومسلم ١٨/ ١٥، وأبو داود ٤٢٣٧ كلاهما في =

وقال أبو ذر رضي الله تعالى عنه: لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلاّ ذكرنا منه علمًا[١].

وقد خرج أهل الصحيح والأئمة ما أعلمَ به أصحابه ﷺ مما وعدهم به من الظهور على أعدائه[٢]، وفتح مكة[٣]، وبيت المقدس[٤]، واليمن، والشام، والعراق[٥]. . وظهور الأمن حتى تظعن المرأة من الحيرة إلى مكة

= الفتن، وليس عندهم قول حذيفة: والله ما ترك رسول الله ﷺ من قائد فتنة. . . إلخ.

(١) رواه أحمد ٥/ ١٦٢ ورجاله ثقات غير الأشياخ المجاهيل ويؤيده الحديث السابق وغيره. والحديثان يدلان على أنه ﷺ أخبر أصحابه بكل ما سيقع في أمته من الأحداث، ويؤيد ذلك حديث أبي زيد قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ الفجر، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر، ثم نزل فصلَّى، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلى، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس، فأخبرنا بما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة، فأحفظنا أعلمنا. رواه مسلم في الفتن ١٨/ ١٦.

(٢) يأتي تخريج ذلك مفصلاً.

(٣) جاء ذلك في حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قصته مع عمر، وقوله في: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ [الفتح: ١]، قال: فتح مكة. . . إلخ، رواه البخاري في المغازي ٩/ ٨١، وفي التفسير ١٠/ ٣٦٧، وغيره.

(٤) رواه أحمد ٦/ ٢٥، والبخاري في الجزية ٧/ ٨٧، وأبو داود في الأدب، وابن ماجه في الفتن ٤٠٤٢ من حديث عوف بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أعدد ستًّا بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس. . .» إلخ.

(٥) رواه البخاري ٤/ ٤٦٣، ٤٦٥، ومسلم ٩/ ١٥٨، ١٥٩، كلاهما في الحج من حديث سفيان بن أبي زهير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تفتح اليمن فيأتي قوم يبسّون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وتفتح الشام فيأتي قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وتفتح العراق فيأتي قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن =

لا تخاف إلاَّ الله[1]. . وتفتح خيبر على يَدَي عليّ في غد يومه[2]، وأن المدينة ستعرى[3]. . وما يفتح الله على أمته من الدنيا ويؤتون من زهرتها[4]،

= أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون». وقوله: «يبسون» بفتح الياء وتضم وكسر الباء، ومعناه: يزجرون الإبل ويسوقونها. وفي الحديث علم من أعلام النبوة، حيث أخبر بفتح هذه الأقطار بمدة، وفيه فضل المدينة على هذه البلاد وغيرها باستثناء مكة المكرمة.

(١) رواه البخاري في علامات النبوة ٧/ ٤٢٣، ٤٢٤، عن عدي بن حاتم في حديث طويل يأتي بعضه. وفي معنى هذا الحديث حديث خباب بني الأرت، وفيه: «وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلاَّ الله والذئب على غنمة». رواه البخاري في علامات النبوة ٧/ ٤٣١، ٤٣٢، وفي المبعث، وفي الإكراه ١٥/ ٣٤٨. ورواه أبو داود في الجهاد، والنسائي في الزينة. وما ذكر في الحديثين وقع كما أخبر وخاصة أيام الفاروق رضي الله تعالى عنه. والظعينة: هي المرأة في الهودج. والحيرة: بكسر الحاء، بلدة بقرب الكوفة كانت مقرًا لملوك العرب من طرف الأكاسرة.

(٢) تقدم تخريجه ص ٢٦٥، وفيه: «لأعطين الراية غدًا رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه».

(٣) رواه البخاري ٤/ ٤٦١، ٤٦٢، ومسلم ٩/ ١٥٩، ١٦٠ كلاهما في الحج من حديث أبي هريرة سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تتركون المدينة على خير ما كانت، لا يغشاها إلاَّ العواف. . . » إلخ. وانظر الفتح لذلك ٤/ ٤٦١.

(٤) فعن ابن سعيد عنه ﷺ قال: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون. . » رواه مسلم في الرقاق ١٧/ ٥٥، والترمذي في الزهد، وابن ماجه في الفتن، وكذا أحمد ٣/ ١٩، ٢٢. وعن عمرو بن عوف: أن النبي ﷺ قال: «والله ما أخشى عليكم الفقر، ولكني أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم»، رواه البخاري في الجزية، وفي الرقاق، ومسلم ١٨/ ٩٥، والترمذي ٢٢٨٣، كلاهما في الزهد، وغيرهم.

وقسمتهم كنوز كسرى وقيصر[١].

وما يحدث بينهم من الفتون، والاختلاف، والأهواء، وسلوك سبيل من قبلهم، وافتراقهم على ثلاث وسبعين فرقة الناجية منها فرقة واحدة[٢]، وأنها ستكون لهم أنماط[٣]، ويغدو أحدهم في حلة ويروح في أخرى، ويوضع بين يديه صحفة وترفع أخرى، ويسترون بيوتهم كما تستر الكعبة. . وقال في آخر الحديث: وأنتم اليوم خير منكم يومئذٍ[٤]. . وقتالهم الترك والخوز والروم[٥]، وذهاب كسرى وفارس حتى لا كسرى ولا فارس بعده،

---

(١) رواه مسلم في الفتن ١٨/ ٤٣ عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لتفتحن عصابة من المسلمين كنوز كسرى التي في القصر الأبيض»، فكنت أنا وأبي فيهم، فأصابنا من ذلك ألف درهم. وسيأتي بعض ذلك قريبًا أيضًا.

(٢) جاء في ذلك، أحاديث، منها: حديث أبي هريرة في تفرق الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، رواه أحمد ٢/ ٣٣٣، وأبو داود ٤٥٩٦، والترمذي في الإيمان ٢٤٥١ وغيرهم. وحسنه الترمذي وصححه. ونحوه عن معاوية، رواه أحمد ٤/ ١٠٢، وأبو داود ٤٥٩٧ في السنة، وغيرهما، وسنده صحيح، وفيه: «كلها في النار إلَّا واحدة وهي الجماعة». ومنها حديث: «لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع. . .» الحديث، رواه البخاري في الاعتصام ١٧/ ٦٣، ٦٤، ومسلم في العلم ١٦/ ٢١٩، ٢٢٠، وغيرهما عن ابن سعيد.

(٣) رواه أحمد ٣/ ٢٩٤، والبخاري في المناقب وفي النكاح، ومسلم في اللباس ١٤/ ٥٨، ٥٩، وأبو داود فيه ٤١٤٢، والترمذي في الأدب ٢٥٨٤، وغيرهم من حديث جابر. والأنماط، جمع نمط بفتحتين: نوع من البسط لها خمل رقيق.

(٤) رواه أحمد ٣/ ٣٨٧، والحاكم في الهجرة من المستدرك ٣/ ١٥ وسنده صحيح، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وكل ما في الحديث وقع عبر التاريخ، وفيه نعيش، فصلَّى الله وسلم وبارك على هذا النبي العظيم وعلى آله وصحبه وزوجه.

(٥) رواه أحمد ٢/ ٣١٩، ٥٣٠، والبخاري في علامات النبوة ٧/ ٤١٩ وفي مواضع، ومسلم في الفتن ١٨/ ٣٧، ٣٨، وغيرهم عن أبي هريرة. وفي رواية: «حتى =

وذهاب قيصر حتى لا قيصر بعده[١]. . . وذكر أن الروم ذات قرون إلى آخر الدهر[٢]. . وبذهاب الأمثل فالأمثل من الناس[٣]، وتقارب الزمان[٤]،

= تقاتلوا الترك صغارًا لاعبين. . .» إلخ. والخوز، بالخاء بعدها واو ثم زاي: جيل من العجم.

(١) رواه أحمد ٢/ ٢٣٣، ٢٤٠، وفي مواضع، والبخاري في علامات النبوة ٧/ ٤٣٨، ومسلم في الفتن ١٨/ ٤١، ٤٢ وغيرهم. وقد استؤصلت دولتنا الأكاسرة والأقاصرة أيام خلافة الفاروق رضي الله تعالى عنه.

(٢) في صحيح مسلم من الفتن ١٨/ ٢٢ عن المستورد، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس». وجاء في رواية عنه: «أشد الناس عليكم الروم، وإنما هلكتم مع الساعة». رواه أحمد ٤/ ٢٣٠، ورجاله رجال الصحيح إلَّا ابن لهيعة وهو حسن الحديث في المتابعات. والروم الآن هم الدول الأوروبية مع أمريكا وهم أعداء الإسلام الألداء الذين يكيدون للإسلام والمسلمين، وكل المخزيات والفضائح والنكبات والبلايا النازلة والواقعة بالمسلمين فمن دسائسهم وكيدهم. وقد صدق رسول الله ﷺ فيما قال وبر، وسوف يهلكهم الله عز وجل في القريب العاجل، وخاصة العدوة العظمى أمريكا فهي زعيمتهم وعندها جمعية أممهم الخرافية.

(٣) رواه أحمد ٤/ ١٩٣، والبخاري في الرقاق ١٤/ ٢٧، ٢٨، والدارمي ٢٢/ ٢٧ من حديث المرداس الأسلمي بلفظ: «يذهب الصالحون الأول فالأول ويبقى حثالة كحثالة الشعير أو التمر لا يباليهم الله بالة» «الحثالة» أو الحفالة: الرديء والأرذل من كل شيء. «لا يباليهم الله»، أي: لا يعبأ بهم.

(٤) رواه أحمد ٢/ ٥٣٧، ٥٣٨، وابن حبان ١٨٨٧ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان فتكون السنة كالشهر، ويكون الشهر كالجمعة، وتكون الجمعة كاليوم، ويكون اليوم كالساعة، وتكون الساعة كاحتراق السعفة أو الخوصة». وسنده صحيح، وله شاهد عن أنس عند الترمذي في الزهد، وعن أبي بكر أيضًا وهو الآتي عقبه. وقد صدق الواقع ما في هذا الحديث فقد تقارب الزمان بهذه المخترعات الحالية والمركوبات المدهشة التي أنعم الله بها علينا.

وقبض العلم، وظهور الفتن والهرج[1].

وقال: «ويل للعرب من شر قد اقترب»[2].. وأنه زويت له الأرض فأُري مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمته ما زوي له منها[3]. وكذلك كان، فقد امتدت في المشارق والمغارب ما بين أرض الهند من أقصى المشرق إلى بحر طنجة، وذلك ما لم تملكه أمة من الأمم ولم تمتد في الجنوب ولا في الشمال مثل ذلك... وقوله: «لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة»[4]، ذهب ابن المديني إلى أنهم العرب لأنهم المختصون بالسقي بالغرب وهي الدلو. وغيره يذهب إلى أنهم أهل المغرب. وقد ورد المغرب كذا في الحديث بمعناه. وفي حديث آخر من رواية أبي أمامة: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق قاهرين لعدوهم حتى يأتيهم أمر

---

(١) رواه أحمد ٢/ ٢٣٣، والبخاري ١٦/ ١٢٠، ومسلم ١٦/ ٢٢٢، وأبو داود ٤٢٥٥، وابن ماجه ٤٠٥٢ عن أبي بكر عن النبي ﷺ قال: «يتقارب الزمان وينقص العلم»، وفي رواية: «ويقبض العلم، ويلقى الشح، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج».

(٢) رواه أحمد ٢/ ٣٩٠، ٣٩١، ٥٣٦ وفي مواضع، والبخاري، ومسلم، والترمذي ٢٠١٧، وابن ماجه، كلهم في الفتن. ورواه البخاري أيضًا في المناقب وفي الطلاق من حديث زينب: استيقظ النبي ﷺ من نومه محمرًا وجهه وهو يقول: «لا إله إلاَّ الله، ويلٌ للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومؤجوج مثل هذه ــ وحلق حلقة ــ»، وها نحن الآن نعيش في مصداقية هذا الحديث الشريف، فالعرب قد أحاطت بهم الفتن والنكبات والنكسات من كل جهة وتكالبت عليهم الأمم الأخرى.

(٣) رواه أحمد ٥/ ٢٧٨، ومسلم ١٨/ ١٣، ١٤، وأبو داود ٤٣٤٩ كلاهما في الفتن من حديث ثوبان مطولاً، وقد تقدم أيضًا ص ٢٨٨. وقوله: «زويت»، أي: جمعت.

(٤) هذه الرواية رواها مسلم في آخر الإمارة ١٣/ ٦٨، عن سعد بن أبي وقاص.

الله وهم كذلك»[1].

وخروج ولد العباس بالرايات السود وملكهم أضعاف ما ملكوا[2].. وخروج المهدي[3].. وقتل علي، وأن أشقاها الذي يخضب هذه من هذه[4]، أي لحيته من رأسه.. وقتل عثمان، وأن الله تعالى عسى أن يلبسه

---

(١) هذه الرواية رواها أيضًا مسلم في المصدر السابق ١٣/ ٦٥، وهذا الحديث متواتر ورد عن جماعة كثيرين، وقد أوردت كثيرًا منهم في بداية الوصول، وهذه الطائفة لا تنقطع أبدًا حتى يأتي أمر الله بعد عيسى عليه السلام حينما يرفع الله القرآن ولا يبقى مؤمن على وجه الأرض، وهذه الطائفة مفرقة في الأمة لا تختص بجماعة ولا فرقة، وهي التي تمثل الأمة المحمدية، ومنها قراء وعلماء وعباد وزهاد ودعاة وعوام...

(٢) رواه ابن ماجه في الفتن ٤٠٨٤، والحاكم ٤/ ٤٦٣ من حديث ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «يقتتل عند كنزكم ثلاثة، كلهم ابن خليفة، ثم لا يصير إلى واحد منهم، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقتلونكم قتلاً لم يقتله قوم، قال: فإذا رأيتموه فبايعوه ولو حبوًا على الثلج، فإنه خليفة الله المهدي».
قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي. وقال البوصيري في الزوائد: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات. أما الحديث الآخر: «إذا رأيتم الرايات السود...» إلخ، فموضوع. والمهدي ليس من ولد العباس، وأحاديث المهدي متواترة تواترًا معنويًا أخرجها الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، وابن خزيمة وابن حبان وغيرهم، من طرق باسمه معينًا. وجاء في صحيح مسلم ومسند أحمد باسم خليفة، وقد ألف في أحاديثه العلماء قديمًا وحديثًا.

(٣) نفس المرجع السابق.

(٤) فعن عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال له ولعلي: «ألا أحدِّثكما بأشقى الناس؟» قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «أُحَيْمِرَ ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذه ـ يعني: قرنه ـ حتى تبتل هذه من الدم ـ يعني لحيته ـ». رواه أحمد ٤/ ٢٦٣، والحاكم ٣/ ١٤١، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وله مع ذلك شواهد. أحيمر: تصغير أحمر وكان اسمه قُدار، على وزن غراب.

قميصًا وأنهم يريدون منه خلعه[1] . . وأن الفتن لا تظهر ما دام عمر حيًا[2] . . وبمحاربة الزبير لعلي، وبنباح كلاب الحوأب على بعض أزواجه، وأنه يقتل حولها قتلى كثيرة وتنجو بعد ما كادت، فنبحت على عائشة عند خروجها إلى البصرة[3] . . وأن عمارًا تقتله الفئة

---

(١) جاء في ذلك عدة أحاديث، منها: حديث أبي موسى الطويل في بشارة الخلفاء الثلاثة بالجنة، وقال في عثمان: «افتح له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه». رواه أحمد ٤/ ٤٠٦، والبخاري في المناقب ٨/ ٣٥، ٣٨، ومسلم في الفضائل ١٥/ ١٧٠، ١٧٣، والترمذي في المناقب ٣٤٨٢ بتهذيبي، وغيرهم. وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبي ﷺ قال: «يا عثمان إنه لعل الله يقمصك قميصًا، فإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه لهم. رواه الترمذي ٣٤٧٧، وابن ماجه ١١٣، والحاكم ٣/ ٩٩، ١٠٠ وصححه. فهذا القميص هي الخلافة التي ابتلي بها وقتل عليها رضي الله تعالى عنه.

(٢) فعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تصيبكم فتنة ما دام هذا فيكم» يعني: عمر. رواه الطبراني في الأوسط، قال في المجمع: رجاله رجال الصحيح غير المهدي بن يحيى، وهو ثقة ثبت. . . إلخ. وفي حديث حذيفة المشهور في الصحيحين: «إن بينك وبينها بابًا مغلقًا»، قال عمر: أيكسر الباب أم يفتح؟ قال: «لا، بل يكسر»، قال عمر: «إذًا لا يغلق»، قال حذيفة: الباب عمر. وهكذا كان، فلما قتل عمر جاءت الفتن وكانت بدايتها أيام عثمان رضي الله عن الجميع.

(٣) فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن رسول الله ﷺ قال لنسائه: «أيتكن صاحبة الجمل الأريب؟ تخرج حتى تنبحها كلاب الحوأب يقتل عن يمينها وعن شمالها قتلى كثيرة وتنجو بعدما كادت». رواه البزار، قال الهيثمي ٧/ ٢٣٤: رجاله ثقات.

وجاء في حديث قيس بن أبي حازم عن عائشة: أنها لما نزلت مياه بني عامر نبحت عليها الكلاب، فقالت، أي ماء هذا؟ قالوا: الحوأب، قالت: ما أظنني إلاَّ راجعة. فقال لها بعض من كان معها: بل تقدمين. . . إلخ، رواه أحمد ٦/ ٥٢، =

الباغية، فقتله أصحاب معاوية[1]. وقال لعبد الله بن الزبير ويل للناس منك، وويل لك من الناس[2].

وقال في رجل وقد أبلى مع المسلمين أنه: «من أهل النار» فقتل نفسه[3]. وقال في جماعة فيهم أبو هريرة وسمرة بن جندب وحذيفة: «آخركم موتًا في النار»[4]، فكان بعضهم يسأل عن بعض، فكان سمرة آخرهم موتًا؛ هرم وخرف فاصطلى بالنار فاحترق فيها. وقال: «الخلافة في قريش»[5]، «ولن يزال هذا الأمر في قريش ما أقاموا

= ٩٧، وابن حبان ٦٧٣٢، والحاكم ٣/ ١٢٠، وسنده صحيح. فالقائل: «بل تقدمين» يقال: هو الزبير.

(١) رواه أحمد ٣/ ٥، ٩١، والبخاري في المساجد ٢/ ٨٧، ٨٨، وفي الجهاد ٦/ ٣٧٠ وغيرهما، ومسلم في الفتن ١٨/ ٣٩، ٤٠ عن أبي سعيد الخدري، وورد عن جماعة آخرين. وكان عمار مع الإمام علي في صفين، فقتله أهل الشام من أنصار معاوية، وعمرهُ يناهز التسعين رضي الله تعالى عنه.

(٢) رواه الدارقطني في السنن آخر الطهارة ١/ ٢٢٨، والطبراني عن أسماء بنت الصديق، ورواه البزار والطبراني وأبو نعيم في الحلية ١/ ٣٣٠ عن ابن الزبير. وانظر ما سبق ص ٨٩. وقد صدق الواقع هذا الحديث، وذلك من علامات نبوّته، فابن الزبير قد ابتلي بالخلافة، وحصل منه وله ما أخبر به النبي ﷺ حتى كان آخر أمره أن قتل وفعل بجثته ما هو معروف.

(٣) رواه البخاري في القدر ١٤/ ٣٠١، ومسلم في الإيمان ٢/ ١٢٣، ١٢٤، عن سهل بن سعد مطولاً ونحوه عن أبي هريرة عندهما أيضًا ورواه أيضًا البخاري في غزوة خيبر.

(٤) رواه الطبراني في الأوسط رقم ٦٢٠٢، والبيهقي في الدلائل ٦/ ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦٠ من طرق موصولة ومرسلة بمجموعها يرتقي لدرجة الحسن. وانظر: مجمع الزوائد رقم ١٤٠٧٧.

(٥) رواه أحمد ٤/ ١٨٥، وابن أبي عاصم في السنة ١٠١٤ من حديث عتبة بن عبدٍ، وسنده حسن، وقال في المجمع ٤/ ١٩٢: رجاله ثقات، وصححه أيضًا العراقي. وله شاهد عن أبي هريرة موقوفًا، رواه ابن أبي عاصم ١٠٢٤ بسندٍ صحيح. وفي =

الدين»[1] وقال: «يكون في ثقيف كذاب ومبير»[2]، فرأوهما: الحجاج والمختار. وأن مسيلمة يعقره الله[3]. وأن فاطمة أول أهله لحوقًا به[4]. وأنذر بالردة[5]. وبأن الخلافة بعده ثلاثون سنة ثم تكون

= الباب عن سفينة عند البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم، وعن عمرو بن العاص عند أحمد والترمذي. وانظر تهذيبي للجامع ٢٠٥٣، ٢٠٥٧.

(١) في هذا حديثان، الأول: عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي من الناس اثنان». رواه البخاري في المناقب ٧/ ٣٤٥، ومسلم في أول الإمارة ١٢/ ٢٠١. والثاني عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلاَّ كبه الله عز وجل على وجهه ما أقاموا الدين». رواه أحمد ٤/ ٩٤، والبخاري في المناقب ٧/ ٣٤٥، وفي الأحكام. وفي الباب عن جابر بن سمرة عند مسلم ١٢/ ٢٠٢، ٢٠٣ وغيره. وما في الحديثين قد صدقه الواقع، فلم تزل الخلافة في قريش رغم انحرافهم فالأمر فيهم إلى ما شاء الله.

(٢) رواه مسلم في الفضائل ١٦/ ١٠٠ ضمن حديث لأسماء بنت الصديق رضي الله تعالى عنهما مطولاً، ورواه أحمد ٢/ ٢٦، ٨٧، ٩١، ٩٢، والترمذي في الفتن ٢٥٠ عن ابن عمر.

(٣) رواه البخاري في علامات النبوة، ومسلم في الرؤيا ١٥/ ٣٣، ٣٤ عن ابن عباس في مجيء مسيلمة إلى النبي ﷺ في بشر كثير... وفيه قوله ﷺ له: «ولئن أدبرت ليعقرنك الله...» الحديث، فكان كما أخبر، فقد قتل أيام الصديق رضي الله تعالى عنه مع من قتل معه من أتباعه في الوقعة المشهورة.

(٤) رواه أحمد ٦/ ٧٧، ٢٤٠، والبخاري ٨/ ٨٠، ٨١، ومسلم ١٦/ ٥، ٧، كلاهما في المناقب عن عائشة.

(٥) فعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: ألاَّ أنه يجاء برجال من أمتي ويؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك...» إلخ، رواه البخاري في التفسير ٩/ ٣٥٥ وفي مواضع، ومسلم في الجنة ١٧/ ١٩٣، ١٩٤، والترمذي في التفسير ٢٩٦٣، وكذا أحمد ١/ ٢٣٥، ٢٥٣ مطولاً. =

ملكًا[1]، فكانت كذلك بمدة الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما. وقال: «إن هذا الأمر بدأ نبوة ورحمة ثم يكون رحمة وخلافة ثم يكون ملكًا عضودًا ثم يكون عتوًا وجبروتًا وفسادًا في الأمة»[2].

وأخبر بشأن أويس القرني[3]، وبأمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها[4]،

= وفي مسلم وأبي داود ٤٢٥٢، والترمذي ٢٠٤٩ عن ثوبان مرفوعًا: «لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين...» إلخ، وهذا ما حصل بعد انتقاله ﷺ، فقد ارتدت عدة قبائل، كما ارتد جماعة من أهل المدينة وغيرها من ضعاف الإيمان... ولا يُعرف مهاجريٌّ أو أنصاريٌّ من مشاهير الصحابة المخلصين أنه ارتد كما يفتريه الشيعة الروافض فيحكمون على جميع الصحابة بالارتداد حتى العشرة إلاَّ نحوًا من ستة عشر نفرًا.

(١) رواه أحمد ٥/ ٢٢٠، وأبو داود ٤٦٤٦، ٤٦٤٧، والترمذي في الفتن ٢٠٥٣ وغيرهم من حديث سفينة، وإسناده حسن، وهو صحيح لطرقه..

(٢) هو بهذا السياق رواه البزار والبيهقي، وسنده ضعيف، وفي معناه حديث حذيفة مرفوعًا: «إنكم في النبوة ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، وتكون ما شاء أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء، ثم يكون ملك عضوض، ثم تكون جبرية ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة».
رواه أحمد ٤/ ٢٧٣، والطيالسي ٢٥٩٣ بسند حسن، وأورده في المجمع ٥/ ١٨٩ برواية أحمد والبزار والطبراني وقال: رجاله ثقات، وصححه العراقي. فها نحن ذا في مرحلة الجبرية وسوف تأتي الخلافة النبوية، ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله.

(٣) رواه مسلم في الفضائل ١٦/ ٩٤، ٩٥، ٩٦ وغيره، وقصته مبسوطة في مسلم وغيره، وهو من خيار التابعين وساداتهم، أخبر النبي ﷺ به وبصفته وأمر الصحابة أن يطلبوا منه الاستغفار، وأخبر عنه بأنه لو أقسم على الله لأبره، فكان موجودًا أيام الفاروق ولقيه واستغفر له رضي الله تعالى عنهما.

(٤) ورد ذلك عن جماعة من الصحابة عن ابن مسعود عند أحمد ١/ ٣٧٩، ٤٥٥، ٤٥٩، وابن ماجه ١٢٥٥ بسندٍ صحيح. وعن عبادة بن الصامت عند أبي داود =

وسيكون في أمته ثلاثون كذابًا فيهم أربع نسوة[1]، وفي حديث آخر: «ثلاثون دجالاً كذابًا؛ أحدهم الدجال الكذاب، كلهم يكذب على الله»[2]، وقال: «يوشك أن يكثر فيكم العجم يأكلون فيئكم ويضربون رقابكم»[3]. وقال: «لا تقوم الساعة حتى يسوق الناس بعصاة رجل من قحطان»[4]. وقال: «خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يأتي بعد ذلك قوم يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن»[5]. وقال: «لا يأتي زمان إلاَّ والذي بعده شر منه»[6].

= ٤٣٣، وابن ماجه ١٢٥٧ بسند صحيح. وعن أبي ذر عند مسلم وأبي داود والترمذي وغيرهم في آخرين فكان الأمر كما قال ﷺ.

(١) رواه أحمد ٥/ ٣٩٦ عن حذيفة بسند صحيح.

(٢) رواه مسلم في الفتن ١٨/ ٤٥، ٤٦ من حديث أبي هريرة، وقد وقع كل ذلك، ونحن في انتظار الدجال الأعور، أعاذنا الله من فتنته.

(٣) رواه أحمد ٥/ ١١، ١٧، ٢١، والبزار، وسنده صحيح عند أحمد، وهو من حديث سمرة. ورواه الحاكم ٤/ ٥١٩ في الفتن عن حذيفة وصححه، ورده الذهبي.

وقد وقع هذا أيضًا ولا زلنا نعيش في آثار ذلك.

(٤) حديث القحطاني رواه البخاري ١٦/ ١٩٠، ومسلم ١٨/ ٣٦ كلاهما في الفتن عن أبي هريرة، ورواه البخاري أيضًا في مناقب قريش ٧/ ٣٥٦ وهذا لم يأتِ بعد ولا بد من خروجه، ويقال: إنه سيمهد للخليفة المهدي، والله أعلم.

(٥) الحديث وارد عن جماعة عن عمران بن حصين رواه أحمد ٤/ ٤٢٦، ٤٤٠، والبخاري ٨/ ٦، ٧ والمناقب، ومسلم في الفضائل ١٦/ ٨٧، ٨٨، ٨٩، وباقي الجماعة، وعن ابن مسعود رواه أحمد ١/ ٣٧٨ وفي مواضع والشيخان، والترمذي ٣٦٢٧ بتهذيبي، وعن أبي هريرة رواه أحمد ٢/ ٢٢٨، ٤١٠، ٤٧٩، ومسلم ١٦/ ٨٦، ٨٧، وعن عائشة رواه أحمد ٦/ ١٥٦، ومسلم ١٦/ ٧٩ وغير هؤلاء.

(٦) رواه أحمد ٣/ ١٣٢، ١٧٧، ١٧٩، والبخاري في الفتن ١٦/ ١٢٧ عن الزبير بن =

وقال: «هلاك أمتي على يدي أغيلمة من قريش»[1]، وقال أبو هريرة: لو شئت سميتهم لكم: بنو فلان وبنو فلان. وأخبر بظهور القدرية[2]. وأخبر بقلة الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام[3]، فلم يزل أمرهم يتبدد حتى لم يبق لهم جماعة. وأنهم سيلقون بعده أثرة[4]. وأخبر بشأن الخوارج وصفتهم والمخدج الذي فيهم، وأن سيماهم التحليق[5]. وترى رعاة الغنم

= عدي قال: شكونا إلى أنس بن مالك ما نلقى من الحجاج فقال: اصبروا فإنه لا يأتي عليكم عام أو يوم إلاَّ الذي بعده شرٌّ منه حتى تلقوا ربكم عز وجل، سمعته من نبيكم ﷺ.

(١) رواه البخاري ١٦/ ١١٥، ١١٦، ومسلم ١٨/ ٤١ كلاهما في الفتن من حديث أبي هريرة قال: إن شئت سميتهم ببني فلان ـ يشير إلى بعض بني أمية ممن استخلف صغيرًا غير كفء للخلافة.

(٢) رواه أحمد ٢/ ٩٠، والترمذي في القدر ١٩٨٢، وابن ماجه في الفتن ٤٠٦١، وعن ابن عمر وحسَّنه الترمذي وصححه بلفظ: «في هذه الأمة خسف أو مسخ أو قذف في أهل القدر».

(٣) ورد ذلك عن ابن عباس وأنس في المناقب ٨/ ١٢٢، ١٢٣ وغيره، من صحيح البخاري وغيره، وفيه عن ابن عباس: «أيها الناس فإن الناس يكثرون ويقل الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام...».

(٤) رواه أحمد ٣/ ١٦٦، وفي مواضع والبخاري في المناقب ٨/ ١١٨ وفي مواضع، ومسلم في الزكاة عن أنس: «إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني غدًا على الحوض».

(٥) الأحاديث بذكر الخوارج متواترة، رواها الجم الغفير من الصحابة، منهم أبو سعيد الخدري، رواه أحمد ٣/ ٥٦، ٥٧، والبخاري في دلائل النبوة ٧/ ٤٣٠، وفي أحاديث الأنبياء ٧/ ١٨٧، وفي المغازي ٩/ ١٣٠، ١٣١، وفي استتابة المرتدين ١٥/ ٣٢٠، ٣٢٤، ومسلم في الزكاة ٧/ ١٦، ١٦٢، ١٦٧، وأبو داود ٤٧٦٣ وغيرهم، وانظر الأنوار الباهرة وفضائل الصحابة لكاتبه.

رؤوس الناس والعراة الحفاة يتبارون في البنيان وأن تلد الأمة ربتها[1]. وأن قريشًا والأحزاب لا يغزونه أبدًا وأنه هو يغزوهم[2].

وأخبر بالموتان الذين يكون بعد فتح بيت المقدس[3]. وأنهم يغزون في البحر كالملوك على الأسرة[4]. وأن الدين لو كان منوطًا بالثريا لناله

---

(١) جاء هذا في حديثي عمر وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما، فحديث عمر رواه أحمد ١/ ٥٢، ٥٣، ومسلم ١/ ١٥٠، ١٦٠، وأبو داود ٤٦٩٥، والترمذي ٢٤٢٩، والنسائي ٨/ ٨٨، ٨٩ وغيرهم. وحديث أبي هريرة رواه أحمد ٢/ ٤٢٦، والبخاري ١/ ١٢٣، ١٣٣، ومسلم ١/ ١٦١، ١٦٥ وغيرهم. وهذا الحديث هو المعروف بحديث جبريل الذي جاء فيه تعليم كليات الدين.

وقول المصنف: «يتبارون في البنيان» لفظ الحديث: «يتطاولون في البنيان»، أي: يتفاخرون في إطالتها ويتنافسون فيها، كما هو الواقع منذ أزمنة.

(٢) رواه البخاري في المغازي ٨/ ٤٠٨، ٤٠٩، وأحمد ٣/ ٢٦٢ عن سليمان بن صرد قال: سمعت النبي ﷺ يقول حين أجلى الأحزاب عنه: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم». فكان الأمر كما قال، ففي السنة السادسة ذهب إلى مكة فوقع صلح الحديبية، وفي السنة السابعة كانت عمرة القضاء، وفي السنة الثامنة غزاهم فكان فتح مكة الأعظم.

(٣) تقدم تخريجه في هذا الفصل ص ٢٧٥، وفيه: «ثم موتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم...» إلخ، وهو في البخاري.

(٤) جاء ذلك في حديث أنس: أن النبي ﷺ دخل على أم حرام فنام عندها، فاستيقظ وهو يضحك، قالت: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: «ناس من أمتي عرضوا عليَّ غزاة في سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر ملوكًا على الأسرَّة...» الحديث. رواه البخاري في الجهاد ٩/ ٣٥٠، ٣٥١، وفي الاستئذان وفي التعبير، ومسلم في الإمارة ١٣/ ٥٧، ٥٨ وغيرهما، والثبج بفتح الثاء والباء هو ظهره ووسطه، وكان هذا في خلافة عثمان رضي الله تعالى عنه، حيث غزا معاوية بإذنه قبرص، ثم غزا الروم أيضًا يزيد بن معاوية، وهي الرؤيا الثانية التي جاءت في تكملة الحديث.

رجال من أبناء فارس[١]. وهاجت ريح في غزاته فقال: «هاجت لموت منافق» فلما رجعوا إلى المدينة وجدوا ذلك[٢]، وأعلم بالذي غل الشملة وحيث هي[٣]، وبشأن كتاب حاطب إلى أهل مكة[٤]. وأعلم بأنه سيقتل أمية بن خلف[٥]، وعن مصارع أهل بدر، فكان كما قال[٦]. وقال في الحسن رضي الله تعالى عنه: «إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين[٧]. وقال لسعد رضي الله تعالى عنه: «لعلك تخلف حتى ينتفع بك

---

(١) رواه البخاري في تفسير سورة الجمعة ١٠/ ٢٦٦، ٢٦٨، ومسلم في الفضائل ١٦/ ١٠٠، ١٠١، عن أبي هريرة بلفظ: «والذي نفسي بيده لو كان الإيمان بالثريا لتناوله رجال من هؤلاء».

(٢) رواه أحمد ومسلم في صفات المنافقين ١٧/ ١٢٧.

(٣) رواه البخاري في المغازي ٩/ ٢٩، ٣٠، وأبو داود ٢٧١١، والنسائي ٧/ ٢٢ في الجهاد عن أبي هريرة، ونحوه عن عمر عند مسلم في الإيمان ٢/ ١٢٧.

(٤) رواه البخاري في الجهاد ٨/ ٣٠٦، ٣٠٧، وفي المغازي ٩/ ٦١، ٦٢، وفي التفسير ١٠/ ٢٥٨، ٢٥٩، ومسلم في الفضائل ١٦/ ٥٤، ٥٧ وغيرهما، وقصته مبسوطة عندهما.

(٥) رواه أحمد ١/ ٤٠٠، والبخاري في علامات النبوة ٧/ ٤٤١، ٤٤٢، وفي المغازي ٨/ ٢٨٤، ٢٨٥ وغيرهما من حديث ابن مسعود مطولاً في قتله يوم بدر.

(٦) رواه البخاري في المغازي ٨/ ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ومسلم في الجهاد والسير ١٢/ ١٢٤، ١٢٦، من حديث أنس مطولاً، وفيه: قال ﷺ ليلة بدر: «هذا مصرع فلان إن شاء الله تعالى غدًا.. وهذا مصرع فلان إن شاء الله تعالى غدًا ـ ووضع يده على الأرض»، فوالذي بعثه بالحق ما أخطأوا تلك الحدود... الحديث.

(٧) رواه أحمد ٥/ ٣٨، ٤٤، ٥١، والبخاري في المناقب ٨/ ٩٦ من حديث أبي بكرة، وقد حقق الله تعالى ما أخبر به حينما تولى عن الخلافة وتركها لمعاوية فحقن دماء المسلمين بذلك الصلح الحكيم.

أقوام ويضر بك آخرون»[1].

وأخبر ﷺ بقتل أهل مؤتة يوم قتلوا[2]، وبينهم مسيرة شهر أو أزيد، وبموت النجاشي يوم مات وهو بأرضه[3]. وأخبر فيروز إذ ورد عليه رسولاً من كسرى بموت كسرى ذلك اليوم، فلما حقق فيروز القصة أسلم[4]. وأخبر أبا ذر رضي الله تعالى عنه بتطريده كما كان ووجده في المسجد نائمًا، فقال له: «كيف بك إذا أخرجت منه»؟ قال: أسكن المسجد الحرام. قال: «فإذا أخرجت منه...» الحديث[5]. وأخبر أن أسرع أزواجه به لحوقًا أطولهن يدًا[6]، فكانت زينب لطول يدها

---

(١) رواه أحمد ١/ ١٧٩، والبخاري ٦/ ٢٩٢، ٣٠٠، ومسلم ١١/ ٧٦، ٧٩ كلاهما في الوصايا عن سعد نفسه، فوقع كما قال له، فقد عاش دهرًا وانتفع به ناس وضر به آخرون، كما تقدم في دعائه على ذلك الرجل.

(٢) رواه البخاري في علامات النبوة، وفي الجهاد وفي المغازي ٩/ ٥٤ عن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ بعث زيدًا وجعفر وابن رواحة، ودفع الراية إلى زيد فأصيبوا جميعًا فنعاهم رسول الله ﷺ إلى الناس قبل أن يجيء الخبر... الحديث. ومؤتة: من بلاد الشام، قريبة من البلقاء، كانت فيها هذه الغزوة مع الروم، وفي السنة الثامنة.

(٣) رواه أحمد ٢/ ٥٢٩، والبخاري ٣/ ٤٣٠، ومسلم ٧/ ٢١ وغيرهم، كلهم في الجنائز عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه... إلخ. «نعى»، أي: أخبرهم بموته، وهذا خلاف النعي المنهى عنه.

(٤) انظر ما سبق أول هذا الفصل ص ٢٧٧.

(٥) رواه أحمد ٦/ ٤٥٧ عن أسماء بنت يزيد رضي الله تعالى عنها مطولاً، وسنده صحيح، وشهر ثقة تكلم فيه بغير حجة كما قال النووي وغيره، ثم ما في الحديث كله حصل له رضي الله تعالى عنه، ولتراجع قصته من المسند ففيها عبر.

(٦) رواه البخاري في الزكاة ٤/ ٢٨، ومسلم في الفضائل ١٦/ ٨ من حديث عائشة، ووقع عند البخاري غلط حيث ذكر: فكانت سودة أطولهن يدًا، وإنما هي زينب =

بالصدقة[1]. وأخبر ﷺ بقتل الحسين عليه السلام بالطف، وأخرج بيده تربة وقال: «فيها مضجعه»[2].

وقال في الذين كانوا معه على حراء: «اثبت، فإنما عليك نبي وصديق وشهيد»[3]. فقتل عمر وعثمان وطلحة والزبير وعلي وطعن سعد رضي الله تعالى عنهم[4]. وقال ﷺ لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان دعواهما واحدة[5]. وأخبر بصفة السحر الذي سحره به لبيد بن الأعصم، وكونه في مشط ومشاطة في جف طلع نخلة ذكر، وأنه ألقي في بير ذروان، فكان كما

= وهي التي كانت أسرع موتًا من أزواجه ﷺ، وكانت أطولهن يدًا بالصدقة لا بالجارحة أما سودة فتأخر موتها.

(١) هكذا جاء به مصرحًا عن عائشة في صحيح مسلم.

(٢) أخرج أحمد ١/ ٨٥ عن الإمام علي عليه السلام قال: دخلت على النبي ﷺ ذات يوم وعيناه تفيضان، قلت: يا نبي الله أغضبك أحد؟ ما شأن عينيك تفيضان؟ قال: «بل قام من عندي جبريل عليه السلام قبلُ فحدثني أن الحسين يقتل بشط الفرات. قال: فقال: هل لك إلى أن أشمك من تربته؟ قال: قلت: نعم. فمد يده، فقبض قبضة من تراب فأعطانيها، فلم أملك عيني أن فاضتا» وسنده صحيح، وعزاه الهيثمي في المجمع لأحمد والبزار والطبراني، وقال: رجاله ثقات ٩/ ١٨٧، وقد قتل الحسين عليه السلام بالعراق عند وادي الفرات بكربلاء كما أخبر ﷺ، قتلته الأيدي الآثمة أنصار يزيد، وسيلقون جزاءهم العادل على ما فعلوا.

(٣) تقدم تخريجه ص ٢٥٦.

(٤) فكلهم كانوا إذًا شهداء.

(٥) رواه أحمد ٢/ ٣١٣، ٥٣٠، والبخاري ١٦/ ١٩٦، ومسلم ١٨/ ١٣، كلاهما في الفتن عن أبي هريرة ورواه البخاري في مواضع. وقد تحقق هذا باقتتال الإمام علي وطلحة والزبير. والإمام علي مع معاوية لأن الكل كان يدعي الحق في جانبه علمًا بأن عليًا كان هو المصيب في تلك الحروب كلها.

قال، ووجد على تلك الصفة[١]. ووصف لكفار قريش بين المقدس حين كذبوه في خبر الإسراء، ونعته إياه نعت من عرفه[٢]. . .

إلى ما أخبر به من الحوادث التي تكون ولم تأت بعد، منها ما ظهرت مقدماتها كقوله ﷺ: «عمران بيت المقدس خراب يثرب، وخراب يثرب خروج الملحمة، وخروج الملحمة فتح القُسطنطينية»[٣].

---

(١) رواه أحمد ٦/ ٥٧، ٦٣، ٩٦، والبخاري في بدء الخلق ٧/ ١٤٥، وفي الطب وفي الأدب وفي الدعوات، ومسلم في الطب ١٤/ ١٧٤، ١٧٨ وغيرهم من حديث عائشة. و «المشط» بكسر الميم وضمها هي: آلة المشط. والمشاطة بضم الميم هو: الشعر المتساقط عند تسريحه وجف بضم الجيم: وعاء الطلع وهو ثمر النخل عند بروزه.

(٢) ورد هذا عن أبي هريرة، رواه مسلم في الإيمان ٢/ ٢٣٧، ٢٣٨، قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي، فسألوني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها. . قال: فرفعه الله لي أنظر إليه، ما يسألوني عن شيء إلاَّ نبأتهم به». الحجر، بكسر الحاء وسكون الجيم، معروف، وقوله: «لم أثبتها» هو بضم الهمزة وسكون الثاء وكسر الباء، أي: لم أتحققها. وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لما كذبتني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه». رواه البخاري في الإسراء ١٠/ ٦/ ٧، وفي المناقب ٨/ ١٩٨، ومسلم في الإيمان ٢/ ٢٣٧، والترمذي في تفسير الإسراء ٤/ ١٣٥ مع التحفة وغيرهم. وقوله: «فجلى الله»، أي: أظهره لي. وهذه آية باهرة ولله في خلقه عجائب الغرائب. وقد تقدم تخريج هذا الحديث في الإسراء ص ١٦٨ وما بعدها.

(٣) رواه أحمد ٥/ ٢٣٢، ٢٤٥، وأبو داود في الملاحم ٤٢٩٤، والطحاوي في مشكل الآثار ١/ ٢١٧، والحاكم ٤/ ٤٢٠، ٤٢١، كلهم من حديث معاذ بن جبل، وسنده جيد والحديث حسن كما قال ابن كثير في النهاية، وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي وزادوا: «وفتح القسطنطينية خروج الدجال» وما في هذا الحديث لم يقع بعد ولا بدَّ أن يقع لأنه ﷺ لا ينطق عن الهوى.

ومن أشراط الساعة وآيات حلولها، وذكر النشر والحشر وأخبار الأبرار والفجار في الجنة والنار، وعرصات القيامة.. وبحسب هذا الفصل أن يكون ديوانًا مفردًا يشتمل على أجزاء وحده[1]، وفيما أشرنا إليه من نكت الأحاديث التي ذكرناها كفاية.

عصمته ﷺ من الناس وكفايته مَنْ آذاه

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧][2].

وقال عزَّ وجلّ: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾ [الزمر: ٣٦][3].

وقال جل علاه: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور: ٤٨][4].

وقال: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ۝٩٥﴾ [الحجر: ٩٥][5].

وقال: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال: ٣٠] إلى قوله: ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾ [الأنفال: ٣٠][6].

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان النبي ﷺ يحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧] فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة فقال لهم: «يا أيها الناس، انصرفوا فقد

---

(١) وقد ألَّف علماؤنا رحمهم الله تعالى الشيء الكثير في ذلك، من أهم ذلك: النهاية لابن كثير.

(٢) أي: يحفظك منهم فلا تصاب من طرفهم بسوء.

(٣) أي: أليس الله بكافيه شر أعدائِه؟.

(٤) أي: احبس نفسك لما قضاه الله تعالى عليك، وادع إليه واصدع بما أمرت به ولا تضجر ولا تسأم ولا تخشى أحدًا، فإنك بمرأى منا لا يخفى علينا حالك مع أولئك الكفرة الجاحديث المعاندين.

(٥) تقدَّم الكلام عليها أول الكتاب ص ٦٦.

(٦) تقدم أيضًا الكلام عليها ص ٧٦.

عصمني ربي عز وجل»[1].

[ز] وعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال: غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة قبل نَجْد، فلما قفل رسول الله ﷺ أدركته القائلة يومًا بواد كثير العضاه، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس في العضاه يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سمرة فعلق بها سيفه فنام نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا فجئناه فإذا عنده أعرابي جالس فقال: «إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صَلْتًا، فقال لي: من يمنعك مني؟ فقلت: الله. فشام السيف وجلس». ثم لم يعاقبه[2].

---

(١) رواه الترمذي ٢٨٤٤، والحاكم ٢/ ٣١٣، كلاهما في التفسير، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وحسَّنه الحافظ في الفتح.

(٢) رواه أحمد ٣/ ٣١١، ٣٦٤، والبخاري في الجهاد، وفي غزوة ذات الرقاع ٨/ ٤٣٠، ٤٣٢، ومسلم في الصلاة وفي الفضائل ١٥/ ٤٤، ٥٥، وذكرتُ هذا الحديث بدل ما ذكره المصنف الذي خلط فيه الصحيح والضعيف وما لا أصل له في القصة.
وصاحب هذه القصة هو غورث كما أشار إليه وأخرجها أحمد ٣/ ٣٦٥، ٣٩٠ مسمى فيها، فقال جابر: قاتل رسول الله ﷺ محارب خصفة بنخل فرأوا من المسلمين غرة، فجاء رجل منهم يقال له غورث بن الحارث حتى قام على رسول الله ﷺ بالسيف فقال: من يمنعك مني؟ قال: «الله»، فسقط السيف من يده فأخذه رسول الله ﷺ بالسيف فقال: «من يمنعك مني؟» قال: كن خير آخذ، قال: «أتشهد أن لا إلـه إلاَّ الله؟» قال: لا، ولكني أعاهدك أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فخلَّى سبيله قال: فذهب إلى أصحابه قال: قد جئتكم من عند خير الناس. وسنده صحيح. ورواه أيضًا الحاكم ٣/ ٢٩، وصحَّحه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وقد تقدَّم أيضًا ص ١١٩.
وقوله: «قفل»، أي: رجع. و «العضاة» كل شجر ذي شوك. و «اخترط سيفي»، أي: سلَّه. وقوله: «فشام السيف»، أي: أدخله في غمده. وقوله: «فخلى سبيله»، أي: تركه وعفا عنه.

وحمايته ﷺ عن رؤية الكفار في الغار بما هيأ الله من الآيات، ومن العنكبوت الذي نسج عليه، كل ذلك مشهور[١].

وكذا قصته ﷺ مع سراقة بن مالك بن جُعْشُم حين الهجرة وقد جعلت قريش وفي أبـي بكر الجعائل، فأنذر به فركب فرسه واتبعه، حتى إذا قرب منه دعا عليه النبـي ﷺ فساخت قوائم فرسه، فخر عنها، واستقسم بالأزلام فخرج له ما يكره، ثم ركب ودنا حتى سمع قراءة النبـي ﷺ وهو لا يلتفت وأبو بكر رضي الله تعالى عنه تعالى يلتفت وقال للنبـي ﷺ: أتينا. فقال: «لا تحزن إن الله معنا»، فساخت ثانية إلى ركبتيها وخر عنها، فزجرها فنهضت ولقوائمها مثل الدخان، فناداهما بالأمان، فوقفا قال: ووقع في نفسي أنه سيظهر رسول الله ﷺ. وفي رواية قال: فوالله لأعمين على من ورائي من الطلب[٢].

وكذا ما وقع له ﷺ مع أبـي جهل عندما قال: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل: نعم، فقـال: والـلات والعـزى لئـن رأيتـه يفعـل ذلك لأطـأن علـى رقبتـه أو لأعفرن وجهه في التراب. فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ليطأ على رقبته فما فجأهم منه إلاَّ وهو ينكص على عقبيه يتقي بيديه، فقيل لـه: مـا لك؟ قال: إن بيني وبينه خندقًا من نـار وهولاً وأجنحة. فقال

---

(١) انظر ما سبق معجزاته في ضروب الحيوانات: ص ٢٥٩.

(٢) ورد ذلك عن أبـي بكر وسراقة والبراء بن عازب رضي الله تعالى عنهم، فحديث أبـي بكر رواه أحمد ١/ ٢، ٣، والبخاري في علامات النبوة ٧/ ٤٣٥، ٤٣٦ وفي المناقب، ومسلم في الزهد ١٨/ ١٤٧، ١٥٠، ١٥١، وحديث سراقة رواه أحمد ٤/ ١٧٥، ١٧٦، والبخاري في الهجرة ٨/ ٢٣٩، ٢٤٢ مطولاً، وحديث البراء رواه أحمد ٤/ ٢٨٠، ٢٨١، والبخاري في الهجرة ٨/ ٢٤٩، ومسلم في الأشربة ١٣/ ١٧٩، ١٨٠، وهو في الواقع يرويه عن أبـي بكر. وانظر: ص ٧٧.

رسول الله ﷺ: لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا. وأنزل الله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ ﴾ [العلق: ٩][1].

ومن ذلك: نصره بالرعب مسيرة شهر كما قال ﷺ[2].

معارفه وعلومه

ومن معجزاته الباهرة: ما جمعه الله له من المعارف والعلوم، وخص به من الاطلاع على جميع مصالح الدنيا والدين، ومعرفته بأمور شرائعه وقوانين دينه، وسياسة عباده، ومصالح أمته، وما كان في الأمم قبله، وقصص الأنبياء والرسل، والجبابرة والقرون الماضية من لدن آدم إلى زمنه، وحفظ شرائعهم وكتبهم، ووعى سيرهم، وسرد أنبائهم وأيام الله فيهم، وصفات أعيانهم، واختلاف آرائهم، والمعرفة بمُددهم وأعمارهم وحكم حكمائهم، ومحاجة كل أمة من الكفرة. ومعارضة كل فرقة من الكتابيين بما في كتبهم، وإعلامهم بأسرارها ومخبآت علومها، وإخبارهم بما كتموه من ذلك وغيروه.

إلى الاحتواء على لغات العرب وغريب ألفاظ فرقها، والإحاطة بضروب فصاحتها، والحفظ لأيامها وأمثالها وحكمها ومعاني أشعارها، والتخصيص بجوامع كلمها، وإلى المعرفة بضرب الأمثال الصحيحية والحكم البينة لتقريب التفهيم للغامض والتبيين للمشكل، إلى تمهيد قواعد الشرع الذي لا تناقض فيه ولا تخاذل، مع اشتمال شريعته على محاسن

---

(١) رواه أحمد ٢/ ٣٧٠، ومسلم في صفة القيامة ١٨/ ١٣٩، والنسائي في الكبرى ٦/ ٥١٨ في التفسير.

(٢) جاء هذا في حديث جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر... الحديث. رواه البخاري في التيمم وغيره، ومسلم في المساجد ٥/ ٣، ٤، وغيرهما. وانظر ص ١٦٤.

الأخلاق ومحامد الآداب، وكل شيء مستحسن مفصل لم ينكر منه ملحد ذو عقل سليم شيئًا إلاَّ من جهة الخذلان، بل كل جاحد له وكافر من الجاهلية به إذا سمع ما يدعو إليه صوبه واستحسنه دون طلب إقامة برهان عليه، ثم ما أحل لهم من الطيبات وحرم عليهم من الخبائث، وصان به أنفسهم وأعراضهم وأموالهم من المعاقبات والحدود عاجلاً، والتخويف بالنار آجلاً مما لا يعلم علمه ولا يقوم به ولا ببعضه إلاَّ من مارس الدرس والعكوف على كتب.

إلى الاحتواء على ضروب العلم وفنون المعارف كالطب والعبارة والفرائض والحساب والنسب، وغير ذلك من العلوم مما اتخذ أهل هذه المعارف كلامه ﷺ فيها قدوة وأصولاً في علمهم[١]، كقوله ﷺ: «الرؤيا على رِجل طائر»[٢]، وقوله: «الرؤيا ثلاثة: رؤيا حق، ورؤيا يحدث بها الرجل نفسه، ورؤيا تحزين من الشيطان»[٣]، وقوله: «إذا تقارب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب»[٤]، وقوله: «خير ما تداويتم به السعوط واللدود والحجامة والمشي[٥]. و«خير الحجامة يوم سبع عشرة، وتسع عشرة،

(١) معنى هذا الفصل تقدم في إعجاز القرآن وقبله بقليل.

(٢) رواه أحمد ٤/ ١٠، ١١، ١٢، وأبو داود ٥٠٢٠، والترمذي ٢١٠٦، وابن ماجه ٣٩١٤ وسنده صحيح، وهو من حديث أبي رَزِين العُقَيلي مطولاً وحسَّنه الترمذي وصححه. ومعناه: لا يستقر تأويلها حتى تعبر فهي سريعة السقوط إذا عبرت.

(٣) رواه أحمد ٢/ ٥٠٧، والبخاري ١٦/ ٦٢، ٦٥، ومسلم ١٥/ ٢٠، ٢١، والترمذي ٢٠٩٨، ٧١٠٧، ٢١١٦ بتهذيبي، وغيرهم من حديث أبي هريرة، كلهم في الرؤيا والتعبير، وفي الباب عن جماعة.

(٤) هو بعض الحديث السابق.

(٥) وهو بهذا اللسياق رواه الترمذي في الطب ١٨٩٠، ١٨٩٥ من حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، والسعوط والحجامة واللُّدُّ وردت في الصحيح في أحاديث، وهذه أنواع من العلاجات والأدوية يتداوى بها.

وإحدى وعشرين»[1]، و: «في العود الهندي سبعة أشفية، منها ذات الجنب»[2]، وقوله: «ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطنه ـ إلى قوله: ـ فإن كان لا بد فثلث للطعام، وثلث للشراب، وثلث للنفس»[3].

وقوله ـ وقد سئل عن سبأ: أرجل هو أم امرأة أم أرض فقال ـ: رجل ولد عشرة، تيامن منهم ستة، وتشاءم أربعة. . .» الحديث[4]، وقوله ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»[5]، وقوله في الحوض: «زواياه

---

(١) هو بعض الحديث السابق وورد عن أنس من فعله ﷺ، رواه الترمذي في الجامع ١٨٩٣، وفي الشمائل ٣٥٧، والحاكم ٤/ ٢١٠ بسند صحيح.

(٢) رواه أحمد ٦/ ٣٥٦، والبخاري ١٢/ ٢٥٤، ومسلم ١٤/ ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١ كلاهما في الطب عن أم قيس بنت مِحْصَن. والعود الهندي: هو المعروف الذي يستجمر ويبخر به، وذات الجنب: قرحة تخرج داخل الجوف لأحد الجانبين، فإذا تفجرت مات صاحبها شهيدًا فدواؤها هو العود يُلَدُّ به من الفم، وفيه أدوية كثيرة.

(٣) تقدم تخريجه في فصل الأخلاق التي تدعو إليها ضرورة الحياة ص ٩٩.

(٤) رواه الترمذي في التفسير ٣٠١١، وأبو داود في الحروف ٣٩٧٨، والحاكم ٢/ ٤٢٤، من حديث فروة بن مسيك. وله شاهد عن ابن عباس رواه أحمد رقم ٢٩٠٠، والحاكم ٢/ ٤٢٣، ٤٢٤ وصححه، ووافقه الذهبي، وحسّنه ابن كثير في تفسيره، فالحديث حسن صحيح إن شاء الله.

(٥) رواه أحمد ٥/ ٣٧، ٧٣، والبخاري في بدء الخلق، وفي تفسير براءة ٩/ ٣٩٤، ومسلم في القسامة ١١/ ١٦٧، وأبو داود ١٩٤٧، وغيرهم من حديث أبي بكرة. ومعنى: «استدارة الزمان. . .» إلخ: أن الجاهلية كانوا إذا عرض لهم قتال في الشهر الحرام استحلوه ونقلوه إلى صفر، ثم إذا عرض لهم قتال فيه أيضًا استحلوه وقاتلوا فيه، ثم نقلوه لربيع الأول، وهكذا حتى يرجع المحرم لحاله، فكانت استدارة الزمان ورجوعه إلى الحالة التي خلقه الله عليها في حجة الوداع. . وهذا المعنى هو الذي أشار الله إليه في القرآن بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ =

سواء»،[1] وقوله في الذكر: «وأن الحسنة بعشر أمثالها، فتلك مائة وخمسون على اللسان، وألف وخمسمائة في الميزان»[2]، وقوله: «ما بين المشرق والمغرب قبله»[3].

وأما علمه ﷺ بلغات العرب وحفظه معاني أشعارها فأمر مشهور، قد نبهنا على بعضه أول الكتاب، وكذلك حفظه لكثير من لغات الأمم، كقوله في الحديث: «سنة سنة»[4]، وهي: حسنة بالحبشية. وقوله: «ويكثر الهرج» وهو القتل بها[5]. إلى غير ذلك مما لا يعلم بعض هذا ولا يقوم به إلاَّ من مارس الدرس والعكوف على الكتب عمره، وهو ﷺ ــ رجل كما قال

= ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ . . .﴾ الآية [التوبة: ٣٧].

(١) الكلام على أحاديث الحوض تقدم تخريجها. انظر ما سبق ص ١٨٣.

(٢) رواه أبو داود في الأدب ٥٠٦٥ والترمذي في الدعوات رقم ٣١٨٩، وابن ماجه ٩٢٦، وغيرهم من حديث عبد الله بن عمرو عنه ﷺ قال: «خصلتان أو خلتان لا يحافظ عليهما عبد مسلم إلاَّ دخل الجنة، هما يسير ومن يعمل بهما قليل.. يسبِّح في دبر كل صلاة عشرًا، ويحمد عشرًا، ويكبِّر عشرًا فذلك خمسون ومائة باللسان، وألف وخمسمائة في الميزان. . .» الحديث، وسنده صحيح.

(٣) رواه الترمذي ٣٠٧ وابن ماجه ١٠١١، وحسَّنه الترمذي وصححه، وهو من حديث أبي هريرة. وله شاهد عن ابن عمر، رواه الدارقطني ١/ ٢٧٠، ٢٧١، والحاكم ١/ ٢٠٥، ٢٠٦، والبيهقي ٢/ ٩، وصححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي. وصفة هذه القبلة خاصة بالمدينة ومن على سمتهم من الشمال.

(٤) رواه أحمد ٦/ ٣٦٥، والبخاري في هجرة الحبشة ٨/ ١٨٩، وفي اللباس ١٢/ ٤٢٠ وغيرهم عن أم خالد بنت خالد، وقال لها ذلك في خميصة أهديت له فكساها إياها، وقال لها: «أبلي وأخلقي». فجعل ينظر إلى علم الخميصة ويشير بيده إليها ويقول: «يا أم خالد هذا سنا . . .» إلخ.

(٥) تقدم تخريجه في الفصل السابق ص ٢٧٩.

الله تعالى ــ أمّي لم يكتب ولم يقرأ، ولا عرف بصحبة من هذه صفته، ولا نشأ بين قوم لهم علم، ولا قراءة لشيء من هذه الأمور، ولا عرف هو قبلُ بشيء منها، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨]، إنما كانت غاية معارف العرب النسب وأخبار أوائلها والشعر والبيان، وإنما حصل ذلك لهم بعد التفرغ لعلم ذلك والاشتغال بطلبه ومباحثة أهله عنه، وهذا الفن نقطة من بحر علمه ﷺ، ولا سبيل إلى جحد الملحد لشيء مما ذكرناه، ولا وجد الكفرة حيلة في رفع ما نصصناه إلاّ قولهم: ﴿أساطير الأولين﴾ وإنما يعلّمه بشر. فرد الله قولهم بقوله: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣][١].

أنباؤه مع الملائكة والجن وإمداد الله له بالملائكة . . . إلخ

ومن خصائصه ﷺ وكرماته وباهر آياته: أنباؤه مع الملائكة والجن، وإمداد الله له بالملائكة، وطاعة الجنة له، ورؤية كثير من أصحابه لهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [التحريم: ٤][٢].

وقال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ. . .﴾ الآية [الأنفال: ١٢][٣].

---

(١) ارجع إلى فصل «بلاغة القرآن» فإن فيه ملخص ما ذكر هنا وزيادة.

(٢) تظاهرا، أي: تعاونا. جاءت الآية الكريمة في شأن أمّي المؤمنين عائشة وحفصة رضي الله تعالى عنهما وقصتهما معه ﷺ في شربه العسل عند زينب رضي الله تعالى عنهما، كما هو مبسوط في الصحيح، وفي الآية الكريمة انتصار الله لنبيه مع تأييده إياه بالملائكة وصالح المؤمنين. وقد تقدم ذلك.

(٣) الآية نزلت في شأن غزوة بدر وفيها من تأييد، نبيه وأصحابه بالملائكة ما لايخفى.

وقال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم . . .﴾ الآية [الأنفال: ٩][1].

وقال جلّ وعلا: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ . . .﴾[2] الآية [الأحقاف: ٢٩].

وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝١٨﴾ [النجم: ١٨]، قال: رأى جبريل عليه السلام في صورته له ستمائة جناح[3]. والخبر في محادثته مع جبريل وإسرافيل وغيرهما من الملائكة وما شاهده من كثرتهم وعظم صور بعضهم ليلة الإسراء مشهور[4].

وقد رآهم بحضرته جماعة من أصحابه في مواطن مختلفة. فرأى أصحابه جبريل عليه السلام في صورة رجل يسأله عن الإسلام والإيمان[5]، ورأى ابن عباس عنده جبريل في صورة دحية[6]، ورأى سعد على يمينه ويساره جبريل وميكائيل في صورة رجلين عليهما ثياب

---

(١) نفس التعليق السابق.

(٢) نزلت الآية الكريمة في استماع الجن لقراءة النبي ﷺ وهو يصلي الصبح بأصحابه في نخلة. وسيأتي تخريج الحديث بذلك ص ٣٠٣ هامش (٣).

(٣) رواه مسلم في الإيمان ٣/ ٢ عنه، والرؤيا كانت ليلة الإسراء عند سدرة المنتهى.

(٤) الأخبار بذلك لا تحصى كثرة لمن تتبعها.

(٥) رواه البخاري ومسلم وغيرهما في حديث جبريل المعروف، وقد تقدم تخريجه من حديث عمر وأبي هريرة.

(٦) رؤية ابن عباس لجبريل، رواه أحمد ١/ ٢٩٣، ٢٩٤، ٣١٢ مطولاً من طرق صحيحة، وأورده الهيثمي في المجمع ٩/ ٢٧٦ برواية أحمد والطبراني، وقال: بأسانيد، ورجالها رجال الصحيح. أما كونه في صورة دحية، ففي هذه الحالة رأته أم سلمة رضي الله تعالى عنها كما عند البخاري في علامات النبوة، وفي فضائل القرآن، ومسلم في الفضائل ١٦/ ٧، ٨.

بيض[1]، ومثله عن غير واحد[2]، وسمع بعضهم زجر الملائكة خيلها يوم بدر[3]، وقد كانت الملائكة تسلم على عِمْران بن الحصين[4]، ورأى عبد الله بن مسعود الجن ليلة الجن وسمع كلامه وشبههم برجال الزط[5]، وقال ﷺ: «إن الشيطان تفلّت البارحة ليقطع عليّ صلاتي فأمكنني الله منه فأخذته، فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم فذكرت دعوة أخي سليمان: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ﴾ [ص: ٣٥] فرده الله خاسئًا[6].

إخبار الأحبار والرهبان وغيرهم عن نبوته

ومن دلائل نبوته ﷺ وعلامات رسالته ما ترادفت به الأخبار عن الرهبان والأحبار علماء أهل الكتاب من صفته، وصفة أمته، واسمه وعلاماته، وذكر الخاتم الذي بين كتفيه، وما وجد من ذلك في أشعار الموحدين المتقدمين، وما عَرَّف به من أمره زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وعلماء يهود، وما أُلْفِي من ذلك في التوراة والإنجيل مما قد جمعه

---

(١) رواه البخاري في اللباس، ومسلم في الفضائل ١٥/ ٦٦، ٦٧ عنه، وكان ذلك يوم أحد.

(٢) منهم حارثة بن النعمان، روى حديثه أحمد ٢/ ٤٢٦، والبخاري ١/ ١٢٣، ١٣٣، ومسلم ١/ ١٦١، ١٦٥ كلاهما في الإيمان.

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد ١٢/ ٨٥ من حديث عمر رضي الله تعالى عنه.

(٤) أخرجه مسلم في الحج وغيره ولم يثبت ما ذكره المؤلف أنها كانت تصافحه.

(٥) روى ذلك أحمد ١/ ٤٠٠، والترمذي في الأمثال من الجامع ٢٦٦٧، وحسنه وصححه، كلاهما من حديث ابن مسعود. والزط: بضم الزاي، جيل من الهنود.

(٦) رواه البخاري في العمل في الصلاة ٣/ ٣٢٢، وفي الأنبياء، وفي التفسير، وفي بدء الخلق، ومسلم في المساجد ٥/ ٢٨، ٢٩، من حديث أبي هريرة.
وقوله: تفلت علي أي: تعرض لي فلتة وفجاءة.

العلماء وبينوه ونقله عنهم ثقات من أسلم منهم، مثل: ابن سلام وابن سعنة وأشباههم ممن أسلم من علماء يهود، وبحيرا، ونسطور الحبشة، وصاحب بصرى، وسلمان الفارسي والنجاشي، ونصارى. الحبشة وأساقف نجران وغيرهم ممن أسلم من علماء النصارى وقد اعترف بذلك هرقل وصاحب رومة وعالما النصارى ورئيساهم، ومقوقس صاحب مصر، والشيخ صاحبه، وابن صوريا، وابن أخطب وأخوه، وكعب بن أسد، وغيرهم من علماء اليهود ممن حمله الحسد والنفاسة على البقاء على الشقاء، والأخبار في هذا كثيرة لا تنحصر.

وقد قرع أسماع اليهود والنصارى بما ذكر أنه في كتبهم من صفته وصفة أصحابه، واحتج عليهم بما انطوت عليه من ذلك صحفهم، وذمهم بتحريف ذلك وكتمانه، وليِّهم ألسنتهم ببيان أمره، ودعوتهم إلى المباهلة على الكاذب، فما منهم إلاَّ من نفر عن معارضته، وإبداء ما ألزمهم من كتبهم وإظهاره، ولو وجدوا خلاف قوله لكان إظهاره أهون عليهم من بذل النفوس والأموال وتخريب الديار ونبذ القتال.

وقد قال لهم: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [آل عمران: ٩٣]، إلى ما أَنْذَرَ ربه من الكهان ممن لا ينعد كثرة، إلى ما ظهر على السنة الأصنام من نبوتة وحلول وقت رسالته، وسمع من هواتف الجن وأجواف الصور، وما أكثره مشهور، وإسلام من أسلم بسبب ذلك معلوم مذكور(١).

(١) ما ذكره في هذا الفصل معلوم ضرورة في الجملة لكثرة ما ورد في ذلك في القرآن والأخبار الصحيحة والآثار المشهورة في كتب السنَّة والسيرة.

ما ظهر من الآيات عند ولادته ورضاعه
وقبل نبوته وعندها

ومن ذلك ما ظهر من الآيات عند مولده وما رأته أمه من النور الذي خرج معه عند ولادته[1]، وما تعرفت به حليمة، وزوجها ـ ظئراه ـ من بركته ودرور لبنها له ولبن شارفها وخصب غنمها وسرعة شبابه وحسن نشأته ﷺ[2].

ومن ذلك: حراسة السماء بالشهب وقطع رصد الشياطين ومنعهم استراق السمع[3]، وما نشأ عليه من مجانبة الأصنام والعفة عن أمور الجاهلية[4]، وما خصه الله به من ذلك وحماه حتى في ستره في الخبر

---

(١) جاء ذلك في حديث العرباض.. وأن أم رسول الله ﷺ رأت حين وضعته نورًا أضاءت له قصور الشام. رواه أحمد ٤/ ١٢٧، ١٢٨، وابن حبان ٢٠٩٣ بالموارد، والحاكم ٢/ ٦٠٠ بسند صحيح، وهذا من إرهاصاته ﷺ قبل نبوته. وقد تقدم.

(٢) رواه أبو يعلى ٧١٦٣ والطبراني في الكبير ٢٤/ ٢١٢، ٢١٥، وابن حبان ٢٠٩٤، وأبو نعيم ١/ ١٥٥، والبيهقي ١/ ١٣٣، كلاهما في الدلائل عن حليمة السعدية، قال الهيثمي في المجمع ٨/ ٢٢٠: رجالهما ثقات.

(٣) رواه البخاري في تفسير سورة الجن ١٠/ ٢٩٦، ٣٠٠، وفي صفة الصلاة، وكذا مسلم.

(٤) جاء في هذا ما رواه أحمد ٤/ ٢٢٢، ٥/ ٣٦٢ عن جار لخديجة رضي الله تعالى عنهما. قال: سمعت النبي ﷺ يقول لخديجة: «أي خديجة والله لا أعبد اللات أبدًا، والله لا أعبد العزى أبدًا..» وسنده صحيح، وما رواه ابن أسحاق والبزار ٢٤٠٣، والبيهقي في الدلائل ٢/ ٣٤، ٣٥، عن علي عليه السلام قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك، ثم ما هممت بعدهما بشيء حتى أكرمني الله برسالته» قال الهيثمي ٨/ ٢٢٦: رجاله ثقات. وقال الحافظ: إسناده حسن وقد تقدم ص ١١٣.

المشهور عند بناء الكعبة إذ أخذ إزاره ليجعله على عاتقه ليحمل عليه الحجارة وتعرى فسقط إلى الأرض حتى رد إزاره عليه(١). ومن ذلك: إظلال الله له بالغمام في سفره(٢).

ومن ذلك: تحبيب الخلوة إليه حتى أوحى إليه(٣)، ثم إعلامه بموته ودنو أجله(٤)، وأن قبره في بيته(٥)، وأن بين بيته وبين منبره روضة من رياض الجنة(٦)، وتخيير الله له عند موته(٧)، وما اشتمل عليه حديث الوفاة من

(١) رواه أحمد ٣/ ٢٩٥، ٢٨٠، والبخاري في الحج وفي المناقب، ومسلم في كتاب الحيض ٤/ ٣٣، ٣٤ من حديث جابر.

(٢) تقدم في حديث سفره إلى الشام مع عمه أبي طالب وقصته مع الراهب.

(٣) رواه البخاري أول صحيحه، وغيره، عن عائشة في حديثها الطويل في بداية الوحي له ﷺ.

(٤) ففي صحيح مسلم ١٦/ ٥، ٦، عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبي ﷺ أسرَّ إلى فاطمة وقال لها: «إن جبريل كان يعارض بالقرآن كل عام مرة، وأنه عارض به العام مرتين، ولا أرى أجلي إلاَّ قد حضر»، ورواه أيضًا البخاري في علامات النبوة وغيره.

(٥) عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لما قبض رسول الله ﷺ اختلفوا في دفنه، فقال أبو بكر سمعت من رسول الله ﷺ شيئًا ما نسيته، فقال: ما قبض الله نبيًّا إلاَّ في الموضع الذي يجب أن يدفن فيه»، فدفنوه في موضع فراشه. رواه أحمد ١/ ٧، والترمذي في الجامع ٩٠٢، وفي الشمائل وابن سعد في الطبقات، والبيهقي ٧/ ٢٦٠ من طرق هو بها صحيح وله شاهد عن ابن عباس عند البيهقي أيضًا ٧/ ٢٦٠.

(٦) رواه البخاري ومسلم، كلاهما في الحج من حديث أبي هريرة. والمراد بالبيت هنا: البيت الذي كانت تسكنه عائشة رضي الله تعالى عنها.

(٧) ورد هذا عند أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه ــ رواه البخاري في المناقب ــ، قال: خطب رسول الله ﷺ الناس يومًا فقال: «إن عبدًا خيره الله بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله»، فبكى أبو بكر... الحديث. وعن =

كراماته وتشريفه وسماع الصحابة نداءً من البيت: «أن لا تنزعوا عنه القميص عند غسله»[1].

خاتمة لهذه الفصول

قال القاضي رحمه الله: قد أتينا في هذا الباب على نكت من معجزاته واضحة وجمل من علامات نبوته مقنعة، في واحد منها الكفاية والغنية، وتركنا الكثير سوى ما ذكرنا وبحسب هذا الباب لو تُقُصِّي أن يكون ديوانًا جامعًا يشتمل على مجلدات عدة.

= عائشة قالت: كنا نتحدَّث أن النبي ﷺ لا يموت حتى يخير بين الدنيا والآخرة... الحديث. رواه البخاري ٩/ ٢٠١، ٢٠٢، ٣١٦، ومسلم ١٥/ ٢٠٨، ٢٠٩.

(١) رواه أحمد ٦/ ٢٦٧، وأبو داود ٣١٤١، وابن حبان ٢١٥٦، والحاكم ٣/ ٥٩، ٦٠ من حديث عائشة بسند صحيح.

خاتمة لهذه الفصول

ذكر رحمه الله تعالى في هذه الفصول من هذا الباب من المعجزات الدالة على صدق نبوته ﷺ ما يلي: **معجزة القرآن**، وهو أعظمها وأظهرها وأشهرها وأقواها، ثم معجزة **انشقاق القمر**، وهو نص القرآن، ثم **نبع المياه** من بين أصابعه الشريفة، ثم **تفجير الماء** ببركته ودعوته، ثم **تكثير الطعام** ببركته ودعائه، ثم كلام الشجر وشهادتها له وإجابتها دعوته، ثم معجزة حنين **الجذع** الذي تواترت أحاديثه، ثم معجزاته في ضروب **الحيوانات**، ثم معجزته في **إحياء الموتى**، ثم معجزاته في **إبراء المرضى** وذوي العاهات، **ثم إجابة دعواته**، ثم معجزاته في **انقلاب الأعيان** له، ثم **إخباره بالمغيبات** وهو باب واسع، **ثم عصمته** من الناس وكفاية من آذاه، ثم **معارفه وعلومه**، ثم **أخباره مع الملائكة والجن**، ثم **أخبار الأحبار والرهبان عن نبوته**، ثم **ما ظهر من الآيات عند ولادته** ورضاعه وقبل نبوته وعندها، ثم **إعلامه بموته** وبالموضع الذي يدفن فيه وتخيير الله تعالى له.

وهي علامات وآيات لا يردها إلاَّ كافر جاحد، أو ملحد معاند.

ومعجزات نبينا ﷺ أظهر من سائر معجزات الرسل بوجهين:

أحدهما: كثرتها، وأنه لم يؤت نبـي معجزة إلَّا وعند نبينا مثلها، أو ما هو أبلغ منها، فإن أردت فتأمل فصول هذا الباب ومعجزات من تقدم من الأنبياء تقف على ذلك إن شاء الله تعالى. وأما كونها كثيرة فهذا القرآن وكله معجز، وأقل ما يقع الإعجاز فيه عند بعض أئمة المحققين سورة ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ...﴾ [الكوثر: ١ ــ ٣]، أو آية في قدرها، أو كل آية منه كيف كانت، أو كل جملة منتظمة، وإن كان الحق هو الأول لقوله تعالى: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، فهو أقل ما تحداهم به.

وإذا كان هذا ففي القرآن من الكلمات نحو من سبعة وسبعين ألف كلمة ونيف، وعدد ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ عشر كلمات، فتَجْزِيء القرآن على نسبة عدد كلمات ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ أزيد من سبعة آلاف جزء، كل واحد منها معجز في نفسه. ثم إعجازه كما تقدم بوجهين، طريق بلاغته، وطريق نظمه، فصار في كل جزء من هذا العدد معجزتان، فتضاعف العدد من هذا الوجه. ثم فيه وجوه إعجاز أخر من الإخبار بعلوم الغيب، فقد يكون في السورة الواحدة من هذه التجزئة الخبر عن أشياء من الغيب، كل خبر منها بنفسه معجز، فتضاعف العدد كرة أخرى. ثم وجوه الإعجاز الأخر التي ذكرناها توجب التضعيف. هذا في حق القرآن فلا يكاد يأخذ العد معجزاته، ولا يحوى الحصر براهينه.

ثم الأحاديث الواردة والأخبار الصادرة عنه ﷺ في هذه الأبواب وعما دل على أمره مما أشرنا إلى جمله يبلغ نحوًا من هذا...

الوجه الثاني وضوح معجزاته ﷺ؛ فإن معجزات الرسل كانت بقدر همم أهل زمانهم، وبحسب الفن الذي سما فيه قرنه. فلما كان زمن موسى غاية علم أهله السحر بعث إليهم موسى بمعجزة تشبه ما يَدَّعون قدرتهم

عليه، فجاءهم منها ما خرق عادتهم ولم يكن في قدرتهم وأبطل سحرهم، وكذلك زمن عيسى أغنى ما كان الطب، وأوفر ما كان أهله، فجاءهم أمر لا يقدرون عليه، وأتاهم ما لم يحتسبوه من إحياء الميت، وإبراء الأكمه والأبرص، دون معالجة ولا طب. وهكذا سائر معجزات الأنبياء.

ثم إن الله تعالى بعث نبينا محمدًا ﷺ وجملة معارف العرب وعلومها أربعة: البلاغة، والشعر، والخبر، والكهانة. فأنزل الله تعالى القرآن الخارق لهذه الأربعة فصول من الفصحاة والإيجاز والبلاغة الخارجة عن نمط كلامهم، ومن النظم الغريب والأسلوب العجيب الذي لم يهتدوا في المنظوم إلى طريقه، ولا علموا في أساليب الأوزان منهجه، ومن الأخبار عن الكوائن والحوادث والأسرار والمخبآت والضمائر، فتوجد على ما كانت، ويعترف المخبَر عنها بصحة ذلك وصدقه، وإن كان أعدى العدو، فأبطل الكهانة التي تصدق مرة وتكذب عشرًا، ثم اجتثها من أصلها برجم الشهب ورصد النجوم، وجاء من الأخبار عن القرون السالفة، وأنباء الأنبياء والأمم البائدة، والحوادث الماضية، ما يعجز من تفرغ لهذا العلم عن بعضه على الوجوه التي بسطناها وبينا المعجز فيها. ثم بقيت هذه المعجزة الجامعة لهذه الوجوه إلى الفصول الأخر التي ذكرناها في معجزات القرآن ثابتة إلى يوم القيامة بينة الحجة لكل أمة تأتي لا يخفى وجوه ذلك على من نظر فيه وتأمل وجوه إعجازه، إلى ما أخبر به من الغيوب على هذه السبيل فلا يمر عصر ولا زمن إلاَّ ويظهر فيه صدقه بظهور مخبره على ما أخبر، فيتجدد الإيمان ويتظاهر البرهان، وليس الخبر كالعيان، وللمشاهدة زيادة في اليقين، والنفس أشد طمأنينة إلى عين اليقين منها إلى علم اليقين، وإن كان كل عندها حقًّا.

وسائر معجزات الرسل انقرضت بانقراضهم، وعدمت بعدم ذواتها، ومعجزة نبينا ﷺ لا تبيد ولا تنقطع، وآياته تتجدد ولا

تضمحل، ولهذا أشار ﷺ بقوله فيما رويناه عن أبـي هريرة رضي الله تعالى عنه عنه ﷺ قال: «ما من الأنبياء نبـي إلاَّ أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»[1]، هذا معنى الحديث عند بعضهم، وهو الظاهر الصحيح إن شاء الله.

وبهذا انتهى الجزء الأول من الشفاء، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وصلَّى الله وسلِّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل وذريته وزوجاته وأصحابه. وكان الفراغ من تهذيب الكتاب وإخراجه من المسودة ضحوة يوم الاثنين عشري ذي القعدة عام ١٤١٩ بطنجة المغرب.

* * *

(١) رواه أحمد ٢/ ٣٤١، ٣٥١، والبخاري في فضائل القرآن، ومسلم في الإيمان ٢/ ١٨٦، عن أبـي هريرة، وقد تقدم أيضًا.
ومن إعجاز القرآن العلمي: إشارته إلى هذه العلوم الكونية التي يخوض فيها اليوم علماء الكون التي يظنون جهلاً منهم أنهم سبقوا إلى ذكرها واكتشافها، وها هو القرآن يذكرها ويشير إليها في غضون سوره وآياته وخاصة سوره المكية، وقد أشرت إلى ذكر ذلك مع الأمثلة لها في كتابـي «دلائل التوحيد» وهو مطبوع، والحمد لله.

القسم الثاني

فيما يجب على الأنام من حقوقه ﷺ

هذا القسم يشتمل على أربعة أبواب، ومجموعها في وجوب تصديقه واتباعه في سننه، وطاعته، ومحبته، ومناصحته، وتوقيره، وبره، وحكم الصلاة عليه والتسليم، وزيارة قبره ﷺ.

الباب الأول

في فرض الإيمان به ووجوب طاعته واتباع سنته... إلخ

إذا تقرر بما قدمناه ثبوت نبوته وصحة رسالته، وجب الإيمان به وتصديقه فيما أتى به.

قال الله تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ﴾[1] [التغابن: ٨].

---

(١) الرسول هو حبيبنا محمد ﷺ بالإجماع. والنور: هو القرآن كذلك.

وقال جل وعلاه: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[1] [الفتح: ٨، ٩].

وقال عز من قائل: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ... ﴾ الآية[2] [الأعراف: ١٥٨].

فالإيمان بالنبي حبيبنا محمد ﷺ واجب متعين، لا يتم إيمان إلاَّ به، ولا يصح إسلام إلاَّ معه.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ۝ ﴾ [الفتح: ٤٨][3].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا، أن لا إلـٰه إلاَّ الله، ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاَّ بحقها وحسابهم على الله»[4].

---

(١) تقدم معنى الآية أول الكتاب ص ٧٤، والشاهد هنا الأمر بالإيمان بالرسول الكريم ﷺ.

(٢) جاءت هذه الآية الكريمة بالأمر العام بوجوب الإيمان بالله ورسوله الحبيب محمد ﷺ كسابقتيها.

(٣) أعتدنا، أي: أعددنا. والسعير: هو عذاب جهنم ونارها، فهو مهيَّأ لكل من تمرَّد على الله وكفر بآياته ورسله وما جاؤوا به.

(٤) رواه أحمد ٢/ ٣٤٥، ٤٢٣، وفي مواضع، والبخاري في الزكاة، وفي المرتدين وفي الاعتصام وفي مواضع، ومسلم في الإيمان، وأبو داود ١٥٥٦، ١٥٥٧، ٢٦٤٠، والترمذي ٢٤٢٥، ٢٤٢٦ في الإيمان، والنسائي ٥/ ١٠ في الزكاة و ٧/ ٧١، ٧٢، ٧٣، وغيرهم من طرق وألفاظ، وهو حديث متواتر.
فقوله ﷺ: «ويؤمنوا بي وبما جئت به» شرط في صحة الإيمان به فمن لم يؤمن به، وقال: إن ذلك ليس شرطًا في الإيمان؛ كان كافرًا مخلدًا في النار بالإجماع.
فالفكرة السائدة اليوم بين بعض المنحرفين القائلة بالتسوية بين الأديان، وأن للإنسان أن يختار أي دين شاء من إسلام أو يهودية أو نصرانية، هي فكرة لا حظ =

والإيمان به ﷺ هو تصديق نبوته ورسالة الله له، وتصديقه في جميع ما جاء به وما قاله، ومطابقة تصديق القلب بذلك شهادةُ اللسان بأنه رسول الله ﷺ، فإذا اجتمع التصديق بالقلب والنطق بالشهادة بذلك باللسان؛ تمَّ الإيمان به والتصديق له، كما ورد في هذا الحديث نفسه من رواية عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلـه إلاَّ الله وأن محمدًا رسول الله»[1].

وقد زاده وضوحًا في حديث جبريل عليه السلام إذ قال: أخبرني عن الإسلام فقال النبي ﷺ: أن تشهد أن لا إلـه إلاَّ الله وأن محمدًا رسول الله. . . وذكر أركان الإسلام، ثم سأله عن الإيمان فقال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله. . . الحديث[2].

فقد قرر أن الإيمان به محتاج إلى العقد بالجنان، والإسلام به مضطر إلى النطق باللسان، وهذه هي الحالة المحمودة التامة. وأما الحال المذمومة فالشهادة باللسان دون تصديق القلب، وهذا هو النفاق.

قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾ [المنافقون: ١]، أي: كاذبون في قولهم ذلك عن اعتقادهم وتصديقهم وهم لا يعتقدونه، فلما لم تصدق

= لمعتقدها في الإسلام، وصاحبها إن مات عليها مخلد في النار. وقد جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة عنه ﷺ أنه قال: «لا يسمع من أحد من هذه الأمة من يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بي وبما جئت به إلاَّ كان من أهل النار»، ويكفي في هذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٨٥﴾ [آل عمران: ٨٥].

(١) هذه الرواية رواها البخاري ١/ ٨٢، ومسلم ١/ ٢١١، ٢١٢، كلاهما في الإيمان.

(٢) حديث جبريل تقدَّم تخريجه آخر القسم الأول.

ذلك ضمائرهم لم ينفعهم أن يقولوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فخرجوا عن اسم الإيمان، ولم يكن لهم في الآخرة حكمه، إذا لم يكن معهم إيمان ولحقوا بالكافرين في الدرك الأسفل من النار[1]، وبقي عليهم حكم الإسلام بإظهار شهادة اللسان في أحكام الدنيا المتعلقة بالأئمة وحكام المسلمين الذين أحكامهم على الظواهر بما أظهروه من علامة الإسلام، إذ لم يجعل للبشر سبيل إلى السرائر، ولا أمروا بالبحث عنها، بل نهى النبي ﷺ عن التحكم عليها وذم ذلك وقال: «هلا شققت عن قلبه»[2].

والفرق بين القول والعقد ما جعل في حديث جبريل: الشهادة من الإسلام، والتصديق من الإيمان. وبقيت حالتان أخريان بين هذين:

إحداهما: أن يصدق بقلبه ثم يخترم قبل اتساع وقت للشهادة بلسانه فاختلف فيه، فشرط بعضهم من تمام الإيمان القول والشهادة به، ورآه بعضهم مؤمنًا مستوجبًا للجنة، لقوله ﷺ: «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان»[3]. فلم يذكر سوى ما في القلب، وهذا مؤمن بقلبه غير

---

(١) ولذلك قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، لأنهم شر الفرق الكفرية وأخبثها وأخطرها على الإسلام والمسلمين.

(٢) رواه مسلم في الإيمان ٢/ ٩٩ من حديث أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما بلفظ: أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم قالها أم لا؟... الحديث، وأصله عند البخاري في المغازي وفي الديات ١٥/ ٢١٣، ٢١٤.

(٣) رواه الترمذي في أبواب صفة جهنم ٢٤١٧ من حديث أبي سعيد الخدري، وأصله في الرقاق ١٤/ ٢٢٢، وفي التوحيد ١٧/ ٢٠٠ من صحيح البخاري مختصرًا ومطولاً، وفي الإيمان من صحيح مسلم ٣/ ٢٥، ٢٦ مختصرًا، وجاء نحوه عن أنس عند مسلم ٣/ ٥٩، والترمذي في الإيمان ٢٤١٢ بلفظ: «ما يزن ذرة». وقوله: مثقال، أي: وزن.

عاص ولا مفرط بترك غيره وهذا هو الصحيح في هذا الوجه.

الثانية: أن يصدق بقلبه ويطول مهله وعلم ما يلزمه من الشهادة فلم ينطق بها جملة، ولا استشهد في عمره ولا مرة، فهذا اختلف فيه أيضًا، فقيل: هو مؤمن لأنه مصدق، والشهادة من جملة الأعمال، فهو عاص بتركها غير مخلد[1]. وقيل: ليس بمؤمن حتى يقارن عقده شهادة اللسان، إذ الشهادة إنشاء عقد والتزام إيمان، وهي مرتبطة مع العقد، ولا يتم التصديق مع المهلة إلاَّ بها، وهذا هو الصحيح[2].

وجوب طاعته ﷺ

وأما وجوب طاعته ﷺ فإذا وجب الإيمان به وتصديقه فيما جاء به وجبت طاعته لأن ذلك مما أتى به.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩]. وقال: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ﴾ [آل عمران: ٣٢]. وقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠]. وقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: ٧]. وقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ [النساء: ٦٩]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾[3] [النساء: ٦٤].

---

(١) ومن هذا القبيل ما قيل في أبـي طالب، حيث إنه كان يعتقد صحية ما جاء به النبـي ﷺ لكنه لم ينطق بالشهادة، ولذلك دافع عنه من ألف رسالة «أسنى المطالب في نجاة أبـي طالب».

(٢) كان هو القول الصحيح لظواهر نصوص القرآن والسنَّة وللإجماع على أنه لا تجري عليه أحكام المسلمين.

(٣) لا خلاف بين المسلمين أن طاعة الرسول ﷺ واجبة كطاعة الله عز وجل بدون أي فارق، وأن سنته في ذلك كالقرآن الكريم إذا وصلت إلينا من الطرق المعتبرة شرعًا.

فجعل طاعة رسوله طاعته، وقرن طاعته بطاعته، ووعد على ذلك بجزيل الثواب وأوعد على مخالفته بسوء العقاب، وأوجب امتثال أمره واجتناب نهيه.

قال المفسرون والأئمة: طاعة الرسول في التزام سنته والتسليم لما جاء به. وقالوا: ما أرسل الله من رسول إلاَّ فرض طاعته على من أرسله إليه. وقالوا: من يطع الرسول في سننه يطع الله في فرائضه.

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني»[1].

فطاعة الرسول من طاعة الله، إذ طاعته امتثال لما أمر الله به وطاعة له، وقد حكى الله عن الكفار في دركات جهنم: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ ﴾[2] [الأحزاب: ٦٦]، فتمنوا طاعته حيث لا ينفعهم التمني.

قال ﷺ: «إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»[3].

---

(١) رواه أحمد ٢/ ٢٧٠ وفي مواضع، والبخاري في الجهاد، ومسلم في الإمارة ١٢/ ٢٢٣ من حديث أبي هريرة. والحديث واضح في وجوب طاعته ﷺ كطاعة الله.

(٢) والآية ظاهرة في أنهم تمنوا طاعة الله وطاعة الرسول، ولم يتمنوا طاعة غيرهما استقلالاً، وفي ذلك رد على المتعصبين من مقلدة المذاهب، ذلك أن الله تعالى يوجب طاعتهم واتباعهم على الإطلاق كما أوجب ذلك له ولنبيه.

(٣) رواه أحمد ٢/ ٢٤٧، ٢٥٨، والبخاري في الاعتصام ١٧/ ١٩، ٢٠، ومسلم في الحج ٩/ ١٠٠، ١٠١، والترمذي في العلم والنسائي، في الحج عن أبي هريرة.

وفي حديث أبـي هريرة رضي الله تعالى عنه، عنه ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلاَّ من أبـى»، قالوا: يا رسول الله ومن يأبـى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبـى»[١].

وفي الحديث الآخر الصحيح عنه ﷺ: «مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومًا فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان فالنجاء، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا، فانطلقوا على مهلهم فنجوا وكذب طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق»[٢].

وفي الحديث الآخر في مثله: «كمثل من بنى دارًا وجعل فيها مأدبة، وبعث داعيًا، فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة. فالدار الجنة، والداعي محمد ﷺ، فمن أطاع محمدًا فقد أطاع الله، ومن عصى محمدًا فقد عصى الله، ومحمد فرق بين الناس»[٣].

---

(١) رواه أحمد ٢/ ٣٦١، والبخاري في الاعتصام ١٧/ ١١، ١٢ وغيرهما. أبـى، أي: امتنع. في الحديث: أن طاعته ﷺ من أسباب دخول الجنة، والعكس بالعكس.

(٢) رواه البخاري في الرقاق، وفي الاعتصام ١٧/ ١٦، ومسلم في الفضائل ١٥/ ٤٨، ٤٩، عن أبـي موسى. النذير: المبلغ المخوف. والعريان: من التعري، وأصله أن الرجل كان إذا أراد إنذار قومه وإعلامهم بما يوجب الخوف نزع ثوبه، وأشار به إليهم إذا كان بعيدًا. والنجاء، أي: اطلبوا الخلاص. وقوله: فأدلجوا، أي: ساروا ليلاً. وقوله: فاجتاحهم، أي: استأصلهم.

(٣) رواه البخاري في الاعتصام ١٧/ ١٢، ١٣، والترمذي بنحوه عن جابر، ونحوه عن ابن مسعود، رواه أحمد ١/ ٤٠٠، والترمذي في الأمثال مطولاً بسند صحيح. والمأدبة: بضم الدال، هي الطعام يصنعه الرجل يدعو الناس إليه. وقوله: ومحمد فرق. . . إلخ، يعني: يفرق بين المؤمنين والكافرين بالإيمان والكفر.

وجوب اتباعه وامتثال سننه والاقتداء بهديه

وأما وجوب اتباعه وامتثال سننه والاقتداء به ﷺ فقد قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١](١).

وقال عزّ وجلّ: ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾(٢) [الأعراف: ١٥٨].

وقال جلّ علاه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾(٣) [النساء: ٦٥]، أي: ينقادوا لحكمك، يقال سلم واستسلم إذا انقاد.

وقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾(٤) [الأحزاب: ٢١]. قال غير واحد من المفسرين: الأسوة في الرسول: الاقتداء به والاتباع لسنته وترك مخالفته في قول أو فعل.

فأمرهم تعالى باتباعه، ووعدهم على ذلك الاهتداء؛ لأنه تعالى أرسله بالهدى ودين الحق ليزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويهديهم إلى صراط مستقيم، ووعدهم محبته تعالى في الآية الأخرى ومغفرته إذا اتبعوه وآثروه

---

(١) فجعل علامة محبته تعالى: اتباع رسوله. ووعد على من اتبعه بمحبته تعالى له مع غفران ذنوبه، ويا لها من بشارة. وفقّنا الله لاتباع هذا الرسول الأعظم وأماتنا على هديه وطريقته ﷺ.

(٢) أما في هذه الآية فجعل اتباعه طريقًا للهداية، وهي السعادة الأبدية.

(٣) في هذه الآية الكريمة نفي الإيمان عمن لم يُحكِّم رسوله ﷺ فيما نزل به من النوازل، وأنه يجب عليه مع التحكيم أن لا يجد في نفسه حرجًا من ذلك وينقاد الانقياد التام لحكمه ﷺ، وهذا ميزان يزن به المسلم إيمانه ودينه.

(٤) الأسوة، بكسر الهمزة وضمها: هي القدوة. ونعم القدوة لنا ﷺ.

على أهوائهم وما تجنح إليه نفوسهم، وأن صحة إيمانهم بانقيادهم له ورضاهم بحكمه وترك الاعتراض عليه، كما أن محبة العبد لله والرسول طاعته لهما ورضاه بما أمرا، ومحبة الله لهم عفوه عنهم وإنعامه عليهم برحمته، ويقال: الحب من الله عصمة وتوفيق، ومن العباد طاعة، كما قال القائل:

تَعصي الإلـه وأنـتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ ... هَـذَا لعَمْـرى فـي القيـاس بَـدِيعُ
لـو كـان حُبُّكَ صـادقًا لأطعتـه ... إن المُحِـبَّ لِمـن يُحِـبُّ مطيـع

ويقال: محبة العبد لله تعظيمه له وهيبته منه، ومحبة الله له رحمته له وإرادته الجميل له.

وعن العرباض بن سارية رضي الله تعالى عنه في حديثه في موعظة النبي ﷺ أنه قال: «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»(١). زاد في حديث جابر بمعناه: «وكل ضلالة في النار»(٢).

---

(١) رواه أحمد ٤/ ١٢٦، ١٢٧، والدارمي ٩٦، وأبو داود في السنّة ٤٦٠٧، والترمذي في العلم ٢٤٩٠. وقال: حسن صحيح. وكذا رواه ابن ماجه ٤٣، وابن حبان ١٠٢، والحاكم ١/ ٩٥، ٩٦، ٩٧ وغيرهم.

(٢) رواه أحمد ٣/ ٣١٠، ومسلم في الجمعة ٦/ ١٥٣، ١٥٦، والنسائي في العيدين ٣/ ١٥٣ وفي السهو، وابن ماجه ٤٥. و «كل ضلالة في النار»، تفرد بها النسائي بسند صحيح.

وقوله: «وكل بدعة ضلالة»: هذا عام مخصوص نص عليه الشافعي والبغوي والنووي والقرطبي وابن العربي؛ والعز ابن عبد السلام وابن الأثير والعراقي والحافظ ابن حجر وغيرهم رحمهم الله تعالى فإن في البدع ما ليست ضلالة كتدوين الحديث النبوي وإحداث العلوم الإسلامية وغير ذلك مما لم يكن أيام النبوة، وفيه ما هو واجب أو مباح أو مستحب، ولذلك قسم العلماء البدع إلى =

وفي حديث أبي رافع رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «لا أُلفين أحدكم متكئًا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: لا أدري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه»[1].

وفي حديث عائشة رضي الله تعالى عنها: صنع رسول الله ﷺ شيئًا ترخص فيه فتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فحمد الله ثم قال: «ما بال قوم يتنزهون عن الشيء أصنعه؟ فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية»[2].

وقال ﷺ: «من رغب عن سنتي فليس مني»[3].

= خمسة أقسام كما في القواعد لابن عبد السلام والفتح للحافظ وشرح مسلم للنووي.

(١) رواه أحمد ٦/٨، والحميدي ٥٥١، وأبو داود في السنة ٤٦٠٥، والترمذي في العلم ٢٤٧٧ بتهذيبي، وابن ماجه ١٣، والحاكم ١/١٠٨، ١٠٩، وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي وسنده صحيح. ألفين، أي: أجدن. والأريكة: هي السرير. والحديث دليل على أن السنَّة المحمدية، هي أصل مستقل بنفسه في التشريع؛ لأن الكل من عند الله، فقبولها والعمل بها واجب محتم.
والحديث يشير إلى ما ظهر في هذا العصر من الفرق الضالة التي ترد السنَّة المحمدية وتطعن فيها وترفض الاحتجاج بها.

(٢) رواه البخاري في الأدب ١٣/ ٢٧، ٢٨ وفي الاعتصام، ومسلم في الفضائل ١٥/ ١٠٦، ١٠٧. وقوله: فتنزه عنه قوم، أي: تباعدوا. ما بال أقوام، أي: ما شأنهم. وهذا من آدابه الكريمة؛ لأنه لم يكن يواجه أحدًا بما يكره. وفي الحديث مشروعية اتباعه ﷺ في كل شيء حتى في الرخص، وفيه: أن سلوك طريق الرخصة أحيانًا لا يضع من قدر الرجل الصالح.

(٣) رواه أحمد ٣/ ٢٤١، ٢٥٩، ٢٨٥، والبخاري ١١/ ٤، ٥، ومسلم ٩/ ١٧٥، ١٧٦، كلاهما في النكاح من حديث أنس رضي الله تعالى عنه أن نفرًا من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر. . . فقال بعضهم: لا أتزوج =

وقال ﷺ: «إن بني إسرائيل افترقوا على اثنين وسبعين ملة، وإن أمتي تفترق على ثلاث وسبعين كلها في النار إلاَّ واحدة». قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «الذي أنا عليه اليوم وأصحابي»[1].

ما ورد عن السلف والأئمة من اتباع سنته وهديه

وأما ما ورد عن السلف والأئمة من اتباع سنته، والاقتداء بهديه وسيرته.

فعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه قيل له: يا أبا عبد الرحمن، إنا نجد صلاة الخوف وصلاة الحضر في القرآن، ولا نجد صلاة السفر. فقال ابن عمر: يا ابن أخي إن الله بعث إلينا محمدًا ﷺ ولا نعلم شيئًا، وإنما نفعل كما رأيناه يفعل[2].

= النساء، وقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام على فراش... فحمد الله وأثنى عليه فقال: «ما بال أقوام قالوا: كذا وكذا، لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»، هذا لفظ مسلم، ولفظ البخاري أطول، فالرغبة عن السنة هو تركها والإعراض عنها، وفاعل ذلك ليس من رسول الله ﷺ في شيء.

(1) رواه أحمد ٤/ ١٠٢، والطيالسي ٢٧٥٤، وأبو داود ٤٥٩٧، والدارمي ٢٥٢١ عن معاوية بنحوه، وسنده صحيح، وله شواهد عن أنس، رواه أحمد ٣/ ١٢٠، ١٤٥، وابن ماجه ٣٩٩٣ بسند صحيح، وعن عبد الله بن عمرو رواه الترمذي في الإيمان ٢٤٥٧، والحاكم ١/ ١٢٨، ١٢٩ بلفظ المؤلف، وقوله: «الذي أنا عليه اليوم وأصحابي» طريقته ضعيفة، والذي صحَّ هي قوله: «كلها في النار إلاَّ واحدة وهي الجماعة» ومعناها واحد، فالنتيجة هو أن من خرج على ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه من المهاجرين والأنصار... كان من أهل النار أعم من أن يكون مخلدًا في النار، أم كان ممن تصيبه رحمة الله تعالى.. والحديث تقدَّم في المغيبات ص ٢٧٧.

(2) رواه أحمد ٢/ ٩٤، والنسائي ٣/ ٩٦، وابن ماجه ١٠٦٥ بسند صحيح، وفي هذا ما كان عليه الصحابة من شدة اتباعهم لرسول الله ﷺ.

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه: سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر بعده سننًا، الأخذ بها تصديق بكتاب الله، واستعمال لطاعة الله وقوة على دين الله، ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها، ولا النظر في رأي من خالفهما. من اقتدى بها فهو مهتد، ومن انتصر بها فهو منصور، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاَّه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا[1].

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى عماله بتعلم السنة والفرائض واللحن، أي: اللغة وقال: إن ناسًا يجادلونكم ــ يعني بالقرآن ــ فخذوهم بالسنة، فإن أصحاب السنَّة أعلم بكتاب الله[2].

وعن علي رضي الله تعالى عنه حين قرن، فقال له عثمان: ترى أني أنهى الناس عنه وتفعله؟ قال: لم أكن أدع سنة رسول الله ﷺ لقول أحد من الناس[3].

وقال ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: صلاة السفر ركعتان، من خالف السنة كفر[4].

وقال عمر رضي الله تعالى عنه ونظر إلى الحجر الأسود: إنك حجر لا تنفع ولا تضر، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك ثم قبله[5].

ورؤي عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما يدير ناقته في مكان، فسئل عنه، فقال: لا أدري إلاَّ أني رأيت رسول الله ﷺ فعله

---

(١) عزاه في المناهل إلى اللالكائي في السنة، ولم أقف عليه.. وهو كلام في غاية من الأهمية.

(٢) رواه الدارمي في المقدمة ١٢١، ورجاله ثقات غير عمرو بن الأشجع فلم أعرفه.

(٣) رواه مسلم في الحج ٨/ ٢٠١، ٢٠٢.

(٤) رواه ابن عبد البر في العلم ٢/ ١٩٥ من طريق الأثرم، وابن حزم في المحلى بسند صحيح، ومراد ابن عمر بالكفر هنا كفر من أنكر السنَّة وعارضها.

(٥) رواه البخاري ٤/ ٢٢١، ومسلم ٩/ ١٦، ١٧ كلاهما في الحج.

ففعلته[1].

وقال أبو عثمان الحيري رحمه الله تعالى: من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه نطق بالبدعة.

وقال سهل التُّستَري رحمه الله تعالى: أصول مذهبنا ثلاثة: الاقتداء بالنبي ﷺ في الأخلاق والأفعال، والأكل من الحلال، وإخلاص النية في جميع الأعمال.

وحكى عن أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى قال: كنت يومًا مع جماعة تجردوا ودخلوا الماء فاستعملت الحديث: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلاَّ بمئزر[2] ولم أتجرد، فرأيت تلك الليلة قائلاً لي: يا أحمد أبشر، فإن الله قد غفر لك باستعمالك السنة وجعلك إمامًا يقتدى بك. قلت: من أنت؟ قال: جبريل.

ضلال من خالف أمره وبدل سنته

ومخالفة أمره وتبديل سنته ﷺ ضلال وبدعة متوعد من الله عليه بالخذلان والعذاب.

قال الله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ

---

(1) رواه أحمد ٤٨٧٠، والبزار رقم ١٢٨، وسنده صحيح، وقال الهيثمي ١/ ١٧٤: رجاله موثقون. وذكره بسياق آخر مطولاً ١/ ١٧٥، وعزاه لأحمد، وقال: رجاله رجال الصحيح.

(2) هكذا كان السلف مع سنة رسول الله ﷺ فلم يكونوا يقدمون عليها رأي أحد مهما كان علمه وصلاحه، بل كانوا يرون ذلك ضلالاً وخروجًا عن الدين، فلنقارن بينهم وبين المسلمين اليوم... والحديث الذي أشار إليه الإمام أحمد رواه النسائي في الطهارة ١/ ١٦٣، والترمذي في الأدب ٢٦١٠، والحاكم ٤/ ٢٨٨ عن جابر، وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾[1] [النور: ٦٣].

وقال: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾[2] [النساء: ١١٥].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ خرج إلى المقبرة وذكر الحديث في صفة أمته وفيه: «فليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال، فأناديهم ألا هلم، ألا هلم، فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك، فأقول: فسحقًا فسحقًا فسحقًا»[3].

---

(١) فمخالفته ﷺ توجب الفتنة والعذاب الأليم، ولذلك لما تمالأت الأمة اليوم بعلمائها وجهالها وأشرافها وكبارها وصغارها وذكورها وإناثها على ترك الشريعة الإسلامية والإعراض عن أصولها وفروعها واتباعهم لأهوائهم، وإغراقهم في تقليد أوروبا الكافرة الملحدة وأمريكا الطاغية، وتحاكمهم إلى القوانين الوضعية التي خطتها الأيدي الآثمة العلمانية وأشربوا حلاوة الحضارة الغربية.. أقول: لما فعلوا ذلك فتنهم الله عز وجل، وأحاطهم بمشاكل، وسلَّط عليهم أنواعًا من العذاب، وأذاقهم صنوفًا من النكبات والنكسات حتى أصبحت الأمة فيما نشاهد، ولا ندري ماذا سيحدث غدًا، وكل ذلك لمخالفتهم أمر الرسول ﷺ.
وقد قال ﷺ في حديث: «وجعل الذل والصغار على من خالف أمري». رواه أحمد وغيره عن ابن عمر، وها هي الأمة الآن قد عمَّها الذل والهوان، وشملها الخزي والصغار في شرقها وغربها، وحارت في طريق المخرج مما هي فيه لأنها تأتي البيوت من غير أبوابها.

(٢) لا شك أن من اتصف بما في هذه الآية كان خارجًا عن جماعة المسلمين وكان سبيله ومآله العذاب الدائم، ولذلك احتج العلماء بهذه الآية الكريمة على حجية الإجماع وتحريم الخروج عنه.

(٣) رواه أحمد ٢/ ٢٠٠، ٤٠٨، ومسلم ٣/ ١٣٧، والنسائي ١/ ٣٩ كلاهما في الطهارة وابن ماجه في الزهد ٤٣٠٦ وغيرهم. ويجب أن يعلم أن هؤلاء المطرودين عن الحوض هم المرتدون من الأعراب وضعفاء الإيمان الذين قاتلهم =

وروى أنس رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «فمن رغب عن سنتي فليس مني»(١).

وقال ﷺ: «من أدخل في أمرنا ما ليس منه فهو رد»(٢).

وروى أبو رافع رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «لا ألفين أحدكم متكئًا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: لا أدري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه»(٣).

وفي رواية المقدام رضي الله تعالى عنه: «ألا وإن ما حرم رسول الله ﷺ مثل ما حرم الله»(٤).

= الصحابة برئاسة الصديق رضي الله تعالى عنه، ولم يكن في هؤلاء المرتدين أحد من المهاجرين والأنصار والمخلصين الصادقين من الصحابة. فحمل الشيعة الخبثاء هذا الحديث وأمثاله على كل الصحابة الذين منهم البدريون وأهل بيعة الرضوان... ـ ومنهم العشرة المبشرون بالجنة ـ هو ضلال وزندقة ومروق من الدين فإنه لم ينج عندهم من الصحابة الذين ارتدوا إلاَّ نحوًا من ستة عشر نفرًا، وكفاهم بهذا الاعتقاد ضلالاً وردة وانسلاخًا من ربقة الإسلام.

(١) تقدم تخريجه ص ٣١٨.

(٢) الرواية: «من أحدث...» إلخ. رواه أحمد ٦/ ٢٤٠، ٢٧٠ وفي مواضع، والبخاري في الصلح ٦/ ٢٣٠، وعلقه في البيوع والاعتصام، ورواه مسلم في الأقضية ١٢/ ١٦، وأبو داود في السنة ٤٦٠٦، وفي رواية: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» رواه أحمد ومسلم. وهذا الحديث أصل في رد المحدثات والبدع التي لا أصل لها في الدين.

(٣) تقدم تخريجه ص ٣١٨.

(٤) رواه أحمد ٤/ ١٣٠، ١٣١، والدارمي ٥٥٧، وأبو داود في السنة ٤٦٠٤، والترمذي في العلم ٢٤٧٨، وابن ماجه ١٢ وسنده صحيح. وهو يدل على أن السنة النبوية قرينة القرآن في الوحي والتشريع، وهذا لا خلاف فيه بين المسلمين.

وقال ﷺ: «هلك المتنطعون»[1].

وقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: لست تاركًا شيئًا كان رسول الله ﷺ يعمل به إلاَّ عملت به، إني أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ[2].

* * *

(١) رواه أحمد ١/ ٣٨٦، ومسلم في العلم ١٦/ ٢٢٠، وأبو داود ٤٦٠٨ عن ابن مسعود. المتنطعون: المتعمقون المتغالون المتجاوزون الحد، فمن تنطع كان هالكا، لأن ذلك خلاف هدي الرسول ﷺ.

(٢) رواه البخاري في الخمس ٧/ ٧، ٨، ٩، وأبو داود في الإمارة ٢٩٦١ من حديث عائشة في قصة سؤال مولاتنا فاطمة عليها السلام من الصديق رضي الله تعالى عنه ميراثها من أبيها ﷺ.

الباب الثاني

في لزوم محبته ﷺ

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾(1) [التوبة: ٢٤].

فكفى بهذا حضًّا وتنبيهًا ودلالة وحجة على إلزام محبته ووجوب فرضها وعظم خطرها واستحقاقه لها ﷺ إذ قرّع تعالى من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله، وأوعدهم بقوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾، ثم فسقهم بتمام الآية وأعلمهم أنهم ممن ضل ولم يهده الله.

وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»(2).

---

(١) خص الله عز وجل الآباء والأبناء ومن معهم بالذكر هنا لأن هؤلاء هم أحبة الإنسان وأصوله وفروعه مع ما يملكون من أموال... فمن قدمهم على محبة الله ورسوله كان خاسرًا في مآله ضالاً في هذه الحياة.

(٢) رواه البخاري ١/ ٦٥، ومسلم ٢/ ١٥، والنسائي ٨/ ١٠٠، ثلاثتهم في الإيمان.

وعن أبـي هريرة رضي الله تعالى عنه نحوه[1].

وعن أنس عنه ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه، وجد بهن حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلاَّ لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[2].

وعن عمر رضي الله تعالى عنه أنه قال للنبي ﷺ: لأن أحب إليَّ من كل شيء إلاَّ نفسي التي بين جنبي، فقال له النبـي ﷺ: «لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه»، فقال عمر: والذي أنزل عليك الكتاب لأنت أحب إليّ من نفسي التي بين جنبـي. فقال له النبـي ﷺ: «الآن يا عمر»[3].

قال سهل رحمه الله تعالى: من لم ير ولاية الرسول عليه في جميع الأحوال، ويرى نفسه في ملكه ﷺ، لا يذوق حلاوة سنته؛ لأن النبـي ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه»[4].

---

(١) رواه البخاري ١/ ٦٤، والمراد بقوله: «لا يؤمن»، يعني: الإيمان الكامل، وفي هذا شرف عظيم له ﷺ؛ حيث جعلت محبته مقدمة على كل المحبوبات.

(٢) رواه أحمد ٣/ ١٠٣، ١٧٤، ٢٣٠، ٢٨٨، والبخاري ١/ ٦٦، ٦٨، ٦٩، ومسلم ٢/ ١٣، والترمذي والنسائي ٨/ ٨٦، ٨٨، كلهم في الإيمان، وما في هذا الحديث ميزان يعرف به المسلم مقدار إيمانه ومحبته لله والرسول ﷺ، فإن هذه منزلة عزيزة تدل على كمال إيمان صاحبها.

(٣) رواه البخاري في الشركة وفي الدعوات، وفي المناقب ٨/ ٥٤ وفي الإيمان والنذور ١٤/ ٣٢٩، ٣٣٠، وهو من أفراد البخاري. وقوله: «الآن يا عمر»، يعني: الآن عرفت الحقيقة ونطقت بما يجب أن تكون عليه. وفي الحديث فضل هام لسيدنا عمر رضي الله تعالى عنه، وأنه كان فانيًا كباقي الصحابة في محبة النبـي ﷺ، لا يقدم عليه في ذلك غيره كائنًا من كان.

(٤) كلام سهل ــ وهو التستري أحد الزهاد ــ وجيه ومعقول، أما الحديث المشار إليه فتقدم تخريجه قريبًا.

ما جاء في ثواب محبته ﷺ

عن أنس رضي الله تعالى عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: متى الساعة يا رسول الله؟ قال: «ما أعددت لها؟» قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة ولكني أحب الله ورسوله. قال: «أنت مع من أحببت»[1].

وعن صفوان بن عسال بن قدامة رضي الله تعالى عنه قال: هاجرت إلى النبي ﷺ فأتيته فقلت: يا رسول الله ناولني يدك أبايعك. فناولني يده، فقلت: يا رسول الله إني أحبك. قال: «المرء مع من أحب»[2].

وروى هذا اللفظ عن النبي ﷺ: ابن مسعود وأبو موسى. وعن أبي ذر بمعناه[3].

وعن علي عليه السلام أن النبي ﷺ أخذ بيد حسن وحسين فقال: «من أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم

---

(١) رواه البخاري في المناقب ٨/ ٤٩، وفي الأدب ١٣/ ١٧٩، ومسلم في البر والصلة ١٦/ ١٨٥، ١٨٦، ١٨٨، وأبو داود في الأدب ٥١٢٧، والترمذي ٢٢٠٤. وفيه: قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: «أنت مع من أحببت» قال أنس: فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم، وإن لم أعمل بمثل عملهم.

(٢) رواه الترمذي في الزهد ٢٢٠٥، والنسائي في الطهارة وابن ماجه في الفتن، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ٣٧ و ٦/ ٢٨٥ و ٧/ ٣٠٨ بسند صحيح على شرط مسلم.

(٣) حديث ابن مسعود رواه البخاري في الأديب ١٣/ ١٧٧، ١٧٨، ومسلم في البر ٦/ ١٨٨، وحديث أبي موسى رواه البخاري في الأدب ١٣/ ١٧٩، وحديث أبي ذر رواه أحمد ٥/ ١٥٦، وأبو داود في الأدب ٥١٢٦، والحديث متواتر، وفي هذا الحديث الشريف بجميع ألفاظه بشارة عظيمة للمحبين في الله والرسول ومن ينتمي إليهما جعلنا الله تعالى من صالحيهم آمين.

القيامة»[1].

ما روي عن السلف والأئمة من محبتهم للنبي ﷺ وشوقهم له

عن أبـي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أشد أمتي لي حبًا ناس يكونون بعدي، يود أحدهم لو رآني بأهله وماله»[2].

ومثله عن أبـي ذر[3].

وتقدم حديث عمر رضي الله تعالى عنه وقوله للنبـي ﷺ: «لأنت أحب إلي من نفسي»[4].

وعن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه قال: «ما كان أحد أحب إلي من رسول الله ﷺ»[5].

وعن عبدة بنت خالد بن معدان، قالت: ما كان خالد يأوي إلى فراش إلاَّ وهو يذكر من شوقه إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه من المهاجرين

---

(١) رواه أحمد رقم ٥٧٦، والترمذي في المناقب ٣٥٠٤، وحسَّنه، كما حسنه الشيخ أحمد شاكر في شرح المسند علمًا بأن علي بن جعفر رضي الله تعالى عنهما لا يعرف بجرح ولا تعديل.

(٢) رواه مسلم في كتاب الجنة ١٨/ ١٧٠، وابن حبان في صحيحه ١٦/ ٢١٥.

(٣) رواه أحمد ٥/ ١٥٦، ويا لها من بشارة في هذين الحديثين للمؤمنين المحبين لهذا النبـي العظيم وفيهما مع ذلك فضل من جاء بعده ممن يؤمن به غيبًا.

(٤) تقدم تخريجه قريبًا.

(٥) رواه مسلم مطولاً في الإيمان ٢/ ١٣٧، ١٣٨ عن عبد الله بن عمرو في سياقه موته، وفيه: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما قبله وأن الهجرة تهدم ما قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله. . .» الحديث، وفيه التنصيص على توبة عمرو بن العاص عند موته مما سبق له من الدخول في الحروب والولاية، وغير ذلك، وأن ذلك يؤيد صحة حديث: «ابنا العاص مؤمنان: هشام وعمرو»، رواه أحمد.

والأنصار يسميهم ويقول: هم أصلي وفصلي، وإليهم يحن قلبي، طال شوقي إليهم فعجِّل رب قبضي إليك.. حتى يغلبه النوم[1].

وعن ابن إسحاق: أن امرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد مع رسول الله ﷺ فقالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيرًا هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه.. فلما رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلَلٌ[2].

وعن زيد بن أسلم رحمه الله تعالى قال: خرج عمر رضي الله تعالى عنه ليلة يحرس الناس فرأى مصباحًا في بيت، وإذا عجوز تنفش صوفًا وتقول:

عَلَى مُحَمَّدٍ صَلاةُ الأَبْرَارْ ... صَلَّى عَلَيْهِ الطَّيِّبُونَ الأَخْيَارْ

قَدْ كُنتَ قَوَّامًا بَكَّاءًا بالأَسْحَارْ ... يَا لَيْتَ شِعْرِي وَالْمَنَايَا أَطْوَارْ

هَلْ تَجْمَعُنِي وَحَبِيبِي الدَّار

تعني النبي ﷺ، فجلس عمر رضي الله تعالى عنه يبكي[3].

ولما احتضر بلال رضي الله تعالى عنه نادت امرأته: وا حزناه، فقال! واطَرَباه! غدًا ألقى الأحبة، محمدًا وحزبه[4].

ولما أخرج أهل مكة زيد بن الدثنة رضي الله تعالى عنه من الحرم ليقتلوه قال له أبو سفيان: أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدًا الآن عندنا

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية ٥/ ٢١٠، وخالد هذا كان من كبار الزهاد العباد رضي الله تعالى عنه.

(٢) ذكر ذلك ابن إسحاق في السيرة ٢٥/ ١٤٣ مع الروض الأنف، وهو في الدلائل للبيهقي ٣/ ٣٠٢. وقولها: «جَلَلٌ»، أي: صغير وقليل.

(٣) ذكره ابن المبارك في الزهد ٣٦٢، ٣٦٣، وهذه قصة عجيبة كسابقتها مما يدل على فناء السلف في محبة هذا الرسول العظيم سواء الذكور منهم والإناث.

(٤) وهو كما قال رضي الله تعالى عنه، فنعم الأحبة كانوا ونعم الحزب.

مكانك يضرب عنقه وأنك في أهلك؟ فقال زيد: والله ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة وأني جالس في أهلي، فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا[1].

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: كانت المرأة إذا أتت النبي ﷺ حلَّفها بالله ما خرجت من بغض زوج ولا رغبة بأرض عن أرض، وما خرجت إلاَّ حبًا لله ورسوله ﷺ[2].

ووقف ابن عمر على ابن الزبير رضي الله تعالى عنهم بعد قتله فاستغفر له وقال: كنت والله ما علمتُ صوامًا قوامًا تحب الله ورسوله ﷺ[3].

علامات محبته ﷺ

اعلم أن من أحب شيئًا آثره وآثر موافقته، وإلاَّ لم يكن صادقًا في حبه وكان مدعيًا، فالصادق في حب النبي ﷺ من تظهر علامة ذلك عليه.

وأولها: الاقتداء به واستعمال سنته، واتباع أقواله وأفعاله، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والتأدب بآدابه في عسره ويسره، ومنشطه ومكرهه، وشاهد هذا قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١].

وإيثار ما شرعه وحض عليه على هوى نفسه وموافقة شهوته.

---

(١) أخرجه ابن إسحاق ٢/ ١٦٩، وأخرجه البيهقي في الدلائل ٣/ ٣٢٦، في شأن خبيب وأنه الذي قال ذلك، وقصة خبرهما في الصحيح مبسوطة.

(٢) أخرج ذلك ابن جرير في سورة الممتحنة ٢٨/ ٤٤ والبزار، قال الهيثمي ٧/ ١٢٣ فيه قيس بن الربيع، وثقه شعبة والثوري وضعفه غيرهما.

(٣) رواه مسلم آخر الفضائل في قتل ابن الزبير ١٦/ ٩٨، ٩٩.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[1] [الحشر: ٩].

وإسخاط العباد في رضا الله تعالى، فمن اتصف بما سبق فهو كامل المحبة لله ورسوله، ومن خالفها في بعض هذه الأمور فهو ناقص المحبة، ولا يخرج عن اسمها، ودليله: قوله ﷺ للذي حده في الخمر فلعنه بعضهم وقال: ما أكثر ما يؤتى به فقال النبي ﷺ: «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله»[2].

ومن علامات محبة النبي ﷺ كثرة ذكره له، فمن أحب شيئًا أكثر من ذكره.

ومنها: كثرة الشوق إلى لقائه، فكل حبيب يحب لقاء حبيبه.

وفي حديث الأشعريين عند قدومهم المدينة أنهم كانوا يرتجزون:

غَدًا نَلْقَى الأَحِبَّةْ ... مُحَمَّدًا وصَحْبَه[3]

ومن علاماته ــ مع كثرة ذكره ــ: تعظيمه له وتوقيره عند ذكره، وإظهار الخشوع والانكسار مع سماع اسمه. وقد كان أصحاب النبي ﷺ بعده لا يذكرونه إلا خشعوا واقشعرت جلودهم وبكوا[4]. وكان كثير من التابعين من

---

(١) في هذه الآية مدح للأنصار رضي الله عنهم بما ذكر فيها من الصفات التي كانوا متخلقين بها.

(٢) رواه البخاري في الحدود ١٥/ ٦٧٨٠، وفيه النهي عن لعن من يحب الله ورسوله من العصاة بأن عرف ذلك منه بالقرائن، وفيه الرد على الخوارج وغيرهم ممن يكفرون العصاة ومن يرتكب الكبائر.

(٣) رواه البيهقي في الدلائل ٥/ ٣٥١.

(٤) صح ذلك عن جماعة منهم، وقد ذكر الدارمي في سننه جملة من ذلك ١/ ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤.

يفعل ذلك أيضًا محبة له وشوقًا إليه، ومنهم من يفعله تهيبًا وتوقيرًا.

ومنها: محبته لمن أحب النبي ﷺ ومن هو بسببه من آل بيته وصحابته من المهاجرين والأنصار، وعداوة من عاداهم وبغض من أبغضهم وسبهم؛ فمن أحب شيئًا أحب من يحب[١].

وقد قال ﷺ في الحسن والحسين عليهما السلام: «اللهم إني أحبهما فأحبهما»[٢]. وفي رواية في الحسن: «اللّٰهم إني أحبه فأحب من يحبه»[٣]. وقال ﷺ فيهما: «من أحبهما فقد أحبني، ومن أبغضهما فقد أبغضني»[٤].

وقال في فاطمة رضي الله تعالى عنها: «إنها بضعة مني يغضبني من

---

(١) هذا من متطلبات الإيمان، فمن لا يحب في الله ولا يبغض فيه لا اعتداد بإيمانه ولا بمحبته.

(٢) رواه الترمذي في المناقب ٣٥٥٤، من حديث البراء، وحسَّنه وصححه. وانظر ما سبق ص ١٨٨.

(٣) هذه الرواية رواها أحمد ٢/ ٣٣١، ٣٢٩، والحميدي ١٠٤٣، والبخاري في البيوع ٥/ ٢٤٤، وفي اللباس ١٢/ ٤٥١، ومسلم في الفضائل ١٥/ ١٩٢، ١٩٣، والنسائي في الكبرى ٨١٦٤ وغيرهم من حديث أبي هريرة بلفظ: «اللّٰهم إني أحبه فأحبه وأحب من يحبه»، قال أبو هريرة: فما كان أحد أحب إليّ من الحسن بن علي بعدما قال رسول الله ﷺ ما قال.. وفيه ــ مع عظم فضل سيدنا الحسن وأخيه سيدنا الحسين عليهما السلام ــ: بشارة لمن يحبهما بأن الله يحبه، ويا لها من كرامة فإن من أحبه الله لا يشقى أبدًا.

(٤) رواه أحمد ٢/ ٢٨٨، والنسائي في الكبرى ٨١٦٢، وابن ماجه ١٤٣، والحاكم ٣/ ١٦٦، وصححه ووافقه الذهبي وقال البوصيري: إسناده صحيح ورجاله ثقات.

وفي الحديث أن محبة الحسنين شعار يستدل به على محبة رسول الله ﷺ وعكسه بالعكس عياذًا بالله من ذلك.

أغضبها»[1].

وقال لعائشة في أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنه: «أحبيه فإني أحبه»[2].

وقال: «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغضهم»[3]. وقال: «الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضًا بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فبغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه»[4].

---

(١) رواه البخاري في المناقب ٨/ ٨٠، ١٠٦، وفي الخمس وفي النكاح، ومسلم في الفضائل ١٦/ ٢، ٣، ٤، وغيرهما من حديث المسور بن مخرمة في قصة إرادة الإمام على التزوج ببنت أبي جهل. وقوله: «بضعة» بفتح الباء، أي: قطعة.
وفي الحديث دليل على أن إغضاب مولاتنا فاطمة عليها السلام إغضاب لرسول الله ﷺ، وهذا ليس على إطلاقه، بل ذلك مقيد بما إذا كان ظلمًا لها أو مع الإصرار على إغضابها، وإلاَّ كان الإمام علي أول من يناله هذا الوعيد، وحاشاه من ذلك، وكذلك ما حصل لها مع أبي بكر رضي الله تعالى عنه، فإنه كان محقًّا بارًّا فيما فعل معها رضي الله تعالى عنهما. ودع عنك افتراء المفترين من الشيعة الضالين.

(٢) رواه الترمذي في المناقب ٣٥٨٩ عن عائشة قالت: أراد النبي ﷺ أن ينحي مخاط أسامة، قالت عائشة: دعني حتى أكون أنا التي أفعل. قال: يا عائشة... إلخ، وسنده حسن.

(٣) رواه أحمد ٣/ ١٣٠، ٢٤٩، والبخاري ومسلم ٢/ ٦٣ كلاهما في الإيمان.

(٤) رواه أحمد ٤/ ٨٧ و ٥/ ٥٤، والترمذي ٣٦٣٠ في حديث عبد الله بن مغفل، وحسّنه الترمذي وقوله: «الله الله»، أي: اتقوا الله وراقبوه في أصحابي. وقوله: «غرضًا» بفتحتين، أي: هدفًا ترمونهم بالقبائح والمساوىء، وكشف عوراتهم.
فهذه الأحاديث كلها دالة على وجوب محبة من كان يحبه رسول الله ﷺ من آل بيته ومواليه وأصحابه، وأن من كان بخلاف ذلك أو أضمر لهم العداوة أو انتقص أحدًا منهم أو نال من أعراضهم كان مفتريًا في محبته.

فالحقيقة أن من أحب شيئًا أحب كل شيء يحبه، وهذه كانت سيرة السلف، حتى في المباحات وشهوات النفس.

وقد قال أنس رضي الله تعالى عنه حين رأى النبي ﷺ يتتبع الدباء من حوالي القصعة، فما زلت أحب الدباء من يومئذٍ(١).

وهذا الحسن بن علي وعبد الله بن عباس وابن جعفر رضي الله تعالى عنهم أتوا سلمى وسألوها أن تصنع لهم طعامًا مما كان يعجب رسول الله ﷺ(٢).

وكان ابن عمر رضي الله تعالى عنهما يلبس النعال السبتية ويصبغ بالصفرة؛ إذ رأى النبي ﷺ يفعل نحو ذلك(٣).

ومنها: بغض من أبغض الله ورسوله، ومعاداة من عاداه، ومجانبة من خالف سنته وابتدع في دينه، واستثقاله كل أمر يخالف شريعته.

قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢](٤).

وهؤلاء أصحابه ﷺ قد قتلوا أحباءهم وقاتلوا آباءهم وأبناءهم في مرضاته.

---

(١) رواه البخاري في الأطعمة، ومسلم في الأشربة ١٣/ ٢٢٣، ٢٢٤، والترمذي في الجامع، وفي الشمائل وأبو داود ٣٧٨٢، من حديث أنس نفسه. والدباء: هي اليقطين والقرع.

(٢) رواه الترمذي في الشمائل ١٧٩، من حديث سلمى زوجة أبي رافع رضي الله تعالى عنهما. وفي سنده ضعف.

(٣) رواه البخاري في اللباس ١٢/ ٤٢٥، ٤٢٦، وفي الحج، ومسلم في الحج ٨/ ٩٣ أوائله، من حديث ابن عمر نفسه مطولاً. «النعال السبتية هي المدبوغة، والسبت هو القطع.

(٤) المحادة: هي المخالفة. وفي الآية الكريمة ميزان يوزن به إيمان المرء حبه في الله وبغضه فيه.

وقال له عبد الله بن عبد الله بن أُبَـي: لو شئت لأتيتك برأسه. يعني: أباه[١].

ومنها: أن يحب القرآن الذي أتى به ﷺ، وهدى به واهتدى وتخلق به حتى قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: كان خلقه القرآن[٢].

وحبه للقرآن تلاوته، والعمل به، وتفهمه، ويحب سنته، ويقف عند حدودها.

قال سهل بن عبد الله رحمه الله تعالى: علامة حب الله حب القرآن، وعلامة حب القرآن حب النبـي ﷺ، وعلامة حب النبـي ﷺ حب السنة، وعلامة حب السنة حب الآخرة، وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا، وعلامة بغض الدنيا أن لا يدخر منها إلاَّ زادًا وبلغة إلى الآخرة[٣].

ومن علامات حبه للنبـي ﷺ شفقته على أمته، ونصحه لهم، وسعيه في مصالحهم، ورفع المضار عنهم كما كان ﷺ بالمؤمنين رؤوفًا رحيمًا.

ومن علامات تمام محبته: زهد مدعيها في الدنيا، وإيثاره الفقر واتصافه به.

وقد قال ﷺ لرجل ــ وقد قال له: والله إني لأحبك ــ: «إن كنت تحبني فأعد للفقر تجفافًا، فإن الفقر أسرع إلى من يحبني من السيل إلى منتهاه»[٤].

---

(١) عزاه الهيثمي ١٥٧٦١ للبزار، وقال: رجاله ثقات. وفيه: «لا، ولكن بر أباك وأحسن صحبته» وهو من حديث أبـي هريرة، وله شاهد عن عبد الله نفسه، رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح، وفيه انقطاع. انظر: المجمع ٩/ ٣١٧. وهذه نهاية محبة الله ورسوله ﷺ، وهكذا كان كل الصحابة رضي الله عنهم.

(٢) تقدم تخريجه في أخلاقه ﷺ، وهو في صحيح مسلم وغيره.

(٣) سهل بن عبد الله: هو التستري، أحد الزهاد المشاهير. وقوله هذا نهاية في النفاسة.

(٤) رواه الترمذي في الزهد ٢١٧١، وابن حبان ٢٥٠٥ من حديث عبد الله بن مغفل، =

ما معنى المحبة للنبي ﷺ وما حقيقتها

اختلف الناس في تفسير محبة الله ومحبة النبي ﷺ، وكثرت عباراتهم في ذلك، وهي في الحقيقة اختلاف أحوال، فقيل: هي اتباع الرسول. وقيل: اعتقاد نصرته، والذب عن سنته والانقياد لها، وهيبة مخالفته. وقيل: هي دوام الذكر للمحبوب، وقيل: إيثار المحبوب والشوق إليه. وقيل: مواطأة القلب لمراد المحبوب؛ يحب ما أحب ويكره ما كره. وأكثر هذه العبارات إشارة إلى ثمرات المحبة.

أما حقيقتها: فهي الميل إلى ما يوافق الإنسان:

إما لاستلذاذه بإدراكه كحب الصور الجميلة، والأصوات الحسنة، والأطعمة، والأشربة اللذيذة مما كل طبع سليم مائل إليها لموافقتها له.

أو لاستلذاذه بإدراكه بحاسة العقل والقلب معاني باطنة شريفة، كحب الصالحين والعلماء وأهل المعروف المأثور عنهم السير الجميلة والأفعال الحسنة، فإن طبع الإنسان مائل إلى الشغف بأمثال هؤلاء حتى يبلغ التعصب بقوم لقوم والتشيع من أمة في آخرين ما يؤدي إلى الجلاء عن الأوطان وهتك الحرم.

أو يكون حبه إياه لموافقته له من جهة إحسانه له وإنعامه عليه، فقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها، فإذا تقرر لك هذا نظرت هذه الأسباب كلها

= وسنده حسن. وله شاهد عن أبي ذر، رواه الحاكم ٤/ ٢٣١، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

وقوله: «تجفافًا» بكسر التاء، هي آلة للحرب تجعل كدرع للفرس أو الإنسان، ومعناه: إن كنت صادقًا في محبتك فهيِّىء نفسك للصبر على بلايا القلة والحاجة والفاقة، وانظر آلة تقوية تقيك منه.

في حقه ﷺ فعلمت أنه ﷺ جامع لهذه المعاني الثلاثة الموجبة للمحبة.

أما جمال الصورة والظاهر وكمال الأخلاق والباطن فقد ذكرنا منها قبل ما لا يحتاج إلى زيادة.

وأما إحسانه وإنعامه على أمته فكذلك قد مر منه في أوصاف الله تعالى من رأفته بهم ورحمته لهم وهدايته إياهم، وشفقته عليهم، واستنقاذهم به من النار وأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، ورحمة للعالمين، ومبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه، ويتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويهديهم إلى صراط مستقيم.

فأي إحسان أجل قدرًا وأعظم خطرًا من إحسانه إلى جميع المؤمنين، وأي إفضال أعم متعة وأكثر فائدة من إنعامه على كافة المسلمين؛ إذ كان ذريعتهم إلى الهداية ومنقذهم من العماية، وداعيهم إلى الفلاح والكرامة، ووسيلتهم إلى ربهم وشفيعهم، والمتكلم عنهم، والشاهد لهم، والموجب لهم البقاء الدائم، والنعيم السرمد، فقد استبان لك أنه ﷺ مستوجب للمحبة الحقيقية شرعًا مما قدمناه من صحيح الأخبار، وعادة وجبلة مما ذكرناه آنفًا.

فإذا كان الإنسان يحب من منحه في دنياه مرة أو مرتين معروفًا أو استنقذه من هلكة أو مضرة مدة التأذي بها قليل منقطع، فمن منحه ما لا يبيد من النعم، ووقاه ما لا يغني من عذاب الجحيم أولى بالحب. وإذا كان يُحَبُّ بالطبع مَلِكٌ لحسن سيرته، أو حاكم لما يؤثر من قوام طريقته، أو قَاصٍّ بعيد الدار لما يشاد من علمه أو كرم شيمته، فمَنْ جمع هذه الخصال على غاية مراتب الكمال أحق بالحب وأولى بالميل[1].

---

(١) فصلّى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه أبد الآبدين وجازاه عنا أفضل وأجل وأعلى ما جزى نبيًا عن قومه ورسولاً عن أمته.

وقد قال علي رضي الله تعالى عنه في صفته ﷺ: من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه[(١)].

وجوب مناصحته ﷺ

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ ﴾ [التوبة: ٩١].

قال أهل التفسير: إذا نصحوا لله ورسوله: إذا كانوا مخلصين مسلمين في السر والعلانية.

وعن تميم الداري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدين النصيحة». قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله وأئمة المسلمين وعامتهم»[(٢)].

قال أئمتنا: النصيحة لله ولرسوله وأئمة المسلمين وعامتهم واجبة. قال الخطابي رحمه الله تعالى: النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة إرادة الخير للمنصوح له، وليس يمكنه أن يعبر عنها بكلمة واحدة تحصرها، ومعناها في اللغة: الإخلاص من قولهم نصحتُ العسل إذ خلّصته من شَمْعه. وقال الخفاف والزّجّاج: النصح فعل الشيء الذي فيه الصلاح والمُلاءمَة.

فنصيحة الله تعالى: صحة الاعتقاد له بالوحدانية، ووصفه بما هو

(١) تقدم أول الكتاب ص ٨٥ وما بعدها.

(٢) رواه أحمد ٤/ ١٠٢، ومسلم في الإيمان ٢/ ٦/ ٢٧، وأبو داود في الأدب ٤٩٤٤، والنسائي في البيعة رقم ٣٩١٣، وفي الباب عن أبـي هريرة عند أحمد ٢/ ٢٩٧، والترمذي في البر والصلة رقم ١٧٧١ يتهذيبـي وسنده حسن لأجل ابن عجلان وعن ابن عباس عند أحمد ١/ ٣٥١، وعن ابن عمر عند الدارمي في الرقاق ٢٧٥٧، ورجاله رجال الصحيح.

أهله، وتنزيهه عما لا يجوز عليه، والرغبة في محابه والبعد من مساخطه والإخلاص في عبادته.

والنصيحة لكتابه: الإيمان به والعمل بما فيه وتحسين تلاوته والتخشع عنده والتعظيم له وتفهمه والتفقه فيه والذب عنه من تأويل الغالين وطعن الملحدين.

والنصيحة لرسوله ﷺ: التصديق بنبوته وبكل ما جاء به، وبذل الطاعة له فيما أمر به ونهى عنه، والاعتصام بسنته ونشرها والحض عليها، والدعوة إلى الله وإلى كتابه وإلى رسوله وإليها وإلى العمل بها.

وقال أبو بكر الآجري رحمه الله تعالى وغيره: النصح له يقتضي نصحين: نصحًا في حياته ونصحًا بعد موته.

ففي حياته: نصح أصحابه له بالنصر والمحاماة عنه ومعاداة من عاداه والسمع والطاعة له وبذل النفوس والأموال دونه كما قال تعالى: ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ . . . ﴾ الآية [الأحزاب: ٢٣]. وقال: ﴿ وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ . . . ﴾ الآية [الحشر: ٨].

وأما نصيحة المسلمين له بعد وفاته فالتزام التوقير والإجلال وشدة المحبة له، والمثابرة على تعلم سنته والتفقه في شريعته، ومحبة آل بيته وأصحابه، ومجانبة من رغب عن سنته وانحرف عنها، وبغضه والتحذير منه، والشفقة على أمته، والبحث عن تعرف أخلاقه وسيرته وآدابه والصبر على ذلك.

فعلى هذا تكون النصيحة إحدى ثمرات المحبة وعلامة من علاماتها كما تقدم.

وحكى الإمام أبو القاسم القشيري رحمه الله تعالى: أن عمرو بن

الليث الصفار أحد ملوك خراسان ومشاهير الثوار، رؤي في النوم فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي، فقيل: بماذا؟ قال: صعدت ذروة جبل يومًا فأشرفت على جنودي فأعجبتني كثرتهم فتمنيت أني حضرت رسول الله ﷺ فأعنته ونصرته فشكر الله لي ذلك وغفر لي.

وأما النصح لأئمة المسلمين: فطاعتهم في الحق، ومعونتهم فيه، وأمرهم به، وتذكيرهم إياه على أحسن وجه، وتنبيههم على ما غفلوا عنه وكتم عنهم من أمور المسلمين، وترك الخروج عليهم وإغراء العامة وإفساد قلوبهم عليهم.

والنصح لعامة المسلمين: إرشادهم إلى مصالحهم ومعونتهم في أمر دينهم ودنياهم بالقول والفعل، وتنبيه غافلهم، وتبصير جاهلهم، وإعانة محتاجهم، وستر عوراتهم، ودفع المضار عنهم وجلب المنافع إليهم[1].

* * *

---

(١) انظر ما قاله الإمام النووي رحمه الله تعالى في شرح مسلم ٢/٢٨، ٢٩ على موضوع النصيحة، فقد: أجاد في ذلك وأفاد، وكذا ما قاله ابن رجب رحمه الله تعالى في شرح الأربعين النووية.

الباب الثالث

في تعظيم أمره ووجوب توقيره وبرّه ﷺ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾(١) [الفتح: ٨، ٩].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾(٢) [الحجرات: ١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾(٣) [الحجرات: ٢ ـ ٤].

---

(١) وقرئت: (وتعززوه) بزاءين: ومعناه: تنصروه وتعظموه وتصيروه عزيزًا.

(٢) وفي الآية الكريمة ذم بالغ لأولئك المتشرعين الذين يقنون للناس قوانين يتحاكمون إليها ويمشون عليها في حياتهم وأنظمتهم، فيا ويلهم ويا خسارتهم.

(٣) هذه آيات كسابقتها خاطب الله تعالى بها صحابة رسول الله ﷺ بالأصالة وأرشدهم إلى الطريق الذي يجب عليهم سلوكه مع حضرة الرسول ﷺ، وتلك آداب رائعة تدل على علو مكانة هذا النبي العظيم ورفيع منزلته عند الله عز وجل.

وقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾[1] [النور: ٦٣].

فأوجب تعالى تعزيره وتوقيره، وألزم إكرامه وتعظيمه. قال المفسرون رحمهم الله تعالى: تعزروه: تجلوه وتبالغوا في تعظيمه، وتنصروه وتعينوه[2].

ونهى عن التقدم بين يديه بالقول وسوء الأدب بسبقه بالكلام، قال العلماء: لا تقولوا قبل أن يقول وإذا قال فاستمعوا له وأنصتوا. ونهوا عن التقدم والتعجل بقضاء أمر قبل قضائه فيه، وأن يفتاتوا بشيء في ذلك من أمر دينهم إلاَّ بأمره، ولا يسبقوه به[3].

ثم وعظهم وحذرهم مخالفة ذلك فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾ [الحجرات: ١]، أي: اتقوه في التقدم بين يديه، أو اتقوا الله في إهمال حقه وتضييع حرمته إنه سميع لقولكم عليم بفعلكم.

ثم نهاهم عن رفع الصوت فوق صوته والجهر لقوله كما يجهر بعضهم لبعض ويرفع صوته، قال العلماء: لا تسابقوه بالكلام وتغلظوا له بالخطاب، ولا تنادوه باسمه نداء بعضكم لبعض، ولكن عظموه ووقروه ونادوه بأشرف ما يحب أن ينادى به: يا رسول الله، يا نبي الله. وهذا كقوله تعالى في الآية

---

(١) المراد بالدعاء هنا النداء، أي: لا تنادوه باسمه المجرد أو نحو ذلك كما ينادي الواحد منكم صاحبه وقرينه؛ فإن ذلك لا يليق بمقام هذا النبي الكريم عليه الصلاة والسلام.

(٢) اتفق المفسرون على ما ذكره.

(٣) فإن كل ذلك يعد من سوء الأدب وأقبح أنواع التصرف مع الله ورسوله ﷺ، فليتأدب المسلم مع الحضرة الإلـهية ومقام الرسول وليقف عند حده ولا يتعدى مقام العبودية.

الأخرى: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾[1] [النور: ٦٣].

ثم خوفهم الله تعالى بحبط أعمالهم إن هم فعلوا ذلك وحذرهم منه.

والآية، قيل: نزلت في وفد بني تميم؛ أتوا النبي ﷺ فنادوه: يا محمد، يا محمد، اخرج إلينا. فذمهم الله بالجهل ووصفهم بأن أكثرهم لا يعقلون[2].

والآية الأولى نزلت في محاورة كانت بين أبي بكر وعمر بين يدي النبي ﷺ واختلاف جرى بينهما حتى ارتفعت أصواتهما[3].

وقيل: نزلت في ثابت بن قيس، وأنه جلس في بيته وقال: أنا من أهل النار، فسأل عنه النبي ﷺ، فقال: لقد علمتم أني من أرفعكم صوتًا على النبي ﷺ فذكر ذلك للنبي ﷺ. فقال: «بل هو من أهل الجنة»[4].

وكان عمر رضي الله تعالى عنه بعد نزول الآية لا يُسمع رسول الله ﷺ حتى يستفهمه[5].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا ﴾ [البقرة: ١٠٤].

---

(١) واستدل بالآية الكريمة، من استحب قران اسم النبي الشريف بلفظ السيادة ولو في الأذان والإقامة والتشهد وقد ألف في ذلك جماعة من أهل العلم ردًّا وقبولاً.

(٢) رواه البخاري في التفسير ١٠/ ٣١٤، ٣١٥ من حديث عبد الله بن الزبير.

(٣) هو أيضًا عند البخاري ١/ ٢١٢، ٣١٣.

(٤) رواه مسلم في الإيمان ٢/ ١٣٤، ١٣٥، من حديث أنس: لما نزلت هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ ﴾ [الحجرات: ٢]، جلس ثابت بن قيس في بيته... إلخ، وهو عند البخاري في التفسير ١٠/ ٣١٤، بنحوه بدون ذلك الآية.

(٥) هو عند البخاري ١٠/ ٢١٣، في سياق حديث عبد الله بن الزبير السابق قبل حديث.

قال بعض المفسرين: هي لغة كانت في الأنصار نهوا عن قولها تعظيمًا للنبي ﷺ وتبجيلاً له؛ لأن معناها: ارعنا نرعك. فنهوا عن قولها؛ إذ مقتضاها كأنهم لا يرعونه إلاَّ برعايته لهم. بل حقه أن يرعى على كل حال. وقيل: كانت اليهود تُعَرِّضُ بها للنبي ﷺ بالرعونة، فنُهي المسلمون عن قولها قطعًا للذريعة ومنعًا للتشبه بهم في قولها لمشاركة اللفظ[١].

عادة الصحابة في تعظيمه وتوقيره وإجلاله ﷺ

عن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه قال: وما كان أحد أحب إلي من رسول الله ﷺ ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن املأ عيني منه إجلالاً له، ولو شئت أن أصفه ما أطقت؛ لأني لم أكن أملأ عيني منه[٢].

وعن أنس رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ كان يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار وهم جلوس فيهم أبو بكر وعمر فلا يرفعَ أحد منهم إليه بصره إلاَّ أبو بكر وعمر، فإنهما كانا ينظران إليه وينظر إليهما ويبتسمان إليه ويبتسم لهما[٣].

---

(١) وانظر في ذلك أقوال مفسري السلف عند ابن جرير ١/ ٤٦٩، ٤٧٢، وابن كثير ١/ ٢٥٩، ٢/ ١٦٠. والقول الراجح في ذلك هو الثاني كما يشير إلى ذلك اختيار ابن جرير وابن كثير رحمهما الله تعالى. وقوله: ومنعًا للتشبيه بهم: قال ابن كثير عند هذه الآية وبعد أن ذكر حديث ابن عمر: «... ومن تشبه بقوم فهو منهم»: رواه أحد وغيره، ففيه دلالة على النهي الشديد، والتهديد والوعيد على التشبه بالكفار في أقوالهم وأفعالهم ولباسهم وأعيادهم وعبادتهم، وغير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا ولا نقر عليها...

(٢) رواه مسلم مطولاً وقد تقدم ص ٣٢٨.

(٣) رواه الترمذي في المناقب ٤٣٤، بسند حسن.

وروى أسامة بن شريك قال: أتيت النبي ﷺ وأصحابه حوله كأنما على رؤوسهم الطير(١).

وقال عروة بن مسعود حين وجهته قريش عام الحديبية إلى رسول الله ﷺ ورأى من تعظيم أصحابه له ما رأى، وأنه لا يتوضأ إلاَّ ابتدروا وضوءه وكادوا يقتتلون عليه، ولا يبصق بصاقًا ولا يتنخم نخامة إلاَّ تلقوها بأكفهم فدلكوا بها وجوههم وأجسادهم، ولا تسقط منه شعرة إلاَّ ابتدروها، وإذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يمدون إليه النظر تعظيمًا له ـ فلما رجع إلى قريش قال: يا معشر قريش إني جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكًا في قوم قط مثل محمد في أصحابه. وفي رواية: إن رأيت ملكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم محمدًا أصحابه، وقد رأيت قومًا لا يسلمونه أبدًا(٢).

وعن أنس قال: لقد رأيت رسول الله ﷺ والحلاق يحلقه، وأطاف به أصحابه، فما يريدون أن تقع شعرة إلاَّ في يد رجل(٣).

---

(١) رواه أحمد ٤/ ٣٧٨، والترمذي ١٨٨١، وأبو داود ٣٨٥٥، في الطب، وحسنه الترمذي وصححه، واللفظ لأحمد مطولاً، ورواه النسائي في الكبرى وكذا ابن ماجه.

(٢) رواه البخاري في الشروط ٦/ ٢٥٧، ٢٨٠، مطولاً، وفي المغازي مختصرًا ٨/ ٤٥٩، ٤٦٠ من حديث المسور بن مخرمة.

(٣) رواه مسلم في الفضائل ١٥/ ٨٢، وفي هذه الأحاديث تعظيم بالغ من الصحابة للنبي ﷺ وإجلال منهم له وتكريم. وفي حديثي عروة وأنس جواز التبرك بآثار أهل الفضل وليس ذلك من الشرك في شيء، ولا هو من الذريعة إليه كما يقوله بعض أهل العلم، كما أن ذلك ليس من خصائصه ﷺ، فإن الخصائص لا تثبت إلاَّ بدليل وهو هنا مفقود.

وفي حديث طلحة رضي الله تعالى عنه: أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لأعرابي جاهل: سله عمن قضى نحبه؟ وكانوا يهابونه ويوقرونه. فسأله، فأعرض عنه إذ طلع طلحة فقال رسول الله ﷺ: هذا ممن قضى نحبه(١).

وفي حديث قيله: فلما رأيت رسول الله ﷺ جالسًا القرفصاء أرعدت من الفرق، وذلك هيبة له وتعظيمًا(٢).

احترام النبي ﷺ بعد موته لازم كحياته

واعلم أن حرمة النبي ﷺ بعد موته وتوقيره وتعظيمه لازم كما كان حال حياته وذلك عند ذكره ﷺ وذكر حديثه وسنته وسماع اسمه وسيرته ومعاملة آله وعترته وتعظيم أهل بيته وصحابته.

قال العلماء: واجب على كل مؤمن متى ذكره، أو ذُكِر عنده ﷺ أن يخضع ويخشع ويتوقر ويسكن من حركته ويأخذ في هيبته وإجلاله بما كان يأخذ به نفسه لو كان بين يديه ويتأدب بما أدبنا الله تعالى به(٣).

---

(١) رواه الترمذي في التفسير ٢٩٩٥، وفي المناقب ٣٥١٣، وسنده حسن صحيح، وقوله: «قضى نحبه»، أي: وفى بعهده ونذره حتى استشهد، وقد كان طلحة ممن قتل شهيدًا في وقعة الجمل؛ رماه مروان بن الحكم بنبل في ركبته رضي الله تعالى عنه.

(٢) تقدم تخريج ذلك في أخلاقه ﷺ ص ١٠٨.

(٣) قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره من سورة الحجرات ٦/ ٣٧٠: وقال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ كما كان يكره في حياته عليه الصلاة والسلام؛ لأنه محترم حيًا، وفي قبره ﷺ دائمًا... وقال قبل ذلك: وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي ﷺ قد ارتفعت أصواتهما فجاء فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من =

قال القاضي أبو الفضل رحمه الله تعالى: وهذه كانت سيرة سلفنا الصالح وأئمتنا الماضية رضي الله تعالى عنهم.

وفي مناظرة أبي جعفر المنصور العباسي مالكًا رحمه الله في مسجد رسول الله ﷺ فقال له مالك: يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله تعالى أدب قومًا فقال: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾، ومدح قومًا فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾، وذم قومًا فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ [الحجرات: ٢ ـ ٤]. وإن حرمته ميتًا كحرمته حيًا. فاستكان لها أبو جعفر[1].

وقال مالك ـ وقد سئل عن أيوب السختياني ـ ما حدثكم عن أحد إلاّ وأيوب أفضل منه. قال: وحج حجتين، فكنت أرمقه، ولا أسمع منه غير أنه كان إذا ذكر النبي ﷺ بكى حتى أرحمَه، فلما رأيت منه ما رأيت وإجلاله للنبي ﷺ كتبت عنه.

وقال مصعب بن عبد الله كان مالك إذا ذكر النبي ﷺ يتغير لونه وينحني حتى يصعب ذلك على جلسائه، فقيل له يومًا في ذلك، فقال: لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم علي ما ترون، ولقد كنت أرى محمد بن المنكدر ـ وكان سيد القراء ـ لا نكاد نسأله عن حديث أبدًا إلاّ بكى حتى نرحمه. ولقد كنت أرى جعفر بن محمد وكان كثير الدعابة والتبسم فإذا ذكر عنده

= أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربًا.

(١) هذه الحكاية ذكرها المؤلف أيضًا في المدارك وأسندها من طريق علي بن فهر مؤلف فضائل مالك، وهي وإن كان سندها عنده ضعيفًا فإنه كلام حسن معقول. انظر المدارك ١/ ٢١١، والمواهب اللدنية بشرح الزرقاني ٦/ ٣٤٩.

النبي ﷺ اصفرّ وما رأيته يحدث عن رسول الله ﷺ إلاَّ على طهارة، ولقد اختلفت إليه زمانًا فما كنت أراه إلاَّ على ثلاث خصال: أما مصليًا، وإما صامتًا، وإما يقرأ القرآن، ولا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان من العلماء والعباد الذي يخشون الله عزَّ وجلّ. ولقد كان عبد الرحمن بن القاسم يذكر النبي ﷺ فيُنظر إلى لونه كأنه نزف منه الدم وقد جف لسانه في فمه هيبة منه لرسول الله ﷺ. ولقد كنت آتي عامر بن عبد الله بن الزبير فإذا ذكر عنده النبي ﷺ بكى حتى لا يبقى في عينيه دموع. ولقد رأيت الزهري وكان من أهنأ الناس وأقربهم، فإذا ذكر النبي ﷺ عنده فكأنه ما عرفك ولا عرفته. ولقد كنت آتي صفوان بن سليم وكان من المتعبدين المجتهدين فإذا ذكر النبي ﷺ بكى، فلا يزال يبكي حتى يقوم الناس عنه ويتركوه.

وروي عن قتادة أنه كان إذا سمع الحديث أخذه العويل والزويل(١).

ولما كثر على مالك الناس قيل له: لو جعلت مستمليًا يسمعهم. فقال: قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ ﴾ [الحجرات: ٢]، وحرمته حيًا وميتًا سواء.

وكان ابن سيرين ربما يضحك، فإذا ذكر عنده حديث النبي ﷺ خشع. وكان عبد الرحمن بن مهدي إذا قرأ حديث النبي ﷺ أمرهم بالسكوت وقال: ﴿ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ ﴾ [الحجرات: ٢]، ويتأول: أنه يجب له من الإنصات عند قراءة حديثه ما يجب له عند سماع قوله.

---

(١) يقال: زال زواله وزويله، زال جانبه فزعًا وذعرًا وخوفًا. والمراد أخذه الخوف أيضًا. [المعجم الوسيط (زول)]

عن عمرو بن ميمون قال: اختلفت إلى ابن مسعود سنة فما سمعته يقول «قال رسول الله ﷺ» إلاَّ أنه حدث يومًا فجرى على لسانه قال رسول الله ﷺ ثم علاه كرب حتى رأيت العرق ينحدر عن جبهته ثم قال: هكذا إن شاء الله أو فوق ذا أو ما دون ذا أو ما هو قريب من ذا. وفي رواية: فتربد وجهه. وفي رواية: وقد تغرغرت عيناه وانتفخت أوداجه.

وقال إبراهيم بن عبد الله بن قريم الأنصاري قاضي المدينة: مر مالك بن أنس على أبي حازم وهو يحدث فجازه وقال: إني لم أجد موضعًا أجلس فيه فكرهت أن آخذ حديث رسول الله ﷺ وأنا قائم.

وقال مالك رحمه الله تعالى جاء رجل إلى ابن المسيب فسأله عن حديث وهو مضطجع، فجلس وحدثه، فقال له الرجل: وددت أنك لم تتعن. فقال: إني كرهت أن أحدثك عن رسول الله ﷺ وأنا مضطجع.

وروي عن محمد بن سيرين رحمه الله تعالى أنه قد يكون يضحك فإذا ذكر عنده حديث رسول الله ﷺ خشع.

وقال أبو مصعب رحمه الله تعالى: كان مالك بن أنس رحمه الله تعالى لا يحدث بحديث رسول الله ﷺ إلاَّ وهو على وضوء إجلالاً له. وحكى ذلك مالك عن جعفر بن محمد رضي الله تعالى عنهما.

وقال مصعب بن عبد الله: كان مالك بن أنس إذا حدث عن رسول الله ﷺ توضأ وتهيأ ولبس ثيابه ثم يحدث. قال مصعب: فسئل عن ذلك فقال: إنه حديث رسول الله ﷺ.

قال مطرف: كان إذا أتى الناس مالكًا خرجت إليهم الجارية فتقول لهم: يقول لكم الشيخ: تريدون الحديث أو المسائل؟ فإن قالوا: المسائل؛

خرج إليهم. وإن قالوا: الحديث؛ دخل مغتسله واغتسل وتطيب ولبس ثيابًا جددًا ولبس ساجه وتعمم ووضع على رأسه رداءه وتلقى له منصة فيخرج فيجلس عليها وعليه الخشوع، ولا يزال يبخر بالعود حتى يفرغ من حديث رسول الله ﷺ. قال غيره: ولم يكن يجلس على تلك المنصة إلاَّ إذا حدث عن رسول الله ﷺ. قال ابن أبي أويس: فقيل لمالك في ذلك؟ فقال: أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ، ولا أحدث به إلاَّ على طهارة متمكنًا. قال: وكان يكره أن يحدث في الطريق أو وهو قائم أو مستعجل. وقال: أحب أن أفهم حديث رسول الله ﷺ.

قال عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى: كنت عند مالك وهو يحدثنا، فلدغته عقرب ست عشرة مرة وهو يتغير لونه ويصفر ولا يقطع حديث رسول الله ﷺ. فلما فرغ من المجلس وتفرق عنه الناس قلت له: يا أبا عبد الله لقد رأيت منك اليوم عجبًا. قال: نعم، إنما صبرت إجلالاً لحديث رسول الله ﷺ.

قال ابن مهدي: مشيت يومًا مع مالك إلى العقيق، فسألته عن حديث، فانتهرني وقال لي: كنت في عيني أجل من أن تسأل عن حديث رسول الله ﷺ ونحن نمشي.

قال عبد الله بن صالح: كان مالك والليث لا يكتبان الحديث إلاَّ وهما طاهران. وكان قتادة يستحب أن لا يقر أحاديث النبي ﷺ إلاَّ على وضوء ولا يحدث إلاَّ على طهارة. وكان الأعمش إذا أراد أن يحدث وهو على غير وضوء تيمم. قال ضرار بن مرة: كانوا يكرهون أن يحدثوا على غير وضوء[1].

---

(١) هذا الفصل والذي قبله أكثر ما فيها مخرج بعضه عند ابن عبد البر في كتاب العلم ٢/ ١٩٨، ١٩٩، والباقي مذكور في المدارك للمؤلف ١/ ١٥٤، ١٥٥، ١٥٧، والمواهب اللدنية ٦/ ٣١٦، ٣١٧.

من توقيره برُّ آله وذريته وزوجاته ﷺ

ومن توقيره ﷺ وبره برُّ آله وذريته، وأمهات المؤمنين أزواجه، كما حض عليه ﷺ وسلكه السلف الصالح رضي الله تعالى عنهم.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾(1) [الأحزاب: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾(2) [الأحزاب: ٦].

وعن زيد بن أرقم رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنشدكم الله في أهل بيتي» ثلاثًا. قلنا لزيد: من أهل بيته؟ قال: آل علي، وجعفر، وآل عقيل، وآل العباس(3).

---

(1) الآية الكريمة تشمل نساؤه ﷺ وبناته والحسنين والإمام عليًا عليهم السلام، واختلف في سبب نزولها، فقيل: نزلت بسبب نسائه. وهو ظاهر سياق الآية. وقيل: نزلت في علي وفاطمة والحسنين عليهم السلام. ويدل له حديث أم سلمة رضي الله تعالى عنها: أن النبي ﷺ جلل على الحسن والحسين وعلي وفاطمة الكساء، ثم قال: «اللّٰهم هؤلاء أهل بيتي وحامتي، أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا». رواه أحمد ٦/ ٣٠٤ والترمذي في المناقب ٣٦٣٩ بتهذيبي، وله شواهد وطرق صحيحة ذكرتها في الأنوار الباهرة، منها: عن عائشة في صحيح مسلم ١٥/ ١٩٤، ١٩٥، وعن سعد بن أبي وقاص عنده أيضًا ١٥/ ١٧٥، ١٧٦، مطولاً، وفيه: «اللهم هؤلاء أهلي...» ويأتي قريبًا ص ٣٥٢. وعلى كل فالآية تشمل جميع أهل بيته بما فيهم الذرية وزوجاته.

وقوله: «وحامتي»، أي: أقاربي. وهي رواية الترمذي، وفي رواية أحمد: «وخاصتي» بالخاء والصاد.

(2) أزواجه أمهاتنا في الحرمة والإجلال والتعظيم والبر، ولسن أمهات لنا كالوالدات في كل شيء.

(3) الحديث رواه أحمد ٤/ ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٧١، ومسلم في الفضائل ١٥/ ١٧٩، ١٨٠، والنسائي في الكبرى ٨١٤٨، وغيرهم بلفظ: «أذكركم الله في أهل بيتي». =

وقال ﷺ: «إني تارك فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[1].

وعن عمر بن أبي سلمة رضي الله تعالى عنهما: لما نزلت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وذلك في بيت أم سلمة، دعا فاطمة وحسنًا وحسينًا فجللهم بكساء وعلي خلف ظهره، ثم قال: «اللَّهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهما الرجس وطهرهم تطهيرًا»[2].

وعن سعد بن وقاص رضي الله تعالى عنه: لما نزلت آية المباهلة دعا رسول الله ﷺ عليًا وحسنًا وحسينًا وفاطمة وقال: «اللَّهم هؤلاء

= ومعناه: أذكركم مراقبة الله في الوصية باحترام أهل بيتي، والإحسان إليهم والبرور بهم، ورفع الأذى عنهم والصبر على جفاهم.. وآله هنا هم المذكورون وأولادهم ومن تناسل منهم إلى يوم القيامة، فالتفرقة بينهم في المواصلة والبرور من شعار الشيعة الروافض الذين يوالون ذرية البعض ويعادون الباقي.

(١) رواه أحمد والترمذي في المناقب ٣٥٦٠ عن أبي سعيد وزيد بن أرقم بلفظ: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أحدها أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما» وسنده صحيح عن زيد، وله مع ذلك طرق صحيحه. وفي الحديث الوصاية بأهل البيت كالقرآن ووجوب التمسك بهما؛ فالقرآن أمره واضح، والعترة يتمسك بعلمائها الربانيين العاملين، وهم موجودون في كل زمان ومكان، فالتمسك بإرشاداتهم واتباعهم واحترامهم وإجلالهم مأمور به كالتمسك بالقرآن. وليس المراد بأهل البيت هنا ما يفهمه الروافض والشيعة الضالون الذين يتركون المحكمات من النصوص ويتعلقون بالمتشابهات ليصلوا بذلك إلى تضليل الصحابة وعلماء الأمة وأئمتها ومن حذا حذوهم.

(٢) هذا رواه الترمذي في المناقب ٣٧٨٧، وهو من شواهد حديث أم سلمة السالف.

أهل بيتي»[١].

وقال النبـي ﷺ: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللّٰهم وال من والاه وعاد من عاداه»[٢].

وقال فيه ﷺ: «لا يحبك إلاَّ مؤمن ولا يبغضك إلاَّ منافق»[٣].

---

(١) رواه أحمد ١/ ١٨٥، ومسلم ١٥/ ١٧٥، ١٧٦، والترمذي ٣٧٣٤ كلاهما في الفضائل والمناقب مطولاً، ورواه النسائي في الكبرى ٨١٤٩ والترمذي في التفسير ٢٩٩٩ مختصرًا كما ذكره المؤلف، وهو يفيد ما أفاده ما سبق من أن هؤلاء أهل بيته ﷺ الخاصين.

(٢) رواه أحمد ٤/ ٤٧٠، وابن حبان ٢٢٠٥ وكذا النسائي في الكبرى ٨١٤٨ عن أبي الطفيل وزيد بن أرقم بسند صحيح. وللحديث طرق كثيرة، قال الحافظ: استوعبها ابن عقدة في كتاب مفرد، منها صحاح ومنها حسان... وقال السيوطي: متواتر. وقد تقدم ص ٢٠٧.

والمراد بالموالاة هنا موالاة المحبة والإسلام والنصرة، وليس المراد بها موالاة الإمامة؛ لأن ذلك يخالف الواقع، والنبـي ﷺ لا يخبر بخلاف الواقع، ولأن حملها على ذلك يؤدي إلى تضليل الخلفاء الثلاثة والمهاجرين والأنصار الذين أجمعوا على مبايعتهم. وبهذا ضل الشيعة الرافضة واستحقوا من الله الخزي والطرد بتضليلهم لأفضل خلق الله بعد رسل الله وآل بيت نبيه ﷺ وهم أصحابه الأجلاء أبطال الإسلام وفاتحوا الأمصار وناشروا السنة والقرآن والأحكام، رضي الله تعالى عنهم وأماتنا على محبتهم.

(٣) رواه أحمد ١/ ٨٤، ٩٥، والحميدي ٥٨، ومسلم في الإيمان ٣/ ٦٤، والترمذي في المناقب ٣٧٣٦، والنسائي في الإيمان من المجتبى ٨/ ١١٥، ١١٦، وفي الفضائل ٨١٥٣، وفي الخصائص ٨٤٨٥، ٨٤٨٦، ٨٤٨٧ من الكبرى، وابن ماجه ١١٤، وحسنه الترمذي وصححه.

وهذا البغض ليس على إطلاقه كما فهمه الروافض، بل هذا بغض خاص؛ لكونه من السابقين ومن قرابة رسول الله ﷺ ومصاهرته له على بنته الطاهرة ولشدته على =

وقال للعباس: «والذي نفسي بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ورسوله»[1].

وكان يأخذ بيد أسامة بن زيد والحسن رضي الله تعالى عنه ويقول: «اللّـٰهم إني أحبهما فأحبهما»[2].

وقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: ارقبوا محمدًا في أهل بيته[3].

وقال أيضًا: والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلي أن أصل من قرابتي[4].

= أعداء الله، فمن أبغضه لذلك فلا شك في كفره ونفاقه. أما بغضه لأمور شخصية خاصة عارضة كما يقع بين الأقارب وبين عامة الناس حسب الطبيعة البشرية، أو كان ذلك مع اجتهاد وتأويل فهذا لا يدخل في الحديث. ثم حتى إذا حملنا الحديث على ظاهره ووجدنا من يبغضه ممن صح لنا إيمانه وتواترت لدينا ديانته وإخلاصه كان ذلك نفاقًا عمليًا، بمعنى: أنه متصف بصفة من صفات المنافقين كالكذب والخيانة وخلف الوعد التي هي من صفات المنافقين وتوجد في كثير من المسلمين.

(١) رواه أحمد والطيالسي، والترمذي ٣٥٣١، والحاكم ٣/ ٣٣٣، وحسنه الترمذي وصححه، ومعناه: أن من لم يحب آل البيت الأطهار عليهم السلام لله ولرسوله ﷺ ولقرابتهم منه فليس بمؤمن إطلاقًا، أو كان في إيمانه خلل وليس خالصًا؛ لأنه لم يدخل قلبه.

(٢) رواه أحمد ٥/ ٣١٠، والبخاري في المناقب ٨/ ٨٩، ٩٠، ٩٦، وفي الأدب ١٣/ ٤٠، ٤١، والنسائي في الكبرى ٨١٧١، عن أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما. فمن أحبه الله ورسوله ﷺ وجبت محبته وحرم بغضه ومجانبته. والحديث تقدم أيضًا ص ١٨٨.

(٣) رواه البخاري في المناقب ٨/ ٧٩، ٨٠ من حديث عائشة مطولاً.

(٤) نفس المرجع السابق.

وقال ﷺ: «أحب الله من أحب حسنًا»[1].

وقال ﷺ: «من أحبني وأحب هذين ـ وأشار إلى حسن وحسين ـ وأباهما وأمهما كان معي في درجتي في الجنة»[2].

وقال ﷺ: «من أهان قريشًا أهانه الله»[3].

وقال ﷺ: «قدموا قريشًا ولا تقدموها»[4].

وقال ﷺ لأم سلمة رضي الله تعالى عنها: «لا تؤذيني في عائشة»[5].

وعن عقبة بن الحارث: رأيت أبا بكر رضي الله تعالى عنه وجعل

---

(١) رواه الترمذي ٣٥٤٧، وابن ماجه ١٤٤، وابن حبان ٢٢٤٠، والحاكم ٣/ ١٧٧، وصححه ووافقه الذهبي. وقال البوصيري: إسناده حسن ورجاله ثقات. وفي الحديث بشارة هامة لمحبي الحسن وأن الله تعالى يحبهم.

(٢) تقدم تخريجه ص ٣٢٧.

(٣) رواه أحمد رقم ١٤٧٣، ١٥٨٦، ١٥٨٧، والترمذي ٣٦٧٠، والحاكم ٤/ ٨٤ من حديث سعد بن أبي وقاص، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي وهو كما قالا. وإنما كان مهين قريش مهانًا لأن النبي ﷺ منهم، فإهانتهم تشمله، وفي ذلك خطر كبير على دين المهين.

(٤) رواه البيهقي في معرفة السنن، وفي السنن ٣/ ١٢١ من طريقين مرسلين صحيحين عن ابن شهاب وأبي بكر بن أبي حثمة. ولهما شواهد تؤيدهما عن عبد الله بن السائب رواه الطبراني في الكبير، قال الهيثمي في الجمع ١٠/ ٢٥: وفيه أبو معشر، وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح. وعن علي عزاه السيوطي في الجامع الصغير إلى البزار، فالحديث صحيح، وأشار الحافظ في الفتح إلى صحته.

(٥) رواه أحمد ٦/ ٢٩٣، والبخاري في المناقب عن عائشة. والخِطاب في قوله: «لا تؤذيني» لأم سلمة رضي الله تعالى عنها، التي كانت مرسلة إلى النبي ﷺ من طرق نسائه في شأن هدايا الصحابة إليه يوم عائشة.

الحسن على عنقه وهو يقول: بأبي شبيه بالنبي، ليس شبيهًا بعلي. وعلي رضي الله تعالى عنه يضحك(١).

وعن الشعبي قال: صلَّى زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه على جنازة أمه، ثم قربت له بغلته ليركبها فجاء ابن عباس فأخذ بركابه، فقال زيد: خل عنه يا ابن عم رسول الله ﷺ. فقال: هكذا نفعل بالعلماء. فقبل زيد يد ابن عباس وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا(٢).

ولما فرض عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لابنه عبد الله في ثلاثة آلاف ولأسامة بن زيد في ثلاثة آلاف وخمسمائة قال عبد الله لأبيه: لم فضلته فوالله ما سبقني إلى مشهد. فقال: لأن زيدًا كان أحب إلى رسول الله ﷺ من أبيك، وأسامة أحب إليه منك، فآثرت حب رسول الله ﷺ على حبي(٣).

وقيل لابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ماتت فلانة ــ لبعض أزواج النبي ﷺ ــ فسجد، فقيل له: أتسجد هذه الساعة؟ فقال: أليس قال رسول الله ﷺ: إذا رأيتم آية فاسجدوا، وأي آية أعظم من ذهاب أزواج النبي ﷺ(٤).

---

(١) رواه البخاري في مناقب الحسن ٨/ ٩٧ عن عقبة بن الحارث.

(٢) رواه الحاكم في الصحابة ٣/ ٤٣٨ وصححه. وهكذا كان السلف يعظم بعضهم بعضًا ويعرفون أقدار بعضهم.

(٣) رواه الترمذي في المناقب ٣٥٨٤ عن عمر، ورجاله رجال الصحيح غير سفيان بن وكيع ففيه لين مع عنعنة ابن جريج، ومع ذلك فالواقع يصدقه.

(٤) رواه أبو داود في الكسوف ١١٩٧، والترمذي في المناقب باب فضل أزواج النبي ﷺ ٣٦٥٦ بتهذيبي وسنده صحيح. ففيه أن ذهاب أهل الفضل وموتهم من آيات الله التي يذكِّر بها عباده المؤمنين.

وكان أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما يزوران أم أيمن رضي الله تعالى عنها، مولاة النبي ﷺ، ويقولان: كان رسول الله ﷺ يزورها[1].

من توقيره ﷺ توقير أصحابه وبرهم ومعرفة حقهم رضي الله عنهم

ومن توقيره ﷺ وبره: توقير أصحابه رضي الله تعالى عنهم، وبرهم ومعرفة حقهم والاقتداء بهم وحسن الثناء عليهم والاستغفار لهم والإمساك عما شجر بينهم، ومعاداة من عاداهم، والإضراب عن أخبار المؤرخين وجهلة الرواة وضلال الشيعة والمبتدعين القادحة في أحد منهم. وأن يلتمس فيما نقل عنهم من مثل ذلك فيما كان بينهم من الفتن أحسن التأويلات، ويخرج لهم أصوب المخارج؛ إذ هم أهل لذلك، ولا يُذكر أحد منهم بسوء ولا يُغمص عليه أمر بل تذكر حسناتهم وفضائلهم وحميد سيرهم، ويسكت عما وراء ذلك[2].

كما قال ﷺ: «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا»[3].

وقال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ

---

(١) رواه مسلم في الفضائل ١٦/ ٩ عن أنس، وكل ما في الفصل بيان ما يوجب توقير النبي ﷺ، كالفصل التالي.

(٢) هذا مذهب الأئمة وكافة علماء أهل السنَّة كما يعلم من كتب السنة والعقائد، وهذا هو اللائق بالمسلم الملتزم والورع، ودع عنك المفتونين في دينهم والثرثارين الغالين.

(٣) رواه الطبراني في الكبير ١٠/ ٢٤٤، وحسنه الحافظ في الفتح بزيادة: «وإذا ذكر القَدرُ فأمسكوا» فمقتضاه السكوت عند ذكر مساوي الصحابة وما جرى بينهم من الفتن والحروب والمهاجرة وأن يوكل أمرهم إلى الله تعالى.

﴿بَيْنَهُمْ . . .﴾ الآية[1] [الفتح: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾[2] [التوبة: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ . . .﴾ الآية[3] [الفتح: ١٨].

وقال تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ . . .﴾ الآية[4] [الأحزاب: ٢٣].

وعن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر»[5].

---

(١) في هذه الآية الكريمة ثناء عاطر على الصحابة رضي الله تعالى عنهم مع ذكر أوصافهم في التوراة والإنجيل، وأن المؤمنين الصالحين منهم لهم من الله المغفرة والأجر العظيم.

(٢) هذه آية عظيمة في فضل السابقين من المهاجرين والأنصار ومن اتبعهم بإحسان وأن الله تعالى قد رضي عنهم ورضوا عنه وضمن لهم دخول جنته ودار نعميه، ولا شك أن من رضي الله تعالى عنه لا يسخط عليه أبدًا وإن عمل ما عمل، ومن هؤلاء السابقين المرضي عنهم الخلفاء الأربعة رضي الله تعالى عنهم وباقي العشرة بإجماع من يعتد به. ودع عنك المفترين من الروافض الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

(٣) هؤلاء هم أهل بيعة الرضوان بالحديبية وقد أخبر النبي ﷺ أنهم جميعهم من أهل الجنة، ولا يدخل النار أحد منهم كما جاء في صحيح مسلم ١٦/ ٥٧، ٥٨، وغيره عن أم مُبَشِّر.

(٤) هذه الآية تشمل كل الصحابة الصادقين من المهاجرين والأنصار وغيرهم ممن جاء بعدهم.

(٥) رواه أحمد ٥/ ٣٨٥، والترمذي في المناقب ٣٤٣، وابن ماجه ٩٧، وابن حبان =

وقال ﷺ: «الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضًا بعدي. . .» الحديث[1].

وقال ﷺ: «لا تسبوا أصحابي فلوا أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»[2].

وقال مالك بن أنس رحمه الله تعالى: من أبغض الصحابة وسبهم فليس له في فيء المسلمين حق، ونزع بآية الحشر: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية[3] [الحشر: ١٠]، وقال: من غاظه أصحاب محمد فهو كافر، قال الله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى: خصلتان من كانتا فيه نجا: الصدق وحب أصحاب محمد ﷺ.

= ٢١٩٣ عن حذيفة بسند حسن، وكفاهما بهذا فضلاً وشرفًا حيث أُمِر المسلمون أن يقتدوا بهما، فيجب لذلك احترامهما وإجلالهما.

(١) تقدم تخريجه ص ٣٣٣.

(٢) رواه مسلم في الفضائل ١٦/ ٩٢، ٩٣، عن أبي هريرة. وفي الباب عن أنس عند أحمد ٣/ ٢٦٦، مع قصة في أوله. ورواه مسلم عن أبي سعيد الخدري بالقصة باختصار ١٦/ ٩٢، ٩٣، ورواه البخاري في المناقب ٨/ ٣٣ بدونها. وفي الحديث فضل عظيم للصحابة فلا يمكن لأحد سواهم الوصول إلى مراتبهم وفضلهم مهما كان حاله فكيف يليق بمن جاء بعدهم من أفراد الأمة أن يلوث لسانه بذكر مثالبهم وينتقدهم في أعمالهم وسيرهم وهم المغفور لهم المرضي عنهم.

(٣) لأن الله تعالى جعل الناس ثلاثة أقسام: المهاجرين والأنصار، ثم من جاء بعدهم ممن يستغفر لهم وسأل الله أن لا يجعل في قلبه حقدًا وبغضًا للذين آمنوا. إذًا فمن كان من غير هؤلاء ــ وليس إلاَّ الشيعة الروافض والخوارج ــ فلا يستحقون الفيء مع المسلمين إذا كان هناك فيء.

وقال أيوب السختياني رحمه الله تعالى: من أحسن الثناء على أصحاب محمد ﷺ فقد برىء من النفاق، ومن انتقص أحدًا منهم فهو مبتدع مخالف للسنَّة والسلف الصالح، وأخاف أن لا يصعد له عمل إلى السماء حتى يحبهم جميعًا ويكون قلبه سليمًا[1].

وقال ﷺ في الأنصار: اعفوا عن مسيئهم واقبلوا من محسنهم[2].

وكان ﷺ: يخرج في جوف الليل إلى البقيع فيدعو لهم ويستغفر كالمودع لهم[3]، وبذلك أمره الله تعالى، وأمر ﷺ بحبهم وموالاتهم ومعاداة من عاداهم.

من إعظامه إكرام مشاهده وأمكنته ﷺ

ومن إعظامه ﷺ وإكباره إعظام جميع أسبابه وإكرام مشاهده وأمكنته من مكة والمدينة ومعاهده وما لمسه ﷺ أو عرف به.

ولهذا كان مالك رحمه الله تعالى لا يركب بالمدينة دابة وكان يقول: أستحي من الله أن أطأ تربة فيها رسول الله ﷺ بحافر دابة[4].

---

(١) كلام الأئمة والعلماء في هذا الموضوع كثير، وقد أوردت جملة وافية من ذلك في كتاب فضائل الصحابة.

(٢) رواه البخاري في المناقب ٨/ ١٢٣، ومسلم في الفضائل ١٦/ ٦٨ كلاهما عن أنس ونحوه عن ابن عباس عند البخاري ٨/ ١٢٢، ١٢٣، مطولاً، للأنصار منزلة هامة عند الله وعند رسوله ﷺ لا تقل عن منزلة إخوانهم المهاجرين رضي الله تعالى عن جميعهم، فيجب احترامهم والبرور بمن بقي من أولادهم.

(٣) رواه مسلم في الجنائز ٧/ ٤٠، ٤٤، عن عائشة رضي الله تعالى عنها مطولاً.

(٤) ولنقارن بينه وبين علمائنا اليوم من سكان المدينة، فسنجد بينه وبينهم بونًا شاسعًا. ولا شك أن ذلك يرجع إلى قوة الإيمان والمحبة.

وأفتى في من قال: تربة المدينة رديئة: يضرب ثلاثين درة. وأمر بحبسه، وقال: ما أحوجه إلى ضرب عنقه؛ تربة دفن فيها النبي ﷺ يزعم أنها غير طيبة[1]!

وفي الصحيح أنه ﷺ قال في المدينة: «من أحدث فيها حدثًا أو آوى محدثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً»[2].

وقال ﷺ: «من حلف على منبري كاذبًا فليتبوأ مقعده من النار»[3].

حكي عن بعض المشايخ أنه حج ماشيًا، فقيل له في ذلك فقال: العبد الآبق يأتي إلى بيت مولاه راكبًا؟! لو قدرت أن أمشي على رأسي ما مشيت على قدمي[4].

قال القاضي رحمه الله تعالى: وجدير لمواطن عُمِّرت بالوحي والتنزيل وتردد بها جبريل وميكائيل، وعَرجت منها الملائكة والروح، وضَجَّت عرصاتها بالتقديس والتسبيح، واشتملت تربتها على جسد سيد البشر،

---

(١) لقد كان موفقًا رحمه الله تعالى في هذه الفتوى، لأن مثل ذلك الكلام لا يصدر من قلب مؤمن يحترم النبي ﷺ الذي كان يسمي مدينته المنورة طابة، كما جاء في الحديث الصحيح.

(٢) رواه مسلم ٩/ ١٤١، ١٤٢، عن الإمام علي رضي الله تعالى عنه. فاحترام المدينة ومجانبة الحدث والفسق و . . . فيها من توقيره ﷺ وإعظامه.

(٣) رواه أحمد ٣/ ٣٤٤، وأبو داود ٣٢٤٦، وابن ماجه ٢٣٢٥، وابن حبان ١١٩٢، والحاكم ٤/ ٢٩٦، ٢٩٧ من حديث جابر، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. وله شاهد عن أبي هريرة رواه أحمد ٢/ ٣٢٩، ٥١٨، وابن ماجه ٢٣٢٦ والحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٤) كلام المحبين وأفعالهم في هذا المعنى كثيرة في تراجم العلماء والزهاد.

وانتشر عنها دين الله وسنّة رسوله ﷺ ما انتشر، مدارس آيات، ومساجد وصلوات، ومشاهد الفضائل والخيرات، ومعاهد البراهين والمعجزات، ومناسك الدين، ومشاعر المسلمين، ومواقف سيد المرسلين، ومنبأ خاتم النبيين، حيث انفجرت النبوة وأين فاض عبابها، ومواطن طويت فيها الرسالة، وأول أرض مس جلد المصطفى ترابها: أن تعظم عرصاتها، وتتنسم نفحاتها، وتقبّل ربوعها وجدرانها.

يا دار خير المرسلين ومن به ... هدي الأنام وخُصَّ بالآيات

عندي لأجلك لوعَةٌ وصبابةٌ ... وَتَشوُّق مُتَوَقِّدُ الجَمَرَاتِ

وعليّ عهد إن ملأت محاجري ... مِن تِلكُم الجُدُرَات والعَرَصَاتِ

لأعفِّرَنَّ مَصَون شَيْبي بَيْنَهَا ... مِن كَثْرةِ التَّقبيل والرَّشَفَاتِ

لولا العوادي والأَعَادِي زُرْتُهَا ... أَبَدًا وَلَوْ سَحْبا على الوَجَنَات

لَكِن سأهْدِي من حَفِيل تَحِيَّتي ... لِقَطِين تلك الدار والحُجُرَاتِ

أزْكَى مِن المِسك المُفتَّقِ نفحَةٌ ... تَغشاهُ بالآصالِ والبُكرَاتِ

وَتَخُصُّه بِزَواكي الصَّلوَات وثُمَّ ... نَوامِي التَّسْلِيم والبرَكَاتِ(١)

* * *

(١) الأشعار والقصائد في المدينة المنورة وآثارها لا تحصى كثرة، فالمحبون عبر العصور كل أدلى بما فاض به قلبه من التقدير والاحترام.. والحنان لذلك الجانب المقدس.

الباب الرابع
في حكم الصلاة عليه والتسليم
وفرض ذلك وفضيلته ﷺ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ . . .﴾ الآية[1] [الأحزاب: ٥٦].

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: معناه أن الله وملائكته يباركون على النبي[2].

قال المبرد: وأصل الصلاة الترحم فهي من الله رحمة، ومن الملائكة رقة واستدعاء للرحمة من الله عزّ وجلّ.

وقد ورد في الحديث صفة صلاة الملائكة على من جلس ينتظر

---

(١) قال العلاّمة الصاوي رحمه الله تعالى: وهذه الآية فيها أعظم الدليل على أنه ﷺ مهبط الرحمات، وأفضل الأولين والآخرين على الإطلاق؛ إذ الصلاة من الله على نبيه رحمته المقرونة بالتعظيم، ومن الله على غير نبيه: مطلق الرحمة. قال: وبذلك صار منبع الرحمات ومنبع التجليات.

(٢) علقه عنه البخاري في تفسير هذه الآية من صحيحه ١٠/ ١٥١ ووصله ابن جرير في تفسيره ٢٢/ ٤٣. ومعنى قوله يباركون، أي: يدعون له البركة. قال ابن القيم في جلاء الأفهام ٩٠، وهذا لا ينافي تفسيرها بالثناء وإرادة التكريم والتعظيم؛ فإن التبريك من الله يتضمن ذلك. . . إلخ.

الصلاة: «اللّهم اغفر له، اللّهم ارحمه». فهذا دعاء[١].

وقال بكر القشيري: الصلاة من الله تعالى لمن دون النبي ﷺ رحمة، وللنبي ﷺ تشريف وزيادة تكرمة[٢].

وقال أبو العالية: صلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء[٣].

قال أبو الفضل رحمه الله تعالى: وقد فرق النبي ﷺ في حديث تعليم الصلاة عليه بين لفظ الصلاة ولفظ البركة[٤] فدل على أنهما بمعنيين.

وأما التسليم الذي أمر الله به عباده أن يسلموا به عليه ﷺ ففي معناه ثلاثة وجوه: أحدها: السلامة لك ومعك. الثاني: السلام على حفظك

---

(١) رواه البخاري في المساجد ٢/ ١١١، وفي الجماعة ٢٧٦، ومسلم في الصلاة ٥/ ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، من حديث أبي هريرة، وفي رواية للبخاري: «اللّهم صلِّ عليه، اللّهم ارحمه». وفي رواية عند ابن ماجه: «اللّهم تب عليه». غير أن هذا الدعاء من الملائكة عام لجميع المؤمنين.

(٢) هذا هو المشهور بين جمهور العلماء، فصلاة الله على نبيه الكريم ﷺ زيادة تشريف وتعظيم وتكريم، قال القرطبي في تفسيره: والصلاة من الله رحمته ورضوانه، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار، ومن الأمة الدعاء والتعظيم لأمره. وقال غيره: إن الله جل وعلا يرحم نبيه ويعظم شأنه ويرفع مقامه، وملائكته الأبرار يدعون للنبي ويستغفرون له ويطلبون من الله أن يمجد عبده ورسوله وينيله أعلا المراتب.

(٣) علقه أيضًا البخاري ١٠/ ٥١، ووصله ابن أبي حاتم كما نقله عنه الحافظ في الفتح.

(٤) يأتي تخريجه قريبًا. قال الإمام ابن كثير رحمه الله: والمقصود من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة عليه؛ ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي معًا.

ورعايتك متولٍّ له وكفيل به. فيكون بهذا معنى السلام: اسم الله. الثالث: أن السلام بمعنى المسالمة له والانقياد، كما قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥][١].

حكم الصلاة على النبي ﷺ

إن الصلاة على النبي ﷺ فرض في الجملة غير محدد بوقت لأمر الله تعالى بالصلاة عليه ﷺ وحمل الأئمة والعلماء له على الوجوب، وأجمعوا عليه[٢] وحكى أبو جعفر الطبري رحمه الله أن محمل الآية عنده على الندب، وادعى فيه الإجماع[٣]، ولعله فيما زاد على مرة، والواجب منه الذي يسقط

---

(١) وأشمل من هذا وأوضح قول السخاوي رحمه الله في القول البديع ٦٧: واختلف في معناه، فقيل: السلام الذي هو اسم من أسماء الله عليك. وتأويله: لا خلوت من الخيرات والبركات، وسلمت من المكاره والآفات؛ إذ كان اسم الله إنما يذكر على الأمور توقعًا لاجتماع معاني الخير والبركة فيها، وانتفاء عوارض الخلل والفساد عنها. ويحتمل أن يكون بمعنى السلام، أي: ليكن قضاء الله عليك السلام، وهو السلامة، كالمقام والمقامة، والملام والملامة، أي: يسلمك الله تعالى من الملام والنقائص، فإذا قلت: «اللهم سلِّم على محمد» فإنما تريد به: اكتب لمحمد في دعوته وأمته وذكره السلامة من كل نقص، فتزداد دعوته على ممر الأيام علوًا وأمته تكاثرًا وذكره ارتفاعًا. قاله البيهقي.
قال السخاوي: ويحتمل أن يكون بمعنى المسالمة له والانقياد. إلى آخر ما ذكر المؤلف.

(٢) يعني بالإجماع: أنها فرض في الجملة من غير تعيين بحالة أو وقت.

(٣) وقد رد هذا الإجماع وأبطله جماعة من أهل العلم، منهم ابن القيم في جلاء الأفهام، وابن كثير في تفسيره، بل قد قال ابن عبد البر رحمه الله تعالى: أجمع العلماء أن الصلاة على النبي ﷺ فرض على كل مؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

به الحرج وما ثم ترك الفرض مرة كالشهادة له بالنبوة، وما عدا ذلك فمندوب مرغب فيه من سنن الإسلام وشعار أهله.

قال ابن القصار: المشهور عن أصحابنا أن ذلك واجب في الجملة على الإنسان وفرض عليه أن يأتي بها مرة من دهره مع القدرة على ذلك[1].

وقال أبو بكر بن بكير: افترض الله تعالى على خلقه أن يصلوا على نبيه ويسلموا تسليمًا، ولم يجعل ذلك لوقت معلوم، فالواجب أن يكثر المرء منها ولا يغفل عنها[2].

وقال أصحاب الشافعي: الفرض منها الذي أمر الله تعالى به ورسوله ﷺ هو في الصلاة، وأما في غيرها فلا خلاف أنها غير واجبة.

وحكى ابن القصار وعبد الوهاب: أن محمد بن المواز يراها فريضة في الصلاة كقول الشافعي.

وحكى أبو يعلى العبدي المالكي عن المذهب فيها ثلاثة أقوال: الوجوب، والسنية، والندب.

وقال ابن المنذر: يستحب أن لا يصلي أحد صلاة إلاَّ صلَّى فيها على رسول الله ﷺ. فإن ترك ذلك تارك فصلاته مجزئة في مذهب مالك وأهل المدينة وسفيان الثوري، وأهل الكوفة من أصحاب الرأي. وهو قول جمل

---

(١) هذا المذهب نقل عن مالك والثوري والأوزاعي، وقال ابن عبد البر هو قول جمهور الأمة، وبهذا قال ابن حزم. وقال القرطبي المفسر: لا خلاف في وجوبها في العمر مرة وأنها واجبة في كل حين وجوب السنن المؤكدة، وسبقه إلى هذا ابن عطية فقال: الصلاة على النبي ﷺ في كل حال واجبة وجوب السنن المؤكدة التي لا يسع تركها ولا يغفلها إلاَّ من لا خير فيه.

(٢) هذا موافق لمن يقول بالوجوب مطلقًا، كما هو ظاهر.

أهل العلم. وحكي عن مالك وسفيان أنهما في التشهد الأخير مستحبة، وأن تاركها في التشهد مسيء، وشذ الشافعي فأوجب على تاركها في الصلاة الإعادة، وأوجب إسحاق الإعادة مع تعمد تركها دون النسيان.

وخالف الخطابي من أصحاب الشافعيِّ وغيره الشافعي في هذه المسألة فقال: ليست بواجبة في الصلاة. وهو قول جماعة الفقهاء إلاَّ الشافعي، ولا أعلم له فيها قدوة.

والدليل على أنها ليست من فروض الصلاة عمل السلف الصالح قبله وإجماعهم عليه[1]، وهذا تشهد ابن مسعود الذي علمه له النبي ﷺ ليس فيه الصلاة على النبي ﷺ، وكذلك كل من روى التشهد عن النبي ﷺ كابن عباس وأبي موسى وغيرهما، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كان النبي ﷺ يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن[2].

---

(١) مشروعية الصلاة على النبي ﷺ في الصلاة وبالأخص في التشهد لم يزل دأب المسلمين في كل العصور والأجيال خلفًا عن سلف. وقال بفرضيتها في التشهد الأخير من كل صلاة: ابن مسعود وابن عمر وأبو مسعود الأنصاري والشعبي ومقاتل وجعفر الصادق وابن راهويه والشافعي، والإمام أحمد في آخر قوليه، وهو أحد الأقوال للمالكية، وبه قال ابن المواز منهم. وهذا يبطل قول من نسب الإمام الشافعي إلى الشذوذ في ذلك كالمؤلف، والتشنيع عليه في هذا من التعصب المذهبي كما لا يخفى، فرحم الله الجميع وغفر لهم وأثابهم على نياتهم الصالحة.

ولمزيد التوسع في الاستدلال للطرفين راجع: جلاء الأفهام لابن القيم رحمه الله تعالى.

(٢) تشهد ابن مسعود رواه البخاري ٢/ ٤٥٥، وفي مواضع، ومسلم ٤/ ١١٥، ١١٧، وباقي الجماعة. أما تشهد ابن عباس فرواه مسلم ٤/ ١١٨، ١١٩، وأهل السنن. وتشهد أبي موسى رواه أيضًا مسلم ٤/ ١٢١، ١٢٢، وأبو داود ٩٧٢، وغيرهما.

المواطن التي يستحب فيها
الصلاة والسلام على النبي ﷺ

ويرغب من ذلك في التشهد وذلك بعد التشهد الأخير وقبل الدعاء.

فعن فضالة بن عبيد رضي الله تعالى عنه قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو في صلاته فلم يصل على النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «عَجِل هذا» ثم دعاه فقال له ولغيره: «إذا صلى أحدكم فليبدأ بحمد الله والثناء عليه ثم ليصل على النبي ﷺ ثم ليدع بعد بما شاء. وفي رواية: بتمجيد الله[1].

وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: «إذا أراد أحدكم أن يسأل الله شيئًا فليبدأ بمدحه والثناء عليه بما هو أهله ثم يصلي على النبي ﷺ ثم ليسأل فإنه أجدر أن ينجح»[2].

ومن مواطن الصلاة عليه: عند ذكره وسماع اسمه أو كتابته أو عند الأذان[3]. وقد قال ﷺ: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصلي علي»[4].

---

(١) رواه أحمد ٦/ ١٨، والترمذي في الدعوات ٣٥٠، والنسائي في التمجيد والصلاة على النبي ﷺ في الصلاة رقم ١٣١٧، والحاكم ١/ ٢٣٠، وحسنه الترمذي وصححه.

(٢) رواه عبد الرزاق في خطبة الحاجة من المصنف والطبراني، قال النور في المجمع ١٠/ ١٥٥، ورجاله رجال الصحيح إلاَّ أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه.. لكنه يتأيد بسابقه. ويؤخذ من الحديثين أهم أداب الدعاء وهو حمد الله والثناء عليه وتمجيده والصلاة على نبيه ﷺ.

(٣) يأتي تخريج حديث ما جاء في ذلك ص ٣٧٢ وما بعدها.

(٤) رواه مسلم في البر والصلة ١٦/ ١٠٨، هكذا مختصرًا، ورواه الترمذي في الدعوات ٣٣١٢، وإسماعيل القاضي في فضل الصلاة على النبي ﷺ ص ٩، والحاكم ١/ ٥٩٤، من حديث أبي هريرة بسند صحيح، وقوله: «رغم أنفه» أي: لصق بالرغامة، وهي التراب. وفيه ذم البخل بالصلاة على الرسول عند ذكره ﷺ، وكذلك ذم المقصر في صيامه، والعاق لوالديه. كما فيه: أن صيام رمضان والبرور بالوالدين من أسباب مغفرة الذنوب.

وكره العلماء رحمهم الله تعالى ذكر النبي ﷺ أو الصلاة عليه عند الذبح وعند العطاس، وعند التعجب، وقالوا: لا يصلى عليه إلاّ بقصد طلب الثواب. وروى النسائي عن أوس بن أوس عن النبي ﷺ الأمر بالإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة(١).

ومن مواطن الصلاة والسلام عليه ﷺ: دخول المسجد فيصلي ويسلم عليه ويقول: «اللّهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك» وإذا خرج فعل مثل ذلك، وجعل موضع «رحمتك»: «فضلك» لحديث مولاتنا فاطمة رضي الله تعالى عنه في ذلك(٢).

وقال عمرو بن دينار رحمه الله في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً﴾ [النور: ٦١]، قال: إن لم يكن في البيت أحد فقل: السلام على النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، السلام على أهل البيت ورحمة الله وبركاته(٣).

ومن مواطن ذلك: الصلاة على الجنائز. وذكر عن أبي أمامة أنها من السنة(٤).

---

(١) رواه أبو داود ١٠٤٧، والنسائي ٣/ ٧٥، وابن ماجه ١٠٨٥، والحاكم ١/ ٢٧٨، بسند صحيح، وأوله: «إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة. . .» وفيه: «فأكثروا من الصلاة عليّ فيه».

(٢) رواه أحمد ٦/ ٢٨٢، والترمذي ٢٨٢، وابن ماجه ٧٧١، ورجاله ثقات. وله شواهد ذكرتها في تهذيب جامع الترمذي.

(٣) ذكره ابن جرير عنه في تفسيره للآية ١٨/ ١٧٣، وهو موقوف عليه لم يأثره عن أحد.

(٤) رواه الشافعي في الأم ١/ ٢٣٩، ٢٤٠، وابن الجارود ٢٦٥، وإسماعيل القاضي في فضل الصلاة على النبي رقم ٩٤، والبيهقي ٤/ ٤٠، والحاكم ١/ ٣٦٠، وغيرهم عنه عن رجل من الصحابة، وصححه الحاكم والذهبي. ورواه =

ومن مواطنها أيضًا: الصلاة عليه ﷺ في الرسائل وما يكتب بعد البسملة. وعلى هذا عمل الأمة، ولم ينكره أحد، ولم يكن ذلك في الصدر الأول وإنما أحدث في ولاية بني هاشم، فمضى به عمل الناس في أقطار الأرض[1].

ومن مواطن السلام عليه ﷺ: تشهد الصلاة[2]. فعن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا صلَّى أحدكم فليقل: التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. فإنكم إذا قلتموها أصابت كل عبد صالح في السماء والأرض»[3]. هذا أحد مواطن التسليم وسنته أول التشهد.

كيفية الصلاة على رسول الله ﷺ

عن أبي حميد الساعدي رضي الله تعالى عنه أنهم قالوا: يا رسول الله كيف نصلي عليك؟ فقال: «قولوا: اللّٰهم صلِّ على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت

= عبد الرزاق ٦٤٢٨، والنسائي ٤/ ٦١، وابن حزم ٥/ ١٢٩، عن أبي أمامة نفسه وسنده صحيح، وأبو أمامة هذا هو ابن سهل بن حنيف ولد في حياة النبي ﷺ يروي عنه مرسلاً.

(١) فيكون هذا من الإجماع العملي التقريري.

(٢) هذا إجماع لا خلاف فيه بين المسلمين.

(٣) تقدم تخريج هذا الحديث قريبًا ص ٣٦٧.

هذا جملة ما ذكره القاضي رحمه الله تعالى من مواطن الصلاة عليه ﷺ، وهي نحو سبع، وذكر ابن القيم في الجلاء والسخاوي في القول البديع وغيرهما مواطن أخرى كثيرة، فيها ما لها دليل صحيح، وما لها دليل ضعيف أو واهٍ أو موضوع.

على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»[1].

وفي رواية: عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله تعالى عنه: «قولوا: اللّٰهم صلِّ على محمد وعلى آله كما صلَّيت على آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد. والسلام كما قد علمتم»[2].

وفي رواية: كعب بن عجرة رضي الله تعالى عنه: «اللّٰهم صلِّ على محمد كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد»[3].

وعن عقبة بن عمرو في رواية: «اللّٰهم صلِّ على محمد النبي الأمي وعلى آل محمد»[4].

وفي رواية أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه: «اللّٰهم صلِّ على محمد عبدك ورسولك»[5]، وذكر معناه.

---

(١) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء، وفي الدعوات ١٣/ ٤٢٤، ٤٢٥، ومسلم ٤/ ١١٧، وأبو داود ٩٧٩، كلاهما في الصلاة. وفي هذا الحديث رد على الروافض الذين ينكرون أن يكون النبي ﷺ جمع زوجاته مع الذرية في الصلاة عليه.

(٢) رواه مالك في قصر الصلاة ومسلم ٤/ ١٢٤، ١٢٥، وأبو داود ٩٨٠، وغيرهم.

(٣) رواه البخاري في الدعوات ١٣/ ٤٢٠، ومسلم ٤/ ١٢٦، وباقي الجماعة.

(٤) هو الحديث السابق قبل حديث هامش رقم (٢)، فعقبة بن عمرو هو أبو مسعود الأنصاري البدري.

(٥) رواه البخاري في سورة الأحزاب ١٠/ ١٥٢، وفي الدعوات ١٣/ ٤١٨، وأحمد وغيرهما، فهذه الصيغ من أصح ما جاء عن النبي ﷺ في الصلاة الإبراهيمية وغيرها. وهناك صيغ وألفاظ كثيرة استوعبها الحافظان ابن القيم والسخاوي رحمهما الله تعالى ومن جاء بعدهما كالنبهاني وغيره.

وقوله: «والسلام كما قد علمتم» هو ما علمهم في التشهد من قوله: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين».

فضل الصلاة على النبي والتسليم والدعاء له ﷺ

عن عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول وصلُّوا علي فإنه من صلَّى علي مرة واحدة صلَّى الله عليه عشرًا، ثم سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلاَّ لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة»[1].

وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «من صلَّى عليَّ صلاة صلَّى الله عليه عشر صلوات، وحط عنه عشر خطيات، ورفع له عشر درجات[2].

وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ: «لقيت جبريل فقال لي: إني أبشرك أن الله تعالى يقول: من سلم عليك سلمت عليه ومن صلَّى عليك صليت عليه»[3].

وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ: «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة»[4].

---

(١) رواه أحمد ٢/ ١٦٨، ومسلم ٤/ ٨٥، وأبو داود ٥٢٣ وغيرهم.

(٢) رواه أحمد ٣/ ١٠٢، ٢٦١، والحاكم ١/ ٥٥٠، وصححه ووافقه الذهبي، ونحوه عن أبي طلحة ويأتي قريبًا.

(٣) رواه الحاكم ١/ ٥٥٠، وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) رواه الترمذي ٤٣٥، والبخاري في التاريخ ٥/ ١٧٧، وابن حبان ٢٣٨٩، وحسنه =

وعن أُبَـيّ بن كعب رضي الله تعالى عنه: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ربـع الليل قـام فقـال: «يـا أيهـا النـاس اذكـروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جـاء المـوت بما فيه». فقال أبـي بن كعب: يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي قال: «ما شئت». قال: الربع قال: «ما شئت وإن زدت فهو خير» قال: الثلث؟ قال: «ما شئت وإن زدت فهو خيـر». قـال: الثلثيـن؟ قـال: «مـا شئـت وإن زدت فهـو خيـر». قـال: يـا رسول الله فأجعـل صـلاتي كلهـا لـك؟ قـال: «إذًا تكف همـك ويغفرك ذنبك»[1].

وعن أبـي طلحة رضي الله تعالى عنه قال: دخلت على النبـي ﷺ فرأيت من بشره وطلاقته ما لم أره قط فسألته، فقال: «وما يمنعني وقد خرج جبريل آنفًا فأتاني ببشارة من ربـي عزَّ وجلّ، أن الله تعالى بعثني إليك أبشرك

= الترمذي وله شاهد عن أبـي أمامة رواه البيهقي في السنن ٣/ ٢٤٩ وحسنه المنذري، وقال الحافظ: لا بأس به. وفي هذا الحديث فضل عظيم لأهل الحديث لأنهم أكثر الناس صلاة وسلامًا عليه ﷺ، فلهم البشرى بالكون مع النبـي ﷺ وأحق الناس بشفاعته.

(١) رواه أحمد ٥/ ١٣٦، والترمذي في صفة القيامة ٢٢٧٨، والحاكم ٢/ ٤٢١، وإسماعيل القاضي ١٣/ ١٤، وسنده حسن وهو صحيح لطريق آخر عند أحمد بسند جيد كما قال المنذري. وقول أُبـي: (كم أجعل لك من صلاتي) يعني والله أعلم: إن لي زمانا أدعو فيه لنفسي فكم اجعل لك من ذلك الزمان للصلاة عليك. كذا نقله السخاوي في القول البديع عن بعض شراح المصابيح. وقيل غير ذلك. وفيه فضل الإكثار من الصلاة عليه ﷺ وأن المكثر منها يكفيه الله ما يهمه في حياته ويغفر له ذنبه، وهذه هي منى كل مؤمن. وأخذ بعضهم من هذا الحديث جواز إهداء ثواب القراءة وغيره للنبـي ﷺ عقب القراءة والدعاء. انظر: القول البديع ١٣٩.

إنه ليس أحد من أمتك يصلي عليك إلاَّ صلَّى الله عليه وملائكته بها عشرًا»[1].

وعن أبـي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلَّى عليَّ واحدة صلَّى الله عليه عشرًا»[2].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال: قال النبـي ﷺ: من قال حين يسمع النداء: اللَّـهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدًا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته؛ حلت له شفاعتي يوم القيامة»[3].

وعن سعد بن أبـي وقاص رضي الله تعالى عنه: «من قال حين يسمع المؤذن: وأنا أشهد أن لا إلـه إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، رضيت بالله ربًّا وبمحمد رسولاً، وبالإسلام دينًا؛ غفر له»[4].

ذم من لم يصل على النبـي ﷺ، وإثمه

عن أبـي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي، ورغم أنف رجل دخل رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة»[5].

---

(١) رواه أحمد ٤/ ٣٠، والنسائي في فضل التسليم على النبـي ﷺ رقم ١٢١٦، وابن حبان ٢٣٩١، والحاكم ٢/ ٤٢٠، وصححه ووافقه الذهبـي وهو صحيح لغيره.

(٢) رواه مسلم في الصلاة على النبـي ﷺ بعد التشهيد ٤/ ١٢٧، ١٢٨، وأحمد ٢/ ٣٧٢، ٤٨٥.

(٣) رواه أحمد ٣/ ٣٣٧، والبخاري في الأذان وفي التفسير وأبو داود ٥٢٩، والترمذي ١٨٩، والنسائي ٢/ ٢٢، وابن ماجه ٧٢٢.

(٤) رواه أحمد ١/ ١٨١، ومسلم ٤/ ٨٦، والأربعة.

(٥) تقدم تخريجه ص ٣٦٨.

وفي حديث آخر: أن النبي ﷺ صعد المنبر فقال: «آمين» ثم صعد فقال: «آمين» ثم صعد فقال: «آمين» فسأله معاذ عن ذلك فقال: «إن جبريل عليه السلام أتاني فقال: يا محمد من سميت بين يديه فلم يصل عليك فمات فدخل النار فأبعده الله، قل: آمين. فقلت: آمين». وقال فيمن أدرك رمضان فلم يقبل منه فمات مثل ذلك، ومن أدرك أبويه أو أحدهما فلم يبرهما فمات مثله[(١)].

وعن علي رضي الله تعالى عنه أن رسول الله قال: «إن البخيل كل البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي»[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: أبو القاسم ﷺ: «أيما قوم جلسوا مجلسًا ثم تفرقوا قبل أن يذكروا الله ويصلوا على النبي ﷺ إلاَّ كانت عليهم من الله ترة، إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم»[(٣)].

---

(١) حديث صحيح جاء عن جماعة من الصحابة، منهم: مالك بن الحويرث، رواه ابن حبان رقم ٤٠٩ مع الإحسان، والطبراني في الكبير ١٩/ ٢٩١، قال في المجمع ١٠/ ١٦٦: فيه عمران بن أبان، وثقه ابن حبان وضعفه غير واحد، وبقية رجاله ثقات. ومنهم: كعب بن عجرة، رواه إسماعيل القاضي في فضل الصلاة على النبي ١٩، والطبراني في الكبير ١٩/ ١٤٤، والحاكم ٤/ ١٥٣، ١٥٤، وصححه ووافقه الذهبي، وقال في المجمع ١٠/ ١١٦: رجاله ثقات. ومنهم: أنس، عند إسماعيل القاضي ١٥. ومنهم: أبو هريرة، رواه إسماعيل ١٦ مختصرًا بسند صحيح، وإسماعيل ١٨، وابن حبان ٢٠٢٨، بالموارد مطولاً.

(٢) رواه أحمد ١/ ٢٠١، وابن حبان ٢٣٨٨، وإسماعيل القاضي ١٤/ ١٦، والحاكم ١/ ٥٤٩، من حديث الحسين بن علي عليهما السلام بسند صحيح، ورواه الترمذي ٣٣١٣ عن علي، وصححه. وهو كما قال، وذلك لشواهده.

(٣) رواه أحمد ٢/ ٤٨١، ٤٨٤، والترمذي ٣١٦٠، وابن حبان ٢٣٢٢، والحاكم ١/ ٥٥٠، وصححه على شرط البخاري ووافقه الذهبي، وهو عند أحمد وغيره =

تبليغ صلاة من صلَّى عليه أو سلَّم من الأنام

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد يسلم علي إلاَّ رد الله على روحي حتى أرد عليه السلام»[1].

وعن ابن مسعود: «إن لله ملائكة سيَّاحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام»[2].

وفي حديث أوس: «أكثروا علي من الصلاة يوم الجمعة فإن صلاتكم معروضة علي»[3].

= سنده صحيح. وقوله: «ترة» بكسر التاء، أي: نقص، وفي هذه الأحاديث ذم الغافلين عن الصلاة على النبي ﷺ وإهمالها وعدم الاهتمام بها، وما أكثر هذا الصنف من الناس وذلك لرقة دينهم وقلة محبتهم لهذا النبي العظيم. قال ابن العربي: فائدة الصلاة عليه ﷺ ترجع إلى الذي يصلي عليه؛ لدلالة ذلك على نصوع العقيدة وخلوص النية وإظهار المحبة والمداومة على الطاعة والاحترام للواسطة الكريمة ﷺ. ذكره الحافظ في الفتح من كتاب الدعوات.

(1) رواه أحمد ٢/ ٢٢٧، وأبو داود ٢٠٤١، والبيهقي ٥/ ٢٤٥، كلاهما في الحج والطبراني في الأوسط رقم ٤٤٩ وغيرهم بسند حسن وصححه النووي في رياض الصالحين، وجوده العراقي في المغني ١/ ٢٧٩. ومعنى الحديث: أنه يرد عليه نطقه. كما قال ابن الملقن وغيره. لما علم أنه حي على الدوام، وروحه لا تفارقه أبدًا، لما صح أن الأنبياء أحياء في قبورهم. وقال الحافظ: الأحسن أن يؤول برد الروح بحضور الفكر. وهنا أقوال أخرى في معناه ليس هذا موضع إيرادها.

(2) رواه أحمد ١/ ٣٨٧، والنسائي في باب السلام على النبي، آخر التشهد رقم ١٢١٥، والبزار رقم ٨٤٥ مع كشف الأستار، وسنده صحيح على شرط مسلم. وقال النور في المجمع ٩/ ٢٤ برواية البزار: رجاله رجال الصحيح. وصححه غير واحد من أهل الحديث. وهذه فضيلة هامة لنبيه ﷺ مع بشارة عظيمة لمن يسلم عليه في أرجاء الأرض.

(3) تقدم تخريجه ص ٣٦٩.

الاختلاف في الصلاة على غير النبي ﷺ وسائر الأنبياء عليهم السلام

قال أبو الفضل رحمه الله تعالى: عامة أهل العلم متفقون على جواز الصلاة على غير النبي ﷺ. فإن الصلاة في لسان العرب بمعنى الترحم والدعاء، وذلك على الإطلاق حتى يمنع منه حديث صحيح، أو إجماع.

وقد قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ...﴾ الآية[1] [الأحزاب: ٤٣]. وقال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣][2].

وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٧].

وقال النبي ﷺ: «اللّهم صلِّ على آل أبي أوفى»[3].

وكان إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: «اللّهم صلِّ على آل فلان»[4].

وفي حديث الصلاة: «اللّهم صلِّ على محمد وعلى أزواجه وذريته»، وفي آخر: «وعلى آل محمد»[5]. وآل الرجل: عشريته، وآل بيته. وقيل: هنا الذين حرمت عليهم الصدقة.

---

(١) ذكر البخاري عن أبي العالية أن الصلاة من الله تعالى ثناؤه على العبد عند الملائكة. وعلى هذا حمله ابن كثير، فانظره.

(٢) الصلاة هنا المراد بها الدعاء، باتفاق المفسرين.

(٣) هو حديث واحد رواه البخاري في الزكاة ٤/ ١٠٤، وفي المغازي وفي الدعوات، ومسلم ٧/ ١٨٤، ١٨٥، وغيرهما، كلهم في الزكاة، وهو من حديث عبد الله بن أبي أوفى.

(٤) نفس المرجع السابق.

(٥) تقدم تخريجها في كيفية الصلاة على رسول الله ﷺ ص ٣٧٠، ٣٧١.

قال أبو الفضل رحمه الله تعالى: والذي ذهب إليه المحققون وأميل إليه، ما قاله مالك وسفيان، وروي عن ابن عباس، واختاره غير واحد من الفقهاء والمتكلمين: أنه لا يصلي على غير الأنبياء عند ذكرهم، بل هو شيء مختص به الأنبياء توقيرًا وتعزيرًا، كما يخص الله تعالى عند ذكره بالتنزيه والتقديس والتعظيم، ولا يشاركه فيه غيره، كذلك يجب تخصيص النبي ﷺ وسائر الأنبياء بالصلاة والتسليم ولا يشارك فيه سواهم، كما أمر الله به بقوله: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ۝٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦]. ويذكر من سواهم من الأئمة وغيرهم بالغفران والرضى. كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠]. وقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

فهو ــ أي: السلام على غير الأنبياء ابتداءً وتخصيصًا ــ لم يكن معروفًا في الصدر الأول، وإنما أحدثه الرافضة والمتشيعة في بعض الأئمة فشاركوهم عند الذكر لهم بالصلاة وساووهم بالنبي ﷺ في ذلك. وأيضًا فإن التشبه بأهل البدع منهي عنه فتجب فيما التزموه من ذلك.

وذكر الصلاة على الآل والأزواج مع النبي ﷺ بحكم التبع والإضافة إليه لا على التخصيص، قالوا: وصلاة النبي ﷺ على من صلّى عليه مجراها مجرى الدعاء، والمواجهة، ليس فيها معنى التعظيم والتوقير. قالوا: وقد قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، فكذلك يجب أن يكون الدعاء له مخالفًا لدعاء الناس بعضهم لبعض[١].

---

(١) في هذا الموضوع بحث هام عند ابن القيم في الجلاء، وعند السخاوي في القول البديع. والصحيح أن ذلك جائز على الآل وأمهات المؤمنين والذرية بالتبعية مطلقًا وانفرادًا أحيانًا لمن لا يتخذه شعارًا وعادة. وصنيع البخاري في صحيحه يدل على الجواز عنده، وبهذا القول قال ابن راهويه وأبو ثور وداود وغيرهم.

زيارة قبر النبي ﷺ وحكم ذلك وأدبها

وزيارة قبره ﷺ سنَّة من سنن المسلمين، مجمع عليها، وفضيلة مرغب فيها. وهي داخلة بالأولى في قوله ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها»[١].

قال العلماء: ومما لم يزل من شأن من حج المرور بالمدينة والقصد إلى الصلاة في مسجد رسول الله ﷺ والتبرك برؤية روضته ومنبره ومجلسه وملامس يديه ومواطن قدميه والعمود الذي كان يستند إليه وينزل جبريل بالوحي فيه عليه وبمن عمره وقصده من الصحابة وأئمة المسلمين والاعتبار بذلك كله[٢].

وإذا دخل مسجد الرسول ﷺ يقول ما روته مولاتنا فاطمة عليها السلام أن النبي ﷺ قال: «إذا دخلت المسجد فصل على النبي ﷺ وقل: اللّهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرجت فصل على النبي ﷺ وقل: اللّهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك»[٣].

ثم يقصد الروضة الشريفة ـ وهي: ما بين القبر والمنبر ـ فيركع فيها ركعتين قبل الزيارة فيحمد الله تعالى ويسأله تمام ما خرج إليه. وإن صلَّى في أي بقعة من المسجد أجزأه، وفي الروضة أفضل فقد قال ﷺ:

---

(١) رواه مسلم.

(٢) وقال النووي في شرح المهذب: واعلم أن زيارة قبر رسول الله ﷺ من أهم القربات وأنجح المساعي. وقال الشوكاني في نيل الأوطار: وزيارة قبره ﷺ من السنن الواجبة كما قال عبد الحق... إلخ، فاعجب أيها المسلم لبعض الفرق الضالة التي تمنع من زيارة المدينة ومن زارها منهم لا يدخل إلى المسجد النبوي الشريف فضلاً عن زيارة قبره المقدس ﷺ وهؤلاء أضل من فراشة.

(٣) تقدم تخريجه ص ٣٦٩.

«ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على تُرعة من تُرع الجنة»[1].

ثم يذهب فيقف أمام القبر الشريف متواضعًا متوقرًا فيصلي، ويسلم عليه بما يحضره، ويكفي: «السلام عليك أيها النبي، ورحمة الله وبركاته» ثم يسلم على أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما ويدعو لهما بما هو لهما أهل.

قال نافع رحمه الله تعالى: كان ابن عمر رضي الله تعالى عنهما يسلم على القبر، رأيته مائة مرة وأكثر يجيء إلى القبر فيقول: «السلام على النبي ﷺ، السلام على أبي بكر، السلام على أبي. ثم ينصرف»[2].

وقال مالك رحمه الله تعالى: إذا سلم على النبي ﷺ ودعا يقف ووجهه إلى القبر لا إلى القبلة ويدنوا ويسلم ولا يمس القبر بيده.

وفي رواية عنه: لا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ يدعو ولكنه يسلم ويمضي[3].

فضل المدينة ومكة والمنبر والقبر وفضل الصلاة في الحرمين

قال الله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة: ١٠٨].

---

(١) رواه أحمد ٢/ ٤٠١، والبخاري ٤/ ٤٧١، في الحج وفي مواضع، ومسلم آخر الحج ٩/ ١٦١، ١٦٢. ورواية: «ومنبري على ترعة...» إلخ، رواه أحمد ٢/ ٥٣٤ بسند صحيح. والحديث وارد من طرق. و «الترعة» بضم التاء: الباب.

(٢) رواه البيهقي في السنن ٥/ ٣٤٥، وغيره.

(٣) كيفية الزيارة وآدابها مفصلة في كتب الفقه الإسلامي على سائر المذاهب.

جاء أن النبي ﷺ سئل: أي مسجد هو؟ قال: «مسجدي هذا»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تشد الرحال إلاَّ إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»[2].

وعن أبي هريرة أيضًا عنه ﷺ قال: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلاَّ المسجد الحرام»[3].

وهذا الاستثناء على ظاهره وأن الصلاة في المسجد الحرام أفضل؛ لحديث ابن الزبير رضي الله تعالى عنهما بمثل حديث أبي هريرة وفيه: «وصلاة في المسجد الحرام أفضل من الصلاة في مسجدي هذا بمائة صلاة»[4].

---

(١) رواه أحمد ٥/١١٦، ومسلم في الحج ٩/١٦٨، ١٦٩ من حديث أبي سعيد الخدري، وهذا لا ينافي أن مسجد قباء الذي نزلت فيه آية: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ﴾ [التوبة: ١٠٨]، ثم هو ممن أسس على التقوى.

(٢) رواه أحمد ٢/٢٧٨، ٢٣٤، ٢٣٨، والبخاري، في التطوع ٣/٢٠٦، ومسلم آخر الحج ٩/١٦٧، ١٦٨، وغيرهم. ففي الحديث أن شد الرحال للسفر إلى مسجد من المساجد ليصلى فيه لا يكون إلاَّ لهذه الثلاثة لما لها من الامتياز والفضل لكونها مساجد مواطن الوحي والديانات الإلـٰهية.

(٣) رواه أحمد ٢/٢٣٩، ٤٦٦، ٤٩٩، وفي مواضع، والبخاري في التطوع ٣/٣٠٨، ٣٠٩، ومسلم في الحج ٩/١٦٣، ورواه باقي الجماعة، وأخرجه مسلم وغيره عن ابن عمر وميمونة رضي الله تعالى عنهما.

(٤) رواه أحمد ٤/٥، وابن حبان ٤/٥٩٩، بسند صحيح. ويزيد هذا بيانًا حديث جابر رضي الله تعالى عنه الذي يقول فيه ﷺ: «صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلاَّ المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه». رواه أحمد ٣/٣٤٣، ٣٩٧، وابن ماجه رقم ١٤٠٦، وسنده صحيح.

فيأتي فضل الصلاة في المسجد الحرام على هذا على الصلاة في سائر المساجد بمائة ألف. ولا خلاف أن موضع قبره ﷺ أفضل بقاع الأرض[1]. وقد تقدم حديث: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة» والبيت هنا بيت سكناه وهو موضع قبره الذي دفن فيه ﷺ وكان بيتًا لعائشة رضي الله تعالى عنها.

وقوله في تتمة هذا الحديث كما سبق: «ومنبري على حوضي» قيل: إن منبره بعينه الذي كان في الدنيا، وهو الظاهر. وقيل: يكون له هناك منبر آخر. وقيل: إنّ قَصْدَ مِنْبَرِي والحضور عنده لملازمة الأعمال الصالحة يورد الحوض ويوجب الشرب منه. والأول هو الظاهر. وقوله: «روضة من رياض الجنة». يحتمل معنيين: أحدهما: أنه موجب لذلك وأن الدعاء والصلاة فيه يستحق ذلك من الثواب كما قال ﷺ: «الجنة تحت ظلال السيوف»[2]. والثاني: أن تلك البقعة قد ينقلها الله تعالى فتكون في الجنة بعينها. قاله الداودي.

وروى ابن عمر وجماعة من الصحابة رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال في المدينة: «لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلاَّ كنت له شهيدًا أو شفيعًا يوم القيامة»[3].

وقال ﷺ فيمن تحمل عن المدينة: «والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون»[4].

---

(١) وكذا قال السيوطي في الخصائص وغيره.

(٢) رواه البخاري في الجهاد ٦/ ٣٧٤، وفي مواضع من حديث عبد الله بن أبي أوفى، ورواه مسلم في فضل الجهاد ١٣/ ٤٦ من حديث عبد الله بن قيس.

(٣) رواه أحمد ٢/ ١٥٥، ومسلم ٩/ ١٥١، ١٥٢، والترمذي ٣٦٨٢، آخر المناقب عن ابن عمر، ونحوه أبي هريرة عند مسلم ٩/ ١٥٢، والترمذي ٣٦٨٨ وغيرهما.

(٤) هذا وارد عن سفيان بن أبي زهير، رواه البخاري ٤/ ٤٦٣، ومسلم ٩/ ١٥٨، ١٥٩، كلاهما في الحج. وعن أبي هريرة عند مسلم ٩/ ١٥٣ وغيره.

وقال: «المدينة كالكير تنفي خبثها وتنصع طيِّبها»[1].

وقال: «لا يخرج أحد من المدينة رغبة عنها إلاَّ أبدلها الله خيرًا منه»[2].

وقال ﷺ: «من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها، فإني أشفع لمن يموت بها»[3].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ﴾[4] [آل عمران: ٩٦].

---

(١) رواه البخاري آخر الحج ٤/٤٦٨، ومسلم ٩/١٥٥ كذلك، عن جابر. وقوله: «وتنصع طيبها» ضبطت بالتاء والياء، والصحيح الأول. و «طيبها» بفتح الطاء وتشديد الياء المكسورة وفتح الباء على المفعولية، ومعناه: أنها إذا نفت الخبيث من الناس خلصت ونفت الخبث عن الطيب وتميز واستقر بها.

(٢) جاء هذا في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه، رواه أحمد ١/١٨١، ١٨٥، ومسلم آخر الحج ٩/١٣٦ مطولاً كما جاء أيضًا في حديث أبي هريرة عند أحمد ٢/ ٤٣٩، ومسلم ٩/ ١٥٣. وقد تقدم تخريجه قبل حديث.

(٣) رواه أحمد ٢/ ٧٤، ١٠٤، والترمذي آخر المناقب ٣٦٨١، وابن ماجه ٣١١٢، وابن حبان ١٠٣١ بسند صحيح وحسنه الترمذي وصححه.
وفي هذه الأحاديث من فضائل مدينة الرسول ﷺ ما لا يخفى، وحق لها ذلك، فإنها مسكن أفضل العالمين ومضجع سيد الأولين والآخرين ﷺ وأزواجه وصحابته الطيبين الطاهرين.

(٤) لقد قصر القاضي رحمه الله تعالى جدًا في ذكر فضائل مكة المكرمة، واقتصاره على هذه الآية الوحيدة، رغم أن القرآن الكريم أشاد بهذا الحرم العظيم في كثير من الآي كقوله تعالى: ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ ﴾ [المائدة: ٩٧]، وقوله عز وجل: ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ [القصص: ٥٧]، وقوله جل ثناؤه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا =

قال بعض المفسرين: آمِنًا من النار. وقيل: آمِنًا به من الطلب مَنْ أحدث حدثًا خارج الحرم ولجأ إليه، كما كان في الجاهلية، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥]، على قول بعضهم والله أعلم وأحكم.

❊ ❊ ❊

= وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقوله: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ﴾ [قريش: ٣]، يضاف إلى هذا قسمه تعالى بهذا الحرم الأمين كقوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ ﴾ [البلد: ١، ٢]، وقوله: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ ﴾ [التين: ١ ــ ٣]، إلى غير ذلك مما جاء في القرآن الكريم. وهذا عدا ما جاء في السنة المطهرة من الأحاديث الصحيحة المعروفة المشهورة في الصحيح وغيرها.

القسم الثالث

فيما يجب للنبي ﷺ، وما يستحيل في حقه أو يجوز، وما يمتنع أو يصح من الأحوال البشرية أن يضاف إليه ﷺ

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ. . . ﴾ الآية [آل عمران: ١٤٤].

وقال تعالى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ [المائدة: ٧٥].

وقال عز من قائل: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ. . . ﴾ الآية[1] [الكهف: ١١٠].

---

(١) المقصود بإيراد هذه الآيات الاستدلال بها على أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم هم بشر تجري عليهم العوارض البشرية فهم مخلوقون تناسلوا من آدم أبي البشرية وأنهم يأكلون ويشربون ويخالطون الناس في أسواقهم ومجامعهم، وفي التالي يموتون كما يموت سائر البشر، وإنما امتازوا عن غيرهم بالوحي الإلـهي، وتبليغ رسالات ربهم وما تفضل الله به عليهم من الاصطفاء.

فرسولنا محمد ﷺ وسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من البشر أرسلوا إلى البشر، ولولا ذلك لما أطاق الناس مقاومتهم والقبول عنهم ومخاطبتهم. وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩]، أي: لما كان إلاَّ في صورة البشر الذين يمكنكم مخالطتهم، إذ لا تطيقون مقاومة الملك ومخاطبته ورؤيته إذا كان على صورته.

وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء: ٩٥]، أي: لا يمكن في سنَّة الله إرسال الملك إلاَّ لمن هو من جنسه أو من خصه الله تعالى واصطفاه وقواه على مقاومته كالأنبياء والرسل.

فالأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم وسائط بين الله تعالى وبين خلقه يبلغونهم أوامره ونواهيه، ووعده ووعيده، ويعرفونهم بما لم يعلموه من أمره وخلقه وجلاله وسلطانه، وجبروته وملكوته. فظواهرهم وأجسادهم وبنيتهم متصفة بأوصاف البشر، طارىء عليها ما يطرأ على البشر من الأعراض والأسقام، والموت والفناء ونعوت الإنسانية. وأرواحهم وبواطنهم متصفة بأعلى من أوصاف البشر متعلقة بالملأ الأعلى، متشبهة بصفات الملائكة، سليمة من التغير والآفات، لا يلحقها غالبًا عجز البشرية ولا ضعف الإنسانية. إذ لو كانت بواطنهم خالصة للبشرية كظواهرهم لما أطاقوا الأخذ عن الملائكة ورؤيتهم ومخاطبتهم ومخالطتهم، كما لا يطيقه غيرهم من البشر، ولو كانت أجسادهم وظواهرهم متسمة بنعوت الملائكة وبخلاف صفات البشر لما أطاق البشر ومن أرسلوا إليه مخالطتهم، فجعلوا من جهة الأجسام والظواهر مع البشر، ومن جهة الأرواح والبواطن مع الملائكة[١].

---

(١) وهذا من لطف الله ورحمته بعباده وحكمته العظيمة.

كما قال ﷺ: «لو كنت متخذًا من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام، لكن صاحبكم خليل الرحمن»[1]. وكما قال ﷺ: «تنام عيناي ولا ينام قلبي»[2]. وقوله: «إني لست كهيئتكم؛ إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني»[3]. فبواطنهم منزهة عن الآفات، مطهرة عن النقائص والاعتلالات.

وإليكم تفصيل ما ذكرناه وذلك في بابين:

❊ ❊ ❊

---

(١) تقدم تخريجه والكلام على الخلة. انظر ص ١٨٦، ١٨٧.

(٢) تقدم تخريجه أيضا ص ١٠٢.

(٣) رواه البخاري ٥/ ١٠٩، ١١٠، ومسلم ٧/ ٢٢٢ كلاهما في الصيام عن أبي هريرة. وهذا الإطعام أو السقي ليسا من الماديات وإلا لم يكن صائمًا، والكلام في هذا الموضوع الروحاني طويل الذيل يحتاج إلى بسط.

الباب الأول

فيما يختص بالأمور الدينية والكلام في عصمة[1] نبينا ﷺ وسائر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم

اعلم أن الطوارىء من التغيرات والآفات على آحاد البشر لا يخلو أن تطرأ على جسمه أو على حواسه بغير قصد واختيار، كالأمراض والأسقام، أو تطرأ بقصد واختيار، وكله في الحقيقة عمل وفعل، ولكن جرى رسم المشايخ بتفصيله إلى ثلاثة أنواع: عقد بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالجوارح. وجميع البشر تطرأ عليهم الآفات والتغيرات بالاختيار وبغير الاختيار في هذه الوجوه كلها. والنبي ﷺ وإن كان من البشر ويجوز على جبلته ما يجوز على جبلة البشر، فقد قامت البراهين القاطعة وتمت كلمة الإجماع على خروجه عنهم، وتنزيهه عن كثير من الآفات التي تقع على الاختيار، كما سنبينه إن شاء الله تعالى فيما نأتي به في الآتي من التفصيل.

---

(١) العصمة يراد بها الحفظ من المعصية والمنع من جميع الذنوب أيًّا كانت، وهذا لا يكون إلاَّ للأنبياء والملائكة، أما سائر البشر فغير معصومين لقوله ﷺ: «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»، رواه الترمذي وغيره، نعم قد يقع الحفظ من المعصية لبعض أولياء الله تعالى ومع ذلك فيجوز صدور الذنب منهم بخلاف الأنبياء.

حكم عقد قلب نبينا ﷺ من وقت نبوته

اعلم منحنا الله تعالى وإياك توفيقه أن ما تعلق منه بطريق التوحيد والعلم بالله وصفاته والإيمان به وبما أوحى إليه فعلى غاية المعرفة ووضوح العلم واليقين والإيمان به وبما أوحى إليه فعلى غاية المعرفة ووضوح العلم واليقين والانتفاء عن الجهل بشيء من ذلك أو الشك أو الريب فيه والعصمة من كل ما يضاد المعرفة بذلك واليقين.

هذا ما وقع إجماع المسلمين عليه ولا يصح بالبراهين الواضحة أن يكون في عقود الأنبياء سواه. ولا يعترض على هذا بقول الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

إذ لم يشك إبراهيم في إخبار الله تعالى بإحياء الموتى، ولكن أراد طمأنينة القلب وترك المنازعة لمشاهدة الإحياء، فجعل له العلم الأول بوقوعه، وأراد العلم الثاني بكيفيته ومشاهدته.

الوجه الثاني: أن الخليل عليه السلام إنما أراد اختبار منزلته عند ربه، وعلم إجابته دعوته بسؤال ذلك من ربه، ويكون قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ [البقرة: ٢٦٠]، أي تصدِّق بمنزلتك مني وخلَّتك واصطفائك؟!

الوجه الثالث: أنه سأل زيادة يقين وقوة طمأنينة، وإن لم يكن في الأول شك إذ العلوم الضرورية والنظرية قد تتفاضل في قوتها، وطريان الشكوك على الضروريات ممتنع ويجوز في النظريات، فأراد الانتقال من النظر والخبر إلى المشاهدة، والترقي من علم اليقين إلى عين اليقين. «فليس الخبر كالمعاينة»[1].

---

(١) هذا طرف من حديث رواه أحمد ١/ ٢٧١، والحاكم ٢/ ٣٢١، عن ابن عباس بسند صحيح، وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي.

الوجه الرابع: أنه لما احتج على المشركين بأن ربه يحي ويميت طلب ذلك من ربه ليصح احتجاجه عيانًا.

الوجه الخامس: قول بعضهم: هو سؤال على طريق الأدب، المراد. أقدرني على إحياء الموتى. وقوله: ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠] عن هذه الأمنية.

الوجه السادس: أنه رأى من نفسه الشك وما شك، لكن ليجاوب فيزداد قربه. وقول نبينا ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»[(١)] نفي لأن يكون إبراهيم شك، وإبعاد للخواطر الضعيفة أن تظن هذا بإبراهيم، أي: نحن موقنون بالبعث وإحياء الله الموتي، فلو شك إبراهيم لكنا أولى بالشك منه، إما على طريق الأدب، أو أن يريد أمته الذين يجوز عليهم الشك، أو على طريق التواضع والإشفاق إن حملت قصة إبراهيم على اختيار حاله أو زيادة يقينه.

فإن قلت: فما معنى قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ...﴾ الآية [يونس: ٩٤].

فاحذر ثبت الله قلبك أن يخطر ببالك ما ذكره فيه بعض المفسرين من إثبات شك للنبي ﷺ فيما أوحي إليه وأنه من البشر، فمثل هذا لا يجوز عليه جملة، بل قد قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لم يشك النبي ﷺ ولم يسأل. ونحوها عن ابن جبير والحسن وقتادة، وعامة المفسرين على هذا[(٢)].

---

(١) رواه أحمد ٢/٣٢٦، والبخاري في الأنبياء، وفي التفسير من البقرة، ومسلم في الفضائل ١٥/ ١٢٣، وهو من حديث أبي هريرة مطولاً. وانظر كتابي: العبر.

(٢) وانظر ابن جرير ١١/ ١٦٨، وابن كثير ٣/ ٥٢٩.

واختلفوا في معنى الآية، فقيل: المراد: قل يا محمد للشاك: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ...﴾ الآية [يونس: ٩٤]. قالوا: وفي السورة نفسها ما دل على هذا التأويل، وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي...﴾ الآية [يونس: ١٠٤]. وقيل: المراد بالخطاب العرب وغير النبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ﴾ [هود: ١٠٩].

ونظيره كثير، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ...﴾ الآية [يونس: ٩٥]، وهو ﷺ كان المكذَّب فيما يدعو إليه، فكيف يكون ممن كذب به؟ فهذا كله يدل على أن المراد بالخطاب غيره.

وقيل: إن هذا الشك الذي أمر به غير النبي ﷺ بسؤال الذين يقرؤون الكتاب إنما هو فيما قصد الله من أخبار الأمم لا فيما دعا إليه من التوحيد والشريعة. وقيل غير ذلك.

فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ [يوسف: ١١٠] على قراءة تخفيف الذال.

قلنا: المعنى في ذلك ما قالته مولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها: معاذ الله أن تظن ذلك الرسل بربها، وإنما معنى ذلك أن الرسل لما استيأسوا ظنوا أن من وعدهم النصر من أتباعهم كذَّبوهم وعلى هذا أكثر المفسرين[1].

وكذلك ما ورد في حديث مبدأ الوحي من قوله ﷺ لخديجة رضي الله تعالى عنها: «لقد خشيت على نفسي»[2] ليس معناه الشك فيما أتاه الله بعد

---

(١) وهو الذي اختاره شيخ المفسرين ابن جرير ووجه ما قاله الجمهور، ورد ما عداه وزيفه، انظر: ١٣/ ٨٦، ٨٧. وأثر عائشة رضي الله تعالى عنها رواه البخاري في تفسير سورة يوسف ٩/ ٤٤٠، ٤٤١، وانظر ما قاله الحافظ هنالك.

(٢) رواه البخاري في بدء الوحي ١/ ٢٤، ٣٠، وفي الأنبياء ٧/ ٢٣٣، وفي التفسير ٨/ ٣٤٤، ٣٥٠ وفي التعبير، ومسلم في الإيمان ٢/ ١٩٧، ٢٠٤ وغيرهما.

رؤية الملك، ولكن لعله خشي أن لا تحتمل قوته مقاومة الملك وأعباء الوحي فينخلع قلبه هذا على ما ورد في الصحيح أنه قاله بعد لقائه الملك.

أو يكون ذلك قبل لقائه وإعلام الله تعالى له بالنبوة لأول ما عرضت عليه من العجائب، وسلم عليه الحجر والشجر، وبدأته المنامات والتباشير. كما روي في بعض طرق هذا الحديث أن ذلك كان أولاً في المنام، ثم أري في اليقظة مثل ذلك تأنيسًا له عليه الصلاة والسلام لئلاً يفجأه الأمر مشاهدة ومشافهة فلا يحتمله لأول حالة ببنيته البشرية.

ففي الصحيح عن سيدتنا عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة قالت: ثم حبب إليه الخلاء، وقالت: إلى أن جاءه الحق وهو في غار حراء... الحديث(١).

وفي رواية: أنه ﷺ قال لخديجة رضي الله تعالى عنها: «إني لأسمع صوتًا وأرى ضوءًا وأخشى أن يكون بي جنون»(٢).

وعلى هذا يتأول ما رأى وأنه كان كله في ابتداء أمره وقبل لقاء الملك له وإعلام الله له أنه رسوله، وأما بعد إعلام الله تعالى ولقائه الملك فلا يصح فيه ريب، ولا يجوز عليه شك فيما ألقي إليه ﷺ.

فإن قيل: فما معنى قوله ﷺ: «إنه ليغان على قلبي، فأستغفر الله كل يوم مائة مرة»، وفي رواية: «في اليوم أكثر من سبعين مرة»(٣).

---

(١) نفس المرجع السابق. وقد تقدم ص ١١٥.

(٢) رواه أحمد وغيره من حديث ابن عباس، ورجاله رجال الصحيح كما في المجمع رقم ١٩٣٠.

(٣) الرواية الأولى رواها أحمد ٤/ ٢١١، ٢٦٠، ومسلم في الدعوات ١٧/ ٢٣ وغيرهما، من حديث الأغر المزني. والثانية رواها النسائي وابن حبان عن أنس، لكن بلفظ: «إني لأتوب إلى الله في اليوم سبعين مرة»، وقد تقدم تخريجه بأبسط من هذا ص ١٥٥.

فاحذر أن يقع ببالك أن يكون هذا الغين وسوسة أو ريبًا وقع في قلبه ﷺ، بل أصل الغين في هذا ما يتغشى القلب ويغطيه، وأصله من غين السماء، وهو إطباق الغيم عليها. وقيل: هو شيء يغشى القلب ولا يغطيه كل التغطية كالغيم الذي يعرض في الهواء ولا يمنع ضوء الشمس[1]. وكذلك لا يفهم من الحديث أنه يغان على قلبه مائة مرة أو أكثر من سبعين فيْ اليوم؛ إذ ليس يقتضيه اللفظ الذي ذكرناه، وإنما هو عدد للاستغفار لا للغين.

فيكون المراد بهذا الغين إشارة إلى غفلات قلبه وفترات نفسه وسهوها عن مداومة الذكر ومشاهدة الحق بما كان ﷺ دفع إليه من مقاساة البشر وسياسة الأمة ومعاناة الأهل ومقاومة الولي والعدو ومصلحة النفس وما كلف به من أعباء أداء الرسالة وحمل الأمانة، وهو في كل هذا في طاعة ربه وعبادة خالقه.

ولكنه لما كان ﷺ أرفع الخلق عند الله مكانة وأعلاهم درجة، وأتمهم به معرفة، وكانت حاله عند خلوص قلبه وخلو همه وتفرده بربه وإقباله بكليته عليه، ومقامه هنالك أرفع حاليه؛ رأى ﷺ حال فترته عنها وشغله بسواها غضًا من عُلا حاله وخفضًا من رفيع مقامه؛ فاستغفر الله من ذلك[2].

هذا أولى وجوه الحديث وأشهرها. وإلى معنى ما أشرنا إليه مال كثير من الناس. وهذا مبني على جواز الفترات والغفلات والسهو عليه ﷺ في غير طريق البلاغ على ما سيأتي.

وذهبت طائفة من أرباب القلوب ومشيخة المتصوفة ــ ممن قال بتنزيه

---

(١) وانظر شرح النووي على مسلم ١٧/ ٢٤، وتفسير ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم . . . ﴾ الآية [المطففين: ١٤]، وكتابي جواهر البحار رقم حديث ٥٦٤.

(٢) من باب (حسنات الأبرار سيآت المقربين) كما يقال.

النبي ﷺ عن هذا جملة، وأجله أن يجوز عليه في حال سهو أو فترة ـ إلى أن معنى الحديث ما يُهِمُّ خاطره ويغم فكره من أمر أمته ﷺ لاهتمامه بهم وكثرة شفقته عليهم فيستغفر لهم.. قالوا: وقد يكون الغين هنا على قلبه: السكينة تتغشاه. لقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ﴾ [الفتح: ٢٦]. ويكون استغفاره ﷺ عندها إظهارًا للعبودية والافتقار.

وقد يحتمل أن يكون هذا الغين حالة خشية وإعظام تغشى قلبه فيستغفر حينئذٍ شكرًا لله وملازمة لعبوديته[1] كما قال في ملازمة العبادة: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»[2].

فإن قلت: فما معنى قوله تعالى لرسوله حبيبنا محمد ﷺ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنعام: ٣٥]، وقوله لنوح عليه السلام: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود: ٤٦].

فاعلم أنه لا يلتفت في ذلك إلى قول من قال في آية نبينا ﷺ: لا تكونن ممن يجهل أن الله لو شاء لجمعهم على الهدى، وفي آية نوح عليه السلام: لا تكونن ممن يجهل أن وعد الله حق، لقوله: ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ [هود: ٤٥]، إذ فيه إثبات الجهل بصفة من صفات الله تعالى وذلك لا يجوز على الأنبياء[3]. والمقصود: وعظهم أن لا يتشبهوا في أمورهم بسمات

---

(١) كل ما قاله يحتمله الحديث، وليس هناك ما يرجح أحد الاحتمالات على غيرها، قال ابن كثير: والرين يعتري قلوب الكافرين، والغيم للأبرار، والغين للمقربين.

(٢) تقدم تخريجه في عبادته ﷺ ص ١٥٣.

(٣) فإن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لا يجهلون ولا يجوز في حقهم أن يجهلوا أن الله عز وجل يفعل ما يشاء ويقضي ما يريد، فهم يعلمون على يقين أنه تعالى لو أراد لخلق العباد كلهم مؤمنين أو كافرين، وإنما المعنى: فلا تكن بالحرص =

الجاهلية، كما قال: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ﴾ [هود: ٤٦] وليس في آية منها دليل على كونهم على تلك الصفة التي نهاهم عن الكون عليها، فكيف وآية نوح عليه السلام قبلها ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ فحمل ما بعدها على ما قبلها أولى، لأن مثل هذا قد يحتاج إلى أذن، وقد تجوز إباحة السؤال فيه ابتداء فنهاه الله أن يسأله عما طوى عنه علمه وأكنه من غيبه من السبب الموجب لهلاك ابنه، ثم أكمل الله تعالى نعمته عليه بإعلامه ذلك بقوله عز وجلّ: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: ٤٦]. كذلك أمر نبينا ﷺ في الآية الأخرى بالتزام الصبر على إعراض قومه، ولا يَجْزَعُ عند ذلك فيقارب حال الجاهل بشدة التحسر(١).

وقيل: الخطاب للأمة، أي: فلا تكونوا من الجاهلين. ومثله في القرآن كثير.

فبهذا الفصل وجب القول بعصمة الأنبياء منه بعد النبوة قطعًا.

فإن قلت: فإذا قررت عصمتهم من هذا وأنه لا يجوز عليهم شيء من ذلك. فما معنى إذًا وعيد الله تعالى لنبينا ﷺ على ذلك إن فعله وتحذيره منه؟ كقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ...﴾ الآية [يونس: ١٠٦]. وقوله: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ...﴾ الآية

= الشديد على إسلامهم أو الميل إلى نزول مقترحاتهم ـ من قوم ينسبون إلى الجهل بدقائق شؤونه تعالى. قاله الآلوسي.

(١) بنحو هذا قال الجبائي المعتزلي كما نقله عنه الآلوسي. ويقاربه قول الرازي، حيث قال: والمقصود أنه لا ينبغي أن يشتد تحسرك على تكذيبهم، ولا يجوز أن تجزع من إعراضهم عنك، فإنك لو فعلت ذلك قرب حالك من حال الجاهل. والمقصود من تغليظ الخطاب: التبعيد والزجر له عن مثل هذه الحالة. اهـ. ١٢/ ١٧٢.

[الإسراء: ٧٥]. وقوله: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۝ ...﴾ الآيات [الحاقة: ٤٥، ٤٦]. وقوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]. وقوله: ﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ الآية [الشورى: ٢٤]. وقوله: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧]. وقوله: ﴿اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

فاعلم وفقنا الله وإياك أنه ﷺ لا يصح ولا يجوز عليه أن لا يبلغ، ولا أن يخالف أمر ربه، ولا أن يشرك به، ولا أن يتقول على الله ما لا يجب أو يفتري عليه، أو يضل أو يختم على قلبه، أو يطيع الكافرين، لكن يسَّر أمره بالمكاشفة والبيان في البلاغ للمخالفين، وأن إبلاغه إن لم يكن بهذه السبيل فكأنه ما بلغ.

ثم طيب نفسه وقوى قلبه بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، كما قال لموسى وهارون عليهما الصلاة والسلام: ﴿لَا تَخَافَا﴾ [طه: ٤٦] لتشتد بصائرهم في الإبلاغ وإظهار دين الله ويذهب عنهم خوف العدو المضعف للنفس.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۝﴾ [الحاقة: ٤٤]، وقوله: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ﴾ [الإسراء: ٧٥]، فمعناه: أن هذا جزاء من فعل هذا وجزاؤك لو كنت ممن يفعله، وهو ﷺ لا يفعله[1].

وكذلك قوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]. فالمراد غيره، كما قال: ﴿إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ الآية [آل عمران: ١٤٩].

---

(١) هذا الذي لا يجوز اعتقاد غيره في حقه ﷺ وحق غيره من سائر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

وقوله: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤]، وقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وما أشبهه فالمراد غيره، وأن هذه حال من أشرك. والنبي ﷺ لا يجوز عليه هذا.

وقوله: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، فليس فيه أنه أطاعهم. والله ينهاه عما يشاء، ويأمر بما يشاء كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ . . .﴾ الآية [الأنعام: ٥٢]، وما كان طَرَدَهم ﷺ ولا كان من الظالمين.

عصمة الأنبياء من هذا النوع قبل النبوة

وأما عصمتهم من هذا الفن قبل النبوة فللناس فيه خلاف. والصواب أنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته، والتشكك في شيء من ذلك.

وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا ونشأتهم على التوحيد والإيمان، ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحدًا نُبِّىء واصطفي ممن عرف بكفر وإشراك قبل ذلك، ومستند هذا الباب النقل. وقد استدل بعضهم بأن القلوب تنفر عمن كانت هذه سبيله، وهذه قريش قد رمت نبينا ﷺ بكل ما افترته، وعير كفار الأمم أنبياءها بكل ما أمكنها واختلقته مما نهى الله تعالى عنه أو نقلته إلينا الرواة، ولم نجد في شيء من ذلك تعييرًا لواحد منهم برفضه آلهته وتقريعه بذمه بترك ما كان قد جامعهم عليه، ولو كان هذا لكانوا بذلك مبادرين ومحتجين به، ولكان توبيخهم له بنهيهم عما كان يعبد قبل أفظع وأقطع في الحجة من توبيخه عن تركهم آلهتهم وما كان يعبد آباؤهم من قبل، ففي إطباقهم على الإعراض عنه دليل على أنهم لم يجدوا سبيلاً إليه؛ إذ لو كان لنقل وما سكتوا عنه كما لم

يسكتوا عند تحويل القبلة، وقالوا: ﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ [البقرة: ١٤٢]، كما حكاه الله تعالى عنهم.

وقد استدل القاضي القشيري رحمه الله تعالى على تنزيههم عن هذا بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ . . . ﴾ الآية [الأحزاب: ٧]. وبقوله جل وعلا: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ . . . ﴾ الآية إلى قوله: ﴿ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾ [آل عمران: ٨١].

قال: وطهره الله في الميثاق، وبعيد أن يأخذ منه الميثاق قبل خلقه ثم يأخذ ميثاق النبيين بالإيمان به ونصره قبل مولده بدهور، ويجوزُ عليه الشرك أو غيره من الذنوب. هذا ما لا يُجوِّزه إلاَّ ملحد.

وكيف يكون ذلك وقد أتاه جبريل عليه السلام وشق قلبه صغيرًا، واستخرج منه علقةً، وقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله وملأه حكمة وإيمانًا[1]، كما تظاهرت به أخبار المبدإ، ولا يشبه عليك بقول الخليل إبراهيم عليه السلام في الكواكب والقمر والشمس ﴿ هَـٰذَا رَبِّى ﴾ [الأنعام: ٧٦]. فإنه قد قيل: كان هذا في سن الطفولة وابتداء النظر والاستدلال، وقبل لزوم التكليف. وذهب معظم الحذاق من العلماء والمفسرين[2] إلى أنه إنما قال ذلك مبكتًا لقومه ومستدلاً عليهم. .

ويدل على أنه لم يعبد شيئًا من ذلك ولا أشرك قط بالله طرفة عين قول الله عزَّ وجل عنه: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾، ثم قال: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الشعراء: ٧٠ ــ ٧٧]. وقال: ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الصافات: ٨٤]، وقوله: ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

---

(١) رواه مسلم في الإسراء من كتاب الإيمان ٢/ ٢١٦، ٢١٧ من حدث أنس.

(٢) وانظر هذه الأقوال عند ابن جرير ٧/ ٢٤٩، ٢٥٠.

فإن قلت: فما معنى قوله تعالى: ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ [الأنعام: ٧٧]. قيل: إنه إن لم يؤيدني بمعونته أكن مثلكم في ضلالتكم وعبادتكم، على معنى الإشفاق والحذر، وإلاَّ فهو معصوم في الأزل من الضلال[١].

فإن قلت: فما معنى قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [إبراهيم: ١٣]، ثم قال بعد عن الرسل: ﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾ [الأعراف: ٨٩] فلا يشكل عليك لفظة العود، وإنها تقتضي أنهم إنما يعودون إلى ما كانوا فيه من ملتهم، فقد تأتي هذه في كلام العرب لغير ما ليس ابتداء بمعنى الصيرورة، كما جاء في حديث الجهنميين: «عادوا حُمَمًا»[٢]، أي: صاروا فحمًا سودًا. ولم يكونوا قبل كذلك.

فإن قلت: فما معنى قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضحى: ٧]. فالجواب: أن هذا ليس من الضلال الذي هو الكفر، بل معناه، ضالاً عن النبوة فهداك إليها. أو: وجدك بين أهل الضلال فعصمك من ذلك وهداك للإيمان وإلى إرشادهم. أو ضالاً عن شريعتك، أي: لا تعرفها فهداك إليها. والضلال هنا التحير، ولهذا كان ﷺ يخلو بغار[٣] حراء في طلب ما يتوجه به إلى ربه ويتشرع به حتى هداه الله إلى الإسلام. ومثل هذا قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ [النساء: ١١٣]، ولا يعلم أن أحدًا من المفسرين قال في الآية: ضالاً عن الإيمان.

---

(١) هذا مما لا ينبغي أن يشك فيه في جانب جميع الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه.

(٢) رواه البخاري في الرقاق، ومسلم في الإيمان في حديث الشفاعة الطويل. والحمم بضم الحاء: الفحم.

(٣) تقدم قريبًا ص ٣٩٢.

وكذلك في قصة موسى عليه الصلاة والسلام، قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٠]، أي: من المخطئين الفاعلين شيئًا بغير قصد، وأما قوله تعالى في شأن إخوة يوسف مع أبيهم يعقوب عليه السلام: ﴿ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ ﴾ [يوسف: ٩٥]، أي: محبتك القديمة، ولم يريدوا ههنا في الدين، إذ لو قالوا ذلك في نبي الله لكفروا. ومثله قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [يوسف: ٣٠]، أي محبة بينة. فالضلال قد يطلق على المحبة أيضًا فهو لفظ مشترك.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ [الشورى: ٥٢]. فالجواب: أن معناه: ما كنت تدري قبل الوحي أن تقرأ القرآن، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان. قاله السمرقندي. وقال بكر القاضي نحوه، قال: ولا الإيمان الذي هو الفرائض والأحكام. قال: فكان قبل مؤمنًا بتوحيده ثم نزلت الفرائض التي لم يكن يدريها قبل فزاد بالتكليف إيمانًا. وهو أحسن وجوهه[(١)].

فإن قلت: فما معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [يوسف: ٣]، يعني: كنت غافلاً عن قصة يوسف عليه السلام، إذ لم تعلمها إلاَّ بوحينا. وليس معناه كالآية الأخرى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ الآية [يونس: ٧].

ويؤيد كل ما سبق ما عرف من سيرته ﷺ وأنه كان قبل نبوته إذا حج خالف المشركين في وقوفهم بالمزدلفة بل كان يجاوزها فيقف بعرفة[(٢)]؛

(١) وأظهر منه قول من قال: ما كنت يا محمد تعرف قبل الوحي ما هو القرآن، ولا كنت تعرف شرائع الإيمان وشعبه ومعالمه مفصلة.

(٢) رواه البخاري ٤/ ٢٦٢، ومسلم كلاهما في الحج، وأحمد ٤/ ٨٠، ٨٤ عن جبير بن مطعم قال: أضللت بعيرًا لي بعرفة فذهبت أطلبه، فإذا النبي ﷺ واقف، =

لأنها كانت موقف إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وكان ذلك إلهامًا من الله وتوفيقًا له.

الأنبياء وعلوم الدين والدنيا وما يلحق بذلك

قد بان بما تقدم عقائد الأنبياء في التوحيد والإيمان والوحي وعصمتهم في ذلك، فأما ما عدا ذلك فجماعها أن قلوبهم مملوءة علمًا ويقينًا على الجملة، وأنها قد احتوت من المعرفة والعلم بأمور الدين والدنيا ما لا شيء فوقه، ومن طالع الأخبار واعتنى بالحديث عرف ذلك، غير أن أحوالهم في هذه المعارف تختلف.

فأما ما يتعلق منها بأمر الدنيا فلا يشترط في حق الأنبياء العصمة من عدم معرفتهم ببعضها أو اعتقادها على خلاف ما هي عليه، ولا وصم عليهم فيه، إذ هممهم متعلقة بالآخرة وأنبائها، وأمر الشريعة وقوانينها[1]، وأمور الدنيا تضادُّها بخلاف غيرهم من أهل الدنيا الذين ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الروم: ٧] كما يأتي في الباب الثاني. ولكنه لا يقال إنهم لا يعلمون شيئًا من أمر الدنيا، فإن ذلك يؤدي إلى الغفلة والبله، وهم المنزهون عنه، بل قد أرسلوا إلى أهل الدنيا وقلدوا سياستهم وهدايتهم والنظر في مصالح دينهم ودنياهم، وهذا لا يكون مع عدم العلم بأمور الدنيا بالكلية، وأحوال الأنبياء وسيرهم في هذا الباب معلومة ومعرفتهم بذلك مشهورة.

= قلت: إن هذا من الحمس ما شأنه ههنا. وفي الباب عن عائشة وغيرها. انظر كتاب الحج من الصحيحين وغيرهما.

(١) وما بعثوا إلاَّ لإبلاغ ما يتعلق بذلك للعباد مما هم مكلفون به من قبل الله عز وجل، أما شؤون الدنيا وعلوم الحياة، فقد قال ﷺ: «أنتم أعلم بدنياكم»، كما سيأتي بعد.

وأما ما كان يتعلق بالدين، فلا يصح من النبي ﷺ إلاَّ العلم به، ولا يجوز عليه جهله جملة؛ لأنه لا يخلو أن يكون حصل عند ذلك عن وحي من الله فهو ما لا يصح الشك منه فيه فكيف الجهل به؟ بل حصل له العلم اليقين. أو يكون فعل ذلك باجتهاده فيما لم ينزل عليه فيه شيء، على القول بتجويز وقوع الاجتهاد منه في ذلك على قول المحققين[1]، وعلى مقتضى حديث أم سلمة رضي الله تعالى عنها: «إني إنما أقضي بينكم برأيي فيما لم ينزل علي فيه شيء» أخرجه الثقات[2]، وكقصة أسرى بدر[3]، والإذن للمتخلفين[4] على رأي بعضهم.

فلا يكون أيضًا ما يعتقده ويثمره اجتهاده إلاَّ حقا وصحيحًا. هذا هو الحق الذي لا يلتفت إلى خلاف من خالف فيه ممن أجاز عليه الخطأ في الاجتهاد[5]، لا على القول بتصويب المجتهدين الذي هو الحق والصواب

---

(١) هذا قول جمهور العلماء من الأصوليين والفقهاء والمتكلمة، واختاره أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى في المستصفى ٢/ ١٠٤، وصحَّحه التاج السبكي رحمه الله تعالى في جمع الجوامع فقال: والصواب جواز الاجتهاد للنبي ﷺ ووقوعه. وثالثها في الآراء والحروب فقط. وانظر ما قال المحلى عليه ٢/ ٣٨٦، ٣٨٧. وقد أجاد وأفاد الشوكاني في إرشاد الفحول في المسألة فانظره.

(٢) رواه أبو داود في الأقضية رقم ٣٥٨٥، والدارقطني ٤/ ٢٣٩ بسندٍ صحيح على شرط مسلم وهو صريح في وقوع الاجتهاد منه ﷺ.

(٣) القصة في ذلك مبسوطة عند مسلم في السير والجهاد ١٢/ ٨٤، ٨٧ من حديث سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه، وفي الحديث: فلما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «ما ترون في هؤلاء الأسارى...» إلخ، وفيه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ...﴾ الآية [الأنفال: ٦٧].

(٤) تقدم الكلام على هذا أول الكتاب.

(٥) قد يستدل لهذا بحديث ابن عباس مرفوعًا: «إنما أنا بشر، فما حدثتكم عن الله فهو حق، وما قلت فيه من قبل نفسي فإنما أنا بشر أخطىء وأصيب». رواه البزار، قال =

عندنا[1]، ولا على القول الآخر بأن الحق في طرف واحد؛ لعصمة النبي ﷺ من الخطأ في الاجتهاد في الشرعيات، ولأن القول في تخطئة المجتهدين إنما هو بعد استقرار الشرع، ونظر النبي ﷺ واجتهاده إنما هو فيما لم ينزل عليه فيه شيء ولم يشرع له قبل، هذا فيما عقد عليه النبي ﷺ قلبه، فأما ما لم يعقد عليه قلبه من أمر النوازل الشرعية فقد كان لا يعلم منها أولاً إلاَّ ما علمه الله شيئًا شيئًا حتى استقر علم جملتها عنده إما بوحي من الله تعالى أو أذن أن يشرع في ذلك ويحكم بما أراه الله، وقد كان ينتظر الوحي في كثير منها ولكنه لم يمت حتى استفرغ علم جميعها عنده ﷺ وتقررت معارفها لديه على التحقيق ورفع الشك والريب وانتفاء الجهل، وبالجملة فلا يصح منه الجهل بشيء من تفاصيل الشرع الذي أمر بالدعوة إليه، إذ لا تصح دعوته إلى ما لا يعلمه[2].

وأما ما يتعلق بعقده من ملكوت السموات والأرض، وخلق الله، وتعيين أسمائه الحسنى وآياته الكبرى، وأمور الآخرة وأشراط الساعة وأحوال السعداء والأشقياء، وعلم ما كان ما يكون مما لم يعلمه إلاَّ بوحي فعلى ما تقدم، من أنه معصوم فيه لا يأخذه فيما اعلم منه شك ولا ريب، بل

= الهيثمي في المجمع ١/ ١٧٨: إسناده حسن. وشيخ البزار الذي لم يعرفه هو الحافظ سمويه إسماعيل بن عبد الله الأصبهاني ثقة، قاله الحافظ.

(١) بل الحق والصواب مع واحد، قال في جمع الجوامع: والصحيح وفاقًا للجمهور أن المصيب واحد ٢/ ٣٩٠. وقال الشوكاني في إرشاده: وذهب أبو حنيفة ومالك والشافعي، وأكثر الفقهاء إلى أن الحق في أحد الأقوال. ثم قال: ثم اختلف هؤلاء بعد اتفاقهم على أن الحق واحد هل كل مجتهد مصيب أم لا؟ فعند مالك والشافعي وغيرهما أن المصيب منهم واحد. اهـ. وهذا القول هو الذي يؤيده الدليل نقلاً وعقلاً.

(٢) هذا شيء بديهي.

هو فيه على غاية اليقين، لكنه لا يشترط لـه العـلم بجميع تفاصيل ذلك[1] وإن كان عنده من علم ذلك ما ليس عند جميع البشر، لقوله ﷺ: «ولا خطر على قلب بشر»[2]. ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة: ١٧]. وقول موسى للخضر عليهما السلام: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ ﴾ [الكهف: ٦٦]. وقوله ﷺ: «أسألك بكـل اسم هو لك سميت به نفسك أو استأثرت به في علم الغيب عندك»[3]. وقد قال الله تعالى:

---

(١) لأن ذلك من خصائص الرب العظيم والإلـه الكريم الرحيم الذي قد أحاط بكل شيء علمًا وأحصى كل شيء عددًا، الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلاَّ في كتاب مبين.

(٢) رواه أحمد ٢/٤٦٦، والبخاري في تفسير سورة السجدة ١٠/١٣٤، ومسلم في كتاب الجنة ١٧/١٦٦ وغيرهم من حديث أبـي هريرة في حديث قدسي، قال الله عز وجل: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر...».

قال الحافظ: زاد ابن مسعود في حديثه: «ولا يعلمه ملك مقرب ولا نبـي مرسل». أخرجه ابن أبـي حاتم، قال: وهو يدفع قول من قال: إنما قيل البشر لأنه يخطر بقلوب الملائكة. والأولى حمل النفي فيه على عمومه فإنه أعظم في النفس.

(٣) حديث صحيح، رواه أحمد رقم ٣٧١٢، وابن حبان ٢٣٧٢، والحاكم ١/٥٠٩ من حديث ابن مسعود في دعاء دفع الهم والحزن، وأوله: «اللّـٰهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماضٍ في حكمك عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسـم سميـت بـه نفسـك أو علمتـه أحـدًا مـن خلقـك أو أنـزلتـه فـي كتـابـك أو استأثرت...» إلخ، ومراد المؤلف بذكر ما تقدم أن النبـي ﷺ وإن كان قد أوتي من العلوم ما لم يؤت غيره فإنه قد خفيت عليه من علوم الله وكلماته عز وجل ما لا يحيط به مخلوق كباقي إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم. وانظر قصة الخضر مع موسى عليهما السلام، وقول الخضر لموسى: «ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلاَّ كما نقص هذا العصفور من البحر».

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [يوسف: ٧٦]، وهذا ما لا خفاء به؛ إذ معلوماته تعالى لا يحاط بها ولا منتهى لها[١]. هذا حكم عقد النبي ﷺ في التوحيد والشرع والمعارف والأمور الدينية.

عصمة النبي ﷺ من الشيطان

واعلم أن الأمة مجمعة على عصمة النبي ﷺ من الشيطان وكفايته منه لا في جسمه بأنواع الأذى ولا في خاطره بالوساوس.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلاَّ وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة»، قالوا: وإياك يا رسول الله. قال: «وإياي، ولكن الله تعالى أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلاَّ بخير»[٢]. وورد «فأسلمُ» بضم الميم، أي: فأسلم أنا منه. وصحح بعضهم هذه الرواية ورجحها وورد: «فأسلم»، يعني: القرين، أنه انتقل عن حال كفره إلى الإسلام فصار لا يأمر إلاَّ بخير كالملك[٣]، وهو ظاهر الحديث. وإذا كان هذا حكم شيطانه المسلط على بني آدم، فكيف بمن بعد منه ولا أُقدر على الدنو منه. وقد جاءت الآثار بتصدي الشياطين له

(١) هذا مما يجب اعتقاده، ودع عنك المنحرفين الضالين الذين يسوون المخلوق بالخالق، كما يعتقد الروافض في أئمتهم وبعض جهلة الصوفية في مشايخهم، فإن ذلك من الغلو المقيت، فإن العبد عبد وإن تعالى.

(٢) رواه أحمد ١/ ٣٨٥، ٣٩٧، ٤٠١، ومسلم في صفات المنافقين ١٧/ ١٥٧، والدارمي ٢٧٣٧ وغيرهم ونحوه عن عائشة في مسلم وعن ابن عباس وجابر في مسند أحمد والمؤلف أسنده من طريق الدارقطني. وقوله: قرينه، أي: صاحبه.

(٣) وقد يوجد هذا في بعض الصالحين فيكون قرينه منقادًا له لا يأمره إلاَّ بما فيه طاعة الله عز وجل، وإذا كان هذا في آحاد الصالحين من أفراد الأمة فكيف بإمام الصالحين وسيدهم ﷺ.

في غير موطن رغبة في إطفاء نوره وإماتة نفسه وإدخال شغل عليه، إذ يئسوا من إغوائه فانقلبوا خاسرين، كتعرضه له في صلاته فأخذه النبي ﷺ وأسره.

ففي الصحيح قال أبو هريرة، عنه ﷺ: «إن الشيطان عرض لي فشد علي يقطع علي الصلاة فأمكنني الله منه فَذَعَتّه، ولقد هممت أن أوثقه إلى سارية حتى تصبحوا تنظرون إليه فذكرت قول أخي سليمان: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص: ٣٥]، فرده الله خاسئًا»[١].

وفي حديث أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ: «إن عدو الله إبليس جاءني بشهاب من نار جهنم ليجعله في وجهي ـ والنبي ﷺ في الصلاة، وذكر تعوذه بالله منه ولعنه له ـ قال: ثم أردت أخذه ـ وقال: لأصبح موثقًا يتلاعب به ولدان أهل المدينة»[٢].

وكذلك في حديثه في الإسراء، وطلب عفريت له بشعلة نار فعلمه جبريل عليه السلام ما يتعوذ به منه. ذكره في الموطأ[٣]. ولما لم يقدر على أذاه بمباشرته تسبب بالتوسط إلى عداه، كقضيته مع قريش والائتمار

---

(١) رواه البخاري في العمل في الصلاة ٣/ ٣٢٣ وفي الأنبياء وفي بدء الخلق وفي سورة ص، ومسلم في المساجد ٥/ ٢٨، ٢٩. وقوله: «فذعته» بالذال المعجمة وتشديد التاء، أي: دفعته بعنف ومعكته في التراب. وقوله: «فرده الله خاسئًا»، أي: ذليلاً حقيرًا. وفي الحديث بيان ما كان عليه ﷺ من التواضع والأدب واحترام ما سبقه من الأنبياء، إضافة إلى ما فيه من عصمته من شر العفاريت ومردة الشياطين.

(٢) رواه مسلم في المساجد ٥/ ٣٠، ٣١، وقد اختصره المصنف وذكر بَعْضَه بالمعنى، وهو في الدلالة كسابقه.

(٣) ذكره في كتاب الجامع رقم ١٨٣٧ عن يحيى بن سعيد مرسلاً بسند صحيح، ورواه أحمد ٣/ ٤١٩ بنحوه، من طريقين من حديث عبد الرحمن بن خنبش وسنده حسن، ولكن ليس فيه أنه كان ليلة الإسراء.

بقتله ﷺ وتزيينه لهم ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[1] [الأنفال: ٣٠]، وكذا وقع في غزوة بدر حيث جاء الشيطان كفار قريش في صورة سراقة بن مالك[2]، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ...﴾ الآية [الأنفال: ٤٨]. وكل هذا كفاه الله أمره وعصمه ضره وشره.

وقال ﷺ: «إن عيسى عليه السلام كُفي من لَمْسه، فجاء ليطعن في خاصرته حين ولد فطعن في الحجاب»[3].

وقال ﷺ حين لُدَّ في مرضه ــ وقيل له: خشينا أن يكون بك ذات الجنب ــ فقال: «إنها من الشيطان، ولم يكن الله ليسلطه علي»[4].

فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]؟ فقد قال بعض المفسرين: إنها راجعة إلى قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩]، ثم قال: ﴿وَإِمَّا

---

(١) تقدم الكلام على هذا في أوائل الكتاب ص ٧٦.

(٢) هذه القصة رواها ابن جرير في تفسيره لهذه الآية من عدة طرق ١٠/ ١٨، ١٩، ٢٠، وانظر: تفسير أبي الفداء ٣/ ٣٣٢، ٣٣٣.

(٣) رواه البخاري في بدء الخلق بنحوه ٧/ ١٥٠، وفي أحاديث الأنبياء ٧/ ٢٨٠، ومسلم في الفضائل ١٥/ ١٧٠ من حديث أبي هريرة. وقوله: «فطعن في الحجاب»، أي: في المشيمة التي يكون فيها الجنين، وهي الظلمة الثالثة التي يكون فيها الجنين والتي ذكرها القرآن في سورة الزمر: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ الآية.

(٤) رواه الحاكم في الطب ٤/ ٤٠٥ بهذا اللفظ، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، ورواه البيهقي كذلك في الدلائل ٧/ ١٦٩، وهو من حديث عائشة. ورواه أحمد وغيره من حديث أسماء بسند صحيح بنحوه. انظر: مجمع الزوائد رقم ١٤٢٥٥. وأصل الحديث في الطب من البخاري ٢٧٣، وفي مرض وفاته ٩/ ٢١٣، ومسلم في الطب أيضًا ١٣/ ١٩٩.

﴿ يَنزَغَنَّكَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، أي: يستخفنك غضب يحملك على ترك الإعراض عنهم فاستعذ بالله. وقيل: النزغ هنا: الفساد، كما قال عزَّ وجلّ: ﴿ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ﴾ [يوسف: ١٠٠]، وقيل: ﴿ يَنزَغَنَّكَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] يغرينك ويحركنك. والنزغ: أدنى الوسوسة. فأمره الله تعالى أنه متى تحرك عليه غضب على عدوه، أو رام الشيطان من إغوائه به وخواطر أدنى وساوسه ما لم يجعل له سبيل إليه: أن يستعيذ بالله منه فيكفى أمره، ويكون سبب تمام عصمته، إذ لم يسلط عليه بأكثر من التعرض له، ولم يجعل له قدرة عليه.

وكذلك لا يصح أن يتصور له الشيطان في صورة الملك ويلبس عليه، لا في أول الرسالة ولا بعدها، والاعتماد في ذلك دليل المعجزة، بل لا يشك النبي أن ما يأتيه من الله الملك ورسوله حقيقة، إما بعلم ضروري يخلقه الله له، أو ببرهان يظهره لديه؛ لتتم كلمة ربك صدقًا وعدلاً لا مبدل لكلماته.

فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ [الحج: ٥٢].

فاعلم أن للناس في معنى هذه الآية أقاويل، وأولى ما يقال فيها ما عليه الجمهور من المفسرين(١): أن التمني ههنا التلاوة، وإلقاء الشيطان فيها إشغاله بخواطر وأذكار من أمور الدنيا للتالي حتى يدخل عليه الوهم والنسيان فيما تلاه، أو يُدخل غير ذلك على أفهام السامعين من التحريف وسوء التأويل ما يزيله الله وينسخه ويكشف لبسه ويُحكم آياته، وسيأتي مزيد لهذا إن شاء الله تعالى مع ما يتعلق بسليمان وأيوب عليهما السلام.

فإن قلت: فما معنى قوله تعالى عن يوشع: ﴿ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾

---

(١) وهو الذي اختاره ومشى عليه شيخ المفسرين ابن جرير الطبري ١٧/ ١٩٠، ونقله عنه ابن كثير وأقره.

[الكهف: ٦٣]. وقوله عن يوسف: ﴿ فَأَنسَـٰهُ ٱلشَّيۡطَـٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ ﴾ [يوسف: ٤٢]. وقول نبينا ﷺ حين نام عن الصلاة يوم الوادي: «إن هذا واد به شيطان»[١]. وقول موسى عليه السلام في وكزه: ﴿ هَـٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَـٰنِۖ ﴾ [القصص: ١٥].

فاعلم أن هذا الكلام قد يرد في جميع هذا على مورد مستمر في كلام العرب في وصفهم كل قبيح من شخص أو فعل بالشيطان أو فعله، كما قال تعالى: ﴿ طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الصافات: ٦٥]، وقال ﷺ: «فليقاتله فإنما هو شيطان»[٢].

وقول يوشع لا يلزمنا الجواب عنه، إذ لم يثبت له في ذلك الوقت نبوة مع موسى عليهما السلام، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ ﴾ [الكهف: ٦٠]، والمروي أنه نُبِّىء بعد موت موسى أو قبيل موته.

وقصة يوسف عليه السلام قد ذكر أنها كانت قبل نبوته، وقوله: ﴿ فَأَنسَـٰهُ ٱلشَّيۡطَـٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ ﴾ [يوسف: ٤٢]، فيها قولان: أحدهما: أن الذي أنساه الشيطان ذكر ربه أحد صاحبي السجن، وربه الملك، أي: أنساه أن يذكر للملك شأن يوسف عليه السلام[٣]. فهذا من فعل الشيطان

---

(١) رواه مسلم في قضاء الصلاة الفائتة ٥/ ١٨٢، من حديث أبي هريرة. وقصة نومهم عن الصلاة في السفر، رواها أبو قتادة وعمران بن حصين وغيرهما مطولة ومختصرة، وكلها في الصحيح.

(٢) رواه البخاري ٢/ ١٣٠، ومسلم في ٤/ ٢٢٤، وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري، وإنما سماه شيطانًا لأنه الذي حمله على المرور بين يدي المصلي لإفساده صلاته عليه.

(٣) وهو الذي اختاره الجلال، وصدر به ابن جرير ١٢/ ٢٢٢ كلامه على الآية، وهو الظاهر كما لا يخفى. وإن كان الخازن حكى القول الآخر عن أكثر المفسرين فإن الأكثرية لا عبرة بها عند مصادمة الحق والصواب.

وليس فيه تسلط على يوسف ويوشع بالوسوسة والنزغ، وإنما هو بشغل خواطرهما بأمور أخر، وتذكيرهما من أمورهما ما ينسيهما ما نسيا.

وأما قوله ﷺ: «إن هذا واد به شيطان»، فليس فيه ذكر تسلطه عليه ولا وسوسته له، بل إن كان بمقتضي ظاهره فقد بين أمر ذلك الشيطان بقوله: «إن الشيطان أتى فلم يزل يهدئه كما يهدىء الصبي حتى نام»[1] فأعلم أن تسلط الشيطان في ذلك الوادي إنما كان على بلال الموكل بكلاءة الفجر. هذا إن جعلنا قوله: «إن هذا واد به شيطان» تنبيهًا على سبب النوم عن الصلاة. وأما إن جعلناه تنبيهًا على سبب الرحيل عن الوادي وعلة ترك الصلاة به وهو دليل مساق حديث زيد بن أسلم، فلا اعتراض به في هذا الباب لبيانه وارتفاع إشكاله.

عصمته ﷺ في أقواله مما سبيله البلاغ

وأما أقواله ﷺ فقد قامت الدلائل الواضحة بصحة المعجزة على صدقه، وأجمعت الأمة فيما كان طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء منها، بخلاف ما هو به لا قصدًا ولا عمدًا ولا سهوًا ولا غلطًا.

فقد ورد الشرع بانتفاء ذلك عنه وعصمته ﷺ وإجماع الأمة أنه لا يجوز عليه خلف في القول وإبلاغ الشريعة والإعلام بما أخبر به عن ربه وما أوحاه إليه من وحيه، لا على وجه العمد، ولا على غير عمد، ولا في حال الرضا والسخط والصحة والمرض[2].

---

(١) هذه الرواية أخرجها مالك في الموطأ رقم ٢٥، ومن طريقه البيهقي في الدلائل ٤/ ٢٧٣، ٢٧٤، وابن عبد البر في التمهيد ٥/ ٢٠٣ عن زيد بن أسلم مرسلاً، قال ابن عبد البر: وجاء معناه متصلاً من وجوه صحاح.

(٢) من قال بخلاف هذا فليس بمسلم ولا له حظ مع أهل الإيمان.

وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنه: قلت: يا رسول الله أأكتب كل ما أسمع منك؟ قال: «نعم»، قلت: في الرضا والغضب؟ قال: «نعم، فإني لا أقول في ذلك كله إلاَّ حقًّا»(١).

ثم إذا قامت المعجزة على صدقه وأنه لا يقول إلاَّ حقًّا، ولا يبلغ عن الله إلاَّ صدقًا، وأن المعجزة مقام قول الله تعالى له صدقت فيما تذكره عني، وهو يقول: إني رسول الله إليكم لأبلغكم ما أرسلت به إليكم وأبين لكم ما نزل عليكم: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣، ٤]، و﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، فلا يصح أن يوجد منه في هذا الباب خبر بخلاف مُخْبَره على أي وجه كان، فلو جوزنا عليه الغلط والسهو لما تميز لنا من غيره ولاختلط الحق بالباطل، فالمعجزة مشتملة على تصديقه جملة واحدة من غير خصوص، فتنزيه النبي ﷺ عن ذلك كله واجب برهانًا وإجماعًا.

مطاعن وشبهات(٢)
والجواب عنها بأجوبة مقنعة

وقد توجهت ههنا لبعض الطاعنين سؤالات:

منها: ما روي من أن النبي ﷺ لما قرأ سورة ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾، وقال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠﴾ [النجم: ١٩، ٢٠]، قال: «تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتها لترتجى» فلما ختم السورة سجد وسجد

---

(١) رواه أحمد ٢/٢٠٧، والحاكم ١/١٠٥، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٢) ذكر في هذا الفصل أربع شبه: الأولى: قصة الغرانيق. الثانية: قصة يونس عليه السلام. الثالثة: قصة ابن أبي سرح. الرابعة: قصة النصراني. وسترى أجوبة المؤلف عنها.

معه المسلمون والكفار لما سمعوه أثنى على آلهتهم. وما وقع في بعض الروايات: أن الشيطان ألقاها على لسانه، وأن النبي ﷺ كان يتمنى أن لو نزل عليه شيء، يقارب بينه وبين قومه. وفي رواية أخرى: أن لا ينزل عليه شيء ينفرهم عنه، وذكر هذه القصة، وأن جبريل عليه السلام جاءه فعرض عليه السورة، فلما بلغ الكلمتين قال له: «ما جئتك بهاتين» فحزن لذلك النبي ﷺ فأنزل الله تعالى تسلية له: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢]. وقوله: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ...﴾ الآية [الإسراء: ٧٣].

فاعلم أكرمك الله أن لنا في الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين: أحدهما: في توهين أصله. والثاني: على تسليمه.

أما المأخذ الأول: فيكفيك أن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أولَعَ به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم.

وصدق القاضي بكر بن العلاء المالكي حيث قال: لقد بلي الناس ببعض أهل الأهواء والتفسير وتعلق بذلك الملحدون مع ضعف نقلته، واضطراب روايته، وانقطاع إسناده، واختلاف كلماته، فقائل يقول: إنه في الصلاة. وآخر يقول: قالها في نادي قومه حين أنزلت عليه السورة. وآخر يقول: قالها وقد أصابته سنة. وآخر يقول: بل حدث نفسه فسها. وآخر يقول: إن الشيطان قالها على لسانه، وأن النبي ﷺ لما عرضها على جبريل عليه السلام قال: ما هكذا أقرأتك. وآخر يقول: بل أعلمهم الشيطان أن النبي ﷺ قرأها، فلما بلغ ﷺ ذلك قال: والله ما هكذا نزلت. إلى غير ذلك من اختلاف الرواة.

ومن حكيت هذه الحكاية عنه من المفسرين والتابعين لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب. وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية، والمرفوع فيه حديث شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: فيما أحسب الشك في الحديث: أن النبي ﷺ كان بمكة.. وذكر القصة. قال أبو بكر البزار: هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ بإسناد متصل يجوز ذكره إلاَّ هذا، ولم يسنده عن شعبة إلاَّ أمية بن خالد، وغيره يرسله عن سعيد بن جبير، وإنما يعرف عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. فقد بين أبو بكر رحمه الله أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا، وفيه من الضعف ما نبه عليه مع وقوع الشك فيه كما ذكرناه الذي لا يوثق به ولا حقيقة معه. وأما حديث الكلبي فمما لا تجوز الرواية عنه ولا ذكره؛ لقوة ضعفه وكذبه كما أشار إليه البزار رحمه الله تعالى. والذي منه في الصحيح: أن النبي ﷺ قرأ والنجم وهو بمكة فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس[١].

هذا توهينه من طريق النقل[٢]. فأما من جهة المعنى فقد قامت الحجة

---

(١) رواه البخاري في سورة النجم ١٠/٢٣٧، وابن عباس ومسلم في سجود التلاوة ٥/ ٧٤، ٧٥ عن ابن مسعود.

(٢) وقد حكم ببطلان هذه القصة جماعة من حفاظ الإسلام وأئمته، وقالوا: إنها من وضع الزنادقة الذين يريدون تشويه محاسن الإسلام. وممن نص على ذلك موسى بن عقبة في سيرته، وابن جرير في تفسيره، والنووي في شرح مسلم والأبي كذلك، وأبو بكر بن العربي في أحكام القرآن، والقرطبي في تفسيره، والفخر الرازي في تفسيره الكبير، والبيضاوي، وابن كثير، والخازن، والآلوسي في تفاسيرهم، والزرقاني في شرح المواهب مع أصله، والسهيلي في الروض الأنف، والعيني في عمدة القاري، والشوكاني في فتح القدير، والقنوجي في فتح البيان، ومن المعاصرين محمد الغزالي في فقه السيرة، ومحمد رضا في سيرته، =

وأجمعت الأمة على عصمته ﷺ ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة. إما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير الله وهو كفر. أو أن يتسور عليه الشيطان ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه ويعتقد النبي ﷺ أن من القرآن ما ليس منه حتى ينبهه جبريل عليه السلام، وذلك كله ممتنع في حقه ﷺ أو يقول ذلك النبي ﷺ. من قبل نفسه عمدًا ــ وذلك كفر ــ أو سهوًا، وهو معصوم من هذا كله.

= والزحيلي في تفسيره، وغيرهم كثير، وإيراد نصوصهم يستدعي تسويد عدة صفحات، غير أننا نقتصر على الآتي:
قال الرازي في تفسيره: أما أهل التحقيق فقد قالوا: هذه الرواية باطلة موضوعة، ثم ذكر أدلة ذلك حتى قال: وأما السنة فهي ما روي عن محمد بن إسحاق بن خزيمة أنه سئل عن هذه القصة فقال: هذا من وضع الزنادقة. وقال البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل.. ثم قال الفخر: فبهذه الوجوه عرفنا على سبيل الإجمال أن هذه القصة موضوعة. وقال ابن العربي: ذكر الطبري في ذلك روايات كثيرة باطلة لا أصل لها. وله كلام طويل نفيس في ذلك. وقال الأبي في شرح مسلم: ذكر ابن إسحاق أن هذا القول من وضع الزنادقة، وذكر بعض الشافعية أنه من إيحاء الشياطين إلى أوليائهم من الزنادقة ليوقعوا به في قلوب أرقاء الدين ليرتابوا. وقال ابن كثير في تفسيره: قد ذكر كثير من المفسرين هنا قصة الغرانيق.. ولكنها من طرق كلها مرسلة ولم أرها مسندة من وجه صحيح. وقال الشوكاني: ولم يصح شيء من هذا ولا يثبت بوجه من الوجوه، ومع عدم صحته بل بطلانه فقد دفعه المحققون بكتاب الله... إلخ. وقد سأل العلامة أحمد بن المبارك شيخه العارف سيدي عبد العزيز الدباغ رحمه الله تعالى عن هذه القصة فقال: الصواب مع ابن العربي وعياض ومن وافقهما لا مع ابن حجر، وما وقع للنبي ﷺ شيء من مسألة الغرانيق. إلى آخر كلامه المذكور في الإبريز.
ومع هذه الجمهرة من العلماء الذين أبطلوا هذه القصة سندًا ومتنًا وعقلاً خالفهم الحافظ ابن حجر فأثبتها من طريق النقل وإن كان وافقهم في إبطالها من جهة المعنى والتأويل كما يعلم من كلامه في الفتح في أول تفسير سورة الحج.

وقد قررنا بالبراهين والإجماع عصمته ﷺ من جريان الكفر على قلبه أو لسانه لا عمدًا ولا سهوًا، أو أن يشتبه عليه ما يلقبه الملك بما يلقي الشيطان، أو يكون للشيطان عليه سبيل، أو أن يتقول على الله لا عمدًا ولا سهوًا ما لم يتنزل عليه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤﴾ الآيات [الحاقة: ٤٤ ــ ٤٦]، وقال تعالى: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ. . .﴾ الآية [الإسراء: ٧٥].

ووجه ثان وهو: استحالة هذه القصة نظرًا وعرفًا؛ وذلك أن هذا الكلام لو كان روى لكان بعيد الالتئام متناقض الأقسام، ممتزج المدح بالذم، متخاذل التأليف والنظم، ولما كان النبي ﷺ ولا من بحضرته من المسلمين وصناديد المشركين ممن يخفى عليه ذلك، وهذا لا يخفى على أدنى متأمل، فكيف بمن رجح حلمه واتسع في باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه؟

ووجه ثالث: أنه قد علم من عادة المنافقين ومعاندي المشركين وضعفة القلوب والجهلة من المسلمين نفورُهم لأول وهلة، وتخليط العدو على النبي ﷺ لأقل فتنة، وتعييرهم المسلمين والشماتة بهم الفينة بعد الفينة، وارتداد من في قلبه مرض ممن أظهر الإسلام لأدنى شبهة، ولم يحك أحد في هذه القصة شيئًا سوى هذه الرواية الضعيفة الأصل!! ولو كان ذلك لوجدت قريش بها على المسلمين الصولة، ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة، كما فعلوا مكابرة في قصة الإسراء حتى كانت في ذلك لبعض الضعفاء ردة، وكذلك ما روي في قصة القضية[1]. ولا فتنة أعظم من هذه البلية لو وجدت، ولا تشغيب للمعادي حينئذٍ أشد من هذه الحادثة لو أمكنت. فما روي عن معاند فيها كلمة، ولا عن مسلم بسببها بنت شفة؛ فدل على بطلانها واجتثاث أصلها، ولا شك في إدخال بعض شياطين الإنس والجن هذا

(١) يعني بها قضية الحديبية.

الحديث على بعض مُغَفَّلي المحدثين ليلبس به على ضعفاء المسلمين.

ووجه رابع: ذكر الرواة لهذه القضية أن فيها نزلت: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ [الإسراء: ٧٣ ـ ٧٤] الآيتين وهاتان الآيتان تردان الخبر الذي رووه لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفتري، وأنه لولا أن ثبته لكاد يركن إليهم فيمضون هذا، ومفهومه: أن الله تعالى عصمه من أن يفتري، وثبته حتى لم يركن إليهم قليلاً، فكيف كثيرًا؟! وهم يروون في أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم وأنه ﷺ قال: «افتريت على الله، وقلت ما لم يقل» هذا ضد مفهوم الآية، وهي تضعف الحديث لو صح فكيف ولا صحة له؟! وهذا مثل قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ [النساء: ١١٣].

وقد روي عن ابن عباس: كل ما في القرآن «كاد» فهو ما لا يكون؛ قال الله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾ [النور: ٤٣]، ولم يذهب. ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥]، ولم يفعل. وقد ذُكرتْ في معنى هذه الآية تفاسير أخر، ما ذكرناه من نص الله على عصمة رسول الله ﷺ ترد سفسافها، فلم يبق في الآية إلاَّ أن الله تعالى امتن على رسوله بعصمته وتثبيته بما كاده به الكفار وراموا من فتنته. ومراد نا من ذلك تنزيهه وعصمته ﷺ، وهو مفهوم الآية.

أما المأخذ الثاني: فهو مبني على تسليم الحديث لو صح وقد أعاذنا الله من صحته، ولكنه على كل حال فقد أجاب عن ذلك أئمة المسلمين بأجوبة، منها الغث والسمين.

فمنها: ما روى قتادة ومقاتل: أن النبي ﷺ أصابته سنة عند قراءته هذه السورة، فجرى هذا الكلام على لسانه بحكم النوم. وهذا لا يصح إذ لا يجوز على النبي ﷺ مثله في حالة من أحواله، ولا يخلقه الله على لسانه،

ولا يستولي الشيطان عليه في نوم ولا يقظة لعصمته في هذا الباب من جميع العمد والسهو.

وفي قول الكلبي: أن النبي ﷺ حدث نفسه، فقال ذلك الشيطان على لسانه. وفي رواية ابن شهاب عن أبي بكر بن عبد الرحمن قال: وسها، فلما أخبر بذلك قال: «إنما ذلك من الشيطان»، وكل هذا لا يصح أن يقوله النبي ﷺ لا سهوًا ولا قصدًا، ولا يتقوله الشيطان على لسانه.

وقيل: لعل النبي ﷺ قاله أثناء تلاوته، على تقدير التقريع والتوبيخ للكفار، كقول إبراهيم عليه الصلاة والسلام: «هذا ربي» على أحد التأويلات، وكقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] بعد السكت وبيان الفصل بين الكلامين ثم رجع إلى تلاوته، وهذا ممكن مع بيان الفصل وقرينة تدل على المراد، وأنه ليس من المتلو. وهو أحد ما ذكره القاضي أبو بكر.

والذي يظهر ويترجح في تأويله عند المحققين على تسليمه: أن النبي ﷺ كان كما أمره ربه يرتل القرآن ترتيلاً، ويفصل الآي تفصيلاً في قراءته، كما رواه الثقات عنه، فيمكن ترصد الشيطان لتلك السكتات، ودسه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات محاكيًا نَغمَة النبي ﷺ، بحيث يسمعه من دنا إليه من الكفار، فظنوها من قول النبي ﷺ وأشاعوها(١). ولم يقدح ذلك عند المسلمين؛ بحفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله، وتحقُّقهم من حال النبي ﷺ في ذم الأوثان وعيبها ما عرف منه. وقد حكى موسى بن عقبة في

---

(١) ورجَّح هذا التأويل ابن العربي قبل المؤلف، وهو أصله في ذلك، كما رجحه قبلهما ابن جرير، وعليه مشى الحافظ ابن حجر وكل من جاء بعدهم، وهو اللائق بمقام النبي ﷺ وعصمته وأمانته على وحي الله عز وجل. وكل ما عداه فباطل.

مغازيه نحو هذا، وقال: إن المسلمين لم يسمعوها، وإنما ألقى الشيطان ذلك في أسماع المشركين وقلوبهم. ويكون ما روي من حزن النبي ﷺ؛ لهذه الإشاعة والشبهة وسبب هذه الفتنة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ [الحج: ٥٢]، فمعنى تمنى: تلا، قال الله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ [البقرة: ٧٨]، أي: تلاوة[١]. وقوله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الحج: ٥٢]، أي: يذهبه ويزيل اللبس به. ويحكم آياته. وقيل[٢]: معنى الآية: هو ما يقع للنبي ﷺ من السهو إذا قرأ فينتبه لذلك ويرجع عنه، وهذا نحو قول الكلبي في الآية: إنه حدث نفسه. وقال: إذا تمنى، أي حدث نفسه. وفي رواية أبي بكر بن عبد الرحمن ونحوه. وهذا السهو في القراءة إنما يصح فيما ليس طريقه تغيير المعاني وتبديل الألفاظ وزيادة ما ليس من القرآن، بل السهو عن إسقاط آية منه أو كلمة، ولكنه لا يقر على هذا السهو بل ينبه عليه ويذكر به للحين، على ما سنذكره في حكم ما يجوز عليه من السهو وما لا يجوز.

ومما يظهر في تأويله أيضًا أن مجاهدًا روى هذه القصة: «والغرانقة العلى»، فإن سلمنا القصة قلنا: لا يبعد أن هذا كان قرآنًا، والمراد بالغرانقة العلي وإن شفاعتهن لترتجى: الملائكة، على هذه الرواية. وبهذا فسّر الكلبي الغرانقة أنها الملائكة، وذلك أن الكفار كانوا يعتقدون الأوثان، والملائكة بنات الله، كما حكى الله عنهم ورد عليهم في هذه السورة بقوله:

---

(١) هذا قول أكثر المفسرين، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه. ذكره البخاري، ووصله الطبري، ولا يصح، وهو منكر المعنى.

(٢) هذه التأويل كلها ضعيفة، والصواب ما رجحه المؤلف فيما سبق.

﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ [النجم: ٥٣]، فأنكر الله كل هذا من قولهم. ورجاء الشفاعة من الملائكة صحيح، فلما تأوله المشركون على أن المراد بهذا الذكر آلهتهم ولبس عليهم الشيطان ذلك وزينه في قلوبهم وألقاه إليهم: نسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم آياته ورفع تلاوة تينك اللفظتين اللتين وجد الشيطان بها سبيلاً للإلباس، كما نُسخ كثير من القرآن ورفعت تلاوته. وكان في إنزال الله تعالى لذلك حكمة، وفي نسخه حكمة؛ ليضل به من يشاء ويهدي من يشاء وما يضل به إلاَّ الفاسقين، و ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ۝ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج: ٥٣، ٥٤].

وقيل: إن النبي ﷺ لما قرأ هذه السورة وبلغ ذكر اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى خاف الكفار أن يأتي بشيء من ذمها، فسبقوا إلى مدحها بتينك الكلمتين ليخلطوا في تلاوة النبي ﷺ ويشنعوا عليه، على عادتهم وقولهم: ﴿ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [إبراهيم: ٢٦]، ونسب هذا القول إلى الشيطان لحمله لهم عليه، وأشاعوا ذلك وأذاعوه وأن النبي ﷺ قاله، فحزن لذلك من كذبهم وافترائهم عليه، فسلاه الله تعالى بقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وبين للناس الحق من ذلك الباطل، وحفظ القرآن وأحكم آياته، ودفع ما لبس به العدو كما ضمنه تعالى من قوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[1] [الحجر: ٩].

---

(١) ويلاحظ أن أكثر ما ذكره المؤلف في إبطال هذه القصة هو مأخوذ من كلام القاضي أبي بكر ابن العربي، فإن له كلامًا مهمًّا في الموضوع مطوَّلاً استوفى فيه الكلام على هذه القصة الخطيرة، يبقى هنا سؤال عن سبب سجود المشركين مع النبي ﷺ كما تقدم في الحديث الصحيح الذي هو أصل القصة، وقد أجاب عن =

ومن ذلك: ما روي من قصة نبي الله يونس عليه الصلاة والسلام: أنه وعد قومه العذاب عن ربه، فلما تابوا كشف عنهم العذاب، فقال: لا أرجع إليهم كذابًا أبدًا. فذهب مغاضبًا.

فاعلم أكرمك الله تعالى أن ليس في خبر من الأخبار الواردة في هذا الباب أن يونس عليه السلام قال لهم: إن الله مهلككم. وإنما فيه: أنه دعا عليهم بالهلاك، والدعاء ليس بخبر يطلب صدقه من كذبه، لكنه قال لهم: «إن العذاب مصبحكم وقت كذا وكذا»، فكان ذلك كما قال، ثم رفع الله تعالى عنهم العذاب وتداركهم، قال الله تعالى: ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ... ﴾ الآية[1] [يونس: ٩٨].

= ذلك جماعة بأجوبة، منها أنهم سجدوا لدهشة أصابتهم وخوف اعتراهم عند سماع السورة لما فيها من قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ۝ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝ ﴾ [النجم: ٥٠ ــ ٥٤]، فاستشعروا نزول مثل ذلك بهم، ولعلهم لم يسمعوا قبل ذلك مثلها منه ﷺ... إلخ.

ومنها: أنهم لما سمعوا كلام الشيطان الذي ألقاه عند قراءة النبي ﷺ ــ إذا سلم صحّة ذلك ــ استشعروا مدح آلهتهم فسجدوا لذلك. وقيل غير هذا، والله أعلم.

وانظر: تفاسير الفخر الرازي وابن كثير والآلوسي.

(١) للمفسرين في هذه القصة كلام، قال ابن كثير: والغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى إلاَّ قوم يونس، وهم أهل نينوى، وما كان إيمانهم إلاَّ تخوفًا من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم بعدما عاينوا أسبابه وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فعندما جأروا إلى الله واستغاثوا به وتضرعوا له واستكانوا وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم وسألوا الله أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم رحمهم الله وكشف عنهم العذاب، وأخروا... إلخ.

أما ابن جرير فقد قال: ومعنى الكلام: فما كانت قرية آمنت عند معاينتها العذاب ونزول سخط الله بها بعصيانها ربها واستحقاقها عقابه فنفعها إيمانها ذلك في ذلك =

فإن قلت: فما معنى ما روي أن عبد الله بن أبي سرح كان يكتب لرسول الله ﷺ ثم ارتد مشركًا وصار إلى قريش، فقال لهم: إني كنت أصرف محمدًا حيث أريد، كان يملي علي ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٠٩﴾ [البقرة: ٢٠٩]، فأقول: أو عليم حكيم؟ فيقول: «نعم كل صواب». وفي رواية: فيقول له النبي ﷺ: «اكتب كذا» فيقول: أكتب كذا؟ فيقول: «اكتب كيف شئت»(١).

= الوقت كما لم ينفع فرعون إيمانه حين أدرك الغرق بعد تماديه في غيِّه واستحقاقه سخط الله بمعصيته إلاَّ قوم يونس فإنهم نفعهم إيمانهم بعد نزول العذاب بساحتهم، وأخرجهم منه وأخبر خلقه أنه نفعهم إيمانهم خاصةً من بين سائر الأمم غيرهم.

(١) أخرجه أحمد ٣/ ١٢٠ من طريق حميد وثابت بسندين صحيحين على شرطهما عن أنس، غير أنه قال: إن رجلاً كان يكتب ولم يقل عبد الله بن أبي سرح، وأخرجه البخاري في علامات النبوة ٧/ ٤٣٧، عنه بلفظ: كان رجل نصراني فأسلم وقرأ البقرة وآل عمران فكان يكتب للنبي ﷺ فعاد نصرانيًا فكان يقول: ما يدري محمد إلاَّ ما كتبت له. فأماته الله فدفنوه، فأصبح وقد لفظته الأرض فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه نبشوا عن صاحبنا لما هرب منهم. فألقوه فحفروا له فأعمقوا فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه نبشوا عن صاحبنا لما هرب منهم فألقوه خارج القبر. فحفروا له وأعمقوا له في الأرض ما استطاعوا، فأصبح وقد لفظته الأرض، فعلموا أنه ليس من الناس فألقوه. ورواه مسلم في صفات المنافقين ١٧/ ١٢٧ قال: كان منا رجل من بني النجار قد قرأ البقرة وآل عمران وكان يكتب لرسول الله ﷺ فانطلق هاربًا حتى لحق بأهل الكتاب. . قال: فما لبث أن قصم الله عنقه. . . فذكره بنحو ما عند البخاري.
فهذا الرجل كان من بني النجار تنصر ثم أسلم ثم ارتد ومات كافرًا.
أما ابن أبي سرح فكان قد ارتد وأهدر النبي ﷺ دمه، فلما كان يوم فتح مكة اختفى عند عثمان، ثم جاء به حتى أوقفه على النبي ﷺ فقال: يا رسول الله بايع عبد الله. فبايعه بعد ثلاث، ثم حسن إسلامه، وكان ممن افتتح مصر مع عمرو بن العاص، ثم غزا المغرب العربي من أدناه إلى أقصاه رئيسًا على جيش عظيم فيه الحسن والحسين وابن عباس وابن الزبير رضي الله تعالى عنهم، ثم كان ممن اعتزل=

وفي الصحيح عن أنس رضي الله تعالى عنه أن نصرانيًا كان يكتب للنبـي ﷺ بعد ما أسلم ثم ارتد وكان يقول: ما يدري محمد إلاَّ ما كتبت له[1].

واعلم ثبتنا الله وإياك على الحق ولا جعل للشيطان وتلبيسه الحق بالباطل إلينا سبيلاً: أن مثل هذه الحكاية أولاً لا توقع في قلب مؤمن ريبًا، إذ هي حكاية عمن ارتد وكفر بالله، ونحن لا نقبل خبر المسلم المتهم فكيف بكافر افترى هو ومثله على الله ورسوله ما هو أعظم من هذا[2]؟! والعجب لسليم العقل يشغل بمثل هذه الحكاية سره وقد صدرت من عدو كافر مبغض للدين مفتر على الله ورسوله. ولم يرد عن أحد من المسلمين، ولا ذكر أحد من الصحابة أنه شاهد ما قاله وافتراه على نبـي الله و: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [النحل: ١٠٥].

وما وقع من ذكرها في حديث أنس رضي الله تعالى عنه وظاهر حكايتها فليس فيه ما يدل على أنه شاهدها، ولعله حكى ما سمع، وقد علل البزار حديثه ذلك وقال: رواه ثابت عنه ولم يتابع عليه، ورواه حميد عن أنس قال: وأظن حُمَيدًا إنما سمعه من ثابت. ولهذا والله أعلم لم يخرج أهل الصحيح حديث ثابت ولا حميد[3].

= حرب صفين وسكن الرملة بفلسطين وخرج آخر حياته إلى صلاة الصبح وقال: اللّهم اجعل آخر عملي الصبح ـ فسلم عن يمينه، ثم ذهب يسلم عن يساره فقبض الله روحه. أخرجه البغوي، قال الحافظ في الإصابة: بإسنادٍ صحيح. وكان ذلك سنة تسع وخمسين.

(١) انظر: التعليق السابق.

(٢) ففي هذا وحده كفاية في رد قول ذلك المرتد، فإن قوله في ذلك غير مقبول بالإجماع؛ فلا حاجة إلى تأويل كلامه.

(٣) قد قدمنا أن سندهما صحيح.

والصحيح حديث عبد العزيز بن رفيع عن أنس رضي الله تعالى عنه الذي خرجه أهل الصحة وذكرناه وليس فيه عن أنس قول شيء من ذلك من قبل نفسه إلاَّ من حكايته عن المرتد النصراني.

ولو كانت صحيحة لما كان فيها قدح ولا توهيم للنبي ﷺ فيما أوحي إليه ولا جواز للنسيان والغلط عليه، والتحريف فيما بلغه، ولا طعن في نظم القرآن وأنه من عند الله؛ إذ ليس فيه ــ لو صح ــ أكثر من أن الكاتب قال له ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة: ٣٢] أو كتبه، فقال له النبي ﷺ: «كذلك هو» فسبقه لسانه أو قلمه لكلمة أو كلمتين مما نزل على الرسول قبل إظهار الرسول لها، إذا كان ما تقدم مما أملاه الرسول يدل عليها ويقتضي وقوعها بقوة قدرة الكاتب على الكلام ومعرفته به وجودة حسه وفطنته، كما يتفق ذلك للعارف إذا سمع البيت أن يسبق إلى قافيته، أو مبتدأ الكلام الحسن إلى ما يتم به، ولا يتفق ذلك في جملة الكلام، كما لا يتفق ذلك في آية ولا سورة.

وكذلك قوله ﷺ إن صح «كل صواب» فقد يكون هذا فيما فيه من مقاطع الآي وجهان وقراءتان أنزلتا جميعًا على النبي ﷺ فأملى أحدهما، وتوصل الكاتب بفطنته ومعرفته بمقتضى الكلام إلى الأخرى فذكرها للنبي ﷺ، فصوبها له النبي ﷺ ثم أحكم الله من ذلك ما أحكم ونسخ ما نسخ، كما قد وجد ذلك في بعض مقاطع الآية مثل قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨]، وهذه قراءة الجمهور. وقد قرأ جماعة: ﴿فإنك أنت الغفور الرحيم﴾ وليست من المصحف. وكذلك كلمات جاءت على وجهين في غير المقاطع قرأ بهما الجمهور وثبتت في المصحف. مثل: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ

﴿نُنشِزُهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] ـ وننشرها ـ ﴿ويقضي الحق﴾ ويقص الحق. وكل هذا لا يوجب ريبًا ولا يسبب للنبي ﷺ غلطًا ولا وهمًا. وقد قيل: إن هذا يحتمل أن يكون فيما يكتبه عن النبي ﷺ إلى الناس غير القرآن، فيصف الله ويسميه في ذلك كيف شاء(١).

حكم أخباره ﷺ في أمور الدنيا وأحوال نفسه

هذا القول فيما طريقه البلاغ عن الله عزَّ وجل وأما ما ليس سبيله سبيل البلاغ من الأخبار التي لا مستند لها إلى الأحكام ولا أخبار المعاد ولا تضاف إلى وحي، بل في أمور الدنيا وأحوال نفسه فالذي يجب: تنزيه النبي ﷺ عن أن يقع خبره في شيء من ذلك بخلاف مُخْبَرِه لا عمدًا ولا سهوًا ولا غلطًا، وأنه معصوم من ذلك في حال رضاه وفي حال سخطه وجده ومزحه وصحته ومرضه.

ودليل ذلك اتفاق السلف وإجماعهم عليه، وذلك أنا نعلم من دين الصحابة وعادتهم مبادرتهم إلى تصديق جميع أحواله، والثقة بجميع أخباره في أي باب كانت وعن أي شيء وقعت، وأنه لم يكن لهم توقف ولا تردد في شيء منها ولا استثبات عن حاله عند ذلك هل وقع فيها سهوًا أم لا. ولما احتج ابن أبي الحُقَيْق اليهودي على عمر حين أجلاهم من خيبر بإقرار رسول الله ﷺ واحتج عليه عمر رضي الله تعالى عنه بقوله ﷺ: «كيف بك إذا أُخرِجْت من خيبر»؟ فقال اليهودي: كانت هزيلة من أبي القاسم. فقال له عمر: كذبت يا عدو الله(٢).

---

(١) كل ما ذكره المؤلف نحن في غنى عنه فلا نحتاج إلى توجيه كلام الكافر الذي افتراه وقاله لإخوانه الكفرة.

(٢) رواه أحمد ٢/١٤٩، والبخاري في الشروط ٦/٢٥٦ من حديث ابن عمر، وهو مطول عند البخاري.

وأيضًا: فإن أخباره وآثاره وسيره وشمائله معتنى بها، مستقصى تفاصيلها، ولم يرد في شيء منها استدراكه ﷺ لغلط قول قاله، أو اعترافه بوهم في شيء أخبر به، ولو كان ذلك لنقل كما نقل من قصته عليه الصلاة والسلام رجوعه ﷺ عما أشار به على الأنصار في تلقيح النخل[1]، وكان ذلك رأيًا لا خبرًا وغير ذلك من الأمور التي ليست من هذا الباب، كقوله ﷺ: «والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرًا منها إلاَّ فعلت الذي حلفت عليه وكفرت عن يميني»[2]. وقوله ﷺ: «إنكم تختصمون إلي. . .» الحديث[3]. وقوله ﷺ: «اسق يا زبير حتى يبلغ الماء الجدر»[4]. كما سنبين

---

(١) رواه مسلم في الفضائل ١٥/ ١١٧ من حديث رافع بن خديج وفيه: «إنما أن بشر، إذا أمرتكم بشيء من أمر دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر»، وفيه أيضًا عن طلحة: «إنما أنا بشر مثلكم وإن الظن يخطىء ويصيب، ولكن ما قلت لكم قال الله فلن أكذب على الله»، وعنده أيضًا: ١٥/ ١١٧، ١١٨ عن عائشة وأنس. . «أنتم أعلم بأمر دنياكم»، ففي هذه الأحاديث أن ما كان بقوله ﷺ ويراه من شؤون الحياة قد يخالف الواقع وهذا بخلاف أمور الدين.

(٢) رواه أحمد ٤/ ٤١٨، والبخاري ١٤/ ٣٣٩، ومسلم ١١/ ١٠٩، ١١٣ كلاهما في الأيمان من حديث أبي موسى، وفي الباب عن جماعة.

(٣) رواه أحمد ٦/ ٢٩٠، ٣٢٠، ٣٠٨، والبخاري في الأحكام ١٦/ ٢٩٦، ومسلم في الأقضية ١٢/ ٥، والترمذي في الأحكام ١٢١٣، وباقي الجماعة عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنكم تختصمون إلي وإنما أنا بشر، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فإن قضيت لأحد منكم بشيء من حق أخيه فإنما أقطع له من النار فلا يأخذ منه شيئًا». وقوله: ألحن، أي: أبلغ وأبين. والحديث يدل على أن النبي ﷺ كان يجتهد فيما لم ينزل عليه. وفيه رد على من يقول بأن حكم الحاكم ينفذ وإن كان الحكم جورًا مبنيًا على بينة زور، ولا ريب أن هذا من الفقه السخيف والرأي الباطل.

(٤) رواه البخاري في التفسير ٩/ ٣٢٣، ومسلم في الفضائل ١٥/ ١٠٧، وباقي =

كل ما في هذا من مشكل ما في هذا الباب والذي بعده إن شاء الله تعالى مع أشباهها.

وأيضًا: فإن الكذب متى عرف من أحد في شيء من الأخبار بخلاف ما هو على أي وجه كان استريب بخبره واتهم في حديثه، ولم يقع قوله في النفوس موقعًا؛ ولهذا ترك المحدثون والعلماء الحديث عمن عرف بالوهم والغفلة وسوء الحفظ وكثرة الغلط مع ثقته

وأيضًا فإن تعمُّد الكذب في أمور الدنيا معصية، والإكثار منه كبيرة بإجماع، مسقط للمروءة. وكل هذا مما ينزه عنه منصب النبوة. والمرة الواحدة منه فيما يستبشع ويستشنع مما يخل بصاحبها ويزري بقائلها لاحقة بذلك.

وأما فيما لا يقع هذا الموقع فإن عددناها من الصغائر، فهل تجري على حكمها في الخلاف فيها؟ مختلف فيه. والصواب: تنزيه النبوة عن قليله وكثيره وسهوه وعمده، إذ عمدة النبوة البلاغ والإعلام والتبيين وتصديق ما جاء به النبي ﷺ. وتجويز شيء من هذا قادح في ذلك ومشكك فيه، مناقض للمعجزة. فلنقطع عن يقين بأنه لا يجوز على الأنبياء خلف في القول في وجه من الوجوه، لا بقصد ولا بغير قصد، ولا نتسامح مع من يتسامح في تجويز ذلك عليهم حال السهو فيما ليس طريقه البلاغ، نعم، وبأنه لا يجوز عليهم الكذب قبل النبوة ولا الاتسام به في أمورهم وأحوال دنياهم، لأن ذلك كان يزري ويريب بهم وينفر القلوب عن تصديقهم بعد[1]. وانظر أحوال عصر النبي ﷺ من قريش وغيرها من الأمم وسؤالهم عن حاله في صدق لسانه وما

= الجماعة. وفيه نزول قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ [النساء: ٦٥].

(١) ما قاله المؤلف هو الذي يليق بمنصب النبوة، ولا يجوز اعتقاد سواه.

عرفوا به من ذلك واعترفوا به مما عرف. واتفق النقل على عصمة نبينا ﷺ منه قبل وبعد. وقد ذكرنا أول الكتاب في الباب الثاني ما يبين صحة ما أشرنا إليه.

أخبار استشكلت والجواب عنها

فإن قلت: فما معنى قوله ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله تعالى عنه قال: صلَّى رسول الله ﷺ صلاة العصر فسلم في ركعتين، فقام ذو اليدين فقال: يا رسول الله ﷺ، أقصرت الصلاة أم نسيت؟ فقال رسول الله ﷺ: «كل ذلك لم يكن»[1] وفي رواية: «ما قصرت الصلاة وما نسيت...» الحديث.. فأخبر بنفي الحالتين، وأنها لم تكن، وقد كان أحد ذلك كما قال ذو اليدين: قد كان بعض ذلك يا رسول الله.

فاعلم وفقنا الله وإياك أن للعلماء في ذلك أجوبة، بعضها بصدد الإنصاف، ومنها ما هو بنية التعسف والاعتساف.

أما على القول بتجويز الوهم والغلط مما ليس طريقه من القول البلاغ وهو الذي زيفناه من القول فلا اعتراض بهذا الحديث وشبهه.

وأما على مذهب من يمنع السهو والنسيان في أفعاله جملة[2] ويرى أنه في مثل هذا عامد لصور النسيان ليسن، فهو صادق في خبره لأنه لم ينس ولا قصرت، ولكنه على هذا القول تعمد هذا الفعل في هذه الصورة ليسنه لمن اعتراه مثله، وهو قول مرغوب عنه سنذكره في موضعه.

---

(١) رواه أحمد ٢/ ٤٦٠، والبخاري في الصلاة ٣/ ٣٣٩، ٣٤٣، ومسلم في المساجد ٥/ ٦٧، ٧٠، وأبو داود ١٠٠٨، والترمذي ٣٥٧ بتهذيبي وغيرهم.

(٢) هذا مذهب ضعيف مصادم لنصوص القرآن والسنَّة ومخالف لما ذهب إليه الجمهور.

وأما على إحالة السهو عليه في الأقوال[1] وتجويز السهو عليه فيما ليس طريقه القول، ففيه أجوبة:

منها: أن النبي ﷺ أخبر عن اعتقاده وضميره: أما إنكار القصر فحق وصدق باطنًا وظاهرًا. وأما النسيان فأخبر ﷺ عن اعتقاده، وأنه لم ينس في ظنه، فكأنه قصد الخبر بهذا عن ظنه وإن لم ينطق به، وهذا صدق أيضًا.

ووجه ثان: أن قوله: «ولم أنس» راجع إلى السلام، أي: إني سلمت قصدًا وسهوت عن العدد، أي: لم أسه في نفس السلام. وهذا محتمل، وفيه بعد.

ووجه ثالث، وهو أبعدها: ما ذهب إليه بعضهم ــ وإن احتمله اللفظ من قوله: «كل ذلك لم يكن» ــ أي: لم يجتمع القصر والنسيان، بل كان أحدها. ومفهوم اللفظ خلافه مع الرواية الأخرى الصحيحة وهو قوله: «ما قصرت الصلاة وما نسيت».

هذا ما رأيت فيه لأئمتنا، وكل من هذه الوجوه محتمل للفظ على بعد بعضها وتعسف الأخير منها.

قال أبو الفضل رحمه الله: والذي أقول ويظهر لي أنه أقرب من هذه الوجوه كلها: أن قوله: «لم أنس» إنكار للفظ الذي نفاه عن نفسه وأنكره على غيره بقوله: «بئسما لأحدكم أن يقول نسيت آية كذا وكذا، ولكنه نُسِّي»[2]،

---

(١) هذا أيضًا مخالف للنص، وقول عامة العلماء كما يأتي التنبيه على ذلك إن شاء الله تعالى فإن ظاهر قوله ﷺ الآتي: «إنما أنا بشر أنسى كما تنسون» عام في الأقوال والأفعال.

(٢) رواه أحمد ١/ ٤١٧، ٤٢٩، ٤٣٨، والبخاري ١٠/ ٤٥٧، ٤٥٨، ومسلم ٦/ ٧٦، ٧٧، كلاهما في فضائل القرآن، ورواه الترمذي في التفسير رقم ٢٧٤٨ وغيرهم من حديث ابن مسعود. وقوله: «بل هو نُسي» بضم النون وكسر السين المشددة، =

فلما قال له السائل: أقصرت الصلاة أم نسيت إنك قصرتها؟ ونسيانه هو من قبل نفسه، وأنه إن كان جرى شيء من ذلك فقد نُسّي حتى سأل غيره فتحقق أنه نُسِّي وأُجْري عليه ذلك ليسن، فقوله على هذا: «لم أنس ولم تقصر، وكل ذلك لم يكن» صدق وحق: لم تقصر ولم ينس حقيقة، ولكنه نُسِّيَ.

ووجه آخر استثرته من كلام بعض المشايخ، وذلك أنه قال: إن النبي ﷺ كان يسهو ولا ينسى، ولذلك نفى عن نفسه النسيان. قال: لأن النسيان غفلة وآفة، والسهو إنما هو شغل. قال: فكان النبي ﷺ يسهو في صلاته ولا يغفل عنها. وكان يشغله عن حركات الصلاة ما في الصلاة شغلاً بها لا غفلة عنها. فهذا إن تحقق على هذا المعنى لم يكن في قوله: «ما قصرت وما نسيت» خلف في قول. وعندي أن قوله: «ما قصرت الصلاة وما نسيت» بمعنى الترك الذي هو أحد وجهي النسيان، أراد والله أعلم: أني لم أسلم من ركعتين تاركًا لإكمال الصلاة، ولكن نسيت ولم يكن ذلك من تلقاء نفسه.

وأما قصة كلمات إبراهيم المذكورة أنها كذباته الثلاث: المنصوصة في القرآن منها اثنتان، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ۝٨٩﴾ [الصافات: ٨٩] ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وقوله للملك عن زوجته: إنها أختي.

فاعلم أكرمك الله أن هذه كلها خارجة عن الكذب، لا في القصد ولا في غيره، وهي داخلة في باب المعاريض التي فيها مندوحة عن الكذب.

أما قوله تعالى: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ۝٨٩﴾ ففيه تأويل: فقيل: سأسقم، بمعنى: أن كل إنسان معرض لذلك. وقيل: سقيم بما قُدِّر عليّ من الموت. وقيل:

= أي: ليس النسيان من فعله وإنما هو من خلق الله تعالى، فهو الذي نساه، فلا ينبغي للإنسان أن ينسب نسيان القرآن أو غيره لنفسه بالذات.

سقيم القلب بما أشاهده من كفركم وعنادكم. وقيل: غير ذلك مما اعتذر به لهم عن خروجه معهم إلى عيدهم. وكل هذا ليس فيه كذب، بل خبر صحيح صدق[1].

وأما قوله تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، فإنه علق خبره بشرط نطقه، كأنه قال: إن كان ينطق فهو فعله، على طريق التبكيت لقومه. وهذا صدق أيضًا ولا خلف فيه.

وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «أختي» فقد بين في الحديث وقال: «فإنك أختي في الإسلام»، وهو صدق، والله تعالى يقول: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠].

فإن قلت: فهذا النبي ﷺ قد سماها كذبات وقال: «لم يكذب إبراهيم إلاَّ ثلاث كذبات»[2]. وقال في حديث الشفاعة: «ويذكر كذباته»[3]. فمعناه: أنه لم يتكلم بكلام صورته صورة الكذب وإن كان حقًّا في الباطن إلاَّ هذه الكلمات. ولما كان مفهوم ظاهرها خلاف باطنها أشفق إبراهيم عليه السلام بمؤاخذته بها.

وأما الحديث: «كان النبي ﷺ إذا أراد غزوة ورى بغيرها»[4] فليس

---

(١) وانظر مصدر هذه الأقوال والتآويل عند ابن جرير ٢٢/ ٧٠، ٧١، وابن كثير ٦/ ٢٢ مع تفاسير أخرى للآية.

(٢) الحديث رواه مطولاً، أحمد ٢/ ٤٠٣، والبخاري في الأنبياء ٧/ ٢٠١، ٢٠٤، وفي مواضع، ومسلم في الفضائل ١٥/ ١٢٣ وغيرهم. وانظر شرحه في العبر لكاتبه.

(٣) هو في الصحيحين وغيرهما مطولاً، وأوله: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، أتدرون مم ذلك. . . » الحديث، وقد تقدم.

(٤) هو قطعة من حديث كعب بن مالك الطويل في تخلفه عن غزوة تبوك وتوبة الله عليه وعلى صاحبيه.

وهو في التفسير من البخاري ٩/ ٤١٢، وفي المغازي، وفي التوبة عند مسلم =

فيه خلف في القول، إنما هو ستر مقصده لئلا يأخذ عدوه حذره، وكتم وجه ذهابه بذكر السؤال عن موضع آخر والبحث عن إخباره والتعريض بذكره، لا أنه يقول: تجهزوا إلى غزوة كذا، أو وجهتنا إلى موضع كذا، خلاف مقصده، فهذا لم يكن. والأول ليس فيه خبر يدخله الخلف.

فإن قلت: فما معنى قول موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام وقد سئل: أيّ الناس أعلم؟[1]، فقال: «أنا أعلم» فعتب الله عليه ذلك؛ إذ لم يردَّ العلم إليه... الحديث، وفيه: قال: «بل عبد لنا بمجمع البحرين أعلم منك». وهذا خبر قد أنبأ الله أنه ليس كذلك.

فاعلم أنه وقع في هذا الحديث من بعض طرقه الصحيحة عن ابن عباس: «هل تعلم أحدًا أعلم منك؟» فإذا كان جوابه على علمه؛ فهو خبر حق وصدق، لا خلف فيه ولا شبهة. وعلى الطريق الآخر؛ فمحمله على ظنه ومعتقده، كما لو صرح به؛ لأن حاله في النبوة والاصطفاء يقتضي ذلك، فيكون إخباره بذلك أيضًا عن اعتقاده وحسبانه صدقًا لا خلف فيه. وقد يريد بقوله: «أنا أعلم» بما تقتضيه وظائف النبوة من علوم التوحيد وأمور الشريعة وسياسة الأمة، ويكون الخضر أعلم منه بأمور أخر مما لا يعلمه أحد إلَّا بإعلام الله، من علوم غيبية، كالقصص المذكورة في خبرهما. فكان موسى عليه الصلاة والسلام أعلم على الجملة بما تقدم، وهذا أعلم على الخصوص بما أُعلم، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝٦٥﴾ [الكهف: ٦٥].

= ١٧/ ٨٧، ٩٧، وأبي داود ٢٣١٧، والترمذي في التفسير ٢٩٠٢ بتهذيبي وغيرهم.

(١) رواه البخاري في العلم ١/ ٢٢٨، ٢٣٣، وفي مواضع نحو العشرة، ومسلم في الفضائل ١٥/ ١٣٦، وأهل السنن وغيرهم من حديث ابن عباس مطولاً.

وعتَبُ الله ذلك عليه فيما قاله العلماء: إنكار هذا القول عليه؛ لأنه لم يردَّ العلم إليه، كما قالت الملائكة: ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ [البقرة: ٣٢]. أو لأنه لم يرض قوله شرعًا، وذلك والله أعلم لئلا يقتدي به فيه من لم يبلغ كماله في تزكية نفسه وعلو درجته من أمته فيهلك. لما تضمنه من مدح الإنسان نفسه، ويورثه ذلك من الكبر والعجب والدعوى. وإن نزه عن هذه الرذائل الأنبياء فغيرهم بمدرجة سبيلها إلاَّ من عصمه الله، فالتحفظ منها أولى لنفسه وليقتدى به، ولهذا قال ﷺ تحفظًا من مثل هذا مما قد علم به: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[١].

وهذا الحديث إحدى حجج القائلين بنبوة الخضر عليه السلام[٢] لقوله: «أنا أعلم من موسى» ولا يكون الولي أعلم من النبي ﷺ، وأما الأنبياء فيتفاضلون في المعارف، وبقوله تعالى: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ﴾ [الكهف: ٨٢]، فدل أنه بوحي. ومن قال أنه ليس بنبي قال: يحتمل أن يكون فعله بأمر نبي آخر. وهذا ضعيف؛ لأننا ما علمنا أنه كان في زمن موسى نبي غيره إلاَّ أخاه هارون، وما نقل أحد من أهل الأخبار في ذلك شيئًا يعول عليه. وإذا جعلنا «أعلم منك» ليس على العموم وإنما هو في قضايا معينة لم نحتج إلى إثبات نبوة الخضر، ولهذا قال بعض الشيوخ: كان موسى أعلم من الخضر فيما أخذ عن الله، والخضر أعلم فيما دُفِعَ إليه من موسى[٣]. وقال آخر: إنما ألجىء موسى إلى الخضر للتأديب لا للتعليم.

---

(١) تقدم ص ١٨١، ٤٣٠.

(٢) الصحيح أنه نبي، وقد ألف جماعة من العلماء في إثبات نبوته، منهم الحافظ ابن حجر.

(٣) ولذلك جاء في الحديث عن الخضر: «يا موسى إني على علم من الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من الله علمك الله لا أعلمه». فسبحان من خص من =

عصمة الأنبياء في جوارحهم من الفواحش والكبائر وكتم الرسالة والتقصير في التبليغ

وأما ما يتعلق بالجوارح من الأعمال ـ ولا يخرج من جملتها القول باللسان فيما عدا الخبر الذي وقع فيه الكلام، ولا الاعتقاد بالقلب فيما عدا التوحيد وما قدمناه من معارفه المختصة به ـ ، فأجمع المسلمون على عصمة الأنبياء من الفواحش والكبائر الموبقات، وكذلك لا خلاف أنهم معصومون من كتمان الرسالة والتقصير في التبليغ؛ لأن كل ذلك يقتضي العصمة منه المعجزة مع الإجماع على ذلك من الكافة، والجمهور قائلٌ بأنهم معصومون من ذلك من قبل الله، معتصمون باختيارهم وكسبهم.

وأما الصغائر فجوز جماعة من السلف وغيرهم على الأنبياء، وهو مذهب أبي جعفر الطبري وغيره من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين وسيأتي ما احتجوا به. وذهبت طائفة أخرى إلى الوقف وقالوا: العقل لا يحيل وقوعها منهم، ولم يأت في الشرع قاطع بأحد الوجهين. وذهبت طائفة أخرى من المحققين من الفقهاء والمتكلمين إلى عصمتهم من الصغائر كعصمتهم من الكبائر، قالوا: لاختلاف الناس في الصغائر وتعيينها من الكبائر وإشكال ذلك. وقول ابن عباس وغيره: أن كل ما عصي الله به فهو كبيرة، وأنه إنما سمي منها الصغير بالإضافة إلى ما هو أكبر منه، ومخالفة الباري في أي أمر كان يجب كونه كبيرة، فلا يمكن أن يقال إن في معاصي الله صغيرة إلاَّ على معنى أنها تغتفر باجتناب الكبائر، ولا يكون لها حكم مع ذلك بخلاف الكبائر إذا لم يتب منها، فلا يحبطها شيء، والمشيئة في العفو عنها إلى الله تعالى. وهو قول جماعة أئمة الأشعرية وكثير من أئمة الفقهاء

= شاء بما شاء، فلا يسأل عما يفعل.

وبعض أئمتنا. ولا يجب على القولين أن يختلف أنهم معصومون عن تكرار الصغائر وكثرتها؛ إذ يلحقها ذلك بالكبائر، ولا في صغيرة أدت إلى إزالة الحشمة وأسقطت المروءة وأوجبت الإزراء والخساسة؛ فهذا أيضًا مما يعصم عنه الأنبياء إجماعًا؛ لأن مثل هذا يحط منصب المتسم به ويزري بصاحبه، وينفر القلوب عنه، والأنبياء منزهون عن ذلك، بل يلحق بهذا ما كان من قبيل المباح فأدى إلى مثله لخروجه بما أدى إليه عن اسم المباح إلى الحظر.

وقد ذهب بعضهم إلى عصمتهم من مواقعة المكروه قصدًا، وقد استدل بعض الأئمة على عصمتهم من الصغائر بالمصير إلى امتثال أفعالهم واتباع آثارهم وسيرهم مطلقًا، وجمهور الفقهاء على ذلك من أصحاب مالك والشافعي وأبي حنيفة من غير التزام قرينة، بل مطلقًا عند بعضهم، وإن اختلفوا في حكم ذلك، فعن مالك: التزام ذلك واجب. وهو قول أكثر أصحابنا وأكثر أهل العراق. وأكثر الشافعية على أن ذلك ندب.

وذهبت طائفة إلى الإباحة، وقيد بعضهم الاتباع فيما كان من الأمور الدينية وعلم به مقصد القربة. ومن قال بالإباحة لم يقيد، قال: فلو جوزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم في أفعالهم، إذ ليس كل فعل من أفعاله يتميز مقصده به من القربة أو الإباحة أو الحظر والمعصية، ولا يصح أن يؤمر المرء بامتثال أمر لعله معصية لا سيما على من يرى من الأصوليين تقديم الفعل على القول إذا تعارضا. ونزيد هذا حجة بأن نقول: من جوز الصغائر ومن نفاها عن نبينا ﷺ مجمعون على أنه لا يقر على منكر من قول أو فعل، وأنه متى رأى شيئًا فسكت عنه ﷺ دل على جوازه، فكيف يكون هذا حاله في حق غيره ثم يجوز وقوعه منه في نفسه؟! وعلى هذا المأخذ تجب عصمته من مواقعة المكروه كما قيل.

وأيضًا فقد علم من دين الصحابة قطعًا الاقتداء بأفعال النبي ﷺ كيف توجهت وفي كل فن كالاقتداء بأقواله. فقد نبذوا خواتيمهم حين نبذ خاتمه[(١)]، وخلعوا نعالهم حين خلع[(٢)]، واحتجاجهم برؤية ابن عمر إياه جالسًا لقضاء حاجته مستقبلاً بيت المقدس[(٣)]، واحتج غير واحد منهم في غير شيء مما بابه العبادة أو العادة بقوله: رأيت رسول الله ﷺ: يفعله. وقال: «هلا أخبرتها أني أقبّل وأنا صائم»[(٤)]، وقالت عائشة محتجة: كنت أفعله أنا ورسول الله ﷺ[(٥)]: وغضب رسول الله ﷺ على الذي أخبر بمثل هذا عنه فقال: يحل لرسول الله ما يشاء وقال: «إني لأخشاكم لله وأعلمكم بحدوده»[(٦)]. والآثار في هذا أعظم من أن تحيط بها لكنه يعلم من

---

(١) رواه البخاري أواخر اللباس ١٣/ ٤٤٤، وفي الأيمان ١٤/ ٣٤٣، ومسلم في اللباس ١٤/ ٦٦ من حديث ابن عمر: أنه ﷺ اصطنع خاتمًا من ذهب وكان يلبسه فصنع الناس خواتيم، ثم إنه نزعه.. ثم قال: «والله لا ألبسه أبدًا فنبذ الناس خواتيمهم. وقد جاء النهي عن التختم بالذهب، وقال لمن رآه متختمًا بالذهب: «يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده»، رواه مسلم ١٤/ ٦٥ وغيره.

(٢) رواه أحمد ٣/ ٩٢، وأبو داود ٦٥٠، والحاكم ١/ ٢٦٠ من حديث أبي سعيد الخدري مطولاً، وسنده صحيح، وكان الخلع في الصلاة.

(٣) رواه أحمد رقم ٤٦٠٦، ٤٦١٧، والبخاري ١/ ٢٥٧، ٢٦١، ومسلم ٣/ ١٥٣، ١٥٤، وباقي الجماعة.

(٤) رواه مالك في الصيام من الموطأ ٦٥١ مرسلاً عن عطاء بن يسار مطولاً، ووصله عبد الرزاق في المصنف رقم ٨٤١٢ عن رجل من الأنصار، وسنده صحيح.

(٥) معناه في الصحيحين عنها وعن أم سلمة وحفصة رضي الله تعالى عنهن.

(٦) وهو حديث عطاء المتقدم الذي وصله عبد الرزاق، وفي صحيح مسلم ٧/ ٢١٩ عن عمر بن أبي سلمة رضي الله تعالى عنهما أنه سأل رسول الله ﷺ: أيقبّل الصائم؟ فقال له رسول الله ﷺ: «سل هذه»، لأم سلمة، فأخبرته أن =

مجموعهما القطع في اتباعهم أفعاله واقتداءهم بها، ولو جوزوا عليه المخالفة في شيء منها لما اتسق هذا، ولنقل عنهم وظهر بحثهم عن ذلك، ولما أنكر ﷺ على الآخر قوله واعتذاره بما ذكرناه.

وأما المباحات فجائز وقوعها منهم، إذ ليس فيها قدح، بل هي مأذون فيها وأيديهم كأيدي غيرهم إلَّا أنهم بما خصوا به من رفيع المنزلة وشُرحت لهم صدورهم من أنوار المعرفة واصطفوا به من تعلق بالهم بالله والدار الآخرة لا يأخذون من المباحات إلَّا الضرورات مما يتقوون به على سلوك طريقهم وصلاح دينهم وضرورة دنياهم. وما أخذ على هذه السبيل التحق طاعة وصار قربة كما بينا منه أول الكتاب طرفًا في خصال نبينا ﷺ.

فبان لك عظيم فضل الله على نبينا وعلى سائر أنبيائه عليهم الصلاة والسلام بأن جعل أفعالهم قربات وطاعات بعيدة عن وجه المخالفة ورسم المعصية(١).

الاختلاف في عصمة الأنبياء من المعاصي قبل النبوة

وقد اختلف في عصمة الأنبياء من المعاصي قبل النبوة، فمنعها قوم وجوزها آخرون، والصحيح إن شاء الله تعالى تنزيههم من كل عيب، وعصمتهم من كل ما يوجب الريب.

= رسول الله ﷺ يصنع ذلك، فقال: يا رسول الله قد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر. فقال له رسول الله ﷺ: «أما والله إني لأتقاكم لله وأخشاكم له».

(١) لقد أجاد الإمام عياض رحمه الله تعالى في هذا الموضوع ووفق في ذلك فجزاه الله تعالى خيرًا عن دفاعه عن جناب نبينا وسائر إخوانه من الأنبياء عليهم جميعًا الصلاة والسلام، وتبرئته إياهم مما يشين مقاماتهم ويخدش أعراضهم من النقائص المخلة بمروآتهم.

وقد اختلف الناس في حال نبينا ﷺ قبل أن يوحى إليه، هل كان متبعًا لشرع قبله أم لا؟ فقال جماعة: لم يكن متبعًا لشيء. وهذا قول الجمهور. فالمعاصي على هذا القول غير موجودة ولا معتبرة في حقه حينئذٍ؛ إذ الأحكام الشرعية إنما تتعلق بالأوامر والنواهي وتقرر الشريعة، ولم يكن شيء من ذلك قبل نبوته[1].

وقالت فرقة ثانية بالوقف في أمره ﷺ وترك قطع الحكم عليه بشيء من ذلك.

وقالت فرقة ثالثة: إنه كان عاملاً بشرع من قبله.

والأظهر: القول الأول؛ إذ لو كان شيء من ذلك لنقل ولم يخف جملة. ولا حجة لمن قال بأن عيسى آخر الأنبياء، فتلزم شريعته من جاء بعده؛ إذ لم يثبت عموم دعوته عليه السلام، بل الصحيح أنه لم يكن لنبي دعوة عامة إلاَّ لنبينا ﷺ. أما قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]، وقوله: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا...﴾ الآية [الشورى: ١٣]، وقوله عزَّ وجلّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]. فهي محمولة على اتباعهم في التوحيد. وقد سمى الله تعالى فيهم من لم يبعث ولم تكن له شريعة تخصه، وقد سمى تعالى جماعة منهم ـ في الآية الأخيرة ـ شرائعهم مختلفة لا يمكن الجمع بينها، فدل على أن المراد ما اجتمعوا عليه من التوحيد وعبادة الله تعالى وحده. وأما الشرائع والأحكام الفروعية لم يكن تابعًا فيها لأحد ولا كان مخاطبًا بشيء منها قبل البعثة[2].

---

(١) هذا معقول ووجيه لأنه لا تكليف قبل الشرع.

(٢) فما صدر منه قبل البعثة من الهفوات لو فرضناها كانت من قبيل المباحات على أصل البراءة الأصلية.

الأنبياء وغيرهم سواء
في ترك المؤاخذة على السهو والنسيان

هذا حكم ما تكون المخالفة فيه من الأعمال عن قصد، وهو ما يسمى معصية ويدخل تحت التكليف. وأما ما يكون بغير قصد وتعمد كالسهو والنسيان في الوظائف الشرعية مما تقرر الشرع بعدم تعلق الخطاب به وترك المؤاخذة عليه، فأحوال الأنبياء في ترك المؤاخذة به وكونه ليس بمعصية لهم مع أممهم سواء[1].

ثم ذلك على نوعين: ما طريقه البلاغ وتقرير الشرع وتعلق الأحكام وتعليم الأمة بالفعل وأخذهم باتباعهم فيه، وما هو خارج عن هذا مما يختص بنفسه. أما الأول فحكمه عند جماعة من العلماء حكم السهو في القول في هذا الباب[2]. وقد ذكرنا الاتفاق على امتناع ذلك في حق النبي ﷺ وعصمته من جوازه عليه قصدًا أو سهوًا، فكذلك قالوا: الأفعال في هذا الباب لا يجوز طرو المخالفة فيها لا عمدًا ولا سهوًا؛ لأنها بمعنى القول من جهة التبليغ والأداء، وحدوث هذه العوارض عليها يوجب التشكيك ويسبب المطاعن.

لكن ذهب الأكثر من الفقهاء والمتكلمين إلى أن المخالفة في الأفعال البلاغية والأحكام الشرعية سهوًا وعن غير قصد منه جائز عليه[3]، كما تقرر

---

(١) لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقوله ﷺ: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان...» إلخ، رواه ابن ماجه ٢٠٤٥، والطحاوي في معاني الآثار ٢/٥٦، والحاكم ٢/١٩٨، وغيرهم من طريقين عن ابن عباس، وصححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي. فالمؤاخذة على الخطأ والنسيان.. موضوعة عن الأمة، ونبيها ﷺ مثلها.

(٢) وهذا قول مرجوح ومرغوب عنه؛ لمخالفته للنصوص، كما سيبين المؤلف.

(٣) وهذا هو الصواب الموافق للأحاديث التي جاء فيها سهوه ﷺ ونسيانه..

من أحاديث السهو في الصلاة، وفرقوا بين ذلك وبين الأقوال البلاغية؛ لقيام المعجزة على الصدق في القول، ومخالفة ذلك تناقضها. وأما السهو في الأفعال فغير مناقض لها ولا قادح في النبوة، بل غلطات الفعل وغفلات القلب من سمات البشر، كما قال ﷺ: «إنما أنا بشر أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكروني»[1]. نعم حالة النسيان والسهو هنا في حقه ﷺ سبب إفادة علم وتقرير شرع، وهذه الحالة زيادة له في التبليغ وتمام عليه في النعمة، بعيدة عن سمات النقص وأغراض الطعن؛ فإن القائلين بتجويز ذلك يشترطون أن الرسل لا تقر على السهو والغلط، بل ينبهون عليه ويعرفون حكمه بالفور على قول بعضهم ـ وهو الصحيح ـ، وقبل انقراضهم على قول الآخرين.

وأما ما ليس طريقه البلاغ ولا بيان الأحكام من أفعاله ﷺ وما يختص به من أمور دينه وأذكار قلبه مما لم يفعله ليتبع فيه فالأكثر من طبقات علماء الأمة على جواز السهو والغلط عليه فيها، ولحوق الفترات والغفلات بقلبه، وذلك بما كلفه من مقاساة الخلق وسياسة الأمة ومعاناة الأهل وملاحظة الأعداء، لكن ليس على سبيل التكرار ولا الاتصال بل على سبيل الندور، كما قال ﷺ: «إنه ليغان على قلبي فاستغفر الله»[2] وليس في هذا شيء يحط من رتبته ويناقض معجزته.

---

(١) رواه أحمد ١/ ٤٢٠، والبخاري في القبلة ٢/ ٥٠، ومسلم في المساجد ٥/ ٦١، ٦٢، ٦٦، وغيرهم من حديث ابن مسعود. قال الحافظ في الفتح: وفيه دليل على جواز وقوع السهو من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الأفعال. قال ابن دقيق العيد: وهو قول عامة العلماء والنظار. وشذت طائفة فقالوا: لا يجوز على النبي السهو. وهذا الحديث يرد عليهم... إلخ.

(٢) تقدم تخريجه والكلام عليه ص ١٥٥.

وذهبت طائفة إلى منع السهو والنسيان والغفلات والفترات في حقه ﷺ جملة[1]، وهو مذهب جماعة المتصوفة وأصحاب علم القلوب والمقامات، ولهم في هذه الأحاديث مذاهب سنذكرها بعد إن شاء الله تعالى.

الكلام على أحاديث السهو منه ﷺ

وقد قدمنا في الفصول قبل هذا ما يجوز فيه عليه السهو ﷺ وما يمتنع وأحلناه في الأخبار جملة وفي الأقوال الدينية قطعًا، وأجزنا وقوعه في الأفعال الدينية على الوجه الذي رتبناه، وأشرنا إلى ما ورد في ذلك. ونحن نبسط القول فيه.

والصحيح من الأحاديث الواردة في سهوه ﷺ في الصلاة ثلاثة أحاديث[2]، أولها: حديث ذي اليدين في السلام من اثنتين[3]، الثاني: حديث ابن بحينة في القيام من اثنتين[4]، الثالث حديث ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ صلَّى الظهر خمسًا[5]. وهذه الأحاديث مبنية على

---

(١) وقد عرفت أن ذلك يخالف النصوص الشرعية، ولا كلام لأحد مع نص الشارع كائنًا من كان.

(٢) بل خمسة كما سنذكر عقبها.

(٣) هذا رواه البخاري ٣/ ٣٣٩، ٣٤٣، ومسلم ٥/ ٦٧، ٧٠ وباقي الجماعة من حديث أبي هريرة مطولاً وبألفاظ.

(٤) رواه البخاري ٣/ ٣٤٠، ومسلم ٥/ ٥٨ وباقيهم أيضًا.

(٥) البخاري ٣/ ٣٣٦، ومسلم ٥/ ٦٤، وباقي الجماعة هذا ما ذكره المؤلف، وبقي عليه حديثان.

الحديث الرابع: عن عمران بن حصين رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ صلَّى العصر فسلم في ثلاث ركعات، ثم دخل منزله فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله. . . فذكر له صنيعه. . وخرج غضبان يجر رداءه حتى انتهى إلى الناس فقال: «أصدق هذا»؟ قالوا: نعم. فصلَّى ركعة ثم سلَّم، ثم سجد سجدتين ثم سلم. رواه مسلم =

السهو في الفعل الذي قررناه، وحكمة الله فيه ليستن به؛ إذ البلاغ بالفعل أجلى منه بالقول وأرفع للاحتمال، وشرطه أن لا يقر على السهو بل يشعر به ليرتفع الالتباس وتظهر فائدة الحكمة كما قدمناه، وأن النسيان والسهو في الفعل في حقه ﷺ غير مضاد للمعجزة ولا قادح في التصديق. وقد قال ﷺ: «إنما أنا بشر أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني»[1]. وقال: «رحم الله فلانًا لقد أذكرني كذا وكذا آية كنت أسقطتهن» ويروى: «أنسيتهن»[2].

وذهبت طائفة من أهل المعاني والكلام على الحديث إلى أن النبي ﷺ كان يسهو في الصلاة ولا ينسى؛ لأن النسيان ذهول وغفلة وآفة والنبي ﷺ منزه عنها، والسهو شغل، فكان ﷺ يسهو في صلاته ويشغله عن حركات الصلاة ما في الصلاة شغلاً بها لا غفلة عنها.

وذهبت طائفة أخرى إلى منع هذا كله عنه وقالوا: إن سهوه ﷺ كان عمدًا أو قصدًا ليسن. وهذا قول مرغوب عنه متناقض المقاصد؛ لأنه كيف يكون متعمدًا ساهيًا في آن واحد؟![3].

= ٥/ ٧٠/ ٧٣، وأبو داود والنسائي وغيرهم.

الحديث الخامس: عن عطاء أن ابن الزبير صلَّى المغرب فسلَّم في ركعتين، فنهض ليستلم الحجر فسبَّح القوم فقال: ما شأنكم؟... قال: فصلى ما بقي وسجد سجدتين. قال: فذكرت ذلك لابن عباس فقال: ما أماط عن سنة نبيه ﷺ. رواه أحمد ١/ ٣٥١. قال في مجمع الزوائد ٢/ ١٥٠ بعد أن عزاه لأحمد، والطبراني والبزار: رجال أحمد رجال الصحيح، ونحوه عن أبي موسى عند كبير الطبراني برجال الصحيح أيضًا.

(١) تقدم قريبًا ص ٤٣٩.

(٢) رواه أحمد ٦/ ٦٢، ١٣٨، والبخاري في الشهادات ٦/ ١٩٣، وفي فضائل القرآن، ومسلم في فضائل القرآن ٦/ ٧٥، وغيرهم من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها.

(٣) هذا معلوم بطلانه بداهة.

نعم قد يسهو بطاعة عن طاعة، كما ترك الصلاة يوم الخندق حتى خرج وقتها وشغل بالتحرز من العدو عنها، حتى ترك أربع صلوات: الظهر والعصر والمغرب والعشاء[1]. وكان ذلك قبل نزول صلاة الخوف.

فإن قلت: فما تقول في نومه ﷺ عن الصلاة يوم الوادي[2] وقد قال: «إن عيني تنامان ولا ينام قلبي»[3]؟!

فاعلم أن للعلماء عن ذلك أجوبة:

منها: أن المراد بأن هذا حكم قلبه عند نومه وعينيه في غالب الأوقات، وقد يندر منه غير ذلك ويصحح هذا التأويل قوله ﷺ في الحديث نفسه: «إن الله قبض أرواحنا». وقول بلال فيه: (ما ألقيت (عليّ) نومة مثلها قط)[4]. ولكن مثل هذا إنما يكون منه لأمر يريده الله من إثبات حكم

---

(١) ورد بهذا حديثان: حديث أبي سعيد الخدري قال: حبسنا يوم الخندق عن الصلوات حتى كان بعد المغرب هويًا وذلك قبل أن ينزل في القتال ما نزل.. قال فأقام الظهر فصلاها كما يصليها في وقتها، ثم أقام العصر فصلاها كما يصليها في وقتها، ثم أقام المغرب... إلخ. رواه أحمد ٣/ ٢٥، وابن خزيمة ٩٩٦، وابن حبان ٢٨٥، والطحاوي في المعاني ١/ ٣٢١ بسندٍ صحيح، وله شاهد عن ابن مسعود عند الترمذي والنسائي. الحديث الثاني: عن جابر: جاء عمر النبي ﷺ يوم الخندق فجعل يسب كفار قريش ويقول: يا رسول الله ما صليت صلاة العصر حتى كادت أن تغيب، قال النبي ﷺ: «والله ما صلينا بعد»، فنزلنا إلى بطحان فتوضأ رسول الله ﷺ وتوضّأنا فصلّى رسول الله ﷺ العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلّى المغرب. رواه البخاري في المواقيت ٢/ ٢٠٨ وفي مواضع، ومسلم ٥/ ١٣١، ١٣٢، وجاء من غير وجه وبألفاظ.

(٢) تقدم ص ٤٠٩.

(٣) تقدم ص ١٠٢.

(٤) وهو بعض حديث نومهم عن الصلاة المتقدم ص ٤٠٩.

وتأسيس سنة وإظهار شرع، وكما قال في الحديث الآخر: «لو شاء الله لأيقظنا ولكن أراد أن يكون لمن بعدكم».

الثاني: أن قلبه لا يستغرقه النوم حتى يكون منه الحدث فيه، لما ورد: «أنه كان ينام حتى ينفخ وحتى يسمع غطيطه[١] ثم يصلي ولا يتوضأ»، وحديث ابن عباس المذكور فيه وضوءه عند قيامه من النوم فيه نومه مع أهله[٢] فلا يمكن الاحتجاج به على وضوئه بمجرد النوم، إذ لعل ذلك لملامسة الأهل أو لحدث آخر، فكيف وفي آخر الحديث نفسه: «ثم نام حتى سمعت غطيطه ثم أقمت الصلاة فصلّى ولم يتوضأ». وقيل: لا ينام قلبه من أجل أنه يوحى إليه في النوم. وليس في قصة الوادي إلاَّ نوم عينيه عن رؤية الشمس وليس هذا من فعل القلب، وقد قال ﷺ: «بأن الله قبض أرواحنا ولو شاء لردها إلينا»[٣].

فإن قيل: فلولا عادته من استغراق النوم لما قال لبلال: «اكلأ لنا الصبح».

فقيل في الجواب: إنه كان من شأنه ﷺ التغليس بالصبح، ومراعاة أول الفجر لا تصح ممن نامت عينه، إذ هو ظاهر يدرك بالجوارح الظاهرة، فوكل بلالاً بمراعاة أوله ليعلمه بذلك، كما لو شغل بشغل غير النوم مع مراعاته.

فإن قيل: فما معنى نهيه ﷺ عن القول: «نسيت» وقد قال ﷺ «إني أنسىٰ كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني»[٤]. وقال: «لقد أذكرني كذا وكذا آية

---

(١) هو حديث واحد مع الحديث الآتي وقد تقدم أيضًا ص ٩٠.

(٢) هو حديث واحد مع سابقه وقد تقدم أيضًا ص ٩٠.

(٣) هو بعض حديث نومهم ص ٤٠٩.

(٤) تقدم ص ٤٣٩.

كنت أنسيتها»[1].

فاعلم أكرمك الله أنه لا تعارض في هذه الألفاظ. أما نهيه عن أن يقال «نسيت آية كذا» فمحمول على ما نسخ نقله من القرآن، أي: أن الغفلة في هذا لم تكن منه، ولكن الله تعالى اضطره إليها ليمحو ما يشاء ويثبت، وما كان من سهو أو غفلة من قبله تذكرها صح أن يقال فيها «أنسي». وقد قيل: إن هذا منه ﷺ على طريق الاستحباب أن يضيف الفعل إلى خالقه، والآخر على طريق الجواز لاكتساب العبد فيه، وإسقاطه ﷺ لما أسقط من هذه الآيات جائز عليه بعد بلاغ ما أمر ببلاغه وتوصيله إلى عباده، ثم يستذكرها من أمته أو من قبل نفسه إلَّا ما قضى الله نسخه ومحوه من القلوب وترك استذكاره. وقد يجوز أن ينسى النبي ﷺ ما هذا سبيله كرة، ويجوز أن ينسيه منه قبل البلاغ ما لا يغير نظمًا ولا يخلط حكمًا مما لا يدخل خللاً في الخبر ثم يذكره إياه، ويستحيل دوام نسيانه له لحفظ الله كتابه وتكليفه بلاغه.

إبطال قول من أجاز على الأنبياء صدور المعاصي الصغائر منهم

اعلم أن المجوزين للصغائر على الأنبياء من الفقهاء والمحدثين ومن شايعهم على ذلك من المتكلمين احتجوا على ذلك بظواهر كثيرة من القرآن والحديث إن التزموا ظواهرها أفْضَتْ بهم إلى تجويز الكبائر وخرق الإجماع وما لا يقول به مسلم، فكيف وكل ما احتجوا به مما اختلف المفسرون في معناه وتقابلت الاحتمالات في مقتضاه وجاءت أقاويل فيها للسلف بخلاف ما التزموه من ذلك، فإذا لم يكن مذهبهم إجماعًا وكان الخلاف فيما احتجوا

(١) تقدم قريبًا ص ٤٤١.

به قديمًا وقامت الدلائل على خطأ قولهم وصحة غيره وجب تركه، والمصير إلى ما صح[1].

حجج من أجاز الصغائر على الأنبياء

وها نحن نأخذ في النظر فيها إن شاء الله تعالى:

فمن ذلك: قوله تعالى لنبينا ﷺ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٤٨].

وقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩].

وقوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾ [الشرح: ٢، ٣].

وقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣].

وقوله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٦٨﴾ [الأنفال: ٦٨].

وقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ [عبس: ١، ٢].

وما قص من قصص غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام:

كقوله عزَّ وجلّ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١﴾ [طه: ١٢١]. .

وقوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ [الأعراف: ١٩٠].

وقوله عن آدم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ الآية [الأعراف: ٢٣].

---

(١) القول بتجويز الذنوب الصغائر على الأنبياء وخاصةً بعد البعثة والنبوة باطل فاسد نقلاً وعقلاً، وكل ما جاء مما يوهم ضده فمؤول ولا بد كما سيبين ذلك الشيخ رحمه الله تعالى.

وقوله عن يونس عليه السلام: ﴿سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ۝٨٧﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وما ذكره تعالى من قصة داود عليه السلام، وقوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤]. وقوله في يوسف عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤]، وما قص من قصته مع إخوته.

وقوله عن موسى عليه السلام: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [القصص: ١٥].

وقول النبي ﷺ في دعائه: «اللّٰهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت» ونحوه من أدعيته ﷺ[١].

وذكر الأنبياء في الموقف ذنوبهم في حديث الشفاعة[٢].

وقوله: «إنه ليغان على قلبي فاستغفر الله»[٣].

وفي حديث أبي هريرة: «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»[٤].

وقوله تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي﴾ [هود: ٤٧]. وقد كان قال الله له: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ۝٣٧﴾ [هود: ٣٧]. وقال عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ۝٨٢﴾ [الشعراء: ٨٢].

---

(١) رواه أحمد ٤/٤١٧، والبخاري ١٣/٤٥٢، ٤٥٤، ومسلم ١٧/٣٩، ٤٠، كلاهما في الأدعية من حديث أبي موسى رضي الله تعالى عنه.

(٢) تقدم ص ١٩٢.

(٣) تقدم ص ١٥٥.

(٤) تقدم ص ١٥٥.

وقوله عن موسى عليه السلام: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وقوله عن سليمان عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ [ص: ٣٤].

إلى ما أشبه هذه الظواهر.

الجواب عن هذه الحجج

فأما احتجاجهم بقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، فهذا قد اختلف فيه المفسرون. فقيل: المتقدم ما كان قبل النبوة، والمتأخر عصمتك بعدها. وقيل: ما كان عن سهو وغفلة وتأويل[١].

---

(١) لا بد من أحد هذين القولين، وما في معناهما، ويعجبني هنا ما قاله السبكي في هذه الآية، حيث قال: أجمعت الأمة على عصمة الأنبياء فيما يتعلق بالتبليغ وفي غير ذلك من الكبائر ومن الصغائر، الرذيلة التي تحط مرتبتهم، ومن المداومة على الصغائر هذه الأربعة مجمع عليها، واختلف في الصغائر التي لا تحط من مرتبتهم، فذهبت المعتزلة وكثير من غيرهم إلى جوازها، والمختار المنع، لأنا مأمورون بالاقتداء بهم في كل ما يصدر منهم من قول أو فعل، فكيف يقع منهم ما لا ينبغي ويؤمر بالاقتداء فيه؟ قال: والذي جوز ذلك لم يجوزها بنص ولا دليل إنما أخذ ذلك من هذه الآية ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ [الفتح: ٢]. قال: ولقد تأملتها مع ما قبلها وما بعدها فوجدتها لا تحتمل إلاَّ معنى واحدًا، وهو تشريف النبي ﷺ غير أن يكون هناك ذنب... إلى آخر ما قال. ذكره السيوطي في الخصائص.

وقال ابن كثير في التفسير: هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ وهو ﷺ في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو ﷺ أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم في الدنيا والآخرة... إلخ.

وقال الخازن: وتؤول ـ يعني الآية ـ لأن النبي ﷺ لم يكن له ذنب كذنوب غيره، فالمراد بذكر الذنب هنا: ما عسى أن يكون وقع منه من سهو ونحو ذلك؛ لأن حسنات الأبرار سيآت المقربين، فسماه ذنبًا، فما كان من هذاالقبيل وغيره فهو =

وقيل غير ذلك.

وأما قوله: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝ ﴾ [الشرح: ٢، ٣]. فقيل: ما سلف قبل النبوة، من الأمور التي فعلها وحرمت عليه بعد النبوة وعدها وزرًا مجازًا. وقيل: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ ﴾ [الشرح: ٢] عصمناك من الذنوب بحيث لو كانت لأنقضت ظهرك. وقيل: ما فعله باجتهاد، كأخذ الفداء من أسارى بدر، وإذنه للمنافقين في التخلف عن الغزو معه، وأمثال ذلك. وقيل: ما أثقل ظهره من أعباء الرسالة حتى بلغها[١].

وأما قوله: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٤٣]، فأمر لم يتقدم للنبي ﷺ فيه من الله نهي فيعد معصية، ولا عده الله تعالى عليه معصية، بل لم يعده أهل العلم معاتبة. وغلّطوا من ذهب إلى ذلك. قال العلماء: إنه قد كان مخيرًا في أن يفعل ما شاء فيما لم ينزل عليه فيه وحي فكيف وقد قال الله تعالى له: ﴿ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ [النور: ٦٢]. فلما أذن لهم أعلمه الله بما لم يطلع عليه من سرهم أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا وأنه لا حرج عليه فيما فعل. وليس ﴿عَفَا﴾ هنا بمعنى غفر، بل كما قال ﷺ: «عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق»[٢]. ولم تجب عليهم قط، أي: لم

= مغفور له... إلخ.

وقال الجلال: هو مؤول؛ لعصمة الأنبياء بالدليل العقلي القاطع من الذنوب.

(١) لا مندوحة عن أحد هذه الأقوال أيضًا. قال المفسرون: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ﴾ [الشرح: ٢]، أي: وضعنا عنك ما كنت فيه من أمر الجاهلية. قالوا: وليس المراد بالذنوب المعاصي والآثام؛ فإن الأنبياء معصومون من مقارفة الجرائم.

(٢) رواه أحمد رقم ٧١١، وأبو داود ١٥٧٤، والترمذي ٥٥٢، والنسائي ٥/٢٧، وابن ماجه ١٧٩٠، وغيرهم من حديث علي وسنده صحيح عند بعضهم، وله شاهد في الصحيحين عن أبي هريرة.

يلزمكم ذلك. فقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ هو استفتاح كلام، مثل: أصلحك الله وأعزك، وقد تقدم الكلام على هذا أول الكتاب.

وأما قوله في أسارى بدر: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ [الأنفال: ٦٧] الآيتين، فليس فيه إلزام ذنب للنبي ﷺ، بل فيه بيان ما خص به وفضل من بين سائر الأنبياء، فكأنه قال: ما كان هذا لنبي غيرك. كما قال ﷺ: «أحلت لي الغنائم ولم تحل لنبي قبلي»[(١)].

فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا...﴾ الآية [الأنفال: ٦٧].

قيل: الخطاب لمن أراد ذلك منهم وتجرد غرضه لعرض الدنيا وحده والاستكثار منها، وليس المراد بهذا النبي ﷺ ولا علية أصحابه[(٢)].

ثم قال تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ [الأنفال: ٦٨] فاختلف المفسرون في معنى الآية، فقيل: معناها: لولا أنه سبق مني أن لا أعذب أحدًا إلاَّ بعد النهي لعذبتكم. فهذا ينفي أن يكون أمر الأسارى معصية. وقيل: لولا أنه سبق في اللوح المحفوظ أنها حلال لعوقبتم. فهذا كله ينفي الذنب والمعصية لأن من فعل ما أحل له لم يعص؛ قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾[(٣)] [الأنفال: ٦٩]. وقيل: كان ﷺ قد خير في ذلك؛ فعن علي رضي الله تعالى عنه قال: جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ يوم بدر فقال: خير أصحابك في الأسارى إن شاءوا القتل، وإن شاءوا الفداء، على

---

(١) تقدم ص ١٦٤ وهو جزء من حديث.

(٢) الآية نزلت في شأن غزوة بدر، وجاء الخطاب الكريم للصحابة الذين كان همهم الغنيمة.

(٣) هذا الأخير جاء عن ابن عباس وأبي هريرة وابن مسعود وسعيد بن جبير والحسن البصري وعطاء، واختاره ابن جرير.

أن يقتل منهم في العام المقبل مثلهم. فقالوا: الفداء ويقتل منا[1]. وهذا دليل على صحة ما قلنا وأنهم لم يفعلو إلاَّ ما أذن لهم فيه لكن بعضهم مال إلى أضعف الوجهين مما كان الأصلح غيره من الإثخان والقتل؛ فعوتبوا على ذلك، وبين لهم ضعف اختيارهم وتصويب اختيار غيرهم، وكلهم غير عصاة ولا مذنبين.

فهذا كله يدل على أن فعل النبي ﷺ في شأن الأسارى كان على تأويل وبصيرة، فلم ينكره الله تعالى عليهم، لكن الله تعالى أراد لعظم أمر بدر وكثرة أسراها والله أعلم، أراد إظهار نعمته وتأكيد منته، بتعريفهم ما كتبه في اللوح المحفوظ من حل ذلك لهم، لا على وجه العتاب وإنكار وتذيب.

وأما قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ [عبس: ١].. فليس فيه إثبات ذنب له ﷺ، بل إعلام الله: أن ذلك المتصدَّى له ممن لا يتزكى، وأن الصواب والأولى كان ــ لو كشف لك حال الرجلين ــ الإقبال على الأعمى[2]، وفعل النبي ﷺ لما فعل وتصديه لذلك الكافر كان طاعة لله، وتبليغًا عنه واستئلافًا له كما شرعه الله له، لا معصية ومخالفة له. وما قصه الله من ذلك إعلام بحال الرجلين وتوهين أمر الكافر عنده، والإشارة إلى الإعراض عنه بقوله: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾ [عبس: ٧].

---

(١) رواه الترمذي في السير ١٤٣٨ بتهذيبي، وابن حبان ١٦٩٤ بالموارد بسند صحيح على شرط مسلم، والمرسل لا يؤثر في اتصاله.

(٢) الأعمى هو عَمْرو بن أم مكتوم أتى النبي ﷺ فقال له: علمني يا رسول الله مما علمك الله. وكان ﷺ مشغولاً بدعوة بعض الكفار إلى الله ولم يشعر الأعمى بذلك، فجعل يلح في السؤال، فكلح النبي ﷺ وجهه وأعرض عنه، فنزلت الآية. والأمر فيها كما أجاب القاضي رحمه الله تعالى.

وأما قصة سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾ [طه: ١٢١] بعد قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣٥﴾ [البقرة: ٣٥]، وقوله: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، وتصريحه تعالى عليه بالمعصية بقوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١﴾ [طه: ١٢١]، أي: جهل. وقيل: أخطأ.

فإن الله تعالى قد أخبر بعذره بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ۝١١٥﴾ [طه: ١١٥]، فنسي عداوة إبليس له وما عهد الله إليه من ذلك بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه: ١١٧]. قال ابن عباس: إنما سمي الإنسان إنسانًا لأنه عهد إليه فنسي. وقيل: لم يقصد المخالفة استحلالاً لها ولكنه اغتر بحلف إبليس لهما: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢١﴾ [الأعراف: ٢١]. وتوهما أن أحدًا لا يحلف بالله حانثًا. ويدل لعدم قصده المخالفة قوله تعالى: ﴿فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ۝١١٥﴾ [طه: ١١٥]، أي: قصدًا للمخالفة. وأكثر المفسرين على أن العزم هنا الحزم والصبر. فإذا كان ناسيًا لم تكن معصية، وكذلك إذا كان مُلبسًا عليه غالطًا، للاتفاق على خروج الناسي والساهي عن حكم التكليف. وقال الشيخ أبو بكر بن فورك رحمه الله تعالى: إنه يمكن أن يكون ذلك قبل النبوة، ودليل ذلك قوله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۝١٢٢﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢]، فذكر أن الاجتباء والهداية كان بعد العصيان. وقيل غير ذلك[1].

وسيأتي آخر الفصل الجواب عن قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ

(١) على كل الأحوال فأكله كان نسيانًا ولم يكن قاصدًا ولا متعمدًا للمخالفة، كما هو نص الآية، كما أن ذلك كان قبل نبوته كما يشير قوله: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ...﴾ الآية [طه: ١٢٢] فانهارت حجة المخالفين والطاعنين الملحدين.

فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ [طه: ١٢١]، وقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: ١٢٢]، وقوله في حديث الشفاعة: ويذكر ذنبه: «وإني نهيت عن أكل الشجرة فعصيت»[١].

وأما قصة سيدنا يونس عليه الصلاة والسلام فقد مضى الكلام على بعضها آنفًا، وليس في قصته نص على ذنب، وإنما فيها ﴿أَبَقَ﴾ [الصافات: ١٤٠] و ﴿ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧][٢]. وقيل: إنما نقم الله عليه خروجه عن قومه فارًّا من نزول العذاب. وقيل غير ذلك. وقد قدمنا بعض ما في ذلك، وكل ذلك ليس فيه نص على معصية إلاَّ على قول ضعيف شاذ.

وقوله تعالى: ﴿أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ [الصافات: ١٤٠]. قال المفسرون: تباعد. وأما قوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾[٣] [الأنبياء: ٨٧]، فالظلم وضع الشيء في غير موضعه، فهذا اعتراف منه عند بعضهم بذنبه، فإما أن يكون لخروجه عن قومه بغير إذن ربه، أو لضعفه عما حُمِّله، أو لدعائه بالعذاب على قومه. وقد دعا نوح بهلاك قومه فلم يؤاخذ. وقال بعضهم في معناه: نَزَّهَ ربَّه عن الظلم وأضاف الظلم إلى نفسه اعترافًا واستحقاقًا، ومثل هذا قول آدم وحواء: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف:

---

(١) تقدم ص ١٩٢.

(٢) قال المفسرون: لما دعا يونس قومه فلم يؤمنوا به ضجر منهم، فخرج مغاضبًا لهم، فحصل له ما حصل، لأنه أتى خلاف الأولى، ولما ابتلعه الحوت ونادى الله تعالى بقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فعد ما صدر منه من المغاضبة ظلمًا لأنه خلاف ما كان ينبغي له سلوكه من الصبر وتحمل أذى قومه. وليس ذلك معصية. والأنبياء ومن على دربهم يؤدبون على ترك المستحب وارتكاب خلاف الأفضل لعلو درجاتهم.

(٣) انظر التعليق السابق.

٢٣]، إذ كان السبب في وضعهما في غير الموضع الذي أنزلا فيه، وأخرجهما من الجنة وإنزالهما إلى الأرض.

وأما قصة سيدنا داود عليه الصلاة والسلام فلا يجب أن يلتفت إلى ما سطره فيه الأخباريون عن أهل الكتاب، الذين بدلوا وغيروا، ونقله بعض المفسرين، ولم ينص الله على شيء من ذلك، ولا ورد في حديث صحيح، والذي نص الله تعالى عليه قوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩﴾ [ص: ٢٤]، وقوله فيه: ﴿أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٢] فمعنى (فتناه): اختبرناه. وأواب: قال قتادة: مطيع. وهذا التفسير أولى. قال ابن عباس وابن مسعود: مازاد داود على أن قال للرجل: انزل لي عن امرأتك وأكفلنيها، فعاتبه الله على ذلك ونبهه عليه، وأنكر عليه شغله بالدنيا، وهذا الذي ينبغي أن يعول عليه من أمره. وقيل: خطبها على خطبته، وقيل: بل لما خشي على نفسه وظن من الفتنة بما بسط له من الملك والدنيا.

وإلى نفي ما أضيف في الأخبار إلى داود ذهب المحققون. قال الداودي: ليس في قصة داود وأوريا خبرٌ يثبت، ولا يظن بنبي محبة قتل مسلم ليتزوج زوجته[(١)]. وقيل: إن الخصمين اللذين اختصما إليه رجلان في

---

(١) ما قاله الإخباريون في هذه القصة ونقله عنهم بعض المفسرين هو من الكذب والافتراء المنقول عن اليهود الذين يجوزون صدور جريمة الزنا من الأنبياء، فلا اعتبار بذلك، وما نسبوه إلى نبي الله داود عليه الصلاة والسلام يجل عنه مطلق أفراد الصالحين بل فساق المؤمنين، فكيف بنبي رسول معصوم عن الصغائر فضلاً عن كبار الفواحش؟! فكل ما ذكر عنه مما يشين دينه وعرضه ومقامه لا يلتفت إليه ولا يجوز نسبته إليه ولا اعتقاده. ويعجبني في هذا المقام ما قاله أبو حيان في البحر: والذي يدل عليه ظاهر الآية من أن المتسورين المحراب كانوا من الإنس، دخلوا عليه من غير المدخل وفي غير وقت جلوسه للحكم، وأنه فزع منهم ظنًا منه أنهم يغتالونه إذ كان منفردًا في محرابه لعبادة ربه، فلما اتضح له أنهم =

نتاج غنم على ظاهر الآية[1].

وأما قصة سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام وإخوته فليس على يوسف منها تعقب، وأما إخوته فلم تثبت نبوتهم، فيلزم الكلام على أفعالهم. وذكر الأسباط وعدهم في القرآن عند ذكر الأنبياء، قال المفسرون: يريد مَنْ نُبّىء من أبناء الأسباط. وقد قيل: إنهم كانوا حين فعلوا بيوسف ما فعلوا صغار الأسنان، ولهذا لم يميزوا يوسف حين اجتمعوا به، ولهذا قالوا: ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ [يوسف: ١٢]، وإن ثبتت لهم نبوة فبعد هذا والله أعلم[2].

= جاءوا في حكومة وبرز منهم اثنان للتحاكم كما قص الله تعالى، فاستغفر من ذلك الظن وخر ساجدًا لله تعالى. ونحن نعلم قطعًا أن الأنبياء معصومون من الخطايا، إذ لو جوزنا عليهم شيئًا من ذلك لبطلت الشرائع ولم نثق بشيء مما يذكرون، فما حكى الله في كتابه يمر على ما أراده الله عزَّ وجلّ... إلخ.

وهو كلام في غاية النفاسة. وإلى هذا نحى ابن كثير فقال بعد كلام: فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يرد علمها إلى الله عزَّ وجل، فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضًا...

ووجه بعض المحققين استغفار داود أنه أضمر في نفسه أن يبطش بالخصمين، فلما عرضا عليه الحكومة وتحقق عنده خلاف ما ظن ندم على ظنه وما أضمره فاستغفر لذلك، وقيل: استغفر لقضائه لأحد الخصمين قبل أن يسمع كلام الآخر...

(١) هذا هو الأسلم بل الواجب، وغيره خلاف الظاهر، لا سيما ولم يصح شيء عن النبي ﷺ سواه، والتأويل أو المجاز لا يصار إليها إلاَّ لدليل، وإني أتعجب كثيرًا من المفسرين الذين أوردوا تلك القصة الباطلة التي افتراؤها واضح لا يخفى، لا سيما وفي هؤلاء أمثال القرطبي والخازن وأبو السعود والبيضاوي وابن جزي... والكمال لله وحده.

(٢) فيكون ما صدر منهم كان قبل نبوتهم وفي صغارهم على القول بجواز صدور الذنب عليهم قبل النبوة.

وأما قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ [يوسف: ٢٤]. فعلى مذهب كثير من الفقهاء والمحدثين أن هم النفس لا يؤاخذ به، وليست سيئة لقوله ﷺ عن ربه: «إذا هم عبدي بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة»[١] فلا معصية في همه إذًا، وأما على مذهب المحققين من الفقهاء والمتكلمين فإن الهم إذا وُطِّنَت عليه النفسُ سيئة، وأما ما لم تُوَطَّن عليه النفس من همومها وخواطرها فهو المعفو عنه[٢]. وهذا هو الحق، فيكون إن شاء الله هم يوسف من هذا، ويكون قوله: ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ... ﴾ الآية [يوسف: ٥٣]، أي: ما أبرئها من هذا الهم. أو يكون ذلك منه على طريق التواضع والاعتراف بمخالفة النفس لما زكى قَبلُ وبُرِىء. كيف وقد قال الله تعالى عن المرأة: ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ [يوسف: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ﴾ [يوسف: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ﴾ [يوسف: ٢٣]، وقيل: كان ذلك منه قبل نبوته.

وأما خبر موسى ﷺ مع قتيله الذي وكزه، فقد نص الله تعالى أنه من عدوه الذي كان من القبط على دين فرعون. ودليل السورة في هذا كله أنه كان قبل نبوته، ثم إنه لم يتعمد قتله، فعلى هذا لا معصية في ذلك[٣].

---

(١) رواه مسلم في الإيمان ٣/ ١٤٧، ١٤٥ من حديث أبي هريرة. وفي رواية: وإذا تحدث بأن يعمل سيئة... إلخ. يعني به: حديث النفس.

(٢) لأن ذلك مما لا يطاق دفعه، وهو من طبيعة البشر، فإذا وطن عليه وحصل عزم ونية وعقد عليه كتب ذلك معصية، وهذا لم يحصل لسيدنا يوسف عليه السلام، بل همه من القسم الأول. وانظر للتوسع: شرح النووي على مسلم.

(٣) الأمر في ذلك واضح على كلا الوجهين.

أما قوله: ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ [القصص: ١٥]، وقوله: ﴿ ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى ﴾ [القصص: ١٦]، قال ذلك من أجل أنه لا ينبغي لنبي أن يقتل حتى يُؤمَرَ، مع أنه لم يقتله مريدًا القتل، وإنما وكزه وكزة يريد بها دفع ظلمه.

وقوله تعالى: ﴿ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾ [طه: ٤٠]، أي: ابتليناك ابتلاء. بعد ابتلاء. قيل: في هذه القصة وما جرى له مع فرعون. وقيل: إلقاؤه في التابوت، وقيل: معناه أخلصناك إخلاصًا. وأصل الفتنة معنىً الاختبار وإظهار ما بطن. إلاَّ أنه استعمل في عرف الشرع في اختبار أدى إلى ما يكره.

وكذلك ما روي في الخبر الصحيح من أن ملك الموت جاءه فلطم عينه ففقأها[1]. الحديث ليس فيه ما يحكم على موسى عليه السلام بالتعدي وفعل ما لا يجب، إذ هو ظاهر الأمر بين الوجه جائز الفعل، لأن موسى دافع عن نفسه من أتاه لإتلافها، وقد تصور له في صورة آدمي، ولا يمكن أنه علم حينئذٍ أنه ملك الموت فدافعه عن نفسه مدافعة أدت إلى ذهاب عين تلك الصورة التي تصور له فيها الملك امتحانًا من الله، فلما جاءه بعد وأعلمه الله تعالى أنه رسوله إليه استسلم. وللعلماء في هذا الحديث أجوبة هذا أسدها، وهو اختيار المازري رحمه الله تعالى[2].

وأما قصة سليمان عليه الصلاة والسلام وما حكي فيها أهل التفاسير من ذنبه وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ ﴾ [ص: ٣٤] فمعناه: ابتليناه، وابتلاؤه: ما جاء عن النبي ﷺ: «أنه قال: لأطوفن الليلة على مائة امرأة، أو تسع وتسعين كلهن يأتين بفارس يجاهد في سبيل الله. فقال له صاحبه: قل

---

(١) رواه البخاري في الأنبياء ٦/ ٢٥٢، ومسلم في الفضائل ١٥/ ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، وغيرهما من حديث أبي هريرة.

(٢) وانظر لزيادة البسط: فتح الباري للحافظ ٦/ ٢٥٣. والعبر لكاتبه.

إن شاء الله. فلم يقل، فلم تحمل منهن إلاَّ واحدة جاءت بشق رجل»، قال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو قال إن شاء الله، لجاهدوا في سبيل الله»[1].

قال أصحاب المعاني: والشق هو الجسد الذي ألقي على كرسيه حين عرض عليه، وهي عقوبته ومحنته. وقيل: مات فألقي على كرسيه ميتًا. وقيل: ذنبه: حرصه على ذلك وتمنيه، وقيل: لأنه لم يستثن لما استغرقه من الحرص وغلب عليه من التمني... وقيل غير ذلك.

ولا يصح ما نقله الأخباريون[2] من تشبه الشيطان به وتسلطه على ملكه وتصرفه في أمته بالجور في حكمه، لأن الشياطين لا يسلطون على مثل هذا، وقد عصم الأنبياء من مثله... فإن قيل: لِمَ لم يقل سليمان في القصة المذكورة «إن شاء الله»؟ فعن ذلك أجوبة أحدها: ما جاء في الحديث الصحيح أنه نسي أن يقولها وذلك لينفذ مراد الله. والثاني: أنه لم يسمع صاحبه وشغل عنه.

أما قوله: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص: ٣٥]، فإنه لم يفعل ذلك سليمان غيرة على الدنيا ولا نفاسة بها، ولكن مقصده على ما ذكره المفسرون: أن يكون له من الله فضيلة وخاصة يختص بها كاختصاص غيره من أنبياء الله ورسله بخواص منه. وقيل: ليكون دليلاً وحجة على نبوته كإلانة الحديد لأبيه، وإحياء الموتى لعيسى، واختصاص نبينا محمد ﷺ بالشفاعة. ونحو هذا.

---

(١) تقدم أول الكتاب وأنه في الصحيحين ص ١٠٦.

(٢) كل ذلك خرافات إسرائيلية تنافي مقام النبوة لا يجوز الالتفات إليها ولا اعتقادها ولا ذكرها إلاَّ على سبيل الرد عليها وإبطالها.

وأما قصة نوح عليه الصلاة والسلام فظاهرة العذر، وأنه أخذ فيها بالتأويل وظاهر القول؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ [هود: ٤٠] فطلب مقتضى هذا اللفظ، وأراد علم ما طوي عنه من ذلك لا أنه شك في وعد الله، فبين الله أنه ليس من أهله الذين وعده بنجاتهم؛ لكفره وعمله الذي هو غير صالح. وقد أعلمه أنه مغرق الذين ظلموا، ونهاه عن مخاطبته فيهم، فووخذ بهذا التأويل وعتب عليه، وأشفق هو من إقدامه على ربه لسؤاله ما لم يؤذن له في السؤال فيه، وكان نوح لا يعلم بكفر ابنه[1]. وقيل: في الآية غير هذا. وكل هذا لا يقضي على نوح بمعصية سوى ما ذكرناه من تأويله وإقدامه بالسؤال فيمن لم يؤذن له فيه ولا نهي عنه.

وما جاء في الصحيح: من أن نبيًا قرصته نملة فحرق قرية النمل فأوحى الله إليه: «أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح الله»[2]، فليس في هذا الحديث أن هذا الذي أتى معصيةً، بل فعل ما رآه مصلحة وصوابًا بقتل من يؤذي جنسه ويمنع المنفعة بما أباح الله. ألا ترى أن هذا النبي كان نازلاً تحت الشجرة، فلما آذته النملة تحول برحله عنها مخافة تكرار الأذى عليه، وليس فيما أوحى الله إليه ما يوجب عليه معصية، بل ندبه إلى احتمال الصبر وترك التشفي كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦﴾ [النحل: ١٢٦]، إذ ظاهر فعله إنما كان لأجل أنها آذته هو في خاصته فكان انتقامًا لنفسه وقطع مضرة بتوقعها من بقية النمل هناك ولم يأت في كل هذا أمر نهي عنه فيعص به، ولا نص فيما أوحى الله إليه بذلك، ولا بالتوبة

---

(١) كان لنوح عليه الصلاة والسلام أربعة أولاد: سام، وحام، ويافث، وكنعان، وهذا الثالث هو الكافر الغريق مع الكفار بالطوفان.

(٢) رواه البخاري في الجهاد ٦/ ٤٩٤، ٤٩٥، وفي بدء الخلق، ومسلم في قتل الحيات ١٤/ ٢٣٨، وغيرهما، من حديث أبي هريرة.

والاستغفار منه[1]، والله أعلم.

فإن قيل: فما معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «ما من أحد إلاَّ ألم بذنب[2] أو كاد إلاَّ يحيى بن زكريا»، أو كما قال عليه السلام؟ فالجواب عنه كما تقدم من ذنوب الأنبياء التي وقعت عن غير قصد وعن سهو وغفلة.

خاتمة للأجوبة عما تكرَّر في القرآن والسنَّة من اعتراف الأنبياء بالذنوب وتوبتهم واستغفارهم وبكائهم وإشفاقهم

فإن قلت: فإذا نفيت عنهم صلوات الله وسلامه عليهم الذنوب والمعاصي بما ذكرته من اختلاف المفسرين وتأويل المحققين، فما معنى قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ [طه: ١٢١]. وما تكرر في القرآن والحديث الصحيح من اعتراف الأنبياء بذنوبهم وتوبتهم واستغفارهم وبكائهم على ما سلف منهم وإشفاقهم، وهل يُشفق ويُتاب ويستغفر من لا شيء؟

---

(١) وأبدى بعضهم في ذلك جوابًا آخر، وهو: أنه كان في شرع ذلك النبي جواز قتل النمل. وانظر العبر لكاتبه.

(٢) رواه أحمد ١/ ٢٥٤، ٢٩٢ من حديث ابن عباس بلفظ: «ما من أحد من ولد آدم إلاَّ قد أخطأ أو هم بخطيئة ليس يحيى ابن زكريا...» إلخ، وأورده الهيثمي ٨/ ٣٨٣، وعزاه لأحمد وأبي يعلى والبزار والطبراني. قال: وفيه علي بن زيد، وضعفه الجمهور، وقد وثق، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح. ثم ذكر له شاهدين عن ابن عمر، وعزاه للبزار، قال: ورجاله ثقات. وعن أبي هريرة عزاه لأوسط الطبراني بسند ضعيف، فالحديث حسن صحيح. وجاء في الحديث الصحيح الذي رواه أحمد والترمذي: «إن تغفر اللّٰهم تغفر جَمًّا، وأي عبدٍ لك ما أَلَمَّا».

فاعلم وفقنا الله وإياك أن درجة الأنبياء في الرفعة والعلو والمعرفة بالله وسنته في عباده وعظيم سلطانه وقوة بطشه مما يحملهم على الخوف منه جل جلاله، والإشفاق من المؤاخذة بما لا يؤاخذ به غيرهم، وأنهم في تصرفهم بأمور لم ينهوا عنها ولا أمروا بها، ثم ووخذوا عليها وعوتبوا بسببها وحذروا من المؤاخذة بها، وأتوها على وجه التأويل والسهو، أو تزيُّد من أمور الدنيا المباحة خائفون وجلون، وهي ذنوب بالإضافة إلى عَليِّ منصبهم، ومعاص بالنسبة إلى كمال طاعتهم، لا أنها كذنوب غيرهم ومعاصيهم؛ فإن الذنب مأخوذ من الشيء الدنيء الرذل، ومنه ذنب كل شيء آخره، وأذناب الناس رُذَالهم، فكان هذه أدنى أفعالهم وأسوأ ما يجري من أحوالهم لتطهيرهم وتنزيههم وعمارة بواطنهم وظواهرهم بالعمل الصالح والكلم الطيب والذكر الظاهر والخفي، والخشية لله، وإعظامه في السر والعلانية. وغيرهم يتلوث من الكبائر والقبائح والفواحش ما تكون بالإضافة إلى هذه الهنات في حقه كالحسنات، كما قيل: حسنات الأبرار سيأت المقربين. أي: يرونها بالإضافة إلى عليِّ أحوالهم كالسيآت، وكذلك العصيان: الترك والمخالفة، فعلى مقتضى اللفظة كيفما كانت من سهو أو تأويل، فهي مخالفة وترك، وقوله: ﴿غَوَىٰ﴾ [النجم: ٣]، أي: جهل أن تلك الشجرة هي التي نهي عنها. والغي: الجهل. وقيل: ما طلب من الخلود إذا أكلها. وخابت أمنيته.

وهذا يوسف عليه السلام قد ووخذ بقوله لأحد صاحبي السجن: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [يوسف: ٤٢]، قيل: أنسي يوسف ذكر الله. وقيل: أنسي صاحبه أن يذكره لسيده الملك[١].

---

(١) هذا هو الظاهر اللائق بمقام النبوة.

وعلى كل فالأنبياء يؤاخذون بمثاقيل الذر لمكانتهم عند الله، ويجاوز عن سائر الخلق لقلة مبالاته بهم في أضعاف ما أتوا به من سوء الأدب.

على أن مؤاخذة الأنبياء ليست كمؤاخذة غيرهم، بل إنهم يؤاخذون بذلك في الدنيا ليكون ذلك زيادة في درجاتهم، ويبتلون بذلك ليكون استشعارهم له سببًا لزيادة رتبهم، كما قال: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۝١٢٢﴾ [طه: ١٢٢]. وقال لداود: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ...﴾ الآية [ص: ٢٥]. وقال بعد قول موسى: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٣، ١٤٤]. وقال بعد ذكر فتنة سليمان وإنابته: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٣٨ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٩ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٤٠﴾ [ص: ٣٦ ـ ٤٠].

ثم إن كل الطوائف متفقون على وقوع غفران الصغائر باجتناب الكبائر من غير الأنبياء. إذًا فمن يقول بتجويز الصغائر عليهم تكون مغفورة لهم بالاتفاق، لأنهم معصومون من الكبائر. أما كثرة استغفار النبي ﷺ وتوبته وغيره من الأنبياء فهو على وجه ملازمة الخضوع والعبودية والاعتراف بالتقصير شكرًا لله على نعمه، كما قال ﷺ وقد أمِّن من المؤاخذة بما تقدم وما تأخر «أفلا أكون عبدا شكورًا؟»[1]، وقال: «إني أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي»[2]، وقيل: خوفهم خوف إعظام وتعبد لله لأنهم آمنون. وقيل: فعلوا ذلك ليقتدى بهم وتستن بهم أممهم، كما قال ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا»[3]، وأيضًا في التوبة والاستغفار معنى آخر

(١) تقدم ص ١٥٣.

(٢) تقدم أيضًا ص ٤٣٥.

(٣) تقدم أيضًا ص ١٥٢.

لطيف وهو: استدعاء محبة الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢] فإحداث الرسل والأنبياء الاستغفار والتوبة والإنابة في كل حين استدعاء لمحبة الله، والاستغفار فيه معنى التوبة، وقد قال الله لنبيه ﷺ بعد أن غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ الآية [التوبة: ١١٧]، وقال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [النصر: ٣].

خلاصة عصمة النبي ﷺ من كل ما يشينه

قد استبان لك بما تقدم ما هو الحق من عصمته ﷺ عن الجهل بالله وصفاته، أو كونه على حالة تنافي العلم بشيء من ذلك كله جملة بعد النبوة عقلاً وإجماعًا، وقبلها سماعًا ونقلاً لا بشيء مما قررناه من أمور الشرع وأدّاه عن ربه من الوحي قطعًا وعقلاً وشرعًا، وعصمته عن الكذب وخلف القول منذ نبأه الله وأرسله قصدًا أو غير قصد، واستحالة ذلك عليه شرعًا وإجماعًا ونظرًا وبرهانًا، وتنزيهه عنه قبل النبوة قطعًا، وتنزيهه عن الكبائر إجماعًا وعن الصغائر تحقيقًا، وعن استدامة السهو والغفلة واستمرار الغلط والنسيان عليه فيما شرعه للأمة وعصمته في كل حالاته من رضى وغضب وجد ومزح.

فيجب عليك أن تتلقاه باليمين وتشد عليه يد الضنين، وتقدر هذه الفصول حق قدرها، وتعلم عظيم فائدتها وخطرها، فإن من يجهل ما يجب للنبي ﷺ أو يجوز أو يستحيل عليه، ولا يعرف صور أحكامه لا بل من أن يعتقد في بعضها خلاف ما هي عليه، ولا ينزهه عما لا يجب أن يضاف إليه فيهلك من حيث لا يدري، ويسقط في هوّة الدرك الأسفل من النار، إذ ظَنُّ الباطل به اعتقادُ ما لا يجوز عليه يحل بصاحبه دار البوار.

ولهـذا احتاط عـلـيه الصلاة والسلام على الرجلين الذين رأياه مع صفية أم المؤمنين فـقـال لهما: «إنها صفية» ثم قال لهما: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم. وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئًا فتهلكا»[1].

هذه إحدى فوائد ما ذُكِر في هذه الفصول، وليس ذلك من فضول الكلام كما قد يقال.

والفائدة الثانية يضطر إليها في أصول الفقه، ويبتنى عليها مسائل لا تحصى من الفقه الإسلامي، وهي الحكم في أقوال النبي ﷺ، وأفعاله، وهو باب عظيم، وأصل كبير من أصول الفقه. ولا بد من بنائه على صدق الرسول ﷺ في إخباره وبلاغه، وأنه لا يجوز عليه السهو، وعصمته من المخالفة في أفعاله عمدًا. وبحسب اختلافهم في وقوع الصغائر وقع خلاف في امتثال الفعل، وذلك مبسوط في كتب الأصول.

والفـائـدة الثـالثـة يحتـاج إليهـا الحـاكـم والمفتـي فيمـن أضـاف إلـى النبـي ﷺ شيئًا من هذه الأمور، ووصفه بها، فمن لم يعرف ما يجوز وما يمتنع عليه وما وقع الإجماع فيه والخلاف كيف يصمم في الفتيا في ذلك ومن أين يدرى هل ما قاله نقص أو مدح؟ فإما أن يجترىء على سفك دم مسلم حرام أو يسقط حقًّا ويضيع حرمة للنبـي ﷺ[2]، والله أعلم.

---

(١) رواه البخاري في الاعتكاف وغيره، ومسلم في السلام ١٤/١٥٦، عن صفية أم المؤمنين. ورروياه أيضًا عن أنس.

(٢) هذا باب عظيم يجب الاهتمام به والتعرف على كل ما له مسيس به ﷺ وبجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مدحًا وذمًا.

القول في عصمة الملائكة

أجمع المسلمون على أن الملائكة مؤمنون فضلاء، واتفق أئمة المسلمين أن حكم المرسلين منهم حكم النبيين، سواء في العصمة مما ذكرنا عصمتهم منه، وأنهم في حقوق الأنبياء والتبليغ إليهم كالأنبياء مع الأمم.

واختلفوا في غير المرسلين منهم، فذهب طائفة إلى عصمة جميعهم عن المعاصي واحتجوا بقوله تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم: ٦]. وبقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠]، وبقوله: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الصافات: ١٦٤، ١٦٦]، وبقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وبقوله: ﴿كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: ١٦]، وقوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة: ٧٩]، ونحوه من السمعيات.

وذهبت طائفة إلى أن هذا خصوص للمرسلين منهم والمقربين[1]. واحتجوا بأشياء سنذكرها بعد ونبين الوجه فيها إن شاء.

والصواب: عصمتهم جميعًا وتنزيه منصبهم الرفيع عن جميع ما يحط من رتبتهم ومنزلتهم عن جليل مقدارهم. والكلام في عصمتهم كالكلام في عصمة الأنبياء ولا فارق.

أما ما احتج به من لم يوجب عصمة جميعهم من قصة هاروت وماروت وما ذكره فيها المفسرون وغيرهم فذلك مما لا يصح فيه شيء عن

---

(١) هذا كلام فارغ لا يلتفت إليه بعدما تقدم من تلك الآيات القاضية بعصمة جميع الملائكة، من غير فرق بين المرسلين منهم وبين غيرهم.

رسول الله ﷺ[1]. والذي منه في القرآن اختلف المفسرون في معناه، وأنكر ما قال بعضهم فيه كثير من السلف، وما جاء في ذلك من أخبار فهي من كتب اليهود وافترائهم كما نصه الله أول الآيات من افترائهم في ذلك على سليمان وتكفيرهم إياه، وقد انطوت القصة التي ذكروها على شنع عظيمة.

واعلم أنه اختلف في هاروت وماروت، هل هما ملكان أو إنسيان؟ وهل هما المراد بالملكين أم لا؟ وهل القراءة ملكين بفتح اللام أم بكسرها؟ وهل ما في قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ﴾ [البقرة: ٤]، ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾ [البقرة: ١٠٢] نافية أو موجبة.

وأكثر المفسرين أن الله تعالى امتحن الناس بالملكين لتعليم السحر وتبيينه وأن عمله كفر، فمن تعلمه كفر، ومن تركه آمن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وتعليمهما الناس له تعليم إنذار، أي يقولان لمن جاء يطلب تعلمه: لا تفعلوا كذا فإنه يفرق بين المرء وزوجه، ولا تتحيلوا بكذا فإنه سحر فلا تكفروا. فعلى هذا فعل الملكين طاعة وتصرفهما فيما أمرا به ليس بمعصية، وهي لغيرهما فتنة[2].

---

(١) جاءت القصة عن ابن عمر مرفوعًا من طرق كثيرة، ذكر كثيرًا منها ابن جرير في التفسير، ومال إلى إثباتها، وجاء الحافظ ابن حجر فجمع طرقها في جزء مفرد، وحسّن الحديث لذلك، لكن الحديث بهذه القصة منكر، وفيه مع ضعفه شذوذ وتناقضات ومخالفة للعقل والنقل، ولذلك أورد هذه القصة ابن الجوزي في الموضوعات وأنكرها كثير من الحفاظ كالبيهقي وابن العربي المعافري والمنذري وغيرهم، ومن وقف على سياقاتها وألفاظها وأمعن فيها النظر جزم ببطلانها وأنها من مفتريات اليهود لعنهم الله.

(٢) هذا كلام معقول مناسب لمنصب الملائكة الكرام.

وقال مكي: وتقدير الكلام: ﴿وما كفر سليمان﴾، يريد: بالسحر الذي افتعلته عليه الشياطين واتبعهم في ذلك اليهود، ﴿وما أنزل على الملكين﴾. قال مكي: هما جبريل وميكائيل ادعى اليهود عليهما المجيء به كما ادعوا على سليمان فأكذبهم الله في ذلك، ﴿ولكن الشياطين كفروا؛ يعلمون الناس السحر﴾، ﴿ببابل هاروت وماروت﴾، قيل: هما رجلان تعلماه. وتكون (ما أنزل) على هذا نافية. فمحمل الآية على هذا حسن ينزه الملائكة، ويذهب الرجس عنهم ويطهرهم تطهيرًا[1].

---

(١) هذا توجيه آخر لا بأس به، لولا ما فيه من مخالفة الجمهور.

خلاصة قصة هاروت وماروت:

وخلاصة قصة هاروت وماروت، هو: أن الله تعالى ركَّب الشهوة في ملكين من الملائكة اختبارًا لهما وأنزلهما إلى الأرض وأمرهما أن يحكما فيها بين الناس، فنزلا على سورة البشر وحكما بالعدل مدة ثم افتتنا بامرأة حسناء فراوداها عن نفسها فأبت حتى يشربا الخمر أو يسجدا لصنم أو يقتلا نفسًا. فاختارا شرب الخمر ففعلا كل ما عرضته عليهما. فمسخت المرأة نجمًا وهي الزهرة، وعوقبا هما الآخران بسبب ذلك في بئر بابل منكسين، وابتليا بالنطق بعلم السحر وتعليمه لمن قصدهما فيتعلم منهما ما قصه الله تعالى.. هذه خلاصتها مختصرة جدًا. وهي قصة خرافية بهذا السياق.

تفسير آية هاروت وماروت:

أما تفسير الآية المذكور فيها هاروت وماروت: فقوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾، أي: اليهود ﴿مَا تَتۡلُواْ﴾، أي: تقرأ، ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ من طرق السحر والشعوذة التي كانت تحدثهم بها ﴿عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ﴾، أي: في عهد ملكه وأيامه ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ﴾، أي: وما كان سليمان ساحرًا، ولا كفر بتعلمه السحر كما زعمه اليهود ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ هم الذين ﴿كَفَرُواْ﴾ لأنهم ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ﴾ وطرقه وحيله حتى فشا أمره بين الناس، وكما اتبع رؤساء اليهود السحر الذي تتلوه الشياطين اتبعوا أيضًا ما أنزل على الملكين، وهما هاروت وماروت ﴿بِبَابِلَ﴾ =

وقد وصفهم الله بأنهم مطهرون كرام بررة، لا يعصون الله ما أمرهم.

ومن حججهم: قصة إبليس اللعين، وأنه كان من الملائكة، ورئيسًا فيهم ومن خزان الجنة... وأن الله استثناه من الملائكة بقوله: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤].

وكل ذلك باطل بل الحق والصحيح أنه أبو الجن كما آدم أبو الإنس، أو هو من الجن الذين طردتهم الملائكة في الأرض حين أفسدوا. والاستثناء في الآية منقطع، وهو شائع في كلام العرب قال الله تعالى: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ﴾ [النساء: ١٥٧]. وهناك أخبار استدلوا بها لا أصل لها.

* * *

= وهي أرض بالكوفة من العراق وقد أنزلهما الله تعالى ابتلاءً وامتحانًا للناس ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ﴾، أي: إن الملكين كانا لا يعلمان أحدًا من الناس السحر حتى يبذلا له النصيحة ويقولان له: إن هذا الذي نصفه لك من السحر إنما هو امتحان من الله فلا تكفر باستعماله وتعلمه للإضرار. قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا﴾ من علم السحر ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ﴾، أي: ما يكون سببًا في التفريق بين الزوج وزوجته، فبعد أن كانت المحبة والوداد تصبح العداوة والفراق ﴿وَمَا هُم﴾، أي: السحرة بما يستعملونه من السحر ﴿بِضَآرِّينَ﴾، أي: لا يضرون ﴿بِهِۦ﴾، أي: السحر ﴿مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ ومشيئته ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿يَتَعَلَّمُونَ﴾ من هذا السحر ﴿مَا يَضُرُّهُمۡ﴾ في دينهم ﴿وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ﴾ في آخرتهم، وإذا نفعهم في الدنيا فمآلهم الخسران والشقاء الدائم... إلى آخر الآية في شأن اليهود الذين نبذوا كتاب الله واستبدلوا به السحر.

الباب الثاني

فيما يخصهم في الأمور الدنيوية وما يطرأ عليهم من العوارض البشرية

قد تقدم أنه ﷺ وسائر الأنبياء، والرسل من البشر، وأن جسمه وظاهره خالص للبشر، يجوز عليه من الآفات والتغييرات، والآلام والأسقام ما يجوز على البشر. وهذا كله ليس بنقيصة فيه؛ لأن الشيء إنما يسمى ناقصًا بالإضافة إلى ما هو أتم منه وأكمل من نوعه. وقد كتب الله تعالى على أهل هذه الدار: فيها يحيون، وفيها يموتون، ومنها يخرجون. وخلق جميع البشر معرضين للتغيرات.

فقد مرض ﷺ واشتكى، وأصابه الحر والقر، وأدركه الجوع والعطش، ولحقه الغضب والضجر، وناله الإعياء والتعب، ومسه الضعف والكبر، وسقط فجحش شقه[1]، وشجه الكفار وكسروا رباعيته[2]، وسقي السم، وسحر[3]، وتداوى، واحتجم،

---

(١) رواه البخاري في مواضع من الصلاة ومسلم فيها كذلك باب ائتمام المأموم بالإمام ٤/ ١٣٠ من حديث أنس قال: سقط النبي ﷺ عن فرس فجحش شقه الأيمن، فدخلنا عليه نعوده، فحضرت الصلاة، فصلى بنا قاعدًا، فصلينا وراءه قعودًا. . . إلخ.

(٢) تقدم كل ذلك ص ١١٧ .

(٣) تقدم كل ذلك ص ١١٩ .

وتعوذ[1]، ثم قضى نحبه فتوفى ﷺ ولحق بالرفيق الأعلى، وتخلص من دار الامتحان والبلوى، وهذه سمات البشر التي لا محيص عنها. وأصاب غيره من الأنبياء ما هو أعظم منه، فقتلوا قتلاً[2]، ورموا في النار[3]، ونشروا بالمناشير[4]، ومنهم من وقاه الله ذلك في بعض الأوقات، ومنهم من عصمه كما عُصم بعدُ نبيُّنا من الناس[5].

فلئن لم يكف نبيَّنا ربُّه يد ابن قمئة يوم أحد[6]، ولا حجبه عن عيون

---

(١) تداويه، رواه البخاري من حديث سهل بن سعد وغيره. واحتجامه، رواه البخاري ١٣/ ٢٥٧، ومسلم ١٤/ ١٩٤، كلاهما في الطب عن أنس، والبخاري ١٢/ ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٥٦، عن ابن عباس وغيره. وتعوذه، جاء في أحاديث، منها: تعوذه بالمعوذتين، رواه البخاري ١٢/ ٣٠٦، ٣١٩، ٣٢١، ومسلم ١٤/ ١٨٢، كلاهما في الطب عن عائشة.

(٢) قال الله تعالى في حق اليهود: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ . . .﴾ الآية [آل عمران: ١٤٦].

(٣) وهو خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام.

(٤) رواه البخاري في علامات النبوة ٧/ ٤٣١، ٤٣٢، وفي مواضع، وأبو داود في الجهاد، والنسائي في الزينة، من حديث خباب بن الأرت. . . «إن كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد. . .» إلخ.

(٥) تقدم الحديث في ذلك ص ٩٦، ٢٩٢.

(٦) رمى ابن قمئة النبي ﷺ يوم أحد في وجنتيه، ذكره ابن هشام غير مسند. وقال الواقدي: ثبت عندي أن الذي رمى في وجنتي رسول الله ﷺ ابن قمئة.
وأصل القصة عند أحمد ٣/ ٩٩، ٢٥٣، ومسلم في الجهاد ١٤٩، من حديث أنس: أن رسول الله ﷺ كسرت رباعيته وشج في وجهه حتى سال الدم على وجهه فقال: «كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى الله؟» فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] واللفظ لأحمد.

عداه عند دعوته أهل الطائف[1]، فلقد أخذ على عيون قريش عند خروجه إلى ثور[2]، وأمسك عنه سيف غورث[3]، وحجر أبـي جهل[4]، وفرس سراقة[5]. ولئن لم يقه من سحر ابن الأعصم[6]، فلقد وقاه ما هو أعظم من سم اليهودية[7].

وهكذا سائر أنبيائه مبتلى ومعافى، وذلك من تمام حكمته؛ ليظهر شرفهم في هذه المقامات، ويبين أمرهم، ويتم كلمته فيهم، وليحقق بامتحانهم بشريتهم، ويرتفع الالتباس عن أهل الضعف فيهم لئلا يضلوا بما يظهر من العجائب على أيديهم ضلال النصارى بعيسى ابن مريم عليه السلام، وليكون في محنهم تسليةٌ لأممهم ووفورًا لأجورهم عند ربهم تمامًا على الذي أحسن إليهم.

قال بعض المحققين: وهذه الطوارىء والتغييرات المذكورة إنما تختص بأجسامهم البشرية المقصود بها مقاومة البشر ومعاناة بني آدم لمشاكلة الجنس. وأما بواطنهم فمنزهة غالبًا عن ذلك، معصومة منه، متعلقة بالملأ الأعلى والملائكة؛ لأخذها عنهم وتلقيها الوحي منهم.

وقد قال ﷺ: «إن عيني تنامان ولا ينام قلبـي»[8]. وقال ﷺ: «إني

---

(١) قصة ذهابه إلى الطائف وما حصل له معهم أخرجها ابن إسحاق ١/ ٢٦٠، ٢٦٢ عن محمد بن كعب القرظي بسند صحيح لكنه مرسل.

(٢) جاء ذلك في حديث الهجرة وقد تقدم ص ٧٧.

(٣) تقدمت قصته ص ١١٩، ٢٩٣.

(٤) تقدم تخريجه ص ٢٩٤، ٢٩٥.

(٥) تقدم ص ٧٧.

(٦) تقدم ص ١١٩.

(٧) تقدم ص ١١٩.

(٨) تقدم ص ١٠٢.

لست كهيئتكم؛ إني أبيت يطعمني ربي ويسقني[1]». فأخبر أن سره وباطنه وروحه بخلاف جسمه وظاهره، وأن الآفات التي تحل ظاهره من ضعف وجوع وسهر ونوم لا يحل منها شيء باطنه، بخلاف غيره من البشر في حكم الباطن، لأن غيره إذا نام استغرق النوم جسمه وقلبه، وهو ﷺ في نومه حاضر القلب كما هو في يقظته، حتى قد جاء في بعض الآثار أنه كان محروسًا من الحدث في نومه[2]، لكون قلبه يقظان كما ذكرناه، وكذلك غيره إذا جاع ضعف لذلك جسمه، وخارت قوته فبطلت بالكلية جملته. وهو ﷺ قد أخبر أنه لا يعتريه ذلك وأنه بخلافهم، لقوله ﷺ: «إني لست كهيئتكم إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني».

وكذلك أقول: إنه في هذه الأحوال كلها مِن وصب ومرض وسحر وغضب، لم يجر على باطنه ما يخل به، ولا فاض منه على لسانه وجوارحه ما لا يليق به كما يعتري غيره من البشر . . .

فإن قلت: فقد جاءت الأخبار الصحيحة أنه ﷺ سحر، كما قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: سحر رسول الله ﷺ حتى إنه ليخيل إليه أنه فعل الشيء وما فعله . . . الحديث[3]، وإذا كان هذا من التباس الأمر على المسحور فكيف حال النبي ﷺ في ذلك، وكيف جاز عليه وهو معصوم.

فاعلم وفقنا الله وإياك أن هذا الحديث صحيح متفق عليه، وقد طعنت فيه الملحدة[4] وتدرعت به؛ لسخف عقولها وتلبيسها على أمثالها إلى التشكيك في الشرع وقد نزه الله الشرع والنبي عما يدخل في أمره لبسًا،

---

(١) تقدم ص ٣٨٧.

(٢) جاء ذلك في حديث ابن عباس عند نومه معه عند خالته ميمونة، وقد تقدم ص ٩٠.

(٣) تقدم تخريجه ص ١١٩، ١٢٠ وأنه في الصحيحين في الطب عندهما.

(٤) وقد كثر الطاعنون فيه اليوم حتى من بعض المفكرين الدعاة المشاهير.

وإنما السحر مرض من الأمراض وعارض من العلل، يجوز عليه كأنواع الأمراض مما لا ينكر ولا يقدح في نبوته.

وأما ما ورد أنه كان يخيل إليه أنه فعل الشيء ولا يفعله، فليس في هذا ما يدخل عليه داخلة في شيء من تبليغه أو شريعته، أو يقدح في صدقه؛ لقيام الدليل، والإجماع على عصمته من هذا. وإنما هذا فيما يجوز طروه عليه في أمر دنياه التي لم يبعث بسببها ولا فضل من أجلها، وهو فيها عرضة للآفات كسائر البشر، فغير بعيد أن يخيل إليه من أمورها ما لا حقيقة له ثم ينجلي عنه كما كان. وأيضًا فقد فسر هذا الفصل الحديث الآخر من قوله: «حتى يخيل إليه أنه يأتي أهله[1] ولا يأتيهن». وقد قال سفيان: هذا أشد ما يكون من السحر، ولم يأت في خبرما منها أنه نقل عنه في ذلك قول بخلاف ما كان أخبر أنه فعله ولم يفعله، وإنما كانت خواطر وتخييلات لا يعتقد صحتها فتكون اعتقاداته كلها على السداد وأقواله على الصحة. هذا ما قاله أئمتنا.

فقد استبان من مضمون ما تقدم أن السحر إنما تسلط على ظاهره وجوارحه لا على قلبه واعتقاده وعقله، وأنه إنما أثر في حبسه عن وطء نسائه وطعامه، وأضعف جسمه وأمرضه، ويكون معنى قول عائشة: يخيل إليه أنه يأتي أهله. . . إلخ، أي: يظهر له من نشاطه ومتقدم عادته القدرة على النساء فإذا دنا منهن أصابته أخْذة السحر فلم يقدر على إتيانهن، كما يعتري من أخذه واعترض. ولهذا قال سفيان: وهذا أشد ما يكون من السحر. وإذا كان هذا فلم يكن فيما ذكر من إصابة السحر له وتأثيره فيه ما يدخل لبسًا ولا يجد فيه الملحد المعترض أنسًا.

---

(١) هذه الرواية عند البخاري في الطب ١٢/ ٣٤٥.

أحواله ﷺ في أمور الدنيا

هذا حاله في جسمه ﷺ، فأما أحواله في أمور الدنيا فسنذكرها على الأسلوب المتقدم بالعقد والقول والفعل.

ما كان يعتقده في أمور الدنيا ويظهر بخلافه

أما العقد منها فقد يعتقد في أمور الدنيا الشيء على وجه ويظهر خلافه، أو يكون منه على شك أو ظن بخلاف أمور الشرع.

كما أخرجه مسلم عن[1] رافع بن خديج رضي الله تعالى عنه قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يأبرون النخل فقال: «ما تصنعون»؟ قالوا: كنا نصنعه، قال: «لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرًا». فتركوه، فنفضت، فذكروا ذلك له، فقال: «إنما أنا بشر»، وفي رواية أنس: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»[2]. وفي حديث آخر: «إنما ظننت ظنًا فلا تؤاخذوني بالظن»[3]. وفي حديث ابن عباس في قصة الخرص، فقال رسول الله ﷺ: «إنما أنا بشر، فما حدثتكم عن الله فهو حق وما قلت فيه من قبل نفسي فإنما أنا بشر أخطىء وأصيب»[4].

وهذا على ما قررناه فيما قاله من قبل نفسه في أمور الدنيا وظنه من أحوالها، لا ما قاله من قبل نفسه واجتهاده في شرع شرعه وسنّة سنّها.

فمثل ذلك وأشباهه من أمور الدنيا التي لا مدخل فيها لعلم ديانة ولا اعتقادها ولا تعليمها يجوز عليه فيها ما ذكرناه؛ إذ ليس في هذا كله نقيصة

---

(١) رواه في الفضائل ١٥/ ١١٧. وقد قدمنا تخريجه أيضًا ص ٤٢٥.

(٢) هو عند مسلم ١١٨ من حديث أنس. تقدم أيضًا ص ٤٢٥.

(٣) رواه مسلم ١١٦، ١١٧ من حديث طلحة رضي الله تعالى عنه.

(٤) رواه البزار. قال الهيثمي: إسناده حسن.

ولا محطة، وإنما هي أمور اعتيادية يعرفها من جربها وجعلها همه، وشغل نفسه بها. والنبي ﷺ مشحون القلب بمعرفة الربوبية، ملآن الجوانح بعلوم الشريعة، مقيد البال بمصالح الأمة الدينية والدنيوية، ولكن هذا إنما يكون في بعض الأمور لا في الكثير المؤذن بالبله والغفلة. وقد تواتر بالنقل عنه ﷺ من المعرفة بأمور الدنيا ودقائق مصالحها وسياسة فرق أهلها ما هو معجز في البشر.

حالته ﷺ في القضاء بين الخصوم وأنه كان يحكم حسب الظاهر

وأما ما يعتقده في أمور أحكام البشر الجارية على يديه وقضاياهم ومعرفة المحق من المبطل، وعلم المصلح من المفسد فبهذه السبيل.

لقوله ﷺ: «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه بشيء فلا يأخذ منه شيئًا فإنما أقطع له قطعة من النار»(١).

فيجري أحكامه ﷺ على الظاهر، وموجب غلبات الظن بشهادة الشاهد، ويمين الحالف، ومراعاة الأشبه، ومعرفة العفاص والوكاء، مع مقتضى حكمة الله تعالى ذلك؛ فإنه تعالى لو شاء لأطلعه على سرائر عباده ومخبآت ضمائر أمته، فتولى الحكم بينهم بمجرد يقينه وعلمه، دون حاجة إلى اعتراف أو بينة أو يمين أو شبهة. ولكن لما أمر الله أمته باتباعه والاقتداء به في أفعاله وأحواله وقضاياه وسيره، وكان هذا لو كان مما يختص بعلمه ويؤثره الله به لم يكن للأمة سبيل إلى الاقتداء به في شيء من ذلك ولا قامت

---

(١) رواه أحمد ٢٩٠، ٢٩١، ٣٠٧، والبخاري، ومسلم في الأقضية ١٢/ ٤، ٦، وغيرهم عن أم سلمة، وتقدم ص ٤٢٥.

حجة بقضية من قضاياه لأحد في شريعته، لأنا لا نعلم ما اطلع عليه هو في تلك القضية بحكمه هو إذا في ذلك بالمكنون من إعلام الله له بما أطلعه عليه من سرائرهم، وهذا ما لا تعلمه الأمة فأجرى الله تعالى أحكامه على ظواهرهم التي يستوي في ذلك هو وغيره من البشر؛ ليتم اقتداء أمته به في تعيين قضاياه وتنزيل أحكامه، ويأتون ما أتوا من ذلك على علم ويقين من سنته؛ إذ البيان بالفعل أوقع منه بالقول وأرفع لاحتمال اللفظ وتأويل المتأول، وكان حكمه على الظاهر أجلى في البيان وأوضح في وجوه الأحكام، وأكثر فائدة لموجبات التشاجر والخصام، وليقتدي بذلك كله حكام أمته ويستوثق بما يؤثر عنه، وينضبط قانون شريعته. وطي ذلك عنه من علم الغيب الذي استأثر به عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدًا إلاَّ من ارتضى من رسول فيعلمه منه بما شاء. ويستأثر بما شاء ولا يقدح هذا في نبوته ﷺ.

أقواله الدنيوية، وإخباره عن أحواله وأحوال غيره ﷺ

وأما أقواله الدنيوية من إخباره عن أحواله وأحوال غيره وما يفعله أو فعله ﷺ، فقد قدمنا أن الخُلف فيها ممتنع عليه في كل حال، وعلى أي وجه، من عمد، أو سهو، أو صحة، أو مرض، أو رضى، أو غضب. وأنه ﷺ معصوم منه ﷺ. هذا فيما طريقه الخبر المحض مما يدخله الصدق والكذب. فأما المعاريض الموهم ظاهرها خلاف باطنها فجائز ورودها منه في الأمور الدنيوية، لا سيما لقصد المصلحة، كتوريته عن وجه مغازيه لئلا يأخذ العدو حذره، وكممازحته لبسط أمته، وتطييب قلوب المؤمنين من صحابته، وتأكيدًا في تحببهم، كقوله ﷺ: «لأحملنك على ابن الناقة»[1]

(١) رواه أبو داود في الأدب ٤٩٩٨، والترمذي في البر والصلة ١٨٣٧، وفي الشمائل ٢٣٨، من حديث أنس بسند صحيح على شرطها، وحسنه وصححه.

وهذا حق؛ لأن كل جمل ابن ناقة. وقد قال ﷺ: «إني لأمزح ولا أقول إلاّ حقًا»[1]. وهذا كله فيما بابه الخبر، فأما ما بابه غير الخبر مما صورته صورة الأمر والنهي في الأمور الدنيوية فلا يصح منه أيضًا، ولا يجوز عليه أن يأمر أحدًا بشيء أو ينهى أحدًا عن شيء، وهو يبطن خلافه.

ما قيل في أمره زيدًا بإمساك زوجته مع إخفائه غير ذلك

فإن قلت: فما معنى قوله تعالى في قصة زيد: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

فاعلم أكرمك الله، ولا تسترب في تنزيه النبي ﷺ عن هذا الظاهر وأن يأمر زيدًا بإمساكها وهو يحب تطليقه إياها، كما ذكر عن جماعة من المفسرين. وأصح في هذا ما حكاه أهل التفسير عن علي بن حسين عليهما السلام: أن الله تعالى كان أعلم نبيه ﷺ أن زينب ستكون من أزواجه، فلما شكاها إليه زيد قال له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وأخفى منه في نفسه ما أعلمه الله به من أنه سيتزوجها مما الله مبديه ومظهره بتمام التزويج وطلاق زيد لها.

ويصحح هذا قول المفسرين في قوله تعالى بعد هذا: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝٣٨﴾ [الأحزاب: ٣٨]، أي لا بد لك أن تتزوجها. ويوضح هذا أن الله لم يبد من أمره معها غير زواجه لها، فدل أنه الذي أخفاه ﷺ مما كان أعلمه به تعالى.

---

(١) رواه الترمذي في البدر في ١٨٣٥، وفي الشمائل ٢٣٧، ورواه أيضًا أحمد ٢/ ٣٦٠، والبخاري في الأدب المفرد ٢٦٥، كلهم من حديث أبي هريرة وحسنه الترمذي وصححه.

وقوله تعالى في القصة: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ﴾ [الأحزاب: ٣٨] دل أنه لم يكن عليـه حرج في الأمر. قال الطبري[1]: ما كان الله ليؤثم نبيه فيما أحل له مثال فعله لمن قبله من الرسل، قال الله تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ﴾ [الأحزاب: ٣٨]. أي من النبيين فيما أحل لهم، ولو كان على ما روي من وقوعها في قلب النبي ﷺ عندما أعجبته، ومحبته طلاقها لكان فيه أعظم الحرج، وما لا يليق به من مد عينيه لما نهي عنه من زهرة الحياة الدنيا، ولكان هذا نفس الحسد المذموم الذي لا يرضاه، ولا يتسم به الأتقياء، فكيف سيد الأنبياء ﷺ؟!

قال القشيري رحمه الله تعالى: وهذا إقدام عظيم من قائله، وقلة معرفة بحق النبي ﷺ وبفضله، وكيف يقال: رآها فأعجبته، وهي بنت عمته، ولم يزل يراها منذ ولدت، ولا كان النساء يحتجب منه ﷺ، وهو زوَّجها لزيد؟!

وإنما جعل الله طلاق زيد لها وتزويج النبي ﷺ إياها لإزالة حرمة التبني وإبطال سننه كما قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. ولما طلقها زيد خشي النبي ﷺ من قول الناس أنه تزوج امرأة ابنه، وكان الله قد أعلمه أنها زوجته فأمره تعالى بزواجها ليباح مثل ذلك لأمته، كما قال تعالى: ﴿ لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وقال بعضهم: كان أمره لزيد بإمساكها قمعًا للشهوة، وردًا للنفس عن هواها. وهذا إذا جوزنا عليه أنه رآها فجأة واستحسنها[2]، ومثل هذا لا نكرة

---

(١) ذكره ٢٢/ ١٤، ١٥.

(٢) هذا قول غير سديد ولا هو مناسب لمقام سيد المعصومين ﷺ. فالواجب الإضراب عنه وعدم القول به، وإن ذهب إليه أعلام من المفسرين.

فيه؛ لما طبع عليه ابن آدم من استحسانه الحسن، ونظرة الفجاة معفو عنها وإنما ننكر تلك الزيادة التي في القصة.

والأولى ما ذكرناه عن علي بن الحسين وهو قول المحققين من أهل التفسير[1].

والنبي ﷺ منزه عن استعمال النفاق في ذلك وإظهار خلاف ما في نفسه، وقد نزهه الله عن ذلك بقوله: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ﴾ [الأحزاب: ٣٨]. ومن ظن ذلك بالنبي ﷺ فقد أخطأ، وليس معنى الخشية هنا الخوف، وإنما معناه الاستحياء، أي: يستحي منهم أن يقولوا تزوج زوجة ابنه، وأن خشيته ﷺ من الناس كانت من إرجاف المنافقين واليهود وتشغيبهم على المسلمين بقولهم: تزوج زوجة ابنه بعد نهيه عن نكاح حلائل الأبناء كما كان، فعاتبه الله على هذا ونزهه على الالتفات إليهم فيما أحله كما عاتبه على مراعاة رضى أزواجه في سورة التحريم بقوله: ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ﴾ [التحريم: ١]، كذلك قوله هنا: ﴿ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وقد روي عن الحسن وعائشة: «لو كتم رسول الله ﷺ شيئًا لكتم هذه الآية»[2] لما فيها من معاتبته وإبداء ما أخفاه.

---

(١) وهو الذي لم يذكر ابن كثير غيره. وقال الكرخي: هذا القول هو المنصور المعول عليه عند الجمهور. وقال البغوي: وهذا هو الأولى.

(٢) رواه أحمد ٦/ ١٤١، والترمذي في التفسير ٣٠٠٠، بتهذيبي، عن عائشة، وحسنه وصححه.

الكلام على حديث:
«هلموا أكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده»
قاله في مرض موته

فإن قلت: قد تقررت عصمته ﷺ في أقواله في جميع أحواله وأنه لا يصح منه خلف، ولا اضطراب في عمد ولا سهو، ولا صحة ولا مرض، ولا جد ولا مزح، ولا رضى ولا غضب.

ولكن: ما معنى الحديث في وصيته ﷺ الذي رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما احتضر رسول الله ﷺ وفي البيت رجال، فقال النبي ﷺ: «هلموا أكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده»، فقال بعضهم: إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع وفي رواية: «آتوني أكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده أبدًا». فتنازعوا فقالوا: ما له أهجر؟ استفهموه. فقال: «دعوني فإن الذي أنا فيه خير»[1]. وفي بعض طرقه: إن النبي ﷺ ليهجر، وفي رواية: هجر. ويروى: أهُجْرٌ. ويروى: أهجرًا. وفيه: فقال عمر: إن النبي ﷺ قد اشتد به الوجع، وعندنا كتاب الله حسبنا. وكثر اللغط فقال: «قوموا عني»، وفي رواية: واختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم رسول الله ﷺ كتابًا. ومنهم من يقول ما قال عمر.

قال أئمتنا في هذا الحديث: إن النبي ﷺ غير معصوم من الأمراض وما يكون من عوارضها من شدة وجع وغَشْي ونحوه، مما يطرأ على جسمه، معصوم أن يكون منه من القول أثناء ذلك ما يطعن في معجزته ويؤدي إلى فساد في شريعته من هذيان أو اختلال في كلام.

---

(١) رواه البخاري في العلم وفي الجهاد وفي الوفاة النبوية ٩/ ١٩٧، ٣٠٠، ومسلم في الوصية ١١/ ٨٩، ٩٥ وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما.

وعلى هذا لا يصح ظاهر رواية من روى في الحديث هَجَرَ؛ إذ معناه هَذَى. يقال: هَجَر هُجْرًا إذا هَذَى. وأَهْجَر هجرًا إذا أفحش. وأهجر تعدية هجر.

وإنما الأصح والأولى: أهجَرُ؟! على طريق الإنكار على من قال لا يكتب. وهكذا روايتنا فيه في صحيح البخاري من رواية جميع الرواة في حديث الزهري المتقدم، وفي حديث محمد بن سلام عن ابن عيينة، وهكذا ضبطه الأصيلي بخطه في كتابه، وغيره من هذه الطرق. وكذا رويناه عن مسلم في حديث سفيان وغيره. وقد تحمل عليه رواية من رواه هجر على حذف ألف الاستفهام والتقدير: أهجر؟ أو يحمل قول القائل: هجرا أو أهجر دهشه من قائل ذلك وحيرة، لعظيم ما شاهد من حال الرسول ﷺ وشدة وجعه والمقام الذي اختلف فيه عليه والأمر الذي هم بالكتاب فيه حتى لم يضبط هذا القائل لفظه وأجرى الهجر، مجرى شدة الوجع، لا أنه اعتقد أنه يجوز عليه الهجر كما حملهم الإشفاق على حراسته والله يقول: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [المائدة: ٦٧]، ونحو هذا.

وأما على رواية: أهجرًا! وهي رواية أبي إسحاق المستملي في الصحيح في حديث ابن جبير عن ابن عباس من رواية قتيبة فقد يكون هذا راجعًا إلى المختلفين عنده ﷺ ومخاطبة لهم من بعضهم، أي: جئتم باختلافكم على رسول الله ﷺ وبين يديه هجرًا أو منكرًا من القول: والهُجر بضم الهاء: الفحش في المنطق.

وقد اختلف العلماء في معنى هذا الحديث، وكيف اختلفوا بعد أمره ﷺ أن يأتوا بالكتاب، فقال بعضهم: أوامر النبي ﷺ يفهم إيجابها من ندبها من إباحتها بقرائن، فلعل قد ظهر قرائن قوله ﷺ لبعضهم ما فهموا أنه لم تكن منه عزمة بل أمر رده إلى اختيارهم وبعضهم لم يفهم ذلك فقال:

استفهموه. فلما اختلفوا كف عنه إذ لم يكن عزمة. ولما رأوه من صواب عمر.

ثم هؤلاء قالوا: ويكون امتناع عمر إما إشفاقًا على النبي ﷺ من تكليفه في تلك الحال إملاء الكتاب، وأن تدخل عليه مشقة من ذلك كما قال: إن النبي ﷺ اشتد به الوجع. وقيل: خشي عمر أن يكتب أمورًا يعجزون عنها فيحصلون في الحرج بالمخالفة، ورأى أن الأرفق بالأمة في تلك الأمور سعة الاجتهاد وحكم النظر وطلب الصواب فيكون المصيب والمخطىء مأجورًا. وقد علم عمر تقرُّر الشرع وتأسيس الملة وأن الله تعالى قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، وقوله ﷺ: «أوصيكم بكتاب الله وعترتي»(١). وقول عمر رضي الله تعالى عنه: (حسبنا كتاب الله) رد على من نازعه لا على أمر النبي ﷺ. وقد قيل: إن عمر خشي تطرق المنافقين ومن في قلبه مرض لما كتب في ذلك الكتاب في الخلوة، وأن يتقولوا في ذلك الأقاويل كادعاء الرافضة الوصية وغير ذلك.

وقيل: إنه كان من النبي ﷺ على طريق المشورة والاختيار، وهل يتفقون على ذلك أم يختلفون؟ فلما اختلفوا تركه.

وقالت طائفة أخرى: إن معنى الحديث: أن النبي ﷺ كان مجيبًا في هذا الكتاب لما طلب منه، لا أنه ابتدأ بالأمر، بل اقتضاه منه بعض أصحابه فأجاب رغبتهم، وكره ذلك غيرهم للعلل التي ذكرناها، واستدل في مثل هذه القصة بقول العباس لعلي رضي الله تعالى عنهما: انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ فإن كان الأمر فينا علمناه. وكراهة علي هذا وقوله:

---

(١) تقدم معناه في حديث الغدير ص ٣٥١.

والله لا أفعل. . .[1] الحديث. واستدل بقوله: «دعوني فإن الذي أنا فيه خير» إن الذي أنا فيه خير من إرسال الأمر وترككم وكتاب الله، وإن تدعوني مما طلبتم. وذكر أن الذي طلب كتابته أمر الخلافة بعده وتعيين ذلك[2].

الكلام على ما جاء من سبه ﷺ أو لعنه أو جلده بعض أمته

فإن قيل: فما وجه حديثه ﷺ الذي رويناه من طريق مسلم[3]: عن أبـي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللَّـهم إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر، وإني قد اتخذت عندك عهدًا لن تُخْلِفَنيه فأيما مؤمن آذيته أو سببته أو جلدته فاجعلها له كفارة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة»، وفي رواية: «فأيما أحد دعوت عليه دعوة»، وفي رواية: «ليس لها بأهل». وفي رواية: «فأيما رجل من المسلمين سببته أو لعنته أو جلدته فاجعلها له زكاة وصلاة ورحمة».

---

(١) رواه البخاري في مرض موته ﷺ ٩/ ٢٠٨، من حديث ابن عباس.
وفي هذا الحديث رد صريح على الرافضة القائلين بالوصاية بالخلافة للإمام عَلِيٍّ رضي الله تعالى عنه. بل الأمر منه عليه الصلاة والسلام بالكتابة في هذه الواقعة فسره الحديث الآخر الذي جاء في الصحيح عن عائشة: «ادعي لي أبا بكر أباك وأخاك حتى أكتب كتابًا فإني أخاف أن يتمنى متمن ويقول قائل أنا أولى، ويأبـى الله والمؤمنون إلاَّ أبا بكر» أخرجه البخاري في الأحكام ١٦/ ٣٣١، ٣٣٢، ومسلم في الفضائل ١٥/ ١٥٥.

(٢) وقد استوعب الكلام على معنى هذا الحديث النووي في شرح مسلم ١١/ ٩٠، ٩٣، والحافظ في الفتح ٩/ ١٩٧، ١٩٩، والعيني في عمدة القاري وغيرهم. وقول المؤلف: إن الذي طلب كتابته أمر الخلافة. . . هذا لا شك فيه؛ للحديث السابق قبله.

(٣) رواه في البر والصلة ١٦/ ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، وباقي الروايات بعضها عن عائشة وبعضها عن جابر وبعضها عن أنس، وكلها عند مسلم في المصدر السابق.

وكيف يصح أن يلعن النبي ﷺ من لا يستحق اللعن، ويسب من لا يستحق السب، ويجلد من لا يستحق الجلد، أو يفعل مثل ذلك عند الغضب وهو معصوم من هذا كله؟!

فاعلم شرح الله صدرك أن قوله ﷺ أولاً: «ليس لها بأهل»، أي: عندك يا رب في باطن أمره، فإن حكمه ﷺ على الظاهر كما قال وللحكمة التي ذكرناها، فحكم ﷺ بجلده أو أدبه بسبه أو لعنه بما اقتضاه عنده حال ظاهره، ثم دعا له ﷺ لشفقته على أمته ورأفته ورحمته للمؤمنين التي وصفه الله بها، وحذره أن يتقبل الله فيمن دعا عليه دعوته أن يجعل دعاءه وفعله له رحمة، وهو معنى قوله: «ليس لها بأهل»، لا أنه ﷺ يحمله الغضب ويستفزه الضجر لأن يفعل مثل هذا بمن لا يستحقه من مسلم. وهذا معنى صحيح.

ولا يفهم من قوله: «أغضب كما يغضب البشر» أن الغضب حمله على ما لا يجب بل يجوز أن يكون المراد بهذا أن الغضب لله حمله على معاقبته بلعنه أو سبه، وأنه مما كان يحتمل ويجوز عفوه عنه، أو كان مما خير بين المعاقبة فيه والعفو عنه. وقد يحمل على أنه خرج مخرج الإشفاق وتعليم أمته الخوف والحذر من تعدي حدود والله. وقد يحمل ما ورد من دعائه هنا، ومن دعواته على غير واحد في غير موطن على غير العقد والقصد، بل بما جرت به عادة العرب، وليس المراد بها الإجابة، كقوله ﷺ: «تربت يمينك»[١]. «ولا أشبع الله بطنك»[٢] «وعقرى حلقى»[٣] وغيرها من دعواته.

---

(١) هو في البخاري في الأدب، ومسلم في الحيض.

(٢) رواه مسلم في البر والصلة ١٦/ ١٥٥، ١٥٦، من حديث ابن عباس.

(٣) رواه البخاري ومسلم، كلاهما في الحج وأنه قال ذلك لبعض أزواجه.

وقد ورد في صفته في غير حديث «أنه ﷺ لم يكن فحاشًا»[١]. وقال أنس رضي الله تعالى عنه: «لم يكن سبابًا ولا فاحشًا ولا لعانًا»[٢]، وكان يقول لأحدنا عند المعتبة: «ما له؟ ترب جبينه». فيكون حمل الحديث على هذا المعنى، ثم أشفق ﷺ من موافقة أمثالها إجابة فعاهد ربه أن يجعل ذلك المقول له زكاة ورحمة وقربة.

وقد يكون ذلك إشفاقًا على المدعو عليه وتأنيسًا له، لئلا يلحقه من استشعار الخوف والحذر من لعن النبي ﷺ وتقبل دعائه ما يحمله على اليأس والقنوط. وقد يكون ذلك سؤالاً منه لربه لمن جلده أو سبه على حق، وبوجه صحيح، أن يجعل ذلك كفارة لما أصابه وتمحية لما اجترم، وأن تكون عقوبته له في الدنيا سبب العفو والغفران، كما جاء في الحديث الآخر: «ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة»[٣].

الكلام على حديث «اسق يا زبير حتى يبلغ الجدر»

فإن قلت: فما معنى حديث الزبير رضي الله تعالى عنه وقول النبي ﷺ له حين تخاصمه مع الأنصاري في شراج الحرة: «اسق يا زبير حتى يبلغ الكعبين». فقال له الأنصاري: أن كان يا رسول الله ابن عمتك! فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال: «اسق يا زبير ثم احبس حتى يبلغ الجدر» الحديث[٤].

---

(١) تقدم ذلك في أخلاقه ﷺ ص ٩٩ وما بعدها.

(٢) تقدم ص ١٣١.

(٣) رواه البخاري في الإيمان ١/ ٧٠، ٧٥، ومسلم في الحدود ١١/ ٢٢٣، ٢٢٤، عن عبادة بن الصامت، في حديث طويل ذكر فيه المبايعة. وما ذكر من أن الحدود كفارات هو الظاهر من الحديث، فلا عبرة بمن قال خلافه؛ فإنه لا يصح غيره.

(٤) تقدم ص ٤٢٥.

فالجواب: أن النبي ﷺ منزه أن يقع بنفس مسلم منه في هذه القصة أمر يريب، ولكنه ﷺ ندب الزبير أولاً إلى الاقتصار على بعض حقه على طريق الصلح، فلما لم يرض بذلك الآخر ولَجَّ وقال ما لا يجب استوفى النبي ﷺ للزبير حقه، ولهذا ترجم البخاري على هذا الحديث: (باب إذا أشار الإمام بالصلح فأبى حكم عليه بالحكم) وذكر في آخر الحديث: «فاستوعى رسول الله ﷺ حينئذٍ للزبير حقه»، وقد جعل المسلمون هذا الحديث أصلاً في قضيته، وفيه الاقتداء به ﷺ في كل ما فعله في حال غضبه ورضاه، وأنه وإن نهى أن يقضي القاضي وهو غضبان[1]، فإنه في حكمه في حال الغضب والرضا سواء لكونه ﷺ فيها معصومًا وغضبه ﷺ في هذا إنما كان لله تعالى لا لنفسه؛ كما جاء في الحديث الصحيح[2].

أفعاله ﷺ الدنيوية

وأما أفعاله ﷺ الدنيوية فحكمه فيها من توقي المعاصي والمكروهات ما قدمناه، ومن جواز السهو والغلط في بعضها ما ذكرناه، وكله غير قادح في النبوة، بل إن هذا فيها على الندور، إذ عامة أفعاله ﷺ على السداد والصواب، بل أكثرها أو كلها جارية مجرى العبادات والقرب على ما بينا؛ إذ كان ﷺ لا يأخذ منها لنفسه إلاَّ ضرورته وما يقيم رمق جسمه، وفيه مصلحة ذاته التي بها يعبد ربه ويقيم شريعته، ويسوس أمته، وما كان فيه بينه وبين الناس فبين معروف يصنعه، أو بر يوسعه، أو كلام حسن يقوله أو يُسْمِعُه، أو تألف شارد، أو قهر معاند، أو مداراة حاسد، وكل هذا لاحق بصالح أعماله، منتظم في زاكي وظائف عباداته.

(١) رواه البخاري في الأحكام ١٦/ ٢٥٦، ومسلم في الأقضية ١٢/ ١٥، عن أبي بكرة بلفظ: «لا يحكم أحد بين اثنين وهو غضبان».

(٢) تقدم في أخلاقه من حديث عائشة ص ١٢١.

وقد كان يخالف في أفعاله الدنيوية بحسب اختلاف الأحوال، ويعد للأمور أشباهها، فيركبُ في تصرفه لما قَرُب الحمار وفي أسفاره الراحلة، ويركب البغلة في معارك الحرب دليلاً على الثبات، ويركب الخيل ويُعِدُّها ليوم الفزع وإجابة الصارخ، وكذلك في لباسه وسائر أحواله، بحسب اعتبار مصالحه ومصالح أمته. وكذلك يفعل الفعل من أمور الدنيا مساعدة لأمته وسياسة وكراهية لخلافها، وإن كان قد يرى غيره خيرًا منه. كما يترك الفعل لهذا، وقد يرى فعله خيرًا منه.

وقد يفعل هذا في الأمور الدينية مما له الخيرة في أحد وجهيه، كخروجه من المدينة لأحد، وكان مذهبه التحصن بها. وتركه قتل المنافقين، وهو على يقين من أمرهم مؤالفة لغيرهم ورعاية للمؤمنين من قرابتهم، وكراهة لأن يقول الناس إن محمدًا يقتل أصحابه، كما جاء في الحديث[1]. وتركه بناء الكعبة على قواعد إبراهيم مراعاةً لقلوب قريش، وتعظيمهم لتغيرها، وحذرًا من نفار قلوبهم لذلك، وتحريك متقدم عداوتهم للدين وأهله، فقال لعائشة في الحديث الصحيح: «لولا حِدْثان قومك بالكفر لأتممت البيت على قواعد إبراهيم»[2]. ويفعل الفعل ثم يتركه لكون غيره خير لأمته، كانتقاله من أدنى مياه بدر إلى أقربها للعدو[3] من قريش، وكقوله: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي»[4]. ويبسط وجهه للكافر والعدو رجاء استئلافه، ويصبر للجاهل، ويقول: «إن من شر الناس من اتقاه الناس

(١) تقدم ص ١٢٠.

(٢) رواه البخاري ومسلم، كلاهما في الحج عن عائشة.

(٣) تقدم.

(٤) رواه الشيخان في الحج.

لشره»[1]، ويبذل له الرغائب ليحبب إليه شريعته ودين ربه، ويتولى في منزله ما يتولى الخادم من مهنته.

معنى حديث بئس أخو العشيرة

فإن قلت: فما معنى قوله لعائشة رضي الله تعالى عنه في الداخل عليه: «بئس ابن العشيرة»، فلما دخل ألان له القول وضحك معه، فلما خرج سألته عن ذلك قال: «إن من شر الناس من اتقاه الناس لشره»[2]، وكيف جاز أن يظهر له خلاف ما يبطن، ويقول في ظهره ما قاله.

فالجواب أن فعله ﷺ كان استئلافًا لمثله وتطييبًا لنفسه، ليتمكن إيمانه، ويدخل في الإسلام بسببه أتباعه، ويراه مثله فينجذب بذلك إلى الإسلام، ومثل هذا قد خرج من مداراة الدنيا إلى السياسة الدينية، وقد كان يتألفهم بأموال الله العريضة، فكيف بالكلمة اللينة؟ قال صفوان: لقد أعطاني وهو أبغض الخلق إلي، فما زال يعطيني حتى صار أحب الخلق إلي. وقوله ﷺ: «بئس ابن العشيرة» هو غير غيبة، بل هو تعريف ما علمه منه لمن لم يعلم ليحذر حاله ويحترز منه ولا يوثق بجانبه كل الثقة لا سيما وكان مطاعًا متبوعًا. ومثل هذا إذا كان لضرورة ودفع مضرة لم يكن بغيبة، بل كان جائزًا أو واجبًا في بعض الأحيان، كعادة المحدثين وتجريح الرواة والمزكين في الشهود.

---

(١) رواه البخاري في الأدب ١٣/ ١٤٤، ومسلم في البر والصلة ١٦/ ١٤٤، من حديث عائشة، وهذا الذي جامله هو عيينة بن حصن الفزاري، وكان قد أسلم بعد ثم ارتد.

(٢) تقدم قبله.

معنى حديث بريرة

فإن قلت: فما معنى ما جاء في حديث بريرة من قوله ﷺ لعائشة وقد أخبرته أن موالي بريرة أبوا بيعها إلاَّ أن يكون لهم الولاء، فقال لها ﷺ: «اشتريها واشترطي لهم الولاء»، ففعلت، ثم قام خطيبًا فقال: «ما بال أقوام يشترطون شروطًا ليس في كتاب الله؟ كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل»[1]، والنبي ﷺ قد أمرها بالشرط لهم، وعليه باعوا، ولولاه والله أعلم لما باعوها من عائشة كما لم يبيعوها قبل حتى شرطوا ذلك عليها، ثم أبطله ﷺ وهو قد حرم الغش والخديعة؟!!

فاعلم أكرمك الله: أن النبي ﷺ منزه عما يقع في بال الجاهل من هذا، ولتنزيه النبي ﷺ عن ذلك فقد أنكر قوم هذه الزيادة ــ قوله: «اشترطي لهم الولاء» ــ إذ ليست في أكثر طرق الحديث. ومع ثباتها فلا اعتراض بها إذ يقع لهم بمعنى عليهم، قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾ [الرعد: ٢٥]، وقال: ﴿وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾ [الإسراء: ٧]، فعلى هذا: اشترطي عليهم الولاء لك. ويكون قيام النبي ﷺ ووعظه لما سلف لهم من شرط الولاء لأنفسهم قبل ذلك.

ووجه ثان: أن قوله ﷺ اشترطي لهم الولاء، ليس على معنى الأمر، لكن على معنى التسوية والإعلام بأن شرطها لهم لا ينفعهم بعد بيان النبي ﷺ لهم قبلُ أن الولاء لمن أعتق. فكأنه قال: اشترطي أو لا تشترطي فإنه شرطٌ غير نافع. وإلى هذا ذهب الداوودي وغيره. وتوبيخ النبي ﷺ لهم وتقريعهم على ذلك يدل على علمهم به قبل هذا.

---

(١) رواه البخاري في المكاتبة وغيرها، ومسلم في العتق ١٠/ ١٣٩، ١٤٨، من حديث عائشة. وللحديث فوائد ليس هذا محل ذكرها. وتقدم تخريجه أيضًا ص ١٣٠.

الوجه الثالث: أن معنى قوله: «اشترطي لهم الولاء»، أي اظهري لهم حكمه، وبيِّني عندهم سنته أن الولاء إنما هو لمن أعتق. ثم بعد هذا قام هو ﷺ مبينًا ذلك وموبخًا على مخالفة ما تقدم منه فيه.

ما معنى نسبة إخوة يوسف للسرقة

فإن قيل: فما معنى فعل يوسف عليه السلام بأخيه، إذ جعل السقاية في رحله، وأخذه باسم سرقتها وما جرى على إخوته في ذلك، وقوله: «إنكم تسرقون» ولم يسرقوا.

فاعلم أكرمك الله: أن الآية تدل على أن فعل يوسف كان من أمر الله، لقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ... ﴾ الآية [يوسف: ٧٦]، فإذا كان كذلك فلا اعتراض به، وإن كان فيه ما فيه. ثم إن يوسف كان أعلم أخاه بأني أنا أخوك فلا تبتئس. فكان ما جرى عليه بعد هذا من وفقه ورغبته وعلى يقين من عقبى الخير له به، وإزاحة السوء والمضرة عنه بذلك.

وأما قوله: ﴿ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [يوسف: ٧٠] فليس من قول يوسف فيلزم عليه جواب يحل شبهة. ولعل قائله: إن حُسِّن له التأويل كائنًا من كان ظن على صورة الحال ذلك. وقد قيل: قال ذلك لفعلهم قبلُ بيوسف وبيعهم له. وقيل غير هذا. ولا يلزم أن نُقَوِّل الأنبياء ما لم يأت أنهم قالوه حتى يطلب الخلاص منه، ولا يلزم الاعتذار عن زلات غيرهم.

الحكمة في ابتلاء الأنبياء وإجراء الأمراض وشدتها عليهم

فإن قيل: فما الحكمة في إجراء الأمراض وشدتها عليه وعلى غيره من الأنبياء على جميعهم الصلاة والسلام، وما الوجه فيما ابتلاهم الله به من البلاء وامتحانهم بما امتحنوا به كأيوب ويعقوب ودنيال ويحيى وزكريا

وعيسى وإبراهيم ويوسف وغيرهم صلوات الله وسلامه عليهم، وهم خيرته من خلقه وأحباؤه وأصفياؤه.

فاعلم وفقنا الله وإياك: أن أفعال الله تعالى كلها عدل، وكلماته جميعًا صدق، لا مبدل لكلماته، يبتلي عباده كما قال لهم: ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يونس: ١٤]. و ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]. ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢]. ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ١٣]. فامتحانه إياهم بضروب المحن زيادة في مكانتهم، ورفعة في درجاتهم، وأسبابٌ لاستخراج حالات الصبر والرضا والشكر والتسليم والتوكل والتفويض والدعاء والتضرع منهم، وتأكيد لبصائرهم في رحمة الممتحنين والشفقة على المبتلين، وتذكرة لغيرهم وموعظة لسواهم ليتأسوا في البلاء بهم ويتسلوا في المحن بما جرى عليهم، ويقتدوا بهم في الصبر، ومحو لهنات فرطت منهم، أو غفلات سلفت لهم، ليلقوا الله طيبين مهذبين، وليكون أجرهم أكمل وثوابهم أوفر وأجزل.

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: قلت يا رسول الله: أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئه»[1].

وكما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ الآيات الثلاث [آل عمران: ١٤٦ ـ ١٤٨].

---

(١) رواه أحمد ١/ ١٨٠، والترمذي في الزهد ٢٢١٨، بتهذيبي، وابن ماجه ٤٠٢٣ وغيرهم، وحسنه الترمذي وصححه.

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: «ما يزال البلاء بالمؤمن في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة»(١).

وعن أنس رضي الله تعالى عنه عنه ﷺ: «إذا أراد بعبده الخير عجل الله له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة»(٢).

فكل من كان أكرم على الله تعالى بلاؤه أشد، كي يتبين فضله، ويستوجب الثواب.

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنه: ما رأيت الوجع على أحد أشد منه على رسول الله ﷺ(٣).

وعن عبد الله رضي الله تعالى عنه رأيت النبي ﷺ في مرضه يوعك وعكًا شديدًا، فقلت: إنك توعك وعكًا شديدًا قال: «أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم»، قلت: ذلك أن لك الأجر مرتين قال:

---

(١) رواه أحمد ٢/ ٢٨٧، ٤٥٠، والترمذي ٢٢١٩، والحاكم ٤/ ٣١٤، وحسنه الترمذي، وصححه الحاكم على شرط مسلم.

(٢) رواه الترمذي في الزهد أيضًا ٢٢١٥ بسند حسن وهو صحيح لشواهد له أشرت إليها في تهذيب الجامع. وفي هذه الأحاديث بشارة عظيمة للمؤمن الذي لا يخلو من محنة وبلاء ونكسات في نفسه وأهله وولده وماله، فللّه الحمد على ذلك. لكن كل ذلك مشروط بالصبر والرضا وعدم التسخط؛ لحديث أنس: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط» رواه الترمذي ٢٢١٦، وابن ماجه ٤٠٣١ كلاهما في الزهد بسند حسن. نسأل الله تعالى الصبر والرضا والتوفيق.

(٣) رواه البخاري في المرض ١٢/ ٢١٤، ومسلم ١٦/ ١٢٦ في البر والصلة وغيرها.

«أجل ذلك كذلك»[1].

وفي حديث أبي سعيد رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «إنا معشر الأنبياء يضاعف لنا البلاء، إن كان النبي ليبتلى بالقمل حتى يقتله، وإن كان النبي ليبتلى بالفقر، وإن كانوا ليفرحون بالبلاء كما يفرحون بالرخاء»[2].

وعن أنس رضي الله تعالى عنه عنه ﷺ: «إن عظم الجزء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط[3].

وقد قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]: إن المسلم يجزى بمصائب الدنيا فتكون له كفارة. ورد هذا عن عائشة وأبي ومجاهد[4].

---

(١) البخاري ١٢/ ٣١٥، ومسلم ١٦/ ١٢٧، في المصدرين السابقين. والوعك، بفتحتين: الحمى أو ألمها.

(٢) رواه ابن ماجه في الفتن ٤٠٢٤، والحاكم في الإيمان ١/ ٤٠، وفي الرقاق ٤/ ٣٠٧، بنحوه، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وقال البوصيري: إسناده صحيح ورجاله ثقات. وما في هذا الحديث ليس فيه شين للأنبياء؛ لأن هذه عوارض بشرية تجري على كل إنسان أراد الله منه ذلك.

(٣) تقدم تخريجه قريبًا ص ٤٩١، وأنه عند الترمذي وغيره بسند حسن.

(٤) قد جاءت أحاديث وآثار كثيرة في هذا الموضوع، أورد أكثرها ابن كثير في تفسيره لهذه الآية الكريمة، فانظرها فإنها تحمل بشارات هامة للمؤمن المبتلى. وفي صحيح مسلم ١٦/ ١٣٠، عن أبي بكر قال: لما نزلت: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]، بلغت من المسلمين مبلغًا شديدًا، فقال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسددوا، ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة، حتى النكبة ينكبها، أو الشوكة يُشاكها»، وفيما يلي من الأحاديث ما يدل لذلك أيضًا.

وقال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يصب منه»[1].

وعن عائشة رضي الله تعالى عنه ﷺ قال: «ما من مصيبة تصيب المسلم إلاَّ يكفر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها»[2].

وعن أبـي سعيد رضي الله تعالى عنه عنه ﷺ قال: «ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلاَّ كفر الله بها من خطاياه»[3].

وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عنه ﷺ قال: «ما من مسلم يصيبه أذى إلاَّ حات الله عنه خطاياه كما يحت ورق الشجر»[4].

وحكمة أخرى أودعها الله في الأمراض لأجسامهم وتعاقب الأوجاع وشدتها عند مماتهم لتضعف قوى نفوسهم فيسهل خروجها عند قبضهم، وتخف عليهم موتة النزع وشدة السكرات بتقدم المرض وضعف الجسم والنفس لذلك، خلاف موت الفجأة وأخذه، كما يشاهد من اختلاف أحوال الموتى في الشدة واللين والصعوبة.

---

(١) رواه البخاري في المرضى ١٢/ ٢١٢.

(٢) رواه البخاري في المرضى ١٢/ ٢٠٧، ٢٠٨، ومسلم في البر ١٦/ ١٢٩.

(٣) البخاري ١٢/ ٢٠٩، ومسلم ١٦/ ١٣٠، في المصدرين. «النصب»، وهو التعب، و «الوصب» بفتحتين كسابقه: الوجع اللازم.

(٤) البخاري ١٢/ ٢١٥، ومسلم ١٦/ ١٢٧، أيضًا. وهو بعض حديثه السابق قبل خمسة أحاديث. قال الحافظ في الفتح بعد بعض هذه الأحاديث: وفي هذه الأحاديث بشارة عظيمة لكل مؤمن؛ لأن الآدمي لا ينفك غالبًا من ألم بسبب مرض أو هم أو نحو ذلك مما ذكر، وأن الأمراض والأوجاع والآلام بدنية كانت أو قلبية تكفر ذنوب من تقع له.

وقد قال ﷺ: «مثل المؤمن مثل خامة الزرع تفيؤها الريح هكذا وهكذا». وفي رواية: «من حيث أتتها الريح تكفئها، فإذا سكت اعتدلت، وكذلك المؤمن يكفأ بالبلاء. ومثل الكافر كمثل الأرزة صماء معتدلة حتى يقصمه الله»[1].

ومعناه: أن المؤمن مُرَزَّءٌ مصاب بالبلاء والأمراض راضٍ بتصريفه بين أقدار الله تعالى، منطاع لذلك، لين الجانب برضاه وقلة سخطه كطاعة خامة الزرع وانقيادها للرياح، وتمايلها لهبوبها، وترمحها من حيث ما أتتها، فإذا أزاح الله عن المؤمن رياح البلايا واعتدل صحيحًا كما اعتدلت خامة الزرع عند سكون رياح الجو رجع إلى شكر ربه ومعرفة نعمته عليه برفع بلائه، منتظرًا رحمته وثوابه عليه، فإذا كان بهذه السبيل لم يصعب عليه مرض الموت ولا نزوله، ولا اشتدت عليه سكراته ونزعه؛ لعادته بما تقدمه من الآلام ومعرفة ما له فيها من الأجر وتوطينه نفسه على المصائب ورقتها وضعفها بتوالي المرض أو شدته.

والكافر بخلاف هذا: معافى في غالب حاله، مُمَتَّع بصحة جسمه، كالأرزة الصماء، حتى إذا أراد الله هلاكه قصمه لحينه على غرة، وأخذه بغتة من غير لطف ولا رفق، فكان موته أشد عليه حسرة، ومقاساة نزعًا، مع قوة نفسه وصحة جسمه أشد ألمًا وعذابًا، ولعذاب الآخرة أشد، كانقلاع الأرزة. وكما قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝﴾ [الأعراف: ٩٥]، وكذلك عادة الله في أعدائه كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا

---

(١) البخاري في المرض ١٢/ ٢١١، ومسلم في صفة القيامة ١٧/ ١٥١، وغيرهما من حديث أبي هريرة. وروياه من حديث كعب بن مالك. ومعناهما متقارب. والأرزة بفتح الهمزة وتكسر مع سكون الراء، قيل: هو شجر الصنوبر. وقيل: العرعر. وقوله: «صماء» أي: صلبة شديدة.

بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ . . .﴾ الآية [العنكبوت: ٤٠] ففجأ جميعهم بالموت على حال عتو وغفلة، وصبحهم به على غير استعداد بغتة، ولهذا ذكر عن السلف أنهم كانوا يكرهون موت الفجاءة.

وحكمة ثالثة: أن الأمراض نذير الممات وبقدر شدتها شدة الخوف من نزول الموت، فيستعد من أصابته وعلم تعاهدها له للقاء ربه ويعرض عن دار الدنيا الكثيرة الأنكاد، ويكون قلبه معلقًا بالمعاد، فيتنصل من كل ما يخشى تباعته ومؤاخذته من قبل الله وقبل العباد، ويؤدي الحقوق إلى أهلها، وينظر فيما يحتاج إليه من وصية فيمن يخلفه أو أمر يعهده. وهذا نبينا ﷺ المغفور له ما تقدم وما تأخر قد أوصى بالثقلين بعده: كتاب الله وعترته[١]، وبالأنصار عَيْبَتِه[٢]، ودعا إلى كتب كتاب يوصي فيه لئلا تضل أمته بعده[٣]، إما في النص على الخلافة، أو الله أعلم بمراده، ثم رأى الإمساك عنه أفضل وخيرًا. وهكذا سيرة عباد الله المؤمنين وأوليائه المتقين.

وهذا كله يحرمه غالبًا الكفار؛ لإملاء الله لهم ليزدادوا إثمًا، وليستدرجهم من حيث لا يعلمون، قال الله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ ۝٤٩ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٥٠﴾ [يس: ٤٩، ٥٠]، ولذلك قال ﷺ: «موت الفجأة راحة للمؤمن وأخذة أسف للكافر أو الفاجر»[٤]. وذلك أن الموت يأتي المؤمن وهو غالبًا مستعد له منتظر لحلوله، فهان أمره عليه كيفما جاء، وأفضى إلى راحته من نصب

---

(١) تقدم ص ٣٥١، ٤٨١.

(٢) تقدم ص ٣٣٣، ٣٦٠.

(٣) تقدم ص ٤٧٩.

(٤) رواه أحمد ٣/ ٤٢٣، من حديث عبيد بن خالد بسند صحيح.

الدنيا وأذاها، كما قال ﷺ: «مستريح ومستراح منه»[1]، وتأتي الكافر والفاجر منيته على غير استعداد ولا أهبة، ولا مقدمات منذرة مزعجة، ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٤٠] فكان الموت أشد شيء عليه، وفراق الدنيا أفظع أمر صدمه، وأكره شيء له، ولهذا المعنى أشار ﷺ بقوله: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»[2].

* * *

(١) رواه أحمد ٥/ ٢٩٦، ٣٠٢، ٣٠٤، والبخاري ١٤/ ١٥١، ١٥٢، ومسلم ٧/ ٢٠، ٢١، من حديث أبي قتادة.

(٢) رواه البخاري ١٤/ ١٤٤، ١٤٧، ومسلم ١٧/ ٩، في كتاب الذكر والدعاء، من حديث عائشة: ونحوه عن أبي هريرة، رواه أحمد ٢/ ٣٤٦، ومسلم ١٧/ ١٠، ١١ وغيرهما.

القسم الرابع

في حكم من تنقصه ﷺ أو سبّه

قال أبو الفضل رحمه الله تعالى: قد تقدم من الكتاب والسنَّة وإجماع الأمة ما يجب من الحقوق للنبي ﷺ، وما يتعين له من بر وتوقير وتعظيم وإكرام؛ وبحسب هذا حرم الله تعالى أذاه في كتابه، وأجمعت الأمة على قتل متنقصه من المسلمين وسابه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧]. وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [التوبة: ٦١]. وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وقال عز وجل في تحريم التعريض له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟﴾ [البقرة: ١٠٤]. وذلك أن اليهود كانوا يقولون: راعنا يا محمد، أي: ارْعِنَا سمعك واسمع منا ويُعَرِّضُون بالكلمة يريدون الرعونة والحماقة، فنهى الله المؤمنين عن التشبه بهم. وقطع الذريعة بنهي المؤمنين عنها لئلا يتوصل بها الكافر والمنافق إلى سبه والاستهزاء به. وقيل: بل لما فيها من مشاركة اللفظ؛ لأنها عند اليهود بمعنى اسمع

لا سمعت. وقيل: بل لما فيها من قلة الأدب[1]، وعدم توقير النبي ﷺ وتعظيمه؛ لأنها في لغة الأنصار بمعنى: (ارعنا نرعك) فنهوا عن ذلك؛ إذ مضمنه أنهم لا يرعونه إلاَّ برعايته لهم، وهو ﷺ واجب الرعاية بكل حال.

وها هو ﷺ قد نهى عن التكني بكنيته فقال: «تسموا باسمي ولا تكنوا بكنيتي»[2]، صيانة لنفسه وحماية عن أذاه؛ إذ كان ﷺ استجاب لرجل نادى أبا القاسم فقال: لم أعْنك، إنما دعوت هذا. فنهى حينئذٍ عن التكني بكنيته لئلا يتأذى بإجابة دعوة غيره لمن لم يدعه، ويجد بذلك المنافقون والمستهزئون ذريعة إلى أذاه والإزراء به فينادونه، فإذا التفت قالوا: إنما أردنا هذا لسواه؛ تعنيتًا له واستخفافًا بحقه، على عادة المُجَّان والمستهزئين. فحَمَى ﷺ حمى أذاه بكل وجه.

فحمل محققوا العلماء نهيه عن هذا على مدة حياته، وأجازوا ذلك بعد وفاته؛ لارتفاع العلة. وبهذا قال الجمهور. والصواب أن ذلك على طريق تعظيمه وتوقيره، وعلى سبيل الندب والاستحباب لا على التحريم، ولذلك لم ينه عن اسمه، لأنه قد كان الله منع من ندائه به بقوله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، وإنما كان المسلمون يدعونه: (يا رسول الله، يا نبي الله)، وقد يدعوه بعضهم بكنيته: (أبا القاسم) في بعض الأحوال.

---

(١) كل ذلك تشمله الآية.

(٢) ورد عن جماعة عن أنس، رواه البخاري في المناقب ٧/ ٣٧١، وفي الأدب ١٤/ ١١٢. وعن جابر، رواه البخاري في الخمس، وفي المناقب ٧/ ٣٧١، وفي الأدب ١٣/ ١٩٢. وعن أبي هريرة، رواه البخاري في العلم وفي الأدب ١٣/ ١٩٣.

وكره بعض العلماء التسمي باسمه ﷺ وأسماه الأنبياء إكرامًا لهم وخشية أن يسب من سمى بأسمائهم. والصواب جواز ذلك بعده ﷺ لإطباق الصحابة وغيرهم على ذلك. وقد سمى جماعة من الصحابة أولادهم محمدًا، منهم: الصديق رضي الله تعالى عنه وأذن ﷺ بذلك للإمام علي رضي الله تعالى عنه[١] وقد أخبر أن اسم المهدي محمد بن عبد الله[٢]. ولم يزل العلماء وغيرهم في كل الأجيال يسمون بأسماء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

* * *

(١) رواه أبو داود ٤٩٦٧، والترمذي ٢٩٥٢، كلاهما في الأدب، وسنده صحيح على شرط البخاري، وحسنه الترمذي وصححه. وهو من حديث علي.

(٢) رواه أحمد ١/ ٣٧٧، ٤٣٠، وأبو داود في المهدي ٤٢٨٢، والترمذي في الفتن ٢٠٦٠، وحسنه وصححه وسنده صحيح على شرط مسلم، وهو من حديث أبي مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطن اسمه أسمى».

الباب الأول

في بيان ما هو في حقه ﷺ سب أو نقص من تعريض أو نص

اعلم وفقنا الله وإياك أن جميع من سب النبي ﷺ أو عابه، أو ألحق به نقصًا في نفسه أو نسبه أو دينه أو خصلة من خصاله، أو عرَّض به، أو شبهه بشيء على طريق السب له أو الإزار عليه أو التصغير لشأنه، أو الغض منه والعيب له فهو ساب له. والحكم فيه حكم الساب يقتل،[1] ـ كما نبينه ـ تصريحًا كان أو تلويحًا. وكذلك من لعنه أو دعا عليه أو تمنى مضرة له، أو نسب إليه ما لا يليق بمنصبه على طريق الذم، أو عبث في جهته العزيزة بسخف من الكلام وهُجْر من القول ومنكر وزور، أو عيره وعابه بشيء مما جرى عليه من البلاء والمحنة، أو غمصه واحتقره ببعض العوارض البشرية الجائزة والمعهودة لديه. وهذا كله إجماع من العلماء وأئمة الفتوى من لدن الصحابة رضوان الله عليهم إلى هَلُمَّ جَرًّا[2].

---

(١) ويا خيبة الشيعة الروافض الطاعنين في نسب بناته زينب ورقية وأم كلثوم وقولهم بأنهن كن متبنيات لخديجة، ولسن بنات لها وللنبي ﷺ. فهذا كفر سافر منهم.

(٢) ومن هذا تعلم عظم إجرام ما يسمون اليوم بالممثلين الذين يخرجون الروايات المسلسلة في تاريخ الإسلام وما يتعاطونه في ذلك من نقص للنبي ﷺ وسب وكفر على سبيل الحكاية، فإن كل ذلك كفر بلا نزاع ولو كان لعبًا، وقد جهل ذلك كثير =

قال ابن المنذر رحمه الله تعالى: أجمع عوام وأهل العلم على أن من سب النبي ﷺ يقتل[1]. وممن قال بذلك: مالك والشافعي وأحمد والليث وابن راهويه وأبو حنيفة والأوزاعي وغيرهم، ويعتبر ذلك من المسلم ردة وزندقة. ولا نعلم خلافًا في استباحة دمه بين علماء الأمصار وسلف الأمة.

وقد ذكر غير واحد الإجماع على قتله وتكفيره، قال محمد بن سحنون: أجمع العلماء على أن شاتم النبي ﷺ المتنقص له كافر، والوعيد جار عليه بعذاب الله له، وحكمه عند الأمة القتل، ومن شك في كفره وعذابه كفر، وقد قتل خالد بن الوليد مالك بن نويره لمجرد قوله عن النبي ﷺ: (صاحبكم)؛ فإن ذلك ليؤذن منه بأنه لا يقول بنبوته ﷺ.

وقال الخطابي رحمه الله تعالى: لا أعلم أحدًا من المسلمين اختلف في وجوب قتل من سب النبي ﷺ إذا كان مسلمًا. وقال ابن القاسم عن مالك رحمهما الله تعالى: من سبه ﷺ أو شتمه أو عابه أو تنقصه فإنه يقتل، وحكمه عند الأمة القتل كالزنديق. وقال أصحاب مالك وأتباعه ابن كنانة وأبو مصعب وابن أويس وأصبغ وعبد الله بن عبد الحكم وأشعب وغيرهم:

= ممن ينتمون إلى العلم اليوم، فأباحوا ذلك لهؤلاء اللاعبين المجرمين الملحدين الذين يمثلون أنفسهم أحيانًا على صفة الكفار الذين كانوا يؤذون النبي ﷺ ويسبونه ويكفرون به... ثم لا يلبثون أن ينقلب أحدهم في رواية أخرى أبا بكر أو عمر أو خالد بن الوليد... ثم يضمون إلى ذلك النساء والفتيات الحسان الأجانب فيجعلونهن زوجات لهم أو أخوات فيعانقونهن ويقبلونهن ويختلون بهن في أشياء من هذا القبيل، فمن أفتى بإباحة هذا وأمثاله فهو كافر بالإجماع؛ لأنه أباح ما حرم الله تعالى. والمقصود: أن الممثلين ممن يشملهم هذا الباب، فليتقوا الله في جانب رسولنا الكريم ﷺ وصحابته وقادات الإسلام ولا يتخذوهم مسخرة...

(١) قاله في كتاب الإجماع ص ١٥٣ رقم ٧٢٢.

من سب النبي ﷺ أو عابه أو تنقصه قتل مسلمًا كان أم كافرًا، ولا يستتاب لأن توبته لا تعرف.

وقال مالك رحمه الله تعالى: من قال: إن رداء النبي ﷺ أوزره وسخ ـ أراد به عيبه ـ؛ قتل. وقال بعض الأئمة: أجمع العلماء على أن من دعا على نبي من الأنبياء بالويل أو بشيء من المكروه أنه يقتل بلا استتابة. وأفتى أبو الحسن القابسي ـ فيمن قال في النبي ﷺ: الجمَّال يتيم أبي طالب ـ؛ بالقتل. وأفتى ابن أبي زيد ـ يعني القيرواني ـ بقتل رجل سمع قومًا يتذاكرون صفة النبي ﷺ إذ مر بهم رجل قبيح الوجه واللحية، فقال لهم: تريدون تعرفون صفته؟ هي صفة هذا المار في خلقه ولحيته. قال: ولا تقبل توبته، وقد كذب عدو الله لعنه الله، وليس يخرج مثل هذا من قلب سليم الإيمان.

وقال أحمد بن سليمان صاحب سحنون: من قال: إن النبي ﷺ كان أسود؛ يقتل. وقال في رجل قيل له: لا وحق رسول الله ﷺ. فقال: فعل الله برسول الله كذا ـ وذكر كلامًا قبيحًا ـ فقيل له: ما تقول يا عدو الله؟! فقال أشَدَّ من كلامه الأول، ثم قال: إنما أردت برسول الله العقرب.!! فقال ابن أبي سليمان للذي سأله: اشهد عليه، وأنا شريكك. يريد في قتله، وثواب ذلك.

قال حبيب بن الربيع: لأن دعاء التأويل في لفظ صُراح لا يقبل، لأنه امتهان، وهو غير مُعَزِّر لرسول الله ﷺ ولا موقر له، فوجب إباحت دمه. وأفتى ابن عتاب في عشار ـ قال لرجل: أدِّ واشك إلى النبي ﷺ: وقال: إن سألت أو جهلت فقد جهل وسأل النبي ﷺ ـ بالقتل.

وأفتى فقهاء الأندلس بقتل ابن حاتم الطليطلي المتفقه وصلبه بما شهد عليه به من استخفافه بحق النبي ﷺ وتسميته إياه أثناء مناظرته باليتيم وخَتن

حيدرة، وزعمه أن زهده لم يكن قصدًا، ولو قدر على الطيبات لأكلها. . . إلى أشباه لهذا.

وأفتى فقهاء القيروان وأصحاب سحنون بقتل إبراهيم الفزاري؛ وكان شاعرًا متفننًا في كثير من العلوم، فرفعت عليه أمور منكرة في الاستهزاء بالله وأنبيائه ونبينا ﷺ؛ فأحضر له القاضي يحيى بن عُمر وغيره من الفقهاء وأمر بقتله وصلبه، فطعن بالسكين وصلب مُنَكَّسًا ثم أُنزل وأحرق بالنار. قالوا: أنه لَمَّا رُفعتْ خَشَبَتُه وزالت عنها الأيدي استدارت وحولته عن القبلة، فكان آية للجميع، وكبر الناس، وجاء كلب فولغ في دمه.

وقال أبو عبد الله ابن المرابط: من قال: إن النبي ﷺ هُزِمَ؛ يستتاب. فإن تاب. . ، وإلاَّ قتل لأنه تَنَقُّصٌ؛ إذ لا يجوز ذلك عليه في خاصته ﷺ، إذ هو على بصيرة من أمره ويقين من عصمته. وقال ابن عتاب: الكتاب والسنَّة موجبان أن: من قصد النبي ﷺ بأذى أو نقص ــ معرضًا أو مصرحًا وإن قل ــ فقتله واجب.

فهذا الباب كله مما عده العلماء سبًّا أو تنقصًا يجب قتل قائله، لم يختلف في ذلك متقدمهم ولا متأخرهم، وكذلك أقول: حكم من غمصه أو عيره برعاية الغنم أو السهو أو النسيان أو السحر، أو ما أصابه من جرح أو هزيمة لبعض جيوشه، أو أذى من عدوه أو شدة من زمنه، أو بالميل إلى نسائه؛ فحكم هذا كله لمن قصد به نقصه القتل[١].

---

(١) فانظر أيها المسلم كيف كان أئمتنا وعلماؤنا رحمهم الله تعالى يحترمون جانب رسول الله ﷺ ويعظمونه، ويحكمون بالكفر والقتل على كل من نسب إليه شيئًا أو نقصًا، فضلاً عن سب أو شتم أو جحود لنبوته.

فمن القرآن: لعْنُه تعالى لمؤذيه في الدنيا والآخرة، وقِرانه تعالى أذاه بأذاه؛ ولا خلاف في قتل من سب الله. وأن اللعن إنما يستوجبه من هو كافر، وحكم الكافر القتل، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ . . .﴾ الآية [الأحزاب: ٥٧]، وقال في قاتل المؤمن مثل ذلك، فمن لَعْنَته في الدنيا القتل. قال الله تعالى: ﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾ [الأحزاب: ٦١]. وقال في المحاربين وذكر عقوبتهم: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [المائدة: ٣٣].

وقد يقع القتل بمعنى اللعن، قال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الذاريات: ١٠]، و ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة: ٣٠]، أي: لعنهم الله.

ولأنه فَرْقٌ بين أذاهما وأذى المؤمنين. وفي أذى المؤمنين ما دون القتل من الضرب والنكال، فكان حكم مؤذي الله ونبيه أشد من ذلك وهو القتل.

وقال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ . . .﴾ الآية [النساء: ٦٥]، فسلب اسم الإيمان عمن وجد في صدره حرجًا من قضائه ولم يسلم له، ومن تنقصه فقد ناقض هذا. وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الحجرات: ٢]، ولا يحبط العمل إلاَّ الكفر، والكافر يقتل. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ ثم قال: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾ [المجادلة: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ﴾، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [التوبة: ٦١]. وقال تعالى:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾، إلى قوله: ﴿ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦]، قال أهل التفسير: كفرتم بقولكم في رسول الله ﷺ[١].

وأما الإجماع فقد ذكرناه[٢].

وأما الآثار، فمن ذلك: الحديث الصحيح: أن النبي ﷺ أمر بقتل كعب بن الأشرف. وقوله: «من لكعب بن الأشرف؛ فإنه يؤذي الله ورسوله»[٣]، ووجه إليه من قتله غيلة وخفية دون دعوة بخلاف غيره من المشركين، وعلل بأذاه له. فدل أن قتله إياه لغير الإشراك بل للأذى. وكذلك قَتْلُ أبي رافع[٤]، قال البراء: وكان يؤذي رسول الله ﷺ ويعين عليه. وكذلك أمره يوم الفتح بقتل ابن خطل وجاريتيه اللتين كانتا تغنيان بسب النبي ﷺ[٥].

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن أعمى كانت له أم ولد تسب النبي ﷺ فيزجرها فلا تنزجر، فلما كانت ذات ليلة جعلت تقع في النبي ﷺ وتشتمه، فقتلها واعلم النبي ﷺ بذلك؛ فأهدر دمها[٦].

---

(١) دلالة هذه الآيات على ما ذكر واضحة لا تحتاج إلى تعليق.

(٢) وقال التقي السبكي في فتاويه ٢/ ٥٧٢: وأما سب النبي ﷺ فالإجماع منعقد على أنه كفر.

(٣) رواه البخاري في المغازي ٨/ ٣٣٩، وفي الجهاد ٦/ ٩٩، ومسلم في الجهاد والسير ١٢/ ١٦٠، ١٦١، وغيرهما من حديث جابر مطولاً.

(٤) رواه البخاري في الجهاد باب قتل المشرك النائم ٦/ ٤٩٦، وفي المغازي.

(٥) رواه البخاري ٤/ ٤٣١، ومسلم كلاهما في الحج ٩/ ١٣١، من حديث أنس رضي الله تعالى عنه.

(٦) رواه أبو داود في الحدود رقم ٤٣٦١، والنسائي في كتاب تحريم الدم ٣٧٩٤، بسند صحيح، وعنونا عليه: باب الحكم فيمن سب النبي ﷺ.

وفي حديث أبـي برزة الأسلمي رضي الله تعالى عنه قال: أتيت أبا بكر وقد أغلظ لرجل فرد عليه. قال: فقلت: يا خليفة رسول الله ﷺ، دعني أضرب عنقه. فقال: اجلس فليس ذلك لأحد إلاَّ رسول الله ﷺ[1]. قال القاضي أبو محمد بن نصر: ولم يخالف عليه أحد، فاستدل الأئمة بهذا الحديث على قتل من أغضب النبـي ﷺ بكل ما أغضبه أو أذاه أو سبه.

ومن ذلك كتاب عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه إلى عامله بالكوفة وقد استشاره في قتل رجل سب عمر رضي الله تعالى عنه، فكتب إليه عمر أنه: لا يحل قتل مسلم بسب أحد من الناس إلاَّ رجلاً سب رسول الله ﷺ، فمن سبه فقد حل دمه.

وسأل الرشيد مالكًا رحمه الله في رجل شتم النبـي ﷺ، وذكر له أن فقهاء العراق أفتوه بجلده، فغضب مالك وقال: ما بقاء الأمة بعد شتم نبيها؟ من شتم الأنبياء قتل، ومن شتم أصحاب النبـي ﷺ جُلِد. وهذه الحكاية رواها غير واحد من أصحاب مناقب مالك ومؤلفي أخباره، وغيرهم. وما قاله أولئك العراقيون يحمل على غير السب، وإلاَّ فالإجماع على قتل من سبه كما تقدم.

ويدل على قتله من جهة النظر والاعتبار: أن من سبه أو تنقصه ﷺ فقد ظهرت علامة مرض قلبه وبرهان سر طويته وكفره؛ ولهذا ما حكم له كثير من العلماء بالردة، وهي رواية الشاميين عن مالك والأوزاعي، وقول الثوري وأبـي حنيفة والكوفيين. والقول الآخر: أنه دليل على الكفر؛ فيقتل حدًّا، وإن لم يحكم له بالكفر إلاَّ أن يكون متماديًا على قوله غير منكر له ولا مقلع عنه؛ فهذا كافر.

---

(١) رواه أيضًا أبو داود ٤٣٦٣، والنسائي ٣٧٩٥، في المصدرين السابقين، وسندهما صحيح.

وقوله إما صريح كفر كالتكذيب ونحوه، أو من كلمات الاستهزاء والذم، فاعترافه بها وترك توبته عنها دليل استحلاله لذلك، وهو كفر أيضًا. فهذا كافر بلا خلاف؛ قال الله تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾ [التوبة: ٧٤]، قال أهل التفسير: هي قولهم: إن كان ما يقول محمد حقًّا لنحن شر من الحمير. وقيل: بل قول بعضهم: ما مَثَلُنا ومَثَل محمد إلا قول القائل: سَمِّنْ كلبك يأكلك: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ [المنافقون: ٨].

وقد قيل إن قائل مثل هذا إن كان مستترًا به أن حكمه حكم الزنديق يقتل، ولأنه ﷺ غير دينه، وقد قال ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه»[(١)]، ولأن لحكم النبي ﷺ في الحرمة مزية على أمته، وساب الحرّ من أمته يحد فكانت العقوبة لمن سبه ﷺ القتل لعظيم قدره ورفعة منزلته على غيره.

السر في عدم قتله ﷺ من كان يؤذيه أو يسبه في حياته

فإن قلت: فلم لم يقتل النبي ﷺ اليهودي ـــ الذي قال له: السام عليكم[(٢)] ـــ وهذا دعاء عليه، ولا قتل الآخر الذي قال له: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله[(٣)]. وقد تأذى النبي ﷺ من ذلك، وقد قال: «قد أوذي

---

(١) سيأتي تخريجه ص ٥٢٩ وهو في البخاري والسنن من حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنه.

(٢) رواه البخاري في الأدب ١٣/ ٢٨٠، ٢٧٩، ومسلم في السلام ١٤/ ١٤٦، ١٤٧، والترمذي في الاستئذان ٢٥١٦، وغيرهم من حديث عائشة: أن رهطًا من اليهود دخلوا على النبي ﷺ، فقالوا: السام عليك. فقال النبي ﷺ «وعليكم». فقالت عائشة: فقلت: عليكم السام واللعنة. فقال النبي ﷺ: «يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله» فقالت عائشة: ألم تسمع ما قالوا؟ قال: «قد قلت عليكم». وللحديث ألفاظ. والسام: هو الموت.

(٣) تقدم تخريجه. وهو من حديث ابن مسعود، وهو وما بعده حديث واحد.

موسى بأكثر من هذا فصبر»[(١)]، ولا قتل المنافقين الذين كانوا يؤذونه في أكثر الأحيان.

فاعلم وفقنا الله وإياك: أن النبي ﷺ كان أول الإسلام يستألف عليه الناس ويُميل قلوبهم ويُمَيِّل إليه ويحبب إليهم الإيمان ويزينه في قلوبهم ويداريهم، ويقول لأصحابه: «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»[(٢)]، ويقول: «يسروا ولا تعسروا، وسكنوا ولا تنفروا»[(٣)]. ويقول: «لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه»[(٤)].

وكان ﷺ يداري الكفار والمنافقين، ويجمل صحبتهم ويغض عنهم ويتحمل أذاهم ويصبر على جفائهم ما لا يجوز لنا اليوم الصبر لهم عليه، وكان يرفقهم بالعطاء والإحسان، وبذلك أمره الله تعالى، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [المائدة: ١٣]. وقال تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت: ٣٤]. وذلك لحاجة الناس للتآلف أول الإسلام، وجمع الكلمة عليه.

---

(١) تقدم.

(٢) رواه البخاري في الطهارة وفي الأدب ١٣/ ١٤٢، وأحمد ٢/ ٢٣٩، ٢٨٣، والترمذي ١٣٠، وباقي أهل السنن من حديث أبي هريرة في بول الأعرابي في المسجد. وأخرج القصة الشيخان أيضًا من حديث أنس، وليس فيها: إنما بعثتم إلخ.

(٣) رواه البخاري في العلم ١/ ١٧٢، وفي الأدب، ومسلم في أوائل الجهاد والسير ١٢/ ٤٢، من حديث أنس. وفي رواية بدل «سكنوا»: «بشروا». وجاء من حديث أبي موسى، روياه أيضًا. وانظر: النووي على مسلم، والفتح للحافظ، على معنى الحديث وفوائده؛ فإن ذلك مهم جدًّا في باب الدعوة.

(٤) تقدم ص ١٢٠، ٤٨٦.

فلما استقر وأظهره الله على الدين كله قتل من قدر عليه، واشتهر أمره، كفعله بابن خطل ومن عهد بقتله يوم الفتح، ومن أمكنه قتله غيلة من يهود وغيرهم ممن كان يؤذيه كابن الأشرف وأبـي رافع[1] وغيرهما، أما المنافقون فكانت بواطنهم مستترة وحكمه ﷺ كان على الظاهر، وأكثر تلك الكلمات كان يقولها القائل منهم خفية ومع أمثاله، ويحلفون عليها إذا أُنميت وينكرونها، ويحلفون بالله ما قالوا، ولقد قالوا كلمة الكفر، وكان مع هذا يطمع في رجوعهم إلى الإسلام وتوبتهم؛ فيصبر ﷺ على هناتهم وجفوتهم كما صبر أولوا العزم من الرسل، حتى فاء كثير منهم باطنًا كما فاء ظاهرًا وأخلص سرًّا كما أظهر جهرًا، ونفع الله بعدُ بكثير منهم، وقام منهم للدين وزراء وأعوان وحماة وأنصار كما جاءت به الأخبار.

وبهذا أجاب بعض أئمتنا رحمهم الله عن هذا السؤال، وقال: لعله لم يثبت عنده ﷺ من أقوالهم ما رفع إليه، وإنما نقله الواحد... والدماء لا تستباح إلاَّ بعدلين. وعلى هذا يحمل أمر اليهودي في السلام، وإنما لووا ألسنتهم ولم يبينوه. وكذلك قيل في شأن المنافقين وأنه لم تقم بينة على نفاقهم؛ فلذلك تركهم ﷺ؛ فإن الأمر كان سرًّا وباطنًا، وظاهرهم الإسلام والإيمان. وإن كان من أهل الذمة بالعهد والجوار، والناس قريب عهدهم بالإسلام لم يتميز بعد الخبيث من الطيب، وقد شاع عن المذكورين في العرب كون من يتهم بالنفاق من جملة المؤمنين وصحابة الرسول وأنصار الدين بحكم ظاهرهم، فلو قتلهم النبـي ﷺ لنفاقهم وما يبدر منهم وعلمه بما أسروا في أنفسهم لوجد المُنفِّر ما يقول، ولارتاب الشارد، ولخاف من صحبة النبـي ﷺ والدخول في الإسلام غير واحد، ولظن العدو والظالم أن القتل إنما كان للعداوة.. ولهذا قال ﷺ: «لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل

---

(١) كل ذلك قد تقدم ص ٥٠٥.

أصحابه». وقال: «أولئك الذين نهاني الله عن قتلهم»[1].

وهذا بخلاف إجراء الأحكام الظاهرة عليهم من حدود الزنا والقتل وشبه ذلك؛ لظهورها واستواء الناس في علمها.

وقد قال غير واحد في قوله تعالى: ﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ۝ سُنَّةَ ٱللَّهِ ﴾ الآيات [الأحزاب: ٦٠ ـ ٦٢]. فمعناه: إذا أظهروا النفاق فعل بهم ذلك. وهناك أجوبة أخرى عما ذكر والأولى في ذلك كله والأظهر من هذه الوجوه مقصد الاسئلاف والمداراة على الدين لعلهم يؤمنون، ولذلك ترجم البخاري على حديث القسمة والخوارج، باب من ترك قتال الخوارج للتآلف ولئلا ينفر الناس عنه.

وقد صبر لهم ﷺ على سحره وسمه وهو أعظم من سبه إلى أن نصره الله عليهم وأذن له في قتل من أراد هلاكه منهم، وأنزلهم من حصونهم، وقذف في قلوبهم الرعب، وكتب على من شاء منهم الجلاء، وأخرجهم من ديارهم، وخرب بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، وحكم فيهم سيوف المسلمين وأجلاهم من جوارهم، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم؛ لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

فإن قيل فقد جاء في الحديث الصحيح عن عائشة رضي الله تعالى عنها: أنه ﷺ ما انتقم لنفسه في شيء يؤتى إليه قط، إلاَّ أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله[2].

---

(١) تقدم ص ١٢٠، ٤٨٦، ٥٠٨.

(٢) تقدم في أخلاقه ﷺ ص ١١٧، ١٢١.

فاعلم أن هذا لا يقتضي أنه لم ينتقم ممن سبه أو آذاه أو كذبه، فإن هذه من حرمات الله التي انتقم لها، وإنما يكون ما لا ينتقم له منه فيما تعلق بسوء أدب أو معاملة من القول والفعل بالنفس والمال مما لم يقصد فاعله به أذاه، لكن مما جبلت عليه الأعراب من الجفاء والجهل، أو جبل عليه البشر من السفه كجبذ الأعرابي إزاره حتى أثر في عنقه[1]، وكرفع صوت الآخر عنده[2]، وكجحد الأعرابي شراءه منه فرسه التي شهد فيها خزيمة[3]، وكما كان من تظاهر زوجيه عليه، وأشباه ذلك مما يحسن الصفح عنه.

وقد قال علماؤنا رحمهم الله تعالى: إن أذى النبي ﷺ حرام لا يجوز بفعل مباح ولا غيره، وأما غيره فيجوز بفعل مباح، مما يجوز للإنسان فعله وإن تأذى به غيره، واحتجوا بعموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧]. وبقوله ﷺ في حديث فاطمة عليها السلام: «إنها بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها ألا وإني لا أحرم ما أحل الله ولكن لا تجتمع ابنة رسول الله ﷺ وابنة عدو الله عند رجل أبدًا»[4]. أو يكون هذا مما آذاه به كافر رجا بعد ذلك إسلامه، كعفوه عن اليهودي الذي سحره وعن الأعرابي الذي أراد قتله وعن اليهودية التي سمته، فصفح عنهم رجاء ائتلافهم[5].

---

(١) تقدم ص ١٢١.

(٢) تقدم.

(٣) تقدم.

(٤) يأتي ص ٥٥٤.

(٥) تقدم ص ١١٩، ١٢١.

من سبه أو كذبه ﷺ من غير قصد ولا تعمد الذم والسب

ما تقدم من الوجه الأول في قتل القاصد لسبه ﷺ والازراء به وغمصه بأي وجه كان من ممكن أو محال، فهذا لا إشكال فيه.

الوجه الثاني: هو لاحق به في البيان والجلاء، وهو أن يكون القائل لما قال في جهته ﷺ غير قاصد للسب والإزراء ولا معتقد له، ولكنه تكلم في جهته ﷺ بكلمة الكفر من لعنه أو سبه أو تكذيبه أو إضافة ما لا يجوز عليه أو نفي ما يجب له مما هو في حقه ﷺ نقيصة، مثل أن ينسب إليه إتيان كبيرة أو مداهنة في تبليغ الرسالة أو في حكم بين الناس، أو يغض من مرتبته أو شرف نسبه، أو وفور علمه أو زهده، أو يكذب بما اشتهر من أمور أخبر بها ﷺ وتواتر الخبر بها عن قصد لرد خبره، أو يأتي بِسَفَهٍ من القول أو قبيح من الكلام، ونوع من السب في جهته، وإن ظهر بدليل حاله أنه لم يتعمد ذمه ولم يقصد سبه، إما لجهالة حملته على ما قاله أو لضجر أو سكر اضطره إليه أو تهور في كلامه.

فحكم هذا الوجه: القتل دون تلعثم؛ إذ لا يعذر أحد في الكفر بالجهالة ولا بدعوى زلل اللسان، ولا بشيء مما ذكرناه إذا كان عقله في فطرته سليمًا، إلاَّ من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان. وبهذا أفتى الأندلسيون على ابن حاتم في نفيه الزهد عن رسول الله ﷺ الذي تقدم. وقال محمد بن سحنون في المأمور بسب النبي ﷺ في أيدي العدو: يقتل، إلاَّ أن يعلم تبصره أو إكراهه. وعن ابن أبي زيد: لا يعذر بدعوى زلل اللسان مثل هذا.

وأفتى أبو الحسن القابسي فيمن شتم النبي ﷺ في سكره: يقتل، لأنه يظن به أنه يعتقد هذا ويفعله في صحوه، وأيضًا فإنه حد لا يسقطه المسكر كالقذف والقتل وسائر الحدود، لأنه أدخله على نفسه، لأن من شرب الخمر على علم من زوال عقله بها وإتيان ما ينكر منه فهو كالعامد لما يكون بسببه،

وعلى هذا ألزمناه الطلاق والعتاق والقصاص والحدود[1]. ولا يعترض على هذا بحديث حمزة وقوله للنبي ﷺ: وهل أنتم إلاَّ عبيد لأبـي؟ قال: فعرف النبـي ﷺ أنه ثَمِلٌ سكران، فانصرف[2]؛ لأن الخمر كانت حينئذٍ غير محرمة، فلم يكن في جناياتها إثم، وكان حكم ما يحدث عنها معفوًا عنه، كما يحدث من النوم وشرب الدواء المأمون.

من قصد تكذيبه أو الكفر به أو نفى وجوده ونحو ذلك

الوجه الثالث: أن يقصد إلى تكذيبه ﷺ فيما قاله أو أتى به، أو ينفي نبوته أو رسالته أو وجوده، أو يكفر به ــ انتقل إلى دين آخر أم لا ــ فهذا كافر بإجماع، مقطوع به، يجب قتله. ثم ينظر، فإن كان مصرحًا بذلك كان حكمه أشبه بحكم المرتد، وقوي الخلاف في استتابته. وعلى القول الآخر: لا تسقط القتل عنه توبته، ولِحَقِّ النبـي ﷺ إن كان ذكره بنقيصة فيما قاله من كذب أو غيره وإن كان متسترًا بذلك فحكمه حكم الزنديق[3] لا تسقط قتله التوبة عندنا.

قال أبو حنيفة وأصحابه: من برىء من محمد ﷺ أو كذب به فهو مرتد حلال الدم إلاَّ أن يرجع. وقال ابن القاسم في المسلم إذا قال: إن محمدًا ليس بنبـي أو لم يرسل أو لم ينزل عليه قرآن، وإنما هو شيء تقوله: يقتل. وقال: ومن كفر برسول الله ﷺ وأنكره من المسلمين فهو بمنزلة المرتد وكذا

---

(١) وفي هذا قالوا:

لاَ يَلْـزَم السكران إقرارٌ عقودْ ... بل مَا جَنَى عِتْقٌ طَلاَقٌ وحُدُود

(٢) رواه البخاري في أول فرض الخمس ٧/ ٣، ٦ وفي المغازي، ومسلم في أول الأشربة ١٣/ ١٤٣، ١٤٧، وغيرهما من حديث الإمام علي مطولاً في عقر حمزة شارف الإمام علي عليه السلام في القصة المشهورة.

(٣) يقصد إخواننا المالكية وغيرهم بالزنديق: المنافق.

من أعلن بتكذيبه أنه كالمرتد: يستتاب. وكذلك قال فيمن تنبأ وزعم أنه يوحى إليه. وقال أشهب في يهودي تنبأ أو زعم أنه أرسل إلى الناس أو قال بعد نبيكم نبي: أنه يستتاب إن كان معلنًا بذلك، فإن تاب وإلاَّ قتل، وذلك أنه مكذب للنبي ﷺ في قوله: «لا نبي بعدي»(١)، مفتر على الله في دعواه عليه الرسالة والنبوة.

وقال محمد بن سحنون: من شك في حرف مما جاء به محمد ﷺ عن الله فهو كافر جاحد. وقال: من كذب النبي ﷺ كان حكمه عند الأمة القتل. وهكذا قالوا فيمن قال إنه ﷺ كان أسود أو مات قبل أن يلتحي، أو أنه كان بالمغرب، ولم يكن بتهامة، وما أشبه ذلك من تبديل صفته أو مواضعه. كل ذلك كفر من صاحبه يستتاب مُظهره ويقتل مُسِرُه دون استتابة لأنه زنديق(٢).

من أتى في كلامه بمجمل من القول يحتمل حمله على النبي وغيره

الوجه الرابع: أن يأتي من الكلام بمجمل من القول مشكل، يمكن حمله على النبي ﷺ أو غيره، أو يتردد في المراد به من سلامته من المكروه أو شره، فههنا متردد النظر ومظنة اختلاف المجتهدين ووقفة استبراء المقلدين ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة. فمنهم من غلَّب حرمة النبي ﷺ وحَمَى حِمَى عِرضه فجسر على القتل، ومنهم من عظم حرمة الدم ودرأ الحد بالشبهة لاحتمال القول.

---

(١) رواه أحمد ٥/ ٢٧٨، ٢٨٤، وأبو داود ٤٢٥٢، وابن ماجه ٣٩٥٢، من حديث ثوبان مطولاً وسنده صحيح، وأصله في الفتن من صحيح مسلم ١٨/ ١٣، وأوله: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها...» إلخ.

(٢) الأمر في هذا الوجه هو ما صَدَّر به أولاً، مِنْ كفر مَنْ صَدَرَ منه ما سبق بالإجماع وبدون خلاف، ولا يحتاج هذا إلى تنصيص من أحد.

وقد اختلف أئمتنا رحمهم الله تعالى في رجل أغضبه غريمه فقال له صلّ على محمد ﷺ. فقال له الطالب: لأصلِّي على من صلَّى عليه. فقيل لسحنون: هل هو كمن شتم النبـي ﷺ أو شتم الملائكة الذين يصلون عليه؟ قال: لا إذا كان على ما وصفت من الغضب، لأنه لم يكن مضمرًا الشتم.

وقال أبو إسحاق البرقي وأصبغ بن الفرج: لا يقتل، لأنه إنما شتم الناس، وهذا نحو قول سحنون، لأنه لم يعذره بالغضب في شتم النبـي ﷺ ولكنه لما احتمل الكلام هنا عنده ولم تكن معه قرينة تدل على شتم النبـي ﷺ أو شتم الملائكة صلوات الله عليهم عذره بغضبه.

وذهب الحارث بن مسكين وغيره في مثل هذا إلى القتل، وتوقف أبو الحسن القابسي في قتل رجل قال: كل صاحب فندق قَرْنَانٌ[1] ولو كان نبيًا مرسلاً. فأمر بشده بالقيود والتضييق عليه حتى يستفهم البينة عن جملة ألفاظه وما يدل على مقصده؟ هل أراد أصحاب الفنادق الآن؟ فمعلوم أنه ليس فيهم نبـي مرسل، فيكون أمره أخف. ولكن ظاهر لفظه العموم لكل صاحب فندق من المتقدمين والمتأخرين، وقد كان في الأنبياء والرسل من اكتسب المال، قال: ودم المسلم لا يقدم عليه إلاَّ بأمْر بيِّن، وما ترد إليه التأويلات لا بد من إمعان النظر فيه.

وحكي عن أبي محمد ابن أبـي زيد رحمه الله تعالى فيمن قال: لعن الله العرب ولعن الله بنى إسرائيل، ولعن الله بني آدم. وذكر أنه لم يرد الأنبياء وإنما أراد الظالمين منهم: أن عليه الأدب بقدر اجتهاد الإمام الحاكم.

وكذلك أفتى فيمن قال: لعن الله من حرم المسكر، وقال: لم أعلم من حرمه. وفيمن لعن حديث: «لا يبع حاضر لباد»[2]، ولعن ما جاء به: أنه إن

---

(١) قرنان بفتح أوله بمعنى الديوث الذي لا يبالي بمن اجتمع بزوجته ومحارمه.

(٢) رواه الجماعة وغيرهم من حديث أبـي هريرة، وهو من أحاديث البيوع المشهورة.

كان يعذر بالجهل وعدم معرفة السنن فعليه الأدب الوجيع، وذلك أن هذا لم يقصد بظاهر حاله سب الله ولا سب رسوله ﷺ، وإنما لعن من حرمه من الناس على نحو فتوى سحنون وأصحابه في المسألة المتقدمة.

ومثل هذا ما يجري في كلام سفهاء الناس من قول بعضهم لبعض: يا ابن ألف خنزير، ويا ابن مائة كلب. وشبهه من هُجْر القول. ولا شك أنه يدخل في مثل هذا العدد من آبائه وأجداده جماعة من الأنبياء، ولعل بعض هذا العدد منقطع إلى آدم عليه السلام، فينبغي الزجر عنه، وتبين ما جهل قائله منه، وشدة الأدب فيه. ولو علم أنه قصد سب من في آبائه من الأنبياء على علم لقتل، وقد يضيق القول في نحو هذا، لو قال لرجل هاشمي: لعن الله بني هاشم، وقال: أردت الظالمين منهم. أو قال لرجل من ذرية النبي ﷺ، ولم تكن قرينة في المسألتين تقتضي تخصيص بعض آبائه وإخراج النبي ﷺ ممن سبه منهم. وقال موسى بن مَنَاس[1] فيمن قال لرجل: لعنك الله إلى آدم عليه السلام، لأنه إن ثبت عليه ذلك قتل . . .

قال القاضي رحمه الله تعالى: وقد كان اختلف شيوخنا فيمن قال الشاهد شهد عليه بشيء ثم قال له: تتهمني؟ فقال له الآخر: الأنبياء يتهمون فكيف أنت؟ فكان شيخنا أبو إسحاق بن جعفر يرى قتله لبشاعة ظاهر اللفظ. وكان القاضي أبو محمد بن منصور يتوقف عن القتل لاحتمال اللفظ عنده أن يكون خبرًا عمن اتهمهم من الكفار. وأفتى فيها قاضي قرطبة أبو عبد الله بن الحاج بنحو من هذا، وشدد القاضي أبو محمد تصفيده وأطال سجنه، ثم استحلفه بعد على تكذيب ما شهد به عليه، إذ دخل في شهادة بعض من شهد عليه وهْنٌ ثم أطلقه. وشاهدت شيخنا القاضي أبا عبد الله ابن عيسى أيام قضائه أُتي برجل هاتر رجلًا ــ قال له قولًا سفهًا ــ اسمه محمد، ثم قصد إلى

(١) من أصحاب سحنون.

كلب فضربه برجله وقال له قم يا محمد، فأنكر الرجل أن يكون قال ذلك، وشهد عليه لفيف من الناس ــ أي جمع كثر ــ فأمر به إلى السجن وتقصى عن حاله، وهل كان يصاحب من يشك في دينه؟ فلما لم يجد ما يقوي الريبة باعتقاده ضربه بالسوط وأطلقه.

من ذكره ﷺ مستشهدًا به على نقص ناله ونحو ذلك

الوجه الخامس: أن لا يقصد ذاكره ﷺ نقصًا ولا عيبًا ولا سبًا لذلك لكنه ينزع بذكر بعض أوصافه، أو يستشهد ببعض أحواله ﷺ الجائزة عليه في الدنيا على طريق ضرب المثل والحجة لنفسه أو لغيره، أو على التشبه به أو عند هضيمة ونقيصة نالته أو غضاضة وحقارة لحقته، ليس على طريق التأسي بل على مقصد الترفيع لنفسه أو لغيره، أو على سبيل التمثيل وعدم التوقير لنبيه ﷺ، أو قصد الهزل بقوله: كقول القائل: إن قيل فيَّ السوء؛ فقد قيل في النبي، أو إن كُذِّبتُ فقد كذب الأنبياء، أو إن أذنبت فقد أذنبوا، أو أنا أسلم من ألسنة الناس ولم يسلم منه أنبياء الله ورسله، أو قد صبرت كما صبر أولوا العزم، أو كصبر أيوب، أو قد صبر نبي الله عن عداه وحلم على أكثر مما صبرت، وكقول المتنبي:

أنا في أمَّةٍ تَدَارَكها اللّه غَرِيبٌ كَصَالِحٍ في ثَمُودَ

ونحوه من أشعار المتساهلين في الكلام، كقول المَعَرِّي:

كنتَ موسى وافَته بنتُ شُعيب غيرَ أن ليس فيكُمَا مِن فَقِيرِ

على أنَّ آخر البيت شديد وداخل في الإزراء والتحقير بالنبي ﷺ، وكذلك قوله:

لولا انقطاعُ الوحي بعدَ محمد قُلنا محمدُ عن أبيه بَديل
هو مثله في الفضلِ إلاّ أنه لم يأته برسالة جِبْرِيل

فصدر البيت الثاني من هذا الفصل شديد لتشبيهه غير النبي ﷺ فضله بالنبي. والعجز محتمل لوجهين، أحدهما: أن هذه الفضيلة نقصت الممدوح، والآخر: استغناؤه عنها. وهذه أشد:

وقول الآخر:

فَرَّ من الخُلْدِ واستجارَ بِنَا ... فَصَبَّر اللَّهُ قلبَ رِضْوَان

وكقوله الآخر في ابن عباد المعتمد ووزيره أبي بكر ابن زيدون:

كان أبا بكر أبو بكر الرِضَا ... وحَسَانَ حَسَّان وأنت مُحمدُ

إلى أمثال هذا الكلام الدال على الاستحقاق وقلة علمهم بعظيم ما فيه من الوزر يحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم. فقد خرج كثير من كلامهم إلى حد النقص وصريح الكفر... فما ذكرناه وإن لم تتضمن سبًّا ولا أضافت إلى الملائكة والأنبياء نقصًا، ولا قصد قائلها إزراء وغضا، فما وقر النبوة ولا عظم الرسالة حتى شُبه في كرامة نالها أو معرة قصد الانتفاء منها.. بمن عظم الله خطره وشرف قدره وألزم توقيره وبره، ونهى عن جهر القول له ورفع الصوت عنده، فحق هذا أن دُرىء عنه القتل الأدب والسجن، وقوة تعزيره بحسب شنعة مقالته، ومقتضى قُبح ما نطق به. ولم يزل المتقدمون ينكرون مثل هذا ممن جاء به لا سيما عجزي بيتي المَعَرّي المتقدمين.

فالحكم في أمثال ذلك ما بسطناه في طريق الفتيا على هذا المنهج جاءت فتيا إمام مذهبنا مالك بن أنس رحمه الله تعالى وأصحابه. ففي النوادر من رواية ابن أبي مريم في رجل عيَّر رجلاً بالفقر فقال: تعيرني بالفقر وقد رعى النبي ﷺ[1]. قال مالك: قد عرّض بذكر النبي ﷺ في غير موضعه

---

(١) رواه البخاري في الإجارة ٥/ ٣٤٨، من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما=

أرى أن يؤدب، قال: ولا ينبغي لأهل الذنوب إذا عوتبوا أن يقولوا قد أخطأت الأنبياء قبلنا. وقال عمر بن عبد العزيز لرجل: انظر لنا كاتبًا يكون أبوه عربيًّا. فقال كاتب له: قد كان أبو النبي كافرًا، فقال: جعلت هذا مثلاً؟! فعزله، وقال: لا تكتب لي أبدًا. وقد كره سحنون أن يصلى على النبي ﷺ عند التعجُّب إلاَّ على طريق الثواب والاحتساب توقيرًا له وتعظيمًا كما أمرنا الله.

وسئل القابسي عن رجل قال لرجل قبيح: كأنه وجه نكير. ولرجل عبوس: كأنه وجه مالك الغضبان. فقال: أي شيء أراد بهذا؟ ونكير أحد فَتَّانَيْ القبر، وهما ملكان، فما الذي أراد؟ أَرَوْعٌ دخل عليه حين رآه من وجهه أم عاف النظر إليه لدمامة خلقه؟ فإن كان هذا فهو شديد؛ لأنه جرى مجرى التحقير والتهوين، فهو أشد عقوبة وليس فيه تصريح بالسب للملك وإنما السب واقع على المخاطب، وفي الأدب بالسوط والسجن نكال للسفهاء. قال: وأما ذاكر مالك خازن بالنار فقد جفا الذي ذكره عند ما أنكر حاله من عباس الآخر، إلاَّ أن يكون المُعَيَّن له يَدٌ فيرهب بعُبْسته فيشبهه القائل على طريق الذم لهذا في فعله ولزومه في ظله صفة مالك الملك المطيع لربه في فعله، فيقول: كأنه لله يغضب غضب مالك، فيكون أخف، وما كان ينبغي له التعرض لمثل هذا. ولو كان أثنى على العبوس بعبسته واحتج بصفة مالك، كان أشد، ويعاقب المعاقبة الشديدة، وليس في هذا ذم للملك، ولو قصد

= بعث الله نبيًّا إلاَّ رعى الغنم» فقال له أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة»، ورواه البخاري في الأنبياء، وفي الأطعمة ١١/ ٥٠٩، ومسلم فيه ١٤/ ٥، ٦، وكذا مالك وأحمد من حديث جابر في حديث، فقلنا: يا رسول الله كأنك رعيت الغنم؟ قال: «نعم، وهل من نبي إلاَّ وقد رعاها». وانظر السر في رعي الأنبياء الغنم في الإجارة من الفتح.

ذمه لقتل[1].

وقال أبو الحسن أيضًا في شاب معروف بالخير، قال له رجل: اسكت فإنك أُمِّيٌّ. فقال الشاب: أليس كان النبي ﷺ أُمِّيًا فَشُيِّع عليه مقاله وكفره الناس، وأشفق الشاب وندم على ما قال. فقال أبو الحسن: أما إطلاق الكفر عليه فخطأ، لكنه مخطىء في استشهاده بصفة النبي ﷺ، وكون النبي أُمِّيًا آيةٌ له، وكون هذا أُمِّيًا نقيصة فيه وجهالة، ومن جهالته احتجاجه بصفة النبي ﷺ، لكنه إذا تاب واستغفر واعترف ولجأ إلى الله ترك، لأن قوله لا ينتهي إلى حد القتل. واستفتي القاضي أبو محمد منصور في رجل تنقصه آخر بشيء، فقال له: تريد تنقصي بقولك وأنا بشر، وجميع البشر يلحقهم النقص، حتى النبي ﷺ. فأفتى بإطالة سجنه وإيجاع أدبه إذ لم يقصد السب. وأفتى بعضهم بقتله.

حكاية ما هو سب أو نقيصة في حق النبي ﷺ

الوجه السادس: أن يقول القائل ذلك حاكيًا عن غيره، وأثرًا له عن سواه. فهذا ينظر في صورة حكايته وقرينة مقالته، ويختلف الحكم في ذلك على أربعة وجوه: الوجوب، والندب، والكراهة، والتحريم. فإن كان أخبر به على وجه الشهادة والتعريف بقائله والإعلام بقوله والإنكار عليه والتنفير منه والتجريح له؟ فهذا مما ينبغي امتثاله ويحمد فاعله. وكذلك إن حكاه في كتاب أو مجلس على طريق الرد له والنقض على قائله، والفتيا بما يلزمه.

(١) في السنين الأخيرة كتب كاتب في صحيفة إلحادية عندنا بالمغرب مقالاً شبه مسرحية يسخر فيه من نكير ومنكر عليهما السلام، ومثل نفسه كأنه مات، وجاءه الملكان يسألانه، فطلب منهما بطاقة التعريف، إلى آخر ما ذكر من الاستهزاء بملائكة الله تعالى والسخرية بشرعه وأحكام دينه. فلو كان للدين والإسلام دولة لحوكم هذا الملحد وأعدم بدون استتابة.

وهذا منه ما يجب ومنه ما يستحب، بحسب حالات الحاكي لذلك والمحكي عنه. فإن كان القائل لذلك ممن يؤخذ عنه ويقتدى به وجب على سامعه الإشارة بما سمع منه والتنفير للناس عنه والشهادة عليه بما قاله. ووجب على من بلغه من المسلمين إنكاره وبيان كفره وفساد قوله بقطع ضرره عن المسلمين، وقيامًا بحق سيد المرسلين ﷺ.

وكذلك إن كان ممن يعظ الناس أو يودب الصبيان، فإن من هذه سريرته لا يؤمن على إلقاء ذلك في قلوبهم فيتأكد في هؤلاء ألاَّ يجاب لِحَقِّ النبي ﷺ ولحق شريعته. وإن لم يكن القائل بهذه السبيل فالقيام بحق النبي ﷺ واجب وحماية عرضه متعين، ونصرته على الأذى حيًّا وميتًا مستحق على كل مؤمن. لكنه إذا قام بهذا من ظهر به الحق وبان به الأمر سقط عن الباقي الفرض، وبقي الاستحباب في تكثير الشهادات عليه، وقد أجمع المسلمون من السلف وغيرهم على بيان حال المتهم في الحديث، فكيف بمثل هذا؟، وقد سئل أبو محمد بن أبي زيد عن الشاهد يسمع مثل هذا في حق الله تعالى، أيمنعه أن لا يؤدِّي شهادته؟ قال: إن رجا نفذ الحكم بشهادته، وكذا إن علم أن الحاكم لا يرى القتل بما شهد به ويرى الاستتابة والأدب؛ فليشهد، ويلزمه ذلك.

وأما الإباحة لحكاية قوله لغير هذين المقصدين فلا أرى لها مدخلاً في هذا الباب، فليس التفكه بعرض رسول الله ﷺ والتمضمض بسوء ذكره لأحد لا ذاكرًا ولا أثرًا لغير غرض شرعي بمباح، وأما للأغراض المتقدمة فهي دائرة بين الإيجاب والاستحباب.

وقد حكى الله تعالى مقالات المفترين عليه وعلى رسله في كتابه على وجه الإنكار لقولهم والتحذير من كفرهم والوعيد عليه والرد عليهم بما تلاه الله علينا في محكم كتابه. وكذلك وقع من أمثاله في أحاديث النبي ﷺ

الصحيحة على الوجوه المتقدمة، وأجمع السلف والخلف من أئمة الهدى على حكايات مقالات الكفرة والملحدين في كتبهم ومجالسهم ليبينوها للناس وينقضوا شبهها عليهم. . . فأما ذكرها على غير هذا من حكاية سبه والإزراء بمنصبه على وجه الحكايات والطرف وأحاديث الناس في الغث والسمين ومضاحك المُجَّان ونوادر السخفاء والخوض في قيل وقال وما لا يعني؟ فكل هذا ممنوع، وبعضه أشد في المنع والعقوبه من بعض.

وقد حكي أن رجلاً سأل مالكًا عمن يقول: القرآن مخلوق؟ فقال مالك: كافر فاقتلوه. فقال: إنَّما حكيته عن غيري. فقال مالك: إنما سمعناه منك.

وهذا من مالك رحمه الله تعالى على طريق الزجر والتغليظ بدليل أنه لم ينفذ قتله وإن اتهم هذا الحاكي فيما حكاه أنه اختلقه ونسبه إلى غيره. . .

وقد ذكر بعض من ألف في الإجماع إجماع المسلمين على تحريم رواية ما هُجِي به ﷺ وكتابته وقراءته. وتركه متى وجد دون محو. ورحم الله تعالى أسلافنا المتَّقين المتحرزين لدينهم فقد أسقطوا من أحاديث المغازي والسِّير ما كان هذا سبيله، وتركوا روايته إلاَّ أشياء ذكروها يسيرة وغير مستبشعة على نحو الوجوه الأول.

حكاية ما يجوز على النبي ﷺ من الأعراض البشرية

الوجه السابع: أن يذكر ما يجوز عليه ﷺ أو يختلف في جوازه عليه، وما يطرأ من الأمور البشرية به ويمكن إضافتها إليه، أو يذكر ما امتحن به وصبر في ذات الله على شدته من مقاساة أعدائه وأذاهم له، ومعرفة ابتداء حاله وسيرته وما لقيه من بؤس زمنه، ومر عليه من معاناة عيشته، كل ذلك على طريق الرواية ومذاكرة العلم ومعرفة ما صحت منه العصمة للأنبياء وما

يجوز عليهم، فهذا فن خارج عن هذه الوجوه المتقدمة؛ إذ ليس فيه غمص ولا نقص ولا إزراء ولا استخفاف.. فقد قال ﷺ مخبرًا عن نفسه برعاية الغنم في بداية أمره على قراريط فقال: «ما من نبي إلاَّ وقد رعى الغنم»[1]. وأخبرنا الله تعالى بذلك عن موسى عليه الصلاة والسلام، وهذا لا غضاضة فيه جملة واحدة لمن ذكره على وجهه، بخلاف من قصد به الغضاضة والتحقير، بل كانت عادة جميع العرب.. نعم، في ذلك للأنبياء حكمة بالغة وتدريج الله تعالى لهم إلى كرامته، وتدريب برعايتها لسياسة أممهم بما سبق لهم من الكرامة في الأزل ومتقدم العلم.

وكذلك قد ذكر الله عزَّ وجلّ يتمه وعيلته على طريق المنة عليه والتعريف بكرامته له، فذكر الذاكر لها على وجه تعريف حاله، والخبر عن مبتدئه، والتعجب من مِنَحِ الله قِبَلَهُ، وعظيم منته عنده ليس فيه غضاضة، بل فيه دلالة على نبوته وصحة دعوته، إذ أظهره الله تعالى بعد هذا على صناديد العرب ومن ناوأه من أشرافهم شيئًا فشيئًا، وتَمَّ أمره حتى قهرهم، وتمكن من ملك مقاليدهم، واستباحة ممالك كثير من الأمم غيرهم بإظهار الله تعالى له وتأييده بنصره وبالمؤمنين، وألف بين قلوبهم، وإمداده بالملائكة المسومين، ولو كان ابن ملك لحسب كثير من الجهال أن ذلك موجب ظهوره، ولهذا قال هرقل لأبي سفيان حين سأله عنه: هل في آبائه من ملك؟ ثم قال: ولو كان في آبائه ملك لقلنا رجل يطلب ملك أبيه[2].

وكذلك إذا وصف بأنه أمي كما وصفه الله تعالى، فهي مدحة له وفضيلة ثابتة فيه، وقاعدة معجزته، إذ معجزته العظمى من القرآن العظيم إنما هي متعلقة بطريق العلوم والمعارف مع ما منح ﷺ وفُضِّل به من ذلك كما

---

(١) تقدم قريبًا ص ٥١٨ ـ ٥١٩.

(٢) تقدم ص ١٤٦، ١٥٧.

قدمناه، فوجود مثل ذلك من رجل لم يقرأ ولم يكتب ولم يدارس ولا لقن: هو مقتضى العجب ومنتهى العبر، ومعجزة البشر. وليس في ذلك نقيصة؛ إذ المطلوب من الكتابة والقراءة المعرفة، والكتابة آلة لها واسطة موصلة إليها، غير مرادة في نفسها، فإذا حصلت الثمرة والمطلوب استُغني عن الواسطة والسبب. والأمية في غيره نقيصه، لأنه سبب الجهالة وعنوان الغباوة. فسبحان من باين أمره ﷺ من أمر غيره، وجعل شرفه فيما فيه محطة سواه، وحياته فيما فيه هلاك من عداه. هذا شقُّ قلبه وإخراج حُشوته كان تمام حياته، وغاية ثبات روعه، وهو فيمن سواه منتهى هلاكه وختم موته وفنائه. وهلّمّ جرًّا إلى سائر ما روي من أخباره وسيره، وتقلله من الدنيا ومن الملبس والمطعم والمركب، وتواضعه ومهنته نفسه في أموره، وخدمته بيته زهدًا ورغبة عن الدنيا، وتسوية بين حقيرها وخطيرها؛ لسرعة فناء أمورها وتقلب أحوالها، كل هذا من فضائله ومآثره وشرفه، فمن أورد شيئًا منها مورده وقصد بها مقصده كان حسنًا، ومن أورد ذلك على غير وجهه، وعُلم منه سوء قصده لحق بالفصول السابقة.

وكذلك ما ورد من أخباره وأخبار سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الأحاديث مما ظاهره إشكال يقتضي أمورًا لا تليق بهم بحال، وتحتاج إلى تأويل وتردد احتمال، فلا يجوز أن يتحدث منها إلاّ بالصحيح، ولا يروى منها إلاّ المعلوم الثابت. ورحم الله تعالى مالكًا فلقد كره التحدث بمثل ذلك من الأحاديث الموهمة للتشبيه والمشكلة للمعنى.. وقد حكي عن السلف جملة أنهم كانوا يكرهون الكلام فيما ليس تحته عمل، والنبي ﷺ أوردها على قوم عرب يفهمون كلام العرب على وجهه وتصرفاتهم في حقيقته ومجازه واستعارته وبلاغته وإيجازه، فلم تكن في حقهم مشكلة، ثم جاء من غلبت عليه العجمة وداخلته الأمية؛ فلا يكاد يفهم

من مقاصد العرب إلاَّ نصها وصريحها. . فتفرقوا في تأويلها أو حملها على ظاهرها، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، فأما ما لا يصح من هذه الأحاديث فلا يجوز أن يذكر منها شيء، لا في حق الله ولا في حق أنبيائه، ولا يتحدث بها ولا يتكلف الكلام على معانيها، بل الواجب طرحها، إلاَّ أن تذكر على وجه التعريف بضعفها.

لا تذكر أحوال النبي ﷺ إلاَّ على وجه التوقير والتعظيم. . .

ومما يجب على المتكلم فيما يجوز عليه ﷺ وما لا يجوز من حالاته السابقة عند المذاكرة أو التعليم أن يلتزم الواجب من توقيره وتعظيمه، وأن يراقب لسانه، وتظهر عليه علامات الأدب عند ذكره ﷺ، فإذا ذكر ما قاساه من الشدائد ظهر عليه الإشفاق، والغيظ على عدوه، ومودة الفداء للنبي ﷺ لو قدر عليه، والنصرة لو أمكنته. وإذا أخذ في أبواب العصمة وتكلم على مجاري أعماله وأقواله ﷺ تحرى أحسن الألفاظ وأدب العبارة ما أمكنه، واجتنب ذلك من العبارة، كلفظة الجهل والمعصية والكذب. فإذا تكلم في الأقوال قال: هل يجوز عليه الخلف في القول والإخبار؟ بخلاف ما وقع سهوًا أو غلطًا ونحوه من العبارة، ويتجنب لفظة الكذب جملة. وإذا تكلم على العلم قال: هل يجوز أن لا يعلم إلاَّ ما علم؟ وهل يمكن أن لا يكون عنده علم من بعض الأشياء حتى يوحى إليه؟ ولا يعبر بالجهل لقبح اللفظ وبشاعته. وإذا تكلم في الأفعال قال: هل تجوز منه المخالفة في بعض الأوامر والنواهي في النواهي ومواقعة الصغائر؟، فهو أولى وآدب من قوله: هل يجوز أن يعصى أو يذنب أو يفعل كذا وكذا من أنواع المعاصي.

فهذا من حق توقيره ﷺ وما يجب له من تعزيز وإعظام. وإذا كان مثل هذا بين الناس مستعملاً في آدابهم وحسن معاشرتهم وخطابهم فاستعماله في

حقه ﷺ أوجب، والتزامه آكد؛ فجودة العبارة تقبح الشيء أو تحسنه، وتحريرها وتهذيبها يعظم الأمر أو يهونه؛ ولهذا قال ﷺ: «إن من البيان سحرًا»[1]. فأما ما أورده على جهة النفي عنه والتنزيه؟ فلا حرج في تسريح العبارة وتصريحها فيه، كقوله: لا يجوز عليه الكذب جملة، ولا إتيان الكبائر بوجه، ولا الجور في الحكم على حال.

ولكن مع هذا يجب ظهور توقيره وتعظيمه وتعزيزه عند ذكره مجردًا، فكيف عند ذكر مثل هذا؟ وقد كان السلف تظهر عليهم حالات شديدة عند مجرد ذكره كما قدمناه في القسم الثاني. وكان بعضهم يلتزم مثل ذلك عند تلاوة آي من القرآن ذكر فيها مقال أعداء الله ومن كفر بآياته وافترى عليه الكذب، فكان يخفف صوته بها إعظامًا لربه وإجلالاً له وإشفاقًا من التشبيه بمن كفر به.

* * *

(١) رواه البخاري في النكاح ١١/ ١٠٧، وفي الطب وفي الأدب، وأبو داود ٥٠٠٧، والترمذي في البر ١٨٧١ بتهذيبي، من حديث ابن عمر، ورواه أحمد، وأبو داود، والبخاري في الأدب المفرد، وغيرهم عن ابن عباس.

الباب الثاني

في حكم سابّه وشانئه ومتنقصه ومؤذيه وعقوبته وذكر استتابته ووراثته

قد قدمنا ما هو سب وأذى في حقه ﷺ، وذكرنا إجماع العلماء على قتل فاعل ذلك وقائله، وتخيير الإمام في قتله أو صلبه.

ثم اعلم أن مشهور مذهب مالك وأصحابه وقول السلف وجمهور العلماء قتله حدًّا لا كفرًا، إن أظهر التوبة منه، ولهذا لا تقبل عندهم توبته، ولا تنفعه استقالته، وحكمه حكم الزنديق ومسر الكفر في هذا القول، وسواء كانت توبته على هذا بعد القدرة عليه والشهادة على قوله، أو جاء تائبًا من قبل نفسه؛ لأنه حد وجب، لا تسقطه التوبة كسائر الحدود.

قال الشيخ أبو الحسن القابسي رحمه الله تعالى: إذا أقر بالسب وتاب منه وأظهر التوبة؛ قتل بالسب لأنه هو حَدُّه. وقال أبو محمد ابن أبـي زيد مثله. وأما ما بينه وبين الله فتوبته تنفعه، وهكذا نقل عن جماعة من أهل العلم.

وهناك قول ثان للعلماء، قالوا: إن مثل ذلك يكون ردة من صاحبه. قالوا: يستتاب من ذلك، فإن تاب نكل، وإن أبـى قتل، فحكم له بحكم المرتد مطلقًا.

قال القاضي رحمه الله تعالى: والوجه الأول أشهر وأظهر.

فإن قيل: فكيف تثبتون عليه الكفر ويشهد عليه بكلمة الكفر ولا تحكمون عليه بحكمه من الاستتابة وتوابعها.

قلنا: نحن وإن أثبتنا له حكم الكافر في القتل فلا نقطع عليه بذلك لإقراره بالتوحيد والنبوة، وإنكاره ما شهد به عليه، أو زعمه أن ذلك كان منه وهلا ومعصية، وأنه مقلع عن ذلك نادم عليه. ولا يمتنع إثبات بعض أحكام الكفر على بعض الأشخاص وإن لم تثبت له خصائصه، كقتل تارك الصلاة. وأما من علم أنه سبه معتقدًا لاستحلاله له فلا شك في كفره بذلك، وكذلك إن كان سَبَّه في نفسه كفر، كتكذيبه أو تكفيره ونحوه، فهذا مما لا إشكال فيه ويقتل وإن تاب منه، لأنا لا نقبل توبته، ونقتله بعد توبته حدًّا؛ لقوله ومتقدم كفره، وأمره بعد إلى الله المطلع على صحة إقلاعه العالم بسره. وكذلك من لم يظهر التوبة واعترف بما شهد عليه به وصمم على ذلك فهو كافر بقوله واستحلاله هتك حرمة الله وحرمة نبيه ﷺ، يقتل كافرًا بلا خلاف.

توبة المرتد

ولقد اختلف السلف في وجوب توبة المرتد وصورتها ومدتها، فذهب جمهور أهل العلم إلى أن المرتد يستتاب. وحكى ابن القصار أنه إجماع من الصحابة على تصويب قول عمر في الاستتابة، ولم ينكره واحد منهم، وهو قول عثمان وعلي وابن مسعود، وبه قال عطاء بن أبي رباح والنخعي والثوري ومالك وأصحابه والأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأي. وذهب أهل الظاهر وغيرهم إلى عدم الاستتابة لقوله ﷺ: «من بدل دينه

فاقتلوه»[1]. وأما مدتها فذهب الجمهور إلى أنه يستتاب ثلاثة أيام يحبس فيها، وهو قول أحمد وأحد قولي الشافعي وإسحاق واستحسنه.

قال مالك رحمه الله تعالى: الذي آخذ به في المرتد قول عمر: يحبس ثلاثة أيام ويعرض عليه كل يوم، فإن تاب، وإلاَّ قتل. وهناك أقوال أخر لغيره. واختلف على هذا: هل يهدد أو يشدد عليه أيام الاستتابة ليتوب أم لا؟، فقال مالك: ما علمت في الاستتابة تجويعًا ولا تعطيشًا، ويؤتى من الطعام بما لا يضره. وقال بعضهم: يوعظ في تلك الأيام، ويُذَكَّر بالجنة ويخوف بالنار.

حكم من لم تتم عليه الشهادة بما قال أو كان في كلامه احتمال

أما من لم تتم الشهادة عليه بما شهد عليه الواحد أو اللفيف من الناس، أو ثبت قوله لكنه محتمل وغير صريح، فهذا يدرأ عنه القتل ويكون أمره تحت نظر الإمام واجتهاده، حسب حاله وقوة الشهادة عليه وضعفها.

الذمي يسب النبي ﷺ صريحًا أو بتعريض أو يستخف بقدره...

هذا حكم المسلم، فأما الذمي إذا صرح بسبه ﷺ أو عرض بذلك أو استخف بقدره أو وصفه بغير الوجه الذي كفر به فلا خلاف عندنا في قتله إن لم يسلم، لأنا لم نعطه العهد على هذا. وهو قول عامة العلماء إلاَّ

---

(١) رواه أحمد رقم ١٨٧١، ١٩٠١، والبخاري في الجهاد وفي استتابة المرتدين ١٥/ ٢٩٥، ٢٩٧، وأبو داود ٤٣٥١، والترمذي ١٣٢٧ كلاهما في الحدود، والنسائي في الدم ٧/ ٩٦، ٩٧، وابن ماجه ٢٥٣٥ من حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما.

أبا حنيفة والثوري وأتباعهما، فإنهم قالوا: لا يقتل، لأن ما هو عليه من الشرك أعظم، ولكن يؤدب. . واستدل بعض شيوخنا على قتله بقوله تعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ ﴾ الآية [التوبة: ١٢].

ويستدل أيضًا لذلك بقتل النبي ﷺ لابن الأشرف وأشباهه؛ لأنهم إذا أتوا على ما لم يعطوا عليه العهد ولا الذمة فقد نقضوا ذمتهم وصاروا كفارًا أهل حرب، يقتلون لكفرهم كما هو صريح الآية الآنفة الذكر. ثم إن ذمتهم لا تسقط حدود الإسلام عنهم من القطع في السرقة والقتل لمن قتلوه وإن كان ذلك حلالاً عندهم، فكذلك سبهم للنبي ﷺ يقتلون به.

ووردت لأصحابنا ظواهر تقتضي الخلاف فيما إذ ذكره الذمي بالوجه الذي كفر به، كما اختلفوا فيه إذا أسلم بعد ذلك فقيل: يسقط عنه ما قال. وقيل: يقتل؛ لأنه حق للنبي ﷺ وجب عليه لانتهاكه حرمته، وقصده إلحاق النقيصة به، كما وجب عليه من حقوق المسلمين قبل إسلامه من قتل وقذف، وإذا كنا لا نقبل توبة المسلم فأن لا نقبل توبة الكافر أولى.

قال مالك وابن القاسم وابن الماجشون وابن عبد الحكم وأصبغ رحمهم الله تعالى ــ فيمن شتم نبينا ﷺ من أهل الذمة أو أحدًا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ــ: قتل إلاَّ أن يسلم.

وقال ابن سحنون وغيره: وحد القذف وشبهه من حقوق العباد لا يسقطه عن الذمي إسلامه، وإنما يسقط عنه بإسلامه حدود الله، فأما حد القذف فحق للعباد، كان ذلك لنبي أو غيره. فأوجب على الذميّ إذا قذف النبي ﷺ ثم أسلم حد القذف، ولكن انظر ما يجب عليه، هل حد القذف في حق النبي ﷺ وهو القتل بإسلامه ويحد ثمانين أم ماذا؟

«حكم ميراث من قتل في سب النبي ﷺ وغسله والصلاة عليه»

اختلف العلماء في ميراث من قُتِل بسبِّ النبي ﷺ، فذهب سحنون إلى أنه لجماعة المسلمين؛ لأنَّ شتم النبي ﷺ كفر يشبه كفر الزنديق. . . وقال أصبغ: ميراثه لورثته من المسلمين إن كان مستترًا بذلك، وإن كان مظهرًا له مستهلاًّ به فميراثه للمسلمين، ويُقتَل على كل حال ولا يستتاب.

وقال أبو الحسن القابسي: إن قتل وهو منكر للشهادة عليه فالحكم في ميراثه على ما أظهر من إقراره، يعني: لورثته. والقتل حَدٌّ ثَبَتَ عليه ليس من الميراث في شيء، وكذلك لو أقرَّ بالسبِّ وأظهر التوبة لقتل؛ إذ هو حدّه، وحكمه في ميراثه وسائر أحكامه حكم الإسلام، ولو أقرَّ بالسب وتمادى عليه وأبى التوبة منه فقتِل على ذلك كان كافرًا، وميراثه للمسلمين، ولا يُغَسَّل ولا يُصَلَّى عليه ولا يُكَفَّن، وتستر عورته ويُوَارَى كما يُفْعَل بالكفّار. . وبهذا قال جماعة من أصحاب مالك رحمه الله تعالى وهو بيِّن واضح.

واتَّفق مالك والشافعي وأبو ثور وغيرهم رحمهم الله تعالى في أنَّ ميراث المرتدّ لجماعة المسلمين ولا ترثه ورثته. واتفق العلماء على أنَّ من تظاهر بالإسلام وأسرّ الكفر أنَّ ماله لورثته من المسلمين.

* * *

الباب الثالث

في حكم من سب الله تعالى وملائكته وأنبياءه وكتبه وآل النبي ﷺ وأزواجه وصحبه

لا خلاف أنَّ ساب الله تعالى من المسلمين كافر حلال الدم، واختلف في استتابته:

فقال مالك وغيره: مَن سبَّ الله تعالى من المسلمين قتل ولم يستتب، إلَّا أن يكون افتراء على الله بارتداده إلى دين دان به وأظهره فيستتاب، وإن لم يظهره لم يستتب..

وكذلك اليهوديّ والنصرانيّ، فإن تابا قبل منهما، وإن لم يتوبا قُتِلا، ولا بدَّ من الاستتابة. وذلك كله كالردة.

وأفتى أبو محمد ابن أبـي زيد رحمه الله تعالى في رجل لعن رجلاً ولعن الله، فقال: إنما أردت أن ألعن الشيطان فزلّ لساني. فقال: يقتل بظاهر كفره، ولا يقبل عذره. وأما فيما بينه وبين الله تعالى فمعذور.

واختلف فقهاء قرطبة في رجل قال عند شفائه من مرضه لقيت في مرضي هذا ما لو قتلت أبا بكر وعمر لم أستوجب هذا كله. فأُقِيمت عليه الشهادة بذلك، فأفتى بعضهم بقتله؛ لأن مضمون قوله نسبة الجور والظلم إلى الله تعالى، والتعريض في ذلك كالتصريح. وأفتى آخرون بحبسه وشدَّة تأديبه لاحتمال كلامه، وصرفه إلى التشكي.

حكم من أضاف إلى الله ما لا يليق به
على سبيل التأويل والاجتهاد

وأما من أضاف إلى الله تعالى ما لا يليق به ليس على طريق السب ولا الردة، ولكن على سبيل التأويل والاجتهاد والخطأ المفضي إلى الهوى والبدعة، من تشبيه أو نعت بجارحة، أو نفي صفة كمال، فهذا مما اختلف فيه السلف والخلف في تكفير قائله ومعتقده. فمنهم من كفرهم، ومنهم من توقف في ذلك، وجاءت عنهم فتاوى وأقاويل في الخوارج والقدرية والروافض والجهمية ونحوهم . . .

وأكثر الفقهاء والمتكلمين على عدم التكفير، وقالوا: إنَّ الكفر خصلة واحدة، وهو الجهل بوجود الباري تعالى، فمن اعتقد أنَّ الله جسم أو المسيح أو بعض من يلقاه في الطريق، فليس بعارف به تعالى، وهو كافر. قالوا: وإدخال كافر في الملة وإخراج مسلم عنها عظيم في الدين، حتى قال بعض المحققين: الذي يجب: الاحتراز من التكفير في أهل التأويل؛ فإنَّ استباحة المصلين الموحدين خطر، والخطأ في ترك ألف كافر أهون من الخطأ في سفك مِحْجمة من دم واحد، وقد قال ﷺ: «فإذا قالوها ــ يعني الشهادة ــ عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاَّ بحقِّها وحسابهم على الله»[1].

فالعصمة مقطوع بها مع الشهادة، ولا ترتفع ويُستباح خلافها إلاَّ بقاطع، ولا قاطع من شرع ولا قياس عليه، وألفاظ الأحاديث الواردة في الباب مُعَرَّضة للتأويل، فما جاء منها في التصريح بكفر القدرية وتسمية الرافضة بالشرك وإطلاق اللعنة عليهم وكذلك الخوارج وغيرهم من أهل الأهواء، فقد يحتج بها من يقول بالتكفير. وقد يجيب الآخرون: بأنَّ هذه

---

(١) تقدم ص ٣١٠، ٣١١ وأوله: «أُمِرْتُ أن أقاتل الناس . . .» إلخ.

الألفاظ قد جاءت في غير هؤلاء من العصاة على طريق التغليظ من باب كفر دون كفر . . . كما جاء ذلك في الرياء والزوجة الناشز والعبد الآبق والمنتسب لغير أبيه وقاتل المسلم، وغير ذلك من المعاصي. وإذا كان محتملاً للأمرين فلا يقطع على أحدهما إلاَّ بدليل قاطع.

فما جاء في الخوارج من قوله ﷺ: «هم شرّ البرية» ــ وهذه صفة الكفار ــ. وقوله: «هم شر من تحت أديم السماء، طوبى لمن قتلهم أو قتلوه». وقوله: «فإذا وجدتموهم فاقتلوهم قتل عاد»[(١)]، وظاهر هذا الكفر لا سيما مع تشبيههم بعاد، فإنما ذلك لخروجهم على المسلمين وبغيهم فقتلهم هنا حد لا كفر، وليس كل من حكم بقتله يحكم بكفره. وقد قال ﷺ لمن قال له: دعني أضرب عنق هذا المنافق: «لعله يصلِّي» وما جاء في باقي أحاديث الخوارج كله يحتمل التأويل.

وعلى كلٍّ، فقد أجمع أهل السنَّة على أنَّ الحقَّ في أصول الدين والمعتقدات واحد وما عداه خطأ وإثم وعصيان وفسوق، وإنما الخلاف في التكفير[(٢)].

---

(١) أحاديث الخوارج وقتالهم وصفاتهم.. جاءت بها الأخبار متواترة، وانظر بعضها عند أحمد ١/ ٩١، ٩٢، و ٣/ ٥٦، ٥٧، و ٥/ ٣١، ٢٥٣، ٢٥٦، وعند البخاري في دلائل النبوة ٧/ ٤٣٠، وفي أحاديث الأنبياء ٧/ ١٨٧، وفي المغازي ٩/ ١٣٠، ١٣١، وفي استتابة المرتدين ١٥/ ٣٢٠، ٣٢٤، ومسلم في الزكاة ٧/ ١٦١، ١٦٧، ١٦٩، ١٧٣، وعند أبي داود ٤٧٦٣، ٤٧٦٨، والنسائي في الكبرى ٥/ ١٥٨، ١٥٩ وغيرهم. وإيراد جميعها يصعب علينا ويخرج بنا عن الموضوع.

(٢) ممن قال بكفرهم ابن جرير الطبري، ثم القاضي أبو بكر ابن العربي، والقرطبي في جماعة، وذهب الغزالي والخطابي وابن بطال وغيرهم إلى عدم تكفيرهم.

بيان ما هو من المقالات كفر
وما يتوقف أو يختلف فيه وما ليس بكفر

إنَّ هذا الموضوع وكشف اللبس فيه مورده الشرع، ولا مجال للعقل والنظر فيه. والفصل البيِّن في هذا:

إنَّ كل مقالة صرحت بنفي الربوبية أو الوحدانية أو عبادة أحد غير الله أو مع الله فهي كفر، كمقالة الدهرية والصابئين[1] واليهود والنصارى والمجوس، والذين أشركوا بعبادة الأوثان أو الملائكة أو الشياطين أو الشمس أو النجوم أو النار أو أحد غير الله، من مشركي العرب وأهل الهند والصين والسودان، وغيرهم ممن لا يرجع إلى كتاب. وكذلك القرامطة، وأصحاب الحلول والتناسخ من الباطنية[2].

وكذلك من اعترف بالإلـٰهية لله ووحدانيته تعالى ولكنه اعتقد أنه غير حي، أو غير قديم، وأنه محدث، أو مصور، أو ادَّعى له ولدًا أو صاحبة أو والدًا، أو متولد من شيء أو كائن عنه، أو أن معه في الأزل شيئًا قديمًا غيره، أو أنَّ ثم صانعًا للعالم سواه، أو مدبرًا غيره، فذلك كله كفر بإجماع المسلمين.

وكذلك من ادَّعى مجالسة الله، والعروج إليه، ومكالمته، أو حلوله في أحد الأشخاص. وكذلك نقطع بكفر من قال بقدم العالم، أو بقائه، أوشك في ذلك على مذهب بعض الفلاسفة والدهرية، أو قال بتناسخ الأرواح وانتقالها أبد الآباد في الأشخاص، وتعذيبها أو تنعمها فيها بحسب زكائها وخبثها.

---

(١) الدهرية الذين ينسبون كل الأشياء إلى الدهر والزمان، ويقولون: إن العالم موجود أزلاً وأبدًا، ولا صانع له. ولا يقولون بوجود الله ولا يعتقدون بعثًا ولا نشورًا، وكانوا يقولون: ما يهلكنا إلاَّ الدهر. والصابئون: قوم من عبدة الملائكة. وقيل غير ذلك.

(٢) القرامطة والباطنية من أخبث فرق الشيعة ولا خلاف في كفرهم.

وكذلك من اعترف بالوحدانية لله، ولكنه جحد النبوة من أصلها أو نبوة نبيّنا ﷺ خصوصًا، أو أحدًا من الأنبياء الذين نصَّ الله عليهم بعد علمه بذلك، فهو كافر بلا ريب كالبراهمة ومعظم اليهود والنصارى وبعض الروافض الزاعمين أنَّ عليًّا كان المبعوث إليه جبريل عليه السلام، وكالمعطلة والقرامطة والإسماعيلية من الرافضة، وإن كان هؤلاء قد أشركوا في كفر آخر مع من قبلهم.

وكذلك من دان بالوحدانية وصحَّة النبوَّة ونبوَّة نبيّنا ﷺ، ولكن جوز على الأنبياء الكذب فيما أتوا به، ادَّعى في ذلك المصلحة في زعمه أو لم يدعها، فهو كافر بالإجماع، كالمتفلسفين وبعض الباطنية والروافض وغلاة المتصوفة وأصحاب الإباحة[1]، فإنَّ هؤلاء زعموا أنَّ ظواهر الشرع وأكثر ما جاءت به الرسل من الأخبار عما كان ويكون من أمور الآخرة والحشر والقيامة والجنة والنار ليس منها شيء على مقتضى لفظها ومفهوم خطابها، وإنما خاطبوا بها الخلق على جهة المصلحة لهم إذ لم يُمكنهم التصريح لقصور أفهامهم، فمضمن مقالاتهم إبطال الشرائع وتعطيل الأوامر والنواهي وتكذيب الرسل والارتياب فيما أتوا به.

وكذلك من أضاف إلى نبيّنا ﷺ تعمُّد الكذب فيما بلغه أو أخبر به أو شك في صدقه أو سبّه أو قال أنه لم يبلِّغ أو استخف به أو بأحد من الأنبياء أو أزرى بهم أو أذاهم أو قتل نبيًّا أو حاربه فهو كافر بالإجماع.

وكذلك نكفر من ذهب مذهب بعض القدماء بأنَّ في كل جنس من الحيوان نذيرًا أو نبيًّا من القردة والخنازير والدواب والدود وغير ذلك،

---

(١) هم قوم من غلاة الصوفية، قالوا: قد يصل السالك إلى مقام يسقط عنه الأمر والنهي والتكاليف الشرعية، وهذه زندقة وانسلاخ من دين الإسلام، والتصوف بريء من هؤلاء.

ويحتج بقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾، إذ ذلك يؤدي إلى أن يوصف أنبياء هذه الأجناس بصفاتهم المذمومة، وفيه من الإزراء على هذا المنصب المنيف ما فيه مع إجماع المسلمين على خلافه وتكذيب قائله.

وكذلك نكفر من اعترف من الأصول الصحيحة بما تقدَّم ونبوَّة نبيّنا ﷺ، ولكن قال: كان أسود أو مات قبل أن يلتحي، أو ليس الذي كان بمكة والحجاز، أو ليس بقرشي؛ لأنَّ وصفه بغير صفاته المعلومة نفي له وتكذيب به.

وكذلك من ادَّعى نبوَّة أحد مع نبيّنا ﷺ أو بعده، كبعض اليهود القائلين بتخصيص رسالته إلى العرب، وكأكثر الرافضة القائلين بمشاركة علي في الرسالة للنبي ﷺ وبعده، وكذا كل إمام عند هؤلاء يقوم مقامه في النبوة والحجة[1]، أو من ادَّعى النبوَّة لنفسه، أو جوَّز اكتسابها والبلوغ بصفاء القلب إلى مرتبتها كالفلاسفة وغلاة المتصوفة، وكذلك من ادَّعى منهم أنه يوحى إليه ولم يدَّع النبوة، أو أنه يصعد إلى السماء ويدخل الجنة ويأكل من ثمارها ويعانق الحور العين. فهؤلاء كلهم كفار يكذبون النبي ﷺ؛ لأنه أخبر ﷺ أنه خاتم النبيين لا نبي بعده، وأخبر عن الله تعالى أنه خاتم النبيين، أنه أرسل كافة للناس. وأجمعت الأمة على حمل هذا الكلام على ظاهره وأنَّ مفهومه المراد به دون تأويل ولا تخصيص، فلا شك في كفر هؤلاء الطوائف كلها قطعًا إجماعًا وسمعًا.

---

(١) فالشيعة الإمامية عندهم أقوال أئمتهم حجة كالقرآن والسنَّة وأنهم في ذلك كالنبي ﷺ، ولذلك كان من معتقداتهم فيهم عصمتهم من المعاصي ومن الخطأ والنسيان، وأنهم أفضل من جميع الأنبياء إلاَّ نبينا ﷺ!! وهذا كله مسطر ومكتوب في أصولهم التي يعتمدون عليها كالكافي للكليني وأمثاله.

وكذلك وقع الإجماع على تكفير كل من دافع نص الكتاب أو خص حديثًا مجمعًا على نقله مقطوعًا به مجمعًا على حمله على ظاهره كتكفير الخوارج بأبطال الرجم، ولهذا نكفر من لم يكفر من دان بغير ملة المسلمين من الملل، أو وقف فيهم، أو شك أو صحح مذهبهم[1]، وإن أظهر مع ذلك الإسلام واعتقده واعتقد إبطال كل مذهب سواه فهو كافر بإظهاره ما أظهر من خلاف ذلك.

وكذلك نقطع بتكفير كل قائل قولاً يُتَوَصَّل به إلى تضليل الأُمَّة وتكفير جميع الصحابة، كقول بعض الرافضة بتكفير جميع الأمة بعد النبي ﷺ إذ لم تقدم عليًّا، وكفرت عليًّا إذ لم يتقدَّم ويطلب حقه في التقديم، فهؤلاء قد كفروا من وجوه؛ لأنهم أبطلوا الشريعة بأسرها، إذ قد انقطع ونقل القرآن، إذ الذين تناقلوه كفرة على زعمهم. وإلى هذا أشار مالك رحمه الله تعالى في أحد قوليه بقتل من كفَّر الصحابة. ثم كفروا من وجه آخر بسبهم النبي ﷺ على مقتضى قولهم وزعمهم أنه عهد إلى عليّ رضي الله تعالى عنه وهو يعلم أنه يكفر بعده على قولهم لعنة الله عليهم وصلَّى الله على رسوله وعلى آله[2].

وكذلك نكفر بكل فعل أجمع المسلمون أنه لا يصدر إلاَّ من كافر، وإن كان صاحبه مصرحًا بالإسلام مع فعله ذلك الفعل، كالسجود للصنم والشمس والقمر والصليب والنار والسعي إلى الكنائس والبِيَع مع أهلها، والتزيِّي بزيّهم من شد الزنانير وفحص الرؤوس، فقد أجمع المسلمون أنَّ هذا لا يوجد إلاَّ من كافر، وأنَّ هذه الأفعال علامة على الكفر، وإن صرَّح فاعلها بالإسلام.

---

(١) فالذين يسوون بين سائر الأديان ممن يدعون الإسلام اليوم كفرة بدون خلاف.

(٢) لا نزال نقرأ لبعض كتاب الشيعة الروافض المعاصرين بأن الصحابة ارتدوا بعد النبي ﷺ إلاَّ نفرًا منهم، فهل بعد هذا يشك في كفر هؤلاء الخبثاء؟

وكذلك أجمع المسمون على تكفير كل من استحلَّ القتل، أو شرب الخمر، أو الزنا، مما حرَّم الله بعد علمه بتحريمه، كأصحاب الإباحة من القرامطة، وبعض غلاة المتصوفة. وكذلك نقطع بتكفير كل من كذب وأنكر قاعدة من قواعد الشرع، وما عرف يقينًا بالنقل المتواتر من فعل الرسول ﷺ، ووقع الإجماع المتصل عليه، كمن أنكر وجوب الصلوات الخمس وعدد ركعاتها وسجداتها، ويقول: إنما أوجب الله علينا في كتابه الصلاة على الجملة، وكونها خمسًا وعلى هذه الصفات والشروط لا نعلمه؛ إذ لم يرد فيه في القرآن نصٌّ جليّ، والخبر به عن الرسول ﷺ خبر واحد.

وكذلك أُجْمِع على تكفير من قال من الخوارج: إنَّ الصلاة طرفي النهار. وعلى تكفير الباطنية في قولهم: إنَّ الفرائض أسماء رجال أمروا بولايتهم، والخبائث، والمحارم أسماء رجال أمروا بالبراءة منهم. وقول بعض المتصوفة: إنَّ العبادة وطول المجاهدة إذا صفت نفوسهم أفضت بهم إلى إسقاطها، وإباحة كل شيء لهم ورفع عهد الشرائع عنهم.

وكذلك إن أنكر منكر مكة أو البيت أو المسجد الحرام أو صفة الحج أو قال: الحج واجب في القرآن واستقبال القبلة كذلك، ولكن كونه على هذه الهيئة المتعارفة، وأن تلك البقعة هي مكة والبيت والمسجد الحرام لا أدري هل هي تلك أو غيرها، ولعلَّ الناقلين أنَّ النبي ﷺ فسَّرها بهذه التفاسير غلطوا ووهموا.

فهذا أو مثله لا مرية في تكفيره إن كان ممن يُظَنُّ به علم ذلك، وممن خالط المسلمين وامتدَّت صحبته لهم، إلَّا أن يكون حديث عهد بإسلام فيقال له: سبيلك أن تسأل عن هذا الذي لم تعلمه بعد كافة المسلمين فلا تجد بينهم خلافًا، كافة عن كافة، إلى معاصر الرسول ﷺ أنَّ هذه الأمور كما قيل لك، وأن تلك البقعة هي مكة والبيت الذي فيها هو الكعبة والقبلة التي صلَّى لها

الرسول ﷺ والمسلمون وحجّوا إليها وطافوا بها، وأنَّ تلك الأفعال هي صفات عبادة الحج والمراد به، وهي التي فعلها النبي ﷺ والمسلمون، وأنَّ صفات الصلوات المذكورة هي التي فعل النبي ﷺ وشرح مراد الله بذلك وأبان حدودها، فيقع لك العلم كما وقع لهم، ولا ترتاب بذلك بعد.

والمرتاب في ذلك والمنكر بعد البحث وصحبة المسلمين كافر باتفاق، ولا يعذر بقوله: لا أدري. ولا يصدق فيه، بل ظاهره التستر عن التكذيب، إذ لم يمكن أنه لا يدري. ثم إنه إذا جوز على جميع الأمة الوهم والغلط فيما نقلوه من ذلك، وأجمعوا أنه قول الرسول وفعله، ونفس مراد الله به: أدخل الاسترابة في جميع الشريعة؛ إذ هم الناقلون لها وللقرآن، وانحلت عرى الدين دفعة واحدة.. ومن قال هذا كافر.

وكذلك من أنكر القرآن أو حرفًا منه أو غيَّر شيئًا منه أو زاد فيه كفعل الباطنية والإسماعيلية من الرافضة[1]، أو زعم أنه ليس بحجة للنبي ﷺ، أو ليس فيه حجة ولا معجز، وأنه لا يدل على الله، ولا حجة فيه لرسول الله ﷺ، ولا يدل على ثواب ولا عقاب ولا حكم.. ولا محالة في كفر من قال ذلك. وكذلك نكفر من أنكر أن يكون في سائر معجزات النبي ﷺ حجة له، أو في خلق السموات والأرض دليل على الله.. لمخالفتهم الإجماع والنقل المتواتر عن النبي ﷺ باحتجاجه بهذا كله، وتصريح القرآن به.

---

(١) هو من عطف العام على الخاص؛ لأن الباطنية تفرعت من الإسماعيلية، ومنهم الفاطميون حكام مصر والمغرب قرونًا، ومنهم القرامطة الذين ظهروا أواخر القرن الثالث وتغلبوا على العباسيين فملكوا العراق والحجاز والشام وغيرها، وكانت فتنتهم عظيمة، وكان في كل من الطريقين باطنية، بل في الفاطميين من أَلَّه، ومن فروع هؤلاء: الدروز الحاليون الذين يعتقدون ألوهية الحاكم بأمر الله الفاطمي.

وكذلك من أنكر شيئًا مما نصَّ فيه القرآن بعد علمه أنه من القرآن الذي في أيدي الناس ومصاحف المسلمين، ولم يكن جاهلاً به ولا قريب عهد بالإسلام، واحتج لإنكاره إما بأنه لم يصح النقل عنده ولا بلغه العلم به، أو بتجويز الوهم على ناقله؛ فنكفره بالطريقين المتقدمين لأنه مكذب للقرآن، مكذب للنبي ﷺ، لكنه تستر بدعواه. وكذلك من أنكر الجنة أو النار أو البعث أو الحساب أو القيامة، فهو كافر بالإجماع؛ للنص عليه وإجماع الأمة على صحة نقله متواترًا. وكذلك من اعترف بذلك ولكنه قال: إنَّ المراد بالجنة والنار والحشر والنشر والثواب والعقاب معنى غير ظاهر، وأنها لذات روحانية ومعان باطنة.. كقول النصارى والفلاسفة والباطنية وبعض المتصوفة.. وزعم أنَّ معنى القيامة الموت أو فناء محض وانتقاض هيئة الأفلاك وتحليل العالم.

وكذلك نقطع بتكفير غلاة الرافضة في قولهم: إن الأئمة أفضل من الأنبياء[1].

فأما من أنكر ما عرف بالتواتر من الأخبار والسير والبلاد التي لا يرجع إلى إبطال شريعة ولا يفضي إلى إنكار قاعدة من الدين، كإنكار غزوة تبوك، أو مؤتة، أو وجود أبي بكر وعمر أو قتل عثمان أو خلافة عليّ، مما علم بالنقل ضرورة، وليس في إنكاره جحد شريعة، فلا سبيل إلى تكفيره بجحد ذلك وإنكار وقوع العلم له، إذ ليس في ذلك أكثر من المباهتة، كإنكار هشامٍ وعبادٍ وقعةَ الجمل ومحاربةَ علي من خالفه[2].

---

(١) وقد نقل الإجماع غير واحد من العلماء على تكفير من فضل أحدًا من البشر على الأنبياء، لأن ذلك يعد تكذيبًا لله تعالى الذي أخبر في كتابه بأنه اصطفاهم واجتباهم على سائر خلقه من العالمين. لكن الشيعة الإمامية لا يستحيون.

(٢) فيما قاله المؤلف هنا نظر؛ فإن إنكار ما ذكر يلزم منه تكذيب الرسول ﷺ فيما =

فأما من ضعف ذلك من أجل تهمة الناقلين، ووهَّم المسلمين أجمع، فنكفِّره بذلك لسريانه إلى إبطال الشريعة.

فأما من أنكر الإجماع المجرَّد الذي ليس طريقه النقل المتواتر عن الشارع؟ فأكثر المتكلمين ومن الفقهاء والنظار في هذا الباب قالوا بتكفير كل من خالف الإجماع الصحيح الجامع لشروط الإجماع المتفق عليه عمومًا، وحجتهم قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ﴾ الآية[1]. وقوله ﷺ: «من خالف الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»[2]. وحكوا الإجماع على تكفير من خالف الإجماع.

وذهب آخرون إلى الوقوف عن القطع بتكفير من خالف الإجماع الذي يختص بنقله العلماء. وذهب آخرون إلى التوقف في تكفير من خالف الإجماع الكائن عن نظر، كتكفير النظَّام بإنكاره الإجماع، لأنه بقوله هذا مخالف إجماع السلف على احتجاجهم به خارق للإجماع.

= تواتر عنه وتكذيب وجود كبار الخلفاء رضي الله تعالى عنهم... ولا فارق بين هذه الأشياء وبين ما قال عقبها.

(١) هذا القول هو الظاهر، والآية واضحة الدلالة فيما قالوا، وقد استدل بها الأصوليون على حجية الإجماع.

(٢) رواه أحمد ٤/ ٢٠٢، والترمذي في الأمثال ٢٦٧٤ بتهذيبي، وابن حبان ١٥٥٠ بالموارد، والحاكم ١/ ١١٧، ١١٨ من حديث الحارث الأشعري، وحسَّنه الترمذي وصحَّحه، وكذا صحَّحه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي.
وقوله: قيد، أي: قدر. وقوله: ربقة، أي: عروة الإسلام. والمراد بالجماعة هنا هم أهل الحق. ولا شك أن العلماء إذا أجمعوا على شيء كان الحق في جانبهم.

وقال القاضي أبو بكر: القول عندي: أنَّ الكفر بالله هو الجهل بوجوده، والإيمان بالله هو العلم بوجوده، وأنه لا يكفر أحد بقول ولا رأي إلاَّ أن يكون هو الجهل بالله عزَّ وجلّ، فإن عصى بقول أو فعل نصَّ الله ورسوله أو أجمع المسلمون أنه لا يوجد إلاَّ من كافر، أو يقوم دليل على ذلك فقد كفر، ليس لأجل قوله أو فعله، لكن لما يقارنه من الكفر.

فالكفر بالله لا يكون إلاَّ بأحد ثلاثة أمور، أحدها: الجهل بالله تعالى. والثاني: أن يأتي فعلاً أو يقول قولاً يخبر الله ورسوله أو يجمع المسلمون أنَّ ذلك لا يكون إلاَّ من كافر، كالسجود للصنم والمشي إلى الكنائس بالتزام الزنار مع أصحابها في أعيادهم، أو يكون ذلك القول أو الفعل لا يمكن معه العلم بالله تعالى. فهذان الضربان وإن لم يكونا جهلا بالله فهما علم أنَّ فاعلهما كافر منسلخ من الإيمان.

فأما من نفى صفة من صفات الله تعالى الذاتية[1]، أو جحدها مستبصرًا في ذلك، كقوله: ليس بعالم، ولا قادر، ولا مريد، ولا متكلم، وشبه ذلك من صفات الكمال الواجبة له تعالى، فقد نصَّ أئمتنا على الإجماع على كفر من نفى عنه تعالى الوصف بها وأعراه عنها. وعلى هذا حمل قوى سحنون: من قال ليس لله كلام فهو كافر، وهو لا يكفر المتأولين كما قدمنا.

فأما من جهل صفة من هذه الصفات؟ فاختلف العلماء ههنا، فكفره بعضهم. وحكي ذلك عن أبي جعفر الطبري وغيره، وهو قول لأبي الحسن الأشعري. وذهبت طائفة إلى أنَّ هذا لا يخرجه عن اسم

---

(١) صفاته تعالى الذاتية هي المتعلقة بذاته: كالحياة والقدرة والإرادة والكلام والعلم والسمع والبصر والعظمة والكبرياء والجلال، وما إلى ذلك.

الإيمان. وإليه رجع الأشعري[1]. قال: لأنه لم يعتقد ذلك اعتقادًا يقطع بصوابه ويراه دينًا وشرعًا، وإنما يكفر من اعتقد أنَّ مقاله حق، واحتج هؤلاء بحديث السوداء[2]، وأنَّ النبي ﷺ إنما طلب منها التوحيد لا غير، وبحديث القائل: «لئن قدر الله عليَّ... ثم قال: فغفر الله له»[3]...

ولو بُوحق أكثر الناس عن الصفات وكوشفوا عنها لما وجد من يعلمها إلاَّ الأقل[4].

---

(١) تكفير من جهل صفاته تعالى يلزم منه تكفير عوام المسلمين كلهم، وهذا خطأ كبير؛ إذ لا يعلم هذه الصفات بالتدقيق والتفصيل إلاَّ من يتعاطى العلم.

(٢) رواه أبو داود في الأيمان والنذور ٣٢٨٣، والنسائي في الوصايا ٦/ ٢١١ من حديث الشريد بن سويد، قال: قلت يا رسول الله، إن أمي أوصت أن أعتق عنها رقبة مؤمنة، وعندي جارية سوداء نوبية، أفأعتقها؟ قال: «ادعها» فدعوتها، فجاءت، فقال: «من ربك؟» قالت: الله. قال: «فمن أنا؟» قالت: رسول الله. قال: «أعتقها فإنها مؤمنة». وسنده حسن.
ونحوه عن معاوية بن الحكم وفيه: فقال لها النبي ﷺ: «أين الله؟» قالت: في السماء. قال: «فمن أنا؟» قالت: أنت رسول الله. قال: «أعتقها فإنها مؤمنة».
رواه أحمد ٥/ ٤٤٧، ٤٤٨، ومسلم في الصلاة ٥/ ٢٠/ ٢٥ مطولاً وغيرهما.
فجعلهما ﷺ بمجرد هذا الإيمان الإجمالي مؤمنتين، ولم يطالبهما بمعرفة تفاصيل الصفات وما يذكره علماء الكلام. وهكذا كان شأنه ﷺ مع كل من كان يدخل في الإسلام لا فرق بين رجالهم ونسائهم وحضريهم وبدويهم، فكان يقبل منهم دخولهم في الإسلام بأي شيء دل على إسلامهم إذا نطقوا بالشهادتين.

(٣) رواه البخاري في ذكر بني إسرائيل ٧/ ٣٣٢، ٣٣٣، ومسلم في التوبة ١٧/ ٧٠، ٧١، ٧٢ وغيرهما من حديث أبي هريرة في قصة الرجل الذي أمر أولاده عند موته أن يحرقوه، ثم يذروه في الريح. وهو وارد عن جماعة: عن أبي سعيد وحذيفة وعقبة بن عمرو الأنصاري، وكلها في الصحيح.

(٤) الأقل ممن يتعاطى العلم. أما العامة فهم بمعزل عن معرفتها إلاَّ على سبيل الإجمال.

وقد أجاب الآخر عن هذا الحديث بوجوه، منها: أن «قدر» بمعنى «قدّر»، ولا يكون شكه في القدرة على إحيائه، بل في نفس البعث الذي لا يعلم إلاَّ بشرع، ولعله لم يكن ورد عندهم به شرع يقطع عليه. . . أو يكون «قدر» بمعنى «ضيّق»، ويكون ما فعله بنفسه إزراء عليها وغضبا لعصيانها. وقيل غير ذلك.

فأما من أثبت الوصف ونفى الصفة فقال: أقول: عالم، ولكن لا علم له، ومتكلم، ولكن لا كلام له، وهكذا في سائر الصفات، على مذهب المعتزلة؟! فمن قال بالمآل لما يؤديه إليه قوله ويسوقه إليه مذهبه كفره، لأنه إذا نفى العلم انتفى وصف عالم؛ إذ لا يوصف بعالم إلاَّ من له علم، فكأنهم صرحوا عنده بما أدى إليه قولهم، وهكذا عند هذا سائر فرق أهل التأويل من المشبهة والقدرية وغيرهم. ومن لم ير أخذهم بمآل قولهم ولا ألزمهم موجب مذهبهم لم ير إكفارهم، قال: لأنهم إذا وقفوا على هذا قالوا: لا نقول ليس بعالم، ونحن ننتفي من القول بالمآل الذي ألزمتموه لنا، ونعتقد نحن وأنتم أنه كفر، بل نقول: إنَّ قولنا لا يؤول إليها على ما أصلناه.

فعلى هذين المأخذين اختلف الناس في إكفارهم أهل التأويل..[1] وإذا فهمته اتضح لك الموجب لاختلاف الناس في ذلك..

والصواب ترك إكفارهم والإعراض عن الحكم عليهم بالخسران، وإجراء حكم الإسلام عليهم في قصاصهم ووراثتهم، ومناكحتهم، وديانتهم، والصلاة عليهم، ودفنهم في مقابر المسلمين، وسائر معاملاتهم، لكنهم يغلظ عليهم بوجيع الأدب، وشديد الزجر والهجر، حتى يرجعوا عن بدعتهم، وهذه كانت سيرة الصدر الأول فيهم، فقد كان نشأ في زمن

---

(١) مع اتفاقهم على ضلالهم وخروجهم عن الحق وبعدهم عن طريق الله القويم.

الصحابة وبعدهم في التابعين من قال بهذه الأقوال من القدر، ورأى الخوارج والاعتزال، فما أزاحوا لهم قبرًا ولا قطعوا لأحد منهم ميراثًا، لكنهم هجروهم[1] وأدَّبوهم بالضرب والنفي والقتل على قدر أحوالهم؛ لأنهم فسَّاق ضلاَّل عصاة أصحاب كبائر[2] عند المحققين وأهل السنَّة ممن لم يقل بكفرهم منهم، خلافًا لمن رأى غير ذلك، والله الموفِّق للصواب.

قال القاضي أبو بكر: وأما مسائل الوعد والوعيد والرؤية والمخلوق وخلق الأفعال وبقاء الأعراض والتولد وشبهها من الدقائق فالمنع في إكفار

---

(١) الأخبار عن السلف في ذلك كثيرة تجد أكثرها في الكتب المؤلفة في السنة، مثل كتاب السنَّة للالكائي ولابن بطة وغيرهما، وحجتهم في ذلك أحاديث نبوية وآثار عن الصحابة رضي الله تعالى عنهم كحديث كعب بن مالك ومهاجرة النبي ﷺ وأصحابه له ولصاحبيه. وحديث مهاجرته ﷺ بعض نسائه؛ حيث سبَّت زوجة أخرى له..

وجاء في صحيح مسلم وغيره أن عبد الله بن عمر تبرأ من القدرية، وجاء عنه في المسند وبعض السنن بسند صحيح أن رجلاً جاءه فقال له: إن فلانًا يقرأ عليك السلام فقال: إنه بلغني أنه قد أحدث، فإن كان أحدث فلا تقرئه مني السلام... إلخ. أحدث، أي: ابتدع بدعة. وجاء في السنَّة من سنن أبي داود عنه ﷺ: «القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم». وسنده صحيح، وانقطاعه لا يضر لطرقه وشواهد له.

وقال الحافظ في الفتح: وقد ذهب الجمهور إلى أنه لا يسلم على الفاسق ولا المبتدع. وقال النووي: وأما المبتدع ومن اقترف ذنبًا عظيمًا.. فلا يسلم عليهم. وقال المهلب: ترك السلام على أهل المعاصي سنَّة ماضية... وقال الطبري: قصة كعب بن مالك أصل في هجران أهل المعاصي. انظر الفتح، كتاب الأدب ١٣/ ١٠٩، والاستئذان ١٣/ ٢٧١.

(٢) وكفاهم بذلك خيبة وخسارة، نعوذ بالله من الضلال والانحراف عن الطريق المستقيم.

المتأولين فيها أوضح، إذ ليس في الجهل بشيء منها جهل بالله تعالى، ولا أجمع المسلمون على إكفار من جهل منها شيئًا...[١].

حكم الذمي الساب لله تعالى

هذا حكم المسلم الساب لله تعالى: أما بالنسبة للذمي:

فورد عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما في ذمي تناول من حرمة الله تعالى غير ما هو عليه من دينه، وحاج فيه، فخرج عليه ابن عمر بالسيف فطلبه فهرب.

وقال مالك وغيره من السلف: من شتم الله من اليهود والنصارى بغير الوجه الذي كفر به؛ قتل ولم يستتب.. إلاَّ أن يسلم. وقالوا: إن الوجه الذي به كفروا هو دينهم، وعليه عوهدوا: من دعوى الصاحبة والشريك والولد، وأما غير هذا من الفرية والشتم فلم يعاهدوا عليه؛ فهو نقض للعهد. قالوا: ومن شتم من غير أهل الأديان الله تعالى بغير الوجه الذي ذكر في كتابه قتل إلاَّ أن يسلم. ولا فرق في هذا بين من سب الله تعالى وسب نبينا ﷺ كما تقدم[٢].

حكم من نفى وجود الله
وافترى عليه بادعاء النبوة أو ادعى الألوهية
أو نفى أن يكون الله خالقه...

هذا حكم من صرح بسب الله تعالى، وإضافة ما لا يليق بجلاله وإلـٰهيته من مسلم وكافر. فأما مفتري الكذب عليه تبارك وتعالى بادعاء الإلـٰهية أو الرسالة، أو النافي أن يكون الله خالقه أو ربه، أو قال: ليس لي

(١) وإنما أصحابها غارقون في البدعة والضلال، وهم هنا المعتزلة والروافض، فهم أهل هذه العقائد الزايغة التي خالفوا فيها الحق وأهله.

(٢) كلامه هذا واضح، فإن الذمي أصل دينه الكفر بالله واتخاذه شريكًا معه ونفيه رسالة نبينا ﷺ له وعلى ذلك عوهد، فإذا خرج عن هذا اعتبر ناقضًا للعهد؛ فيقتل.

رب، أو المتكلم بما لا يعقل من ذلك في سكره، أو غمرة جنونه؟ فلا خلاف في كفر قائل ذلك ومدعيه مع سلامة عقله كما قدمناه. لكنه تقبل توبته على المشهور، وتنفعه إنابته وتنجيه من القتل، لكنه لا يسلم من عظيم النكال؛ ليكون ذلك زجرًا لمثله عن قوله، إلَّا من تكرر ذلك منه وعرف استهانته بما أتى به، فهو دليل على سوء طويته وكذب توبته، وصار كالزنديق الذي لا نأمن باطنه ولا نقبل رجوعه.

وحكم السكران في ذلك حكم الصاحي. وأما المجنون والمعتوه فما علم أنه قاله من ذلك في حالة غمرته وذهاب ميزه فلا نظر فيه، وما فعله من ذلك في حال ميزه وإن لم يكن معه عقله وسقط تكليفه أدب على ذلك لينزجر عنه كما يؤدب على قبائح الأفعال، ويوالى أدبه على ذلك حتى ينكف عنه كما تؤدب البهيمة على سوء الخلق حتى تراض.

وقد أحرق الإمام علي رضي الله تعالى عنه من ادعى له الإلـٰهية[١]. وقتل غير واحد من الخلفاء والملوك وصلبوا من صدر منه شبه ذلك... وأجمع علماء وقتهم على صواب فعلهم. والمخالف في ذلك من كفرهم كافر. وأجمع فقهاء بغداد أيام المقتدر من المالكية وقاضي قضاتها أبو عمر المالكي على قتل الحلاج وصلبه لدعواه الإلـٰهية والقول بالحلول ــ وقوله: أنا الحق ــ مع تمسكه في الظاهر بالشريعة، ولم يقبلوا توبته[٢]. وكذلك حكموا في ابن أبـي العزافير الرافضي المرتد.

وقال أبو حنيفة وأصحابه رحمهم الله تعالى: من جحد أن الله تعالى خالقه أو ربه، ــ أو قال: ليس لي رب ــ فهو مرتد[٣].

---

(١) جاء ذلك في كتاب استتابة المرتدين من صحيح البخاري.

(٢) الحلاج جاءت الأخبار في أحواله متضاربة مدحًا وذمًّا، فالله أعلم بمآله.

(٣) هذا القول لم يختص به الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى، بل هو شيء مجمع عليه.

وقال أبو محمد ابن أبـي زيد رحمه الله تعالى: من لعن بارئه ــ وادعى أن لسانه زل وإنما أراد الشيطان ــ ، يقتل بكفره ولا يقبل عذره، وهذا على القول بأنه لا تقبل توبته.

وقال أبو الحسن القابسي في سكران ــ قال: أنا الله، أنا الله ــ : إن تاب أدب، فإن عاد إلى مثل قوله طولب مطالبة الزنديق؛ لأن هذا كفر المتلاعبين.

حكم من تكلم بِسَقط القول وسَخْفِ اللفظ غير قاصد الكفر والاستخفاف

وأما من تكلم من سقط القول وسخف اللفظ ممن لم يضبط كلامه وأهمل لسانه بما يقتضي الاستخفاف بعظمة الله وجلاله تعالى، أو تمثل في بعض الأشياء ببعض ما عظم الله من ملكوته، أو نزع من الكلام لمخلوق بما لا يليق إلاَّ في حق الخالق سبحانه.. غير قاصد للكفر والاستخفاف، ولا عامد للإلحاد. فإن تكرر هذا منه وعرف به دل على تلاعبه بدينه واستخفافه بحرمة ربه وجهله بعظيم عزته وكبريائه، وهذا كفر لا مرية فيه، وكذلك إن كان ما أورده يوجب الاستخفاف والتنقص لربه.

وقد أفتى ابن حبيب وأصبغ بن خليل من فقهاء قرطبة بقتل المعروف بابن أخي عجب، وكان خرج يومًا فأخذه المطر، فقال: بدأ الخراز يَرُش جلوده وكان بعض الفقهاء بها: أبو زيد صاحب الثمانية، وعبد الأعلى بن وهب، وأبان بن عيسى قد توقفوا عن سفك دمه، وأشاروا إلى أنه عبث من القول يكفي فيه الأدب. وأفتى بمثله القاضي حينئذٍ موسى بن زياد. فقال ابن حبيب: دمه في عنقي، أيُشتم رب عبدناه ثم لا ننتصر له؟ إنا إذًا لعبيد سوء ما نحن له بعابدين. وبكى، ورفع المجلس إلى الأمير بها عبد الرحمن ابن الحكم الأموي، وكانت عجب عمة هذا المطلوب من حظاياه. وأعلم باختلاف الفقهاء، فخرج الإذن من عنده بالأخذ بقول ابن حبيب وصاحبه،

وأمر بقتله. فقتل وصلب بحضرة الفقيهين، وعزل القاضي لتهمته بالمداهنة في هذه القصة، ووبخ بقية الفقهاء وسبهم[١].

وأما من صدرت عنه من ذلك الهنة الواحدة والفلتة الشاردة ما لم يكن تنقصًا وإزراء فيعاقب عليها ويؤدب بقدر مقتضاها، وشنعة معناها، وصورة حال قائلها وشرح سببها ومقارنها.

وقد سئل ابن القاسم رحمه الله تعالى عن رجل نادى رجلاً باسمه، فأجابه: لبيك اللّٰهم لبيك. قال: إن كان جاهلاً، أو قاله على وجه سفه؟ فلا شيء عليه. قال القاضي أبو الفضل رحمه الله تعالى ــ وشرح قوله ــ : أنه لا قتل عليه. والجاهل يزجر ويعلم، والسفيه يؤدب. ولو قالها على اعتقاد إنزاله منزلة ربه؟ لكفر. هذا مقتضى قوله.

وقد أسرف كثير من سخفاء الشعراء ومتهميهم في هذا الباب، واستخفوا عظيم هذه الحرمة، فأتوا من ذلك بما ينزه عنه كتابنا هذا. ولولا أنا قصدنا نص مسائل حكيناها لما ذكرنا شيئًا مما يثقل ذكره علينا.

وأما ما ورد في هذا من أهل الجهالة وأغاليط اللسان، كقول بعض الأعراب:

رَبَّ العباد ما لنا وما لكَ ... قد كنت تسقينا فما بدا لكَ

أنزل علينا الغيثَ لا أبا لكَ

في أشباه لهذا من كلام الجهال الذي لا يصدر إلاَّ من جاهل يجب تعليمه وزجره والإغلاظ له عن العودة إلى مثله[٢]. قال الخطابي رحمه الله: وهذا تهور من القول، والله منزه عن هذه الأمور.

---

(١) رحمه الله تعالى فنعم ما فعل ورضي الله تعالى عن ابن حبيب ومن وافقه على الإفتاء بقتل ذلك المستهزىء الساخر بربه وخالقه، فإن من لا يغار على المقدسات الإلـٰهية لا دين له.

(٢) خطاب الله عز وجل بمثل هذا الهذيان ردة، ولا يكفي فيه الزجر والإغلاظ.

وقد روينا عن عون بن عبد الله أنه قال: ليعظم أحدكم ربه أن يذكر اسمه في كل شيء، حتى لا يقول: أخزى الله الكلب، وفعل به كذا وكذا. وكان بعض من أدركنا من مشايخنا قل ما يذكر اسم الله تعالى إلاَّ فيما يتصل بطاعته، وكان يقول للإنسان: جزيت خيرًا. وقلما يقول: جزاك الله خيرًا. إعظامًا لاسمه تعالى أن يمتهن في غير قربة[1].

حكم من سبَّ سائر الأنبياء والملائكة أو كذبهم أو استخف بهم

وحكم من سب سائر الأنبياء وملائكة الله صلوات الله وسلامه عليهم أو استخف بهم أو كذبهم فيما أتوا به أو أنكرهم وجحدهم هو حكم نبينا ﷺ على حسب ما تقدم.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ . . . ﴾ الآية [النساء: ١٥٠]. وقال تعالى: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٦]. وقال عزَّ وجلّ: ﴿ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

قال مالك وأصحابه رحمهم الله: من شتم الأنبياء أو أحدًا منهم أو تنقصه؛ قتل ولم يستتب. ومن سبهم من أهل الذمة؛ قتل إلاَّ أن يسلم. وقالوا: من سب الأنبياء من اليهود والنصارى بغير الوجه الذي به كفر؛ ضربت عنقه إلاَّ أن يسلم.

وقالوا: من شتم ملكًا من الملائكة؛ فعليه القتل. ومن قال: إن جبريل

---

(١) هذا من كمال حسن الأدب مع الله عز وجل وليس من الواجبات.

عليه السلام أخطأ بالوحي، وإنما كان النبي علي بن أبـي طالب[1]؛ استتيب، فإن تاب وإلاَّ قتل.

وقال أبو حنيفة وأصحابه رحمهم الله تعالى: من كذب بأحد من الأنبياء أو تنقص أحدًا منهم أو برىء منهم؛ فهو مرتد[2].

وقال أبو الحسن القابسي رحمه الله تعالى: من قال لآخر: كأنه وجه مالك الغضبان، لو عرف أنه قصد ذم الملك؛ قتل..

قال القاضي أبو الفضل رحمه الله تعالى: وهذا كله فيمن تكلم فيهم بما قلناه على جملة الملائكة والنبيين، أو على معين مما تحققنا أنه من الملائكة والنبيين ممن نص الله تعالى في كتابه، أو تحققنا علمه بالخبر المتواتر والمتفق عليه بالإجماع القاطع كجبريل وميكائيل ومالك وخزنة الجنة وجهنم والزبانية وحملة العرش المذكورين في القرآن من الملائكة، ومن سمي فيه من الأنبياء، وكعزرائيل وإسرافيل ورضوان والحفظة ومنكر ونكير من الملائكة المتفق على قبول الخبر بهم صلوات الله وسلامه عليهم جميعًا.

فأما من لم تثبت الأخبار بتعيينه ولا وقع الإجماع على كونه من الملائكة أو الأنبياء كهاروت وماروت في الملائكة، والخضر ولقمان وذي النون ومريم وآسية... فليس الحكم في سابهم والكافر بهم كالحكم في غيرهم ممن ثبتت نبوتهم، إذ لم تثبت لهم تلك الحرمة، ولكن يزجر من تنقصهم وآذاهم ويؤدب بقدر حال المنقول فيه، لا سيما من عرفت صديقيته وفضله منهم كالخضر[3] ومريم عليهما السلام.

---

(١) هذا قول بعض كفرة الشيعة، ولا نعلم لهؤلاء وجودًا اليوم.

(٢) هذا إجماع أيضًا، فلا معنى لتخصيص النقل به عن الإمام أبـي حنيفة.

(٣) القول بنبوة الخضر عليه السلام قوي، وقد ألف الناس في إثبات نبوته.
وذي النون هو يونس عليه السلام وهو رسول بالإجماع.

الاستخفاف بالقرآن والطعن فيه أو جحده أو سبه أو تكذيب شيء منه من خبر أو حكم . . .

اعلم: أنَّ من استخف بالقرآن أو المصحف أو بشيء منه أو سبهما أو جحده ولو آية أو حرفًا منه، أو كذب به أو بشيء منه أو كذب بشيء مما صرح به فيه من حكم أو خبر، أو ثبت ما نفاه أو نفى ما أثبته على علم منه بذلك، أو شك في شيء من ذلك؟ فهو كافر عند أهل العلم بالإجماع.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «المراء في القرآن كفر»[١]. وتؤول هذا بمعنى الشكر وبمعنى الجدال.

وهكذا الحال فيمن جحد التوراة والإنجيل وكتب الله المنزلة[٢]، أو كفر بها أو لعنها أو سبها أو استخف بها، فهو كافر.

وقد أجمع المسلمون أن القرآن المتلو في جميع أقطار الأرض المكتوب في المصحف بأيدي المسلمين مما جمعه الدفتان من أول ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ [الفاتحة: ٢]، إلى آخر: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝﴾ [الناس: ١]: أنه كلام الله، ووحيه المنزل على نبينا محمد ﷺ، وأن جميع ما فيه حق. وأن من نقص منه حرفًا ــ قاصدًا لذلك ــ أو بدله بحرف آخر مكانه، أو زاد فيه حرفًا مما لم يشتمل عليه المصحف الذي وقع عليه الإجماع وأُجمع على أنه ليس من القرآن ــ عامدًا لكل

---

(١) رواه أحمد ٢/ ٣٠٠، وأبو داود في السنة ٤٥٩٣، وابن حبان ٥٩/ ١٧٧٩ بالموارد، والحاكم عن أبي هريرة، وسنده حسن، وصحَّحه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي.

(٢) يعني بها غير المبدلة بأيدي اليهود والنصارى.

هذا ــ : أنه كافر[1].

ولهذا رأى مالك رحمه الله تعالى قتل من سب عائشة رضي الله تعالى عنها بالفرية، لأنه خالف القرآن، ومن خالف القرآن قتل؛ لأنه كذب بما فيه.

وقال ابن القاسم وغيره من العلماء من قال: إن الله تعالى لم يكلم موسى تكليمًا؛ يقتل. وكذا قالوا فيمن قال: إن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً.. لأن في كل ذلك تكذيبًا للقرآن ولمن أنزله..

ونصوصهم في هذا الموضوع كثيرة.

حكم من سب آل بيت النبي وأزواجه وأصحابه ﷺ

اتفق العلماء من السلف والخلف من أهل السنة على أن سب آل البيت الأطهار وأزواج النبي ﷺ وأصحابه الكرام رضي الله تعالى عنهم وتَنَقُّصَهم حرامٌ ملعون فاعله.

ففي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «أذكركم الله في أهل بيتي» قالها ثلاثًا[2].

وقال ﷺ: «فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها»[3].

---

(١) فالفرقة الرافضية القائلة بتحريف القرآن هي كافرة، ومن رجع إلى أصول الشيعة كالكافي وغيره وجد العجب من النقول المكذوبة على أئمة أهل البيت في تحريف القرآن، وأن المنافقين ــ يعنون أبا بكر وعمر وعثمان ــ حرفوه بالزيادة والنقصان، وأن القرآن الكامل أخذه معه مهديهم الغائب الذي سيخرج، ويأتي بذلك القرآن فيحكم به... إلى آخر هرائهم ومفترياتهم.

(٢) رواه مسلم وغيره من حديث زيد بن أرقم مطولاً، وقد تقدم.

(٣) رواه أحمد ٤/ ٣٢٨، والبخاري في المناقب ٨/ ٨٧، ١٠٦ وفي مواضع، ومسلم ١٦/ ٢، ٣، ٤، والترمذي ٣٦٣٥، كلاهما في الفضائل من حديث المسور بن مخرمة مطولاً، في إرادة الإمام علي خطبة بنت أبي جهل.

وقال ﷺ: «لا تؤذيني في عائشة»[1].

وقال ﷺ: «دعوا لي أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا لما بلغ أحدهم ولا نصيفه»[2].

وقال ﷺ: «خير الناس قرني ثم الذي يلونهم ثم الذي يلونهم. . .» إلخ[3].

وقال ﷺ: «الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضًا بعدي فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه»[4].

وقد اختلف العلماء رحمهم الله في هذا:

فمشهور مذهب مالك رحمه الله تعالى في ذلك: الاجتهاد والأدب الموجع. قال مالك رحمه الله: من شتم النبي ﷺ قتل، ومن شتم أصحابه

---

(١) رواه البخاري في المناقب ٩/ ١١٠، ومسلم في الفضائل ١٥/ ٢٠٥ من حديث عائشة: أن الناس كانوا يتحرون بهداياهم يوم عائشة. وفيه: فقال: «يا أم سلمة لا تؤذِيني في عائشة. . .» إلخ.

(٢) رواه البخاري ٨/ ٣٣، ومسلم ١٦/ ٩٢، ٩٣ عن أبي سعيد الخدري، ورواه مسلم وغيره من حديث أنس وأبي هريرة.

(٣) رواه أحمد ٤/ ٤٣٦، ٤٤٠، والبخاري ٨/ ٥، ٦، ٧، ومسلم ١٦/ ٨٧، ٨٨، ٨٩، وغيرهما، من حديث عمران بن حصين، وفي الباب عن ابن مسعود عند الشيخين، وأبي هريرة عند مسلم، وعن عائشة عنده أيضًا.

(٤) رواه أحمد ٤/ ٨٧، و ٥/ ٥٤، ٥٧، والترمذي في المناقب من حديث عبد الله بن مغفل، وحسّنه الترمذي. وقد تقدمت ص ٢٨٥، ٣٣٣، ٣٥٥، ٣٥٩.

ففي هذه الأحاديث بيان فضائل الصحابة ورفعة منزلتهم وشرفهم وعظم حرمتهم، وما ذلك إلاَّ لصحبتهم أشرف الخلق وسيّد الثقلين الحبيب سيدنا محمد ﷺ، فتعظيمهم تعظيم لرسول الله ﷺ واحترامهم احترام له، والطعن فيهم وتنقصهم طعن فيه ﷺ وإذابة له.

أدِّب. وقال أيضًا: من شتم أحدًا من أصحاب النبي ﷺ، أبا بكر أو عمر أو عثمان رضي الله تعالى عنه، فإن قال: كانوا على ضلال وكفر؟ قتل[١]، وإن شتمهم بغير هذا من مشاتمة الناس؟ نكل نكالاً شديدًا.

وقال ابن حبيب رحمه الله تعالى: من غلا من الشيعة إلى بغض عثمان والبراءة منه أدب أدبًا شديدًا. ومن زاد إلى بغض أبي بكر وعمر فالعقوبة عليه أشد، ويكرر ضربه ويطال سجنه حتى يموت[٢]. ولا يبلغ به القتل إلاَّ في سب النبي ﷺ.

وقال سحنون رحمه الله تعالى: من كفَّر أحدًا من أصحاب النبي ﷺ عليًّا أو عثمان أو غيرهما يوجع ضربًا.

وحكى أبو محمد بن أبي زيد رحمه الله تعالى عن سحنون فيمن قال في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله تعالى عنهم أنهم كانوا على ضلال وكفر قتل[٣]. ومن شتم غيرهم من الصحابة بمثل هذا نكل النكال الشديد.

وقال مالك رحمه الله تعالى: من سب أبا بكر جلد، ومن سب عائشة قتل. قيل له: لم؟ قال: من رماها فقد خالف القرآن، قال: لأن الله تعالى يقول: ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [النور: ١٧]، فمن عاد لمثله فقد كفر[٤].

---

(١) لأن في ذلك تكذيبًا لله ولرسوله وللإجماع المقطوع به أنهم كانوا على هُدىً ودين واستقامة.

(٢) يا ليتنا لو كان للإسلام دولة لاعتقل وضرب الضرب الشديد كل من ينال من الخلفاء ويلعنهم ويشتمهم.. من شيعة عصرنا الروافض وغيرهم.

(٣) قد أشرنا قبل إلى سبب ذلك.

(٤) وقد قال الله في شأنها وشأن من قذفت به: ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ١١]، وقال =

وحكى أبو الحسن الصَّقَلِّي أن القاضي أبا بكر ابن الطيب قال: إن الله تعالى إذا ذكر في القرآن ما نسبه إليه المشركون سبح نفسه لنفسه، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ﴾ [الأنبياء: ٢٦] في آي كثيرة. ولما ذكر ما نسبه المنافقون إلى عائشة رضي الله تعالى عنها حيث قال: ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ ﴾ [النور: ١٦]، سبح نفسه في تبرئتها من السوء، كما سبح نفسه في تبرئته من السوء، وهذا يشهد لقول مالك في قتل من سب عائشة. ومعنى هذا والله أعلم: أن الله لما عظم سبها كما عظم سبه، وكان سبها سبًّا لنبيه ﷺ، وقرن سب نبيه وأذاه بأذاه تعالى، وكان حكم مؤذيه تعالى القتل، كان مؤذي نبيه كذلك كما قدمناه. وشتم رجل بالكوفة عائشة رضي الله تعالى عنها فقدم إلى موسى بن عيسى العباسي فقال: من حضر هذا؟ فقال ابن أبي ليلى: أنا. فجلده ثمانين وحلق رأسه وأسلمه للحجامين.

وروي عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه نذر قطع لسان عبيد الله بن عمر إذ شتم المقداد بن الأسود. فكلِّم في ذلك فقال: دعوني أقطع لسانه حتى لا يشتم أحدٌ بعدُ أصحاب النبي ﷺ. وجاء عنه أنه أتي بأعرابي يهجو الأنصار، فقال: لولا أن له صحبة لكَفَيْتُكُمُوهُ[1].

قال مالك رحمه الله تعالى: من انتقص أحدًا من أصحاب النبي ﷺ فليس له في هذا الفيء حق، قد قسم الله الفيء ثلاثة أصناف فقال تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ . . . ﴾ الآية، ثم قال: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن

= فيها: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [النور: ٢٣]، وقال: ﴿ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النور: ٢٦]، فمن نال منها بعد هذا ــ بقذف أو نقص أو قال: إنها غير مؤمنة، أو هي في النار ــ : فهو كافر.

(١) أورده الهيثمي في المجمع ٩/ ٤٥ برواية الطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح.

قَبۡلِهِمۡ . . .﴾ الآية، وهؤلاء هم الأنصار رضي الله تعالى عنهم ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ الآية [الحشر: ٨ ــ ١٠]. فمن تنقصهم فلا حق له في فيء المسلمين.

وفي كتاب ابن شعبان رحمه الله تعالى: من قال في واحد منهم أنه ابن زانية وأمه مسلمة: حد عند بعض أصحابنا حدين، حدًّا له، وحدًّا لأمه، ولا أجعله كقاذف الجماعة في كلمة؛ لفضل هذا على غيره. قال: ومن قذف أم أحدهم وهي كافرة حُدَّ حَدَّ الفرية لأنه سب له. فإن كان أحد من ولد هذا الصحابي حيًّا قام بما يجب له، وإلاَّ فمن قام من المسلمين كان على الإمام قبول قيامه. قال: وليس هذا كحقوق غير الصحابة؛ لحرمة هؤلاء بنبيهم ﷺ، ولو سمعه الإمام وأشهد عليه كان ولي القيام به. قال: ومن سب غير عائشة من أزواج النبي ﷺ؟ ففيه قولان: أحدهما: يقتل؛ لأنه سب النبي ﷺ بسب حليلته. والآخر: أنها كسائر الصحابة يجلد حد المفتري. قال ابن شعبان وبالأول أقول[١].

وروى أبو مصعب عن مالك فيمن سب من انتسب إلى بيت النبي ﷺ: يضرب ضربًا وجيعًا ويشهر ويحبس طويلاً حتى تظهر توبته، لأنه استخفاف بحق الرسول ﷺ[٢].

وأفتى أبو المُطرِّف الشعبي فقيه مالقة في رجل أنكر تحليف امرأة بالليل، وقال: لو كانت بنت أبي بكر الصديق ما حلفت إلاَّ بالنهار. وصوب قوله بعض المتَّسمين بالفقه، فقال أبو المطرف: ذكر هذا لابنة أبي بكر في

(١) وهو الذي أختاره، لأن ذلك يعتبر طعنًا في عرض رسول الله وكرامته ﷺ.

(٢) لأن في ذلك إذاية له ﷺ أيضًا مع ما فيه من الاستخفاف به واحتقار جانبه.

مثل هذا يوجب عليه الضرب الشديد والسجن الطويل. والفقيه الذي صوب قوله هو أخص باسم الفسق من اسم الفقه، فيتقدم إليه في ذلك ويزجر، ولا تقبل فتواه ولا شهادته، وهي جرحة ثابتة فيه، ويبغض في الله(١).

وقال أبو عمران في رجل قال: لو شهد عليّ أبو بكر الصديق: أنه إن كان أراد أن شهادته مثل هذا لا يجوز فيه الشاهد الواحد فلا شيء عليه، وإذا كان أراد غير هذا فيضرب ضربًا يبلغ به حد الموت.

قال أبو الفضل رحمه الله تعالى: هنا انتهى القول بنا فيما حررناه، وانتجز الغرض الذي انتحيناه، واستوفى الشرط الذي شرطناه مما أرجو أن يكون في كل قسم منه للمريد مقنع، وفي كل باب منهج إلى بغيته ومنزع.

وإلى الله تعالى جزيل الضراعة والمنة بقبول ما منه لوجهه، والعفو عما تخلله من تزين وتصنع لغيره، وأن يهب لنا ذلك بجميل كرمه وعفوه، لما

---

(١) لأنه بذلك أصبح فاسقًا؛ لاستخفافه بجانب الصديق وابنته رضي الله تعالى عنهما.

خاتمة

لقد ألَّف الحافظ الإمام أبو العباس أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى كتابه العظيم «الصارم المسلول على شاتم الرسول» ﷺ، استوعب فيه كل ما يتعلق بهذه الفصول المذكورة في هذا القسم الرابع فأجاد وأفاد. وهذا الكتاب من أنفس وأفضل وأتقن ما ألَّفه، جزاه الله تعالى عن نبينا وعن الإسلام وعنا خيرًا وغفرله وأعلى مقامه، فلا نعلم لهذا الكتاب في موضوعه ثانيًا فعليك به أيها المسلم.

وبهذا تم هذا التعليق وكان ذلك ضحوة يوم الاثنين ثامن وعشرين من ربيع الأول الأبرك عام عشرين وأربعمائة وألف.

فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وصلَّى الله وسلَّم وبارك على سيدنا محمد وآله وزوجه وصحبه وحزبه بدءًا وعودًا وسبحان الله وبحمده، سبحانك اللَّهمَّ وبحمدك، أشهد أن لا إله إلاَّ أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم.

أودعناه من شرف مصطفاه وأمين وحيه، وأسهرنا به جفوننا لتتبع فضائله، وأعملنا فيه خواطرنا من إبراز خصائصه ووسائله، ويحمي أعراضنا عن ناره الموقدة لحمايتنا كريم عرضه، ويجعلنا ممن لا يُذاد إذا ذيد المُبدِّل عن حوضه، ويجعله لنا ولمن تهمم باكتتابه واكتسابه سببًا يصلنا بأسبابه، وذخيرة نجدها يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرًا نحوز بها رضاه وجزيل ثوابه، ويخصنا بخصيص زمرة نبينا وجماعته، ويحشرنا في الرعيل الأول وأهل الباب الأيمن من أهل شفاعته.

ونحمده تعالى على ما هدى إليه من جمعه، وألهم وفتح البصيرة لدرك حقائق ما أودعناه وفَهَّم، ونستعيذه جل اسمه من دعاء لا يسمع، وعلم لا ينفع، وعمل لا يرفع، فهو الجواد الذي لا يخيب من أمَّله، ولا ينتصر من خذله، ولا يرد دعوة القاصدين، ولا يصلح عمل المفسدين، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلاته على سيِّدنا ونبيِّنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين وسلِّم تسليمًا كثيرًا، والحمد لله رب العالمين.

* * *

وانتهى التهذيب واختصار هذا الكتاب ضحوة يوم الثلاثاء الخامس عشر من ربيع الأول عام عشرين وأربعمائة وألف على يد كاتبه الفقير إلى رحمة ربه عبد الله بن عبد القادر التليدي بطنجة المغرب.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. وصلَّى الله وسلِّم وبارك على سيدنا وحبيبنا محمد وعلى آله وأزواجه وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

* * *

فهرس الأحاديث النبوية

• • •

أحاديث لا تدخل تحت الحروف
مرتَّبة على الموضوعات

فضائله ومعجزاته وصِفاته:

الوفاة النبوية:

منوعات:

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

● ● ●